

الإعجاز

للإمام القرطبي

الأخلاق

بِمَا فِي دَيْنِ النَّصَارَى مِنَ الْفُسَادِ وَالْأَوْهَامِ
وَأَظْهَرَ مُحَاسِنَ دِينِ الْإِسْلَامِ
وَأَثْبَاتِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

تأليف

الامام الفُطُوبِي

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور أحمد مجازي الشقا

الجزء الأول

دار البزات العرني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

صور هذا الكتاب بالميكروفيلم في معهد احياء المخطوطات التابع لجامعة الدول العربية بمصر .. وطبعتنا هذه عن صورة الميكروفيلم - لانه لم يطبع من قبل - وقد كتب المعهد عنه في فهرس كتبه ما نصه :

« ٢٩ - الاعلام بما في دين النصارى من الفساد والاهام . و اظهار محاسن دين الاسلام . واثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام . تأليف القرطبي (؟) وهو رد على كتاب ألفه أحد النصارى سماه : « تثليث الوجدانية » بعث به من « طليطلة » الى مدينة « قرطبة » فرغ منه سنة ٦٨٤ هـ بالكرك المحروس . نسخة كتبت سنة ٨٧٩ بخط نسخ جيد واضح (كوبريللى ٧٩٤ مكرر - ١٠٧ ورقة - ١٨ x ٢٦ سم) « ١٠١ هـ

وقال الكاتب في نهاية كتاب الاعلام هذا : انه فرغ منه سنة سبعمائة وست وعشرون من الهجرة ومعنى هذا : أن القرطبي مؤلف كتاب الاعلام ليس هو القرطبي الامام الفقيه المفسر للقرآن الكريم ، لأن القرطبي الامام الفقيه المفسر توفي سنة ستمائة وواحد وسبعين من الهجرة ، ويؤيد هذا : أن أسلوب مؤلف الاعلام غير أسلوب مفسر القرآن ، وأن ابن فرحون - رحمه الله - في « الديباج المذهب » (١) لم يعد الاعلام من كتب القرطبي المفسر . وأن القرافي الفقيه المتوفى سنة ستمائة وأربعة وثمانين من الهجرة نقل منه عن « أوغسطين » وعن « حفص » .

ويقول « كارل بروكلمان » : ان مؤلف الاعلام هو القرطبي مؤلف تفسير القرآن الكريم لا غيره . ويقول : ان للاعلام نسختين خطيتين في « كوبريللى » الأولى رقمها : سبعمائة وأربعة وتسعين رمز « باء » والثانية رقمها : ثمانمائة وأربعة عشر ، ويعرف بالقرطبي مؤلف الاعلام والتفسير المسمى : « الجامع لأحكام القرآن » والمبين لما تضمن من السنة وآى الفرقان » فيقول : هو شمس الدين : محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح

الأنصارى القرطبي المتوفى سنة ستمائة وواحد وسبعين من الهجرة ، الموافق ألف ومائتين وثلاثة وسبعين من الميلاد • ويؤيده : أن القرافى مات فى نفس السنة التى فرغ منها مؤلف الاعلام كما يقول فهرس معهد المخطوطات عن تاريخ الفراغ ومن المحتمل أن يكون قد نقل عن المؤلف قبل اظهار الكتاب فى دور الكتب ، أو هما معا قد نقلتا عن غيرهما •

ويؤيد « كارل بروكلمان » : الدكتور « زلط » الحاصل على الدكتوراه من كلية أصول الدين جامعة الأزهر فى موضوع : « القرطبي ومنهجه فى التفسير » ويؤيده أيضا : صاحب كتاب « هدية العارفين » •



وهذا الكتاب يشتمل على أربعة أجزاء • ويتضمن أربعة أبواب ، ومقدمة (صدر) •

الباب الأول : فى بيان مذاهب النصارى فى الأقانيم الثلاثة وابطال قولهم فيها • وفى هذا الباب : بين المؤلف : أن أصل الأقنوم (١) عند النصارى هو : « الشئ المستغنى بذاته عن أصل جوهره ، فى اقامة خاصة جوهرية » وأن بعضهم يقول : « ان الأقانيم أسماء أفعال لله تعالى » ورد بقوله : ان أسماء الأفعال أكثر من ثلاثة ، وأن التوراة التى جاء المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام مصححاً لها ومصدقاً غير ناسخ : نصت على أن الله واحد ، وعلى أن الله منزّه عن المثل والشبه (٢) • وفى الانجيل - رغم تحريفه كالتوراة - مثل ما فى التوراة عن الوجدانية وعن عدم مماثلة الله للبشر ، وأنه لا يرى ، ولا يقدر أحد أن يراه •

وذكر القرطبي - رحمه الله - قولهم فى أقانيم الصفات الثلاثة وهى : القدرة والعلم والحياة • أو : الوجود والعلم والحياة • ونقد قولهم هذا •

(١) أصل الأقنوم فى اللغة السريانية : « شخص مستقل بنفسه » وهو هكذا عند الكاثوليك ، الذين يقولون بتميز الأقانيم وانفصال كل أقنوم - أى الله - عن الآخر • ثم استعمل مجازاً فى « مرحلة » من مراحل ثلاثة لذات الله تعالى عند الأرثوذكس ، القائلين بتجسد الله فى شخص المسيح ابن مريم ، أى أن عيسى هو الله الخالق الرازق المحيى المميت - « كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذباً » (الكهف : ٥) •

(٢) فى التوراة : (١) « الرب الهنا رب واحد » (ب) « ليس مثل الله » (انظر سفر تثنية الاشتراع) •

وذكر قولهم في تعليل التثليث ، ورد عليهم فيه • وذكر أدلتهم على التثليث ورد عليها ، وبين أنهم مختلفون في حقيقة الأقانيم اختلافا شديدا •

الباب الثانى : فى بيان مذاهب النصارى فى الاتحاد والحلول وابطال قولهم فيها • وفى هذا الباب : بين المؤلف - رحمه الله - قولهم فى كيفية اتحاد كلمة الله بجسد المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - وقولهم فى معنى الاتحاد ، ورد عليهم • ورد أيضا على قولهم بالواسطة التى تجسدت بين الله - تعالى - وبين موسى - عليه السلام - وهى : كلام الله لموسى فى طور سيناء • وقال : ان كلام الله لم يتجسد • ثم حكى من كلام المتقدمين منهم فى المذهب النصرانى ما يدل على اختلافهم الشديد فى « الاتحاد » •

وفى نهاية الباب : ذكر مذهب « أوغسطين » الذى وضحه فى مصحف « العالم الكائن » ونقده نقدا شديدا - وبانتهاء الباب الثانى ينتهى **الجزء الأول -** •

الباب الثالث : فى النبوات وذكر كلام النصارى فيها • وهذا الباب ينقسم الى قسمين :

القسم الاول : حكى القرطبى - رحمه الله - فيه كلام مؤلف « تثليث الوجدانية فى معرفة الله » فى أمر « المسيح المنتظر » الذى هو « المسيا » الذى تشير اليه نبوءات : (١) التوراة (الأسفار الخمسة) (ب) وأسفار الأنبياء ، وبين أنه عيسى ابن مريم - عليه السلام - والحق : أنه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم •

ثم نقل القرطبى - رحمه الله - قول مؤلف « تثليث الوجدانية فى معرفة الله » « للمسلمين » : « وان كان فيها - أى فى التوراة - محمد منتظرا • ثم وافقت علاماته ، علامات الكتب ، فقد أصاب المسلم ، ولزم النصرانى - الخروج عن رضا معبوده » ورد القرطبى - رحمه الله - عليه : بأن التوراة والانجيل - رغم تحريفهما - فيهما ذكر لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وبأن التوراة والانجيل فيهما تحريف لفظى ومعنوى ، ويحتمل مع هذا التحريف سقوط نبوءات عن محمد كانت واضحة عنه ، وحكى القرطبى أيضا سخرية مؤلف تثليث الوجدانية عن « هاجر » - رضى الله عنها - أم اسماعيل النبى - عليه السلام - ورد عليها بنصوص من التوراة تدل على أنها صديقة •

والقسم الثانى : ذكر فيه المؤلف معنى « النبوة » ومعنى « المعجزة » وبين أن معجزات عيسى - عليه السلام - لا تدل على الوهية ، بل على نبوته - وعند هذا الحد ، انتهى **الجزء الثانى -** •

وذكر المؤلف في القسم الثانى أيضا أربعة أنواع لاثبات نبوة نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - .

النوع الأول : من الأدلة على ثبوت نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - اخبار الأنبياء به قبله .

النوع الثانى : الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله - صلى الله عليه وسلم - .

النوع الثالث : الاستدلال على نبوته - صلى الله عليه وسلم - بالكتاب العزيز الذى « لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (فصلت : ٤٢) أى باعجاز القرآن .

النوع الرابع : فى الاستدلال على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - بجملة من الآيات الخارقة للعادات - وبانتهاء هذا النوع ينتهى الجزء الثالث -

الباب الرابع : فى بيان أن النصارى متحكمون فى أديانهم ، وأنهم لا مستند لهم فى أحكامهم الا محض أغراضهم وأهوائهم . وهذا الباب يشتمل على :

١ - مقدمة . - بين فيها أن النصارى ليسوا على شىء ، وأنهم خرجوا على تعاليم التوراة وخرجوا على تعاليم الانجيل الذى قال فيه عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس » .

٢ - ويشتمل على فنين :

الفن الأول : ذكر فيه من أسرار الكنيسة السبعة (١) ، وذكر فيه من الشعائر النصرانية والطقوس .

والفن الثانى : ذكر فيه عقائد الاسلام ، وأصول أحكامه ، ورد فيه على شبه النصارى على الاسلام - وبانتهاء الباب الرابع ينتهى الجزء الرابع - وهو الأخير - من هذا الكتاب المفيد .



(١) أسرار الكنيسة السبعة هى : ١ - سر المعمودية ، وهى عند الارثوذكس بالتغطيس فى الماء ، وعند الكاثوليك بالرش ٢ - سر المسحة ٣ - سر القربان ٤ - سر التوبة ٥ - سر مسحة المرضى ٦ - سر الزواج ٧ - سر الكهنوت .

وانه لكتاب مفيد في « علم مقارنة الأديان » لأن مؤلفه رد فيه على كتب كثيرة ورسائل للنصارى ، نصارى الكاثوليك في الأندلس ، وما حولها من القرى . ومن الكتب والرسائل التى رد عليها : كتاب « المسائل » وكتاب « الحروف » وكتاب « تثليث الوجودانية في معرفة الله » ومصحف « العالم الكائن » (١) للقديس أوغسطين ، فيلسوف النصرانية ، وكتب من تأليف القسيس « حفص بن البر » (٢) ورسالة الأسقف « ليون » الى أساقفة « صقلية » وقوانين أساقفة « الأندلس » للرعية ، و « بليون الجاثليق » في رسالته لـ « ليون » الملك . . . الخ .

ومؤلفه من العلماء الأنكياء ، الذين لهم حظ من حفظ نثر وشعر ، وأمثال وحكم ، وقرآن وسنة ، فتحدث بأسلوب أدبى راقى ، ووضع الكلمة في موضعها المناسب ، وأحسن عرض الأفكار ، وأحكم الرد في كثير من المسائل .



وما كنت أنوى اخراج هذا الكتاب ، لانى أخرجت كتباً كثيرة في موضوعه . منها : « اظهر الحق » للشيخ رحمت الله الهندي (١٢٣٣ - ١٣٠٨ هـ) الذى اطلع على كتاب الاعلام هذا في « تركيا » أثناء مقامة في ضيافة الخليفة عبد العزيز خان - رحمه الله - ونقل منه حساب « الجمل » وضم القديس « بولس » وصاغ كتابه على مثاله (٣) . ومنها : « شفاء الغليل في بيان ما وقع في التوراة والانجيل من التبديل » للجوينى عبد الملك أبى المعالى ، امام الحرمين . ومنها : « منظومة الامام الأبوصيرى في الرد على النصارى واليهود » تأليف الأبوصيرى ناظم بردة المديح المباركة . ومنها كتاب : « على التوراة » للامام الباجى الشافعى ، وقد ألفه في « الكرك » بالأردن ، في نفس المكان الذى ألف فيه الاعلام . ومنها كتاب « الفصل » في الملل والأهواء والنحل « لابن حزم - الجزء الخاص بنقد التوراة والانجيل - ومنها كتاب « هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى » لابن قيم الجوزية .

(١) يقال : ان هذا الكتاب مفقود الى اليوم .
(٢) حفص بن البر ، هكذا كتب . وكتب أيضا : حفص بن البرقى .
(٣) واطلع عليه ونقل منه أيضا الامام القرافى مؤلف كتاب : (الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة) ، نقل من كلام حفص ومن أوغسطين فى مصحف العالم الكائن . والقرافى - رحمه الله - مات في سنة (٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م) وهو مصرى المولد والمنشأ والوفاة .

ولكنى أخرجته لحبى لاستاذى الجليل ، الأستاذ الدكتور الشيخ :
عبد الغنى عوض الراجحي ، وتقديرى له . فانى لما رايت أسلوب المؤلف
كأسلوبه فى الحديث الشفهى ، وفى التأليف ، رأيت للذكرى أن أخرج
ليتجلى للناس مظهر من مظاهر قدرة الله فى خلقه وهو تشابه رجلين فى
عصرين مختلفين فى العقل والنطق ، ولا يمكن أن يحدث هذا ومثل هذا
من غير أن يكون وراء الكل مدبر حكيم ، وهو الله عز وجل .

يمتاز مؤلف الكتاب ، وأستاذنا مثله : بحبه للمعرفة ، وتأكده منها ،
ثم حماسه لنشرها ، حماس المتعل الفطن ، الذى يجعل الكلام فى النظريات
— كما يقول القديس « أوغسطين » فى مصحف العالم الكائن — « على
منازل ودرجات ، ليكون من اجتمع معنا فى الدرجة الأولى ، تكلمنا معه فى
الدرجة الثانية ، ومن اجتمع معنا فى الدرجة الثانية تكلمنا معه فى الدرجة
الثالثة ، ثم نمضى كذلك الى أقصى نهايات الكلام . فانما يكون فساد
الكلام وتناقضه واشتباهه من قبل النقص فى معرفة هذه الدرج . لانا
متى ناظرنا فى الدرجة الثانية ، من لم يجتمع معنا فى الأولى ، لم يبلغ الكلام
غاية ، ولم يقف على نهاية » ١٠ هـ .

وبهذا كان يقول الدكتور عبد الغنى (١) — أعزه الله — .



وقد رأيت أن أكتب فى هذا التقديم : مبحثين . المبحث الأول : (أصل
الأقانيم وتطورها) والمبحث الثانى : (المسيا المنتظر) (٢) الذى هو (المسيح)
لأن مؤلف الاعلام ترك شيئا وغابت عنه أشياء . وبذلك نكون معا قد
وضعنا الرد التفصيلى ، المحكم بالأدلة : على النصارى .

(١) الدكتور عبد الغنى . لم يقتصر على فهم العلوم التى تدرس فى
الأزهر وهى الفقه والنحو . . . الخ بل درس الكيمياء والطبيعة وعلم
الأحياء . . . الخ العلوم الحديثة . وكان يفهمها للأزهريين بأسلوب واضح
على نظرية « أوغسطين » فاستطاعوا أن يفهموها ، ولم يكن جامدا على
القديم ، بل كان يجتهد ويخرج بأراء فى الفقه والتفسير وغيرهما تجعله
من الأئمة المجتهدين ، وما كان يذم عالما للسمع عنه ، بل اذا سمع
طلب الكتاب الذى فيه رأى ، الذى قيل فيه الذم من أجله ، وينظر فيه
بنفسه ، ثم يقول ما يقول عن علم ، لا عن سماع . ولذلك هو أول أزهري
أنصف الشيخ محمد عبده ومدرسته وأعطاهم حقهم من التقدير والاحترام
والاحترام — جزاه الله خير الجزاء وأكثر من أمثاله — وقال للجامدين من
الأزهريين : « موتوا بغيظكم » (آل عمران : ١١٩) .
(٢) بفتح الميم وكسر السين وتشديد الياء مفتوحة .

أصل الأتانيم وتطورها

الاتانيم عند النصارى ثلاثة : هي أقنوم الآب - بمصد الهمزة ، ونطق الباء نطقا خفيفا - وأقنوم الابن ، وأقنوم الروح القدس . وأصل « الآب » عندهم : لقب لله عز وجل وهو يساوى الآب . وأصل « الابن » عندهم : لقب للنبي المنتظر في الزمور الثانى لداود عليه السلام . ذلك لأنهم يقولون : « نحن أبناء الله وأحباءه » (المائدة : ١٨) كما حكى القرآن عنهم ، ولما أرادوا جعل النبي المنتظر الذى أخبر موسى عليه السلام أنه سيأتى من نسل اسماعيل عليه السلام : نبيا منهم أنفسهم لا من نسل اسماعيل ، وضعوا عليه لقب « ابن » كما يلقبون أنفسهم ليوهموا العالم أنه سيكون منهم لا من نسل اسماعيل . وأصل « الروح القدس » عندهم : لقب للنبي المنتظر أيضا في الاصحاح الرابع عشر من انجيل يوحنا ، فقد روى عن عيسى - عليه السلام - : « بيركلييت (١) الروح القدس » وبيركلييت : اسم أحمد - صلى الله عليه وسلم - والروح القدس : لقب لأحمد ، أى أحمد المصطفى نبيا من الله القدوس الطاهر . ولما أرادوا ختم النبوة بعيسى - عليه السلام - جعلوه هو « الابن » وجعلوه هو « الروح القدس » أى لقبوه بلقبى « الابن » و « الروح القدس » بعدما جعلوه هو الله « الآب » وغرضهم من ذلك : قفل باب النبوة في وجه محمد - صلى الله عليه وسلم - .

وبيان ذلك :-

لقد كتبوا - ونحن نجادلهم بما كتبوا بغض النظر عن صحتته - أو عدم صحتته ، لأنهم يعتقدون في صحة المكتوب - كتبوا في توراة موسى في سفر التثنية في الاصحاح الرابع عشر أن الله - تعالى - خاطب اليهود بقوله : « أنتم أولاد للرب الهكم » (تث ١٤ : ١) واليهود خاطبوا الله بقولهم : « أنت يا رب أبونا » (أشعيا ٦٣ : ١٦) واليهود يقولون : ان الأبوة والبنوة مجازية ، أى أن الله تعالى ولى النعم وصاحب الفضل وهم ينتسبون إليه .

(١) بيركلييت ، جاءت في الكتاب أيضا « فيرقليط » ثم حرفوها الى « فارقليط » (باركلييت) ثم حذفوها الآن من بعض الطباعات وكتبوا بدلها « المعزى » بضم الميم وفتح العين وتشديد الزاى مكسورة .

يقول شيخ الاسلام الامام ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ - يرحمه الله - في ذلك المعنى : « لفظ الابن يعبر به عن ولد الولادة المعروفة ، ويعبر به عن كان هو سببا في وجوده ، كما يقال : « ابن السبيل » لمن ولدته الطريق ، فانه لما جاء من جهة الطريق جعل كانه ولده ، ويقال لبعض الطير : « ابن الماء » لانه يجىء من جهة الماء . ويقال : « كونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا » فان الابن ينتسب الى أبيه ويحبه ويضاف اليه أى كونوا ممن ينتسب الى الآخرة ويحبها ويضاف اليها . وهذا اللفظ موجود في الكتب التي بأيدي أهل الكتاب في حق « الصالحين » الذين يحبهم الله ويرببهم ، كما ذكروا أن المسيح قال : « أبى وأبيكم ، والهى والهكم » (يوحنا ٢٠ : ١٧) وفي التوراة : أن الله قال ليعقوب : « أنت ابنى بكرى » (خروج ٤ : ٢٢) ونحو ذلك مما يراد به - اذا كان صحيحا له معنى صحيح - : المحبة له والاصطفاء والرحمة له ، وكان المعنى مفهوما عند الأنبياء - عليهم السلام - ومن يخاطبونه ، وهو من الألفاظ المتشابهة ، فصار كثير من أتباعهم يريدون به المعنى الباطل « (١) » ٥١ هـ

يقول اليهود بذلك لأن الآيات المحكمة في التوراة تدل على أن الله واحد وليس كمثله شيء . ولم يره أحد ، ولن يقدر أحد على رؤيته . ففي الاصحاح السادس من سفر التثنية : « اسمع يا اسرائيل . الرب الهنا رب واحد » (٢) وفي الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية : « ليس مثل الله » وفي الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر الخروج قال الله لموسى : « لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الانسان لا يرانى ويعيش » وقال النصارى الأوائل - الذين كانوا في الزمن من قبل التحريف بقول اليهود ، لأن عيسى نبيهم قال لهم : ما جئت لأنسخ التوراة . وفي الانجيل المتداولة الى اليوم في أيديهم رغم تحريفها دلائل على التوحيد والتنزيه . ففي الاصحاح الثانى عشر من انجيل مرقس : نجد كاتباً (عالماً) من علماء اليهود يسأل عيسى - عليه السلام - عن الوجدانية فيجيبه بأن الله واحد كما قال في التوراة موسى عليه السلام . يقول مرقس : « فجاء واحد من الكتبة ، وسمعهم يتحاورون . فلما رأى أنه أجابهم حسناً . سأل : أية وصية هى أول الكل ؟ فأجابه يسوع : ان أول كل الوصايا هى : اسمع يا اسرائيل : الرب الهنا رب واحد ، وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - ابن تيمية صفحة ٣٤٦ جزء ٢ .

(٢) وقد استدلل عيسى بهذه الآية على أن الله واحد كما جاء في الاصحاح الثانى عشر من انجيل مرقس ، وورد أيضا عنه في متى ولوقا .

فكرك • هذه هي الوصية الاولى « وقد ذكر يوحنا في الاصحاح الاول من انجيله أن : « الله لم يره أحد قط » كما جاء في التوراة •

وسبب تنبؤ داوود عليه السلام عن النبی المنتظر ، وهو متبع للتوراة ، غير خارج عنها :

أن الله تعالى وعد ابراهيم (١) النبی - عليه السلام - ببركة الأمم في ولديه : اسماعيل واسحاق - عليهما السلام - وأكد على ذلك في أكثر من آية • فعن اسماعيل - عليه السلام - قال الله لابراهيم : « وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه • ها أنا أباركه » (تكوين ١٧ : ٢٠) وقال ملاك الله لهاجر - رضى الله عنها - : « ها أنت حبلى فتلدین ابنا ، وتدعین اسمه اسماعيل • لأن الرب قد سمع لمذلتك • وأنه يكون انسانا وحشيا ، يده على كل واحد ، ويد كل واحد عليه » (تكوين ١٦ : ١١ - ١٢) وعن اسحاق - عليه السلام - قال الله له : « أنا اله ابراهيم أبیک • لا تخف • لأنی معك • وأبارکک • وأكثر نسلک • من أجل ابراهيم عبدي » (تكوين ٢٦ : ٢٤) ومعنى البركة : ١ - أن يكون من النسل ملوك على الشعوب • ليحكموا الناس بشريعة الله حتى يحكم الناس أنفسهم ٢ - وأن يكون من النسل نبی يصطفيه الله ويعطيه شريعة ليتحاكم بها الناس •

وبدأت البركة في نسل اسحاق أولا ، فقد اصطفى الله ولده يعقوب • عليه السلام لتحل البركة فيه ، واصطفى من آل يعقوب (اسرائيل) موسى • ابن عمران وأعطاه : التوراة « موعظة وتفصيلا لكل شيء » (الأعراف : ١٤٥) وجعل من بنى اسرائيل : أنبياء ، لكن على شريعة موسى لا ينسخونها ولا يخرجون عنها ، وجعل منهم ملوكا على الشعوب كما قال تعالى : « واذا قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم أنبياء ، وجعلكم ملوكا ، وآتاكم مالم يؤت احدا من العالمين » (المائدة : ٢٠) لقد جعل فيهم أنبياء وملوكا لتحقيق بهم بركة ابراهيم في الأمم •

(١) يلقب النصراني ابراهيم عليه السلام بلقب « بطريك » لانه رئيس الآباء ، وكلمة بطريك من أصل يوناني (PATRIARCHES) وهي تتكون من مقطعين (PATRIA) أى عائلة و (ARCHE) أى رئيس •

ثم نبه الله - على لسان موسى - على مجيء نبي من اسماعيل ،
تنتهي بمجيئه بركة ابراهيم في الأمم بآل اسحاق ، وتبدأ بمجيئه بركة
ابراهيم في الأمم بآل اسماعيل ، هو محمد صلى الله عليه وسلم ، كما كان
موسى عليه السلام في آل اسحاق . قال موسى - عليه السلام - : « يقيم لك
الرب الهك : نبيا ، من وسطك ، من اخوتك ، مثلى . له تسمعون حسب
كل ما طلبت من الرب الهك في حوريب يوم الاجتماع ، يوم قلت : لا أعود
أسمع صوت الرب الهى ، ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت .
قال لى الله : قد أحسنوا فيما تكلموا . أقيم لهم : نبيا ، من وسط اخوتهم ،
مثلك ، وأجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به .

ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطلبه .
وأما النبى الذى يطفى ، فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى
يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى (١) . وإن قلت فى قلبك :
كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ فما تكلم به النبى باسم
الرب ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل
بطينان تكلم به النبى ، فلا تخف منه » (تث ١٨ : ١٥ - ٢٢) .

ومعنى : « كالذى سألت الله ربك فى حوريب ، يوم الاجتماع ، يوم
قلت : لا أعود أسمع صوت الله ربى ، ولا أرى هذه النار العظيمة فأموت »
« إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام - كما كتبوا - : « ها أنا آت إليك
فى ظلام السحاب ، لكى يسمع الشعب حينما أتكلم معك ، فيؤمنوا بك »
(خروج ١٩ : ٩) ولما جمع موسى الشعب نحو جبل حوريب ، أى جبل
طور سيناء « كان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق
والجبل يدخن ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد . وقالوا لموسى :
تتكلم أنت معنا فنسمع ، ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت » (خروج ٢٠ :
١٨ - ١٩) فقال الله لهم : حسنا قلتُم . وإذا أردت مخاطبتكم فسارسل
إلکم نبيا مثل موسى له تسمعون وتطيعون .

وهذه النبوة تنطبق على محمد - صلى الله عليه وسلم - وهى المشار
إليها فى الآية السابعة والخمسين بعد المائة فى سورة الأعراف ، ووجه
دلالتها عليه : أنها تحدد تسعة أوصاف للنبى المنتظر كلهم فيه صلى الله
عليه وسلم :

(١) فى التوراة السامرية ، وفى ترجمة اليسوعيين : « فليقتل ذلك

النبى » .

- ١ - نبي « يقيم لك الرب الهك نبيا » .
- ٢ - من بنى اسماعيل « من اخوتك » لان اسحاق اخ لاسماعيل .
ولاسماعيل بركة مثل بركة اسحاق .
- ٣ - مثل موسى « مثلي » وفي الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية « لن يقوم في اسرائيل نبي كموسى » اذن الاتى هو من اسماعيل .
- ٤ - ينسخ شريعة موسى « له تسمعون » .
- ٥ - أمى ، لا يقرأ ولا يكتب « واجعل كلامى فى فمه » .
- ٦ - أمين على الوحي الالهى « فيكلّمهم بكل ما أوصيه به » .
- ٧ - يزيل ملك بنى اسرائيل من العالم ، أى ينهى البركة فيهم :
« ويكون أن الانسان - من اليهود - الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى . أنا أطلبه » أى الله ينتقم من الذى لا يسمع على يديه وأيدى أتباعه .
- ٨ - لا يقتل « وأما النبي الذى يطغى ، فيتكلم باسمى كلما لم أوصى . أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى ، فيموت ذلك النبي » .
- ٩ - يتحدث عن مغيبات ، وتحدث فى المستقبل ، كما قال : « وان قلت فى قلبك : كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب ؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر ، فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، بل بطغيان . تكلم به النبي . فلا تخف منه » .



هذا النبي الذى تنبأ عنه موسى عليه السلام ووصفه بالأوصاف التسعة : كتب عنه اليهود نبوءة فى سفر المزامير (الزبور) ولقبوه بلقب « ابن الله » . ليوهموا الناس أن النبي المنتظر الذى تنبأ عنه موسى فى التوراة سيكون من بنى اسرائيل لا من بنى اسماعيل . ونص النبوءة ، وهى فى الزبور الثانى : « لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب فى الباطل ؟ قام ملوك الأرض ، وتآمر الرؤساء معا ، على الرب ومسيحه . قائلين : لنقطع قيودهما ، ولنطرح عنا ربطهما » .

الساكّن فى السموات يضحك . الرب يستهزئ بهم ، حينئذ يتكلم عليهم بغضبه ، ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون . جبل موسى .

انى أخبر من جهة قضاء الرب • قال لى : أنت ابنى ، أنا اليوم ولدتك • اسألنى فأعطيك الأمم ميراثا لك ، وأقاصى الأرض ملكا لك ، تحطمهم بقضيب من حديد • مثل اناء خراف تكسرهم •

فالآن • يا أيها الملوك تعقلوا • تأدبوا يا قضاة الأرض • اعبدوا الرب • بخوف ، واهتفوا برعدة ، قبلوا الابن لئلا يغضب ، فتبديدوا من الطريق ، لأنه عن قليل يتقد غضبه ، طوبى لجميع المتكلمين عليه « ١٠١ هـ (المزمور الثانى : ١ - ١٢) •

ومعنى النبوة : أن أمم الأرض سيفكرون فى القضاء على النبى المنتظر ودعوته • هذا النبى الملقب منهم بلقب « مسيح » وبلقب « ابن الله » لكن « الله يستهزئ بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » (البقرة : ١٥) ، ثم ينصر نبيه ، ويملكه على البلاد ، خاصة البلاد التى فيها جبل « صهيون » فى أرض فلسطين •

ويقول داوود - ان كان هو القائل - : انى أخبر بما قضى الله أزلا ، وقدر ، انى أخبر : أن الله قال عن النبى المنتظر ، الملقب بلقب « مسيح » قال عنه : « أنت ابنى » أى « اصطفييتك على الناس برسالاتى وبكلامى » (الأعراف : ١٤٤) « أنا اليوم ولدتك » أى قدرت وجودك فى العالم من قبل أن تخلق ، وسوف يمتد ملكك الى أقصى الأرض ، وسوف تنقشر أتباعك فى كل مكان •

انى أعظكم أيها الناس : أن تقبلوا دين هذا النبى ، وأن تعملوا به ، لئلا تهلكوا •

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية فى التعليق على هذه النبوة : « انه اذا كان الأب فى لغتهم هو الرب ، الذى يربى عبده ، أعظم مما يربى الأب ابنه ، كان معنى لفظ الولادة مما يناسب معنى هذه الأبوة ، فيكون المعنى : اليوم جعلتك مرحوما مصطفى مختارا » وقال شيخ الاسلام : « وحينئذ فلا يكون تسميته ابنا لكون الرب أو صفته اتحدت به ، بل كما سمي داوود : ابنا ، وكما سمي اسرائيل : ابنا • فقال : « أنت ابنى بكرى » وهذا فى كتبهم « (١) •

ولما ظهر المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - وقال انه آخر نبي في جنى اسرائيل ، وسيأتي من بعدى نبي اسمه أحمد • انقسم بنو اسرائيل على أنفسهم • ففريق آمن بعيسى عليه السلام ، وهم النصارى وفريق يكفر به وهم اليهود • والفريق الذى كفر به • انقسم الى قسمين : قسم قال : لا نؤمن بعيسى ولا نطبق نبوءات التوراة عليه ، واذا ظهر محمد ، فنقول ليس هو النبي المنتظر المنبا عنه فى التوراة ، لأن نبوءات التوراة تشير الى آخر لم يأت بعد ، واذا أتى سيكون من اليهود • وقسم قال : تتظاهر بالايمان بعيسى ونطبق نبوءات التوراة عليه ظلما وزورا ، حتى اذا ظهر محمد نقول : ليس هو النبي المنتظر المنبا عنه فى التوراة ، لأن نبوءات التوراة تشير الى عيسى ، وقد جاء •

وتحمل « بولس » عبء الدعوة الى تطبيق كل نبوءات التوراة على عيسى ابن مريم عليه السلام ، والترويج لها بين النصارى • وقد وجد فى البدء صدا واعراضا ، ثم فى مجمع نيقية بتركيا سنة ثلثمائة وخمسة وعشرين من الميلاد • أقر النصارى الضالون لأول مرة تطبيق نبوءة الابن على عيسى - عليه السلام - ففى الاصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل ما نصه : « وكان شاول - أى بولس - مع القلاميذ ، الذين فى دمشق أياما ، وللوقت جعل يكرز - أى يبشر ويعظ - فى الجامع بالمسيح : أن هذا هو ابن الله » (أع ٩ : ٢٠) وفى نص قانون ايمان النصارى هذه العبارة : « ونؤمن برب واحد : يسوع المسيح ، ابن الله » أى أن المسيح قد جعل « الابن » المشار اليه فى الزبور الثانى ، ليقتلوا باب النبوة فى وجه محمد - صلى الله عليه وسلم - الى الأبد •

وقد ألف الدكتور هانى رزق - وهو من نصارى الأرثوذكس - كتابا فى « النبوءات » سماه : « يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته » وطبعه فى مصر طبعتين اثنتين ، ربط فيه بين نبوءات الأسفار الخمسة وبين نبوءة داوود عن النبي المنتظر ، الملقب بلقب ابن الله ونبوءات أخرى ، وبين أن كل نبوءات تشير الى نبي واحد هو فى نظره ، ونظر جميع النصارى : عيسى ابن مريم • ويقول الدكتور هانى رزق فى تعليقه على نبوءة داوود : « القول القائل » قال لى : أنت ابنى • أنا اليوم ولدتك « يشير الى أن يسوع المسيح هو ابن الله الأب ، وأن ولادته من الأب هو منذ الأزل • إذ أن اليوم فى هذا القول : هو الأزل • الخ » (١) •

هذا هو أصل أقنوم « الابن » عند النصارى • وأما « الأب » بمد الهمزة فهو لقب لله عز وجل عندهم يساوى الأب فى اللغة العربية •

(١) يسوع المسيح فى ناسوته وألوهيته ص ٩٤ •

وأما أصل أقنوم « الروح القدس » : فهو نبوءة تنبأ بها النبي عيسى - عليه السلام - عن نبي الاسلام محمد - صلى الله عليه وسلم - في الاصحاح الرابع عشر وما بعده من انجيل يوحنا . قال عيسى - عليه السلام - لتلاميذه : « ان كنتم تحبوننى ، فاحفظوا وصاياى . وأنا أطلب من الآب فيعطىكم معزيا آخر ، ليمكث معكم الى الأبد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله ، لأنه لا يراه ولا يعرفه . وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم ... »

والكلام الذى تسمعونه ليس لى ، بل للآب الذى أرسلنى . بهذا كلمتكم وأنا عندكم . وأما المعزى الروح القدس ، الذى سيرسله الآب باسمى ، فهو يعلمكم كل شئ ، ويذكركم بكل ما قلته لكم ... وقلت لكم الآن قبل أن يكون حتى متى كان تؤمنون ... »

ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا اليكم من الآب ، روح الحق ، الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء . قد كلمتكم بهذا لئلا تعثروا . سيخرجونكم من المجمع ، بل تأتى ساعة ، فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله . وسيفعلون هذا بكم ، لأنهم لم يعرفوا الآب ، ولا عرفونى . لكنى قد كلمتكم بهذا ، حتى اذا جاءت الساعة تذكرون أنى أنا قلته لكم .

ولم أقل لكم من البداية ، لأنى كنت معكم . وأما الآن فأنا ماضى الى الذى أرسلنى ، وليس أحد منكم يسألنى : أين تمضى ؟ لكن لأنى قلت لكم هذا ، قد ملا الحزن قلوبكم . لكنى أقول لكم الحق : انه خير لكم أن أنطلق . لأنه ان لم أنطلق لا يأتىكم المعزى . ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى . وأما على بر فلأنى ذاهب الى أبى ولا تروننى أيضا . وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دىن .

ان لى أمور كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم الى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمر آتية . ذاك يمجدىنى ، لأنه يأخذ بما لى ، ويخبركم » .



في هذا القول : نرى المعزى « الروح القدس » أو المعزى « روح الحق » فمن هو المعزى الملقب بلقب « الروح القدس » أو « روح الحق » ؟

اتفقت كلمة اليهود والنصارى على أن الكلمة العبرانية « بيركليت »
« التي تترجم في اليونانية : « بيركليتوس » معناها : أحمد . ويقول
النصارى : ان عيسى لم ينطق « بيركليت » بل نطق « باركليت » وهي
صفة لا اسم ، ومعناها : الذي يأتي عوضا عن عيسى ليعزى بنى اسرائيل
في فقدانهم الملك والنبوة ، وفي بعض التراجم كتبوا : « باركليت الروح
القدس » وفي بعض التراجم كتبوا : « المعزى الروح القدس » ثم قال
الأرثوذكس : ان المعزى الروح القدس هو نفسه عيسى ابن مريم . لان
عيسى في نظرهم - هو الله متجسدا ، وقبل تجسده يلقب بلقب « الآب »
وبعد تجسده يلقب بلقب « الابن » وبعد قتله وصلبه وصعوده الى السماء
يلقب بلقب « الروح القدس » ويقولون : ان عيسى الابن وهو يمشى بين
الناس ، وعد قبل اختفائه بناسوته من الدنيا أن يجيء اليهم بعد خمسين
يوما من الاختفاء في صورة أخرى ، ملقبا نفسه بلقب « الروح القدس »
لا بلقب الابن . وكتبوا هذا القول في الاصحاح الثاني من سفر أعمال
الرسائل .

وقال الكاثوليك : ان الالهة متعددة ، لا الها واحدا متجسدا ، كما يقول
الأرثوذكس ، الآب اله مستقل بنفسه ، والابن اله مستقل بنفسه ،
والروح القدس اله مستقل بنفسه ، ومع تعددهم هم واحد في درجة
اللاهوت ، ويقولون : ان عيسى الابن وهو يمشى بين الناس ، وعد قبل
اختفائه بناسوته من الدنيا ، ان يرسل اليهم الاله الأخير بعد خمسين
يوما من الاختفاء ، الاله الروح القدس . ومع هذا يقول الكاثوليك ان
« المعزى الروح القدس » هو نفسه عيسى ابن مريم ، وغرضهم كغرض
الأرثوذكس واليهود وهو : جعل كل نبوءات التوراة والأنجيل الأربعة
تنطبق على عيسى لقفل باب النبوة في وجه محمد صلى الله عليه وسلم .

في كتاب النبوءات الذي ألفه الدكتور هانى رزق : ربط بين نبوءات
التوراة ، وبين نبوءة داود - عليه السلام - وبين تبشير عيسى عليه
السلام بنبى من بعده في قوله : « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى
وأنا أطلب من الآب فيعطىكم معزيا . . . الخ » وقال تحت نبوءة « المعزى » :
ان عيسى يبشر بالاقنوم الثالث في الثالوث المقدس ، الذى هو نفسه عيسى
عند الأرثوذكس ، وغير عيسى عند الكاثوليك ، وبين أن أشعيا قال في
سفره : « ان الله تعالى قال لليهود : « كائنسان تعزیه أمه ، هكذا أعزیکم
أنا » (أشعيا ٦٦ : ١٣) وأن عيسى لما نطق : « وأنا أطلب من الآب
فيعطىكم معزيا » كان ينطق استنادا على ما جاء في سفر أشعيا عن
« المعزى » . . يقول الدكتور هانى :

« بذلك تحققت نبوءة أشعيا بتعزية يسوع المسيح أبناء اسرائيل ، المؤمنين باسمه ، أثناء وجوده معهم ، ثم وعدهم بارسال المعزى الحقيقى الروح القدس اليهم ليملك فيهم ويكون معهم • وقد أطلق السيد المسيح - له المجد - كلمة المعزى والمرشد على « الروح القدس » اذ هو يعزى المؤمنين على احتمال كافة الأوجاع والأحزان ، فى سبيل كلمة الرب ، ويرشدهم الى الحق » (١) •

ثم يبين الدكتور هانى : أن الروح القدس لقب للمعزى ، وأن المعزى الملقب بالروح القدس هو نفسه عيسى - عليه السلام - على مذهب الأرثوذكس يقول تحت عنوان : (الاله الواحد ذو الثلاثة أقانيم) :

« يعلن الكتاب المقدس فى العهد الجديد عن أن الاله الواحد ، قائم فى ثلاثة أقانيم هم : الآب ، الأبنوم الأول ، والابن يسوع المسيح ، الأبنوم الثانى • والروح القدس ، الأبنوم الثالث • وأن الثلاثة أقانيم فى وحدة كاملة هى الاله الواحد ، الثالوث المقدس » (٢) ١٠ هـ •

وفى مجمع القسطنطينية سنة ثلثمائة وواحد وثمانين من الميلاد اتفق النصراني على أن يكون عيسى هو « الروح القدس » كما اتفقوا من قبل على أنه الابن • وكتبوا هذه العبارة فى قانون ايمانهم وهى : « ونؤمن بالروح القدس ، الرب المحيى ، المنبثق من الآب ، المسجود له • مع الآب والابن • الناطق فى الأنبياء » ليقتلوا باب النبوة فى وجه محمد - صلى الله عليه وسلم - الى الأبد •



وقد رد عليهم كثير من علماء المسلمين ، ليدخلوا فى الاسلام فيسعدوا فى الدنيا والآخرة • ومن العلماء الذين ردوا الامام الفقيه شهاب الدين أحمد بن ادريس المالكى القرافى فقد كتب فى كتابه « الأجوبة الفاخرة فى الرد على الأسئلة الفاخرة » عن « نبوءة الابن » نقل أولا من عبارات الزبور الثانى لداود عليه السلام ، ثم بين أن النبوءة تشير الى محمد - صلى الله عليه وسلم - ونص عبارته : « قال داود - عليه السلام - فى المزامير : « أنت ابني وأنا اليوم ولدتك ، سلنى أعطيك الشعوب ، ميراثك ، وسلطانك الى أقصى الأرض ، ترعاهم بقضيب من حديد ، ومثل أنية الفخار تسحقهم » ومحمد - عليه السلام - هو الذى ورث ، وبلغ

(١) يسوع المسيح فى ناسوته والوهيته ص ٣٦

(٢) يسوع المسيح فى ناسوته والوهيته ص ٢٢٢

سلطانه أقطار الأرض ، وحاط الأمم ، وسامهم بسيفه ، ولم يتفق هذا
لداوود ، ولا لأحد من بعده ، فيكون هو المبشر به ، وسمى : ابنا على العادة
القديمة في تسمية المطيع والنبي : ابنا . كما قال في التوراة في اسرائيل
ب عليه السلام - : « ابني بكرى » (١) ٥١ هـ .

والامام الفقيه شيخ الاسلام ابن تيمية الحراني . فقد كتب في « الجواب
الصحيح لمن بدل دين المسيح » عن « الفارقليط ، الروح القدس » نقل أولا
كلام يوحنا ، ثم ذكر أقوال النصارى في معنى « الفارقليط » ثم ذكر وجهة
نظرهم ، ثم رد عليهم ردا حسنا . ومن عباراته : « ان معنى الفارقليط ،
ان كان هو الحامد أو الحماد ، أو الحمد ، أو المعز . فهذا الوصف ظاهر
في محمد - صلى الله عليه وسلم - فانه وأمته : الحمادون ، الذين يحمدون
الله على كل حال ، وهو صاحب لواء الحمد ، والحمد مفتاح خطبته ، ومفتاح
صلاته . ولما كان حمادا جوزى بوصفه ، فان الجزاء من جنس العمل ،
فكان اسمه : محمدا ، وأحمدا . وأما محمد فهو على وزن مكرم ومعظم ،
وهو الذى يحمد حمدا كثيرا مبالغا فيه ، ويستحق ذلك ، فلما كان أحمد ، كان
محمدا . وفي شعر حسان بن ثابت :

وشق له من اسمه ، ليجله فذو العرش : محمود ، وهذا : محمد

وأما أحمد ، فهو أفعل التفضيل ، هو أحمد من غيره ، أى أحق بأن
يكون محمودا ، أكثر من غيره ، يقال : هذا أحمد من هذا ، أى هذا أحق
بأن يحمد من هذا ، فيكون فيه تفضيل له على غيره في كونه محمدا .
فلفظ محمد ، يقتضى فضله في الكمية ، ولفظ أحمد يقتضى فضله في الكيفية .
ومن الناس من يقول أحمد ، أى أكثر حمدا من غيره ، فعلى هذا يكون
بمعنى الحامد والحماد .

وقال من رجع أن معنى الفارقليط في لغتهم هو الحمد كما تقدم :
إذا كان كذلك فهو ما جاء في القرآن : « ومبشرا برسول يأتي من بعدى
باسمه أحمد » (الصف : ٦) قالوا : ولا شك عندهم أنه اسم مشتق
من الحمد . . . الخ » (٢) ٥١ هـ .

وقد وضحنا ذلك كله في كتابنا : أقانيم النصارى . وفي كتابنا :
الله وصفاته في اليهودية والنصرانية والاسلام .

(١) كتاب الأجوبة الفاخرة - على هامش الفارق بين المخلوق والخالق
لباجه جه زاده - مطبعة الموسوعات بمصر ص ٢٤٨ .
(٢) الجواب الصحيح ج ٤ ص ١٦ .

ولأنهم على باطل في أصل الأتانيم ، لأنهم أخفوا ما ليس لهم ، وبنوا عليه معتقدا ومذهبا : اختلفوا فيما بينهم اختلافا شديدا ، وتجادلوا جدالا عنيفا ، ولعن بعضهم بعضا ، وكفر بعضهم بعضا . وأذكر هنا اليسير مما في كتبهم عن هذا الموضوع ليكون شاهدا على ما نقول : جاء في كتاب « تاريخ الأقباط » لزكى شنودة في الجزء الأول ما يلي عن الاختلاف والجدال :

قال « نسطور » : « ان مريم لم تلد الها ، بل ما يولد من الجسد ، ليس الا جسدا ، وما يولد من الروح هو روح . ان الخليقة لم تلد الخالق ، بل ولدت انسانا ، هو آله اللاهوت » وقال نسطور أيضا : « انه لما كان الجزء اللاهوتي من طبيعة المسيح لم يولد من العذراء ، فلا يحق أن تسمى والدة الاله ، بل والدة المسيح الانسان » يريد أن يقول : ان المسيح ليس هو باله كلي ، وليس هو بانسان كلي ، بل بعضه اله ، وبعضه انسان . وبذلك جعل للمسيح أقنومين . أحدهما : انساني . والآخر : الهى . واعتقد بأن الطبيعة الالهية لم تتحد بالانسان .

وقال « مكدونئوس » : « ان الروح القدس : عمل الهى منتشر في الكون ، وليس أقنوما متميزا عن الأب والابن » .

وقال « أوطلخى » : « ان طبيعة المسيح الناسوتية اندمجت في اللاهوتية ، اذ أن جسد المسيح بما أنه جسد اله ، لا يعتبر مساويا لجسدا في الجوهر ، لأن طبيعته البشرية قد تلاشت في الطبيعة الالهية » .

وقال « آريوس » (١) : « نؤمن باله واحد متعال ، يفوق حد التصور ، منطوق على نفسه ، وهو من العلو بحيث لا صلة له بتاتا بأى شئ له نهاية ، وهو فريد ، لا شبيه له . أزلى لا بداية له ، لا يموت ، صالح ، وهو وحده سبحانه ينفرد بهذه الصفات » .

وقال « كورنثيوس » : « ان روح المسيح حلت على يسوع الناصري عند عماده من يوحنا بنهر الأردن حتى اذا قبض عليه اليهود ليصلبوهما طارت روح المسيح الى السماء تاركة يسوع يصلب وحده » .

(١) قال كثير من العلماء : في الخطاب الذى وجهه النبى صلى الله عليه وسلم الى قيصر الروم وحمله اثم الاريسيين فيه اذا لم يسلم : ان المراد بالاريسيين اتباع القديس آريوس الذى جهر ونادى بعقيدة التوحيد والتنزيه ، وهذا القول شديد ، لأن أتباع آريوس ظلوا على دينهم من بعده ونادوا به .

وقال : « أمونيوس السقاى » : « اننا يجب أن نضم جميع الأديان بما فيها الدين المسيحى فى دين واحد ليعتنقها الجميع ، وأن نجعل مبادئ هذا الدين الجديد مرضية لكل أصحاب الأديان » .

وقال « باريليوس » : « ان يسوع المسيح قوة غير هيولية ، وأنه كان يتخذ لنفسه ما يشاء من الهيئات ولذلك فإنه حين أراد اليهود أن يصلبوه اتخذ صورة سمعان القروى وأعطاه صورته فصلب سمعان وأما يسوع فقد صعد الى السماء » .

وقال « كريبوكراتس » : « ان المسيح انسان كسائر الناس ، وإنما يمتاز عليهم بقوته » .

وقال « فالنقيوس » : « ان المسيح مركب من جوهر روحى ، وقد أخذ جسدا أثيريا من السماء ، ومر به من جسد السيدة العذراء ، ثم اتحد بجسد يسوع عند العماد . فلما أراد اليهود صلب يسوع تركته روح المسيح الى السماء وعلق على الصليب جسد يسوع المادى » .

وقال « سابيلوس » : « ان الله أقنوم واحد ، وقد أعطى الناموس لبنى اسرائيل بصفته الآب ، وصار انسانا فى العهد الجديد بصفته الابن ، وحل على الرسل فى علية صهيون (١) . بصفته الروح القدس . وأن جزءا من الطبيعة الالهية انفصل عن الله الآب ، وكون الابن بالاتحاد مع الانسان يسوع المسيح . وأن جزءا آخر انفصل عنه فكون الروح القدس » .

وقال « نيبوس » : « ان الوقت قد قرب ليملك المسيح على الأرض ألف سنة كأحد ملوك العالم » .

وقال « بيزلس » : « ان السيد المسيح قبل ولادته من العذراء لم يكن له لاهوت متميز ، وإنما كان له لاهوت الآب . أى أن المسيح لم يكن له وجود قبل ولادته من مريم وأن النفس الانسانية التى أصلها من الله دخلت بالولادة واتحدت بالانسان ، وهى بلا ريب فائقة كل النفوس البشرية لأنها منبثقة من الطبيعة الالهية » .

وقال « بولس السيمساطى » : « ان ابن الله لم يكن من الازل ، بل ولد انسانا حلت فيه كلمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء . وأن هذه الحكمة التى مكنته من أن يعلم ويعمل العجائب قد فارقت حين أمسكه

(١) اقرأ الاصحاح الثانى من سفر أعمال الرسل .

اليهود ليصلبوه • وبسبب هذا الذى حدث من اتحاد القوة الالهية بالانسان يسوع القول : ان المسيح هو الله ولكن مجازا ، لا حقيقة » وقد أدى هذا القول بالسيمساطى لأن يزعم بأنه كان فى المسيح أقنومان وابنان لله • أحدهما بالطبيعة والآخر بالتبنى • وبذلك شايع « سابييلوس » فى انكار الثالوث الأقدس بقوله : انه يوجد اله واحد هو الذى تدعوه الكتب المقدسة بالآب • وأن كلمته وحكمته ليست أقنوما ، بل انها فى الكيان الالهى بمقام الفهم فى العقل الانسانى •

وقال « هانى » : « ان الكون يحكمه الهان ، هما اله النور ، واله الظلام ، وقد تمكن اله الظلام من مزج المادة المظلمة بقبس من النور • فكان هذا هو الانسان المكون من جسد مأخوذ من مادة الظلام • ومن روح مأخوذة من فيض النور • وقد أراد اله النور أن يخلص عنصر النور فى الانسان من عنصر الظلام ، فخلق من نفسه كائنين عظيمين هما : المسيح والروح القدس • وأرسل المسيح ليخلص أرواح الناس ، ويعيدها الى وطنها السماوى • وقد ظهر المسيح بين اليهود لابسا صورة جسد انسانى وليس جسدا حقيقيا • وأعلن لهم السبيل الوحيد لخلاص النفوس من أجسادها وبرهن على لاهوته بعجائبه • ولكن اله الظلمة أغوى اليهود فصلبوه • ولما لم يكن له جسد ، لم تؤثر فيه الآلام وقد عاد المسيح الى عالم النور بعد أن ترك تلاميذه ليعلموا الناس ديانته ووعدهم بارسال رسول أعظم يفصح عن حقائق أسمى ، وهو « البارقليط » •



وبعد ما قدمنا طرفا يسيرا من الخلافات والمجادلات فى العقائد الدينية ، نذكر أهم المجامع التى تقرر فيها العقائد النصرانية ، فنقول عن الجزء الأول من تاريخ الأقباط :

١ — مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية

يسمى مجمع نيقية بالمجمع المسكونى الأول • وعقد فى نيقية عاصمة « بثينية » بآسيا الصغرى فى ٢٠ مايو سنة ٣٢٥ ميلادية • بأمر الامبراطور « قسطنطين » الكبير ، وقد حضره بنفسه وحضره ٣١٨ أسقفا غير القسوس والشمامسة من كل أنحاء العالم المسيحى •

وعند افتتاح جلسات المجمع دخل الامبراطور « قسطنطين » وتصدر الاجتماع • ثم ألقى خطابا حض فيه على فض المشاكل بالحكمة • ثم بدأ المجمع أعماله ، ونظر فى المسائل المعروضة عليه •

وكان السبب الرئيسى لعقد المجمع : النظر فى بدعة « آريوس » الذى نادى بأن « يسوع المسيح ليس أزليا ، وانما هو مخلوق من الآب » .

وكان أبرز الذين جادلوه : القديس « أثناسيوس الاسكندرى » وقد قرر المجمع : حرم آريوس وتحريم بدعته ، وحرق كتبه ، ونفيه الى « الاليريكيون » بجوار بحر « الادرياتيک » ووضع المجمع الجزء من قانون الايمان ، الذى يبدأ بعبارة : « نؤمن باله واحد » وينتهى بعبارة « ليس لله انقضاء » ونصه :

• « نؤمن باله واحد • الآب ضابط الكل • خالق السماء والارض • ما يرى وما لا يرى • ونؤمن برب واحد يسوع المسيح ، ابن الله الواحد ، المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، اله حق من اله حق مولود غير مخلوق • مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شيء ، الذى من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا ، نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس ، وصاب عنا ، على عهد بيلاطس النبطى وتآلم وقبر ، وقام من الأموات فى اليوم الثالث ، كما فى الكتب ، وصعد الى السموات وجلس عن يمين أبيه ، وايضا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات ، الذى ليس لله انقضاء » (١) ٥٠١ هـ .

٢ — مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ميلادية

كان الغرض من عقد المجمع : محاكمة أصحاب البدع (٢) ، التى ظهرت فى ذلك الحين ، ومنهم « مكدونىوس » و « يوسابيوس » و « أبوليناريوس » وكان مكدونىوس أسقفا أقامه الأريوسيون على القسطنطينية سنة ٣٤٣ م ثم عزل فى سنة ٣٦٠ لناداته ببدعة جديدة ، وهى انكار لاهوت الروح القدس . اذ قال : ان الروح القدس : مخلوق كسائر المخلوقات ، وقد ناقشه المجمع ثم حرمه ، وحرم بدعته ، وأسقطه من رتبة الأسقفية . وكان يوسابيوس ينكر وجود الثلاثة الأقانيم ، ويقول : ان الثالوث ذاتا واحدة ، وأقنوما واحدا ، فناقشه المجمع ثم قطعه وأسقطه من رتبته . وكان أبوليناريوس ، أسقفا على « اللاذقية » بالشام ، وقد أنكر وجود النفس البشرية فى المسيح ، واعتقد أن لاهوته قام مقام الروح الجسدية فى احتمال الآلام والموت ، أى أن الآلام والموت قد وقعا على جوهر اللاهوت ، كما اعتقد بوجود تفاوت فى العظمة بين الأقانيم الثلاثة . فالروح القدس عظيم والابن

(١) النص من خلاصة الأصول الايمانية فى معتقدات الكنيسة القبطية الأثروذكسية .

(٢) فى نظر النصارى .

أعظم والآب هو الأعظم • وقد حكم المجمع بحرمة أبوليناريوس ، وتحريم بدعته ، واسقاطه من رتبته •

ثم وضع المجمع تكملة لقانون الايمان الذى وضعه مجمع نيقية ، ونص التكملة :

« ونؤمن بالروح القدس ، الرب المحيى ، المنبثق من الآب ، المسجود له مع الآب والابن ، الناطق فى الأنبياء ، وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ، ونعترف بمعمودية واحدة لغفران الخطايا ونترجى قيامة الأموات ، وحياة الدهر الآتى • آمين » (١) •

٣ — مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ ميلادية

كان الغرض من هذا المجمع : محاكمة أصحاب البدع التى ظهرت فى ذلك الحين ، ومنهم « بيلاجيوس » و « نسطور » وكان بيلاجيوس يعتقد : أن خطيئة آدم قاصرة عليه ، ولم تتسرب منه الى نسله ، ولذلك فان الانسان حين يولد يكون كآدم قبل الخطيئة ، ومن ثم يمكنه بمحض ارادته وملكاته أن يبلغ أسمى درجات الكمال ، وكان نسطور ينادى بأن « طبيعة السيد المسيح اللاهوتية منفصلة عن طبيعته الناسوتية » ورتب على ذلك : أن اللاهوت لم يولد ولم يصلب ولم يقيم مع الناسوت • كما رتب على ذلك : عدم جواز تسمية السيدة العذراء بوالدة الاله ، وتسميتها « أم يسوع » فقط • فانعقد المجمع وحكم بتحريم بدعة نسطور ، وأثبت أن فى المسيح أقنوما واحدا وطبيعة واحدة بعد اليجاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة • ولذلك فان العذراء تدعى بحق والدة الاله ، وقد وضع المجمع مقدمة لقانون الايمان تبدأ بعبارة : « نعظمك يا أم النور الحقيقى » وتنتهى بعبارة « يا رب ارحم ، يا رب بارك • آمين » •

ونص المقدمة : « نعظمك يا أم النور الحقيقى ، ونمجدك أيتها العذراء المقدسة ، والدة الاله ، لأنك ولدت لنا مخلص العالم ، أتى وخلص نفوسنا • المجد لك يا سيدنا وملكننا المسيح ، فخر الرسل ، اكليل الشهداء ، تهليل الصديقين ، ثبات الكنائس ، غفران الخطايا • نبشر بالثالوث المقدس ، لاهوت واحد ، نسجد له ، ونمجده • يا رب ارحم ، يا رب ارحم ، يا رب بارك • آمين » (٢) •

(١) النص من خلاصة الأصول الايمانية •

(٢) النص من كتاب العذراء فى التاريخ الكنسى — انظر ص ٦٠ من كتابنا أقانيم النصرارى •

٤ — مجمع أفسس الثانى سنة ٤٤٩ ميلادية

سبب انعقاد هذا المجمع : التماس تقدم به « أوطاخى » الذى كان قد اعترف بأن طبيعة المسيح الناسوتية ، اندمجت فى اللاهوتية ، وتاب من هذا الاعتراف ، وطلب براءته ، فانعقد المجمع وحكم ببراءته ، كما ناقش المجمع : الأسقف « فلابيوس » الذى اتهم بأنه من أتباع « نسطور » وحكم بعزله من وظيفته . ولما لم يرق فى عين أسقف (روما) قرارات هذا المجمع ، لم يعترف به ، وطلب عقد مجمع آخر ، هو مجمع « خلقيدونية » .

٥ — مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية

حضر هذا المجمع أساقفة روما ، كما حضره البابا « ديسقورس » بطريرك الاسكندرية ، ومعه أساقفته . وقد اشتد الخلاف فى اليوم الاول بين أساقفة روما وبين بطريرك الاسكندرية وأساقفته حتى اذا كان اليوم الثانى للمجمع منع البابا ديسقورس وأساقفته بالقوة من حضور الجلسة واجتمع أساقفة روما مع بعض أساقفة الشرق ، وحكموا بعزل ديسقورس ، ونفيه ، ونادوا بعقيدة الطبيعتين والمشيئتين . وقد أراد الامبراطور « مركيان » أن يلزم البابا ديسقورس بأن يعترف بهذه البدعة ، مهددا اياه بالقتل . فاجاب ديسقورس قائلا : « ان القيصر لا يلزمه البحث فى هذه الأمور الحقيقية ، بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ، ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة ، فانهم يعرفون الكتب ، وخير له أن لا يميل مع الهوى ، ولا يتبع غير الحق » . فأصدر القيصر أمره بنفيه الى جزيرة « فلاغونيا » بآسيا الصغرى .

ولا تعترف الكنيسة القبطية (الأرثوذكس) بمجمع خلقيدونية ولا بقراراته ، كما لا تعترف بالجامع التى عقدت بالقسطنطينية بعد ذلك فى سنة ٥٥٣ وسنة ٦١٠ وسنة ٧٨٦ لمخالفة الذين اشتركوا فيها مع الكنيسة القبطية فى الاعتقاد بأن المسيح طبيعة واحدة ومشئنة واحدة « (انتهى من تاريخ الأقباط) » .



لقد تم الانفصال التام بين الكنائس الغربية ، كنائس الكاثوليك (الملاكانية) وبين الكنائس الشرقية كنائس الأرثوذكس (اليعاقبة) من يومئذ أى من يوم مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية الى يومنا هذا ونحن فى سنة ثمان وسبعين وتسعمائة وألف من الميلاد ، ونادى الكاثوليك : بعقيدة تعدد الآلهة ، ونادى الأرثوذكس : بعقيدة تجسد الاله .

والمسيح ابن مريم اله ثان من الالهة الثلاثة عند الكاثوليك ، اله مستقل بنفسه ، والمسيح ابن مريم هو الاله المتجسد عند الأرثوذكس •

يقول الكاثوليك : ان الالهة ثلاثة : ١ - الآب (الله) ٢ - والابن (المسيح) ٣ - والروح القدس • ويقول الكاثوليك : ان المسيح فيه طبيعة الهية كاملة ، وطبيعة انسانية كاملة - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا - ويقول الأرثوذكس : ان الله - وتعالى عما يقولون علوا كبيرا - حل في بطن العذراء مريم ، واتحد ، وخرج انسانا هو المسيح يسوع ، ثم كبر وقتل ودخل القبر ومكث في الجحيم ثلاثة أيام ، ثم خرج من الجحيم الى القبر ومن القبر قام وارتفع الى السماء ، وقبل التجسد يسمى أقنوم الآب ، وبعد التجسد يسمى أقنوم الابن ، وبعد القتل يسمى أقنوم الروح القدس • والأقنوم عندهم مرحلة من مراحل ثلاث لذات الله تعالى • ويقول الكاثوليك : انه لما ارتفع جلس بجوار أبيه • وهذا يعنى انه اله مستقل عن الاله الآب • وأنه قبل قتله أوصى بقبول الروح القدس ، وقد نزل بعد ارتفاعه ، وهذا يعنى أن الروح القدس ثالث ثلاثة •

وقد رد الله تعالى عليهم في القرآن الكريم بقوله لاتباع الكاثوليك والأرثوذكس : « ولا تقولوا ثلاثة » (١) أى ثلاثة آلهة متعددين ، أو ثلاثة مراحل لاله الواحد المتجسد • ورد على الكاثوليك بقوله : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » (٢) ورد على الأرثوذكس بقوله : « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم » (٣) •

(١) النساء : ١٧١

(٢) المائدة : ٧٣

(٣) المائدة : ١٧ ، ٧٢

المبحث الثانى :

المسيح المنتظر

كان من عادة الكهنة ، علماء بنى اسرائيل أن يمسحوا الملوك بزيت ، أو بدهن ، عند توليهم الرئاسة على الناس ، وكانوا يمسحون العلماء أيضا والأنبياء ، ويطلقون على الملك الممسوح ، أو العالم أو النبي لقب : « مسيح » أى أن الله هو الذى اختاره واصطفاه واجتباها .

ولقب « المسيح » هو فى اللغة العبرانية : « هاماشيح » و « ها » فى العبرانية تساوى الألف واللام فى العربية ، فلذلك نطق : « ماشيح » والسريانية أى الآرامية تنطقها : « ماشيح » ونطقها اليونان : « مسيح » وعرفت فى اللغة العربية واشتهرت : « مسيا » بفتح الميم وكسر السين وتشديد الياء مفتوحة ففى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا : « مسيا ، الذى تفسيره المسيح » (يوحنا : ١ : ٤١) .

ودليل الكهنة على المسح : آيات فى التوراة ، منها قول الله لموسى : « وتلبس هرون الثياب المقدسة وتمسحه وتقدسه ليكون لى ، وتقدم بنيه وتلبسهم أقمصه ، وتمسحهم كما مسحت أباهم ليكونوا لى . ويكون ذلك لتصير لهم مسحتهم كهنوتا أبديا فى أجيالهم » (خروج ٤٠ : ١٣ - ١٥) وقد مسح صموئيل : طالوت لما اصطفاه الله ملكا على بنى اسرائيل - كما هو مبين فى سفره - ومسح داود مرتين ، ومسح أيضا سليمان ابنه ، وكذلك مسح ايلياء واليسع .



ولما كان لقب « مسيح الله » لقبا معظما فى بنى اسرائيل ، يتفاخر بحمله الملوك والعلماء والأنبياء لقبوا النبي الذى تحدث عنه موسى - عليه السلام - بقوله : « يقيم لك الرب الهك نبيا ... الخ » لقبوه بلقب « المسيح » وقالوا : نحن فى انتظار المسيح . وهذا هو أصل ظهور فكرة « المسيح المنتظر » فى العالم .

وفى مدينة بابل أراد اليهود قصر شريعة التوراة عليهم ، وأرادوا أن يصدوا الناس عن محمد صلى الله عليه وسلم اذا جاء . كرها فى العرب الذين خذلوهم فى حربهم لنبوخذ ناصر ملك بابل . فأوهموا الناس أن المسيح الذى ينتظروه ليس من العرب أبناء اسماعيل ، بل سيظهر من اليهود ونشروا الاشاعة هذه فى كل مكان حلوا فيه . وهذا أول مكان ظهرت فيه فكرة المسيح المنتظر فى العالم على أنه سيظهر من اليهود .

ولما رجع اليهود من سبى بابل انقسموا الى سامريين وعبرانيين ، كما كانوا قبل السبى بقليل وقال السامريون : ان المسيح سيظهر منا ، من آل يوسف - عليه السلام - وقال العبرانيون : ان المسيح سيظهر منا - من آل داود - عليه السلام .

فقال المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - للعبرانيين : لن يظهر المسيح من آل داود لأن داود نفسه قال نبوءة عنه ، وقال في النبوءة : « ان النبي المنتظر سيدى » ولا يكون الابن سيد أبيه ، وبالتالي : يكون النبي المنتظر ، الملقب بلقب المسيح لا يكون من آل داود أبدا . يقصد : لا يكون البتة من اليهود .

وبعد رفع عيسى - عليه السلام - الى السماء قال « بولس » للذين رضوا بتحريف دعوة عيسى - عليه السلام - : اجعلوا عيسى هو المسيح المنتظر ، وقولوا : انه هو الذى تحدثت عنه التوراة ، وأسفار الانبياء ، ولا نبى بعده . فجعلوه هو المسيح المنتظر ، مع أنه بين في حياته : أن المسيح المنتظر سيأتى من بعده .



والآن . نسوق الأدلة من التوراة على أن المسيح المنتظر هو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس هو عيسى ابن مريم كما يزعم النصارى ، وليس هو الى الآن لم يظهر واذا ظهر سيكون من اليهود كما يزعم اليهود . وقبلما نذكر الأدلة نقول : اننا بهذا لا نقول ان عيسى ابن مريم - عليه السلام - ليس مسيحا ، بل نقول : هو « مسيح » ولكن لا نقول انه هو « المسيح » هو مسيح كطالوت وكداود وسليمان والياس واليسع . عليهم السلام - ولكن ليس هو المسيح الموعود به في النبوءات ، بحسب اصطلاح اليهود والنصارى في النطق والتعبير . ولا قيمة لاختلاف الأسماء والالفاظ اذا وضحت المسميات فان « العبرة بالمقاصد والمعانى ، لا بالالفاظ والمباني » كما يقول أهل الأصول .

الدليل الأول : في التوراة نبوءة عن النبي المنتظر ، الذى يلقبونه بلقب المسيا ، وقال علماء بنى اسرائيل : ان هذه النبوءة أصل فكرة المسيا المنتظر ، ومن أوصافه في النبوءة يعرفونه اذا جاء ، ونص النبوءة :

« يقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلى . له تسمعون . . . أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك واجعل كلامى في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم

به باسمى أنا أطلبه • وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به ، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى •• الخ » وقد سبق ذكرها • والدليل على أنها تدل على المسيا قول مفسرى التوراة فى شرحها : « يعلن موسى اعلانا نبويا مسيانيا ، عن النبى الذى سيأتى ، الذى سيخلفه فى وظيفته كنبى •• الخ » (١) •

أى أن الذى سيخلف موسى فى الدعوة هو المسيا المنتظر الذى تشير إليه هذه النبوة • وإذا كانت هذه النبوة تدل على النبى المنتظر ، الذى يلقبونه بلقب مسيا ، — وهى تدل — فإن المسيا المنتظر هو محمد — صلى الله عليه وسلم — والدليل على ذلك : أن علماء بنى اسرائيل الذى أسلموا وكتبوا كتباً فى اثبات نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — بأدلة من التوراة ، قالوا : ان هذه النبوة تشير إليه ، وأن علماء المسلمين الذين أثبتوا كما أثبت علماء بنى اسرائيل قالوا بقولهم • ومن علماء بنى اسرائيل : شموئيل بن يهوذا بن أيوب فى كتابه « بذل المجهود فى افحام اليهود » ومن علماء المسلمين : ابن قيم الجوزية فى كتابه « هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى » والقرافى فى « الأجوبة الفاخرة » وابن حزم فى « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » وكثيرون لا يحصون عدا • ومن كتاب الفصل ما نصه : « وأما اعجاز القرآن فانما يعرفه العلماء بلغة العرب ، ثم يعرفه سائر الناس باخبار العلماء لهم بذلك • مع ما فى التوراة من الانذار البين برسول الله — صلى الله عليه وسلم — من قوله تعالى فيها : « سأقيم لبنى اسرائيل نبيا من اخوتهم ، أجعل على لسانه كلامى ، فمن عصاه انتقمته منه » ولم تكن هذه الصفة لغير محمد — صلى الله عليه وسلم — واخوة بنى اسرائيل هم بنو اسماعيل » (٢) •

الدليل الثانى : فى التوراة ، يقول يعقوب — عليه السلام — لبنيه : ان الملك لن يزول منكم ، وان الشريعة لن تزول منكم الا اذا أتى « شيلون » فانه اذا أتى يتسلم الملك ويتسلم الشريعة ، وتدين له أمم الأرض بالطاعة والولاء • قال يعقوب — عليه السلام — : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجله ، حتى يأتى شيلون ، وله يكون خضوع شعوب » (تكوين ٤٩ : ١٠) ومعلوم أن الملك لم يزل من اليهود الا على يد عمر ابن الخطاب — رضى الله عنه — لما تسلم مدينة القدس (اورشليم) من البطريك « صفرنيوس » ومعلوم أن النصارى شيعة من اليهود وطائفة • وعيسى — عليه السلام — هو آخر نبى فى بنى اسرائيل ولم ينسخ

(١) تفسير الكتاب المقدس لجماعة من اللاهوتيين برئاسة الدكتور هرنسيس دافيدسون — المجلد الأول ص ٤٠٣ •

(٢) الفصل لابن حزم الظاهرى الأندلسى ج ١ — ص ١١١ •

التوراة • وانما الذى صرح بنسخها نبي الاسلام - صلى الله عليه وسلم - فهو الذى حقا زالت شريعة اليهود على يديه • والدليل على أن قول يعقوب - عليه السلام - هذا نبوءة عن المسيا المنتظر : قول مفسرى التوراة فى شرحها : « حتى يأتى شيلون : هذه عبارة صعبة • لكن يبدو أن أفضل تفسير هو ذاك الذى يعتبرها نوعا من الحديث عن المسيا اذا تحرك الحرف الساكن - وهذا أمر مسموح به فى اللغة العبرية - فان الكلمة يمكن أن تترجم « الذى له » ٠٠٠ الخ « (١) أى أن النبوءة تدل على المسيا فى أفضل تفسير •

واذا كانت هذه النبوءة تدل على النبي المنتظر الذى يلقبونه بلقب مسيا - وهى تدل - فان المسيا هو محمد - صلى الله عليه وسلم - والدليل على ذلك : هو الدليل الذى ذكرته فى النبوءة الأولى • ومن العبارات التى جاءت فى كتب تفسير القرآن الكريم عن هذه النبوءة قول الشيخ أحمد مصطفى المراغى فى تفسيره المسمى « تفسير المراغى » : « جاء فى سفر التكوين : « فلا يزول القضييب من يهوذا ، والراسم من تحت أمره ، الى أن يجيء الذى هو له ، واليه تجتمع الشعوب » وفى هذا دلالة على مجيء محمد - عليه السلام - بعد تمام حكم موسى وعيسى « (٢) •

الدليل الثالث : فى التوراة يقول الكاتب « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رسول الله بنى اسرائيل قبل موته : فقال : جاء الله من طور سيناء ، ويشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبل فاران ، ومعه ربوة من أطهار الملائكة عن يمينه ، فوهب لهم وأحبهم ورحم شعبهم • وباركهم ، وبارك على أطهاره ، وهم يدركون آثار رجليك ويقبلون من كلمتك • أسلم لنا موسى مثله • وأعطاهم ميراثا لجماعة يعقوب ٠٠٠ الخ » (تثنية ٣٣ : ١ - ٤) هذا النص من الترجمة اليونانية ، وأما النص العبرانى فهو : « وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجل الله بنى اسرائيل قبل موته : فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلالاً من جبل فاران • وعن يمينه نار شريعة لهم • فأحب الشعب • جميع قديسيه فى يدك ، وهم جالسون عند قدمك ، يتقبلون من أقوالك بناموس أوصانا موسى ميراثا لجماعة يعقوب ٠٠٠ الخ » •

ودلالة هذه النبوءة على محمد - صلى الله عليه وسلم - أنه يقسم بركة الله التى وعد بها ابراهيم - عليه السلام - أن تتبارك الأمم فى نسله •

(١) تفسير الكتاب المقدس لجماعة من اللاهوتيين برئاسة الدكتور فرنسيس دافيدسون - المجلد الأول ص ٢١٠ •

(٢) تفسير المراغى فى سورة الاعراف الجزء التاسع ص ٨٢ • وانظر أيضا تفسير المنار للشيخ رشيد رضا •

ونسئل ابراهيم القائم بالبركة هو في اسماعيل واسحاق — عليهما السلام — كما سبق ذكره وموسى الذى نزلت عليه التوراة في طور سيناء وعيسى الذى نزل عليه الانجيل في جبل ساعير ، هما من نسل اسحاق — عليه السلام — وقد أشار بفاران الى نبي يظهر من آل اسماعيل لتبدأ من وجوده بركة الأهم في آل اسماعيل على يد واحد من نسله . والدليل على أنه يقصد بفاران نسل اسماعيل : يسوقه شيخ الاسلام ابن تيمية — رحمه الله — هكذا : يقول في الجزء الثالث من كتابه : « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » :

« وبعضهم يقول في الترجمة : « تجلى الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران » قال كثير من العلماء — واللفظ لمحمد ابن قتيبة — ليس بهذا خفاء على من تدبر ولا غموض . لأن مجيء الله من طور سيناء : انزاله التوراة على موسى من طور سيناء — كالذى هو عند أهل الكتاب وعندنا — وكذلك يجب أن يكون اشراقه من ساعير : انزاله الانجيل على المسيح . . . وكما يجب أن يكون اشراقه من ساعير بالمسيح . فذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران : انزاله القرآن على محمد — صلى الله عليه وسلم — وجبال فاران : هي جبال مكة . قال : وليس بين المسلمين وأهل الكتاب : خلاف في أن « فاران » هي : مكة . فان ادعوا أنها غير مكة ، فليس يفكر ذلك من تحريفهم وافكهم . قلنا : أليس في التوراة : أن ابراهيم أسكن هاجر واسماعيل فاران ؟ (تكوين ٢١ : ٢١) وقلنا : دلونا على الموضع الذى استعلن الله منه ، واسمه فاران ؟ والنبي الذى أنزل عليه كتابا بعد المسيح ؟ أوليس « استعلن » و « علن » هما بمعنى واحد ؟ وهو ما ظهر وانكشف . فهل تعلمون : ظهر دين ظهور الاسلام ، وفشا في مشارق الأرض ومغاربها فشوه ؟ . . . الخ » (١) .

والدليل على أن بركة اسماعيل — تعنى الملك والنبوة وأن بركة اسماعيل مرتبطة بنبوذة فاران يسوقه الامام الشهرستاني هكذا في الجزء الثانى من كتابه « الملل والنحل » : « وأعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على كون شريعة المصطفى — عليه السلام — حقا ، وكون صاحب الشريعة صادقا ، بله ما حرفوه وغيروه وبدلوه . اما تحريفا من حيث الكتابة والصورة . واما تحريفا من حيث التفسير والتأويل ، وأظهرها فكروه ابراهيم — عليه السلام — وابنه اسماعيل ، ودعائوه في حقه وفي ذريته ، واجابة الرب تعالى اياه : « انى باركت على اسماعيل وأولاده وجعلت فيهم

(١) الجواب الصحيح ج ٣ — ص ٣٠٠ .

«الخير كله ، وسأظهرهم على الأمم كلها • وسأبعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتي » (تكوين ١٧ : ٢٠) •

واليهود معترفون بهذه القصة • الا أنهم يقولون : أجابه بالملك دون «النبوة والرسالة •

وقد ألزمتهم : ان الملك الذي سلمتم • أهو ملك بعدل وحق ، أم لا ؟ فان لم يكن بعدل وحق ، فكيف يمن على ابراهيم بملك في أولاده هو جور وظلم ؟ وان سلمتم : العدل والصديق من حيث الملك • فالملك يجب أن يكون «صادقا على الله تعالى فيما يدعيه ويقوله •

وكيف يكون الكاذب على الله تعالى صاحب عدل وحق ؟ اذ لا ظلم أشد من الكذب على الله تعالى ، ففي تكذيبه ، تجويزه ، وفي التجويز : رفع المنة بالنعمة ، وذلك خلف •

ومن العجب : أن في التوراة : أن الأسباط من بنى اسرائيل ، كانوا يرجعون القبائل من بنى اسماعيل ويعلمون أن في ذلك الشعب علما لدنيا ، ولم يشتمل التوراة عليه ، وورد في التواريخ : أن أولاد اسماعيل كانوا «يسمون : آل الله ، وأهل الله •

وأولاد اسرائيل : آل يعقوب ، وآل موسى ، وآل هرون • وذلك كسر عظيم •

وقد ورد في التوراة : « أن الله تعالى جاء من طور سيناء ، وظهر بساعير ، وعلن بفاران » (تثنية ٣٣ : ٢) وساعير : جبال بيت المقدس ، الذي كان «مظهر عيسى — عليه السلام — وفاران : جبال مكة ، الذي كانت مظهر المصطفى — صلى الله عليه وسلم — ولما كانت الأسرار الالهية ، والأنوار الربانية في الوحي والتنزيل والمناجاة والتأويل : على مراتب ثلاث : مبدأ ووسط وكمال • والمجيء : أشبه بالمبدأ • والظهور : بالوسط • والاعلان : بالكمال • عبر التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل : بالمجيء على طور سيناء • وعن طلوع الشمس : بالظهور على ساعير ، وعن البلوغ الى درجة الكمال «والاستواء : بالاعلان على فاران • وفي هذه الكلمة : اثبات نبوة المسيح «والمصطفى عليهما السلام» (١) ٥١ هـ •

وبعد ما عرفنا رأى أئمة المسلمين ، ومن يريد أن يعرف رأى علماء بنى اسرائيل فليقرأ ما كتبه شموئيل بن يهوذا في (بطل المجهود) نذكر

(١) الملل والنحل. الشهرستاني — على هامش الفصل لابن حزم ج ٢ ، ص ٥١-٥٣ •

من كلام مفسرى التوراة ما يدل على أن تلك النبوءة ، نبوءة فاران تدل على المسيا المنتظر . يقول مفسرو التوراة ، مانصه : « فى يدك : الانتقال الى ضمير المخاطب جعل البعض يعتقدون : أن هذه نبوءة عن المسيا الآتى ... الخ » (١) .

فأنت ترى مما تقدم : أن نبوءات التوراة (الأسفار الخمسة) أفصححت عن : ظهور نبي من بعد موسى ، مماثل له . وأن نبوءات التوراة هي التي حددت أوصاف هذا النبي ، الذي يلقبونه بلقب « مسيا » أى « المسيح المنتظر » وأن أئمة المسلمين ، بينوا : أن نبوءات التوراة التي حددت أوصاف المسيا تدل على محمد - صلى الله عليه وسلم - وكذلك بين علماء بنى اسرائيل الذين هداهم الله الى الايمان ، وبناء على هذا : يكون المسيا هو محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وليس هو عيسى - عليه السلام - كما يزعم النصارى ، وليس هو نبي لم يظهر بعد واذا ظهر سيكون من اليهود كما يزعم اليهود .

وفى الانجيل التي بايذى النصارى نصوص تدل على أن عيسى - عليه السلام - بين ووضح لليهود : أن المسيا سيأتى من بعده ، ولن يكون من آل داود . فقد روى متى فى الاصحاح الثانى والعشرين من انجيله ما نصه : « وفيما كان الفريسيون (٢) مجتمعين ، سألهم يسوع قائلا : ماذا تظنون فى المسيح (٣) ؟ ابن من هو (٤) ؟ قالوا له : ابن داود . قال لهم : فكيف يدعوه داود بالروح : ربا ؟ قائلا : « قال الرب لربى : اجلس عن يمينى حتى أضع أقدامك موطئا لقدميك » فان كان داود يدعوه ربا ، فكيف يكون ابنه ؟ فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة . ومن ذلك اليوم لم يجسر أحد أن يسأله بته « (متى ٢٢ : ٤١ - ٤٦) ومعنى الكلام : أن داود - عليه السلام - قال فى سفر الزبور : ان الله تعالى قال لسيدى : كن معى حتى أنصرك على أعدائك نصرا مؤزرا . فمن هو سيد داود الذى قال الله له : كن معى حتى أنصرك كما حكى داود عن الله ؟ يقول عيسى - عليه السلام - حيث قال داود : ان الله قال لسيدى ، اذن النبي الآتى : سيد داود . واذا ثبت أنه سيد لداود يثبت أنه لا يكون من نسله ، لأن الابن لا يكون سيدا على أبيه ، واذا ثبت أنه لا يأتى من نسله ، فكيف يصح لليهود : أن يدعوا

(١) تفسير الكتاب المقدس لجماعة من اللاهوتيين - برئاسة الدكتور

فرنسيس دافيدسون - المجلد الأول ص ٤٧٠ .

(٢) الفريسيون طائفة من علماء اليهود العبرانيين كانت تدعى الغيرة

على الشريعة الموسوية .

(٣) يقصد : المسيا المنتظر . (٤) أى من أى نسل يكون ؟

جمع وضوح الدليل من كلام داوود نفسه : أن النبي المنتظر الذى لقبوه بلقب
المسيا أو المسيح سيأتى منهم ؟

وكلام داوود من ترجمة البروتستانت هكذا : « قال الرب لربى :
اجلس عن يمينى ، حتى أضع أقدامك موطئا لقدميك ، يرسل الرب قضيب
عزتك من صهيون • تسلط فى وسط أعدائك ، شعبك منتدب فى يوم قوتك ،
فى زينة مقدسة • من رحم الفجر لك طل حدثتك • الخ » (المزمور
المئة والعاشر) ومن ترجمة الآباء اليسوعيين هكذا : « قال الرب لسيدي
• الخ »

ومن هذا يتبين : أن عيسى نفسه لم يقل : اننى أنا المسيح المنتظر ،
ويتبين : أن أوصاف الزبور لا تدل عليه لأنه لم يحارب ولم ينتصر
على أعدائه • صحيح أنه أمر أتباعه بحمل السيف للقتال ، ولكنه لم يحمل
سيفا • ولم يجرّد جيشا • وفى الاصحاح الثانى والعشرين من انجيل لوقا
يقول لتلاميذه : « حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية • هل
أعوزكم شئ ؟ فقالوا : لا • فقال لهم : لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود
كذلك • ومن ليس له فليبيع ثوبه ، ويشتر سيفا » (لو ٢٢ : ٣٥ - ٣٦)
وفى الاصحاح العاشر من متى يقول : « لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على
الأرض • ما جئت لألقى سلاما ، بل سيفا » (متى : ١٠ : ٣٤)

وبعد رفع عيسى - عليه السلام - الى السماء • نادى « بولس » بأن
عيسى هو المسيح ، لا مسيح ، وزعم أنه ينادى ، لا من تلقاء نفسه ،
بل لأن المسيح ظهر له فى الرؤيا ، من بعد رفعه الى السماء بزمان ، وأمره
فى الرؤيا : بأن ينادى فى الناس بأن عيسى كان هو المسيح وما كنا له بعارفين •
ويقول العلماء : أنه لم يخدع السذج والبسطاء والعامّة بهذه الحيلة الا بعد
مساندة له من بعض اليهود الذين تظاهروا باعتناق دعوة عيسى - عليه
السلام - ليحرفوها • وقولهم هذا قد استدلوا عليه بآيات فى رسالة بولس
الى أهل غلاطية فى الاصحاح الثانى وهو قوله : « ثم بعد أربع عشرة سنة
صعدت أيضا الى اورشليم ، مع برنابا آخذا معى تيطس أيضا • وإنما
صعدت بموجب اعلان (١) وعرضت عليهم الانجيل الذى أكرز به بين الأمم ،
ولكن بالانفراد على المعتبرين لئلا أكون أسعى أو قد سعيت باطلا • الخ »
(غلا ٢ : ١ - ٢) لماذا عرض عليهم انجيلا سرييا للغاية ؟ لماذا عرضه
على الأعيان والوجهاء البارزين فى المذهب على انفراد ؟ أكانت دعوة عيسى

(١) يشير بالاعلان الى الرؤيا ، المذكورة فى الاصحاح التاسع من سفر
الأعمال الرسل •

سرية ؟ كيف ذلك ؟ وفى الاصحاح الثامن عشر من انجيل يوحنا : « فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه ؟ أجابه يسوع : أنا كلمت العالم علانية • أنا علمت كل حين فى المجمع وفى الهيكل حيث يجتمع اليهود دائما ، وفى الخفاء لم أتكلم بشئ • لماذا تسألنى أنا ؟ أسأل الذين قد سمعوا : ماذا كلمتهم • هو ذا هؤلاء يعرفون ماذا قلت أنا » ؟ (يوحنا ١٨ : ١٩ - ٢١) •

وهذا هو النص الذى فيه الرؤيا ، والذى فيه أنه جهر بعد الرؤيا ، بأن عيسى - عليه السلام - هو : ابن الله الذى تحدث عنه داود - عليه السلام - فى المزمور الثانى ، وهو : المسيح ، الذى تدل عليه نبوءات التوراة وأسفار الأنبياء ، فى الاصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل : « أما شاول - بولس - فكان لم يزل ينفث تهديدا وقتلا على تلاميذ الرب • فتقدم الى رئيس الكهنة ، وطلب منه رسائل الى دمشق ، الى الجماعات حتى اذا وجد أناسا من الطريق رجالا أو نساء يسوقهم موثقين الى اورشليم • وفى ذهابه حدث أنه اقترب الى دمشق ، فبغته أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له : شاول شاول لماذا تضطهدنى ؟ فقال : من أنت يا سيد ؟ فقال الرب : أنا يسوع الذى أنت تضطهده • صعب عليك أن ترفض مناخس • فقال وهو مرتعد ومتحير : يا رب ماذا تريد أن أفعل ؟ فقال له الرب : قم وادخل المدينة ، فيقال لك : ماذا ينبغي أن تفعل ؟ وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحدا • فنهض شاول عن الأرض ، وكان وهو مفتوح العينين لا يبصر أحدا • فاعتادوه بيده وادخلوه الى دمشق • وكان ثلاثة أيام لا يبصر ، فلم ياكل ولم يشرب •

وكان فى دمشق تلميذ اسمه حنانيا فقال له الرب فى رؤيا : يا حنانيا • فقال : هاأنا يا رب • فقال له الرب : قم واذهب الى الزقاق الذى يقال له : المستقيم ، وأطلب فى بيت يهودا رجلا طرسوسيا ، اسمه شاول ، لأنه هو ذا يصلى • وقد رأى فى رؤيا رجلا اسمه حنانيا داخلا وواضعا يده عليه لكي يبصر • فاجاب حنانيا : يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل ، كم من الشرور فعل بقديسيك فى اورشليم ، وههنا له سلطان من قبل رؤساء الكهنة أن يوثق جميع الذين يدعون باسمك • فقال له الرب : اذهب • لأن هذا لى اناء مختار ، ليحمل اسمى أمام أمم وملوك وبني اسرائيل ، لأننى سأريه كم ينبغي أن يتألم من أجل اسمى •

فمضى حنانيا ، ودخل البيت ووضع عليه يديه ، وقال : أيها الأخ شاول ، قد أرسلنى الرب يسوع الذى ظهر لك فى الطريق ، الذى جئت

فيه لكى تبصر وتمتلىء من الروح القدس • فالوقت وقع من عينيه •
كأنه قشور ، فأبصر فى الحال ، وقام واعتمد ، وتناول طعاما فتقوى •

وكان شاول مع القلاميذ الذين فى دمشق أياما • وللوقت جعل يكرز
فى الجامع بالمسيح : أن هذا هو ابن الله • فبهت جميع الذين كانوا يسمعون ،
وقالوا : أليس هذا هو الذى أهلك فى اورشليم الذين يدعون بهذا الاسم •
وقد جاء الى هنا لهذا ، ليسوقهم موثقين الى رؤساء الكهنة •

وأما شاول فكان يزداد قوة ، ويحير اليهود الساكنين فى دمشق محقنا :
أن هذا هو المسيح ••• الخ » (أع ٩ : ١ - ٢٢) •

وواضح من هذا النص : أن اليهود لما اضطهدوا عيسى ابن مريم
- عليه السلام - وأتباعه ، ولم تتوقف الدعوة عن الانتشار مع الاضطهاد ،
رأوا أن يتظاهر بعضهم باعتراف الدعوة ، ثم يكيّدوا لها كيّدا ، ومن اليهود
الذين اضطهدوا الاتباع علنا : بولس • الذى كان من سكان مدينة « طرسوس »
ولما لم يجد الاضطهاد : زعم أن عيسى نفسه ظهر له بعد قتله وصلبه
- كما يزعمون - وأمره أن لا يضطهد أتباعه ، وأمره أيضا أن ينطلق
بالدعوة لا الى بنى اسرائيل أنفسهم ، بل الى جميع الأمم • ولم يأمره
بالدعوة التى جاء بها فى حياته ، - فانه لم يقل انه هو المسيح الذى تدل
عليه النبوءات - بل أمره بغير ما صرح به فى الحياة الدنيا •

وقد قرأنا فى كتاب « الاعلام » هذا : أن مؤلف « تثليث الوجدانية »
قال للمسلمين : « وإن كان فيها - أى فى التوراة - محمد منتظرا • ثم وافقت
علاماته ، علامات الكتب ، فقد أصاب المسلم ، ولزم النصرانى الخروج عن
رضا معبوده » أفيخرج الآن من دينه بعد هذا البيان ؟

أسأل الله تعالى توفيقا وسدادا • « وما توفيقى الا بالله » ، عليه
توكلت واليه أنيب » (١) •

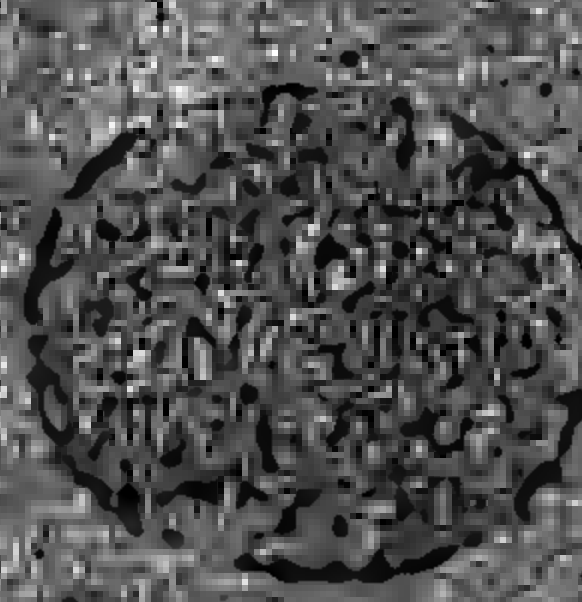
القاهرة فى } ٢٦ شوال سنة ١٣٩٨ هـ
} ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٧٨ م

الدكتور الشيخ
أحمد حجازى أحمد السقا

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي جعل القرآن
مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً

والقرآن مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً
والقرآن مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً

والقرآن مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً
والقرآن مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً

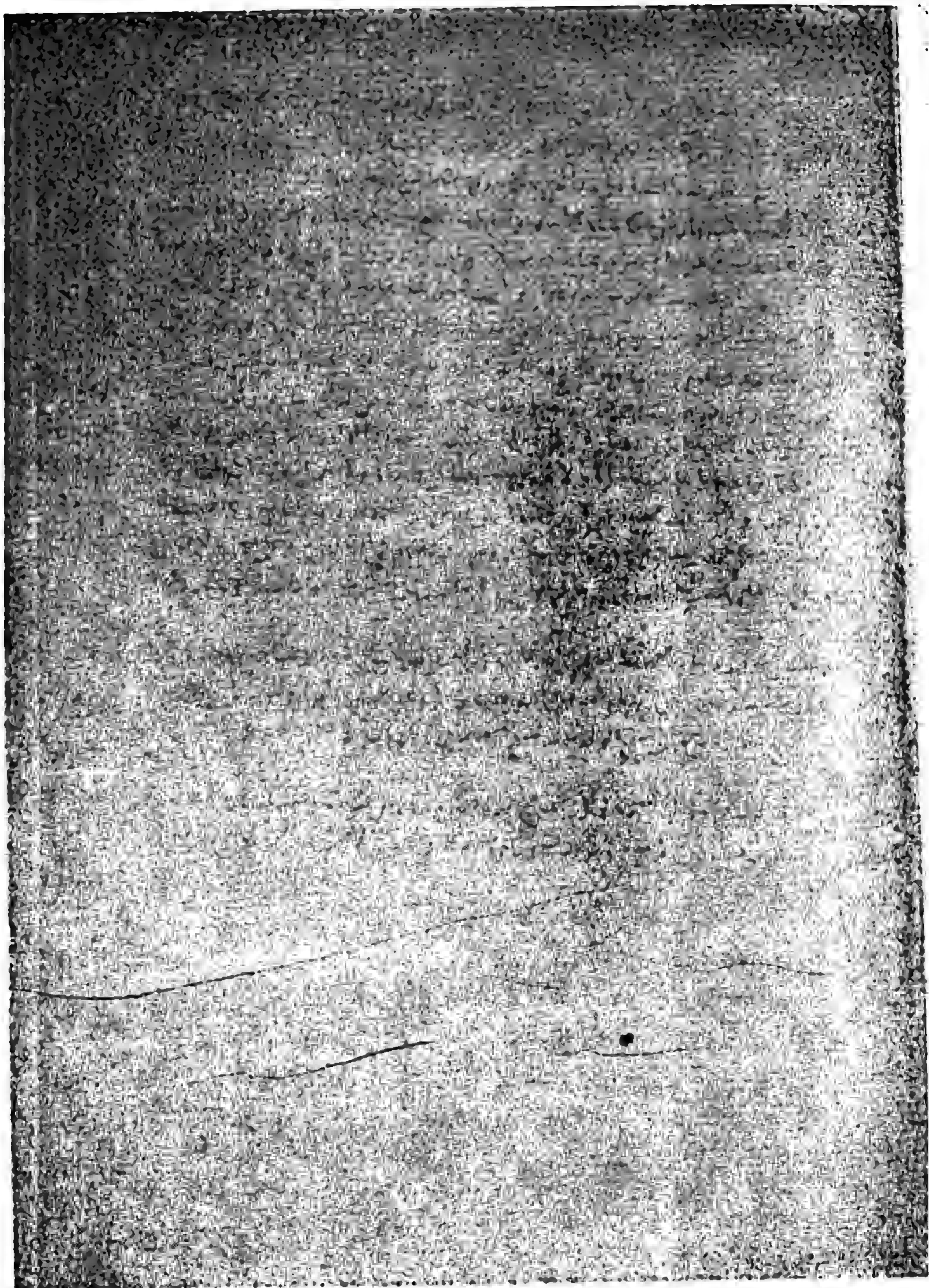


والقرآن مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً
والقرآن مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً

والقرآن مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً
والقرآن مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً

والقرآن مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً
والقرآن مقاماً مباركاً والقرآن مقاماً مباركاً

(الصفحة الأولى من المخطوطة)



(الصفحة الأخيرة من المخطوطة)

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر ، وأعن يا الله

الحمد لله الذى من علينا بتوحيده ، وجعلنا من أفضل عبيده ، الذى
،جنبنا الأهواء المذلة ، والآراء المضلة ، أرانا الحق ، اذ هدانا لبرهانه
،ودليله ، وأظهر لنا الباطل ، وتفضل علينا بالعدول عن سبيله ، نحمده
بمحامده التى لا تحصى ، ونشكره على الآية التى لم تنزل تقرى ، ونسأله
الصلاة على نبيه من كافة الورى ، أنبيائه ورسله ، أئمة الهدى ،
وخصوصا المبعوث الى الثقليين ، المفضل على العالمين ، المؤيد بالآيات
الصادقة ، والبراهين القاطعة ، موضح الحق بواضحات الدلائل ،
ومرهم الكفر والباطل ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، وعلى جميع
النبیین والمرسلين ، ورضى الله عن خلفائه الراشدين ، وعن صحابته
،أجمعين ، والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين .

أما بعد

ثقت وقفت — وفكك الله — على كتاب كتب به بعض المنتحلين لدين
الملة النصرانية سماه كتاب (تثليث الوجدانية) بعث به من « طليطلة » —
أعادها الله الى مدينة « قرطبة » حرسها الله . . متعرضا فيه لدين
المسلمين ، نائلا فيه من عصاة الحق الموحدين . سائلا عما لا يعنيه ،
ومتكلما بما لا يدريه . فأمنت النظر فيه ، فاذا بالمتكلم يهرف بما
لا يعرف ، وينطق بما لا يحقق ، ناقض ولم يشعر ، وعمى من حيث يظن
أنه يستبصر « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، أن هم
الا كالأنعام ، بل هم أضل » (١) يلحن اذا كتب ويحجم متى أعرب .
وذى خطا فى القول تحسب أنه مصيب فما يلهم به ، فهو قائله

دله بقوله على ضعف عقله ، وبمكاتبته على سوء محاولته . تعاطى
«درجة النظر ، وسود بأباطيله ذلك الطومار ، ليستزل به الأغبياء

الأعمار ، ويحصل بذلك على ما كله شنار « فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون »^(١) وليته اذا ادعى النظر سلك طريقه ، والتزم شروطه ، فاعترف بالبديهيات ، ولم ينظر الضروريات ، التي هي أصول النظريات ، ولكن حل من عنقه ربقة العقول ، فهو في كل جهالة يجول ، واليها يدعو ، وبها يقول ، فليته لو دفن من عواره ما كان مسطورا • ولكن كان ذلك عليه في الكتاب مسطورا •

وان لسان المرء — ما لم تكن له
حصاة — على عوراته : لدليل

فاستخرت الله تعالى في جوابه على تخليط معانيه ، وتثبيج خطابه • بعد أن أقول له : اعلم يا هذا : ان البغاة بأرضنا لا تستتسر ، والتميز عندنا بين الفضة والقصة متيسر ، وها أنا — ان شاء الله تعالى — أجابك على ما كتبت حرفا حرفا ، وأبين فساد الذي لا يكاد يخفى ، على أنهم لو فتح عليهم بابا من السماء « فظلوا فيه يعرجون » ، فقالوا انما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون »^(٢) فكيف لا ؟ وقد ركبوا من استحالة الاتحاد ، والتثليث ، والحلول ، ما يدرك فساد ضرورة العقول • وقد قالوا في الآب ، والابن ، والأقانيم ، ما تمجه بفطرته الأولى ، كل ذي فهم مستقيم ، ولا يتسع لقبوله قلب ذي عقل سليم •

ومن كان اللعين له لسانا فكل جidalه زور ونكر
فكل مقالهم افك وزين ونص كتابهم شرك وكفر

ومن أعظم ما ظهر عليهم من الفساد ، فصرفوا لذلك عن التوفيق والمرشاد : انكارهم ما يدل على نبوة نبيينا من المعجزات ، وواضح الدلالات ، وقد قاربت الضرورات ، حتى أنكروا ما جاء في كتبهم من الاعلام على نبوته ، وايجاب اتباع شريعته • فلقد كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم • وسأذكر ان شاء الله تعالى ما وقع في أناجيلهم من وصفه ، وصحيح نعتة ، ولما تبين للعقلاء عنادهم ، سقط لذلك ارشادهم ، ووجب حملهم على السيف ، وجهادهم • نقد يفعل الله بالسيف واللسان ، مالا يفعل بالبرهان • ومن كلام الحكماء : « يزغ الله بالسلطان ، مالا يزغ بالقرآن » ، فأعرض العقلاء عنهم •

واكتفوا من الرد عليهم بحكاية مذهبهم ، ووكلوا الناظر فيه ، لظهور تناقضه ، وفساد معانيه •

وقد كنت عزمت على الاقتداء بالعقلاء في الاعراض ، حتى أكثر هذا المتكلم من التعرض والاعتراض • فتعين لذلك الجواب • وأنا أسأل الله التوفيق للصواب ، ومجانبة الخطأ ، وما يوجب العتاب ، انه ولى التوفيق ، وهو باجابة السائلين حقيق •

(فصل) لتعلم يا هذا المنتسب لدين المسيح : أنى أجابك — ان شاء الله تعالى — بمنطق عربى فصيح • أسلك فيه مسلك الانصاف ، وأترك طريق التعصب والاعتساف • على أن كلامك لا يستحق الاصغاء اليه ، ولا الجواب عنه • لأنك لا تحسن السؤال ، ولا تعرف ترتيب المقال • بل تقول مالا تفهم ، وتكتفى بأنك تتكلم • ولكون كلامك هذا كثير الغلط ، ظاهر التناقض والشطط • وأنت مع ذلك لا تعرف مذاهب النصارى المتقدمين ، الذين كانوا بنوع نظر متمسكين ، وان كانوا عن مذهب الحق ناكبين ، حتى أنهم لو سمعوا كثيرا مما ذكرته لتبرأوا عنه ، ولأنفوا منه • اذ لا ينسب أكثر ذلك الى من تكايس منهم ، ولا يروى بحال عنهم • على أنهم في أصول عقائدهم مختلفون ، وفي ورطة الجهل مرتبكون • وسنبين لك ذلك كله — ان شاء الله تعالى —

ولما تبين ذلك منك ، أعرض المسلمون عن جوابك ، ونزهوا أنفسهم عن خطابك ، اذ الاعراض عن الجاهلين ، شرعة رب العالمين ، على لسان سيد المرسلين • وأيضا فمن لم يعرف شروط النظر ، ولم يسلك مسالك البحث والعبر ، فالكلام معه ضرب في حديد بارد ، وعمل ليس له جدوى ، ولا عايد •

ولما أعرضوا عنك لجهالتك ، تبجحت بذلك عند عصابتك ، فظننت أن سكوتنا عنك ، إنما هو لرغبة منك ، حتى لقد أبلغتنا عنك نكرا ، وقلبت في كتابك هذا فحشنا وهجرا • فنحن وأياك كما قال : —

سكت عن السفيه فظن أنى عييت عن الجواب • وما عييت

فعظم هذا الأمر حين نعى خبره الى • مع أنه رغب الى في ذلك جماعة من الأخوان ، فصار ذلك على كأنه من فروض الأعيان ، فاعتصمتم

«فرصة ، وسررت بها قصة ، لعلمي : أن النكاية في العدو بالبرهان واللسان ،
أوقع من نكاية السيف والسنان •

والرجا من مالك الدارين ، الجمع بين الأمرين ، واحراز أجر
العملين • على أنى لا أتعرضهم بقزع السباب ، ولا أنزل معهم الى
اعتذار وعتاب ، وانما هو اظهار جهلهم ، وتناقض مذهبهم وقولهم •
فأذكر كلام هذا السائل — كما بلغنى — وأبين من خطئه ، وتناقضه
• ما شاء الله أن يفهمنى ، فأناقشه في لفظه ، وأظهر سوء نقله وحفظه •
«فتارة أسأله ، وأخرى أجابه • ليعلم أن الناقد بصير ، والباحث خبير ،
وليتبين عيه وجهله للكبير والصغير • ثم من بعد الفراغ من تتبع كلامه ،
«أعطف بالمناظرة على أقسته ، ورهبانه • فأحكى مذاهبهم كما دونوها في
كتبهم • وعلى ما تلقفوها من أساقفتهم ، ثم أسبرها على محك العرض ،
وأبين بعض ما فيها من الفساد ، والنقض • وما توفيقى الا بالله ، وهو
حسبى ونعم الوكيل •

وقد استخرت الله تعالى في أن أجعل هذا الكتاب على : صدر ،
وأربعة أبواب •

الباب الأول : في الكلام على الأتقانيم •

الباب الثانى : في الاتحاد والحلول •

الباب الثالث : في الكلام على النبوات ، واثبات نبوة نبينا عليه
الصلاة والسلام •

الباب الرابع : في جملة من فروع أحكامهم ، أبين فيها : أن ليس لهم
في أحكامهم مستند ، الا محض الهوى والتحكم واللد •

وكل باب من هذه الأبواب يتضمن فصولا • وأنا أسأل الله تعالى
أن يطلق بينتنا بالحق والحكمة ، ويخرسها عن الباطل والفتنة • انه
شؤ الفضل والنعمة ، والعفو والرحمة •

صدر الكتاب

نذكر في هذا الصدر كلام هذا السائل في خطبة كتابه ، والجواب عليها ان شاء الله تعالى .

فصل

في حكاية كلام السائل في خطبة كتابه

قال : « كتاب : (تثليث الوجدانية) . في معرفة الله » ثم قال : « الحمد لله بالغ القوى التي فطرنا عليها ، وأمرنا بحمده ، فنحن نحمده ونشكره ونعظمه بمثل تعارفنا في الحمد والشكر والتعظيم للوكتنا ، وأهل الرهبة من ذوى السلطان منا ، فرضا له ، شاكرين حامدين معظمين ، غير واقفين على ذاته ، ولا مدركين لشيء منه ، وانما نقع على أسماء أفعاله ، في خليقته ، وتدبيره في ربوبيته » اهـ .

الجواب عن ترجمته : أما قوله : « تثليث الوجدانية » فكلام متناقض لفظا ، وفاسد معنى . بيان ذلك : أن قوله : « تثليث الوجدانية » كلام مركب من مضاف ، ومضاف اليه ، ولا يفهم المضاف ما لم يفهم المضاف اليه . فأقول : لفظ الوجدانية مأخوذ من الوحدة ، ومعناها : راجع الى نفى التعدد والكثرة . فهي اذن من أسماء السلوب . فاذا وصفنا بها موجودا ، فقد نفينا عنه التعدد والكثرة . والتثليث معناه : تعدد وكثرة . فاذا أضاف هذا القائل التثليث للوحدة ، فكأنه قال : « تكثير مالا يتكرر » وتكثير مالا يتكرر باطل بالضرورة . فأول كلمة تكلم بها هذا السائل : متناقضة وباطلة بالضرورة .

وأما قوله « في معرفة الله » فقول لم يحط بمعناه ، ولا فهم معناه ، والا فما حد المعرفة ؟ وكم أقسامها ؟ وهل يصح أن تكون مكتسبة لنا ؟ وهل يجوز عقلا أن يكلفنا بها الأنبياء ؟ وان جاز ذلك فما طريق تحصيلها ؟

ثم هول بهذا اللفظ ، وأوهم أنه حصل منها على حظ . فان كان دليلك يا هذا على معرفة الله تعالى ما قسمته كتابك ، فابك على مصابك ، واقرع

أسفا على عقل نابك • فان الواقف على معناه ، المقتحم لفحواه ، علم على القطع والقط : أنك لم تعرف الله تعالى قط ، لأنك لم تذكر فيه دليلا صحيحا ، نعم • ولا قولا فصيحيا ، وان كان لك دليل آخر على معرفة الله تعالى لم تذكره هنا ، فهذه ترجمة بلا معنى ، واسم يهول بلا معنى • كلامك يا هذا ، كفارح حمص خلى من المعنى ، ولكن يججع

ثم نظم هذه الترجمة على ما أبديناه من التناقض أن يقال : تكثير ما لا يتكرر في معرفة الله ، وأى رابط بهذا الكلام ؟ وهل هذا الا مضحكة الخاص والعام ، وعار لم يصل اليه أحد من عقلاء الأنام •

ثم بعد ذلك شرع هذا القائل في الخطابة ، وصنعة الكتابة ، فسحب على « سحبان » ثوب النسيان ، وأنسى « أبان » كل ما أبان ، وصير فصيح « وأئله » أعيا من « باقله » فقال : « الحمد لله بالغ القوى ، اللتى فطرنا عليها » فيا للعجب ، ويا لضيعة الدين والأدب •
دع المكارم ، لا ترحله لبغيتها واقعد فانك أنت الجائع العارى (١)

أما قوله « الحمد لله » فكلام حق • ومقال صدق ، عند من عرف معناه ، وفهم فحواه • وأما عندك فكلام سمعته ، وما وعيته • وكيف تعيه ، أو تطمع في أنك تدريه ؟ وأنت بمعزل عن اللسان ، عرى عن تحصيل شرائط البرهان •

دليل ذلك : أن « الحمد لله » يتوجه لأسئلة ، وأنت لا تهتدى لفهمها ، فكيف لحلها ؟ منها لفظية ، ومنها معنوية • فأولها حده ، وإلى ماذا يرجع ؟ وما الفرق بينه ، وبين الشكر ؟ وهل هو في هذا الموضع عام ، أم لا ؟ وهل يصح أن يطلق على غير الله ؟ وان أطلق فهل بالحقيقة أم بالمجاز ؟ وعلى أى وجه يضاف الى الله تعالى ؟ أعلى جهة الملك ، أو على جهة الاستحقاق ، أو غيرهما من أنواع الاضافة ؟ ولأى شيء يوضع في أوائل الكتب ، ولا يكتفى عنه بالتسمية ؟

وأما قولك « بالغ القوى » فكلام مختلف صدر عن من يحصل تنزيل مفهومه على فائدة • لأن المتكلم به عمله (بالغ) موضع (مبلغ) ثم ذهب

(١) مشهور هذا البيت : فانك أنت الظاعم الكاسى •

بمبلغ الى معنى (خالق) والعرب الذين تكلم هذا السائل بكلامهم ، وتعاطى مفهوم خطابهم ، لا يتكلمون بالغ في معنى الخالق ، لتباين اللفظين ، واختلاف المفهومين ، ومعنى (الخلق) المشهور عندهم : اختراع ما لم يكن ، والابلاغ هو أيضا ، له كائن ، الى غاية ما • فان أنكر هذا المتكلم أن يكون أراد هذا • فقد شهد على نفسه بالغلط ، واعترف بأن كلامه من أرذل ، أرذل السقط •

ثم أضاف بالغ الى القوى ، والقوى جمع قوة ، وهى : القدرة والشدة • فان كنت تريد هذا فأى فائدة للفظك ؟ وأى لطيفة لقولك التى فطرنا عليها ؟ وفى الثيران ، والأباعر ، والحمير ، من هو أشد منك وأقوى • فقد فضلها عليك ، حيث أبلغها من الشدة أكثر مما أبلغك • ولقد كان ينبغى لك يا هذا : أن تذكر من نعم الله عليك ، النعمة الخاصة بالانسان ، وهو المعنى الذى به تميز عن أصناف الحيوان • ثم من عجيب أمر هذا السائل ، وأدل دليل على بلادته وجهله ، أن هذه الخطبة التى صدر بها كتابه ، على ما هى عليه ، من تشبيح النظم ، وعدم الفصاحة انما نقلها من رسالة « عبد الرحمن بن غصن » ختن (شبيب) التى كان أساقفة النصارى كتبوا بها الى الامام الزاهد « أبى مروان بن ميسرة » ونسبوها لعبد الرحمن • وكانوا قد اجتمعوا على كتابتها بطليطلة — أعادها الله — فلما كتبوها بعثوا بها الى القاضى « أبى مروان ابن ميسرة » فبعد أن بذلوا جدهم ، وأجهدوا جهدهم ، كتبوا له رسالة مفتتحها هذه الخطبة ، فى بطاقة صغيرة عدد أسطورها نحو ثلاثين ، لحنوا فيها ، وصحفوا فى تسعة وعشرين موضعا منها ، ومع ذلك • فأخلوا بالكلام ، ولم يتحصل لهم من سؤالهم مطلب ، ولا هرام ، فأجابهم الامام القاضى — رحمه الله — وأحسن فى الجواب ، وأظهر لهم جهلهم وتبلدهم فى ذلك الكتاب •

فلو كان هذا السائل عارفا بمصالحه ، مميذا بين محاسنه ومقابحه • لاكتفى بأفحام أساقفته المتقدمة ، وعثرته الجاهلة المضمة ، ولكان يستتر ظاهر خطاياهم ، وركيك كلامهم • ولكن أراد الله تجديد ما قدم لهم من الفضيحة بمقالة صابية صحيحة ، ثم ليته اذ نقل الى كتابه كلامهم ، لم يفسر المعنى ، ولم يغير اللفظ • بل غيره تغييرا يدل على عدم الهجاء ، وقلة الحفظ ، فقال : « الحمد لله بالغ القوى » وهى فى كتابهم المتقدم الذكر الذى نقل منه « الحمد لله بأبلغ القوى » وبين مفهوم كلامه ،

وكلامهم ، ما بين القرن والقدم ، وما بين فصاحة العرب ، وورطانة العجم .

وأما قولك « وأمرنا بحمده » فقول لا تعرف حقيقته ، ولا تسلك طريقته ، حتى تعرف ان كان الله آمرا ، أم لا • وان كان آمرا فما حقيقة أمره ؟ وإلى ماذا يرجع ؟ وهل هو قديم ، أو حادث ؟ إلى أسئلة كثيرة لا تعرف أنك مأمون من جهة الله تعالى حتى تعرفها • فأعد للسائل جوابا ، وللسائل خطابا •

وأما قوله : « فنحن نحمده ونشكره ونعظمه ، بمثل تعارفنا في الحمد والشكر » فكلام يدور على اللسان ، ولم يستقر لك شيء منه بالجنان • وكيف يحمد الله من ينتقصه ؟ وكيف يشكره من يكفره ؟ وهل الحمد والنقصان ، والشكر والكفران ، إلا أمران متناقضان •

بيان ذلك : أنكم تجعلون لله ، ما تكرهون لأنفسكم ، وتنتقصون به أبناء جنسكم ، ها أنتم تكرهون لرهبانكم ، وأقساكم اتخاذ الزوجة والولد ، لئلا يتلطخ برذيلة مجرى البول ، ودم الحيض • أو تتشبه نسبة الزوجة والولد • ثم انكم بجهالتكم تزعمون : أن اللاهوت تدرع بناسوت المسيح ، وسكن في ظلمة الرحم مدة ، ثم خرج على مجرى البول ، ودم الحيض ، وتعلقت نسبة الولد والزوجة ، وأنتم تجعلون لله ما تكرهون ، وتصف ألسنتكم الكذب • لا جرم أن لكم النار ، وأنكم مفرطون • وكيف يعظمه من يعبد غيره ، ويعظم سواءه ، ويخالفه في أمره ، ويرتكب ما عصاه ؟ وها أنتم قد اتخذتم المسيح الهبا ، أو شطر اله • وعبدتم من دون الله غيره ، وعظمتهم سواءه ، وخالفتم في ذلك قول المسيح عليه السلام ، وعصيتهم أمر خالفه ومرسله ذي الجلال والاکرام ، وأنتم تقرأون في كتابكم عن أشعياء عليه السلام ، أنه قال عن الله مبشرا بالمسيح عليه السلام : « هذا غلامى المصطفى ، وحبيبى الذى ارتضت به نفسى » (١) وكذلك تقرأون في انجيل « ماركس » (٢) أن المسيح قال :

(١) ترجمتها الحديثة « هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الهى سرت به نفسى » (أشعياء ٤٢ : ١) •

وهذه النبوة لا تشير الى عيسى عليه السلام • فليس في التوراة ولا في أسفار الأنبياء نبوءات عن الله • بل النبوة تشير الى « المسيح المنتظر » وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم •

(٢) ماركس في الترجمة الحديثة « مرقس » •

العالم الذى سألته عن أول العهود : « ان السيد الهك ، اله واحد » وذكر كلاما . فقال له العالم « قلت الحق يا معلم . ان الله وحده ، ولا اله غيره » (١) فالله تعالى يقول عن المسيح : « هو غلامى » وأنتم تقولون : « هو ولدك » والمسيح يقول « لا اله الا الله » وأنتم تقولون « أنت اله آخر » فتعالى الله عما تقولون ، وسبحانه عما تصفون . — وسيأتى الكلام على هذا ان شاء الله تعالى — فما أنتم قد خالفتم أمر الله ، وعظمتم سوى الله ، وهذا انجيل « متاؤوش » يشهد عليكم بخلاف ما اليه صرتم . فان فيه أن المسيح قال لابليس حين رام خديعته : « قد صار مكتوبا أن تعبد السيد الهك ، وتخدمه وحده » (٢) وأنتم تعبدون غير الله ، وتسجدون لسواه ، تتحكمون في ذلك بأهوائكم ، وتخالفون قول أنبيائكم « ومن أضل ممن اتبع هواه ، بغير هدى من الله » (٣) وتقول بالعظائم على الله .

وأما قولك « بمثل تعارفنا في الحمد » فان كان وضع (تعارف) موضع (معرفة) فقد أخل بالمعنى ، وخالف اللغة ، ولو كان يشم رائحة من كلام الفصحاء ، لوبخ نفسه على القالة هذه الشنعاء . ولو نزلناه على أنه أراد ، ما تعارفه مخاطبوه فيما بينهم في معنى حمد الله ، لكان كلامه أيضا متناقضا وفاسدا ، وعن الصواب حايذا . فان حمد الله عندهم : ذم ، وشكرهم له كفر — كما تقدم — ومن كان حمده لله ذما ،

-
- (١) النص بتمامه في الترجمة الحديثة : « فجاء واحد من الكتبة — عالم — وسمعهم يتحاورون ، فلما رأى أنه أجابهم حسنا ، سأل : أية وصية هي أول الكل ؟ فأجابه يسوع : ان أول كل الوصايا هي : اسمع يا اسرائيل : الرب الهنا رب واحد . وتحب الرب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . هذه هي الوصية الاولى . وثانية مثلها : هي تحب قريبك كنفسك . ليس وصية أخرى أعظم من هاتين . فقال له الكاتب : جيدا يا معلم ، بالحق قلت . لأنه : الله واحد ، وليس آخر سواه . ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة . ومحبة القريب كالنفس ، هي أفضل من جميع الخرقات والذبائح ، فلما رآه يسوع أنه أجاب بعقل . قال له : لست بعيدا عن ملكوت الله » (مرقس ١٢ : ٢٨ — ٣٤) .
- (٢) متاؤوش في التراجم الحديثة « متى » والنص في الترجمة الحديثة بتمامه : « حينئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان . لأنه مكتوب : للرب الهك تسجد ، وإياه وحده تعبد » (متى ٤ : ١٠) .
- (٣) القصص : ٥٠ .

وشكره له كفرا • وكان معرفته مثل شكره وحمده • فقد حصل من العلم على ضده ، وخرج من الشكر عن حده •

وأما قولك « والتعظيم للوكنا ، وأهل الرهبة من ذوى السلطان منا » فقول لا يدل على زهدك فى الدنيا ، واقتدائك بورع المسيح عيسى ، وبخشية المعمد يحيى ، عظمت الملوك لملكهم ، طمعا فى نيل سحت ملكهم ، وأعرضت عن القسيسين ، ونسكهم • ولو هديت السبيل ، لكان الأنبياء والحواريون أحق وأولى ، بالثناء والتبجيل • لكن استهواك الطمع ، واستفرك الجشع ، فأثرت الدنيا عن الآخرة ، فصفقتك اذن هاسرة ، وتجارتك باثرة •

وأما قولك : « فرضا له شاكرين ، حامدين معظمين » فكلام غير منتظم ، وليس له مفهوم ملتئم • ذهب معناه ، لكثرة لحنه ، يمجبه العاقل ببديهة ذهنه • أثلفت معناه ، رضانة العجم ، فكأنه تبقى فى نفس قائله مكتتم •

وأما قولك « غير واقفين على ذاته ، ولا مدركين لشيء منه » فلعمري • لقد صدقت ، وبما أنت عليه من الجهل بمعبودك نطق • فأين هذا من قولك « كتاب : تثليث الوجدانية فى معرفة الله » ؟ فقد جعلت هذا الكتاب بزعمك موصلا الى معرفة الله ، ثم لم ترجع النفس حتى شهدت على نفسك بالجهل بالله • فظهر تناقض اعتقادك على لسانك ، وفى تقييدك • وكذلك يفعل الله بكل جاهل مهذار • وكيف يعرف الله من لم يقف على معرفة ذاته ، ولا علم شيئا من صفاته ؟ وهل ذاته تعالى الا عبارة عن وجوده ؟ فان الموجودات : الموجود من غير مزيد ، على ما يعرف فى موضعه بالبرهان • فمن لم يعرف ذاته تعالى لم يعرف وجوده ، ومن لم يعرف وجوده : فاما شك ، واما جاهل •

وأما قوله : « وانما نقع على أسماء أفعاله ، فى خليقته ، وتدبيره فى وبوبيته » فكلام لم يورده فصيحاً ، ولا فهمه صحيحاً • دليل أنه لم يورده فصيحاً : أنه أراد بقوله « نقع » : « نعرف » والا لم يستقم كلامه • فكأنه قال : « وانما نعرف أسماء أفعاله » وأين : نعرف من نقع ؟ وأى جامع بينهما عند من عقل وسمع ؟ فان مفهوم وقع وحقيقته : سقط الشيء من أعلى الى أسفل ، وليس لهذا المعنى فى كلامه مدخل • وأما أنه لم يفهمه صحيحاً ، فيدل عليه : أنه لا يجيب اذا سئل عنه • فأصبح يا هذا

سمعك ، واستعن ملاك جمعك ، فاني أسألك ، وإياهم عن : حد الاسم وحقيقته ؟ وهل هو المسمى أو غيره ؟ فان كان غيره • فما حد الاسم ؟ وما حد المسمى ؟ وما حد التسمية ؟ ثم هل ينقسم الاسم بالاضافة الى المسمى أم لا ينقسم ؟ فان انقسم فعلى كم قسم ؟ وانما أوردت عليه هذه الأسئلة : كيلا له بضاعة ، وليكون ذلك أبلغ في دفعه ، وأقطع لنزاعه • ثم انه أضاف (أسماء) الى (أفعال الله) ولا يشك عاقل فاهم : في أن أفعال الله تعالى ، انما يراد بها مخلوقاته ، ومخلوقاتة وخليقاته واحد في المعنى • فكأنه قال — على ما يقتضيه ظاهر كلامه — : « وانما نقع على أسماء مخلوقاتة في مخلوقاتة » فأبدل لفظ « مخلوقاتة » بأفعاله • وهذا كلام قليل العائدة ، بل عديم الفائدة • ثم أسماء أفعاله : انما هي عبارة عن الألفاظ الدالة على أفعاله ، وأفعاله — كما قلنا — مخلوقاتة ، كلفظ السماء والأرض ، وغير ذلك • فمن عرف الألفاظ الدالة على هذه المخلوقات • أى شئ يحصل له بسببها من معرفة الله تعالى ؟ وأى دلالة ؟ وأى نسبة ؟ بين معرفة اللفظ الذى يدل على « السماء » في التخاطب مثلا ، وبين معرفة الله تعالى ؟ وهل قوله هذا : الا هذان من القول ، وارتباك في ورطة الجهل ؟

وأما قوله « وتدبيره في ربوبيته » : فالظاهر من لفظ التدبير السابق منه الى الفهم : أنه عبارة عن التفكير النفسى ، والتقدير الذهنى ، والبارى سبحانه متعال عن التدبير الذى هو التفكير والتقدير ، فانه لا يتصور الا في حق من جهل شيئا فأراد أن يستعمل فكره في تحصيل العلم به ، والجهل على الله محال • فالتدبير بمعنى الفكر عليه محال • فان أراد السائل بكلامه غير هذا ، فلا بد من بيانه ، وايضاح برهانه •

وأما (الربوبية) فلفظ مشتق من لفظ (الرب) والرب في مستعمل كلام العرب له معنيان مستعملان • أحدهما : السيد • والثانى : المالك • فان أراد به المعنى الأول الذى يرجع الى السؤدد والشرف فهو : خطأ ، من حيث أن سؤدده وإجب له فلا يحتاج في تحصيله الى سبب من تدبير ، ولا مقتضى تفكير • ومقتضى كلامه ومفهومه : أنه دبر في ربوبيته ، وأوجدها عن تدبيره لنفسه • وهذا جهل بواح ، وكفر صراح • وان أراد به المعنى الثانى الذى يرجع معناه الى الملك فلا يستقيم أيضا على ظاهر كلامه ، فانه يكون معنى كلامه : أنه دبر في ملكه ، وأوجده

عن التدبير ، الذى هو روية وتفكير ، ويتعالى عن ذلك الخالق القدير ،
المنزه عن خواطر النفس ، وهو اجس الضمير •

ثم لما فرغ هذا السائل من خطبته الغراء ، البديعة الانشاء ،
التي من وقف عليها علم انه عن المعارف مصروف ، وأنه لا يفهم المعانى
ولا يحسن كتابة الحروف • شرع في طريقة الجدال ، وكيفية الاستدلال •
فكأنه في نظم معقولاته « الطوسى » وفي آداب جدله « البروى »
ولعمر الله لو كان هذا السائل عاقلا لستر عواره ، ولم يبد غارة •

ولكنه جهل فقال • وحيث وجب أن يسكن جال •
ولقد كان ينبغي لهذا السائل ألا يتكلم في شيء من علوم الاعتقاد •
حتى يحسن شروط النظر ، ويحكم ما يحتاج اليه من المواد والفكر ، ولما
بادر الى الكلام في ذلك من غير تحصيل شيء مما هنالك ، تثبج عليه كلامه ،
وصعب عليه مراده ، فربما كان المعنى الذى يقصده قريبا فيبعده • او
مجتمعا فيبدده ، وسيتبين ذلك في كلامه •

ولما كان ذلك رأيت أنى ان تتبعت كلامه ، كما تتبعت خطبته خرج
الأمر عن الاعتدال ، وأدى ذلك الى الكسل والملال ، وضياح الزمن في
ضروب الهذيان ، هو غاية الخسران • فرأيت أن أعرض عن آحاد كلماته
وأناقشه في معانيها ومفهوماتها • ثم انى ربما لا أتكلم معه حتى أحكى
مذهبه • وأبين له ما أراده بكلام حسن وجيز ، ليكون ذلك أبلغ في الفهم •
وأمكن في التمييز • والى الله عز وجل أرغب ، وعليه أتوكل في أن يشرح
صدورنا • ويبسر علينا أمورنا ، ويستعملنا فيما يقربنا منه ، وينفعنا
عنده • انه : ولى ذلك القادر عليه •

تم الصدر • والآن نشرع في الأبواب •



الباب الأول

في بيان مذهبهم في الأقانيم، وإبطال قولهم فيها

- * الأقانيم أسماء وأفعال
- * أقانيم : القدرة والعلم والحياة
- * تعليل التثليث
- * دليل التثليث
- * في بيان اختلافهم في الأقانيم

الأسماء أفعال

في حكاية كلام السائل ، والجواب عنه

قال السائل : « الآن وجب على أن أسألك في أمر التثليث عن خلق الله لجميع ما خلق . ان كان خلقهم بقدرة ، وعلم ، وإرادة ، أم خلقهم بغير هذا ؟ فإذا اضطررتك المسألة ، الى القول بها . فاني أسألك : ان كانت أسماء لذاته ؟ أو أسماء لأفعاله ؟ فان قلت : هي أسماء لذاته . فقد نقضت ، وجعلتها أسماء للذات ، ووقعت فيما أنكرت من الجسم ، وان قلت : من أسماء أفعاله التي منها ، سمي : قادر ، عالم ، مريد . . فهو التثليث ، الذي أمرنا بالقول به » ا . ه .

الجواب عنه : سألت يا هذا المقدام بعد اعجام ، واستبهام : هل خلق الله تعالى الخلق بقدرة ، وعلم وإرادة أم بغيرهم ؟ وهذا السؤال كان ينبغي لك ألا تسأل عنه حتى تفرغ من معرفة المراتب التي قبله . وذلك أنك لا تصل الى ما سألت عنه ، حتى تعرف معنى (الخلق) وهل العالم مخلوق ؟ وان كان مخلوقا فهل يحتاج الى خالق أم لا ؟ فإذا بلغت الى هنا ، وقطعت هذه المفاوز التي لا تقطع بالمنى ، ولا يتخلص منها بالهوينى . ولا يكتفى في تحصيل العلم بذلك ، بالتقليد . بل بالنظر الشديد ، والبرهان العتيد .

حينئذ كان ينبغي أن تسأل عما سألت عنه ، لكنك بجهاك بطريقة النظر قدمت وأخرت « وفعلت فعلتك التي فعلت » (١) ولو كنت ممن له في النظر نصيب لضربت فيه بسهم مصيب ، ولاقتديت بمعلمكم الأزعم ، وأسقفكم الأعظم « أغشتين » (٢) فما هو يقول في (مصحف العالم

(١) الشعراء : ١٩ - -

(٢) ولد القديس « أوغسطين » (ST. AUGUSTINE) في (طاجست) بالجزائر في نوفمبر عام ثلثمائة وأربع وخمسين من الميلاد لاب وثنى ، وأم مسيحية هي القديسة « مونيكا » وقد أرسلته أمه في السابعة عشر من عمره ليقيم دراسته العليا في « قرطاجنة » وقد اندفع في الشهوات النسائية اندفاعا شديدا ، ثم =

الكائن) في أول ورقة منه : « ينبغي أن يجعل الكلام في النظريات على منازل ودرجات • ليكون من اجتمع معنا في الدرجة الأولى ، تكلمنا معه في الدرجة الثانية ، ومن اجتمع معنا في الدرجة الثانية • تكلمنا معه في الدرجة الثالثة • ثم نمضى كذلك الى أقصى نهايات الكلام • فانما يكون فساد الكلام وتناقضه واشتباهه من قبل النقص في معرفة هذه الدرج ، لأننا متى ناظرنا في الدرجة الثانية من لم يجتمع معنا في الأولى ، لم يبلغ الكارم غاية ، ولم يقف على نهاية » ا. ه •

وعلى منواله نسج « حفص بن البر » في أقواله • ولقد كان لك فيهما أسوة ، لو كنت أهلا للقدوة ، فبينك وبين من سؤالك هذا : ثلاثة أدراج حارت فيها عقول كثير من النظار وفنيت أزمان ، ونفدت أعمار ، فكلامك يا هذا فاسد هجين ، بشهادة قسيسكم « أغشتين » •

وأما قولك : « فاذا اضطرتك المسألة الى القول بها » فقول غير صحيح ، والجهل على قائله يلوح ، وكيف تضطر المسألة مع نظر سقيم ، أخذت مقدماته بالتحكم والتسليم • وانما كان يلزم ذلك : لو نزلت في

= استقر على اتخاذ خليفة وانقطع عن الاتصال الجنسي الطليق ، ووجد نفسه في عام ثلثمائة واثنان وثمانين • وهو لا يزال في الثامنة عشر : أبا ، لولد ذكر ، كان يسميه « ابن خطيئتي » تارة • و « عطية الله » تارة أخرى •
أما من حيث نموه العقلي فقد طاف بكثير من المذاهب الفلسفية كما فعل القديس « جوستين » من قبل • فاعتنق الأفلاطونية مرة ، والمانوية مرة أخرى ، والأفلاطونية الجديدة مرة ثالثة •

وقد ظل « أوغسطين » حوالى تسع سنوات ، معتنقا الثنائية المانوية ، لأنه رأى فيها وسيلة لفهم العالم المركب من الخير والشر ، فمن طبيعة الوجود عندهم أن توجد الظلمة الى جانب النور ، فالشر عنصر أساسى في طبيعة الحياة الانسانية • وهكذا وجد « أوغسطين » ما يبرر وجود الشر في العالم • لكنه في الواقع ظل طوال هذه السنوات التسع « سماعا » والسماعون في المانوية ، هم الاتباع الذين يؤمنون بالمذهب ، ولا يعملون به • أما الاتباع الأوفياء فهم الصديقون أو المختارون • ومات « أوغسطين » في سنة أربعمائة وثلاثين من الميلاد • (صفحة ١٢ و ٤٨ و ١٦١ من كتاب : روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط - تأليف « اتين جليسون » عرض وتعليق : الدكتور امام عبد الفتاح امام - دار الثقافة للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٧٤) •
انظر أيضا صفحة ١٢٦ من كتاب « فجر الاسلام » للدكتور أحمد أمين •

كلامك على شرط السبر والتقسيم ، ونهجت منهج النظر القويم .
والا فبم تنكر على الدهري حيث يقول : « لا أسلم أن العالم مخلوق » ؟
وبم تنكر على الفيلسفي ، حيث يقول : « أسلم أنه مخلوق ، لكن لا أسلم
أنه محتاج الى خالق ، مخترعه بعد العدم » ؟ وبم تنكر على الطبيعى
حيث يقول : « لا يحتاج عالم الطبائع الى خالق ذي قدرة ، وعلم ،
وارادة ، وحياة » ؟ ثم لأى شىء تحكمت ، وقلت : « انها ثلاثة » ؟
فلعلها أكثر ، أو أقل ، ولا بد لك من معرفة ابطال مذاهب هؤلاء
بالبرهان ، وحينئذ تحصل على مرتبة الايقان . وهذا ليس بغشك ،
فاضطجع على نمشك .

خلى الطريق ، لن يبنى المنار به * واقعد ببرزة حيث اضطررك القدر

وأما قولك : « فانى أسألك ان كانت أسماء لذاته ، أو أسماء لأفعاله .
فان قلت : هي أسماء لذاته فقد نقضت ، وجعلتها أسماء للذات ، ووقعت
فيما أنكرت من الجسم » فسؤال لا يستحق أن يسمع ، ولا لصاحبه
في العقل مطمع ، قسمت ، وسبرت ، وبقيت عليك أقسام وما شعرت .
اذ لقائل أن يقول : « ليست هذه الأسماء من أسماء الذات ، ولا من
أسماء الأفعال ، بل هي قسم آخر ، وهو أسماء الصفات » والتقسيم :
متى لم يكن دائرا بين النفي والاثبات ، فهو معرض للنقوض والآفات ،
ثم أطرف من العنقاء : شرعه في أول كلامه في المسميات ، ثم أخذه في
الكلام في الأسماء ، ولم يفرق بين الاسم والمسمى ، فهو جاهل أعمى .

ثم انظر بله هذا السائل ، وعدم حسه ، فلقد خرج بجهله عن
أبناء جنسه . كيف قال : « فان قلت هي أسماء لذاته ، فقد نقضت ،
وجعلتها اسما للذات » وأى فرق بين قوله في المقدم ، وبين قوله في
التالى ؟ وهل هذا الا بمثابة من يقول : « ان قلت هذا اليوم نهارا ،
فقد نقضت ، وجعلته نهارا » ؟

فما أعرفك يا هذا- بنتيجة الشرطى المتصل وحدوده ، وبحد النقيض
وشروطه . فلو استرزقت الله عقلا ، لكان الأخرى بك من الكلام في
المعتقدات والأولى . ثم أعجب من ذلك كله : أنك لزمتم من قال :
« ان العلم والقدرة والارادة أسماء للذات » : القول بالتجسيم .
وهذا نتيجة الجهل الصميم ، والفهم المستقيم . وهذا من أين يلزم ؟

أمن نقيض التالي أو عين المقدم ؟ فوالذي خص الأذكىاء بالعقول •
لقد أربيت في جهلك على كل جهول ، وأتيت بما ليس بمفهوم ولا معقول •

وأما قولك : « وان قلت من أسماء أفعاله التي منها سمي قادر عالم
مريد فهو التثليث الذي أمرنا بالقول به » • فيقتضي أن الأقانيم من
أسماء الأفعال • فهذا قول لا يقول به المجانين ولا الأطفال فان معنى
تسمية الله تعالى بأسماء الأفعال انما معناها عند العقلاء • أن يخلق
الله فعلا يسمى ذلك الفعل باسم فيشتق لله تعالى من ذلك الفعل
اسم • مثال ذلك : خالق ، ورازق • يقالان على الله تعالى ، باعتبار خلق
الخلق ، ورزق الرزق • فان أردت هذا المعنى كان ذلك محالا على
الصفات العلى ، فان صفاته سبحانه وتعالى ليست بمخلوقة ، على
ما يعرف في موضعه ، وأيضا فلو جاز أن يسمى بعلم يخلقه عالما ،
وبارادة يخلقها مريدا ، وبقدرة يخلقها قادرا • جاز أن يسمى بحركة
يخلقها متحركا ، وبصوت يخلقه مصوتا • وذلك مجرى الى جهالات ،
لا يقول بها عاقل • فان أراد هذا السائل بأسماء الأفعال أمر آخر ، فهو
انما اصطلاح مع نفسه ، فكان ينبغي له أن يفسر ما يقول اذ لم يتكلم
بما اصطلاح عليه أرباب العقول •

وأما قولك : « فهو التثليث الذي أمرنا بالقول به » فقول فيه
كذبت ، وعلى الله ورسله اغتريت • فان الرسل عليهم السلام لم تأمر
باعتقاد التثليث لأحد من الأنام • بل قالت الانبياء عليهم السلام ،
ما يعرفه الخاص والعام « فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة » (١)
ولقد حصل للعقلاء بالتواتر ، وعلموا بالوراثه : أن الله تعالى قال :
« لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » (٢) ثم قولك هذا تريد به :
أنكم أمرتم باعتقاد آلهة ثلاثة • وانكم قيل لكم : اعتقدوا في الله تعالى
أنه آلهة ثلاثة ، الله واحد ، وقولوا به • وليس الأمر كذلك عند رهبانكم
المتقدمين ، وأساقفتكم المتأخرين •

هذا « أغشتين » يقول بعد أن تكلم في الأقانيم ، ما تثبت أنها
صفات على ما يقتضيه كلامه • ذلك أنه قال : « وهذا قولنا في الأقانيم
الثلاثة التي لا يمكن جردها منه ، ولا وصفه بغيرها » وهذا تصريح

منه : بأنها صفات • ثم قال بعد ذلك : « فهذا قولنا في التثليث ، الذي وصفه الانجيل ، وأمرنا بالايمان به » وسيأتى نص كلامه • ولم يقل : أمرنا بأن نعتقد أن الله واحد ، ثلاثة • فان الواحد لا يكون ثلاثة والثلاثة لا تكون واحدا • كما قد تبين فسادہ ، بل مفهوم قوله : ان الانجيل وصف أن الله تعالى موصوف بهذه الصفات • وأمرنا بالتصديق بذلك • ولو انكتم عن ألسنتكم أمر التثليث ، واعتقدتم أن الله تعالى واحد موصوف بصفات الكمال ، ونعوت الجلال ، لوفقتهم في هذه المسألة للصواب ، ولحصلتم منها على الحق بلا ارتياب • ولكن من حرم التوفيق ، استدبر الطريق ، ونكل عن التحقيق •

على أن ما ذكرته في أمر التثليث لا يستقيم على رأى المتقدمين من أبحاركم • هذا صاحب كتاب : « المسائل السبع والخمسين » يقول فيها : « لا نقول : ان التثليث ممتزج في أقنوم واحد كقول « شباليش » ولا الهية متحدة ، أو متبعضة الذات ، كقرية « آريش » بل ان أقنوم الآب غير أقنوم الابن ، وأقنوم الابن غير الروح • لكن التثليث المقدس ذات واحدة ، فإذا لم تكن ممتزجة ، وكان كل أقنوم منها غير الآخر — والأقنوم معناه عندكم : الشيء المستغنى بذاته عن أصل جوهره في إقامة خاصة جوهرية — فكيف يتسع عقل ، لأن يقول : ان هذه الثلاثة المتغايرة التي هي على ما ذكر : واحد ؟ وهل قائلة الا معتوه ، أو معاند ؟

الفصل الثاني

أنايم : القدرة والعلم والحياة

في حكاية كلامه أيضا

قال : « فان قلت لم لا تقولون : بسم العالم القادر المريد ، اذا قلتم : باسم الآب والابن والروح القدس • فيتبين : آب ، وابن ، وروح القدس ، ثالثا •

اعلم أن المسيح لما بعث الحواريين الى جميع الأجناس قال لهم : « من آمن منهم فعمدوه على اسم الآب ، والابن ، والروح القدس » (١) وانما خاطبنا بمثل تعاقبنا • فجعل هذه الأسماء كاختلاف قضايا تلك الأفعال ، ثم واسط ، ثم آخر •

فأول القضايا : خلق الله الجميع بيد ، سماها : آبا ، وأضافها الى القدرة • وأضاف قضية وعظ المسيح للناس الى العلم ، وتسماه : ابنا ، لأن العلم لا يوقع عليه ، حتى يتولد كلاما • وأضاف قضية فناء جميع الدنيا ، ومكافأة أهلها بأعمالهم الى الإرادة ، وسماها : روح القدس ، الذي هو قادر ، عالم ، مريد ، اسما للواحد الذي لا يتكرر • اه •

والجواب عن قوله : اعلم يا هذا • انك لم تحسن السؤال •
ولا حصلت منه على صواب مقال ، بل حصل منه في عنقك غل • وفي رجلك عقال • قلبت السؤال ، ولم تشعر ، وجهلت من حيث ظننت أنك تستبصر • أردت أن تقول في الاعتراض الذي وجهته على نفسك • لم لا تكتفون باسم القادر ، العالم ، المريد • ولا تقولون : باسم الآب ، والابن ، وروح القدس ؟ فقدمت وأخرت ، وبالفظة والمعنى أخللت •

(١) النص : « فاذهبوا وتلمنوا جميع الأمم ، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » [متى ٢٨ : ١٩] وفي إنجيل مرقس : « وقال لهم : اذهبوا الى العالم أجمع ، واكرزوا بالانجيل ، للخليقة كلها • من آمن واعتمد خلص • ومن لم يؤمن يدين » (مرقس ١٦ : ١٥) •

ثم أنتجت النتيجة ، قبل ذكر المقدمات ، فصار لذلك كلامك من أرك
الترهات • فقلت فيها : « فيتبين : آب ، وابن ، وروح القدس ثالثا »
وهذا كلام مختل ناقص ، مشوب بالفساد غير خالص • وإنما كان صوابه
أن يقول : فيتبين أنه آب وابن • ثم قلت : « ثالثا » بالنصب ، بخطك
ضبطه ، مشعرا بأنك أعربت ، بل بالاتفاق كتبت ، ولم تشعر بأنك قلبته •
وأما قولك : « أن المسيح لما بعث الحواريين الى جميع الأجناس »
فكلما نقلته مدعيا أنك رويته ، ونحن يجب علينا : أن نتوقف في أخباركم ،
ولا نقطع بتصديقكم ، ولا باكذابكم ، بل نقول ما أمرنا به الرسول •
وبلغنا على السنة النقلة العدول : « آمنا بالله ورسله » (١) فان صدقتم
لم نكذبكم • وان كذبتكم لم نصدقكم • ومع تسليم ذلك جدلا ، فلا بد
أن نباحثكم فيما نقلتم ، ونتفقه فيما حكيتكم •

لفنقول : ظاهر قولك هذا ، يفهم منه : أن رسالة عيسى كانت عامة
لجميع الأجناس • وليس الأمر على ما زعمتم (٢) ، وسيأتى الكلام على
هذا في باب النبوات • وكذا الكلام على المعمودية ، وما يلزم عليها يأتى
في باب الكلام على أحكامهم ان شاء الله تعالى •

وأما استدلالاته على اعتقاد وجوب الآب والابن والروح القدس •
واطلاق القول بذلك بما قاله عيسى للحواريين ، فلا حجة لك فيه • اذ ليس
بنص قاطع • بل هو مما تقولون أنتم فيه متشابه • فانه يحتمل أن يكون
مراده به : عمدوهم على تركهم هذا القول • كما يقول القائل : كل
على اسم الله ، وامش على اسم الله • أى على بركة اسم الله ، ولم
يعين الآب والابن ، من هما ؟ ولا ما المعنى المراد بهما ؟ فلعله أراد
بالآب هنا : الملك الذى نفخ في مريم أمه الروح • اذ نفخه سبب علوق
أمه وحبلها به • وأراد بالابن : نفسه ، اذ خلقه الله تعالى من نفخة
الملك ، فالنفخة له بمثابة النطفة في حق غيره •

(١) في صحيح البخارى « عن أبى هريرة قال : قال : كان أهل الكتاب
يقراءون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الاسلام • فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : لا تصحقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » وقولوا
آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم » الآية (العنكبوت : ٤٦) •
باب « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء » الجزء الخامس صفحة ١٣٦ •
(٢) سنعلق عليها في باب النبوات •

ثم لا يبعد أيضا في التأويل — ان صح ، عن عيسى عليه السلام ، أنه كان يطلق على الله لفظ الأب — أن يكون مراده به : أنه ذو حفظ له ، وذو رحمة وحنان عليه ، وعلى عباده الصالحين ، فهو لهم بمنزلة الأب الشفيق الرحيم . وهم له في القيام بحقوقه وعبادته بمنزلة الولد البار . ويحتمل أن يكون تجوز باطلاق هذا اللفظ على الله تعالى ، لأنه معلمه ، وهاديه ومرشده . كما يقال : « المعلم ، أبو المتعلم » ومن هذا قوله تعالى في كتابنا : « ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل » (١) . على أحد تأويلاته (٢) .

ومن هذين التأويلين : يصح حل ، ما وقع في أناجيلهم ، من هذا اللفظ . بل هذان التأويلان ظاهران ، وسائغان فيها ، ويشهد لهذين التأويلين : قول عيسى للحواريين ، على ما جاء في (سورة الوصية) حيث قال لهم :

« اذا صليتم ، فقولوا : يا أبانا السماوي ، تقديس اسمك ، وقرب ملكك » (٣) ثم قال بعد كلام ، ووصايا : « فاذا كنتم أنتم على شرتكم تعرفون اعطاء الخيرات أولادكم . فكيف أبوكم السماوي » (٤) ؟ وكذلك وقع في انجيل يوحنا (يحيى) : أن عيسى قال لليهود : « أنا عالم أنكم من نسل إبراهيم . ولكن تريدون قتلني . لأنكم

(١) الحج : ٧٨

(٢) في تفسير الكشف للامام الزمخشري « فان قلت : لم يكن «إبراهيم» أبا للامة كلها . قلت : هو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أبا لأمته . لان أمة الرسول في حكم أولاده » ١٠ هـ .

في تفسير « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري : « وإبراهيم هو أبو العرب قاطبة . وقيل : الخطاب لجميع المسلمين . وان لم يكن الكل من ولده ، لان حرمة إبراهيم على المسلمين ، كحرمة الوالد على الولد » ١٠ هـ .

(٣) النص : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذي في السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك » (متى ٦ : ٩ - ١٠ ، ولوقا ١١ : ٢) .

(٤) النص : « فان كنتم ، وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطاية جيدة ، فكم بالحرى أبوكم الذي في السموات يهب خيرات للذين يسألونه » (متى ٧ : ١١) .

« لا تعلق بكم وصيتي • فأعلمكم بما رأيتم عند الآب • وأنتم انما تعملون
 ما رأيتم من أبيكم • فأجابوه • وقالوا : انما أبونا ابراهيم • فقال لهم :
 ان كنتم بنى ابراهيم ، فاقفوا أثره ، ولا تريدوا قتلنى • على أنى رجل ،
 وذنبى اليكم : الحق ، الذى سمعت عن الله • ولم يفعل ابراهيم غير
 هذا • انكم تقفون آثار أبيكم • فقالوا له : لسنا أولاد زنا • وانما
 نحن بنو الله • فقال لهم : لو كان الله أباكم لحفظتمونى • لأننى
 منه » (١) •

ثم نقول : لأنه عليه السلام ، وان كان يطلق هذه الأسماء ، فانما
 كان يطلقها ماثلاً بها • وهكذا أكثر كلامه الذى يحكون فى انجيلهم •

ثم قد نهى عن اطلاقها فى الانجيل : الحواريين : قال فى انجيل لوقا
 : الحواريين : « ما تقولون أنتم ؟ فأجابه سمعون بيتر وقال له : أنت
 المسيح ابن الله • فنهاهم » (٢) وكذلك كان يقول : اذا كان يخرج الجنون
 عن المجانين ، فكانت تخرج ، وهى تقول : « أنت ابن الله » فكان ينتهرهم
 « ويمنعهم من هذا القول » (٣) •

(١) النص : « أنا عالم أنكم ذرية ابراهيم • لكنكم تطلبون أن تقتلونى •
 لأن كلامى ، لا موضع له فيكم • أنا أتكلّم بما رأيتم عند أبى ، وأنتم تعملون
 ما رأيتم عند أبيكم • أجابوا وقالوا له : أبونا هو ابراهيم • قال لهم يسوع :
 لو كنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمال ابراهيم • ولكنكم الآن تطلبون
 أن تقتلونى • وأنا انسان قد كلمكم بالحق الذى سمعته من الله ، هذا لم يعمله
 ابراهيم • أنتم تعملون أعمال أبيكم • فقالوا له : اننا لم نولد من زنا • لنا
 أب واحد ، وهو الله • فقال لهم يسوع : لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى ،
 لأنى خرجت من قبل الله » (يوحنا ٨ : ٣٧ - ٤٢) •

(٢) النص : « قال لهم : وأنتم من تقولون : انى أنا ؟ فأجاب بطرس ،
 وقال مسيح الله ، فانتهرهم وأوصى أن لا يقولوا ذلك لأحد » (لوقا ٩ :
 ٢٠ - ٢١) •

(٣) فى انجيل لوقا : « وكانت شياطين أيضا تخرج من كثيرين ، وهى
 تصرخ وتقول : أنت المسيح ابن الله • فانتهرهم ، ولم يدعهم يتكلمون » (لوقا
 ٤ : ٤١) وجاء فى مرقس بدل « ابن الله » تعبير « قدوس الله » يقول :
 « وكان فى مجتمعهم رجل به روح نجس • فصرخ قائلاً : آه • ما لنا ولك
 يا يسوع الناصرى • أتيت لتهلكنا • أنا أعرفك • من أنت ؟ قدوس الله •
 فانتهره يسوع » (مرقس ١ : ٢٣ - ٢٥) وجاء فيه تعبير « ابن الله » هكذا : =

فهذا يدل دلالة بيّنة على : أن المسيح كان يطلق لفظ الآب على الله تعالى ، بالمعنى الذى يطلق على ابراهيم عليه السلام أنه : أب • وذلك • بمعنى : المعلم الشفيق • وكذلك جاء اللفظ في كتابنا : « ملّة أبيكم ابراهيم » (١) وبذلك المعنى تقول اليهود ، والنصارى ، في ابراهيم ، وليس على حقيقة الأبوة • ومع ذلك فـ « ما كان ابراهيم يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ، وما كان من المشركين » (٢) •

وكذلك في الانجيل في غير ما موضع : « قال لكم أبوكم ، وقلت لأبى » (٣) ويلزم على مساق هذا ألا يخص المسيح باسم الابن ، ولا الله تعالى باسم الأب •

وما بالنّا نطول الأنفاس مع هؤلاء الجاهل ، فانه اذا احتفل هذه التّأويلات ، كان من المتشابهات ، ولا ينبغي أن يصير اليه في الاحتجاجات ، وخصوصاً في الاعتقادات • ثم نقول : لا يخلو المستدل بذلك ، أو ما يقاربه على المعنى المتقدم : اما أن يريد به حقيقة الأب والابن ، أو لا يريد ذلك • فان أراد الحقيقة كان محالا وباطلا • فان حقيقة الأب عند العقلاء : حيوان ولد من نطفة حيوان هو من نوعه • وبهذه النسبة والصفة تفهم حقيقة الابن • وهذان الوصفان محالان على القدرة والعلم • فان العلم ليس بحيوان مولود من نطفة حيوان ، ولا القدرة حيوان يخرج منها نطفة يتولد منها حيوان • وهذا معلوم البطلان بالضرورة •

« والأرواح النجسة حينما نظرتة خرت له وصرخت قائلة : انك انت ابن الله • وأوصاهم كثيرا أن لا يظهروه » (مرقس ٣ : ١١) وهذا يدل على أن « قدوس الله » تساوى « ابن الله » •

(٢) آل عمران : ٦٧

(١) الحج : ٧٨

(٣) في الانجيل نصوص كثيرة بهذا المعنى منها : في (يوحنا ١٢ : ٤٤ — ٤٩) « فنادى يسوع وقال : الذى يؤمن بى ليس يؤمن بى • بل بالذى أرسلنى • والذى يرانى يرى الذى أرسلنى • أنا قد جئت نورا الى العالم ، حتى كل من يؤمن بى لا يمكث في الظلمة • وان سمع أحد كلامى ولم يؤمن • فانا لا أدينه • لانى لم آت لأدين العالم ، بل لأخلص العالم • من رفلنى ولم يقبل كلامى فله من يدينه • الكلام الذى تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير • لانى لم أتكلم من نفسى • لكن الآب الذى أرسلنى هو أعطانى وصية ماذا أقول ؟ وبماذا أتكلم ؟ » النج •

وان أراد بذلك المجاز فلا يصح له حمله على المجاز حتى يجتمع
 المجاز والحقيقة في أمر ما • فانك اذا قلت : (زيد أسد) انما تجوزت
 بلفظ الأسد ، وأطلقت على (زيد) لأجل الشجاعة الجامعة بين
 (الأسد) و (زيد) ولولا ذلك لما صح المجاز فاذن لا بد لهذا المتجوز
 من جامع بين الحقيقة والمجاز • فما الجامع الذي لأجله تجوز هذا
 المحتج ؟ فان قال : الأمر الجامع : أن القدرة أصل العلم — وقد قال
 ذلك في داخل كتابه — منعنا ذلك ، ولم نسأله • وقلنا : المفهوم من
 القدرة ، والمعقول منها عند العقلاء : صفة بها يوجد ما لم يكن موجودا ،
 والمعقول من العلم أنه صفة كاشفة نفسها ومعلومها • يصدر عنها
 الاحكام والاتقان • وهما في حق الله تعالى : أزليان عندنا وعندهم •
 واذا كانا كذلك فلا يتقدم أحدهما على الآخر في الوجود • واذا لم يصح
 ذلك فلا يكون أحدهما أصلا للآخر • فان أراد هذا القائل : التقدم
 في الذهن ، فالعلم هو المتقدم في الذهن لأنه لا يصح فعل اختياري من
 غير عالم • فان العلم شرط اليجاد ، والشرط متقدم في الذهن على
 العلم ، ويتحقق هذا المعنى على القطع : عند من عرف الفرق بين العلم
 المشروط بالضرورة • وكذلك نقول : (علم زيد مقدر) ولا نقول (قدر
 الفعلي والانفعالي • ولو عكستم ما ذكرتم فسميتم العلم : أبا •
 والقدرة : ابنا • لكان أحق بذلك وأولى •

ثم نقول : لأي شيء صرتم الى الجامع بين الحقيقة والمجاز ؟
 هو : الذي ذكرتم ؟ وبم تنكرون على من يزعم : أن هنالك وجها آخر
 لم تطلعوا عليه ثم تحكمتم بتعيين هذا الوجه الذي ذكرتم ؟

ثم نقول : أنتم قاطعون بتعيين هذا الوجه الذي أبديتهم ، أو غير
 قاطعين ؟ فان زعموا : أنهم قاطعون ، فما مستند قطعهم ؟ فلا بد من
 ابدائه • ولا شك في أنهم يجدون في هذا المعنى نصا قاطعا ، فان
 زعموا : أنهم ليسوا بقاطعين ، فقد اعترفوا بأنهم شاكون في اعتقادهم
 — وقد كفونا مؤنة الكلام معهم ، فانهم أسندوا اعتقاداتهم الى الشك ،
 وكفى بذلك زورا وافكا • ثم يلزمهم على تسليم ما ذكرناه من الجامع
 الذي أبدعوه : أن يكون الباري — تعالى وتنزه وتقدس — أبا لكل
 المخلوقات ، اذ هو أصل كل المحدثات ، أي موجدتها ومخترعها •

وأما قولك : « فجعل هذه الأسماء ثلاثا » فيفهم منه : أن هذه الثلاثة
 الألقاب التي تقدم ذكرها ، مجعولة ، وأن الله تعالى هو الذي جعلها •

وإذا كانت بجعل الله فهي بخلقه ، وما كان بخلقه فهو محدث فيلزمك على ظاهر قولك : أن هذه الأقانيم محدثة باختراعه تعالى ، وأنتم تقولون انها أزليات قديمة .

وأما قولك : « التي هي أسماء أفعاله » فقد أبطلناه فيما تقدم حيث بينا حقيقة أسماء الأفعال . ومن وقف على ذلك ، تبين بطلانه هناك . وأما قولك : « مختلفة الأسماء كاختلاف قضايا تلك الأفعال » ، ثم واسط ، ثم آخر « فكلام لا يروقك منظره ، ولا يعيد فائدة ، مخبره يشهد على قائله بالجنون ، ويضحك من عدم فائدته وارتباطه العاقلون » أراد هذا الجاهل أن يتكلم فخرس ، وكذلك يفعل الله بكل مبطل إذا نكس . وإنما أراد هذا المبطل — ولم تطاوعه العبارة لما لم يحصل — : أن هذه الأقانيم الثلاثة إنما سميت أباً ، وابناً ، وروح القدس باعتبار قضايا ثلاث . وذلك أن القدرة إنما سميت أباً ، باعتبار أنها أصل الموجودات ، إذ بها وجدت . وإنما سمي العلم ابناً باعتبار أنه اتحد بالابن ، الذي هو المسيح ، وصدر عنه . وإنما سميت الإرادة روح القدس باعتبار مكافأة الخلق في الدار الآخرة بالنعيم .

فإن زعمت أنك لم ترد هذا فكلامك غير معقول ، وقولك ليس بمقبول وهذا الذي أبديته في هذا الكلام لم يقل به أحد — فيما علمت — من عقلاء نصارى الأنام ، وكفى بقولك عارا : مبين مخالفته لأسقفكم — « أغشتين » — فيها هو يقول في (مصحف العالم الكائن) : « إنما سمي العلم ابناً بإضافته إلى القدرة . إذ القدرة أصله . وكما صار التعارف الأعجمي : أن تسمى القدرة التي هي الأصل : والدا . كذلك صار التعارف في ذلك اللسان أن يسمى العلم المنسوب إليها ابناً » فقله هذا مخالف لقولك ، ورأيه غير موافق لرأيك ، على أنه غلط في قوله : أن القدرة أصل العلم . ويتبين غلظه عند من وقف على ما قدمته قبل . لكنه ، وإن كان قد غلط . فالأمر عليه أقرب ، والخلاف معه أهون ، لأنه يرجع الخلاف معه إلى إطلاق لفظ ، وليس وراء ذلك كثير حظ .

وأما قولك : « لأن العلم لا يوقع عليه ، حتى يتولد كلاما » فكلام حطيط ينبىء عن جهل وتخليط . فإن العلم لا يتولد كلاما . إذ لو جاز ذلك لانقلاب حقيقة العلم ، ولو جاز انقلاب حقيقة واحدة ، لجاز انقلاب كل حقيقة ، فيقلب القديم حادثا ، والحادث قديما . والجسم عرضا ،

والسواد بياضا الى غير ذلك من أنواع انقلاب الحقائق • ثم قولك
فاسد وباطل بالضرورة فاننا نعلم أمورا من غير كلام موصل الى ذلك ،
فقولنا بوجود أنفسنا وبالهنا ، ولذاتنا ومحسوساتنا : بديهيات •

ثم قد صرحت بلفظ التولد ، وهو باطل من أصله ، فان المتولدات
ممكنت ، وكل ممكن مقدور بقدرة الله تعالى ، فكل المولدات مقدورة
بقدرة الله تعالى ، وانما ثبت أنها حدثت بقدرة الله تعالى ، فلا يقال :
انها متولدات •

أقول هذا ، والكلام شجون ، والعلم فنون • على أنى أعرف
أنك لا تفهم ما أقول • وانما أخاطب أهل الفهم والعقول •

وأما قولك : « الذى هو قادر ، عالم ، مرید ، اسما للواحد الذى
لا يتكرر » فقول يدل على تخبطك ، وسوء تناولك • نقضت به ما تقدم
من قولك ، حيث جعلت الأقانيم أسماء أفعال بزعمك • ثم قد صرحت
ما هنا بأنها أسماء للواحد الذى لا يتكرر ، ولو حكى مثل هذا الكلام عن
المستغرقين النوام ، ل قيل : هذا أضغاث أحلام •

وبعد هذا • فلتعلم أنى تجاوزت عنك فى هذا الفصل ، ولم
أؤخذك ، بكل ما فيه من خلل القول خشية طول الكلام ، وتبدد المطلب ،
وبعد المرام • وأول ذلك : أنك لحننت ، وصحفت فى ثمانية مواضع
متبين للناسئين ، بل المراضع •



تعليق التثنية

في حكاية كلامه أيضا

ثم قال : « فان قلت بالتثليث لأنها أسماء أفعال الله ، فأسماء أفعاله أكثر من ثلاثة ، فقولوا بها كقولكم بالتثليث ، لأن عزيز وقوى وغلوب وسميع وقاهر وبصير وغفور وراضي وساخط ومعاقب ، وغيرها من أسماء أفعاله ، فقولوا بها أجمع كقولكم بالتثليث • قلت لك : هذه التي ذكرناها ، هي أصول جميع التسمية ، ومنها تنبثق ، وفيها تندغم • فعزيز وقوى وغلوب وقاهر ، وما أشبهها • أصلها القدرة ، ومنها تنبثق ، وفيها تندغم ، وغفور ورحيم وراضي وساخط ومعاقب • أصلها الإرادة ، منها تنبثق ، وفيها تندغم • فان قلت : فقديم ، وحى ليست منبثقة منها ، ولا مندغمة فيها • فقولوا بالتخمين • قلت لك : ان قديم وحى : أسماء ذات ، لا أسماء أفعال ، وكل اسم للذات انما يؤدي معنى واحدا لنفى ضده ، فقديم لنفى محدث ، وحى لنفى ميت ، ورب لنفى مربوب ، واله لنفى مألوه ، فكل اسم من هذه : القدرة والعلم والإرادة التي هي أسماء أفعال : ثلاثة لذات واحدة ، لا يتكرر ، وكما أنا قد فهمنا أن نفس الانسان لا يقوم لها فعل الا عن ثلاثة • ان نقص منها واحد لم يتم له فعل • وان زاد فيها رابع لم يتفق • كذلك فهمنا عن خالقنا أن تدبيره بنا عن ثلاثة • وذلك أن الانسان لا يقوم له فعل دون الثلاثة • وذلك : القدرة والعلم والإرادة ، ولا رابع منها فان عجزت منها واحدة لم يتم له بالاثنتين فعل • لأنه ان علم وأراد ولم يقدر فقد عجز ، وان قدر وعلم ولم يريد ، فلا يتم له شيء الا بالإرادة • وان قدر ولم يعلم ، لم يتم له فعل بالجهل • فقرب لنا الكتاب : معرفة الخالق بخلقه لهم ، بمثل تعارفنا في أنفسنا ، أن القدرة والعلم والإرادة خواص قائمة هي المتمة للفعل منا ، وانها لذات واحدة • وكذلك التثليث في الله واحد » اهـ •

الجواب عن ما ذكر : اعلم يا هذا أنك اعترضت على نفسك بما يدل على كلال ذهنك ، وعدم حدسك • لأنك أخللت بالسؤال ، وتحكمت في

الانفصال • أما اخلاك بالسؤال ، فأول ذلك : أنك لحنّت في هذا الفصل . في ثمانية عشر موضعا ، وذلك بين عند من تأمل مكتوبك ، وثانية : أنه كان ينبغي لك أن تقدم قبل هذا السؤال : النظر في حد هذه الأقانيم ، وحقيقتها • ثم في الدليل على وجودها • فإن النظر في كون الشيء واحدا أو كثيرا ، إنما يصار إليه بعد معرفة حقيقته ، ومعرفة وجوده • فإذا فرغت من ذلك ، نظرت فيها ، هل وجودها زائد على الذات — أعني ذات الفاعل — أم هو عين الذات ؟ فإذا عرفت هذه المطالب كلها • حينئذ كان يمكنك أن تنظر • هل هي واحدة أم كثيرة ؟ أو هل ترجع الى شيء ، أو يرجع اليها شيء ؟ ولا بد لكل ناظر ينظر فيها • نظرت أنت فيه : أن تعرف قبله ما ذكرته بالبراهين القاطعة • والا فكيف تتكلم في فرع لم يثبت عندك أصله ؟ ولو كنت في نظرك من المتقنين ، لنظرت على الطريقة التي علمها لكم « أغشتين » ؟

وأما تحكّمك في الانفصال : فانما يتبين اذا حكيت كلامك ، وفهمت مرادك • وذلك أنك وجهت على نفسك ، كان قائلًا قال لك : لم جعلت الأقانيم ثلاثة ، وأسماء الله تعالى أكثر من ذلك ؟ فانفصلت عن ذلك ، وقلت : أسماء الله تعالى ، وان كانت كثيرة فانما ترجع الى هذه الثلاثة ، ففاهر وقوى وغلوب وما أشبهها راجع الى القدرة ، وغفور ورحيم ، وما أشبههما راجع الى الارادة • هذا مقتضى كلامك بعد التكرار والاكثر ، وهذا كله منك تحكّم بما لم يقيم لك عليه دليل ، ولا يشهد له من كلامك نظر ، ولا تعليل •

والا فما الذي يدلك على أن أسماء مختلفة المفهومات والحقائق ، راجعة الى معنى واحد ؟ وان جاز أن ترد الأسماء المختلفة المفهومات الى معنى واحد بالتحكم ، جاز أن تقضى بعكس ذلك ، وهو أن ترد الأسماء المترادفة على معنى واحد الى معان مختلفة ، وذلك لا يقوله الغبي الجاهل ، بله الكيس الفاضل • تقول على جهة السؤال ، وبه يظهر تحكّمك في الانفصال : بم تتكر على من يزعم أن جميع صفات الكمال مثل القدرة والعلم والارادة والسمع والبصر والكلام والحياة والقدم والبقاء ، وغير ذلك من صفات الكمال والاستغناء : هي أقانيم الموجودات وأصولها ؟ فان الممكنات انما يتبدل عدما بوجودها بايجاد . موجد متصف بصفات الكمال ، ومنزه عن صفات النقص والافتقار • وان اتصف بصفات النقص والافتقار ، كان محتاجا الى مزيل النقص .

عنه ، ومن كان محتاجا كان ممكنا ، وكل ممكن فالابد أن يستند وجوبه الى سبب واجب لوجود ، فحصل من هذا : أن صفات الكمال والاستغناء كلها لا يصح ايجاد موجود محدث الا ممن اتصف بمجموعها ، وأن من لم يتصف بها فلا يصح منه ايجاد موجود . فاذن هي أصول الموجودات الممكنة ، فاذن هي أقانيم . على قولك .

وسياتى مزيد كلام فى الأقانيم ، ثم نقول : ان قضيت برجوع هذه الأسماء بعضها الى بعض مع تباين مفهوماتها ، واختلاف معانيها ، فلم لا تقضى برجوع الارادة الى العلم ، ورجوع العلم الى التجرد عن المادة كما زعمت الفلاسفة ؟ ولم لا تقضى برجوع القدرة الى الوجود كما قد ذهب اليه طوائف من النصارى المتقدمين ؟ فقد كان طوائف منهم لا يعدون القدرة أقنوما ، وكانوا يردونها الى الوجود ، وكانوا يردون الارادة للحياة . فالأقانيم عندهم : الوجود والعلم والحياة ، وسياتى حكاية مذهبهم ان شاء الله تعالى .

وهذا كله يدل على أنكم فى عقائدكم متحكمون ، لا ترجعون فيها الى أصل عليه تعولون .

وأما سؤالك الثانى الذى وجهت على نفسك ، فوارد عليك ، ولازم لك ، ولم تتفصل عنه . على أنك أخطأت به . فان الذى يعترض به عليك : أكثر من قديم وحى . اذ قد يرد عليك الوجود ، فان أصل الأقانيم . والسمع والبصر ، فان لا يصح رجوعها بحال الى العلم ، فان العلم لا ينوب عن الادراك . فانا بالضرورة نعلم الفرق بين العلم بالصوت ، وسماع الصوت ، وبين العلم بالمرئى ، ورؤية المرئى . مثال ذلك : انا نعلم معلوما على غاية ما يمكن من العلم . ثم اذا رأيناه حصل لنا بالضرورة مزيد وضوح ، ومزيد بينة على العلم به . وكذلك فى المسموع ، فذلك المزيد ، وتلك المزيد . أما أن نقول : ان الله تبارك وتعالى مدرك لها ، أو ليس مدركا لها ؟ فان لم يدركها ، فقد فاتته بعض المزايا ، ولم يحصل له ذلك الوضوح فيكون من يدركها ، وحصلت له : أكمل ممن لم تحصل له . فيؤدى الى أن يكون المخلوق أكمل من الخالق ، والمصنوع أشرف وأتم من الصانع . وذلك محال . وان كان مدركا لها . فبذلك الادراك يسمى بصيرا نسميها ، وهو زائد على العلم ، فان العلم لا يغنى عنه كما تقدم . ولما نشترط فيها بنبة مخصوصة ، ولا جارحة ولا

اتصال أشعة ، بل تنزه الله تعالى عن كل ما يوهم النقص والقصور في حقه . وهذا كما أنا لم نشترط في كونه تعالى عالماً : قلباً ، ولا دماغاً ، ولا في كونه ، قادراً : بنية ، ولا آلة ، بل السمع والبصر ادراكاً ، أعني صفتين متعلقتين بالمسموعات والمبصرات — على ما يعرف في موضعه — فإذا تبين أنهما لا يرجعان إلى العلم ، فعدوهما أقنومين زائدين على ما ذكرتم . وهذا ما لا محيص عنه ، ولا جواب عليه .

وأما قولك « وكل اسم للذات إنما يؤدي معنى واحداً ، لنفى ضده » ، فكلام من لم يحسن الاعتبار ، ولا عرف اصطلاح النظار . وذلك أنك ، أطلقت صفات الذات ، وصفات الأفعال على ما لم يطلقه عليه النظار ، ولا استعمله في نظره أحد من علماء الأمصار .

ونحن نذكر اصطلاح النظار المعتبرين في صفة النظر ، والأفكار . في إطلاق هذه الأسماء ، ليتبين للواقف على هذا الكتاب ، أنك لم تعرف شيئاً من اصطلاحاتهم ، ولا حطت على شيء من مفهوماتهم .

قالوا : إنما تطلق الأسماء بحسب المسميات . والمسميات إما ذات ، أو أمر زائد على الذات . فالذي يدل من الأسماء على الذات : هو الذي يقال عليه : اسم ذات ، مثل قولنا : إنسان وملك . ومن أسمائه تبارك وتعالى : (الله والحق) وأما الذي يدل على أمر زائد على الذات . فذلك الأمر إما أن يكون نفى شيء عن الذات ، أو ثبوت شيء للذات . فالذي يدل على نفى شيء عن الذات : هو الذي يقال عليه اسم سلب . مثال ذلك : (فقير ، وسالم) ومن أسمائه تبارك وتعالى : (القدوس والسلام) فإنها تدل على البراءة من العيوب ، وعلى نفيها . وأما الذي يدل على ثبوت شيء للذات . فذلك الثابت إما أن يقوم بالذات ، أو لا يقوم بها . فالذي يقوم بالذات : هو الذي يقال عليه : (اسم صفة) ومثال ذلك : (عالم ، وقادر ، وسميع ، وبصير) فإن هذه صفات زائدة على الذات ، وأما الزائد على الذات ، الذي لا يقوم بها ، فهو الذي يقال عليه : اسم الفعل . وقد يقال عليه : اسم الإضافة . مثل خالق ، ورازق ، وما أشبه ذلك .

①

فحصل من التقسيم : أن الأسماء على أربعة أضرب : أسماء ذات ، وأسماء صفات ، وأسماء سلوب . وأسماء أفعال . وقد يقال عليها :

«المعتبرين . فان كنت اصطالحت مع نفسك على غير ما تعارفه النظار :
فلمست على شيء مما كان عليه العلماء والأخبار ، فتكلم باصطلاحك مع
نفسك . ولا تخاطب به أحدا من أبناء جنسك ، ولا يظن ظان ، أن هذا
السائل ، أراد بأسماء الأفعال : الأسماء التي لا يوجد الفعل إلا بها .
مثل العلم ، والقدرة ، والارادة . فانه قد جعل من أسماء الأفعال
مالا يوجد به فعل كسميع وبصير وغيرها مما ذكر . وفيما أحسب :
أنه أراد هذا المعنى ، ولم تساعده العبارة فعنى ، وعنى .

وأما قولك « حى لنفى ميت ، ورب لنفى مربوب ، واله لنفى
مألوله » فكلام مجنون معتوه . فانه ان جاز أن يكون حيا من أسماء
السلوب والنفى ، فما المانع من أن يكون العلم من أسماء السلوب ؟ فانه
يمكن أن يقال : عالم لنفى جاهل ، ومريد لنفى كاره ، وقادر لنفى عاجز .
وهكذا يجرى في جميع الصفات والأسماء ، التي لها نقائص . وذلك يؤدي
إلى جهالات ، وجحد المحقولات . وأيضا ، فان كانت الحياة سلبي ،
فبيستحيل أن تكون شرطا للعلم والقدرة والارادة وغيرها . وكونها شرطا
لهذه الصفات ، معلوم بالضرورة ، والنفى لا يكون شرطا ، ولا مشروطا
في مثل ما نحن فيه .

ثم نقول : قولك هذا مخالف لما تقوله (أقستكم) هذا صاحب
كتاب (الحروف) يقول : « البارئ تعالى لم يزل حيا بروحه ، وناطقا
بكلماته ، فمهما قلت : لم يزل حيا ، ولم يزل ناطقا ، أوجبت في نطقه
لحياته ، ونطقه : الأزلية » وهذا منه تصريح : بأن الحياة ليست ترجع إلى
«نفى الموت . ثم قال بعد ذلك بكلام : « وروحه — أعنى حياته — أغنوم
بخاص كامل ، لم يزل » وسيأتى الكلام معه في هذا ان شاء الله تعالى .

وأما قولك « رب لنفى مربوب » فقوله مختلط عقله ، مغلوب .
فلان الرب معناه : الملك . فهو من أسماء الاضافة والأفعال . وأما الآله
فهو من الآلهة ، وهي للعبادة ، فهو مألوله ، أى معبود آلهة عبادة ، فهو
من أسماء الأفعال والاضافة .

وأما قولك « وكما أنا قد فهمنا أن نفس الانسان ، لا يقوم لها فعل
إلا عن ثلاثة » . . كذلك فهمنا عن خالقنا : أن تدبيره بنا عن ثلاثة » فقوله
يبدل على سوء نظرك ، وقلة تشبكتك . وذلك أن مفهوم ما ذكرته في هذا

الفصل على تشبيجه وسوء ترتيبيه ، هو أنك قلت : ان الانسان لا يتأتى منه فعل حتى يكون قادرا عالما مريدا ، فان نقصه منها واحد ، لم يصح ايجاد الفعل منه . فكذلك خالقنا سبحانه وتعالى هو قادر عالم مريد ، ولو نقصه منها واحد لم يصح منه ايجاد فعل كالانسان . هذا مفهوم كلامك على كثرته .

وهذا كلام فاسد ، لأنه قياس الغائب على الشاهد ، اذ هو قياس خال عن الجامع . وأيضا فلو كان هنالك جامع لكان باطلا فانه قياس جزئى على جزئى . وذلك انما هو صالح للظنيات ، لا للعمليات ، ولو جاز قياس البارى سبحانه على خلقه ، لزم ألا يكون قادرا ، حتى يكون ذا آلة ، وعصب ، ويد الجارحة . فان الواحد منا لا يكون قادرا حتى يكون كذلك . وكذلك كان يلزم ألا يكون عالما حتى يكون ذا قلب ودماع الى غير ذلك من المحالات . ويلزمك على مساق قولك ، أن يكون البارى تعالى جسما . فانك كما لم تر موجدا ، ولا فاعلا لفعل ، الا قادرا عالما مريدا . كذلك لم تر فاعلا ، ولا موجدا الا جسما . وهذه جهالات لازمة على قولك ، ومنتجة عن صمم جهلك ، فلا تنتفع بهذا الكلام حتى تسبره على محك النظر الاعلام . ولو تتبعنا خطاك فى هذا الفصل ، لطان الكلام ، ولكثر عليك التوبيخ والملام . لكننا نكل الناظر فيه للوقوف على فساد معانيه .

الفصل الرابع

دليل التثليث

في حكاية كلامه أيضا

قال : « فان سأل سائل من المخالفين • فقال : فما الدليل على صدق ما تدعون من تثليث وحدانية الخالق • وكيف يمكن أن تكون الثلاثة واحدا والواحد ثلاثة ، مع ما ابتدأتم به من القول ، وإثباتكم إياه فردا لم يزل ؟ »

قلنا لهم : اما أن تكون الثلاثة واحدا ، والواحد ثلاثة ، فلذلك لعمرى ما لا يمكن كونه • ولكن نقول [أن جوهرنا قديما لم يزل موجودا بثلاث خواص أزليات ، جوهرات غير متباينات ، ولا متفرقات في الجوهر القديم الأزلي ، الذي لا يتبعض ، ولا يتجزأ بعينه ، وكماله •] فلا هو ثلاثة ، وجميع الثلاثة : خواص ، هي بمعنى ما هو واحد ، ولا هو واحد ، بمعنى ما هو ثلاثة ، أعني ليس هو خاصة واحدة ، بل ثلاثة خواص • فهذا مذهبنا في تثليث وحدانية الخالق] أ • هـ

الجواب عنه : هذا السؤال الذي وجهت على نفسك ، وارد عليك ، ولازم لك • وأما انفصالك عنه فمخرجك عن ملة النصرانية ، ولا يبقى عليك منها بقية • وذلك أن مرادك من هذا الجواب : أنك قلت كلاما معناه : أن كون الواحد ثلاثة ، والثلاثة واحدا ، غير جائز عقلا • ولكن معنى التثليث [أن الله تعالى جوهر قديم لم يزل موصوفا بثلاث خواص أوليات ، فهو واحد بمجموع الأقانيم ، وثلاثة بتفرق الأقانيم • وتلك الأقانيم لا تفارق وجوده ، ولا تباينه ، ولا يمكن أن يحمل كلامك الا على هذا • وان حمل على غيره فهو بعيد وغيره مفيد •]

وهذا الذي ذكرته ، لا يسأله لك أكثر النصارى • بل يتبرأون عنه ، ولا يرضون بشيء منه • اذ نصارى قبلك ، أكثرهم متفقون على أن الأقانيم الثلاثة آلهة ، وأنها اله واحد • فأنت تقول : هي خواص ، وهم يقولون : آلهة [فأي شيء يجمع بين الخاصية والالهية ، وبينهما ما بين السماء •]

يو الأرض ، والرفع والخفض ؟ وسيتضح ذلك اذا نقلنا مذاهبهم في ذلك
ان شاء الله تعالى .

ثم نقول لهم : لاي شيء تحكمتم بتسمية خالقكم جوهرًا ؟ وفي أي
موضع كتب الأنبياء وجدتم الأمر بذلك ؟ أو على لسان من بلغكم الأمر به ،
ولا تجدون لاثبات الأمر بذلك سبيلا غير التحكم ؟ ولو كنتم ممن يستحي
من الله لما تحكمتم عليه بأن سميتوه بما لم يسم به نفسه ، ولو أن
واحدًا منكم سمى له ولد بغير أمره ، لأنف من ذلك ، وعظم عليه ، ولو ينج
السمى لأنه تصرف فيما لا ينبغي له . هذا اذا كان الاسم مما يفهم منه
المدح ، فما ظنك لو سمى بلقب يفهم منه النقص والعيب . ولفظ «الجوهر»
في المعارف عند النظار وغيرهم يطلقونه على المتحيز ، وهو الجرم
المشغل قدرًا من المساحة . ولا بد له من الحركة والسكون ، وهما
حالا تغيره ، وحدوثه ، فان أردت به معنى آخر فلا بد من بيانه اذ لم
تتكلم بما تكلم به أرباب النظر ، المذللون سبل العبر .

في بيان اختلافهم في الأقسام

نبين في هذا الفصل مذاهب أوائلهم ، ونتكلم معهم فيها ، ونوضح مسائلهم فيها ان شاء الله تعالى ، ونحكي مذاهبهم بألفاظهم كما وجدتها في كتبهم . ولم أعول في ذلك على نقل علمائنا عنهم فقط ، بل تتبعته ما أمكنني من كتبهم والله والموفق .

قالوا : « لما أفهمتنا الشواهد العقلية : أن الخالق لم يزل حيا ولم يزل ناطقا . قلنا : فهل يحق أن يكون هو بحياته ونطقه شخصا واحدا جامعا لأجزاء مختلفة ، كما يقال في حد الانسان : انه حيوان ناطق مائت . اذ تسمى أجزاء جوهره مع أعراضه المختلفة فيه : أقنوما واحدا ، شخصا واحدا ، ولا يسمى كل جزء ، وكل عرض منها أقنوما انسيا : وذلك لأن اسم الأقنوم واجب للشيء المستغنى بذاته ، القائم بشخصه . لا لذي الاضطرار كالأجزاء ، ولا لذي الاشتباك كالأعراض . فان الأجزاء والأعراض لا تقوم مكتفية بذواتها ، كما أن حر النار الذي هو جزء من قوى النار لا يقوم بذاته أقنوما منفردا دون أصلية النار وضوئها . وكذلك الأعراض المشتبكة في الجوهر كالسواد والبياض ، وما أشبههما ، لا تقوم أشخاصا مكتفية بذواتها دون الجوهر اللازم لها . [فالأقنوم هو المستغنى بذاته عن أصل جوهريته كالانسان المستغنى بخاصية إنسانيته عن الناس والشجرة عن الأشجار والدينار عن الدنانير ، فامتناع أجزاء الانسان من القيام أشخاصا لا اضطرارها وعجزها عن القيام بذواتها كروحه العاجزة عن القيام بتحديد انسانا دون جسمه ونطقه ، وكذلك نطقه وجسمه ، يعجز كل واحد منهما عن القيام بتحديد انسانا دون روجه ، وذلك لا اضطرار كل جزء منها الى صاحبه في القيام بانسانيته .

[فاذا تقرر هذا . فحياة الله ونطقه لا يخلو من أن يكونا جزأين من جوهره ، كما هو من الانسان ، أو غير جوهره . فان قلنا : هما جزءان من جوهره الزمناه ما يلزم الانسان من الاضطرار والتأليف ، لأننا وجدنا

أجزاء الانسان لا اضطرار بعضها الى بعض تقصر عن احتمال أسماء الأقانيم ، وهذا يستحيل على الجوهر الأزلي ، اذ هو متعالى عن الأجزاء والتأليف والتركيب والأعراض . فأوجبوا أن تكون خواصه لغناؤه . وكمالها ، تسمى أقانيم قائمة بخواصها ، ومستحقة الذى توصف به . بجوهرية قديمة كقدمه ، لا جزأين مركبين ، ولا عرضين منفصلين ، لأنه لم يزل حيا ، وناطقا بكلمته .

سبح ومن زعم أن الحياة من الله ، والنطق منه : محدثان . وصف الله تعالى في أزليته بالموت والجهل . وان قلنا : حياته ونطقه غير جوهره أزليان . فقد أشركنا مع الله في أزليته غيره فلذلك يسمى كل واحد من الروح والكلمة جوهرية خاصة ، فوجب أن يكون جوهر الخالق ، تعالى : أقنوما ، خاصا ، قائما كاملا بخاصية لم يزل . ونطقه الذى هو كلمته : أقنوما ، خاصا كاملا قائما بخاصية لم تزل . وروحه أعنى حياته : أقنوما ، خاصا ، كاملا قائما بخاصية لم يزل . فهذه ثلاثة أقانيم معروفة بمعانيها ، لا متفصلة ، ولا متركبة ، ولا متشابكة ، جوهر واحد ، ذات واحدة » اهـ .

هذا كلام صاحب « الحروف » وهو عندهم القسيس المعروف . ولقد رام تحسين مذهبهم ، وتبيين مطلبهم . ولكن لا يستوى الظل ، والعود أعوج . ولا يصلح المذهب وقائله أهوج .

✽ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ✽

وهم مع ذلك فيما ذكرناه من الأقانيم مختلفون ، وبالحيرة عمهون .

[هذا صاحب كتاب « المسائل » يقول : « هذه الثلاثة الأقانيم متوحددة لأجل الآب ، متساوية لأجل الابن ، منتظمة لأجل للروح . فنفؤمن : أن الآب : أب ، لأجل أنه ذو ابن . والابن : ابن . لأنه ذو أب . والروح القدس : منبثق لأنه من الآب والابن . فالآب أصلية الإلهية لأنه كما لا يخلو قط أن يكون لها كذلك لم يخلو قط أن يكون آبا ، الذى الابن منه مولود ، والذى الروح القدس منه ليس مولودا ، لأنه ليس ابنا ، ولا غير مولود لأنه ليس مخلوقا ، لأنه ليس من شيء ، بل الله منبثق من الآب والابن اله .

أقنوم الآب غير أقنوم الابن • وأقنوم الابن غير أقنوم الروح القدس • لكن التثليث المقدس ذات واحدة ، الهية واحدة • وهذا تصريح بأن الأقانيم : آلهة • وإن كان واحد منها غير الآخر •

وقد ذهب « شباليش » الى أن الثلاثة الأقانيم ، ممتزجة في أقنوم واحد ، وهو عند كثير منهم مكفرا ، وكالمكفر • وقد ذهب « آريش » الى أن الهية الأقانيم منخلزة ومتبعضة الذات ، وهو عندهم مفتر خارجي « اه •

وقال صاحب كتاب « المسائل » : « لسنا نؤمن أن في التثليث شيئا مخلوقا ، أو خادما كالذى أنشأه « دنونيشيش » أو غير معتزل كقول « أونوميش » ، أو ناقص الامتنان كقول « أوتفش » أو مقدا أو مؤخرا أو صغيرا كقول « آريش » ولا ذا جسد كقول « مالطه » و « ثرتليان » ولا مصورا بالحيدية كقول « أربد » و « نمرشيش » أو محجوبا بعضه عن بعض كقول « أوريان » ولا مربيا من المخلوقات كقول « فرشاط » ولا متفرق الارادة والعوائد كقول « مرحيون » ولا منقلبا من ذات التثليث الى طبيعة المخلوقات كقول « فلاتون » و « ثرتليان » ولا منفردا في رتبة مشتركا في أخرى كقول « أوريان » ولا ممتزجا كقول « شباليش » بدل كله كامل لأنه كله واحد • ومن واحد لا تعدد ، كزعم « شلبانش » اه •

واذا وقفت على هذه الأقاويل الضعيفة ، والآراء السخيفة • لم تشك في تخبظهم في عقائدهم ، وحيرتهم في مقاصدهم • قالوا في الله تبارك وتعالى بأرائهم ، واتبعوا فيها ظاهر أهوائهم ، فهم في ريبهم يترددون ، ولجهالهم مقلدون ، وبضلالهم مقتدرون •

ولما رأينا هذه المذاهب الركيكة لا تستحق أن تحكى ، بل يضحك من ذهاب عقول أربابها ويبيكى ، أعرضت عنها اعراض المطلع على عوره ، أمام من يخاف جوره ، فعزمت على نقل مذهب كبيرهم « أغشتين » ، فإن مذهبه في الأقانيم ، مقارب في الصفات مذهب المسلمين •

وذلك أنه قال بعد مقدمة كلام يرجع حاصله الى ما نذكره :

« لما أقر علماء المجوس بالقوة الماسكة لكل شيء ، وأراد بعضهم أن ينزلوها جوهرًا غير حي ، ولا مستغن بنفسه ، وجب علينا أن نحتج عليهم بما يضمهم إلى الإقرار بأن تلك القدرة ذات علم وإرادة » .

قال : « وقد رد علينا هذه المقالة » برفيريش « فقال : لا نقول ، انه شيء فيكون قد سميناه بالأشياء التي لا تسلم من عيب ، ولكننا نقول : « انه » • ولا نقول : « شيء » • ثم قال : « أستم تقرأون : أن الذي قدر هو الذي علم ، وأن الذي علم ، هو الذي أراد ، فهو واحد في جميع المعاني • وإنما القدرة والعلم والإرادة أسماء صارت فيما بين الخلق والمخلوق ، وليست لا خالقة ، ولا مخلوقة • لأنه لو لم يكن الشيء المقدور ، لم يسم ذا قدرة ، ولو لم يكن الشيء المعلوم ، لم يسم ذا علم • وكذلك القول في الإرادة • فهذه الأسماء ، إنما هي أعراض ، وأسماء فيما بينه ، وبين الخلق • مثل قولنا : ذو رحمة ، وذو حكم ، وذو عقاب • فلو لم يكن الخلق المرحوم لم يلزمه اسم الرحمة • وكذلك غيرها » .

قال « أغشتين » في جوابه عن قوله : « لا نقول ان لكل شيء عقيب ، وما لم يكن له عقيب فليس بشيء • لأن عقيب شيء ، لا شيء • وإذا كان إنما ينفي عنه اسم شيء • لأن الأشياء كلها له • فمثل ذلك يجب عليه في قوله : « ان » أو قوله : « كان » • مع أننا لا نعرف شيئاً نقول فيه : « ان » إلا بعد معرفتنا إياه « شيئاً » ، وحسبنا في هذا قولنا : شيء ليس كشيء • من جميع الأشياء » .

قال : « وأما قوله : ان القدرة والعلم إنما هي أعراض لزمانه فيما بينه وبين الخلق ، وإنما مثل الرحمة والحكم • فإننا نحتج عليه في ذلك بأن نقول : لست تتكر أنه كان قبل الأشياء ، ودون الأشياء ، بلا ابتداء • فهل تقدر أن تجحد أنه كان أبداً قادراً ؟ فإذا أقررت أنه لم يزل قادراً • فقد أقررت أن القدرة صفة أزلية • فإن قلت : انه لا يجوز أن يسمى قبل أن يكون الشيء المقدور عليه • وإنما يسمى قادراً بعد كون الشيء المقدور علينا • قلنا : أفكان يقدر على أن يقدر • أم لا ؟ فلا بد لك من أن تقول : كان يقدر • فيلزمك وصفه بالقدرة على كل حال •

وكذلك قولنا في العلم والارادة • وقولك : يرحم ، ويغفر ويحكم •
ئيس مثل قولنا : يقدر ويعلم ويريد ، لأنك لا تقول : كان أبدا يرحم •
وكان أبدا يخلق • ولا بد من أن تقول : كان أبدا يقدر ، وكان أبدا
يعلم ، وكان أبدا يريد « ا.ه. »

ثم قال بعد كلامه مع الفلاسفة : « فنحن ما لم نصفه بالعلم
والارادة ، لم نصفه بمدير ، ولاحي » ا.ه. •

ثم قال : « ان قلنا عرفناه بوجدانيته ، وعلمناه بذاته من غير نظرنا
الى فعله ، الدال على قدرته وعلمه وارادته ، فقد كذبنا • لأنه لا يقدر
أحد أن يقول : انه وقع على معرفته الا بما نظر اليه من خلقه ، وتفكر
فيه من حكمه ، وبمعرفته بنفسه • وكل هذا اقرار بالثلاثة الأقانيم التي
ذكرنا ، لأننا وجدنا الخلق الذي لم يقدر أن يكون بنفسه وجب
الاقرار بالشئ الذي قدر أن يكون ، وهي القدرة التي سماها علماء
المجوس : الهيول • ثم لما نظرنا الى تدبير الخلق وجب الاقرار بالعلم
والارادة ، لأن التدبير لا يكون الا ممن يعلم ويريد ، فثلاثتها اسم
لله واحد ، ونعت لمدير فرد ، ولا تجد هي غيره ، ولا يجد هو غيرها •
فهذا قولنا في التثليث الذي وصفه الانجيل ، وأمر بالايمان به ، وسماه
باللسان العجمي : الآب والابن والروح القدس » ا.ه. •

فهذا كلام هذا القس • والنصارى يعترفون بأنه أعرفهم بدينهم
وأعلمهم بشرعهم ، ويقتنهم ينص على أن الأقانيم الثلاثة صفات
ونعوت للواحد الفرد • ولا يقال فيها : انها هو • ولا هي غيره ، وهو
يعبري من المصدقين في هذا النظر إذ قد سلك مناهج البحث والعبر •
ولقد قارب الحنيفة ، وتباعد عن الملة النصرانية • الا أننا ننازعه
نزاعين أحدهما : في تسمية هذه الصفات : الآب والابن والروح القدس •
على ما تقرر ، وهذا نزاع لفظي ليس بكبير ، ولا له حظ خطير • والنزاع
الثاني : في أنه قصر الأقانيم على هذه الثلاثة ، ولم يعد الحياة فيها
كما فعل غيره منهم ، وكذلك الوجود الموصوف بهذه الصفات لم يعدم
أقنوما • وقد صرح بأنها صفات ، ولا بد للصفات من موصوف بها
بالضرورة •

وسنعتف عليه بالرد اذا تكلمنا مع غيره . ان شاء الله تعالى . ومع هذا فقد سلك هذا الرجل مسلك أرباب العقول ، وتبرأ من جهالة كل جهول . واذا كان كذلك فسبيلنا أن نتكلم مع الذى صدرنا هذا الفصل بذكر كلامه ، فانه كثير الفساد ، مضرب عن الرشاد ، ويتضمن الرد عليه ، الرد على غيره ممن يقول مثل قوله ، أو ما يقاربه ، مستعينين بالله ، متوكلين عليه .

الجواب عن ما ذكره المصدر كلامه :

لتعلم أيها الناظر في كتابنا : أننا يمكننا أن نناقش هذا القائل ، كما ناقشنا السائل . فان كلامه كثير الغلط ، ظاهر التكلف ، والشطط . لكننا تركنا مناقشته اللفظية ، وصرفنا المناقشة للمباحثة المعنوية ، كراهة للاكثار وميلا للإيجاز والاختصار . وأيضا . فان نفس الله في العنبر ، وصرف عنا عوائق الدهر ، فسند عليه في كتاب مفرد ان شاء الله تعالى ، أبين فيه غلطاته ، وأوضح جهالاته ، ونسقطاته . بهول الله وقوته .

فنقول له : لا يشك عاقل سليم الفطرة : أن خالق العالم موجود . ليس بمعدوم وقد اعترفتكم بأنه حي عالم . ومن لم يعترف بذلك أقيمت عليه البراهين القاطعة . فاذا تقرر ذلك . قلنا : مفهوم أنه حي ، هو عين مفهوم أنه عالم ، أو غيره . فان كان عينه فقولكم : حي ، عالم كقولكم : حي ، حي . أو عالم عالم . والفرق ما بينهما معلوم . ضرورة ، ولو كان عينه ، لاختلطت الحقائق فثبت أنهما متغايران متعددان . فاذا ثبت ذلك . فاما أن يرجعنا الى المخلوق سبحانه وتعالى في قولكم : انه حي عالم . أو لا يرجعنا . فان لم يرجعنا لم يصح الاتجار عنه بهما ، ولم يكونا وصفين له ، فثبت أنهما يرجعان اليه ، واذا ثبت ذلك فاما أن يكونا من أوصافه تعالى النفسية أعني الذاتية فان كانا من أوصافه النفسية أدى ذلك الى أن يكون ذاته وماهيته متراكبة متبعضة ، وذلك محال على ما قررتم فيما تقدم من كلامكم .

وأيضا لو عقل كون العلم والحياة من الأوصاف النفسية في محل عقل ذلك في كل محل . ويلزم من ذلك كون العلم والحياة من صفات أنفسنا ، وذلك معلوم البطلان بالضرورة .

وأیضا فلو جاز ذلك للزم أن يكون العلم والحياة قائمین بأنفسهما ، أعنی موصوفین ، لأن جزء القائم بنفسه ، قائم بنفسه • وقد ثبت بالأدلة القاطعة : أن البارئ تعالى قائم بنفسه ، والمعقول من العلم والحياة أنهما صفتان ، لا موصوفان • فإذا تقرر ذلك ، وثبت • لزم منه أنهما زائدان على النفس • فإذا ثبت ذلك ، فاما أن یقوما به ، أو لا یقوما به • فان لم یقوما به لم یتصف بهما ، ولو جاز أن یتصف فیما لا یقوم به ، لجاز ذلك فی حقنا ، فكان یلزم علیه ، أن يكون علم زید ، یتصف به عمرو • وذلك محال ضرورة • فدل ذلك على أنهما قائمان به • (فإذا قاما به وهما وجودان زائدان على الذات حصل من ذلك كله : أن ذاته واحدة لا ترکیب فیها ، ولا تعدد • وأن صفاته الزائدة هي المتعددة • وهذا لا إحالة فيه ، بل هو الحق ، الذي لا غبار علیه ، ولا بد لكل ناظر من الرجوع ، وان تخطب الیه ، فهكذا ينبغي أن تفهم صفات البارئ تبارک وتعالى ، وتقدس وتنزه عما یقول الجاهلون ، والكافرون علوا كبيرا •

وهذه الطريقة البرهانية تجری فی كل صفة يدعی ثبوتها للبارئ تعالى • وبعد الانتهاء الى هذا المحل ينظر • هل أوصافه أزلیة ، أم لیست أزلیة ؟ والحق أنها أزلیة ، ولا محرز أن يكون شیء منها حادثا ، اذ لو كان شیء من صفاته حادثا للزم علیه أن يكون محلا للحوادث ، ویلزم على ذلك حدوثه تعالى ، وهو محال ، على ما یعرف فی موضعه • فإذا تمهد هذا الأصل • قلنا بعده للمتکلم معه : الأقانیم عندکم لا تخلو من أن ترجع اما الى صفاته النفسیة ، أو الى صفاته المعنویة • أعنی الزائدة على النفس ، ولا واسطة بین القسمین • فان رددتموها الى القسم الأول ، لزمکم ما تقدم من المحالات ، حذو النعل بالنعل ، وان رددتموها الى القسم الآخر ، فلا ی معنى قلتم فی حد الأقنوم : انه الشیء المستغنی بذاته عن أصل جوهره فی اقامة خاصة جوهریته ؟ وهل المفهوم من هذا الا أنه صفة نفس ؟ لأن المستغنی بذاته عن أصل جوهره هو الذي نعبر نحن عنه بالقائم بنفسه ، ويعبر عنه غیرنا من النظائر بالموجود ، لا فی موضوع •

وأیضا • ان كان أراد هذا القائل أن الأقنوم هو الصفة الزائدة على الذات فیلزمه أن یجعل الأعراس أقانیم • فانها زائدة على الذات •

ومن عجيب أمره أنه ألزم من قال ان العلم والحياة غير الجوهر :
 الاشراف به . وأى اشراف يلزم من قال : ان صفات المعاني زائدة على
 ذات الموصوف بها ؟ وكيف يمكن أن يقول عاقل : ان الصفة الزائدة
 على الجوهر ، انها عين الجوهر ؟ وهل قائل هذا الا جاهل ، أو متجاهل ؟
 فتحصل من هذا كله : أن الأتانيم لا يصح عندهم أن يتقابل على
 الصفات النفسية ولا على الصفات المعنوية ، ولا يعقل هنالك أمر آخر
 متوسط بينهما . فقولهم في الأتانيم غير معقول ، فكأنه قول مجنون
 مضبول .

ثم نقول لهذا القائل : لأى شيء لم تجعله القدرة من الأتانيم ،
 كما ذهب اليه مقدمكم الأقدم . وأستفكم الأزعم « أغشتين » فتكون
 الأتانيم أربعة ؟ فان قال : ان القدرة ترجع الى الوجود كما صرح بذلك
 بعضهم ، فنقول لمن يقول ذلك : ولم ذلك ؟ وهل لا يرجع العلم والحياة
 الى الوجود ؟ وما الفصل بينهما ؟ الا محض التحكم .

— وكذلك القول في الارادة ترجع الى الحياة .

فقل له : ان صح ذلك فليرجع اليها العلم . وان جاز شيء من ذلك
 قلترجم كل واحدة من هذه الصفات الى الأخرى ، ويرجع الكل الى
 الوجود ، والوجود هو نفس الذات ، فترجع الأتانيم الثلاثة الى واحد .
 وهو متاهل على ما تقدم ليكم ، وعليكم . ويكون هذا أيضا قولاً بامتزاج
 الثلاثة الأتانيم في أقنوم واحد كتقول الخارجى الجاهل « شباليش »
 وأنتم لا تعرضون شيئاً من قوله ، ولا مذهبه .

ثم نقول : لأى شيء تحكمتم . بأن الأتانيم ثلاثة ؟ وهلا أضفتم
 اليها القدرة والعلم والسمع والبصر كما تقدم الكلام عليه ؟ أو لعلها
 اثنتان ، وعدم انتصارهم يدل على ضعف انتصارهم ، ولا حجة لهم في
 هذه المواطن كلها أكثر من التحكم . فنبغى إذن أن يتكلم معهم على
 جهة المناقضة والتحكم ، وقايتهم في ذلك : أن يرجعوا الى الاستقراء
 والتعميل . وهذا في المعتقدات : طريقنا الخطأ ، والتضليل .

ثم نقول : هذه الأتانيم الثلاثة قد قلتم : ان كل واحد منها مستغن
 بذاته عن أصل جوهره . وإذا كان ذلك . فطام أن يكون كل واحد منها

أله ، أو جزء اله ، أو يكون مجموعها : اله واحد ، فان كان جزء اله ،
لزم عليه : أن يكون الاله متركبا متبعضا • ويلزمكم على ذلك : ابطال
التثليث الذى تقولون به ، ويلزمكم على ذلك : الامتزاج الذى ذهب
اليه « شباليش » وان كان كل واحد منها اله بانفراده ، لزمكم على
ذلك أمور كثيرة مشينة باطلة • منها أن يكون كل واحد من هذه الأقانيم
حيا عالما مريدا قادرا موصوفا بصفات الكمال • اذ الاله هو الموصوف
بصفات الكمال ، المتعالى عن صفات النقص • فاذا التزم ذلك ملتزم :
لزم عليه أن تقوم الصفة بالصفة • وان جاز ذلك جاز أن يقوم العلم
والقدرة بالارادة • والارادة والقدرة بالعلم • والقدرة والعلم
بالحركة • والحركة والقدرة والعلم باللون الى غير ذلك من أنواع
الجهالات التى لا يبيء بها عاقل ، ولا يرضى بسماعها فاضل • وان جاز
قيام الصفة بالصفة جاز أن يقوم بالصفة صفة • وبذلك الصفة صفة ،
ويتسلسل • وما يتسلسل لم يتحصل ، ويلزم عليه : أن تكون الأقانيم
لا نهاية لها • اذ العلم يقوم به حياة ، وتلك الحياة حية بحياة ، الى غير
آخر • ومنها : أن تكون القدرة قادرة بقدرة ، والعلم عالم بعلم ، والحياة
حية بحياة ، الى غير ذلك من الصفات • وهذا غير معقول • فان العلم
والقدرة ، وسائر صفات المعانى : انما توجب أحكامها للمحال التى تقوم
بها ، لا لأنفسها • بالعلم لا يكون عالما ، ولا قادرا ، وكذلك القدرة
لا تكون عالمة ولا قادرة ، وكذلك سائرهما • وانما العالم والقادر والمريد
والحى : هو الذات الذى تقوم به هذه الصفات • وهذا معلوم من غير
أسباب ، ولا أطناب •

ومنها : أن يكون الاله صفة لموصوف • فان المفهوم المعقول من
هذه الأقانيم أنها صفات لا موصوفات على ما تقدم الى أمور كثيرة
يطول الكلام بذكرها •

ثم نرجع الى بقية التقسيم فنقول : وان لم تكن هذه الأقانيم
حية ، ولا عالمة ، ولا قادرة ، فلا تكون الهية • وقد أطبق النصارى
على أنها آلهة • ويلزمهم ان لم تكن الأقانيم موصوفة بهذه الصفات
وصفها بأضدادها أو بالانفكاك عنها ان لم يوصف بحياة وصفت
بالانفكاك عنها • والمنفك عن الحياة ميت • فيلزم عليه : أن يقولوا
بآلهة أموات • وكذلك يلزم فى سائر الصفات •

وقد كع المصدر بكلامه عن هذا الالزام ، وصعب عليه المرام ،
فتكلم بما لا يعقل فليته سكت ، ولم يتقول ، وبعد الخطب والتأوه ،
قال : هذا مالا يجوز لنا به التفوه • ومن أراد أن يقضى العجب العجاب ،
فليقف على ذلك الكتاب •

وتلخيص ما ذكره في الانفصال : أن قال : ان قلنا ان الأب ليس
يحيا ، كذبنا • وان قلنا هو الحياة أبطلنا • فاذا كان ليس حيا ، وليس
بحياة ، وجب أن يكون حيا بلا محالة • وكذلك قال في العلم والحياة •

ومن أفضى به الى هذا الهذيان بحثه ونزاعه ، فقد تعين تركه
وانقطاعه ، وحسبك في شر سماعه • وذلك كله يدل على أنهم ليسوا من
العقلاء ، ولا معدودين من جملة الفضلاء ، بل قد انخرطوا في سلك
الحمقاء ، الجهلة الأغبياء • فهم قد جعلوا الههم هواهم ، فأضلهم لذلك
وأرداهم • فهم كما قال الله العظيم ، في محكم كتابه الكريم :
« أرايت من اتخذ الهه هواه ، أفانت تكون عليه وكيلا • أم تحسب أن
أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالاتمام ، بل هم اضل
سبيلا » (١) •

وأما حكاية صاحب كتاب « المسائل » : فكلام يدل على أن القوم
ليس فيهم مستحي ، ولا عاقل • كابروا الضرورات ، وجحدوا المعقولات ،
تارة يتناقضون ، وأخرى يتواقفون ، افتراء على الله ، واستهانة بحرم
الله • وحسبك دليلا على ذلك : اختلافهم في البديهيات هنالك • وقد
وكلت الناظر فيه لظهور تناقضه ، وفساد معانيه • فان غاية الناظر في
كلامه : أن يلزمه من المحال والتناقض مثل ما صرح بالتزامه • ومن
أنكر الضروريات ، وارتكب المحالات ، فدار المرضى والمجانين ، أولى به
وآليق ، من اشتغاله بالمعقولات •



في بيان مذهبهم في الاتحاد والحلول وإبطال قولهم فيها

- * اتحاد الكلمة
- * معنى الاتحاد
- * الواسطة بين الله وبين موسى
- * تجسد الواسطة
- * كلام المتقدمين
- * مذهب « أغشتين » اذ هو زعيم القسيسين

الفصل الأول

اتحاد الكلمة

في هكاية كلام هذا السائل

قال السائل : « ثم نبدأ بالقول في الاتحاد • فان قلت : لماذا كان التثليث عندكم أسماء أفعال لخواص قائمة ، والذات واحد لا ينقسم ولا يتبعض • فلم بعضتموه دون الآب وروح القدس ؟ ولم سميتموه : آبا وروح القدس ؟ »

اعلم أنها لما تعارفت القضايا بالأفعال ، اختلفت أسماءها كما قدمنا ، فاختلقت قضية خلق الخليقة بيد ، الى القدرة ، وسميت آبا ، وأضيفت قضية الموعدة الى العلم المتولد كلاما ، وسمى ابنا ، وانفردت قضية الوعد باللحمة دون غيرها ، لأن المسيح انما اتخذ في الدنيا للموعدة ، لا لخلق الخليقة • لأن الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق بيد ، يسمى الجسم : آبا • وأضيفت اللحمة الى الآب ، ولكنه انما اتخذه لموعدة الخلق • والوعد مضاف الى العلم المتولد كلاما ، فسمى : ابنا • فلذلك قال الانجيل : « التحمت الكلمة ، وسكنت فينا » (١) فأفرد الكلمة بالالتحام ، لأنها الواعدة بالأمر ، والنهي دون القدرة والارادة • فهذا أخصر شرح الاتحاد • ه •

الجواب عن كلامه : يا عجا من بلادة صاحب هذا السؤال • كيف لم يحسن اذ تثبج عليه المقال ، وكثر عليه اللحن والاختلال ، حتى أخل بمفهومه ، وعدل عن السؤال • فصار كلامه لذلك كأنه كلام مجنون مقبول اذا تهذب ، ولم يثبت فيما يقول • وذلك أنه وجد على نفسه في كلامه هذا : أسئلة انفصل بزعمه عن واحد منها ، وتغافل عن سائرهما ، جهلا منه بورودها ، وحيدا عن جوابها •

(١) النص في الترجمة الحديثة « والكلمة صار جسدا وحل بيننا » •
(يوحنا ١ : ١٤) •

أحد الأسئلة أنه أراد أن يقول : قد قلتم ان التثليث قد رددتموه الى ثلاثة خواص ، لواحد لا يتبعض • فلم بعضتم ما لم يتبعض ؟ وثانيها : لم اتحد الابن بالمسيح دون الآب ، وروح القدس ؟ وهذا تضمنه كلامه حيث قال : دون الآب ، وروح القدس • وثالثها : لم سميتم المسيح ابنا ؟ ورابعها : لم سميتم الله تعالى أبا ؟ وخامسها : لم سميتم ارادة الله تعالى روح القدس ؟

على أن ظاهر كلامه يدل على : أن السؤالين الأخيرين انما هما راجعان الى المسيح • ألا ترى أنه أعاد الضمير ، أغنى ضمير سميتموه عليه ، لكنه لم يرد هذا ، ويدل عليه • انه لم يسم أحد منهم المسيح أبا ، ولا روح القدس • وانما سموه ابنا ، فتارة يقولون عليه : « ابن الله » وتارة : « ابن الانسان » وأما روح القدس • فقد تقدم في اصطلاح هذا السائل ، أنه أراد به الارادة • ومن اصطلاح غيره أنه أراد به الحياة ، ولم يقل قط أحد منهم : أن المسيح اتحدت به ارادة الله وحياته • فلما وجه على نفسه هذه الأسئلة التي لم يشعر بوجه لزومها ، ولم ينفصل عن شيء منها أخذ بعد ذلك بزعمه يتفضل بكلام لا يلتزم ، ولا يتصل ، فأسهب في التكرار والترداد ، فصار كلامه لذلك أبرد من حديث معاد •

ثم قال في الجواب — ما كان قد فرغ منه ، ولقد كان يستغنى عنه — « قد قدمنا أن الأقانيم الثلاثة انما سميت بالابن والآب وروح القدس ، لاختلاف القضايا الثلاث ، فأضيف الخلق الى القدرة وسمى أبا ، وأضيفت الموعظة الى العلم وسمى ابنا » وهذا كلام مكرر مستغنى عنه في جواب ما سأل عنه ، اذ لا تعلق له به • وانما الكلام الذي يمكن أن يكون جوابا لبعض ما سأل عنه هو قوله : « انفردت قضية الموعظة باللحمة ، دون غيرها لأن المسيح انما اتخذ في الدنيا للموعظة ، وسكنت فينا ، لا لخلق الخليقة • ولذلك قال الانجيل : « التحمت الكلمة ، وسكنت فينا » هذا مقتضى كلامه في الانفصال ، بعد تليفق مجدد ، وتهذيب مشجع المقال • ومع هذا فكلام هذا السائل لا يقبل التليفق من صانع ، فان الفتق اتسع على الراقع • وبعد تقرير هذا نقول :

قد تقدم جوابك عن أكثر هذا الفصل فيما تقدم حيث تكلمنا في الأقانيم ، وعلى أسماء الأفعال وعلى التثليث ، وعلى القضايا الثلاث بما أغنى عن اعادته • فمن أراد أن يتحقق فساد هذا الكلام فليعد نظرا

ففيما تقدم « وانما الكلام معك هنا على قولك : » انما اتحدت بالمسيح الكلمة التي هي العلم ، لأن المسيح اتخذ للموعظة « كيف يتمكن عاقل من أن يقول هذا الذي ذكرته وعيسى عليه السلام قد اتخذه الله تعالى لأبراء الأكمه والأبرص وأحياء الموتى ، وخلق الطير من الطين • وهذه الأمور كلها لا يمكن أن تقع الا بالقدرة والارادة • فقولوا : انهما اتحدتا به ولا فرق بينهما وبين العلم • لولا محض الجهل والتحكم ، لاسيما • وقد جاء في بعض كتبهم أن عيسى عليه السلام قال : « قدرته قدرتي • ومشيتته مشيئتي » أو قولوا : انه عليه السلام كان يفعل هذه الأمور الخارقة للعادة بغير قدرة فيلزمكم أن يفعلها بغير علم ، ثم يلزمك على مساق كلامك أن يكون كل من اتخذ للموعظة من الأنبياء والعلماء أن يتحد بلحمة الابن •

وأما قولك : « ان الله لو اتخذ جسما ليخلق به الخلق لسمى ذلك الجسم أباً » فهو الزام مالا يلزم • فان الله تعالى قد اتخذ الأرض والماء والهواء والنار ليخلق بهم المخلوقات ، ولا يلزم من ذلك أن يكون أباً ، ولا أن يسمى أباً وهي أجسام •

وأما قولك : « فلذلك قال الانجيل : » التحمت الكلمة وسكنت فينا « فلقد خالفت التنزيل ، وحرفت التأويل • فهلا عليك ، سترت على مكرك ، ولم تلبس على نفسك وخصمك ؟ ولأى شيء لم تذكر الكلام من أوله ، وتسوقه على منازل ؟ أتظن أن المسلمين ليسوا بكتبكم عارفين ، ولا لتحريقكم وتليبسكم منتهين • تالله • لقد فيهم من تعرف منها الحق ، الذي لا تعرفون ، ويتحقق منها الحق الذي لا تعرفون ، ويتحقق منها ما أنتم فيه تشكون ، ويعلم منها ما أنتم به جاهلون •

ومن ذلك • أن هذا الكلام الذي حكيته عن الانجيل ، وسلكت به مسلك التجهيل ، هو في انجيل (يوحنا بن سبداى) المصور بزعمكم بصورة عقاب ، يقول عن عيسى عليه السلام : « من يقبله منهم ، وآمن باسمه ، أعطاهم سلطاناً ليكونوا أولاد الله ، وهم الذين لم يتولدوا من دم ولا شهوة لحوم ، ولا شهوة رجل ، لكن تولدوا من

الله ، فالتحمت الكلمة ، وسكنت فينا ، ورأينا عظمته كعظمة ولد الله
الفرد ، المحشور وضوانا ، وصدقنا » (١) .

هذا مساق كلامه في الانجيل ، وهذا الكلام لا يستدل على
ما فكرت ، ولا على غيره ، حتى يعلم أن عيسى عليه السلام هو الذى
قاله ، وليس هو في الانجيل مرفوعا الى عيسى ، ولا مسندا اليه ،
ولا مخبرا به عن الله تعالى وغايته — ان صح — أن يكون موقوفا
على (يوحنا) ومن قوله ، وحاشا ، عن قول مثله ، ثم لو سلمنا ذلك
فليس بمعصوم ، فان العصمة انما ثبتت للأنبياء ، أو لمن أخبر الأنبياء
عنهم : أنهم معصومون . وهذا ليس بنبي ، ولا بلغ عن الأنبياء بطريق
قاطع أنه معصوم ، وسيأتى الكلام على هذا في باب النبوات ان شاء
الله تعالى .

وبتقدير أنه معصوم . فكتابكم قابل للتحريف والتغيير ، فانه لم
تكمل فيه شروط التواتر فانه راجع الى أخبار آحاد ، لا تفيد علما ،
على ما نبينه ، وعلى التقريب : ان أناجيلكم انما هي أربعة عن أربعة (٢) ،
كل واحد منهم لا يفيد خبره العلم بأنه خبر واحد ، ومع ذلك فلو أنهم
تواردوا على نقل خبر واحد ، لكان نقلهم لا يفيد اليقين ، فان الخبر
الذى يحصل به العلم اليقين انما هو المتواتر حقيقة ، الخبر المفيد
للعلم بالمخبر عنه ، الذى تحيل العادة على ناقله الغلط والتواطؤ على
الكذب على ما يأتى ان شاء الله .

وعلى تسليم أنه لا يقبل التغيير ، ولا التحريف فهذا الكلام ليس
بنص قاطع ، بل هو محتمل للتأويل ، وتأويله معضود بسياقة اللفظ .
وذلك أن مساق هذا الكلام يقتضى أن كل من آمن بعيسى عليه السلام

(١) في انجيل يوحنا بن زبدي هكذا : « وأما كل الذين قبلوه . فاعطاهم
سلطانا أن يصيروا أولاد الله ، أى المؤمنون باسمه ، الذين ولدوا ليس من
دم ، ولا من مشيئة جسد ، ولا من مشيئة رجل . بل من الله . والكلمة
صار جسدا . وحل بيننا . ورأينا مجده ، مجدا . كما لوحيد من الآب
مملوءا نعمة وحقا » (يوحنا ١ : ١٠ - ١٤) ويعنى بصورة عقاب ما جله
في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتى عنه .

(٢) متى ومرقس ولوقا ويوحنا .

فانه توالد من الله ، والتحمت الكلمة به ، وسكنت فيه • ولذلك قال :
« ولكن توالدوا من الله ، فالتحمت بالكلمة وسكنت فينا » •

فان كنت تريد أن تستدل بهذا اللفظ على أن الكلمة اتحدت بالمسيح خاصة ، فليس لك فيه دليل ، بل يدل ظاهره على أن كل من آمن به التحمت الكلمة به ، وسكنت فيه • وهذا شيء لا تقولون به ، ولا يذهب اليه أحد منكم ، فهلا عليكم ، فهتمم كتابه ، وتدبرتم خطابه ، ورددتم آخر الكلام على أوله ، حتى تعرفوا نصه من مؤوله • على أنه لو كان نصا قاطعا لا يحتمل التأويل لما كان ينبغي لعقل أن يقول بمقتضاه • فان الاتحاد محال قطعا على ما يأتي ان شاء الله تعالى ، اذا تكلمنا على حقيقة الاتحاد والحلول •

وأما قوله : « فأفرد الكلمة بالالتحام ، لأنها الواعظة بالأمر والنهي » فقول لم يقله الانجيل ، ولا دل عليه ظاهر ولا تأويل ، وغاية ما في الانجيل : أن الكلمة التحمت ، وليس فيه : لأنها الواعظة فمن عرفك أن الكلمة اتحدت لهذه العلة ، بل لعلها التحمت لعلة أخرى لم تعلمها أنت ولا غيرك • لعلها التحمت ، لا لعلة ، بل لنفسها • وانما نزلنا في هذا الحل على تسليم الالتحام • وان كان باطلا بالبرهان • ليتبين :
أن هذا المذهب هذيان •

وأما قوله : « لأنها الواعظة بالأمر والنهي » فقول من لا يعرف فرق ما بين الأمر والنهي والوعظ ، ولا حصل من الشرع ، ولا من العقل على حظ • فان الوعظ مخالف للأمر والنهي بحقيقته ومقصوده • اذ قد يعظ الواعظ من غير أمر ولا نهى • وينهى ويأمر ولا يعظ فهما أمران مفترقان ، غير متلازمين ، على ما يعرف في موضعه •

وأما قوله : « فهذا أخصر شرح الاتحاد » فالسين موضع الصاد أليق ، اذ الخسران اليه أقرب ، وبه ألق ، لأنك أوهمت أنك شرحت وأوضححت واختصرت وأوجزت ، بل أخللت وطولت وبفائدة ما أتيت • وكيف تصح لك هذه الدعوى • وقد قلت كلاما لا فائدة له ، ولا جدوى • دليل ذلك : أنك اعترضت على نفسك باعتراضات كثيرة • ثم أنك حدثت عن الجواب ، ولم تأت بفصل خطاب ، بل أتيت بكلام يشهد عليك عند العقلاء بالبلادة ، وقلة التحصيل ، وعدم الاجادة •

وقد كان ينبغي لك أن تبين حقيقة الاتحاد والحلول ، وتبين
فرق ما بين مذهب (الروم) فيه ، وبين ما به تقول • وتبين الفرق
بينه وبين الاختلاط والامتزاج • وبعد ذلك تستدل على صحة وقوعه ،
وعلى اختصاص عيسى عليه السلام به دون غيره من الأنبياء •
فلو فعلت ذلك حينئذ كان ينبغي لك أن تدعى أنك شرحت وأوضحت •
وأما الآن فقد جهلت واقتضحت •

الفصل الثاني

معنى الاتحاد

من حكاية كلامه أيضا

قال : « فان سأل سائل عن معنى الاتحاد • قلنا : نقول بذلك ،
تقليداً للإنجيل ، والنبیین ، ورسول رب العالمين ، فيما نقلوا من ذلك ،
وأعلمونا عن الله • وفيما نص لنا عنهم تصديق الأخبار الذي
لا تكذب فيها •

فان قلت : وكيف يجوز أن يتوحد القديم بالحادث ، والخالق
بالمخلوق ؟ قلنا : على تقليد الكتاب وعلى الجائز في العقول • وذلك
أنا لا نقول : ان القديم في الجوهر صار حادثا ولا الحادث في الجوهر
صار قديما • ولكننا نقول : صار الحادث الها ، ولا نقول : صار الاله
حادثا • كما نقول : صارت الفحمة نارا • ولا نقول : صارت النار فحمة •

فان قلت : فما علة هذا الاتحاد ؟ قيل لك : الارادة • وسألك هذا ،
كسائل يسأل فقال : لم خلق الله العالم ؟ فمن الجواب له أن يقال له :
أراد ذلك • فان قلت : أفهذا الاتحاد قديم أو حادث ؟ قيل لك : قديم
وحادث • فان قلت : فكيف يكون قديما وحادثا ؟ قيل لك : قديم بالقوة ،
حادث بالفعل ، وكل عنده حاضر ، لأنه تبارك وتعالى لا تأخذه الأزمان ،
ولا يعد الأشياء بالأعداد ، وكل عنده حاضر مقيم » اهـ •

الجواب عنه : هذا كلام تمجه الأسماع ، وتنفرد عنه الطباع ،
سأل فيه قائله عن حقيقة الاتحاد ومعناه ، فأجابه بالدليل عليه ، وما جرى
مجراه • ومن حق الانفصال أن يكون مطابقا للسؤال • فكان يلزمك
لما سئلت عن معنى الاتحاد ، أن تجيب بحده وحقيقته • ثم بعد ذلك
تستدل على صحته ووجوده • ان صح ذلك ، وأمكن الاستدلال هنالك •

أما قولك في جواب من سألك عن الاتحاد وحقيقته « نقول بذلك تقليداً للإنجيل ، والنبيين ، ورسول رب العالمين » فكلام غير متين ، لا يصدر مثله عن عقل رصين .

لتعلم يا هذا : أن الأنبياء عليهم السلام صادقون مصدقون ، والصادق ما يخبر بصحة ما يعلم بالعقول فساد ، واستحالته . فان الصادق لا يناقض قوله دليل العقل ، ولا يعارضه بل يصدقه ، ويشهد بصحته ، فلو فرضنا شخصا جاء بأمر معجز فيما يرى . وادعى أنه أرسله الله لنا ليخبرنا : أن الثلاثة واحد من حيث هي ثلاثة ، وأن الواحد ثلاثة من حيث أنه واحد . وفهم ذلك منه بنص لا يقبل التأويل ، لبادر العقلاء الى تكذيبه ، ولعلموا أن ما أظهره على جهة المعجزة إنما هي حيلة ومخرقة . لأن المعجزة إنما هي دليل الصدق ، ولا يقبل دليل الصدق دليل الكذب .

وكذلك لو قال : ان الضدين يجتمعان بعد مراعاة شروط التضاد . وكذلك لو أخبر أن الله تعالى يقلب جوهرًا عرضًا ، ولونا ، وطعما . الى غير ذلك من أنواع المحالات . ومن هذا القبيل : هو ما ادعيت من الاتحاد . وسيتبين أن شاء الله .

وبعد هذا . فلو فرضنا نبيا علمنا صدقه على القطع تكلم بشيء من هذا فيكون ذلك الكلام لا يدل على ذلك المعنى دلالة قاطعة بل دلالة محتملة أو ظاهرة ، فسيبيلنا أن نتأول ان وجدنا وجهًا للتأويل ، أو نتوقف على تأويله ان لم نجد له محملا في التأويل . مع أن العقل يعلم استحالة الظاهر ، ويكل معرفة باطنه الى الله تعالى ، فان الشرائع وان لم تأت بما يخالف العقول ، فقد تأتى مما تقصر العقول عن دركه . وافرقت بين يعلمه العقلاء : بين العلم بالاستحالة ، وبين عدم العلم بالاستحالة . فان عدم العلم بالاستحالة ، لا يلزم منه نفى الجواز ، ولا اثباته ، ولا نفى الوجوب ، ولا اثباته . وهذا مما لا خفاء به عند العقلاء .

وأما قولك : « وعلى الجائز في العقول » فينبغي لنا أن نسألك هنا أسئلة تبين أنك بما ادعيت جهول . فنقول لك : ما حد العقل أولا ؟ وما حد الجائز العقلي ؟ وما حقيقته ؟ وكم أقسامه ؟ وما حد الواجب

العقلى ؟ وكم أقسامه ؟ وما حد المحال العقلى ؟ وكم أقسامه ؟ فإذا فرغت من جواب هذه المسائل • سألتك : هل أحكام العقل تنحصر فى هذه الثلاثة ، أم تزيد عليها ، أم تنقص عنها ؟ ولعمري ما ينبغي أن تتكلم مع من لا يعرفها ، واعلم على القطع والثبات أنك لا تعرفها ، ولا قرأت على من يفهمها • والا فالجواب وإن لم تجب ، والا فيظهر أنك من دينك على شك وارتياب ، ثم نقول : كيف يتجاسر عاقل أن يقول : إن علم الله تعالى الذى هو صفته ، ولازم له وقديم أزلى : حل فى جسد انسان حادث بعد أن لم يكن حالا فيه • ومع أنه حل فيه فهو لم يفارق الله تعالى ، ولولا الله تعالى سلبكم عقولكم وابتلاككم بظلمة التقليد الذى أفضى بكم الى مكابرة العقول ، وانكار البداية ، لما وجد مثل هذا المذهب مستقرا فى قلب مجنون ، فأجرى فى قلب غافل • ولكن لله تعالى سر فى ابعاد بعض العباد « ومن يضل الله فما له من هاد » (١) •

وأما قولك : « انا لا نقول ان القديم فى الجوهر صار حادثا ، ولا الحادث فى الجوهر صار قديما • ولكننا نقول : صار الحادث الها » فهذا القول منك يدل على أنك تقول يجلول الحادث فى الجوهر واتحاده . به • ولم يقل بهذا قط أحد من المخلوقات • وهذا أشنع وأقبح وأمحل • من اتحاد القديم بالحادث وحلوله فيه • وهذا الذى ذكرت أنه يلزمك يدل عليه قولك « ولا الحادث فى الجوهر صار قديما » فنفيت عن الحادث القدم ، وأبقيت عليه الحلول فى الجواهر • وهذا بين بنفسه • من كلامك • ثم هذا الذى فررت منه يلزمك • وذلك أنا نقول : هذا القديم الحال ، لا يخلو أن يكون حالا فى ناسوت المسيح ، قبل خلق المسيح ، أو لم يكن ؟ فإن كان حالا فيه قبل خلقه كان محالا وباطلا بالضرورة • فانه قبل خلقه معدوم ، والموجود لا يحل فى المعدوم • وإن كان حلولة فى ناسوته بعد خلقه ، فقبل خلقه لم يكن حالا • فقد حدث له حلول • وقد صار حالا بعد أن لم يكن حالا • ويلزم على هذا أن تقوم الحوادث بالقديم وهو محال • فانه يؤدى الى حدوثه على ما يعرفه أرباب النظر

وأما قولك : « صار الحادث الها » فكلام تشتمز منه النفوس •

ويشهد لقائله بالويل والعكوس • وكيف لا يستحي العاقل من مثل هذا الكلام ، الذى والله هو عار ، على الأنعام ؟ وكيف يتصور أن يعقل الالهية لمحدث مخلوق ، يحزن تارة ، ويفرح أخرى ، ويجوع تارة ، ويشبع أخرى ، ويتبول ويتغوط ، وتظفر به أعداؤه • ويعذبونه بالضرب والاهانة ، والشوك والصلب ، والقتل بزعمكم • وهو مع ذلك يقول : « **اعبدوا الله ربي وربكم** »^(١) ويقول لكم : « **إذا صليتم • فقولوا : يا أبانا السماوى ، تقديس اسمك ، وقرب ملكك** »^(٢) ويقول : « **ان الله وحده ، ولا اله الا هو** »^(٣) ويقول لابليس : « **انما أمرت أن تعبد السيد الهك وحده** »^(٤) ويقول حين قرب رفعه ، وأعلمه الله به : « **سيلقى ابن الانسان ما كتب له** »^(٥) يعنى نفسه ، ثم تقدم ، وسجد على الأرض ، ودعى أن يزاح عنه ما هو فيه وقال : « **يا أبتاه انك قادر على جميع الأشياء ، فرج عنى هذه الكأس** »^(٦) وقال فى انجيل لوقا : « **يا أبتاه ان كانت هذه الكأس ، لا تقدر تجاوزنى حتى أشربها • فلتكن ارادتك** »^(٧) •

(١) « **اعبدوا الله ربي وربكم** » (المائدة : ١١٧) ومن معناها فى انجيل يوحنا : « **قال لها يسوع لا تلمسينى ، لانى لم أصعد بعد الى أبى • ولكن اذهبي الى اخوتى • وقولى لهن : انى أصعد الى أبى وأبيكم ، والهى والهكم** » (يوحنا ٢٠ : ١٧) •

(٢) النص : « **متى صليتم فقولوا : أبانا الذى فى السموات ، ليتقدس اسمك ، ليأت ملكوتك** » (لوقا ١١ : ٢ ، ومتى ٦ : ٩ - ١٠) •

(٣) يشير الى ما فى الاصحاح الثانى عشر من انجيل مرقس وسبق أن ذكرته فى التعليق على صدر الكتاب •

(٤) يشير الى ما فى الاصحاح الرابع من انجيل متى وسبق أن ذكرته فى التعليق على صدر الكتاب •

(٥) النص : « **ان ابن الانسان ماض ، كما هو مكتوب عنه** » (متى ٢٦ : ٢٤) •

(٦) نص الآية : « **وكان يصلى قائلاً : يا أبتاه • ان أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس ، ولكن ليس كما أريد أنا ، بل كما تريد أنت** » (متى ٢٦ : ٣٩) وفى رواية مرقس : « **وكان يصلى لكى تعبر عنه الساعة ان أمكن • وقال : يا أبا الآب ، كل شئ مستطاع لك • فاجز عنى هذه الكأس ، ولكن ليكن لا ما أريد ، بل ما تريد أنت** » (مرقس ١٤ : ٣٥ - ٣٦) •

(٧) النص : « **يا أبتاه ان شئت أن تجيز عنى هذه الكأس • ولكن لتكن لا ارادتى بل ارادتك** » (لوقا ٢٢ : ٤٢) •

ومن اطلع على أناجيلكم علم على القطع أن عيسى عليه السلام يرى ما تدعونه به ، وتتسبونونه اليه ، وستلقونه بين يدي الله في الوقت الذي يقول الله تبارك وتعالى : ((يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس ، اتخذوني وأمي الهين من دون الله)) (١) فيتبرأ من ذلك القول . فيقول : ((سبحانه .. ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنت أقلتة فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك . انك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شيء شهيد)) (٢) .

وقد جاءنا على لسان من دلت المعجزة بصدقه • أن الله تعالى
إذا حشر الخلائق في صعيد واحد - يعني يوم القيامة • فيقال للنصارى :
« ما كنتم تعبدون » ؟ فيقولون : « كنا نعبد المسيح ابن الله » فيقول
لهم : « كذبتكم • ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد » ثم يقال لهم :
« ألا تردون » ؟ فيحشرون الى جهنم ، كأنها سراب يحطم بعضها
بعضاً •

فما الله • الله • أدرك بقية نفسك قبل حلول رمسك ، واستعمل
سديد عقلك ، ولا تعول على تقليد فاسد نقلك ، واتبع الدين القويم ،
دين الأب إبراهيم ، فما كان « يهوديا ، ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا
مسلمًا ، وما كان من المشركين » (٣) •

فأله يعلم أنى أنظر اليك ، وإلى كافة خلق الله بعين الرحمة ،
وأسأله هداية من ضل من هذه الأمة • وأتأسف على الأباطيل التى
ينتحلون • فانا لله ، وانا اليه راجعون ، وسيأتى ان شاء الله تعالى
فى النبوات كلام على حقائق الملل ، وتبين الهداة والضالين من ذوى
التحل ، ولا حول ولا قوة الا بالله •

وأما قولك : « كما نقول صارت الفحمة نارا ، ولا نقول صارت النار فحمة » فتمثيل ليس بمستقيم ، ولا جار على منهج قويم • وذلك

(١) المائة : ١١٦

(٢) المائة : ١١٦ ، ١١٧

(۳) آل عمران : ۶۷

أن الفحمة مهما صارت نارا ، فقد حدثت النارية ، وانعدمت الفحمة ،
وليس هذا مساويا لقولك : صار الحادث الها . فان الشيء الذي صار
به الحادث الها عندكم هو قديم ، فكيف تشبهه بالنارية الطارئة ، وهي
حادثة ، وان ساويت بينهما لزمك أن يكون الحال في الناسوت حادثا ،
أو النارية قديمة ، فترتفع الفحمة ، وهو محال بالضرورة .

وأما قولك : « فان قلت : فما علة هذا الاتحاد ؟ قيل لك :
الارادة » فهذا قول فاسد . فان الارادة ، انما يصح تعلقها بالجائزات ،
ولا يصح تعلقها بالمحالات . والاتحاد محال فلا تتعلق به الارادة .
على ما نقرره ان شاء الله ، اذا نقلنا مذاهب (أقستكم) في هذا المعنى ،
وتكلمنا معهم عليها .

وأما قولك في جواب سائلك عن الاتحاد « هل حادث أو قديم » ؟
حيث قلت : « انه قديم وحادث » فقول لم يقل به مؤمن ولا ناكث .
فان الجمع بين القدم والحدوث مما يعلم فساد به ضرورة العقل .
فان معنى القديم الذي لا أول لوجوده ، والحادث هو الذي لوجوده
أول . والجمع بين نفى الأولية ، وإثبات الأولية محال .

وأما قولك : « قديم بالقوة ، حادث بالفعل » فكلام ليس له
أصل . اذ لا يعقل العقل في القدم قوة ولا فعلا . فان القدم من
أسماء السلوب . والقوة والفعل قائمان يتواردان عند القائلين بهما على
الصفات الوجوديات ، وعلى عدمها مع امكان وجودها . ثم انا نسألك
عن حد القوة وحقيقتها ؟ وما الفرق بينها وبين الامكان ؟ وهل هي
موجودة ؟ وعن حد الفعل . وما حقيقته ؟

فانك تكلمت بما سمعته ، وما حصلته ولا وعيته .

وأما قولك : « وكل عنده حاضر مقيم » فكلام حق ، ومقال
صدق . ان كنت أردت بحاضر أنه معلوم . وقد أخطأت بادخالك
« مقيم » في هذا المعنى . فان المقيم انما هو مأخوذ من أقام بالموضع
اذا ثبت فيه ، فان أردت هذا المعنى لزمك أن تكون المعدومات الممكنة
موجودة عنده في حال عدمها ، وذلك محال . وان أردت غيره فكان
ينبغي لك أن تبين مرادك فانك لم تتكلم به على مقتضى كلام القوم ،
الذين تعاطيت التكلم بلسانهم .

ثم قولك : « لأنه تبارك وتعالى لا تأخذه الأزمان » ذكرته موهما أنك تستدل به على أنه تعالى عالم بجميع الأمور ، محيط بالكل ، ولا يدل ذلك على ما أردته ، والا فكونه قابلا للزمان أو غير قابل للزمان ، ما المناسبة بينه وبين كونه عالما بجميع المعلومات أو ببعضها • ولا بد أن يسأل عن الزمان : ما هو ؟ وهل هو موجود ، أو معدوم ؟ فان كان موجودا فهل هو جوهر أو عرض ؟ وان كان جوهرًا أو عرضا ، فهل هو في زمان ، أو ليس في زمان ؟ فان لم يكن في زمان فلتستغن الموجودات كلها عن زمان ، ويلزم عليه اثبات موجودات ليس بزمانية غير الباري تعالى وتقدس ، وذلك محال على ما تقرر • وان كان في زمان • فهل ذلك الزمان في زمان ، ويتسلسل • فلا بد لك من علم هذه المسائل ان أردت أن تلحق بالصنف العاقل • ومن أراد أن يعلم فليرحل على الرأس والقدم •

وأما قولك : « ولا يعد الأشياء بالأعداد » فيفهم منه أن المعلومات لا تتعدد عنده ، واذا لم تتعدد المعلومات عنده ، لا تتميز جزئياتها • واذا كان ذلك فانما يعلم الأمور على وجه كلي ، وهو ما تقوله الفلاسفة ، وأهل الشرائع ، كلهم مطبقون على أن الله تعالى يعلم جزئيات الأمور ، وان دقت على التفصيل • ومن لم يقل هذا يحكم عليه في كل ملة بالتكفير والتضليل •

فأنت يا هذا في أكثر كلامك بين أمرين : اما أن تنكر الضرورات ، أو تكفر بالشرعيات • فنسأل الله تعالى أن ينور بصائرنا ، ويسدد أحوالنا ، وأمورنا وأن لا يجعل وبالنا أعمالنا ، وأقوالنا • انه سميع الدعاء • قريب مجيب •



الفصل الثالث

الواسطة بين الله وبين موسى

من حكاية كلام السائل

قال : « ثم نقول لمن ناظرني من باقية المسلمين : ان كتابكم يقول : ان موسى سمع الله ، وكلمه تكليما • فكيف كان ذلك ، وأنتم قد أعجزتم جميع الحاسات من ادراكه في الدنيا والآخرة ، لأنه لا مفطور ، ولا مشبه بشيء مما يتصور في الأوهام ؟ »

فان قلت : انه كلمه بذاته • فقد أوجبتم له جراحة النطق ، ووقعتم فيما أنكرتموه من الجسم • وان قلت : ان الله خلق له كلاما فقد أثبتتم كلاما مخلوقا قائما بخلقه ، جوهرًا في نفسه اذ لم يكن عرضا في الله • قال لموسى : « أنا الله ، لا اله الا أنا ، فاعبدني »^(١) وأثبتتم أن الكلام واسطة بين الله وبين موسى • وأن موسى أقرو بالربوبية ، لقوله : « رب أرني أنظر اليك »^(٢) وقول الصدى ، الذي هو المتكلم له : « لا اله الا أنا ، فاعبدني » •

فان قلت : ان الصدى لم يقل له : « أنا الله » ولكنه في مسامع موسى : « أنا الله » قلت لك : ان الصدى هو العامل في مسامع موسى ، وهو المحرك له ، وعليه رد ، وإياه أجاب •

والدليل على أنه كان في غفلة : فما كان يريد الله من إرساله الى فرعون ، حتى خلق له نارا أبصرها ، فنزع اليها ، فلما أتاها أحجب الله له فيها صدى • قال له : « أنا الله » و « لا اله الا أنا • فاعبدني » الا أن تقولوا : ان موسى قد كان يعرف ما كان يريد الله من إرساله الى فرعون دون النار ، والكلام • فيكون خبر النار والكلام لا معنى لهما ، وخبرهما لم يفد شيئا •

وهذا من القول تشنيع الكذب • وإذا لم يكن بد من أن موسى لم يدرك المرسل له الا بواسطة ، اتحد له ، يسمى باسمه ، فالواسط هو العامل في موسى ، وعنه تحمل الرسالة ، حتى يأتي فرعون بمصر • ويقول : ان الله تراءى لى بطور سيناء ، وبعثنى اليك ، لترسل معى بنى اسرائيل ، ولا تعذبهم ، مجددا الموضع الذى أقبل منه من عند الله • وكان الله بمصر ، وفى كل مكان • ولا كان يعجز موسى عن معرفة الأمر والنهى الا بكلام محدود من جسم مفطور ، خلق الله له نارا ، أبصرها ، فنزع اليها ، ثم أحجب له فيها صدى ، سمعه منها ، قام عنده مقام خالق فسماه الها « ا. ه. »

الجواب عنه : أما قولك : « ثم نقول لمن ناظرنى من باقية المسلمين » فلتعلم يا هذا أنك غلطت فى نفسك ، وغفلت عن حسبك ، حيث ظننت أنك ممن يستحسن مناظرته أحد من المسلمين ، للذى أمروا به من الاعراض عن الجاهلين • وكيف • وأنت لا يمكنك النطق بكلام فصيح ، ولا تقدر على نظر صحيح • وأنى لك بمناظرتهم ، ولم تسلك شيئا من طريقتهم ؟ وكيف يمكنك النظر معهم ، وأنت لم تعرف طريقه • ولا التزمت شروطه ؟

(فوحق دين الاسلام الذى هو دين ابراهيم عليه السلام لقد وددت أن تكون من عقلاء الأنام ، لتعرف قدر ما يلقي من الأسئلة عليك ، وما يكتب به من الحكم اليك • فلعل مقلب القلوب ، يستنقذك من عبادة الله مصلوب ، ويبدلك بها اخلاص العبادة لعلام الغيوب ولولا رجاء ذلك لما كان ينبغى لى أن أعطى الحكمة غير أهلها ، كما لا ينبغى أن أسمعها من هو من أهلها •

وأما قولك : « ان كتابكم يقول : ان موسى سمع الله ، وكلمه تكليما » فكيف يسوغ لك أن تجنح بما أنت منكر لأصله ، ولا تعترف بأنه كلام الله ، وأنت منكر لتصديق من جاء به ، فلا يحل لك أن تحتج لنفسك ولا لغيرك بما تعتقد أنه كذب • وأما نحن فيمكننا أن نحتج عليكم ، وعلى اليهود بالتوراة والانجيل ، لأننا نعتقد أن الله تعالى أنزل التوراة على موسى ، والانجيل على عيسى ، وهما هدى قبل أن يغيرا ويبدلا ، وينسخا بغيرهما •

وأما اليوم بعد أن ثبت عندنا ما ذكرته فلا نحتج بشيء منهما على جهة انتزاع الأحكام . فإن الله تعالى قد أخرجنا بالنور من الظلام ، وهذان لما اختلفتم فيه من الحق بنبينا محمد عليه السلام . وسنبين أن شاء الله ما يدل على صدقه من المعجزات ، وواضح الدلالات .

ثم نقول : أن الله تعالى كلم موسى بكلامه الذي هو صفته وسمعه موسى بالادراك الذي خلقه الله له . وقولك : « كيف » ؟ ظلم ، وحيف . إذ سؤالك بكيف ؟ في هذا المحل دليل على أنك جاهل بمطلبها ، فينبغي لك أن تعلم : أن صيغ المطلب كثيرة ، وهي مع كثرتها لا يتوجه شيء منها على الله تعالى ، وعلى صفاته . وذلك : أن من صيغ المطلب « ما » و « أي » و « لم » و « كيف » و « متى » و « أين » وغيرهما ، مما في معناها ، ولا يتوجه على الله تعالى بشيء منها لاستحالة معانيها على الله تعالى ، فلا تسأل عنه بـ « ما » ولا بـ « أي » إذ لا جنس له ، ولا فصل . ولا بـ « لم » إذ لا علة له ، ولا أصل . ولا بـ « متى » إذ هو مقدر الزمان . ولا بـ « أين » إذ هو خالق المكان ، ولا بـ « هل » إذ لا نشك في وجوده ، وهو خالقنا ، ولا بـ « كيف » إذ لا يناسب جوده ، ولا صفاته شيئاً من أحوالنا وأوصافنا .

وجوده اثباته ، وإثباته ذاته . وعلمه كل شيء صنعه . ولا علة لصنعه . لا يتوجه لخلق عليه حق . ولا يعجزه خلق « ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » (١) .

ثم نقول : ومما يبين لك : أنه « يصح السؤال بكيف هنا . لأن المطلب بكيف إنما هو سؤال عن حال موجود يناسب حال السائل بكيف . فإذا قلت : « كيف زيد » ؟ إنما معناه على أي حال هو من الأحوال التي تناسب أحوالنا في حال صحة ، أو في حال مرض ، أو في حال علم ، أو في حال جهل . إلى غير ذلك من أحواله المناسبة لأحوالنا . فإذا قلت : كيف سمع موسى كلام الله ؟ فكأنك قلت : على أي حالة سمع موسى كلام الله من الأحوال التي نكون نحن عليها ، حين يسمع بعضهم من بعض ، ونحن والعقلاء الذين يعرفون ما يجب لله ،

وما يجوز ، وما يستحيل في حقه يعلمون بالبراهين القاطعة : أنه يستحيل أن يسمع موسى كلام الله على شيء من الأحوال التي يسمع عليها بعضنا من بعض على ما نبينه ان شاء الله .

فعلى هذا اذا سألنا سائل كما سألت أنت • قلنا له : السؤال عن الله تعالى وصفاته بـ « كيف » ؟ ظلم وحيث • فان الظلم وضع الشيء في غير موضعه • وقد سألت بـ « كيف » في موضع لا مدخل لها فيه • فتأدب مع الله قبل حلول عقاب الله • فان من لم يستعمل مع الله الأدب فقد استحق التعب ، وحرّم الرتب • ومن لم يستنكر هذا الكلام لحق بالبهايم ، والهوام • فانه لو سألك عني لم يذق قط لذة الجماع • وقال لك : كيف أدركت أنت لذة الجماع ؟ لكان الجواب يصعب عليك ، ولم يمكنك تفهيمه اذ لم يذق لذة الجماع • وكذلك كل من لم يسمع كلام الله كما سمعه موسى عليه السلام فهو كالعنين بالاضافة الى ادراك الكلام القديم اذ لم يسمعه ، ولا اتصف بالادراك الذي اتصف به موسى عليه السلام • وكما لا يقال : كيف يسمع الله كلام الخلق ؟ كذلك لا يقال : كيف يسمع كلامه أحد من الخلق ؟ وكما لا يقال : كيف يرى الله الخلق ؟ كذلك لا يقال : كيف يراه الخلق ؟ فان الكيفية محال على الله تعالى ، وعلى صفاته من جميع الوجوه •

ولولا خوف الاكثار ، وأنا وضعنا هذا الكتاب على الاختصار لمألت صدرك من عظمة الله تعالى ، ان كنت عاقلا ، حتى يتبين لكم : أنكم لم تعرفوا الله حق معرفته ، ولا قدرتموه حق قدره •

وأما قولك : « فان قلت : انه كلمه بذاته • فقد أوجبتم له جارية النطق ، ووقعتم فيما أنكرتموه من الجسم » فلا يلزم من هذا كله شيء • وانما كان يلزمنا هذا : لو قلنا : ان الله تعالى كلمه بصوت وحرف يخرج من لهوات ويقطعه لسان • ونحن لا نقول بشيء من ذلك • بل نقول : ان الله تعالى متكلم بكلام هو وصف قائم بذات الله ، ليس بحرف ولا صوت • وهذا معقول مفهوم • فانا نحس من أنفسنا كلاما قائما بذواتنا • فنحدث به مع أنفسنا • ليس بحرف ولا صوت وهذا مما يجده الانسان من نفسه بالضرورة • ويكون الحرف والصوت دالين على ذلك المعنى الذي في النفس • وهذا لاستحالة في كلام بناسبه

من بعض الوجوه لله تعالى • لكن على انقدر الذى يجوز فى حقه تعالى •
وانما ذكرنا لك أنفسنا مثالا لذلك ، على جهة التأنيس ، كما أنا نقول :
حقيقة العلم واحدة فى القديم والحادث • ونعنى بذلك انكشاف المعلوم ،
لأن العلم القديم يشبه الحادث • فافهم • وهذا كله يتبين فى موضعه ،
ويعرف بدليله •

فعلى هذا الأصل الذى قررناه • نقول : الكلام الذى سمعه موسى
عليه السلام هو كلام الله القديم القائم بذات الله ، الذى ليس بحرف ،
ولا صوت • فان قلتم : كيف يسمع ما ليس بحرف ولا صوت ؟ قلنا :
الجواب عنه قد تقدم • اذ لا يصح السؤال عنه بـ « كيف » لاستحالة
شرط السؤال بها •

ثم نقول : سلمنا جدلا أنه يصح السؤال • ثم يكون الجواب عنه •
أن نقول : يسمع ما ليس بصوت ، ولا حرف ، كما يعلم موجود ليس
بجوهر ولا عرض • وكما يرى الله الخلق ، وليس بذى حدقة ولا عين ،
وكما يسمع أصواتهم وليس بذى صماخ ولا أذن ، وكما يعلم وليس
بذى قلب ، ولا دماغ • وكما يراه المؤمنون فى الدار الآخرة ، كرامة لهم ،
وليس بذى جسم ولا لون • فكما تصح هذه الأمور كلها ، وان كانت
مستبعدة بالاضافة الى أوهامنا فى حق الله تعالى فكذلك يصح أن يسمع
موسى ما ليس بحرف ولا صوت •

ثم نقول : للذى لا تبقى معه حسيكة فى النفس ، ولا استبعاد
فى الوهم : ان الله تعالى خلق لموسى ادراكا لكلامه القديم ، وضل به
الى تحصيل مفهوم كلام الله تعالى ومراده منه • فسمى ذلك الادراك
سماعاً ، وعبر عنه بسمع • كما أنا نجوز أن يكرم الله من شاء من
أصفياء خلقه بأن يطلعهم على بعض ما فى نفوس بعض الناس من غير
تعبير عنه بصوت ولا حرف • وذلك كما فى بعض كتبكم أن عيسى
عليه السلام أعلم بعض الحواريين عما فى نفسه • ولو عبر عن ذلك
بأن يقال : سمع عيسى كلام ذلك الرجل كان صدقا وحقا • وهذا كله
جائز عقلا ، لا استحالة فيه •

فإن قيل : كيف ينبغى لك أن تقول : ان الله تعالى متكلم بكلام
ليس بصوت ولا حرف • وقد جاء فى التوراة : أن الله تكلم بصوت •

آدم وحواء • وذلك أنهما لما « طفقا يلفقان ورق التين ليسترأ بهما عورتهم ، فسمعا صوت الله الرب يتمشى في الفردوس » • الى أن قال : « فدعا الرب آدم • وقال : أين أنت يا آدم ؟ وقال آدم : سمعت صوتك في الفردوس • فرأيت أنى عار • فاستترت واستخفيت » (١) وهذا يدل على أن الله تعالى صوتا ، وهو خلاف ما ذكرت • فيلزمك على هذا تكذيب التوراة • أو تقول بمقتضاها • فترجع عما قلته آنفا •

فنقول ما أمرنا به نبينا عليه السلام — عندما تحدثونا بشيء — : آمنا بالله وكتبه ورسله • وبعد ذلك نقول في التوراة بمثل ما قلناه في الانجيل ، أو قريبا منه • فجدد به عهدا ، وفيه نظرا •

ثم ان سلمنا صحتها فليس في هذا الذى ذكرته ما يدل على أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت وانما الظاهر منه أن آدم سمع حس مشى الله في الفردوس • ألا ترى قوله « فسمعا صوت الرب يتمشى في الفردوس » هذا هو الظاهر من هذا اللفظ ، وأنتم لا تقولون به ولا نحن • وان كانت اليهود ، أو أكثرها قد قالت بمقتضى ظاهره فجسمت • وأنتم ان قلتم بظاهره يلزمكم ما لزمهم • فاذن هذا اللفظ مؤول عندكم ، وعندنا ، أعنى من التشابهات التى يعلمها الراسخون في العلم ، فلما لم يستقم جعله على ظاهره ، تأولتموه أنتم وصرفتموه عن ظاهره • وقلتم : ان هذا انما يراد به كلام الله تعالى الذى هو حرف وصوت عندكم ، وهو فعل من أفعال الله تعالى عندكم •

والى نحو من هذا صار « أغشتين » واذا تأولتم أنتم هذا اللفظ ، وأخرجتموه عن ظاهره فنحن نخرجه عن ظاهره بتأويل آخر أحسن من تأويلكم ، لا يلزم عليه شيء من المحالات التى تلزمكم وسنبينها ان شاء الله •

ولنا في ذلك تأويلان :

(أحدهما) : أن الله تعالى خلق صوتا في بعض طرق الفردوس

(١) النص : « فأنفتحت أعينهما ، وعلما أنهما عريانان • فخاطا أوراق تين ، وصنعا لأنفسهما مآزر • وسمعا صوت الرب الاله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الاله في وسط شجر الجنة • فنادى الرب الاله آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال سمعت صوتك في الجنة ، فخشيت لأنى عريان ، فاختبأت » (تكوين ٣ : ٧ - ١١) •

يشبه صوت الماشى ، وهو الذى يسمى بلسان العرب : الهمس ،
والخشخشة . فلما سمع آدم ذلك الصوت تنبه لمخاطبة الله تعالى .
ولحضوره معه ، ثم أضاف الصوت الى الله تعالى لأنه هو الذى تنبه
آدم عنده لمحاورة الله ، وكأن آدم كان فى غفلة لشدة حزنه وعظيم ما حل
به . وهذا كما يعترى الواحد منا اذا كان ملهوا بأمر هائل فانه يشتغل
بنفسه ، بل ويغفل عن حسه . ثم قد يتنبه عند سماع صوت شىء وحس .
انسان ، فيرجع عند ذلك لنفسه ويتنبه لمن معه . وعلى هذا التأويل يكون
فى « يتمشى » ضمير يعود على الصوت فكأنه قال « يتمشى الصوت فى
الفردوس » لا على الله .

اذ يستحيل على الله تعالى ظاهر المشى ، ومفهومه السابق منه .
وهذا تأويل حسن سائغ عند المنصف .

(والتأويل الثانى) : أن الصوت يراد به الكلام القائم بذاته ، وان
كان ليس بصوت فيجوز أن يسميه صوتا ، لأنه يمكن أن يدل عليه
بالصوت ، كما نقول : ان موسى عليه السلام سمع كلام الله القائم
بذاته ، بمعنى أدركه وفهمه بأدراك خص به موسى ، ثم عبر موسى
عنه لنا بصوت مقطع اذ ليس فى قوتنا ادراك ما ليس بصوت .
وبقريب من ذلك : نقول نحن فى القرآن .

وهذا النوع من التأويل نوع جائز ، جار فى الكلام ، فانه تسمية
الشيء بما يدل عليه كما تقول « سمعت علم فلان » وانما سمعت كلامه ،
الذى دل على علمه ، والكلام ليس هو العلم . وعلى هذا التأويل يكون
فى الفردوس مطلقا بـ « سَمِعَا » لا بـ « يتمشى » ويكون معنى يتمشى :
(يبلغ) والبلوغ عبارة : عن الادراك ، الذى به أدرك كلام الله تعالى .
يعنى سمعه ، وكذلك قوله « سمعت صوتك فى الفردوس » أى ، وأنا
فى الفردوس .

ولو كنت تعرف لسان القوم الذين ترجمت التوراة والانجيل بلغتهم
لذكرت لك من هذا أمثلة كثيرة . وفى القليل المبصر غنية عن الكثير .
فهكذا ينبغى لك ، ولكل عاقل أن يفهم تأويل الصوت الذى وقع فى التوراة .
ولعمري لا يبعد أن يتأول تأويلات أخر جاريات على السنن القويم ،
والمنهج المستقيم . وفيما ذكرناه مقنع للعاقل ، فتدبر فهمك الله ما ذكرته ،
ولا تعتقد فى الله تعالى أنه متكلم بصوت محدث . فان ذلك محال .

ونحن نبين استحالة مستعنيين بالله ، ومتوكلين عليه • فنقول :

من المقرر الثابت عند المشرعين كلهم : أن الله تعالى متكلم ، ومن لم يعول في ذلك على ما أخبرت به الرسل ، ولا وافق على الشرائع ، أقيمت عليه القواطع ، التي لا يردّها الا معاند ، وليس هذا موضع ذكرها • فإذا تقرر ذلك • فنقول :

اما أن يكون متكلمًا بصوت ، أو بغير صوت • فان كان متكلمًا بصوت فذلك الصوت اما أن يكون قائمًا به ، أو قائمًا بغيره ، أو لا قائمًا به ، ولا قائمًا بغيره •

محال أن يكون قائمًا به ، فان الصوت لا يكون مفيدًا حتى يتقطع بالحروف ، وتلك التقطيعات لا بد أن تكون حادثة ، فيلزم عليه أن يكون محلًا للحوادث • وإذا كان محلًا للحوادث لم يخل عنها • وإذا لم يخل عنها كان حادثًا مثلها على ما تحقق في موضعه ، وذلك كله محال على الله تعالى • وإن قام بغيره فذلك الغير يكون المتكلم به • سواء كان ذلك المحل جمادًا ، أو حيوانًا • فان قلنا : انه يجوز قيامه بجسم جماد • وان جاز أن يقوم الصوت بمحل ويكون الباري تبارك وتعالى متكلمًا به جاز أن تقوم صفة بمحل ، وتوجب حكمها لمحل آخر فيلزم على ذلك : أن تقوم حركة بجسم ، يكون جسمًا آخر متحركًا بها ، ويقوم بمحل لون • ويكون محل آخر متصفاً به وذلك كله محال بالضرورة ، ويلزم عليه : أن يكون الباري تعالى متكلمًا بما يقوم بنا من كلامنا ، إلى غير ذلك من المحالات • وباطل أن يقال : لا يقوم به ، ولا بغيره ، لأنه يكون قائمًا بنفسه ، وخرج عن كونه صفة زائدة على النفس ، وإذا بطلت هذه الثلاثة الأقسام ، وهو ما قدمنا ذكره ، ومن أراد مزيدًا فليرحل • ويرتد للحق بعد أن يبحث ويسأل •

وإذا ثبتت هذه القاعدة الوثيقة العظيمة الأنيقة ، التي لا يعرف قدرها ، ولا عظم خطرها الا من نور الله بنور اليقين بصيرته ، وأصلح بجزيل التوفيق سريره ، بطل ما أملتّموه ، ولم يلزم شيء مما ألزمتّموه ، ولا تم لكم شيء مما أردتّموه •

فان جملة ما تريد أن تقوله في هذا الفصل : أن الله تعالى متكلم

بحصوت ، وأن موسى سمع بذلك الصوت ، وهو يقول : « أنا الله ،
إلا إله إلا أنا • فاعبدنى » وذلك الصوت غير الله •

ومع ذلك خاطبه موسى بقوله : « رب أرنى أنظر إليك » وقد اعترف
له موسى بالربوبية فكذلك المسيح فى قوله : « أنا الله » صادق • اذ قد
اتخذه واسطة بينه وبين خلقه ، كما اتخذ جسم النار • والكلام واسطة
بينه وبين موسى ، فينبغى لنا : أن نعترف بربوبيته ، كما اعترف
موسى بربوبية الصوت • وهذا الهذيان كله ، الذى ذكرته ، وليتك ما
أنحلته • الذى والله لا شرع يعضده ، ولا عقل يقبله ويريده • مبنى
على أن الله تعالى متكلم بصوت وقد أبطلناه ، فبطل كل ذلك •

ومع ذلك فلنتكلم على أجزاء كلامك بعد أن بينا جملة مقصودك ،
ومرامك ، حتى يتبين أنكم لستم على شىء مما ينتحله العقلاء ، بل يتبرأ منه
الفضلاء • فنقول :

أما قولك « وان قلتم : ان الله خلق له كلاما ، فقد أثبتتم كلاما مخلوقا
قائما بخلقه ، جوهرًا فى نفسه » فنقول : — بعد أن أبطلنا الصوت الذى
ترومون البناء عليه — نسلّمه لكم جدلا ، ونبين بعد ذلك : أنه لا يلزم
شىء مما ذكرته • اذ لا يلزم من تقدير صوت الله — تعالى عن ذلك —
مخلوق أن يكون الصوت قائما بنفسه ، جوهرًا فان الصوت انما
حقيقته أنه صفة لموصوف وعرض فى محل ، والعرض لا ينقلب جوهرًا •
فان قلت : فيلزمك أن يكون عرضا • قال لك المجيب : وما الذى يلزم
منه ، ان كان عرضا • فان قلت : يلزم منه أن يكون العرض هو الذى
نقال لموسى : « أنا الله لا إله إلا أنا • فاعبدنى » والصوت لا يتكلم ،
وانما يتكلم به • قلنا لك : جوابك أن الصوت لا يتكلم عن نفسه ، وانما
يتكلم به كما قلت أنت • ثم يلزمك أنت ان جعلته جوهرًا غير الله تعالى :
أن يكون هو الذى قال عن نفسه : « أنا الله ، لا إله إلا أنا » وله اعترف
موسى بالربوبية • لا الله • وله سجد ، لا الله • واذا انتهى انسان الى
هذه المخازى فقد كفر بموسى ، وبالله موسى نعوذ بالله من أنظار تقود
فى الدنيا الى الفضيحة والعار ، وفى الآخرة الى الخلود فى عذاب النار •

وعلى هذا الكفر الصريح يدل قولك : ان موسى أقر لها بالربوبية
تقريدا للواسطة واذا أقر لها بالربوبية — ولم يعرف قط من موسى عليه

السلام أنه أقر بالربوبية لالهين — فقد اعترف بربوبية الواسطة ، وأنكر ربوبية الله ، وكذلك يفعل الله بكل مسرف مرتاب ، أعاذنا الله من الاختلال المفضى بصاحبه الى الضلال ، ثم هذه المخارق يلزم منها قلب الحقائق •
 فان الصوت لا يقوم بنفسه ، ولا بخلقه • والقائل بذلك يشهد العقلاء بحمقه • فان حقيقته صفة لموصوف يستدعى وجودها محلا ، كما سائر الصفات • اذ لا يعقل قيام صفة بنفسها ، بل بغيرها • وهذا ضرورى •
 وأما قولك « فان قلت : ان الصدى لم يقل له : « أنا الله » ولكنه كان في مسامع موسى « أنا الله » قلت لك : ان الصدى هو العامل في مسامع موسى ، وهو المحرك له • وعليه رد ، واياه أجاب ، فيلزمك على هذا الانفصال : أن يكون موسى رسول الصدى ، لا رسول الله ، وعليه يدل كلامك ، وعنه تحمل الرسالة ، لا عن الله • واذا كان كذلك فقد كذبت موسى عليه السلام ، على ما يلزمكم ، حيث قال لفرعون : أنا رسول الله • فان كان بزعمك رسول الصدى • فاذا كان الصدى يقول « أنا الله » ويعترف له موسى بالربوبية ، ويأمر لموسى بتبليغ رسالته فقولوا : ان الصدى اله • وأضيفوه الى آلهتكم المتقدمة ، فيكون عددهم (خمسة) وذلك أن الأقانيم الثلاثة عندكم آلهة ، وعيسى اله رابع • والصدى اله خامس ، ومنكم طائفة تدعى أن مريم اله • فتكون الآلهة عند هذه الطائفة (ستة)

واذا انتهى عقل انسان يقول هذه المخازى بلسانه ، ولا يشعر بها سقطت مكالمته ، ووجبت مجانبته •

ولا معنى لتطويل الكلام مع من يرتكب ذلك الهذيان ، فقد تم للشيطان فيهم أمله ، وأنجح معهم سعيه وعمله ، ومع هذا فـ « انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى بيعتهم الله ، ثم اليه يرجعون » (١) وينبغي أن يتعدى أكثر كلام هذا السائل مما هو ظاهر الفساد • ولعلنا نصل الى ما هو المهم والمراد • من نقل مذاهب المتقدمين ، أعنى (المطارق والقسيسين) (٢) اذ كلامهم يمكن أن يعقل ، أعنى يفهم ، ويتحصل • ولا بد مع ذلك من نقل كلام هذا السائل ، ليعلم الناظر فيه : أنه ليس تحته طائل • وأن المتكلم به ليس بعاقل •

(١) الأنعام : ٣٦

(٢) درجات الكهنوت عند النصارى هكذا : شماس ثم قسيس ثم أسقف

ثم مطران ثم بطريرك ثم بابا •

تجسد الواسطة

من حكاية كلامه

قال : « فاذا لم يكن بد من الصدى ، فقد قال « أنا الله » فأسألك :
أن كنت تصدق الصدى أم تكذب ؟ فاذا لم يكن بد من تصديقه في قول
الربوبية • اذ قال : « أنا الله ، لا اله الا أنا • فاعبدني » (١) قلنا لكم :
وكذلك صدق المسيح في قوله « أنا الله » وانا لنرى كذا : صدق
الحواريون ، ومن اتبعه من غيرهم في قوله في الربوبية ، كتصديق موسى
الكلام ، وألا يتمارى له برسالته الى أهل مصر • وقد أوجبتم أن جسم
المسيح ، وكلامه لما خطب بالربوبية مثل جسم النار ، والكلام اذا خاطب
موسى بالربوبية •

فان قلت : ان موسى لم يعبد النار ، كما تعبد النصارى المسيح •
ثقل لك : ان الكلام قال له : « اعبدني » وسجد له موسى ، وقال : « ثبت
أليك ، وأنا أول المؤمنين » (٢) فان قال المسلم عند الاضطراب : ان النار ،
والصدى واسطة ، ولكنها خلاف المسيح وكلامه • لأن النار ليس من طبعها
الكلام • وأما المسيح فانه كان انسانا معروفا بالكلام فلا آية فيه •
قلنا لك : اذ قد أوجبتم أن الخليفة لا تدرك الخالق الا بجسم مخلوق
تتخذه وتجعله واسطة بينه وبين من خاطب من الأنبياء ، ويصير الواسطة
إلهم لها ، فقد جامعتموه على الاقرار بواسطة مخلوق بالربوبية للمسيح ،
ووقعتم فيما أنكرتم ، وليس ينفعكم ملجؤكم الى القول بأن النار والمسيح
ليس آية •

وانما أوجبتم علينا الشرك في قولنا : بواسطة • فاذن العقل والحق
لا يعيب الواسط ، فكلا الواسطين بين الله والخلق •

واذا ذهبتم الى أن النار صادقة ، لا يتخوف عليها الكذب ، وأن المسيح يتخوف عليه الكذب ، فان موسى قد أوجز في النار والكلام • وانما قطع الشك باليقين بآية العصا ، واليد ، الذي أدخلها في جيبه • وكذلك قطع المؤمنون بربوبية المسيح شكهم باقرار الموتى عند احيائه لهم بربوبيته • وان ذهبتم الى أن خلق النار في ذاتها أشرف • فان كل مخلوق في الدنيا هو منافع لولد آدم ، مسخرة لهم • وكفى بقولكم في قرآنكم ان الله أمر الملائكة بالسجود لآدم • وأن إبليس مسخوط عليه في الأبد ، لإبائه بالسجود له ، وقوله « **أنا خير منه خلقتني من نار** » و**خلقته من طين** » (١) •

فان قلتم : كذبتكم على المسيح لأنه لم يدع مما قلتم شيئاً • قلنا : انما أنكرتم علينا القول بما وجدنا في كتابنا • نحن لا نستدل بمثل هذا في الأبد ، فاضررناكم من كتابكم الى القول بمثله • فلما أبينا • قلتم : كذبتكم على المسيح • فلم تكذبونا ، وكتابنا على القول بمثل قولكم في واسطة موسى وعبادته لها ، وأنتم لما أوجبتم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة ، أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها • ثم يقول قرآنكم : « **وجاء ربك والملك صفا صفا** » (٢) •

فما تنكرون أن يكون المسيح الذي كان واسطة للوعظ ، أن يكون هذا المقبل مع الملائكة ، كما قدمه في الانجيل حيث قال : « يقعد ابن الانسان — يعني الحجاب المتخذ من نسل آدم — في مجلس عظمته ، وتقدم جميع الأمم بين يديه ، ويميزهم كما يميز الراعي الغنم من المعز فيحمل المؤمنين عن يمينه ، والمجرمين عن شماله ، ثم يعاتبهم ، ويأمن كل طائفة بمثل ما قدموا في دنياهم » (٣) •

واذا أوجبتم أن الله لا مفطور ولا مدرك بحاسة • فقد وجب : أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس مع اقراركم أن ربكم قال « **ترون** »

(١) الأعراف : ١٢

(٢) الفجر : ٢٢

(٣) النص : « ومتى جاء ابن الانسان في مجده ، وجميع الملائكة القديسين معه ، فحينئذ يجلس على كرسي مجده ، ويجتمع أمامه جميع الشعوب ، فيميز بعضهم من بعض • كما يميز الراعي الخراف من الجداء • فيقيم الخراف عن يمينه ، والجداء عن اليسار • الخ » (متى ٢٥ : ٣١ - ٣٣) والمراد بابن الانسان في هذا النص : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما سنتبين • وكما بينا •

ربكم ، ولا تضامون في رؤية القمر ليلة البدر » أو لم تتكروا أن يكون المسيح الذي كان واسطاً للوعظ • أن يكون هو المقبل مع الملائكة كما قال عنه قرآنكم : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر ، وإلى الله ترجع الأمور » (١) ٥٠ هـ •

الجواب عما ذكره : اعلم يا هذا المتكلف في بغيته ، المتعسف في تأويل دينه • أنك قلت في هذا الفصل من الباطل والكفر مالا حجة له ، ولا أصل ، خالفت فيه دين النصارى المتقدمين ، ولم تعرج على مذاهب القسيسين • بل رغبت عن ملة أئمتك للـ « مطارين » فوجب على أهل ملتك أن يعدوك في الخارجين • ومن الجهال المبتدعين •

وذلك أنك زعمت أن الذي قال لموسى « أنا الله • لا إله إلا أنا • فاعبدنى » إنما كان الصدى ، ولم يكن الله تعالى ، وزعمت أن موسى اعترف للصدى بالربوبية وأنه هو الذى كلم موسى ، وإياه حارب ، وعنه تحمل الرسالة حتى أتى فرعون • وأن ذلك الصدى قام عند موسى مقام خالقه ، فسماه الها ، وزعمت أن موسى سجد لذلك الصدى ، وأنه هو الذى سأل موسى رؤيته ، ولذلك زعمت أن موسى قال للصدى : « **تبت إليك • وأنا أول المؤمنين** » فإذا كان هذا كله للصدى ، فلا حاجة لموسى ، ولا لأحد إلى الله تعالى • فإنه لم يقل « لا إله ، إلا أنا » وإنما قالها الصدى • والصدى صادق بزعمك ، فقد بطلت الهية الله تعالى • وثبتت الهية الصدى •

وإذا كان كذلك فلم لا تعبدون هذا الصدى ، الذى عبده موسى ، وسجد له ، وتاب له بعد أن اعترف بربوبيته • وما بال حقيق النبى لم يعبد هذا الصدى كما عبده موسى ولم يذكره ، ولم يعترف بربوبيته • وكذلك ما بال حزقيال لم يعبد هذا الصدى ، كما عبده موسى ، ولم يذكره • ولم يعترف بربوبيته •

وكذلك أشعياء ويحيى وعيسى وغيرهم من الأنبياء • والحواريون ما بالهم لم يعبدوا ما عبد موسى ، وسجد له واعترف بربوبيته ، وأنه لا رب سواه ، فهؤلاء الأنبياء ، والأولياء • أما أن يكونوا علموا : أنه لا إله إلا الصدى ، كما قال الصدى بزعمك ، أو جهلوا ذلك • فإن كانوا

علموا قتلاى شىء لم يعترفوا بذلك ، وسكتوا عنه اذ لم يصح قط عن واحد منهم أنه قال : لا اله لكم الا الصدى ، فيلزمكم أن يكون سكوتهم عن ذلك • اما عن جحد أو تلبيس • فان كانوا علموا الحق فجحدوه فذلك كفر منهم ، وهم — صلى الله عليهم أجمعين — مبرأون عن ذلك ، منزهون • ولو كان ذلك لاستحال أن يظهر عليهم من الآيات شىء بما ظهر • وان كان سكوتهم عن تلبيس • فان جاز عليهم التلبيس في مثل هذا جاز عليهم التلبيس في كل ما أخبروا به من الشرائع • اذ كل الشرائع والأحكام تحتقره ، بالإضافة الى معرفة الربوبية • وان كانوا جهلوا ذلك • فكيف علمت أنت يا أحمق ما جهله الأنبياء والأولياء ؟

فان كانوا تكلموا بذلك ، وقالوا به • ففي أى سفر من أسفار التوراة هو أن موسى أخبر : أن : الله لا اله له ولا لكم الا الصدى • وأن الصدى أرسله الى فرعون ، وأنه اله • فان كان ما تدعيه حقا فائت بالتوراة فاتلها • ان كنت من الصادقين • وفي أى كتاب من كتب الأنبياء جاء مثل ذلك ؟ أنى كتاب حبقوق ؟ أو فى كتاب حزقيال ؟ أو فى كتاب إشعياء ؟ أو فى كتاب دانيال ؟ أو فى انجيل لوقا ؟ أو فى انجيل متاؤوش ؟ أو فى انجيل ماركس ؟ أو فى انجيل يوحنا ؟ أو فى مصحف الاعلان ؟ أو فى أى كتاب من رسائل الحواريين وجد مثل ذلك ؟

هل وقع شىء منه هنالك ؟ وهذه الكتب التى ترجعون اليها • يتعولون عليها ، اذا لم يوجد فيها شىء مما ذكرت ، علم من حالك أنك على الله ورسله كذبت ، وافتريت • « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة » أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين « (١) •

بل قد تواردت الرسل على الأخبار بالقواطع التى لا تجهل بأن الله اله واحد • وأنه ليس له فى ألوهيته ، شبيه ولا مضاد • واذا تبين بهذا أنك كفرت ، وأن الله ربك سببت ، وعلى رسله كذبت • وأنت من جميع الملل خرجت • تعين على اليهود والنصارى أن يشتوروا فى أمرك ، ويأتَمروا فى حرقك ، أو نحرك « ولعذاب الآخرة أشق ، وما لهم من الله بمن واق » (٢)

ثم نقول : هذا الصدى الذى وصفت ، وهو اله عندك — كما زعمت — أهو الله تعالى رب العالمين ، وخالق السموات والأرضين ؟ أم اله غيره ؟ فان كان هو الله تعالى ، فلم سميته الصدى ؟ ولم جعلته واسطاً بين نفسه وبين خلقه ؟ وهل هذا الا محال ، فانه لا يتصور فى العقل واسط ، لا بين اثنين ، ويكون الواسط ثالثاً •

ثم يلزمك على هذا أن تجعل ذات البارى ، الرب تعالى صوتاً حادثاً • فان ذلك الصدى عندكم حادث ، وهذا كله محال بضرورة العقل • وان قلت : انه غيره • فيلزم أن يكون ذلك الصدى هو المتكلم عن نفسه ، والمخبر بحقيقته • فاذا سمعه موسى يقول : « أنا الله • لا اله الا أنا » فاما أن يخبر عن نفسه ، أو عن رب العالمين • فان أخبر عن نفسه فهو كاذب ، فان الرب تعالى يكون الها آخر وان أخبر عن الرب • فلأى شىء قلت : انه اله • وأن موسى اعترف له بالربوبية ، وسجد له • بل الاله الحق رب العالمين ، والصدى ليس باله ، ولا رب •

فقولك « اعترف موسى بربوبيته ، وعبدته » باطل بالضرورة • ثم نقول : هب ان ذلك الصدى هو المتكلم عن الله ، وأنه اله • فهل يقدر الله تعالى على أن يتكلم ، ويخبر عن أرادته بغير ذلك الصدى • فان قلت : لا • فذلك تعجيز لله تعالى ، وهو القادر على كل شىء ، ويلزم عليه أيضاً : أن يكون محتاجاً لذلك الصدى ، وكل من كان محتاجاً فهو ناقص معيب • وليس بغنى ، والله تعالى هو الغنى عن كل الموجودات ، وليس لشىء من الموجودات عنه غنى • وان كان قادراً على أن يسمع كلامه بغير واسطة فلعل موسى سمعه بغير واسطة • واذا جاز أن تسقط الواسطة انهدم كل ما رمت ببناءه ، على أنا قد كنا هدمناه أولاً فى أوحى لحظة ، بأيسر نفخة • وانما أردنا أن نبين لك ، ولكل من وقف على كلامك بعض ما يلزمك ، وأنت لم تشعر بشىء من ذلك ، ولولا خشية التطويل ، لأوردت عليك من النقوض واللوازم ما يتعجب منه كل حبر نبيل •

ثم نقول : هب أنا نسلم جدلاً : أن الله تعالى تكلم مع موسى بواسطة الصدى • فلم قلت ان عيسى مثل الصدى ؟ أعنى أنه واسطة ، كما أن ذلك الصدى واسطة • وما الذى دلك على ذلك ؟ ولأى شىء سويت بينهما ؟ والفرق بينهما ظاهر • وذلك أن الصدى الذى زعمت أن موسى سمعه انما سمعه موسى بعد أن احتجب له بالنار كما زعمت ، والنار جماد •

« وإذا قام بالجماد صوت يفهم منه » أنا الله ، لا اله الا أنا « فيمكن أن يعقل هنا غلط مثلك ، أن المتكلم بذلك الصوت اما غير الجماد لاستحالة الالهية عن الجماد • واما حيوان ممكن أن يتوهم فيه أنه اله ، كما توهمتم أنتم في ذلك • ولا يصح ذلك في الله ، لأنه اذا قال « لا اله الا أنا » فعن نفسه يخبر ، واليه يرجع حكم خبره ، بخلاف الجماد • فكيف قست أحد الواسطين على الآخر ، وليس في معناه ، ولو أردنا تطويل الكلام لمذكرنا فروقا آخر تمنع مقايضة النار بالبشر •

وأما قولك « ان عيسى عليه السلام قال : « أنا الله » وأن الحواريين صدقوه في ذلك » فكذب صراح ، وافك بواح • فانه لم يرووا عنه عليه السلام في ذلك أقوال بوجه صحيح ، ولا بنص صريح ، بل الذى صح منه ، ونقل بالتواتر عنه أنه كان يقول : « اعبدوا الله ، الذى لا اله الا هو » وأناجيلكم تشهد بذلك عليكم •

ثم نقول : لو ثبت أن عيسى قال ذلك اللفظ بعينه ، فمن الممكن سوغ حمله على محمل قوييم في العقول غير مخالف للمنقول ، وهو أن عيسى عليه السلام كان محبا لله تعالى مشتهرا في محبته ، ومن عادة المشغوف بشيء ، المشتهر به : أن يستحضر ذلك الشيء المشتهر فيه في قلب ، ويجعله نصب عينيه ، حتى لا يلاحظ شيئا سواه ، بل ربما ينتهى ذلك به الى أن يذهل عن نفسه ، ويغيب عن حسه • ففي مثل تلك الحالة ، يظن المشتهر بأن الشيء الذى شغف به : هو ، هو • حتى يقول :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

وكذلك قال الآخر :

كل شيء رآه ظنه قدحا وكل شخص رآه ظنه الساقى

وكذلك عيسى عليه السلام لما انكشف له من سلطان الحقيقة أمرها غاب عن نفسه ، وفنى عن حسه ، لما شاهد من جمال الربوبية ، والحضرة الالهية ، فذهل عن كل ما سوى الله • فقال « أنا الله » وهذه أمور عجيبة ، وأذواق غريبة ، لا يدركها الا من اختاره الله من خلقه ، واصطفاه بحضرته •

فـ « ليس بعشك • فادرج » •

وأما قولك لنا : « قد أوجبتم أن الخليقة لا تدرك الخالق الا بجسم مخلوق ، تتخذه وتجعله واسطة بينه وبين من خاطب من الأنبياء » فقول باطل علينا ، فاسد لدينا ، فانا قد أحلنا تلك « الواسطة » فيما تقدم بوجوه متعددة ، وقد حكمنا بتكفير من أثبت واسطا ، على نحو ما زعمت ، ولا أعلم أن أحدا من المسلمين قال شيئا من ذلك ، بل ولا من أهل الملل غيرك •

ثم نقول : هذا الواسط الذي زعمت لا يخلو أن يدرك الله تعالى ، أعنى يعرفه ويسمع كلامه أو لا يدرك ؟ فان قلت لا يدرك فقد شهدت على أنفسكم : أن الواسط ليس بالله اذ الاله لا بد أن يكون دراكا ، ويلزمكم على ذلك أن يكون عيسى لا يعرف الله تعالى ، ولا يسمع كلامه ، وهو محال ••

وان قلت انه يدرك الله تعالى • فهل يدركه بواسطة ، أو بغير واسطة ؟ فان أدركه بواسطة أخرى فالكلام في تلك الواسطة كالكلام في الأولى ، ويلزم التسلسل • وان أدركه بغير واسطة ، فيجوز لنا نحن أن ندركه بغير واسطة • وفي هذا ابطال ما ذكرت من اثبات الواسطة الذي ذكرت أن المسلم قد اضطر اليه •

وأما قولك « انما أوجبتم علينا الشرك في قولنا بواسطة • فاذن الحق والعقل لا يعيب الواسط » فلنعلم أنا لم نوجب عليك الشرك من حيث الواسط فقط ، بل من حيث أثبت واسطا الهيا • وذلك أنك زعمت أن الصدى قال لموسى مخبرا عن نفسه : « أنا الله ، لا اله الا أنا • فاعبدنى » واعترف له موسى بالربوبية ، وتحمل عنه الرسالة وعبدته وسجد له • فهذا اثبات اله غير الله • وكذلك قلتم في المسيح أنه قال « أنا الله » واعترف الحواريون له بالربوبية ، فهذان الهان • ثم ان الأتانيث ثلاثة آلهة ، فصارت آلهتكم خمسة ، فيا ليت شعري هذه الآلهة الخمسة هل اشتركوا في ايجاد الموجودات ، واختراع الكائنات ، أو انفرد بها أحدهم ؟ فان كان قد انفرد بها أحدهم فهو الاله الحق الواحد الفرد ، وان كانوا قد اشتركوا وتعاونوا على خلق المخلوقات فلا معنى للشرك الا هذا ، ويلزم على تقدير اجتماعهم وتوافقهم على الخلق : أن يكون كل واحد منهم مضطرا الى مساعدة الآخر ، وكل مضطر ناقص ، والناقص ليس بالله • وان قدرنا اختلافهم في الخلق بحيث يريد أحدهم أن يخلق ، ويريد الآخر أن لا يخلق فيؤدى ذلك الى أن لا يخلق أحدهم

شيئاً • فلا يوجد الخلق • وقد وجد الخلق فدل ذلك على أن الاله واحد
لا شريك له • ولا اله غيره •

ثم نقول : عباد الأصنام والأوثان أشبه حالا منكم ، لانهم في
عباداتهم انما كانوا يعبدون أصنامهم ليقربوهم الى الله زلفى ، وأنتم انما
تعبدون هذه الآلهة لأنها أرباب من دون الله متقربون منها ، وهذه
جهالات بينة ، وضلالات ظاهرة ، عميت عنها بصائركم فأفطرت عليها
قلوبكم ، وأعجب من ذلك كله قولك « العقل والحق لا يعيب الواسط »
أما من قال هذا فقد خرج عن غريزة العقل وتارة وقع في مفازة الجهل ،
فان العقل الصريح يشهد بضرورته بإبطال الواسطة • وأما الحق فهذه
كتب الأنبياء بين أيدينا وأيديكم • ففي أى كتاب منها : أن الآلهة خمسة ؟
انها تدل كلها على أن الاله واحد ، ولا ولد له ، ولا والد « وما ينبغي
للرحمن أن يتخذ ولدا • ان كل من في السموات والأرض الا آتى
الرحمن عبداً » (١) وستقدم فتعلم ، وأنت قد اضطربت في هذا الفصل ،
ولم يثبت لك فيه فرع ولا أصل ، والكثير مع من لا يعقل عمل من
لا يحصل •

وأما قولك « وأنتم لما أوجبتكم أن الأمة تحاسب بعملها يوم القيامة ،
أن محاسبها يخاطبها يوم القيامة ويكافئها بأعمالها » فقد كان ينبغي لك
ألا تحتج بشيء لم يثبت عندك أصله ، ولا تصدق بنقله ، ثم لا حجة
لك في شيء مما ذكرته ، وذلك أن محاسبة الله تعالى للعباد في الدار
الآخرة مما يجب الايمان بها ، ومما قد تواردت عليه الشرائع ، اما بالتصريح
واما بالايماءات والتلويح •

وذلك يكون ولا بد ، ولأجل مجازاة العباد بأعمالهم في الدار
الآخرة : خلق الله الخلق وبسط الرزق وأرسل الرسل وأنزل الكتب
« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً • وأنكم اليينا لا ترجعون » (٢) ومحاسبة
الله للخلق تكون على وجوه جائزة في العقل وإرادة في النقل ، لا تحتاج
الى شيء مما تخيلته •

منها • أن العبد يوقف في موضع الفصل والقضاء ، فيعطى كتاباً
أحصيت فيه أعماله ، ويقال له : « اقرأ كتابك • كفى بنفسك اليوم عليك

حسبنا» (١) فإذا وقف عليها ، علم أن المكتوب فيها هو أعماله • فان كان سعيدا • قال « هاؤم أقرأوا كتابيه • انى ظننت أنى ملاق حسابيه • فهو فى عيشة راضية • فى جنة عالية • قطوفها دانية » فعند ذلك يقال لهم : « كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية » (٢) وان كان شقيا فيقول : « يا ليتنى لم أوت كتابيه • ولم أدر ما حسابيه • يا ليتنى كانت القاضية • ما أغنى عنى مالىه ، هلك عنى سلطانيه » (٣) •

فعند ذلك يقال للملائكة : « خذوه فقلوه • ثم الجحيم صلوه • ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » (٤) •

فهذا وجه من وجوه المحاسبة لا تحتاج معه الى اثبات « واسط » ويمكن أن يكون هنالك وجوه ممكنة فى المحاسبة ، ليس هذا موضع ذكرها ، ولا أنت أهل لفهمها ، لا تحتاج فى شىء منها الى ما رمت من الواسطة • فكأنى والله بك — ان مت على ما أنت عليه — يؤخذ بناصيتك وقدمك ، وتحيط بك ملائكة ربك « ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » (٥) •

فتنادى فتقول : « يا عيسى ، يا سيدى ، يا الهى ، يا ولد الله » • فتقول لك : « كذبت ، ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، ولست بالله ، ولم أقل لك كذلك ولا أبلغتك ذلك • وانما بلغتك أن لا اله الا هو ، وحده لا شريك له » • فكيف ترى حجتك بين يديه ، وحيرتك اذا طلبت فى نفسك جوابا ترده عليه ؟ فذلك المقام • لا ينفعك فيه ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، الا ما قدمت يداك ، من حسن ايمان ، وصالح عمل ، وسعادة قضت لك بها سابقة الأزل •

فان الملائكة والنبیین لا يشفعون الا لمن ارتضى رب العالمين •

فالله • الله • انظر فى خلاص نفسك لتجتتى ثمار غرسك •

وأما قولك « يقول قرآنكم : « وجاء ربك والملك صفا صفا » (١) »

(٢) الحاقة : ١٩ — ٢٤

(٤) الحاقة : ٣٠ — ٣٢

(٦) الفجر : ٢٢

(١) الاسراء : ١٤

(٣) الحاقة : ٢٥ — ٢٩

(٥) التحريم : ٦

فلمست لها ، فما شأنك وإياها ، أنت لا تعرف لسان من خطب بها ،
ولا تعرف مضمونها • فكيف يمكنك الاستدلال بها ، والتطواف حولها ؟
وأنت عرى عن الشرط الذى به يعرف معناها ، ويفهم فحواها ، وليس
مفهومها عند من خطب بها من العرب الفصحاء ، البلغاء على شئ مما
ذكرت ، ولا يقرب مما توهمت ، بل معناها عندهم لا تخالفه العقول ،
ولا يخرج عن أسلوب لسان العرب المنقول وإنما أكره أن أشافهك
به لأنك فاقده شرطه • فان كنت ممن ينور الله بصيرته ، ويحسن سريره ،
شرعت فى أن تتعلم ، ويجب علينا أن نفهمك حتى ان شاء الله تفهم •

وأما قولك « فى الانجيل يقعد ابن الانسان فى مجلس عظمته ،
وتقدم جميع الأمم بين يديه ، ويميزهم كما يميز الراعى الغنم » فنقول :
آمنا بالله ، وملائكته وكتبه ورسله ، ومع ذلك فنعلم على القطع
والثبات أن كل أمة تدعى يوم القيامة بامامها ، وتنادى بمعبودها ،
وأنبيائها • فيتبع كل من كان يعبد الشمس ، الشمس ، ويتبع كل من كان
يعبد الطواغيت : الطواغيت •

واذا كان ذلك فلا بد لعيسى أن يجمع له كلا من لزمه اتباع شرعه ،
فحينئذ يميزهم كما يميز الراعى الغنم • فمن آمن به وانتبه على النحو
الذى رسم له فهو من الفائزين ، ومن اعتقد فيه أنه اله ، أو ابن اله •
فالنار مأواه بعد أن يتبرأ عيسى من دعواه •

وأما قولك « واذا أوجبتم أن الله لا مفطور ، ولا مدرك بحاسة ،
فقد وجب أن المحاسب المسموع مدرك بالحواس » فهذا لا يلزم منه شئ
مما ذكرت • فانا اذا قلنا : ان الله تعالى ليس مدركا بالحواس فانا نريد
به أن الله ليس مدركا بالحواس كما تدرك الأجسام والألوان فيكون
محاطا به ، فيكون ذا حدود وأقطار وذلك محال •

واذا قلنا : ان الله تعالى يرى فى الدار الآخرة ، انما نريد به أن
الله تعالى يخلق لنا ادراكا آخر لا تناسب حاله حالة ادراك الأجسام ،
ولا الألوان • فان الادراكات مختلفة باختلاف متعلقاتها ، وذلك ادراك
خاص • له حكم نفسه ، لم يذق منه ذوقا فى هذه الدار • فانه انما يكرم
الله به أوليائه وأصفياه يوم القيامة •

واذا أنعم الله تعالى على وليه بذلك الإدراك المعبر عنه بالرؤية ، خلق له من اللذة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . فان أنكرت أن يرى ما ليس بجسم ، ولا لون فلتتكر أن يعلم بوجوده ليس بجسم ولا عرض . وان زعمت أن الرؤية غير جائزة عقلا . فقد جهلت موسى حيث سأل الله ما يستحيل عليه . فكيف جهل موسى من وصف الله ما علمه جاهل مثلك ؟

وأما استشهادك بحديث نبينا عليه السلام على رؤية ذى الجلال والاکرام . فأنت ممنوع منه لأعراضك عنه ، وهو من عمدنا على اثبات رؤية الله تعالى في الدار الآخرة لكوننا عالمين بحقه ، ودليل صدقه .

ثم أنك نقلت ذلك الحديث فأجحفت ، وبالمعنى أخللت ، وانما صوابه : « انكم ترون ربكم ، ولا تضاهون في رؤيته ، الا كما تضاهون في رؤية القمر ليلة البدر » وهذا لا حجة لك فيه . فانا نقول : ان الله تعالى هو المرئى لا غيره بالأبصار في الدار الآخرة على ما تقدم . وأنتم تقولون : ان المرئى الواسطة . وهذا الحديث يعرف معانيه أهله ، وهم الذين يصدقون برسالة من هو قوله ، فلا تطمع في معرفته ، فانك لست أهلا لداريته .

وأما قولك « لم تتكروا أن يكون المسيح الذي كلن واسطة للتوعد ، أن يكون هو المقبل مع الملائكة كما قال عنه قرآنكم » هل ينظرون الا أن يأتيهم الله في ظل من الغمام والملائكة « (١) فكيف لا ننكر ذلك ولم يدل على وقوعه دليل عقل ، ولا صحيح نقل ؟ وليس معنى الاتيان في هذه الآية الا كالمجيء في الآية المتقدمة ، وكلاهما ليس المراد به : المجيء الذي هو نقل الأقدام . بل المجيء والاتيان لهما معان آخر يعرفها العرب المؤمنون .

وهذه الآية فيها محذوف تفسره آية أخرى . تقديره : هل ينظرون الا أن يأتيهم أمر الله . كما قال تعالى في آية أخرى : « هل ينظرون الا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي أمر ربك » (٢) فقد ذكر في هذه الآية ما حذف هنالك . وهذا على المعروف في لسان العرب من حذف المضاف ،

واقامة المضاف اليه مقامه ، وكذلك الكلام على الآية الأولى • وهذا لا خفاء به عند اليصير بلسان العرب ، فانها تستعمل الحذف والاضمار والمجاز والاختصار • ثم مالك ولكتابتنا ، ولأى شىء تتشد ضالتنا • « دعها • معها حذاؤها ، وسقاؤها • ترد الماء ، وتأكل الشجر ، حتى يلقاها ربها » •

ألق السلاح فلست من أكفائنا واقعد مكانك بالحضيض الأسفل

ثم نقول : من عجيب أمر هذا السائل : أنه لا يصلح أن ينسب لمقلد • ولا ناقل • وذلك أن هذا المذهب الذى أبداه من اتخذ الله : واسطة « صوت الصدى » انما حمله عليه ، تقليده لكتاب « أغشتين » •

وذلك أنه أشار فى « مصحف العالم الكائن » الى نحو مما ذكره هذا السائل ، ولعله وقف عليه ، ولم يفهمه صحيحا ، ولا أورده فصيحاً ، بل زاد عليه كلاماً فاحشاً قبيحاً • وأنا ان شاء الله تعالى أذكر كلام « أغشتين » فى الفصل الذى بعد هذا وأبين فيه أنه ليس كما فهمه هذا السائل ، ثم أعطف على « أغشتين » بتبيين فساد مذهبه ، وأوضح أنه غير مصيب فى مطلبه ، وأحقق فيه : أن « أغشتين » مخالف لغيره من القسيسين •



الفصل الخامس

في حكاية كلام المنفتدين

لتعلم أيها الناظر في هذا الباب : أن النصارى قد كثر اختلافهم ، وعظم خبطهم وارتباكهم فلا هم يستقرون فيه على قدم ، ولا يمشون منه على طريق أمم ، فقليل منهم من نفى الاتحاد والحلول ، ولم يقل بشيء من ذلك ، وهم طائفة متقدمة يعرفون بـ (الأرؤسية) ولا يكاد مذهبهم يخالف مذهب المسلمين الا في انكارهم نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وجمهورهم على القول به واثباته .

ثم المثبتون له . منهم من قال : لا يقال فيه بـ « كيف » ؟ ولا يسأل عنه بحرف ومنهم من شرع في بيان كيفيته وتفسير ماهيته . فصارت اليعقوبية والنسطورية الى أن الكلمة خالطت جسد المسيح ومازجته كما يمازج الخمر اللبن . والى نحو هذا ذهب الروم ، وزادوا عليهم . فقالوا : اختلطت الكلمة بالمسيح فصارتا شيئا واحدا .

ولقد حكى من كلام اليعقوبية : ما يدل على توقعهم ، وجراتهم على الله تعالى . وذلك أنهم قالوا : ان الله نزل فدخل في بطن مريم ، فأتخذ من لحمها جسدا فصار الله مع الجسد نفسا واحدا .

وربما أطلق بعضهم القول بأن الله اتخذ ذلك اللحم والدم فزاده في نفسه ، فصار ذلك اللحم : الله . وصار معظم اليعاقبة : الى أن الكلمة انقلب لهما ودما .

وأما النسطورية : فقالوا ليست تلك النفس هي الله . وانما هي بعضه . وهذا هو البهتان ، الذي يعلم بطلانه بالضرورة كل انسان .

وصارت طائفة من النصارى : الى أن الكلمة حلت جسد المسيح ، كما يحل العرض محله . وصار أخلاط من النصارى : الى أن المراد

بالاتحاد : ظهور اللاهوت على الناسوت • وربما عبروا له عن ذلك
بالفيض •

ثم اختلفوا في تمثيل ذلك على ثلاثة أوجه • فمنهم : من قال مثاله
ما ينطبع في الأجسام الصقلية من الأشياء التي تقابلها • ومنهم من قال
مثاله : الطابع المنقوش اذا اتصل بشمع وما يضاهيه ، فيظهر نقش
الطابع عليه ، وان لم يحصله شيء من الطابع • ومنهم من قال : معنى
ظهور اللاهوت على المسيح ، كمعنى استواء الاله على العرش ، عند
الاسلاميين ، مع مصيرهم الى استحالة المماسه •

وربما يعبرون عن الاتحاد بالتدرع • كأنهم أخذوا ذلك من لفظ
الدرع يشيرون الى أن اللاهوت اتخذ ناسوت المسيح درعا •
هذه مذاهب المشتهرين من طوائفهم •

وأما اختلاف آحادهم فمما لا يكاد ينضبط ، ولا يرتبط • ومن أراد
الوقوف على شيء من ذلك فليطالع كتاب « المسائل » لهم • ففيه يرى
تحريرهم وخطبهم •

ونفرد بعد هذا ان شاء الله : بابا • نذكر فيه كلام « أغستين »
فان مذهبه في الاتحاد مخالف لمذهب من تقدم ذكره من الفرق
والقسييسيين •

الجواب عن كلامهم • أما من حكى عنه : نفى الاتحاد • فقد قال
بالحق • وأتى بالمراد •

وأما من أثبته ، وقال : ان الاتحاد لا يسأل عنه • ولا يكيف •
فنقول : معنى الاتحاد لا يخلو أن تعرفه أو لا تعرفه • فان لم يعرفه
فقد اعترف بجهله ، وناقض متقدم قوله ، فانه اعترف بالاتحاد ، وادعى
ثبوته للمسيح وحده ، ثم لما طوّل بتثبيته • قال : لا أعرفه • وهذا
تناقض ، وقول باطل • وأما من قال : أعرفه ، الا أنني يقصر عن ادراك
حقيقته عقلي ، ولا أقدر على العبارة عنه • وهذا كما قلتم أنتم في جوابكم
عن كيفية سماع موسى كلام الله تعالى ، حيث قلتم : انه لا يسأل عنه
بكيف ، فانه ظلم وحيف • فنقول : أما قولك : أعرفه ، الا أنه يقصر عقلي

عن ادراك حقيقته ، فمتناقض أيضا ، لأن كل معروف ، لا بد أن يرتسم في العقل ، ويحصل فيه على الوجه الذى يكون معروفا منه • فاما على الجملة ، واما على التفصيل ، وما لم يرتسم في العقل ، لا جملة ولا تفصيلا ، فليس بمعلوم • وأنت اذا ادعيت أنك عالم بالاتحاد • فلا بد أن تكون عالما به ، اما على الجملة ، أو على التفصيل • وكيفما كان فلا بد لك من أن تعبر عن معلومك ، على أى وجه كان • والا فأنت جاهل بالاتحاد • ومن جهله كافر عندكم • وأما تشبيهك هذا بكيفية سماع موسى ، فليس بصحيح • لأننا مهما قيل لنا : كيف سمع موسى كلام الله فانما نسأل عن أمر لم نعلمه : علم ذوق ، وعن تفصيل ما لم نعلمه : تفصيلا • بل علمناه • على الجملة ••

ولذلك أجبنا بقولنا : ان الله تعالى خلق له ادراكا سمع به كلام الله تعالى الذى هو وصفه ، الذى ليس بحرف ولا صوت ، ففهمنا الادراك على الجملة ، ولم نفهمه على التفصيل ، وأنت لم تعرف الاتحاد • جملة ولا تفصيلا ، بل جهلت وادعيت ، أنك علمت •

فـ « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (١) •

وأما من قال : ان الكلمة خالطت جسم المسيح ، ومازجته ممازجة الخمر اللبن ، فكلام فاسد ، قائله للعقل فاقد • وذلك أن المفهوم من المخالطة والممازجة لا يتصور الا في الجواهر المتحدات • وذلك أن المخالطة إنما يعبر بها عن تجاوز الجواهر ، واجتماعها بحيث يكون كل واحد من الجواهر المتمازجة يحفظ حيزه ويشغله ، ويمنع منه غيره •

ولذلك اذا أفرغت اناء ماء ، على اناء لبن مثلا ، وتمازجا كثر اللبن ، وصار لا يسعه بعد الممازجة ما كان ، والعلم ليس بجوهر ، فاستحال عليه الاختلاط ، والامتزاج بالضرورة •

فان أرادوا بالامتزاج والاختلاط أمرا آخر ، فلا بد من بيانه • وافادة تصويره ولا يتكلم على الشيء ردا وقبولا الا بعد كونه معقولا • ولو سلمنا الممازجة جدلا ، للزم عليها ، أنواع من المحالات ، منها : (١) قيام الصفة بنفسها ، وانتقالها ، وبقاء جوهر الله تعالى عريا عنها — على قولهم — والعري عن العلم جاهل • والجهل على الله محال ، ويلزم على

ذلك : أن لا يكون العلم أزليا ، بل حادثا مخلوقا ، وأن حاله تغيرت وبعد
أن لم يكن مختلطا ممتزجا : مختلطا •

وهذان أمران حادثان ، ولا يخلو عن أحدهما • وما لا يخلو عن
الحوادث حادث • على ما يعرف في موضعه • وهذه أمور باطلة • فالمفضى
إليها باطل ، وهو الاختلاط •

وأما من قال بالحلول • فليس له محصول ، ولا معقول • لأن حقيقة
الحلول إنما هي : أن يحصل جسم أو متحيز في شيء ، أو على شيء ،
فيسمى الحاصل : حالا • والمحصول فيه : يسمى محلا • وتسمى النسبة
بينهما : حلولا — وهو الذى يسميه النحوى مصدرا — هذا هو المفهوم
من حقيقة الحلول •

وقد يتوسع فيه فيقال : حل العرض في محله • ومعناه : صار
المحل متصفا به ، وصار العرض قائما به ، وموجودا فيه •
فإن أردتم حقيقة الحلول كان محالا • فإن العلم ليس بجسم ولا
جوهر • على ما مر •

وان أردتم الثانى فهو محال أيضا لأنه يلزم عليه مفارقة العلم
الجوهر ، وبقاؤه جاهلا • ويقوم عرض واحد بمحليين • في زمان واحد ،
ويلزم عليه انتقال الصفة من محل الى محل • وحدوثها الى أنواع من
المحالات ، لا يبيء بها عاقل ، ومنتحلها أحق جاهل •

وقد صرحوا بأنهم أرادوا بالحلول : حلول الجوهر في العرض •
وقد صرحنا نحن بما يلزمهم من المحالات على ذلك • وبيناه والحمد لله •

ثم نقول لهم بعد ذلك في قولهم بالاختلاط ، وبأنهما صارا شيئا
واحدا : لا يخلو أن حين اختلطا ، أما أن يبقى العلم موجودا بحاله ،
والجوهر موجودا بحاله ، أم ينعدم أحدهما • أو ينعدم معا •

محال • أن يبقىا موجودين بحالیهما ، مع فرض الاختلاط ، وكونهما
شيئا واحدا • فإن الواحد لا يعود اثنين إلا بإضافة غيره إليه • وإذا
أضيف غيره إليه ، ارتفعت الوحدة بالضرورة ، على ما تقدم في التثليث •
وكذلك الاثنان لا يعودان واحدا إلا إذا انعدم أحدهما ، فترتفع

الانثينية بالضرورة ، ومحال أن ينعدم ، فانه يؤدي الى عدم القديم ،
والى عدم ما هو موجود فى حالة وجوده ، فلم يبق الا أن ينعدم .
أحدهما دون الآخر ، وذلك محال . فان الوجود لا يخالط المعدوم .
ولا يمازجه ، بل يبقى الواحد واحدا .

واذا بطلت هذه الأقسام المنحصرة بطل الامتزاج والاختلاط ،
ومصير الاثنين واحدا على ما قالوه .

وأما من قال : ان الكلمة انقلبت لحما ودما ، فلقد ارتكب حماقة ،
والترزم عمى ، يلزمه عليه جواز عكس مذهبه . وهو أن ينقلب اللحم
والدم علما ، والقديم حادثا ، والحادث قديما الى غير ذلك من المحالات .
التي لا تصدر عن من شد : أطرافا من المعقولات ، ولولا الحق .
والتقليدات ، لما وجد مثل هذه الفواقر فى كلام أحد من المخلوقات .

وأما من قال : ان الاتحاد هو ظهور وفيض ، ومثله بانطباع الصورة
فى المرآة فهذا المثال انما كان يصح ، لو كان العلم صورة محسوسة
بالبصر ، ويكون جسد المسيح صقيلا تنطبع فيه صورة المقابلات . وكل
ذلك معدوم فى مسألتنا بالضرورة . فتخيله فاسد ، وباطل بالضرورة ،
فكما لا تتمثل ذات الحياة ، والادراكات فى المرآة كذلك لا تتمثل الكلمة
فى جسد المسيح .

ثم ان جاز انطباع علم الله فى جسد البشرى ، فلينتطبع فى كل
ما يشبهه فى الجسدية ، وسيأتى لهذا مزيد بيان . وفيما تقدم ما يبين
فساده واستحالته .

وأما التمثيل بنقش الخاتم يعود منحفرا فى الشمع ، والمنحفر
فى الخاتم يعود ناتئا فى الشمع ، فذلك لا يتصور الا فى الأجسام . وان
جاز فى غير الأجسام فيلزم أن يكون كل واحد منهما ، أعنى اللاهوت
والناسوت يؤثر فى الآخر ، ويحل فيه ، فيكون الناسوت حل فى
اللاهوت . وذلك محال عند كل فريق . والأمر الثانى : أن النقش
فى الخاتم يوضع مقلوب الكلمات ، ثم تنطبع مستقيمة فى الشمع ،
ولو وضعت فى الخاتم مستقيمة لانطبعت فى الشمع منعكسة . فيلزم
على مساق هذا المثال : أن تنطبع الكلمة فى الناسوت . اما بالاستقامة

• أو بالعكس • فإن انطبعت فيه بالاستقامة فأقنوم الكلمة في الجوهر
• بالانعكاس • وإن انطبعت فيه بالانعكاس فلم تبق الكلمة في الناسوت
على حقيقتها في اللاهوت • بل هي منعكسة فلا تبقى حقيقة العلم على
ما كانت ، بل هي ليس بعلم • وهذا كله مما يلزم على آرائهم الفاسدة ،
وتحكماتهم الباردة •

وأما من لبس منهم ، بأن مثل قولهم في الاتحاد ، بقولنا في استوائه
• تعالى على العرش • فذلك مما لا يقال عليه عندنا اتحاد ، ولا حلول ،
ولا فيض ، ولا انطباع • لأننا نريد بقولنا هو على العرش مستو ،
• واستوى على العرش : أن العرش تحت قبضته ، ومسخر بقدرته ،
والاستواء عليه ، إنما هو بمعنى الاستيلاء على ما يعرفه العرب من
: كلامها • فإنها تقول :

قد استوى « بشر » على العراق بغير سيف ودم مهراق

— فإن أرادوا هذا المعنى فهو حق وصحيح ، لكنه لا يصح في حق
عيسى وحده ، فإن الله تعالى مستول على عيسى ، وعلى غيره • وأما
• من أطلق منهم لفظ النزوع فيستحيل على الحقيقة ، والتوسع • وذلك
أن هذا اللفظ يشعر بأن اللاهوت اتخذ الناسوت درعا ، أو كالدرع ،
• وهذا كله مستحيل على الإله تبارك وتعالى ، وعلى علمه • وكل ما تقدم
• من المحالات على هذا المذهب يلزم •

وعلى الجملة فهؤلاء القوم أغبياء جاهلون ، وعن التوفيق معزولون •
فهم عن المعقولات معرضون • وبها مستهزون ، لا يستحيون من
• خالقهم ، ولا يتأدبون مع مالكم ورازقهم • فسبحان الله عما يقول
الجاهلون ، وتعالى عما ينسبه إليه المبطلون • بل هو الله الواحد الأحد ،
الفرد الصمد ، الذي « **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** » (١) •

ولولا ضرورة الحال ، ورجاء قمع أهل الضلال ، لما استجرت
• بحكاية مثل هذا المقال وأنا أستغفر الله ذا العظمة والجلال • أنه ذو العفو
• والافضال •

ولا بد مع ما تقدم : أن نطالبهم أجمعين ، بصحة الدليل الذى جعلهم على ذلك القول الغث الهجين ، حتى نتبين تحكمتهم ، وتظهر لكل أحد ترهاتهم •

فأقول لجميعهم : ما الذى حملكم على القول بالاتحاد ، والتورط فى الضلال والالحاد ؟ فلتعلم أنهم قد اختلفت مسالكهم فى ذلك • فمنهم من قال : إنما قلنا بذلك تقليداً للإنجيل ، وحذراً من المخالفة والتبديل كما قال هذا السائل • ومنهم من قال : إنما قلنا بالاتحاد لأن عيسى ظهرت عليه أفعال لا تتبغى إلا لاله ، من أحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وخلق الطير من الطين ، وهذه أفعال لا يقدر عليها إلا اله ، وهو قد قدر عليها ، فهو إذن اله • ومنهم من قال : إنما صرنا الى ذلك لكون عيسى لم يخلق من الماء الدافق ، الكائن عن أبوة ، ولا خرج عن شهوة آدمية ، بل خلق الله ناسوته من غير أب ليكون واسطاً بينه وبين خلقه ، وليتخذ هذه لكلمته • وربما قال بعضهم : الستم تقرأون فى كتابكم : « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته القاها الى مريم ، وروح منه » (١) ؟ وهذا عين ما أنكرتم علينا من الاتحاد • فان عيسى رسول الله ، وكلمته • فناسوته : رسول الله ، ولاهوته : كلمة الله • على ما أخبر به كتابكم •

فنقول :

لمن قال بذلك تقليداً للإنجيل • جوابك قد تبين ، فيما تقدم • اذ قد تقدم أن فهم الاتحاد منه باليسيح باطل • وأن الصائر الى الاتحاد بعد الوقوف على ما تقدم : معاند جاهل •

وأما من استدل منهم على ذلك بما ظهر على يدى المسيح من خوارق العادات • فنقول له : لأى شيء قلت : إنها تدل على ألوهيته ، ولم تقل إنها تدل على ما كان يستدل هو بها من رسالته ؟ فقال : « رب أعلم أنك تعطينى كل شيء • ولكن أقول من أجل الجماعة الواقفة ، وليؤمنوا به ، وليصدقوا أنك أرسلتني » (٢) فهو قد استدل بأحياء الموتى

(١) النساء : ١٧١

(٢) النص : « أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لى • وأنا علمت أنك فى كل

على رسالته ، وأنتم تستدلون بذلك على ألوهيته ، فيلزم من هذا الاستدلال : العدول عن شرع عيسى المنقول ، ومصادمة العقول •

ثم نقول لهم : كيف ينبغي لكم أن تقولوا هذه الأفعال العجيبة تدل على أنه : لاهوت ، وأنتم تعززون في كتبكم أن عيسى كان إذا أراد أن يفعل شيئاً مما ذكر تضرع الى الله ، ورغب اليه بخضوع وتذلل حتى يقضى الله حاجته • وهذا موجود في كتبكم • كثيراً فيها •

وكفى دليلاً على نفى ما تنسبونه اليه قوله حين صلبه بزعمكم : « الهى • الهى • لم أسلمتني » (١) ؟ وقوله قبل ذلك : « يا أبتاه • ان كانت هذه الكأس ، لا تقدرتجاوزنى ، حتى أشربها • فلتكن ارادتك » وهذا كله في سجوده •

وفي هذا الموطن قال : « يا أبتاه • ان كان ممكناً فلتذهب عني هذه الكأس » (٢) •

وفي انجيل ماركوش أنه قال في هذا المقام : « سيلقى ابن الانسان ما كتب له » (٣) ثم قال بعد ذلك : « يا أبتاه • انك قادر على جميع الأشياء ، فرج عني هذه الكأس » (٤) فهذا كله يدل دلالة لا شك فيها : أنه كان يفعل ما يفعل باذن الله • اذا اراده ، وأقدره عليه •

وأنه انما كان يتفق له ذلك : بعد أن يتضرع ويرغب لله تعالى • وربما كان يسأل أموراً لا يعطيها الله له ، لما سبق في علم الله أنها لا تكون •

هنا : ما تقدم • حيث سأل الله أن يدفع عنه أمر الصلب والقتل فلم يجب لذلك على زعمكم • ومنها : أن اليهود كانت تطالبه بمثل بعض

(١) النص : « الهى الهى • لماذا تركتني » ؟ (متى ٢٧ : ٤٦) •

(٢) النص : « وكان يصلى قائلاً : « يا أبتاه • ان أمكن فلتعبر عني هذه

الكأس • ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت » (متى ٢٦ : ٣٩) •

(٣) النص : « ان ابن الانسان ماض كما هو مكتوب عنه » (مرقس

١٤ : ٢١) •

(٤) النص : « وقال يا أبا الآب • كل شيء مستطاع لك • فأجز عني

هذه الكأس » (مرقس ١٤ : ٣٦) •

معجزات موسى بن عمران ، فلا يجيبهم بشيء — وسيأتى لهذا مزيد —
 ودليل ذلك من الانجيل : أن عيسى قال لليهود : « لست أفعل من
 ذاتى شيئاً • لكننى أحكم بما أسمع ، لأننى لست أنفذ ارادتى ، بل ارادة
 الله الذى بعثنى » (١) الى ما فى كتبكم من هذا الذى قد عميتم عنه ،
 ولم تسمعوا حرفاً منه • فتارة ينبهكم على وجه الاستدلال ، وأخرى
 يصرح بالمقال ، وتارة يسأل فيعطى ويجاب ، وأخرى يسأل فلا يرد
 عليه جواب • وحينما يتبرأ من مشيئته ويعترف بزلته وعبوديته ، ثم
 هؤلاء القوم مع ذلك يقولون هو : الهنا ، ومحيينا ، وخالقنا • فهؤلاء :
 يكونون بكم كالأنعام • وصم كالأصنام « فمال هؤلاء القوم لا يكادون
 يفقهون حديثاً » (٢) •

ثم نقول : ان كان احياء الأموات يدل على الألوهية ، فلأى شيء
 لا تقولون : ان « الياس » و « اليسع » كانا الهين ، وأنه حل بناسوتهما
 اللاهوت ؟ وشأنهما فى احياء الموتى ، لا يقدر أحد على دفعه ،
 ولا يخفى (٣) •

ولم لا تعتقدون ألوهية النبى « حزقيال » اذ فر قومه ، وهم ألوف
 حذر الوباء ، فأماتهم الله ، ثم جاءهم نبيهم • فقال لهم : لتحيوا باذن
 الله ، فحيوا ورجعوا الى قومهم ، سحنة الموت على وجوههم حتى
 ماتوا بآجالهم » (٤) • وهذا معروف عندهم ، ولا مدفع فيه •

وان أنكرتم وجود شيء من ذلك • نزلنا معكم الى ما فى الكتب
 القديمة ، من قصص الأنبياء وكتبهم • وهذا لازم لهؤلاء القوم ،
 لا ينفك عنه واحد منهم أبدا •

(١) النص : «. إنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً ، كما أسمع أدين ،
 ودينونتى عادلة لأنى لا أطلب مشيئتى ، بل مشيئة الآب الذى أرسلنى »
 (يوحنا ٥ : ٣٠) •

(٢) النساء : ٧٨

(٣) الياس أحيا ابن الأرملة • انظر الاصحاح السابع عشر من سفر الملوك
 الأول واليسع أحيا ميتين انظر الاصحاح الرابع من سفر الملوك الثانى
 والاصحاح الثالث عشر من سفر الملوك الثانى •

(٤) انظر الاصحاح السابع والثلاثين من سفر حزقيال (ذو الكفل) •

ثم من عجيب أمر هؤلاء القوم : أنهم يزعمون أن عيسى عليه السلام أيد نفرا من الحواريين بأحياء الموتى ، وجعلهم رسلا الى الأجناس ، فأحيوا الموتى بزعمهم (١) . فما الذى أوجب أن يكون المسيح فى حال ألوهيته ، قد أيد بذلك بشرا ، وجعله رسولا الى الأجناس كما زعموا ؟ وما الذى منع أن يكون الله عز وجل يؤيد بذلك بشرا ، ويجعله رسولا الى الناس ؟ فان كان المسيح من أجل أنه أحيى ميتا : هو الله . فكل من أحيى ميتا من الحواريين وغيرهم : هو الله . ثم كل خارق للعادة يجعلونه دليلا على ألوهيته ، فانهم يعارضون بمثل ذلك فى حق غيره من الأنبياء عليهم السلام . ويدعى ألوهيته ، فلا يجدون فصلا بينهم ، وبين من يعارضهم .

وأما من استدل على ذلك بأنه خلق من غير أب . فيلزمه أن يعترف لآدم بالألوهية (٢) ، فانه لم يخلق من نطفة أب ، بل انما خلق من تربة أرض . ثم نفخ فيه من روحه . كما فعل بعيسى ، خلقه من نفخة الملك . فعلمت بلحمة مريم ، فنشأ منها ، وفيها ، فتربى بمنزلة لحمه ، ونفخه بمثابة نفخه ، وهذا مالا مخلص منه ، ولا خروج عنه ، ثم أكرمه الله تعالى بأنواع من الكرامات ، لم يكرم بها غيره . منها أنه أسجد له ملائكته ، وأعلمه بما لم يعلمهم ، حتى جعله رسولا اليهم . وكفى بهذا شرفا . الى ما هنالك من خصائصه ، ومن فضائله .

بل لو أمكن لأحد أن يقول : ان بشرا يتصور أن يكون الها لكونه من غير أب . لكان آدم أولى بذلك من حيث انه لم تشتمل عليه أضرار الرحم . فقد شارك المسيح فى كونه من غير أب ، وزاد عليه أنه من غير أم ، لم يتكون فى ظلمة الرحم ، ولم يتلطخ بدم الطمث ولا خرج .

(١) انظر الاصحاح العاشر من انجيل متى الآية الثامنة ، وانظر الاصحاح العاشر من انجيل لوقا .

(٢) وكذلك ملكى صادق فى الرسالة العبرانية هكذا : « لان ملكى صادق هذا . ملك ساليم ، كاهن الله العلى ، الذى استقبل ابراهيم راجعا من كسرة الملوك وباركه ، الذى قسم له ابراهيم عشرا من كل شئ . المترجم أولا ملك البر ثم أيضا ملك ساليم ، أى ملك السلام . بلا أب ، بلا أم ، بلا نسب . لا بداءة أيام له ، ولا نهاية حياة » (عب ٧ : ١ - ٣) وانظر التكوين . . الاصحاح الرابع عشر الآية الثامنة عشرة وما بعدها .

من مجرى البول • هذا مع الاعتراف بأن ذلك كذلك ، ولم يختلف في ذلك أحد ، أعنى في أن آدم مكون مخلوق من غير أبوين •

وقد خالفتمكم اليهود لعنهم الله في كون الهكم المسيح من غير أب ، وأطلقت القول على مريم البتول المبرأة عند الله مما قالوا ، بما قد علمتم فلعنهم الله ، وغضب عليهم • فلقد كذبوا •

وانما أسمعتمكم هذا • لتعلموا أنا نعرف ما قالت اليهود لعنهم الله في عيسى وأمه عليهما السلام • وانا ننزههما عما قال فيهما المبغضون لهما ، والمحبون القالون فيهما ، فما أجمل بكم — لو شاء الله توفيقكم — أن لو قلتم فيهما الحق ، الذى ينبغى لهما : أن الله جعل عيسى وأمه آية للناس ، هو عبدا ورسولا ، وأمه صديقة مباركة •

ثم نقول للمستدل بما تقدم : يلزمك على استدلالك أن تكون حواء أم البشر الها فانها لم تخلق من أبوين ، ولا من نطفة ، وانما خلقها الله من ضلع من أضلاع آدم • لم تتكون في ظلمات الرحم ، ولا نشأت بين الأقدار ، والأوصار ، وخلقها من ضلع آدم كخلقه من تراب ، ولا فرق ، و « انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » (١) •

وأما استدلالهم بما في كتابنا من قوله تعالى : « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته • ألقاها الى مريم وروح منه » (٢) فلا حجة لهم في ذلك • لوجوه :

أحدها : أنهم لا يصدقون بكتابنا ، فلا يستدلون به على شيء •

والثانى : أنهم ان استدلوا على غرضهم بشطر هذه الآية • فان صدرها يرد عليهم استدلالهم وكذلك الآيات التى بعدها ، قال الله تعالى في كتابه العزيز الذى « لا ياتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » (٣) مخاطبا لهم ، وردا عليهم : « يا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله الا الحق •

(٢) النساء : ١٧١

(١) يس : ٨٢

(٣) فصلت : ٤٢

انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته • ألقاها الى مريم •
 وروح منه • فأمنوا بالله ، ورسله ، ولا تقولوا : ثلاثة • انتهوا •
 خيرا لكم • انما الله اله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في
 السموات ، وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلًا • لن يستنكف المسيح أن
 يكون عبدا لله ، ولا الملائكة المقربون • ومن يستنكف عن عبادته ،
 ويستكبر ، فسيحشرهم اليه جميعا • فأما الذين آمنوا وعملوا
 الصالحات ، فيوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله ، وأما الذين
 استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ، ولا يجدون لهم من دون
 الله وليا ، ولا نصيرا (١) •

(ونورد بعد ذلك الزامات لهم) :

الزام لهم : نقول لهم : حين صار أقنوم العلم لعيسى — كيفما
 صار — هل بقى الرب تعالى كما كان قبل ذلك ، أو اختلفت حاله •
 فان كان كما كان قبل ، فلم يصير لعيسى منه شيء • وأيضا فلو صار
 اليه بعض أقانيمه لبقى ناقص الأقانيم ، وتبطل ألوهيته فان حقيقته
 عندهم واحد ثلاثة أقانيم • وأما ان اختلفت حاله فيلزم عليه أن يصير
 من العلم الى الجهل • ومن القدم للحدوث • وهذا كله على الله تعالى
 محال • ومرتكبه في بحبوبة الضلال •

الزام آخر : نقول لهم : حين صار أقنوم العلم لعيسى • فهل بقى
 البارئ تعالى عالما بذلك الأقنوم أم بغيره أو غير عالم ؟ باطل أن
 يقال غير عالم لاستحالة الجهل عليه • وباطل أن يقال : بقى عالما
 بذلك الأقنوم • اذ لو كان ذلك للزم منه ألا يصير الى عيسى ، ويلزم
 منه أيضا أن يكون علم واحد يقوم بمحليين ، ولو صح ذلك يصح أن
 يكون الواحد منا ، موصوفا بنصف علم وذلك محال • فان العلم الواحد
 لا يتبعض ولا ينقسم • اذ العلم للواحد انما يعقل في محل واحد بمعلوم
 واحد في زمان واحد ، فيما يقبل الزمان والتعدد • وباطل أيضا أن
 يقال : انه يكون عالما بعلم آخر ، فانه يؤدي الى حدوث الأقانيم ،
 بل الى حدوثه • وذلك كله محال •

الزام آخر يظهر تناقضهم : وذلك أنه قد تقدم من مذهبهم أنهم
 قالوا في الأقانيم انها غير متباينة ، ولا مفترقة • ثم انهم قد قالوا هنا :

ان أقنوم الابن اتحد بناسوت المسيح • دون أقنوم : الآب ، وروح القدس • فمفهوم هذا : أن الابن اتحد بناسوته ، وبقي جوهر الآب وروح القدس لم يتحدا به ، وهذا تصريح بالمباينة والمفارقة • فان بعض هذه الثلاثة وجب له أمر دون صاحبيه ، فلو لم يباينهما ، ولم يكن غيرهما ، لما وجب له من الحكم ما لم يجب لهما ، ولا تناقض • فظهر من هذا تناقضهم ، وقد كنا أظهرنا اضطرابهم في هذا في باب الأقانيم •

ثم نقول تحقيقا للزام الجميع : هذه الأقانيم اما أن تكون مباينة للجوهر ، مفارقة أو لا تكون كذلك •

فان كانت مباينة لزم أن تكون زائدة عليه ، وان كانت زائدة عليه لزم أن يكون الاله متركبا من أمور — كما مر — وقد أبيتم ذلك وهو محال • ويلزمكم أيضا : اخراجها عن كونها أقانيم • ويلزمكم رفع التوحيد الى محالات كثيرة عندكم • وان كانت غير مباينة لم يصح اتحاد بعضها دون بعض ، بل لو اتحد بعضها ، لاتحد جميعها فيلزم على هذا اتحاد العلم والقدرة والارادة والوجود • وهذا بين لا خفاء به •

الزام آخر وطلبه : نقول لهم : لأي شيء قلتم ان الذي اتحد بناسوت المسيح انما هو الابن فقط ؟ ولأي شيء لم تقولوا انه اتحد به الآب وروح القدس ؟ ولو قلتم ذلك : لكان أجرى على ما أصلتم من أن الأقانيم ، لا متباينة ولا مفترقة •

فان قالوا : انما قلنا باتحاد الابن لأن عيسى انما أرسله الله ليعلم الناس شريعتهم ، ويخبرهم بالمغيبات عنهم ويعظهم • وذلك كله انما يصح بالعلم •

فنقول لهم : هذا الذي ذكرتم مسلم لكم جدلا • لكن لم قلتم : انه انما اتخذه الله لهذا فقط ؟ وانما هو اتخذه لهذا ، ولأمور آخر :

منها : ليعبده ، ومنها : ليبرىء مرضى ، كانوا قد أعيوا الأطباء ، وأراد الله تعالى شفاءهم على يديه ، ومنها : أنه أراد احياء موتى على يديه •

فتحصل من هذا أمران : أحدهما : أن هذه معجزات تدل على صدقه • والثاني : أن من أبرأه أفاق من مرضه ، وجذامه ، وجنونه ،

وبرصه فانتفع بذلك • وكذلك يحصل للميت الذى حىي ، وزائداً على ذلك : أن الميت آمن به فأدخله الله الجنة بإيمانه برسوله ، وهذه الأمور كلها ، لا يمكن انكار أن يكون كل واحد منها مقصوداً لله تعالى • وإذا أمكن أن يكون كل واحد من هذه الأمور مقصوداً ، فلم تقتصرتم على مقصود واحد مع امكان هذه المقاصد ؟ وإذا تقرر ذلك حصل منه : أن الله تعالى اتخذها لما لا يصح الا بالعلم والقدرة والارادة والحياة • فقولوا : ان هذه الأقسام اتحدت به • وهذا لازم لا محيص عنه ، ولا جواب عليه • ثم يلزم على هذا : أن يكون كل نبي أرسله الله تعالى يتحد به العلم • فان هذا الذى استدللتم به في حق عيسى موجود في حق غيره من الرسل • اذ كل واحد منهم انما أرسل معرفاً بشرع الله ، ومبلغاً رسالة الله ، ومخبراً بوعد الله ووعيده ، فيلزم على هذا أن يتحد العلم بكل رسول •

الزام آخر : قد تقرر أن عيسى عليه السلام كان يحيى الموتى ، ويعبرى الأكهم ، والأبرص ، ويخلق من الطين كهيئة الطير ، فينفخ فيه فيكون طائراً • فاذا قلنا هذا • فاما أن يكون عيسى هو الذى يفعل ذلك أو غيره • فان كان غيره فليس ذلك الا الله تعالى ، وغاية عيسى أن يكون عبداً يرغب لله تعالى في قضاء حاجته • ثم ان الله تعالى يفعل ما يشاء عند تحديه بالنبوة تصديقا له في دعواه • وعيسى ينظر الى ذلك ، ويتعجب عند ذلك من فعل الله ، ولطيف صنعه • وهكذا كان حال موسى عندما أيده الله بالعصا • فقل له : « **الْقها** » • « **فألقاها فإذا هي حية تسعى** »^(١) فلما رآها على حال لم يعرفه منها ، هاله ذلك • وولى مدبراً خائفاً وذلك لما شاهد من قدرة الله تعالى • فلما فزع • قال الله تعالى له : « **خذها ، ولا تخف • سنعيدها سيرتها الأولى** »^(٢) •

واذا قلنا : ان عيسى هو الذى يفعل ذلك • فاما أن يفعله بقدرة وعلم وارادة أو لا يحتاج الى شيء من ذلك • باطل أن يقال : انه لا يحتاج الى شيء من ذلك • لأن الفعل الاختياري لا بد له من هذه الأمور بالضرورة — على ما يعرف في موضعه — فلم يبق الا أن يفعل ذلك بقدرة وعلم وارادة • وهذه الصفات هي شروط الفعل • ولا بد

وأن تكون منسوبة له ، ويكون هو موصوفا بها ، أو لا تكون منسوبة إليه ، ولا يكون هو موصوفا بها • فان لم يكن هو موصوفا بها ، ولا تنسب إليه ، فلا ينسب الفعل إليه ، وقد نسبتم الفعل إليه • فدل ذلك على أنه موصوف بها ، وتنسب إليه كلها • وإذا ثبت ذلك فليس من يسلب عنه القدرة والارادة ، ويقول : هما صفتان لله تعالى ، وليستا بصفتين لعيسى فتبرؤوا حالا ممن يسلب عنه العلم ويقول هو علم الله تعالى ، وليس علم عيسى مع أنه صفة عيسى • فيلزم عن هذا البحث : أن هذا الفعل المنسوب الى عيسى موجود عن علم وقدرة وارادة • وأن هذه الثلاثة انما تنسب لواحد • فاما لله ، واما لعيسى ، ولا يجوز عقلا أن تنسب بعضها لله ، وبعضها لعيسى • فان هذه الثلاثة مشروط بعضها ببعض فالمحل أو الجوهر الذى يجب لأحد هذه ، يجب للباقي • وهذا مالا خفاء به عند العاقل الموفق •

الزام آخر : قد تقرر عند هؤلاء القوم : أن علم الله اتحد بعيسى ، ولا خلاف بين جمهورهم في هذا المعنى • وان اختلفت عباراتهم عنه • فعيسى عالم ، والله تعالى عالم ، بعلم واحد • فقد اتحد أقنوم العلم وتعدد المحل • فاذا ثبت ذلك لزم عليه أن يكون عيسى عالما بكل معلومات الله تعالى • ويكون الله تعالى عالما بكل معلومات عيسى • فانهما عالمان بعلم واحد • فاذا علم الله أنه هو نفسه خالق المخلوقات ينبغى لعيسى أن يعلم أنه هو نفسه خالق المخلوقات كذلك • لأن علمهما واحد • وكذلك اذا علم الله أنه هو نفسه قديما باقيا موصوفا بصفات الكمال ينبغى لعيسى أن يعلم أنه هو نفسه كذلك • واذا علم عيسى نفسه متغوطا بآثلا ، ومصفوعا ومتوجا بالشوك ، ومصلوبا في خشبة ، ومسمرة يداه ورجلاه فيها • فينبغى لله تعالى أن يعلم نفسه كذلك • — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — وهذا كله لازم على هذا المذهب السخيف ، الفاسد الضعيف •

الزام آخر : اتفق النصارى القائلون بالاتحاد على أن عيسى لاهوت ، وناسوت • فبما هو لاهوت يحبى الموتى ، ويبرئ المرضى ، وغير ذلك • وبما هو ناسوت يجوع يعطش ويبول ويتغوط ، ويفرح ويألم ويحزن ويلتذ • ثم يعبدون ناسوته ، ويجعلونه الها • فهم بين أمرين : اما أن يقولوا : ان جسده المتغوط البائل : اله • أو هو شطر اله • فان قالوا : ان جسده اله • فكفى شناعة وهجانة • اله بائل متغوط •

مصلوب • وان قالوا : انه اله بما حل فيه من الاله ، فكان ينبغي لهم
أن يقولوا : انه نصف اله ، ولا يعبدون جسمه ، ولا يسجدون لجسده •
واذا قالوا : الهنا المسيح • قالوا مكان يا الهنا : يا نصف الهنا ،
أو يا ثلث الهنا • فانه اتحد به أحد الأقانيم الثلاثة • والواحد من
الثلاثة : ثلث • وهذا كله جهالات ، وتواقحات منهم •

الزام آخر : وذلك أنهم اتفقوا على أن المسيح صلب وقتل بالنخز ،
ورفع فوق خشبة بعد أن أهين وصفع ، ووضع على رأسه الشوك ،
وسمرت يداه ، ورجلاه في الخشبة • وقد جاء كل هذا في أناجيلهم
— كما زعموا — فنقول لهم : ألوقت الذي أهين وصفع ورفع على
الخشبة ، وسمرت يداه ، ونخز • هل كان متحدا به اللاهوت ، أو زال
عنه ؟ فان كان متحدا به اللاهوت في تلك المواطن • فلقد أدرك لاهوته
من المذلة ، والاهانة والنخز ، والموت • ما أدرك ناسوته ، لاسيما •
وقد التزمت فيما تقدم أن أقنوم العلم حي • فيلزمكم على هذا أن
تعبدوا الهًا ذليلاً مهاناً • ينخز • ويموت وكفى بهذا خزيًا وفضيحة •
وان قلتم : انه فارقه • فاذا جاز أن يفارقه في موطن ، جاز أن يفارقه
في كل موطن • وهذا مما يأبونه • ويلزم عليه : ان يفارقه أن يكون
جاهلاً ، وألا يكون الهًا • فتعبدون ما ليس باله •

وقد خرجنا مع هؤلاء الجهال بخالقهم ، المستهزئين بأديانهم ،
إلى حد الاكثار ، وفارقنا شرط الاختصار • وقد أطنبنا في هذا الفصل ،
وان كان لا متمسك لصاحبه ولا أصل ، لكونهم متفقين عليه ، ومحتجين
به ، ومتحومين نحوه •

ولا يظن الظان : أن هذا المذهب الذي ارتكبه هؤلاء القوم في
الأقانيم والاتحاد • محتاج في إبطاله إلى نظر واجتهاد • بل العقول
بأوائها تشهد بفساده ، كما أن الحس يدرك بياض الجسم من سواده •
وهؤلاء معاندون ، وللضروريات جاحدون •

ومن كان حاله كذلك ، انما يتكلم معه بضرب الأمثلة بأبين المدارك ،
وتعديل الالزامات ، وتكثير المسالك ، ليتبين الافحام ، ويلقى يد
الاستسلام • وقد قدمنا العذر عن ذلك كله في أول الكتاب • وإلى
الله أرغب في الهداية للصواب ، وحسن المنقلب إليه ، والمآب •

في حكاية مذهب "أغشثين" إذهوز عيم القسيسين

نذكر ان شاء الله تعالى في هذا الفصل كلام هذا المذكور الواقع له في « مصحف العالم الكائن » ونحكي ألفاظه من غير زيادة ولا نقصان .
الا أني اختصر من كلامه مالا تدعو ضرورة سياق الكلام اليه ، من غير اخلال بلفظه ولا تقصير في معناه . وربما قدمت وأخرت ، وانما خصصته بالكلام معه في فصل مفرد . لغرضين :

أحدهما : أن هذا السائل على مذهبه عول ، وإياه قلد ، ومن كتابه .
نقل . الا أنه مع ذلك أخل بمفهوم كلامه ، وخالفه في سياقه ونظامه ،
فربما ترك مذهبه ، بسوء نظره ، وهو يظن أنه يمشي على أثره ،
وسيتبين ذلك .

والثاني : أن النصاري معولون على معرفته ، ومقلدون له في
قومته وقاعدته ، على أنه أعرف بمسالك النظر ، وأجراًهم على مناهج
العبر ، لكن نعوذ بالله من عين عوراء ، وفطنة بتراء .

قال (أغشثين) : « قد أجمعت الملة على أن الله تعالى قد كلم موسى .
تكليماً ، واجتمعت على أن موسى سمع صوتاً يقول له : « أنا ربك »
فأخبرونا : أتؤمنون بأن الصوت الذي سمعه موسى هو ذات الرب . وأن
الرب في ذاته مسموع . أم تقولون : ان الرب أسمع موسى صوتاً على
ما يشاء من رفع وخفض وغلظة ورقة . وأنه ابتداء الصوت متى شاء ،
وقطعه متى شاء . وأنهى إلى موسى من إرادته ما شاء ؟ فان قالوا : ان
الصوت نفسه هو الرب . وأن الرب مدرك بالسمع ، فقد خرجوا عن
مذهبهم في نفى التشبيه . وان قالوا : ان الصوت من فعل الله وأن الله
خلق الصوت على ما وافقه ، وأظهر فيه من إرادته ما شاء . وأن الصوت
قد كان له مبتدأ ومنتهى . وأن الله الخالق له . لا مبتدأ له . ولا منتهى .
فيل لهم : فقد ثبت أن الصوت الذي سمعه كان مخلوقاً . فكيف جاز
لموسى أن يقول : « سمعت الله » ؟ فان قالوا : مقام الصوت من الله ،
مقام صوت الانسان من الانسان . وانا نسمع صوت انسان . فنقول : ..

«سمعنا فلانا ، وكذلك وجب على موسى لما سمع صوت الله أن يقول :
« سمعت الله » قيل لهم : فقد أقررتم : أن الصوت من فعل الله •
كما أن صوت الانسان من فعل الانسان ، ولستم تقدر أن تقولوا
إذا سمعتم صوت رجل : سمعنا صوت المرید ، كذلك الصوت الذى
ابتدأه ، وخاطب به • ولكنكم تقولون : سمعنا صوت فلان ، وسمعنا
فلانا ، إذ سمعتم صوته • وكذلك من سمع صوت الله ، وجب أن يقول :
سمعنا الله • لأن الله خلق الصوت ، وجعله حجابا لارادته التى أظهرها
فيه • فقد ثبت أن الناس لا يسمعون الرب الا بصوت مخلوق على
ما يشبهه تعارفهم ، يكون حجابا فيما بينه وبينهم •

والواجب عليهم : أن يخاطبوا الصوت باسم الذى الصوت له ،
كما أن الصوت انما خاطبهم عن الله • ومثل ذلك يلزمهم فى كل ما يشبه
التحديد ، مما وقع فى كتب الملل الثلاثة من التشبيه بالعالم ، ووصف
نفسه بالعين والوجه والقم ، ولا يمكن جرده فقد رضى أن ينسب
الى نفسه مثل كلامهم • وأن يخاطبهم فى مثل لغتهم • فقد ثبت أنه
اتخذ التشبيه حجابا بينه ، وبين خلقه « اء •

ثم قال بعد ذلك كلاما — معناه — : « كما جاز أن يتخذ صوتا ،
ويجعله حجابا لارادته ، حتى أظهرها فيه • كذلك يجوز أن يكون قادرا
على اتخاذ أى صورة شاء ، وأن يظهر لعباده فى أى حلية وافقته ،
وتلك الصورة ملك له يبدلها كيف شاء • لأننا ان قلنا انه لا يقدر أن يسمع
عباده صوتا ، ولا أن يظهر لهم بصورة فقد أزلنا عنه القدرة على كل
شئ » اء •

ثم قال بعد ذلك : « فعلنا أن الحجاب مخلوق ، وعلمنا أن الله
خالق كل شئ ، ووجب علينا انزاله من الاكرام بحيث أنزله الله المحتجب
به ، لأنه متى لم ننزل كل شئ على ما أنزله عليه ، فقد عصينا ،
لأننا لا نجد بدا من أن نكرم الملائكة مالا نكرم الشياطين ، ونكرم
الصالحين ، مالا نكرم الفجار • وهكذا فلا بد أن يكون شئ أعز من
شئ • وشئ أقرب الى الله من شئ ، حتى يكاد شئ فى العز أن
يتصل بخالقه ، ويكون أعز الأشياء ، ويكاد شئ أيضا أن يكون فى
الهوان بحيث لا يكون شئ تحته •

والواجب على العارف بالله : أن ينزل كل شيء بحيث أنزله الله
ويسميه بما سماه الله • فان أقر بأن الله خاطب بصوت مسموع ،
أو ظهر في صورة مرئية ، فقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت ، وتلك
الصورة بما لم يخص به شيئاً من المخلوقات • وأن الواجب على من
سمع ذلك الصوت أن يقول : سمعت صوت الله • ومن رأى تلك الصورة
يقول : رأيت صورة الله • ولهذا وجب على موسى اذ سمع صوت
القائل : « أنا ربك » أن يجاوبه باسم الرب ، ويقول بأنه ربه ، ووجب
على آدم اذ قال « يا آدم » : أن يستجيب • فيقول : هأنذا يا رب •
وكذلك في مخاطبته لجميع الأنبياء ، لأن الصوت لم يقل أنا صوت الله ،
وأنا أخاطب عن الله • وانما الله خاطب به فقال : « أنا الله » فالواجب
أن نخاطب بمثل ما خاطب به •

ومثل ذلك يجب في الصورة ، ومن ظهر له الله في صورته كما
ظهر لأشعياء ، ولدانيال • فقد وجب عليه أن يسجد للصورة ، وأن
يخاطبها باسم الله ، لأن علمه بأن الله خص تلك الصورة بالاتخاذ
لها ، والاحتجاب بها ، ضام له الى عبادته فيها ، لأنه قد رضى أن
يرى فيها ، ويعبد بها •

وقد علمنا أن الله خالق الصوت الذى أسمعته لموسى كما علمنا :
أن الله خلق جميع الأصوات • ولكن وجب علينا الاقرار لذلك الصوت
بالربوبية ما لم يجب لغيره • لعلمنا أن الله ولى المخاطبة بذلك • وكذلك
يجب في الصورة أن يخصها من الاكرام بما خصها الله به •

ومن قال لا يجب أن يخاطب الصورة باسم الله ، ولا أن يجاوب
الصوت باسم الله فقد قال : انه لا يجوز أن يتخذ الله صورة ، ولا أن
يسمع صوتا • واذا وجب اكرام الحجاب باكرام المحتجب به ، لم يبق
علينا من الكلام شيء الا فى الحجاب ، الذى اتخذه منا • وهو المسيح ،
والاستشهاد بالتوراة ، والانجيل فى أمره ، الا أنا نقدم القول فى ذلك
بالقياس ، لتلا نستشهد بالكتاب الا فيما كان داخل تحت الامكان » اهـ •

ثم قال : « هذا وان لم يوجبه القياس ايجاب الاضطرار فانه
يجوزة تجويز الامكان ، لأن القياس الذى فضل به الانسان على جميع
خلقه ، وخاطبهم بمثل لغتهم ، وتشبه بهم فى مخاطبتهم ، وخلق كل
(١٠٠ - الاعلام)

شيء لهم ، ومن أجلهم • وأوجب لهم البقاء معه في رضوانه وألا يكون دونهم أبدا • وأنه ظهر لهم بحجاب مخلوق ، فتشبه لهم بنعت محدد ، فغير ممتنع فيه ، ولا بعيد أن يكون حجابهم فيما بينه وبلغهم منه ، ومما يشبههم ، ونزوله الى مخاطبتهم في مثل لغتهم ، وهو : نزوله الى الظهور لهم في مثل صورتهم ، لأن اتخاذ الصورة مثل اتخاذ الصوت • اهـ •

ثم قال : « شواهد الواضحة كثيرة من ذلك قول ارميا النبي ، حيث يقول مناجيا الله : « يا رجاء اسرائيل ، يا مخلصه من الغم • لم ستكون في المستقبل كالغريب في الأرض • أو كالمسافر يعدل الى المبيت ؟ لم ستكون في المستقبل كرجل صالح لا يقوى أن يخلص » (١) ؟ وقول (اشعيا) النبي حيث يقول : « ان العذراء ستحمل ، وتلد ولدا ، ويدعى ولدها عجيبا مدبرا الها قويا ، والدا ، مقبل الدهر العالم ، يكثر ملكه ، ولا يكون لسلطانه انقطاعا • ولا آخر » (٢) وقوله أيضا : « من ذا يقبل خبرنا ؟ أمن ذا ظهر له ذراع الرب » ؟ ثم وصف أنه ظهر ضعيفا محتقرا • وأنه هدى بنفسه الى القتل طوعا ، ووصف خبر المسيح ظاهرا كما كان (٣) • وقول يعقوب لبنيه ، حيث يقول : « لا ينقضى ،

(١) النص « يا رجاء اسرائيل ، مخلصه في زمان الضيق • لماذا تكون كغريب في الأرض ، وكمسافر يميل لبيت ؟ لماذا تكون كإنسان قد تحير ؟ كجبار لا يستطيع أن يخلص » (ارميا ١٤ : ٨ - ٩) •

(٢) النص : في موضعين من أشعيا في الاصحاح السابع والتاسع • ففي السابع « ها العذراء تحبل • وتلد ابنا • وتدعو اسمه عمانوئيل » (أشعيا ٧ : ١٤) « لأنه يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا • وتكون الرئاسة على كتفه • ويدعى اسمه عجيبا مشيرا الها قديرا • أبا أبديا • رئيس السلام • لنمو رياسته وللسلام لا نهاية » (أشعيا ٩ : ٩ - ٧) ونص الموضع الأول نبوءة ، تحققت في زمان أشعيا ، ونص الموضع الثاني نبوءة عن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم سنوضحها فيما بعد •

(٣) النص : « من صدق خبرنا ، وإن استعنت ذراع الرب نبت قداه • كفرخ ، وكعرق من أرض يابسة ، لا صورة له ، ولا عجال • فننظر اليه • ولا منظر فنشتهيه • محتقر ومخدول من الناس ، رجل أوجاع ، ومختبر الحزن ، وكمستر عنه وجوهنا محتقر فلم نعتد به •

الملك من سبط يهوذا ، ولا يزال منهم أمير • حتى يأتي الذي هو
مرسل ، وهو يكون رجاء الأجناس » (١) وتترجم كذلك باختصار :
« لا ينقطع الملك منهم حتى يأتي المسيح » اهـ •

هذا ملخص كلامه ، وزبدته في عدة أبواب من كتابه المتقدم الذكر ،
من غير أن أخرج عن لفظه الا ألفاظا يسيرة يتصل بها الكلام ،
ولا تغير المعنى •

وها نحن بعون الله نجابه ، مجاوزة على طريق البحث والمناظرة •

أما قوله : « اجتمعت الثلاث ملل على أن موسى سمع صوتا يقول :
أنا ربك » فهذا قول كذب ينبيء عن غفلة أو جهل • وذلك أن الذي
اتفقت الملل عليه : انما هو أن الله كلم موسى • وأن الله تعالى متكلم •
وأما أنه متكلم بصوت ، أو سمع موسى صوتا من الله فهذا شيء اختلفت
فيه الملل ، وتباينت فيه النحل ، وأكثر أهل الملة الحنيفية يأبى ذلك ،
ويخطيء من صار الى ذلك • أعنى من صار الى أن يكون البارئ تعالى
متكلما بصوت • وأن موسى عليه السلام لم يكلمه الله بصوت وانما

= لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها • ونحن حسبنا مصابا
مضروبا من الله ومذلولا • وهو مجروح لأجل معاصينا ، مسحوق لأجل آثامنا •
تأديب سلامنا عليه ، وبجبره شفيننا • كلنا كغنم • ضللنا • ملنا كل واحد
الى طريقه • والرب وضع عليه اثم جميعنا • ظلم • أما هو فتذلل ، ولم
يفتح فاه ، كشاه تساق الى الذبح وكنعجة صامته أمام جازيها فلم يفتح فاه •
من الضغطة ومن الدينونة أخذ • وفي جيله من كان يظن أنه قطع من أرض
الأحياء • انه ضرب من أجل انب شعبى • وجعل مع الأشرار قبره • ومع غنى
عند موته • على أنه لم يعمل ظلما ، ولم يكن في فمه غش •

أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن • ان جعل نفسه ذبيحة اثم ، يرى
نسلا تطول أيامه ، ومسرة الرب بيده تنجح • من تعب نفسه يرى ويشبع •
في عبادي البار بمعرفته يبرر كثيرين ، وآثامهم هو يحملها • لذلك أقسم
له بين الأعزاء • ومع العظماء بقسم غنيمة من أجل أنه سكب للموت نفسه
وأحصى مع أثمة ، وهو حمل الخطية كثيرين وشفع في المذنبين » (أشعياء
٥٣ : ١ - ١٢) والتعبيرات في هذا النص : مجازية كناية عن الآلام التي
سيلقاها المسيح المنتظر في الدعوة وأنه ستفجح دعوته في النهاية •

(١) النص : « لا يزول قضيب من يهوذا ، ومشترع من بين رجله ،
حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعب » (تكوين ٤٩ : ١٠) •

كلمه بكلامه الذى هو وصفه الذى ليس بصوت ولا حرف على ما تقرر بيانه فيما تقدم • فهذا الرجل الحاكي هذا القول اما أن يكون علم اختلاف الملك فيما ذكر فيه اجماعها • أو لم يعلم ، فان كان علم فقد كذب • واذا عرف من أحد من الناس الكذب ، فينبغى ألا يلتفت اليه ، ولا يعول عليه •

فينبغى لكم ألا تعولوا على شىء من نقله ، لامكان أن يكون كذب فيه ، كما كذب فى هذا • وان كان ذلك القول منه عن جهل فهذا كثير فى حقه من جهتين :

أحدهما : أنه أقدم على الاخبار عما لم يتحقق من غير بصيرة ، وليس هذا فعل العلماء ، ولا الأكياس من الفضلاء ، وكفى بالمرء كذبا ، واثما أن يحدث بما لم يعلم صحته •

والجهة الثانية : أنه جهل أمرا معلوما على القطع صار اليه ، وعمل على مقتضاه : أمم ، لا يحصون كثرة منذ مضى السنين ولا محمل بمن تعاطى نصره المذاهب ، والكلام مع أربابها • أن يجهل مثل هذا • واذا جهل هذا فهو بما هو أخفى من هذا أجهل ، فهو بين أمرين : اما أن يكذب متعمدا فلا يثقون بقوله • أو يجهل أمرا جليا يدرك بأدنى بحث ، وأيسر أمر • فلا ينبغى لكم أن تقلدوه فى عمله ونظره •

وانما ذكرت هذا لتعلموا أن عمدة النصارى على هذا الرجل فى مذاهبهم ، بقوله يحكون ، وبه يحتجون وله يقلدون ، وعليه يعولون ، فهو وهم كرجل أعمى ، ادعى أنه بصير فاستقاده عمى ، فقادهم فسقط فى حفرة فسقطوا لسقوطه « وأشد عذابا يوم القيامة رجل قتل نبيا • أو قتله نبى ، وامام ضلالة » وانما كان كذلك لأن عليه وزرها ، ووزر من عمل بها « فطوبى لمن مات ، وماتت معه ذنوبه » •

وأما قوله : « فان قالوا : ان الصوت نفسه هو الرب • وأن الرب مدرك بالسمع » فقد خرجوا عن مذهبهم فى نفى التشبيه • فهذا نص من كلام هذا الرجل : أن الصدى ليس بالرب •

وقد قال السائل الذى جاوبناه قبل هذا : « انه أقر له بالربوبية » وظاهر قوله مناقض لقول امامه • ثم نقول لهما : قد اتفقتما على أن

الصوت مخلوق • وأن الله تعالى ليس بمخلوق ، فهذا الصوت المخلوق
أما أن يكون ربا غير الله • أو ليس رب • فإن كان ربا غير الله فيلزمكم
أن تعبدوه بعبادة خاصة غير عبادة الله ، بل هو أولى بالعبادة من ناسوت
المسيح • اذ يتغوط ويبول ويصلب على قولكم • الى غير ذلك مما عددناه •

وذلك أن الصوت لا يليق به شيء من ذلك • وذلك كله جهل • وقد
ألزمناهم على ذلك مناقضات لا محيص عنها فيما تقدم • وان كان هذا
الصدى ليس برب فيلزمكم على قولكم أن يكون موسى خاطب بالربوبية من
ليس برب • وذلك لا يليق به • وهذا على قوله ان المخاطب هو الصدى
لازم ضرورة • ثم ما أعجب أمر هؤلاء القوم ينفون تشبيه الله تعالى
بخلقه • ويجعلون نفسه قاعدة يرجعون اليها بزعمهم • ثم يلتزمون
من التشبيه في حق الله تعالى ما لم يقل به من المشبهة أحد • وذلك أنهم
قالوا : ان الله تعالى متكلم بصوت هو من قبيل أصواتنا ، وهو مخلوق
مقطع بالحروف • وهو مع ذلك مخاطب بالربوبية • وهذا هو التشبيه
الذي فروا منه ، وزيادة عليه •

ولقد أوغل في التشبيه كبيرهم « أغشتين » وان كان عن أصل
التشبيه من المعرضين • وذلك أنه جوز عقله بزعمه : أن يتخذ الباري
صورة يجهلها ، ويظهر فيها ويسجد لها • ومن رأى تلك الصورة ويقول :
رأيت صورة الله • فانه قد رأى الله ، ولا تشبيه أعظم منها ، بل المشبهة
أحسن حالا منه • وذلك أنهم — أعنى المشبهة — بنوا أمرهم على ظواهر
الشرائع فأثبتوا ما أثبتت الشرائع • وما قالت الأنبياء ، وما جاء في كتب
الله مصدقين لها ، غير منحرفين عن ظواهرها ، ثم عزلوا عقولهم فلم
ينظروا بها فبقوا على جمود التقليد ، وثبتوا على صميم الاعتقاد ،
والتوحيد • ومع ذلك فانهم يعظمون الله ، ويقولون بأن لا اله الا الله •

ومما صرح فيه بالتزام التشبيه قوله « صوت الله من فعل الله ، كما
أن صوت الانسان من فعل الانسان » ولا معنى للتشبيه الذي نفى :
الا هذا • فهذا تناقض ظاهر ، فانه تارة نفى التشبيه ، وتارة أثبتته ثم
قوله يصرح بأن حقيقة المتكلم : من فعل الكلام • وهو خطأ • بل حقيقة
المتكلم : من قام به الكلام والدليل على ذلك أن حقيقة المتكلم تفهم
بكمالها مع فرض الغفلة والذهول عن كونه فاعلا للكلام • ولو كانت
حقيقة المتكلم من فعل الكلام لما فهمت حقيقة المتكلم حتى يفهم كونه

تعالى للكلام على ما يعرف في موضعه ولو كانت حقيقة المتكلم من فعل الكلام ، لكان البارئ تعالى متكلماً بالكلام الذي يقوم بنا • فانه فاعل كلامنا وخالقه على ما يعرف في موضعه ، وذلك محال •

ولتعلم أيها الناظر في هذا الكتاب : أن كل ما ذكره هذا (القس) في هذا الفصل : انما هو مبني على أنه تعالى متكلم بحرف وصوت • وقد أبطلنا ذلك فيما تقدم حيث قلنا : كلام البارئ تبارك وتعالى ليس بصوت ولا حرف وانما هو وصف له قائم به ليس بحرف ولا صوت كما نبهنا عليه • •

واذا بكل ذلك بطل كل ما انتحله في هذا الفصل من الهذيان • وانما كلامنا معه بعد ذلك على طريقة المناظرة الجارية بيننا • وذلك أن أرباب النظر ربما يسلمون ما هو معلوم الفساد ، ليتبين تناقض الخصم ، وتحكمه للعباد • وكذلك نفعل نحن بهذا الرجل • بحول الله فنقول له :

لأي شيء قلت ان الله اتخذ الصوت حجاباً لآظهار ارادته ، وليست بلفظ الحجاب ؟ ولو قلت : ان الله جعل الصوت دليلاً على ما أراد لارتفع التلبيس ، ولزال الابهام ، الذي أوهمت فأنك أوهمت بلفظ الحجاب : أن الإرادة احتجبت به ، واتحدت معه ، حتى ظهرت بمواسطته ، فجعجت أنت بلفظ الحجاب ، والظهور ، وأوهمت ، وأنت ما حصلت على فائدة ، ولا وجدت •

ومما يتبين أن هذا الذي ذكره انما هو جمعة لفظية ، ليس وراءها معنى : أنا نبطل لفظ الحجاب بالدليل ، ولا نبقى مما توهمه شيء • هانئنا يمكننا أن نقول : ان الصوت الذي خلقه الله تعالى ، وجعله دليلاً على ارادته على قوله : انما هو بمثابة أن لو خلق خطوطاً في حجر يستدل بها المستدل على ارادته اذا قرأها ، فلا يتمكن لعقل أن يقول : ان الإرادة انحجبت بخطوط ذلك الحجر ، ولا اتحدت به • فان الإرادة لا تقوم بهجماد ، وهذا بين بنفسه •

وكذلك لو كتبنا لفظ النار في ورقة لما تخيل عاقل ، بل غافل أن هات النار حلت في الورقة اذ لو حلت النار في الورقة لا احترقت • وكذلك

الصوت المقطع حروفا انما هو دليل على ما في النفس من غير أن يحل ما في النفس في الصوت ، ولا أن يتحد به • واذا فهم هذا ، ارتفع كل ما توهمه هذا المخدوع بالضرورة •

ثم نقول له : نسلم جدلا ما ذكرته من لفظ الحجاب والظهور • لكن لم قلت « انه اذا صح أن تظهر ارادته بحجاب الصوت جاز أن تظهر ذاته بحجاب الصورة » ؟ وما الدليل على ذلك ؟ وأى جامع بينهما ؟

فان قال : الدليل على ذلك : أن الله تعالى ، قادر على ذلك ، كما هو قادر على حجاب صوته • فانه ان لم يكن قادرا على اظهار ذاته بصورة ، فيكون عاجزا ، والعجز عليه محال • فهذا هو الدليل • وأما الجامع فان الصوت : مظهر للارادة ، والصورة : مظهر للذات •

فيقال له : أما استدلالك بأن الله قادر على كل شيء فاستدلال فاسد • فان الأشياء التي يقدر البارئ تعالى عليها • انما هي الممكنات • لا المستحيالات • وهذا الذي ذكرت من ظهور الله في صورة مستحيل لا يكون به مقدورا • فان المستحيل لا يوصف البارئ تعالى بالقدرة عليه ولا بالعجز عنه ، لاستحالة شرط تعلق القدرة • وهذا انما يعرفه من يعرف حقيقة الواجب والممكن والمستحيل •

ثم انا نقول عليهم دليلهم • ونقول : هل يقدر الله تعالى أن يظهر نفسه من غير صورة ، أم لا ؟ فان قالوا : يقدر • قلنا لهم : لا يحتاج الى الصورة التي فرضتم • وان قالوا : لا يقدر • قلنا لهم : فيلزمه العجز • وبالذي ينفصلون عن هذا • به بعينه ننفصل نحن عما ألزمونا •

وقد بينا فيما تقدم : أن اتخاذ البارئ سبحانه وتعالى صورة ليظهر فيها مستحيل ، حيث أبطلنا الحلول والاتحاد ، وما في معناه

ونزيد الآن هنا نكته : وهي : أنا نقول : هذه الصورة التي يظهر فيها لابد أن تكون متحيزة محدودة ، والظاهر فيها : اما أن يكون داخلا فيها ، أو خارجا منها • أولا خارجا ، ولا داخلا • فان كان داخلا فيها كان محدودا ، محاطا به • وهذا هو التشبيه •

فانه يلزم منه أن يكون جسما ، وهو باطل على الله تعالى ومحال •
وان كان خارجا عنها لزم تحديده أيضا • لأنه لا يكون خارج لا محدود
متحيز • فيلزم أن يكون بجهة من الصورة واذا كان بجهة كان جسما •
وهذا تشبيه

وأیضا • فاذا كان بجهة من الصورة التي ظهر فيها كان مفارقا لها •
واذا كان مفارقا لها ، لم يظهر فيها • وان ظهر فانما يظهر بنفسه ، لا
بالصورة • واذا كان لا داخلا فيها ، ولا خارجا عنها استحال عليه أن
يظهر بها أو فيها • لأن ما ليس بمتحيز ، ولا داخل ، ولا خارج • لا يظهر
في جسم متحيز ، لأنه من حيث كان ليس بداخل فيها • فقد فارقها ،
واذا فارقها لم يكن فيها واذا لم يكن فيها لم يظهر فيها •

ولو جاز أن يظهر في كل ما ليس بداخل فيه ، ولا خارج عنه ، لجاز
أن يظهر في كل موجود واذا جاز ذلك فلعله قد اتخذ الأنبياء كلهم حجابا
يظهر فيهم ، وهذا مما يأبونه ، وهو محال عندهم •

وأیضا • فان الله تعالى عندهم لا يرى بانفراد من غير صورة ،
ولا يظهر دونها • فكذلك يلزمهم أن يبقى على حاله ، لا يظهر واذا وجد
صورة • اذ ليس بداخل فيها ، ولا خارج عنها •

فان الصورة لا تكسبه أمرا أوجب له ظهورا الا لم يكن له •
وهذا بين الاستحالة • اذ يلزم على ذلك تغيره عند العاقل المنصف •

نکته أخرى : وهی : أنا نقول : هل يجوز أن يرى الباری تعالى ،
ويظهر من غير صورة أم لا يجوز ؟ فان جاز ذلك • فلم حتمتم اتخاذ
الصورة عليه • وقلتم : انه لا يظهر ، ولا يرى الا بصورة • وان قلتم :
لا يرى ولا يظهر الا باتخاذ صورة • فاذا وقع بصر الناظر فاما أن يقع
على تلك الصورة أو على الله وعليهما •

فان قلتم وقع البصر على الصورة ، لا عليه • فالمرئى اذن هي
الصورة المخلوقة ، لا الخالق • وان وقع البصر على الخالق وحده ،
لا على الصورة فهو المرئى ولا ترى الصورة • فان الصورة ليست
هي الخالق تعالى • والرائى لم ير الا الصوت • فاذن لم ير الخالق •
وان وقع البصر عليهما لزم عليه أن يرى الرائي شيئين : الخالق والصورة •

وهو انما رأى شيئاً واحداً بالضرورة وهو الصورة لقول من يقول : انه
ظهر بالصورة •

وأيضاً فلو وقع بصر من رأى عيسى عليه السلام على ناسوته ،
ولا هوت له لما احتاجوا أن يستدلوا على ألوهيته بأحياء الموتى وغير ذلك ،
ولما كان يحتاج هو أن يدل على لاهوت نفسه بشيء من المعجزات ،
وخوارق العادات اذ كان يدرك منه بالحس والعيان ذلك • والمعلوم
بالعيان لا يطلب تحصيل علمه بالدليل والبرهان •

فحصل من هذا : أن الصورة المقدرة لا يظهر فيها الباري تعالى •
وان ظهرت هي فان الرائي انما يراها وحدها • وهى الظاهرة له • وأما
البارى سبحانه وتعالى فهو بعد آيجاد هذه الصورة على ما كان عليه
قبل ايجادها لم تتبدل حاله — أعنى أنه ان كان قبل ايجاد هذه الصورة
قابلاً لأن يظهر فهو بعدها قابل لأن يظهر • وان كان ممتنعاً عليه أن
يظهر قبلها امتنع عليه ذلك بعدها ، لاستحالة التغير عليه • فانه لو تغير
لكان محدثاً •

وأما ما ادعاه من الجامع فلا نسلم أن الصوت مظهر للارادة الا
بمعنى أنه يدل عليها ، لا بمعنى الاحتجاب والظهور كما زعم • واذا لم
نسلم هذا في الصوت فلا يصح له قياس الصورة على الصوت • ولو
سلمنا قياس الصورة على الصوت من حيث الجامع فبأى دليل يحمل
أحدهما على الآخر ؟ فان وجود الجامع لا يدل على أن حكم أحدهما حكم
الآخر • اذ لا يبعد في التماثلات في بعض الصفات اختلافها في بعض
الأحكام على ما يعرفه أهله ، ولو سلمنا وجود دليل اللاحق لكان
قياس جزء على جزء ، وذلك غير مقبول في العقلية ، على ما يعرف في
موضعه • وعلى ما يقال مع أهله فظهر من كلام هذا الرجل عند العقلاء :
أنه غير متمسك بدليل عقلى ، وسنبين أنه لم يستدل على صحة مذهبه
بدليل نقلى • فاذا بطل له المعقول والمنقول : ثبت أنه بالتحكم والهوى
يقول • وذلك دأب كل غبي جهول •

وأما قوله « فالواجب عليهم أن يخاطبوا الصوت باسم الذى
الصوت له • وكذلك الصورة يجب أن تخاطب باسم الذى هى له »

فنقول له : قولك : واجب عليهم هذا الوجوب الذى ادعيته • أهو
عقلى أو شرعى ؟ فان قال هو عقلى وشرعى ، فلا بد من اقامة الدليل على
ذلك •

فان قال : الدليل على ذلك : النقل والعقل أما النقل فهو أن العاقل
إذا أقر بأن الله خاطب موسى بصوت مسموع ، أو ظهر فى صورة مرئية
لتقد أقر بأن الله خص ذلك الصوت • وتلك الصورة بما لم يخص به
شيئا من المخلوقات اذ تجلى هو فيها • وإذا ثبت ذلك فالعقل يشهد بأن
ذلك الصوت ، وتلك الصورة شريف • والصوت لا بد أن يعترف لشرفه ،
وينزل منزلته ، ولا أشرف من الله تعالى ، وما ظهر فيه الله تعالى فينبغى
أن يعظم بأقصى رتب التعظيم ، ويعبد بأجل العبادات ، فخرج من
هذا : أنه يجب عقلا أن تعظم الصورة لتعظيم الحال فيها ، فتخاطب
باسم الرب ، ويعترف لها بالربوبية والألوهية •

وأما الشرع فالذى دل عليه العقل جاءت به الشرائع • ألا ترى أن
موسى خاطب الصوت باسم الربوبية ، وكذلك من رأى الصورة انما
يرى صورة الله ، والله تعالى معظم بالشرع والعقل ، فتلك الصورة ينبغى
أن تكون معظمة بالشرع والعقل • ألا ترى أن الشرائع قد أمرتنا بتعظيم
الملائكة ، واهانة الشياطين ، وليس يخفى أن العرش أعظم من السماء •
وأن المشرق أعظم من المغرب ، وأن الصالحين أعظم من الطالحين •
وهذا كله يشهد له العقل والنقل كما سبق •

هذا انهاء تقرير حجته ، واليها أشار فى كلامه ، ولا مزيد فى التقرير
عليها •

فنقول : قولك « العقل دل عليه » باطل • فان العقل لا يدل على
التزام العبادات • فان معنى العبادات التى تفعل بحكم اللزوم انها
تفعل ، والا فيعاقب الله التارك وذلك لا يتوصل العقل اليه • اذ العبادات
لا تتعين عنده ، الا بتعيين معين الذى هو الشارع الذى ينص على ما
يرضيه من العبادات ، وعلى ما لا يرضيه • وأما العقل فلا يستقل بشيء
من ذلك ، فلعل العبادة التى يعينها العقل ويلتزمها • لعل الله تعالى
لا يرضى بها • اذ يفعل الله ما يريد ولعل ما يظنه العقل عبادة هو معصية •
هان هذا الله تعالى يفعل ما يشاء • فكما يجعل من شاء نبيا ، ووليا ،

يجعل من يشاء فاسقا وخبيثا • ويمد بأسباب ذلك • ولا حجر عليه
في ذلك • ولا حكم كذلك • يجعل ما يشاء من الأعمال طاعة ، وما يشاء ،
معصية ، وان لم تقل بذلك لزمك أن تجعل الله تعالى محكوما عليه •
مغلوبا • وذلك كله على الله تعالى محال •

وأما ما ادعيت من النقل من الأنبياء فذلك شيء لا يصح عنهم •
انهم عظموا الصوت والصورة بما عظموا به الله حتى عبدوهما — كما
تزعمون أنتم —

وقولكم : ان موسى خاطب الصوت بالربوبية زعم وقاح ، وافك
صراح • وانما المخاطب بالربوبية المتكلم بالصوت بزعمكم الذي قال عن
نفسه بالصوت « أنا الله » والذي يعقله العقلاء الذين لا يلعبون بأديانهم ،
ولا يجترؤون على ربهم والههم • ان الصوت موجود يتكلم به ، ولا يتكلم
هو عن نفسه • فاذا سمع العاقل قائلا ، قال بصوت مقطع « مشيت الى
(بيت المقدس) فرأيت » مثلا ، لا يشك عاقل في أن المخبر عن نفسه
انما هو الذي قام به الصوت ، لا الصوت • فانه لو كان الصوت هو
الذي أخبر بذلك عن نفسه لما صدق عليه ذلك • ولما صح منه الخبر ،
لأنه لا يتأتى منه المشي ، ولا الرؤية •

وكذلك • لو قال انسان مخبرا عن نفسه ، بقوله : « أكلت الخبز »
وهذا بين بالضرورة • واذا تقرر هذا فالصوت الذي سلمناه جدلا الذي
تكلم الله به على زعمهم لم يقل من نفسه شيئا مما ذكروه • انما الله
هو الذي قاله مخبرا عن نفسه • وأما ما قاله موسى فانما قاله لله تعالى •
فله اعترف بالربوبية ، واليه تاب ، وله سجد ، واياه عبد ، لا للصوت •
وهذا معلوم على القطع والضرورة والمخالف في ذلك جاهل متسامح ،
أو معاند متواقح •

وقد كان تقدم من قول السائل ، الغبي الجاهل : أن موسى اعترف
للصدي بالربوبية • وأنه الذي قال عن نفسه : « أنا الله • لا اله الا أنا •
فاعبدني » وأنه هو الذي سجد له موسى • وعن ذلك الصدي تحمل
موسى الرسالة • وأنه هو الذي كلم موسى ، واياه جاب ، وأنه قام
عند موسى مقام خالق ، فسماه الها • وربما يظن ذلك الجاهل أن هذا

الذى قاله « أغشتين » هو الذى قاله هو • وهيهات أن بينهما ما بين الثرى والثريا •

وغاية كلام « أغشتين » وان كان فيه من المخطئين : أن يقول : « قد علمنا أن الله تعالى خلق الصوت الذى أسمعه لموسى كما علمنا أن الله خلق جميع الأصوات • ولكن وجب علينا الاقرار لذلك الصوت بالربوبية ما لم يجب لغيره ، لعلمنا أن الله تعالى ولى مخاطبة به » اهـ •

هذا نص ما فى كتابه على هذا المعنى •

ولا يفهم منه شيء مما انتحله ذلك السائل • وقد وكلت الناظر العاقل المنصف للوقوف على كلامهما ، وتفهم معانيهما • فانى قد نصصت على كلامهما فى هذا الكتاب ، وحكيته • كى يزول الارتياح • ويعلم الناظر المنصف : أن السائل ليس على شيء من الصواب • وانما نبهت هذا التنبيه ، حذرا من المغالطة والتمويه • فانى أخاف ان وبخ أحد (أقسة) النصارى هذا السائل على هذا المذهب الذى اخترعه ، والمحال لذى ابتدعه ، أن يحتج لنفسه بأن ينسبه الى « أغشتين » ويكون فى نسبته من الكاذبين •

فمن أراد الانصاف فليطرح عن نفسه التعصب والاعتساف ، ويقف على كلامهما متدبرا ، وفيه متفكرا ، ولقد كنت أتمنى أن يكون أولئك (الأقسة) بين يدي ، حتى يسمعوا منى ، وينظروا الى • فليس كل ما فى النفس تبرزه المكاتبه ، ثم ليس الخبر كالمشافهة •

وأما قوله « واذا وجب اكرام الحجاب ، باكرام المحتجب به لم يبق علينا ، من الكلام شيء الا فى الحجاب ، الذى اتخذه منا وهو المسيح » فنقول : المفهوم من لفظ الحجاب انما هو الساتر للشيء المانع له • فانك تقول « احتجب عنى فلان » اذا استتر عنك ، ، وامتنع من لقاءك والخروج اليك ، ولا يصح هنا على مفهوم كلام هذا الرجل أن يكون الحجاب هو الساتر ، بل هو الكاشف المظهر على قوله ، وذلك أن ارادة الله وذاته قبل اتخاذ الصوت والصورة لم يكن شيء منهما ظاهرا • فلما اتخذهما ظهرت ارادته وذاته • هذا مفهوم مساق كلامه ، فتدبره •

وهذا يدل على قلة التحصيل ، وقصد التخليط والتجهيل • وإذا كان الناظر من قلة التحفظ بحيث يعبر عن المظهر بالساطر • فعلمه جهل ، ونظره قاصر •

وأما قوله في الشواهد على اتخاذ الله المسيح حجابا • فتحويل • ليس وراءه تحصيل • وذلك أنه قال : « ان لم يوجب القياس ايجاب اضطرارا ، فانه يجوز تجويز الامكان » • ثم انه تكلم بأكثر ، وذكر القياس الفاسد الذي به كفر • ثم رجع حاصل كلامه الى أن قال : « لأن اتخاذ الصورة مثل اتخاذ الصوت » وهذا كله قد بينا فسادة فيما تقدم •

وأما ما ذكره من شواهد الأنبياء عليهم السلام على ما ادعاه من الهذيان والهذر والبهتان على المتعالى عن النقصان • فليس له في شيء من ذلك شاهد ، وحاشا أنبياء الله وكتبه من مذهب الفاسد ، وغاية تلك الشواهد : أن تدل على رسالة عيسى عليه السلام ، وليست دلالتها قاطعة على ذلك • فتدبرها بفهمك ، وخذها بقياس عقلك •

وسيأتى ذكر ذلك وأشباهه في « باب النبوات » بعد هذا ان شاء الله تعالى • وقد أتينا على ما أردنا ذكره في هذا الباب • والحمد لله على أننا أغفلنا كثيرا من ألفاظ « أغشتين » يمكن البحث فيها • تركناها لئلا يطول الكتاب ، ويخرج عن الضبط هذا الباب •

على أن هذا من كلامه هو اللب ، واللباب • هذا مع أن الأمل ان وافق القدر ، أن أرد على « القس أغشتين » كلامه • وأبطل من ذلك الكتاب قصده ومرامه •

وحسبنا الله • ولا حول ولا قوة الا بالله •

كمل الباب الثاني ، وبكماله كمل الجزء الأول • والحمد لله حق حمده ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وآله وسلم • يتلوه الثاني •

الأخلاق

بِمَا فِي دِينِ النَّصَارَى مِنَ الْفُسَادِ وَالْأَوْهَامِ
وَأَظْهَرَ مُحَاسِنَ دِينِ الْإِسْلَامِ
وَأَثَبَتْ نُبُوَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

تأليف

الإمام الفَرَطِيُّ

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور أحمد مجازي السقا

الجزء الثاني

دار التراث العربي

البَابُ الثَّالِثُ

فِي النُّبُوءَاتِ وَذَكَرَ كُلَّ مَعْنَى

هذا الباب ينقسم قسمين :

أحدهما : نحكى فيه كلام السائل ، ونذكر الجواب عليه •

والثانى : نتكلم فيه على النبوات ، وعلى اثبات نبوة نبيينا محمد

عليه الصلاة والسلام ...

الفصل الأول

احتجاج أصحاب المِلَل

في حكاية كلامه

قال : « ابتداء احتجاج الثلاث ملك يعون الله »

اعلم : أن أهل الملك أجمعين متكافئون في ادعاء الايمان ، حاكمون على كل قوم لأنفسهم بالايمان ، ولغيرهم بالكفر . قد غلبت عليهم في ذلك الغواية ، وتأديب الصبا ، ووصية الآباء والأجداد ، حتى صار ذلك طبعا فيهم . لازما لهم ، فكلهم قد سهل عليهم انتقاص غيرهم ، وطاب عندهم دينهم بالتهنية في دنياهم ، عن معاد آخرتهم ، وصاروا في تدبير دنياهم ومعايشهم ، على خلاف ذلك لأنك تجد أهل كل ملة يزعمون أن غيرهم من الملك ألحف على كل طلب معايشهم ، والطف في استجلاب أرزاقهم .

وأحسب أن العلة في ذلك : رغبتهم في التكاثر من الدنيا ، وهي التي تدخلهم الى التحاسد والمعايرة ، فيعجز كل قوم أنفسهم في طلب معاشهم . وأن الآخرة عندهم مهملّة ، لبعدها عن حواسهم .

فلذلك يزعم أهل كل ملة : أنهم أحق خيرا من غيرهم . فلذلك قلّ تناصفهم فيها ، وإن طاك عصرهم . لأن كل قوم قد قلّدوا سلفهم ، وطاب عندهم خبرهم في مدح دينهم ، وذم غيرهم فأسقط الرجل منهم كل حاسة ، وأمات خواطره ، وأذهب فهمه بقطع كشفه عن مصالح ما يستقبله من خبره ، واستعماله إياه ، بما هو مدبر عنه من دنياه .

ولتجدن الرجل من كل ملة ، يروم شراء خرقة يرقع بها ثوبه ، أو شركة لنعله ، فتراه يستجير ويستشير خوف السقطة ، والغلط .

ثم إذا صار الى كشف دينه ومعاده اكتفى فيه بتقليد سلفه ، ثم لا يبالى بدليل من خالف ملته ، وينتقص كل خارج عن دينه .

فكل يقتحم المناظرة ، وان لم يحسنها . ويراها فريضة وهو
 لا يفهمها ، ولم يتخذ شيئاً من العلوم والصناعات الا الفضول . معترف
 فيها للفضائل ، لا الجدل والمناظرة . وأن الجميع يدعون أمرا .
 لا يقدرّون على التناصف فيه ليعد غايته وهو أنهم ليختلفون في معرفة
 الباري تعالى لأنه لا يدركونه بالحواس ، فيختلفون في معرفته .
 وانما يتعارف الناس فيما يدركونه بالحواس ويتصورونه في الأوهام ،
 فينقمع العقل السليم في اجابة الحق اذا أدركه ، وانكشف له . فلذلك
 يجادل كل قوم عن دينهم ، ويفضلون أنفسهم على غيرهم ، ويدلك على
 ذلك : أنك تجد الصقلبي ، العبد الحبشي (١) ، يقع مرقوقا بيد رجل من
 أحد الثلاث مل . فيرده الى ملته ، ويورد عليه أخبار سلفه ، فيقبله
 منه ، كتقبل الأطفال المغذيين فيه . وعلمته في ذلك : أنه يجد صدره
 خاليا من الأخبار المدونة في الكتب ، فيتعلق بما أورد عليه من أخبار
 من علمه . ويتمكن ذلك في صدره ، حتى يصير واحدا من أهل الملة
 في ادعاء الفضل لها . وانتقاص أهل غيرها والطعن عليهم ، ولو أن
 مجوسيا دخل بلدنا طارئا ، أو تاجرا ، فكبرت عليه مجوسيته ، ووحش
 لوحده ، على البقاء عليها ، عازما على رفضها ، ثم طلب الخروج الى
 أفضل الثلاث الملل المفسدة عليه مجوسيته ، لتحير ، وعمى أية أفضل
 فيخرج اليها ؟ لأنه يجد كل قوم يدعون لأنفسهم الايمان ولغيرهم
 الكفر ، ثم تجدهم متكافئين في ادعاء الآيات . لأن أهل كل دين يزعمون
 أن بينة دينهم على آيات قامت ، وبراهين ظهرت . وما تجد عند أحدهم
 آية من تلك الآيات التي زعموا أنها اضطرت عقل المجوسى الى الدخول
 في أديانهم .

ولكن الذى كان يضمه اليه ، حسن نظره : أن يتوقف حتى يسمع
 حجته ، ويستعمل عقله في دعواهم ، ليفهم ما احتجاجهم من نبذ
 الحق ، فكان يجد في دعواهم : أن النصرانى والمسلم مكران لليهودى
 بأن دينه أول . وأنبياءه حق . ثم يقول النصرانى : ان كتابى جاء من
 بعد ، فنسخ طاعة دين اليهودى . ثم يقول المسلم : وكذلك جاء كتابى
 بعد ، فنسخ طاعة دين النصرانى ، كما نسخ دين اليهودى . فاذا كاشف
 المجوسى اليهودى عما ادعياه ، أنكرهما . وقال : لم يأت بعد كتابى

(١) كذا في الأصل . مع أن الصقلبي غير العبد الحبشي .

• من الله كتاب • ثم اذا سأل النصراني عما ادعاه المسلم .أنكر أيضا •
وقال : لم يأت بعد كتابي من الله كتاب •

فوجب على النصراني أن يأتي بالبينة على اليهودي من الكتب التي
أقر له بها • فان لم يكن فيها مسيحا منتظرا ، فلا حجة له عليه ، ولا
معلق له اليه • وان كان فيها مسيحا منتظرا ، يرجى صلاح الحال من
سببه ، ووافقت علاماته ، علامات الذي قد جاء وظهر • فاذا كان • فقد
اختار النصراني الرسالة الأولى ، والثانية لنفسه • وخرج اليهودي
عن رضا المعبود بجحده الرسالة الثانية ، ودفعه بسنته فيما أعقب به
في عبادته من الرسالة الثانية ، ثم يحمل المسلم البينة على النصراني
من الكتب التي أقر له بها • وجامعه عليها • فان لم يكن فيها محمد
منتظرا ، فلا حجة له عليه ، ولا مطعن له اليه •

• وان كان فيها محمد منتظرا ، ثم وافقت علاماته علامات الكتب •
فقد أصاب المسلم ، ولزم النصراني الخروج عن رضا معبوده » أ • ه •

الجواب عن كلامه : يا هذا أسهبت وأطنبت ، وبحجة خردل ما أتيت •
كثير كلامك ، فكثير غلطك ، وقلت فائدته ، فظهر قصورك وسقطك ،
ومن كثير كلامه ، كثير سقطه • ومن كثير سقطه ، كانت النار أولى به ،
أعميت لجهلك بلحنه ، ولم تتفطن لتثبيجه ولحنه ، فلقد استسمنت
ذا ورم ونفخت في غير ضرم •

فأول خطابك قولك في ترجمتك هذا الفصل : « احتجاج الثلاث
مل » ثم ضمنته ذكر ملة المجوس فكان ينبغي لك أن تقول : « احتجاج
الأربع مل » فان المجوس أمة تدعى : أنها أرسل اليها رسول ، وأنزل
عليه كتاب • ثم ان مذهبهم في التثنية • وان كان باطلا ، فهو أقل
شناعة ، وأبعد عن جحد الضرورة ، وأدخل في مسلك النظر • وان كان
فاسدا من مذهبكم ، فانهم يقولون : ان الموجودات خير وشر ، ولا بد
لكل واحد من موجد • فموجد الخير : خير ، والخير لا يفعل الشر ،
لئلا يكون شريرا • وموجد الشر : شرير • لا يفعل الخير • اذ لو فعل
الخير لما فعل الشر • قالوا : فلا بد من الهين اثنين ، يفعل أحدهما
الشر ، والآخر الخير •

وهذا كلام يشبه النظر العقلي • وبعد بحث شديد يتبين فساد ،
فلهم شبهة في التمسك بمذهبهم ، ولو أورد المجوسى شبهته عليكم ،

لصعب عليكم ابطالها ، لكونه يلزمكم من مذهبكم التزامات لا تتفصلون عنها .

وأنا الآن أذكر طرفا من ذلك حتى يتبين عجزكم وجهلكم هناك :

أما مذهبكم في الأقانيم ، فغير مقبول ، ولا معقول ، كما تقدم ، وكفى به فسادا قولكم : « آلهة ثلاثة ، اله واحد » وكذلك مذهبكم في الاتحاد والحلول ، على ما مر . ومن العجب : أنكم تعتقدون مذهب المجوس ، ولا تشعرون . فانكم تتسبون الشرور والاضلال انى غير الله تعالى ، وتعييرون علينا . اذا نحن فوضنا كل الأمور الى الله تعالى . وقلنا : كل موجود في العالم ، فانما هو موجود ايجاد موجد واحد . وهو الله تعالى . وهذا . والله هو التوحيد الحق الذى ارتضاه الله لخلقه ، وكلف به أنبياءه ورسله ، وأنزل به كتبه .

فمبين مذهبكم في هذه المسئلة هو مذهب المجوس ، فانكم تتسبون الشرور كلها الى الشيطان وهو عدو الله ، وهو لا يصدر عنه الا الشر . وليس الشر من ايجاد الرحمن عندكم . فانه ما يوجد الا الخير . فعلى مذهبكم هناك خالقان : أحدهما : خالق الخير ، وهو الله . والآخر : خالق الشر ، وهو الشيطان . وهذا عين المجوسية ، فصرحوا بها ، ولا تنكروها ، واجمعوا بينها وبين النصرانية . وتقلدوها ، ثم زعمت على مقتضى ترجمتك : أنك تذكر حجاج الملل الثلاث ، ولم تف بشيء من ذلك ، ولا ذكرت في كلامك هذا حجة للمسلمين عليكم ، ولا لليهود ، بل ذكرت حجة النصارى الداحضة ، وسكت عن حجة خصومهم المسلمين الظاهرة . وهذا أثر التقليد . والجمود عليه حملك ، على الاعراض عن حجة خصمك ، لعلك لا تسمع ما يؤدي الى تبكيك ، ولطمك . ولقد كان ينبغي لك — لو كنت من النظار والعارفين بأديانهم — أن تذكر حجج خصومك أحسن ، فتبحث عنها واحدة بعد واحدة ، حتى يتبين لك فيها الصحيح من الفاسد . ولكن مع هذا نقبل عذرك ، ونعلم جهلك . فانك واحد من عوام المسيحيين ، الذين تشبهوا بالقسيسين ، وفي مثلك ينشد :

فسد الزمان فسدت غير مسود

ومن الشقاء تفردى بالسؤدد

(ولكن لا عليك ، فانما هو جنا يدك . فاني لأرجو أن يقف على هذا)

الكتاب جماعة (المطارين) ويعلموا بما فيه أنك مخالف لمذاهبهم أجمعين ،
فيخرجوك من بين القسيسين ، ويلحقوك بالرياسين •

ثم قلت « اعلم أن أهل الملل أجمعين ، متكافئون في ادعاء الإيمان
حاکمون على كل قوم لأنفسهم بالإيمان ، ولغيرهم بالكفر » فنقول :
أما التكافؤ في الدعوى فنعم • لكن الفصل يقع بينهما من جهة البيئات ،
ووقوف العقلاء على حكاية المذاهب والديانات • فان من الأديان
ما يدرك فسادها بغير نظر ، ولا برهان ، بل بالفطرة التي خص الله بها
الانسان ، وكذلك دين النصارى ، الضلال الحيارى •

ولقد حكى أن بعض حكماء الهند — وكان من الملوك الذين يحكمون
بالسياسة الدينية ، الذين لم يتقلدوا اتباع ملة دينية — ذكرت له الملل
الثلاث • فقال : أما النصارى ، وان كان مناصبهم من أهل الملل
يجاهدونهم بحكم شرعى • فقد أدت آراؤهم الى أن لا نرى بحكم
عقولنا لهم عقولا • فاستثنى هؤلاء القوم — يريد النصارى — من
جميع العوالم فانهم قصدوا مضادة العقل ، وناصبوه العداوة ، وتحلوا
ببث الاستحالات ، مع أنهم حادوا عن المسلك الذى انتهجه غيرهم من
أهل الشرائع • وقد كان لهم فيه كفاية • ولكنهم شذوا عن جميع مناهج
العالم الشرعية الصالحة ، والعقلية الواضحة ، واعتقدوا كل شىء مستحيل
ممكنا ، فلم يعزب عنهم شىء ، وبنوا من ذلك شرعا ، لا يؤدى البتة
الى صلاح نوع ، من أنواع العالم الا أنه يصير العاقل اذا تشرع به
أخرق ، والمرشد سفيها ، والمحسن مسيئا • لأن من كان فى أصل عقيدته
التي جرى نشوؤه عليها : الاساءة الى الخالق ، والنيل منه بوصفه
بغير صفاته الحسنى ، فاخلق به أن يقصد الاساءة الى مخلوق • ولذلك
ما بلغنا عنهم مما فى خلقهم من الجهل ، وضعف العقل ، والطمع والبخل ،
ومهانة النفس ، وخساسة الهمة ، والغدر ، وقلة الحياء ، الا قليلا منهم •
فلو لم تجب مجاهدة هؤلاء القوم الا لعموم أضرارهم ، التي لا تحصى
وجوهها ، لكفى • وكما يجب قتل الحيوان المؤذى بطبعه • فكيف ،
وقد ثم من الموجبات ما تقدم ؟

فهذا ما بدا لهذا الحكيم فى أول نظرة من مذهبكم على أول وهلة ،
وليس بمخاصمكم ولا مناوئكم ولا بمتهم باتباع الهوى فيكم • لكن قد
تبين الصبح لذى عينين ، بحيث لا يشك فيه أحد من النقلين وسترى
ذلك واضحا ان كنت ذا بصر ، وبصيرة ، ان شاء الله تعالى •

ثم قلت : « قد غلبت عليهم في ذلك الغواية ، وتأديب الصبا ، ووصية الآباء والأجداد ، حتى صار ذلك طبعاً فيهم » هذا الذي ذكرته : لعمرى ، حكم الرعاع الخبر ، والغناء الغثر • وأما من أمدّه الله بنور توفيقه ، وبين له سواء طريقه ، فقد تبين له الرشد من الغي • والميت من الحي : فقد أخطأت في إطلاقك هذا الحكم ، على جميع الملل ، ولم تشعر بما لزمك من انفساد والزلل • كلا بل الذي ذكرته وصف أهل ملتك ، وحلية عصبتك • اذ هم أهل تقليد ، ونظرهم غير سديد • ثم قلت : « فكلهم قد سهل عليهم انتقاص غيرهم ، وطاب عندهم دينهم ، بالتهنية في دنياهم عن معاد آخرتهم » وعدلت في هذا الحكم عن العدل . فحاق عليك اللوم والعذل • بل في الملل من لا ينتقص أحداً الا اذا ذمه الشرع ، واذا رأى ذو فضيلة محققاً ، أحبه ، وشكره ، بالطبع والطوع . وذو الفضيلة يهجر في طلب الحق جميع لذاته ، ويزهد في جميع ممتلكاته ، ينبغي بذلك رضا سيده ومرضاته ، يضرب في طلب الحق الأرض ضرباً ، فيقطعها شرقاً ، ويقطعها غرباً •

يسوما يمان اذا لاقيت ذا يمن

وان لقيت معداً ما : فعدنان

يفارق أهل والوطن ، ويلزم الفقر والعطن ، فاذا ظفر بالبغيّة . ليا وفطن • أما الدنيا فلا يلتفت اليها ، وأما الآخرة فهو مقبل . بكليته عليها ، فهو في كل حال ينشدد ، وأحواله تشهد :

وأبغضت فيك النخل ، والنخل يانع

وأعجبني من حبك السدر والضال

وأهوى لجوان ، السماوة والغضا

ولو أن صنفيه : وشاة وعذال

فأنت لم تحكم بالسوية ، ولا عدلت في القضية ، حيث حكمت . بأعراض كل العقلاء عن الأديان ، وبالتكاثر من الدنيا على كل البرية • كلا • لو كان ذلك لما بقى منا أحد الا هالك • فراجع نفسك عن هذا الاطلاق • وتب للواحد الخلاق • واحكم على أهل ملتك بتلك الخصال والأخلاق • فان رب العالمين ، يبقى علينا ببركة الفضلاء والصالحين •

ثم قلت : « وأحسب أن العلة في ذلك رغبتهم في التكاثر من الدنيا •

وهي التي تدخلهم الى التحاسد والمعايرة • فيعجز كل قوم أنفسهم
في طلب معاشهم • وأن الآخرة عندهم مهمة •

يا هذا • لقد كثر غلطك ، حتى يعجز الناظر فيه عن احصائه ،
وعظم سقطك ، حتى لا أقدر على استقصائه •
تفرقت الأطباء على خراش فما يدرى خراش ما يصيد

فتارة يتتبع عليك الكلام ، وأخرى تبدل المدح باللام • فربما تريد
أن تمدح فتدح ، وتنظن أنك تحل ربطا ، وأنت تزم ، وأنت في هذا
الكلام • قد لحنت فيه في عدة مواضع • وأردت أن تقول شيئا ،
فعبرت عنه بعبارة يفهم منها بحكم وضعها خلاف ما أردت أن تقول •
وذلك يبين عند من تأمله ، من أهل العقول •

وبالجملة فأنت في هذا الفصل أردت أن تنفصح وتغرب • فإذا
بك تبهم ولا تعرب • على أن كلامك في هذا الفصل قليل الجدوى ،
واهي الأصل • فينبغي أن تتعدى أكثر كلامك ، وتنزه عقولا عن الأخذ
في كثير من هذيانك • فان الأخذ في الخرافات ، والاشتغال بالثرهات مغل
بالعقول والمروآت •

ثم قلت بعد ذكر كلام حاكيت به فعل السفلة الطعام ، المعدودين
في رعا ع الأعوام « لأن كل قوم قلدوا سلفهم ، وطاب عندهم ، خبرهم في
مدح دينهم ، وذم غيرهم » يا هذا جهلت كل الأنام ، إذ زعمت أن
التقليد دأب كل الأقوام ، ولو أنصفت في القضية ، وعدلت بالسوية ،
لقلت : أن الناس قسمان • قسم إيمانهم : برهاني ، وقسم اعتقادهم
تقليدي • هكذا ظهر من أمر أهل الأديان وأما من لم يتدين بدين •
فينبغي ألا يعد في الموحدين •

وبعد هذا • ينبغي : أن تعلم أن أمور الاعتقاد والإيمان ، لم يقنع
فيها قط أحد من الفضلاء بالتقليد من غير برهان ، ولأجل هذا حرم الله
علينا الركون الى التقليد ، وذم من عول في اعتقاده على اتباع الآباء
والجدود • فقال تعالى حكاية عن المقلد ، وذاما له ، وموبخا له على
جهله « بل قالوا : انا وجدنا آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مهتدون •
وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها : انا وجدنا
آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون • قال : لو جئكم بأهدى

مما وجدتم عليه آباءكم • قالوا : انا بما أرسلتم به كافرون «(١) .
فهذا ذم من الله للتقليد وأهله • وقد أمر بالنظر الصحيح ، وحض
على فعله • فقال تعالى : « قل انظروا ماذا في السموات والأرض ،
وما تنفى الآيات والنذر ، عن قوم لا يؤمنون »(٢) وقال تعالى :
« فلينظر الانسان مم خلق » ؟(٣) وقال تعالى : « أو لم يتفكروا في أنفسهم
ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق »(٤) وقال تعالى :
« أفلم يسيروا في الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها • أو آذان
يسمعون بها • فأنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في
الصدور »(٥) .

ومثل هذا كثير ، وكفى شرفا بهذا الدين ، ودليلا على صحته عند
العقلاء العاقلين : أنه حرم التقليد ، الذي يجر إلى الالباس والتجهيل
والتفنيذ ، واستتهض العقول للنظر ، وأوضح لها مسالك العبر ، وأوجب
عليها النظر الصحيح ، المفضي إلى العلم • ومن لم يفعل ذلك من العقلاء
فقد تعرض للعقاب ، وألزم ذلك كله : ليتبين عن بصيرة ، الرشد من
الغى ، ويعلم من هو على الحق ممن تحكم في دينه بظلمات التقليد
والرأى • وبعد هذا • فأنى لا أشك في أنك لا تعرف حقيقة التقليد ،
ولا أقسامه ، ولا أحكامه ، ولا في أى محل يجوز ؟ ولا في أى محل
يحرم ؟ ولا من الذى يقلد ؟ ولا من المقلد ؟

فإن ادعيت أنك تعرف شيئا مما هنالك ، فعجل بالجواب على ذلك •
ثم قلت بعد ترديد وتطويل • من غير افادة علم ، ولا شفاء غليل
« فكل يقتحم المناظرة ، وإن لم يحسنها ويرأها فريضة عليه » ، وهو
لا يفهمها ، ولم يتخذ شيئا من العلوم والصناعات • الا الفضول •
اعلم يا هذا : أن الله تعالى ، أنطقك بشرح حالك • فأنك عبرت
عن سوء مناظرتك ونظرت بركيك مقالك ، فجعلت حتى توهمت أنك من
أهل النظر ، وأوهمت عند الرعاع أنك من أهل المناظرة والفطر • كلا •
فلقد ارتقيت مرتقا صعبا ، وسلكت مسلكا وعرا ، وادعيت دعوى

(٢) يونس : ١٠١ .

(٤) الروم : ٨ .

(١) الزخرف : ٢٢ - ٢٤ .

(٣) الطارق : ٥ .

(٥) الحج : ٤٦ .

عريضة لتخدع بها قلبا ضعيفا ، ونفسا مريضة • ولا بد من سؤالك ، حتى يتبين حقك من محالك • فأقول لك : ما حد النظر وحقيقته ؟ وما أصوله ؟ وكم أقسامه ؟ وما أحكامه ؟ وما حقيقة المناظرة ؟ وما شروطها ؟ وكم شيء ؟ وما الشيء الذي يطلب بالمناظرة ؟ وما حقيقة الدليل ؟ وكم أقسامه ؟ وكم شروطه ؟ وما وجه الدليل ؟ وما المدلول ؟ وكم أقسامه ؟ فان كنت تدعى المناظرة ، فأجبنا عن هذه الأسئلة محاورة •

تم قلت : « وان الجميع يدعون أمرا لا يقدرّون على التناصف فيه لبعد غايته » لتعلم يا هذا • أن حكمك على الجميع بأنهم لا يقدرّون على التناصف : حكم خطأ • فان العاقل المشتغل بما يعنيه ، انما يطلب الحق ليصل اليه ، ويعرف الباطل ليتجنبه • ومن كانت هذه حاله ، أنصف وتناصف • وانما يمتنع التناصف على من غلب عليه التقليد • وجمد على ما ورثه من الآباء والجدود ، وهو يصمم على أنه على الحق فيمنعه ذلك التصميم عن البحث والنظر • ثم ان تنبه لنوع نظر كان كما قال :

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت ولن تلين اذا قومتها : الخشب

فهذا الذي يتعذر عليه التناصف ، وتبعد عليه الغاية المطلوبة • وأما من نور الله قلبه ، وأجزل من المعقولات حظه • فالتناصف مرغوبه ، إذ الحق مطلوبه ، وفي مثل هذا ينشد :

بعيد على الكسلان ، أو ذى ملالة وأما على المشتاق فهو قريب

فان قلت : ما ذكرته أنت قليل ، وما ذكرته أنا كثير • قلت لك :

وما ضرنا أنا قليل • وجارنا عزيز

وجار الأكثرين ذليل

تعرنا • أنا قليل عديدنا

فقلت لها : ان الكرام قليل

ثم ان وجد في جميع الخلق واحد بهذه الصفة ، فقولك : فاسد • فانك حكمت على الجميع • بحكم قبيح شنيع ، وأطلقت القول ، ولم تخف فيه الزلل ، ولا العول •

ثم قلت : « ليختلفون في معرفة البارئ تعالى ، لأنه لا يدركونه .
بالحواس • وانما يتعارف الناس فيما يدركونه بالحواس » اعلم : أن هذا
الذى ذكرت ، لا يصح أن يقال على كل العقلاء ، وانما يصح ذلك على
الجهلة الأغبياء بل نقول : ان الأغبياء أهل الجهالات يختلفون في
الضروريات ، وقد بينا عليكم مواضع كثيرة من اعتقادكم ، خالفتم فيها
الضروريات • وناكرتم المعقولات • وأما أهل العقول السليمة ، والفطرية
المستقيمة ، فلم يختلف منهم اثنان في معرفة وجود الله تعالى • وانما
تخالفوا في أى وجود وجوده ، وهذا يعرف في موضعه فليست من أهله •

وأما تمثيلك بالعبد الحبشى ، فتمثيل ، ليس وراءه تحصيل • وذلك
أن العبد الحبشى اذا كان عاقلا سليم الفطرة ، اذا سمع كلاما ، لا يقبله
عقله ، يرده • وأما اذا كان ناقص الفطرة ، مختل العقل ، فيقبل كل
محال ، ولا يثبت على حال •

ثم قلت : « ولو أن مجوسيا ، دخل بلدنا فكبرت عليه (١) مجوسيته ،
ثم طلب الخروج الى أفضل الثلاث الملل » أنت توهم بهذا القول :
البراءة عن المجوسية ، والدعاء الى الملة النصرانية ، عساك يظن بك
أنك تفحم الخصوم • أو أنك حصلت من دينك على أمر معلوم • كلا •
بل لو ناظرنا مجوسى لأفحمك ، ولو وزن دينه بدينك في معيار العقل
لرجحك • وقد تبين ذلك فيما تقدم •

ثم قلت : « فكان يجد — المجوسى — في دعواهم : أن النصرانى
والمسلم ، مقران لليهودى بأن دينه أول • وأنبيأؤه حق • ثم يقول
النصرانى : ان كتابى جاء من بعد فنسخ طاعة دين اليهودى ، ثم يقول
المسلم : وكذلك جاء كتابى فنسخ طاعة دين النصرانى » •

يا هذا البليد • أخطأت على المسلم ، حيث ظننت أن المسلم يسلم
اليهودى دينه الذى بيده الآن ، ويعترف بأنه أول ، وليس الأمر كذلك ،
بل الذى يقول به المسلم : ان الدين الذى جاء به موسى عليه السلام :
هو حق • وأنه الأول بالزمان ، بالاضافة اليها ، واليكم • وأما اليهود
اليوم فليسوا على دين عندنا ، وعندكم •

(١) من الممكن أن تقرأ في المخطوطة : فكسرت •

فعندنا من جهتين ، وعندكم من جهة واحدة • احدى الجهتين •
عندنا : أنهم كفروا بمحمد نبينا صلى الله عليه وسلم • وقد كان الله -
تعالى أخذ عليهم العهد بالايمان به ، وبلغهم ذلك على لسان موسى -
عليه السلام ، وغيره من أنبيائهم عليهم السلام على ما ننقله ان شاء -
الله تعالى • وكذلك نقول في المسيح عليه السلام : أنهم كفروا به بعد أن -
أنكروه ، وهذه هي الجهة الأخرى • فهاتان جهتان • وأنتم انما تكفرونهم -
من جهة واحدة ، وهي كفرهم بالمسيح • فقد اتفقنا نحن واياكم : على أن -
اليهود في هذا الوقت ليسوا على دين ، وليسوا بمنتسبين الى شيء من -
دين موسى عليه السلام • واذا كان الأمر كذلك • فكيف جازفت في -
لفظك ، وقلت على المسلمين والنصارى ما لا يرضون به ، ولا يعولون -
عليه ؟ وهل اطلاقك هذا الا نتيجة جهلك ، ومما يدل على نقص عقلك ؟

ثم انك ادعيت : « أن النصارى يقولون : ان كتابهم نسخ شرع
اليهود • وكيف يصح لك يا جاهل بدينه أن تقول هذا ، وعيسى عليه
السلام يقول في الانجيل ، الذي بأيديكم : « لم آت لأنقض شريعة من -
قبلي • انما جئت لأتممها » ؟ (١)

فاما أنت هو الكاذب ، أو كتابك هو المحرف الباطل • وسنبين ان -
شاء الله تعالى : ما أحدث في الانجيل والتوراة من المناقضة والتحريف -
ما يدل على أنها ليست هي التي أنزل الله •

ومن عجيب أمرك • وأدل دليل على جهلك : أنك تدعى أن كتابك -
نسخ شرع اليهود ، وأنت بجهلك ترجع اليه في أحكامك ، وهل هذا الا -
تناقض ظاهر ، وجهل فاحش ؟

ثم قلت : « فاذا كاشف المجوسى اليهودى عما ادعياه أنكرهما • •
وقال : لم يأت بعد كتابى من الله كتاب » يا هذا • لقد قولت اليهود ما -
لا يمكنهم قوله ، ولا يسعهم جهله ، فان اليهود يعترفون بأنه قد كان -
بعد موسى أنبياء كثيرون ، جاءوا بصحف ، وقرأوا على الناس كتباً -
كثيرة ، هي بين أيديهم وأيديكم اليوم ، تقرأونها وتحكمون بها • وها أنت -
قد استدلت بكثير منها في كتابك هذا • على اثبات بنوة المسيح • فتلك -
الكتب التي نقلت منها • اما أن تكون من الله • أو لا تكون • فان كانت -

(١) متى ٥ : ١٧ ، (وأتمم) في الاصل اليونانى : لاصحح • •

من الله فقد أفحمت نفسك ، وأكذبتنا ، وصار كلامك ينقض أوله آخره •
مع أن اليهود توافقت على أن تلك الكتب والصحف من الله • وعلى السنة
يرسل الله •

على هذا جمهورهم ، وأكثرهم • وإن كانت تلك الكتب ليست
من الله — ولا يساعدونك عليها — فكيف يسوغ لك الاحتجاج عليهم
بشيء ليس من كلام الله ، ولا يسلمونه ؟ فلقد مكنت من نفسك يا هذا :
اليهود والمسلمين ، وصاروا على كذبك وخطئك من الشاهدين •

فمثلك مثل الباحث بظلفه على حلقه ، والجادع مارن أنفه بكفه •
فلقد لحقت « بالأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ،
وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١) •

وبعد هذا فلتعلم : أن الذي تنكره اليهود — لعنهم الله — من الكتب
المنسوبة إلى الله تعالى : كتابك ، وكتابتنا ، لا غير ، وسنقيم واضح
الأدلة أن شاء الله على من خالفنا •

ثم قلت : « ثم يحمل المسلم البينة على النصراني من الكتب التي
أقر له بها ، وجامعه عليها • فإن لم يكن فيها محمد منتظرا فلا حجة
له عليه ، ولا مطعن له إليه • وإن كان فيها محمد منتظرا ، ثم وافقت
علاماته ، علامات الكتب ، فقد أصاب المسلم ، ولزم النصراني الخروج
عن رضا معبوده » •

ظاهر كلامك ، أنك أنصفت ، وأنت في اعتقادك ، عليه ما عولت •
ولقد أعلم أنك إذا أتيت ذلك عليك من كتب ، عدلت وغدرت « شنشنة
أعرفها من أخزم » وإذا كان الغدر في النفوس الخبيثة طباعا •
فالشقة بكل أحد عجز • وما هي أول بركتكم •

وأنا أسأل الله العظيم ، رب العرش الكريم ، بأسمائه الحسنى ،
وصفاته العلى ، وبحق آدم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم ،
هو من بينهم من النجيين والمرسلين ، وبالملائكة المقربين ، وأهل طاعته
أجمعين • أن يلعن من لا يرجع إلى الحق إذا تبين له ، وأن يعجل عليه
بنقمة في الدنيا ، تكون علامة على غضب الله عليه ، وعلى عذابه في

الآخرة ، العذاب الدائم • نسأل الله العظيم أن يفعل ذلك بعزته ،
وكرمه • آمين ، آمين • والصلاة على خيرته من خلقه •

ثم ينبغي لك أن تعلم أن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لم
تثبت لنا بطريق واحدة ، بل بطرق كثيرة ، فلو فرضنا • أن الأنبياء
صلوات الله عليهم لم ييشروا به ، لكانت نبوته ثابتة • ببراهين قاطعة
كثيرة بها عرف نبوته العقلاء الذين لم يقرأوا قط كتابا • ولا انتسبوا
إلى شريعة •

وسنوضح هذه الطرق ان شاء الله تعالى ونبينها على ما لا يبقى
معه ريب لعاقل بحول الله وقوته •



الفصل الثاني :

المسيح المنتظر

في حكاية كلامه أيضا

قال : « ومن بيعة النصراني على اليهودي : أن في الكتب التي أقر
له بها ، وجامعه عليها : مسيح منتظر • لا يقدرين على جحده •
لأن انتظاره معروف فيهم ، وظاهر عليهم • ودل على زمان مجيئه :
أنهم ينتظرون له منذ سببت اليهود ، وبددت الى اليوم • فاذ قد لزم
اليهود بانتظاره من وقت تفريقهم في الدنيا • فقد وجب للنصارى
أن يقولوا : انه قد جاء • والدليل على أنه هو : أن اليهود اختلفت من
سببه فصارت فرقتين على الكفر والايمان به • فالفرقة الكافرة هم
اليهود ، والفرقة المؤمنة هم النصارى ، فأمنت طائفة ، وكفرت طائفة •
والكتب أجمع مع كلامهم ، يحتجون بها بعضهم على بعض يجتمعون
على ألقاظها وقراءاتها ، ويختلفون في تأويلها كقطعهم الى هذه المدة ،
والذي يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما : أن فنظر في الكتب ،
ونستدل بها على حالة بنى اسرائيل منذ كانت على الايمان والكفر ،
فإنهم ان كانوا على الكفر فإنه يلزمهم الذلة ، اذ الذلة والأسرة والفرقة
علامة الكافرين ، وموجود في الكتب : أن الله لم يوعد بالتواب في الآخرة
لبنى اسرائيل على الطاعة والايمان • وانما وعدهم في الدنيا (١) ، فوعدهم
عند الطاعة والايمان بالملك والنعمة ، والنقمة من عدوهم • والتثمير
لزرعهم ، وفواكههم ، وأوعدهم عند الكفر والعصيان بالتعذب عليهم ،
والملك والقهرة لهم • من عدوهم • فلم يزالوا مؤيدين عند الطاعة
والايمان ، ومستعبدين عند الكفر والعصيان » أ • ه •

(١) النص في التوراة العبرانية يحتمل الجزء في الدنيا أو في الآخرة
والنص في التوراة السامرية نص في الجزء الأخرى (تثنية ٣٢ : ٣٤ - ٣٦)
(١٢ - الاعلان)

فافهم الجواب عنه : اعلم يا هذا : أنه لولا أننا نخاف أن نساعد اليهود على كفرهم وأن يحملهم ذلك على دوام الاصرار ، وزيادة العناد لنبهناهم على مواضع في هذه الأدلة ، التي ذكرت يفسد عليك لأجل ذلك أكثرها ، ويبطل عليكم الاحتجاج بها ، ولو فعلنا ذلك لما كان مما يقدح في صحة نبوة المسيح • فانها تثبت بطرق آخر •

وانما يكون ذلك دليلا على أنك لا تحسن الاستدلال ، ولا تعرف طرق المناظرة والجدال • ولكن جاشى الله أن أعين اليهود ، أولى اللعنة والعداوة والبغضاء والأحنة على من التزم شرعة المسيح ، وركب منها المنهج الصحيح • وكيف أفعل ذلك ؟ وقد أخبرنا الله على لسان نبيه ورسوله ، بأنه كان منهم عالمون بالله ، ومصدقون بما جاءهم على لسان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ، والذين أشركوا • ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا : انا نصارى • ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا ، وأنهم لا يستكبرون • وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ، مما عرفوا من الحق • يقولون : ربنا آما ، فاكتبنا مع الشاهدين • وما لنا لا نؤمن بالله ، وما جاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » (١) •

— فهو لاء الذين عرفوا شرعة المسيح عليه السلام ، وعلموا ما عهد اليهم من نعت محمد ، خير الأنام فبادروا لتصديقه ، ولم يمكنهم العدول عن طريقه ، ولولا حرمة هؤلاء الأولياء الذين كانوا منكم ، لما بقي مسترا الله عليكم • لكن كما قال تعالى : « إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار • مهبطين ، مقنعي رؤوسهم ، لا يربد اليهم طرفهم • وأقعدتهم هواء » (٢) •

ومع هذا : فلا نخلى هذا الباب من التنبيه على نكت تدل على سوء استدلال هذا السائل خاصة بعون الله •

قلت يا هذا : « والدليل على أنه هو : أن اليهود اختلفت من شبيهه ، فصارت فرقتين : على الكفر والايمان به ، فالفرقة الكافرة : هم اليهود • والفرقة المؤمنة هم النصارى • فأمنت طائفة ، وكفرت طائفة »

هذا دليل ليس له للدلالة على مجيء المسيح من سبيل • بك هو عين المذهب الذي تدعونه ويبقى عليك الاستدلال عليه • وان جاز أن يكون مثل هذا دليلاً صحيحاً على مجيئه ، جاز أن يكن نقيضه دليلاً على انتفاء مجيئه ، ولا فرق بين ما قلت ، وبين ما يقوله اليهودي إذا كل واحد منكم تكلم بدعوى ، ولم يثبتها ، ولا بد لك من إقامة دليل فاذكره • فان كلامك الأول ليس بدليل ، فان أخذت تستدل بدليل آخر ، خلاف ما ذكرت • فقد اعترفت بأن كلامك الأول ليس بدليل ، وانقطعت • وان رجعت تستدل بذلك تبين جهلك هنالك •

فانظر ما أحسن هذا الدليل • فلعمري ما للمستدل به من النظر العقلي : كثير ، ولا قليل •

ثم قلت : « والكتب أجمع مع كلامهم يحتجون بها بعضهم على بعض ، يجتمعون على ألفاظها وقراءاتها ، ويختلفون في تأويلها ، كفعلهم الى هذه المدة » •

تناقضت يا مخدوع ، ولم تشعر ، وظننت أنك تقتصر ، فاذا بك تستأسر • أفصحت هنا بأنكم يحتج بعضكم على بعض ، ويتضمن ذلك أنكم تحتجون بالتوراة عليهم • وكيف يصح لك هذا ، مع أنك قد ادعيت أنها منسوخة بكتابكم ؟ فان قلت : ان هذا عليهم في معرض الالزام • قيل لك : فلا تأخذ من التوراة شيئاً من الأحكام • ولا تحكم منها على شيء بحلال ولا حرام •

ثم ان كلامك هذا : يفهم منه أنهم يحتجون عليكم بكتيبهم على أن المسيح لم يجرى • واذا اتفق أن يجتجوا عليكم بمثل هذا من كتبكم فقد أفحموكم •

هذا كله على ظاهر كلامك ، ولم تر هذا المعنى • وانما أردت أن تقول : ان الجميع قد اتفقوا على ألفاظ الكتب ، واختلفوا في تأويلها • ولم تساعدك العبارة • وهذا أكثر كلامك • تريد أن تقول شيئاً ثم تعبر عنه بعبارة تدل على خلاف ما أردت ، وسبب ذلك : أنك أدخلت نفسك في شيء لم تعرفه وتعاطيت ما لم تحسبه • فكتب بمثابة من أدخل نفسه في سقط ، ثم جاء آخر فشذ عليه وربط •

ثم قلت : « والذي يستدل به للفرقتين على كفر أحدهما : أن
ننظر في الكتب » الى أن قلت : « اذ الذلة ، والأسرة ، والفرقة • علامة
الكافرين » •

وهذا الاطلاق ، لو علمت ما يلزمك عليه ، لاستغفرت الهك منه •
لكنك جهلت ، فأطلقت وحيث وجب أن تمسك أرسلت • وذلك أنه ان
مسح ما ذكرت ، فلا ذلة ولا أسرة ، ولا تفرقة • أبلغ من ذلة من يصفع
في قفاه (١) ، ويجعل على رأسه شوك ، وفي يده قسبة ، ويساق للقتل ،
وعلى عنقه خشبة ، ويصلب وتسمر يداه ورجلاه وينخز ، وهو يطلب
ماء فيرفع اليه اناء خل • وهذا كله بزعمكم ، ولا رتبة في المذلة أبلغ
من هذه • فعلى قولك ، وسياق دليلك : يلزمك تكفير المصلوب ، ويحصل
لليهودي منكم ، الغرض المطلوب • فان كنت عاقلا فتقل كلامك ،
ولا يكن عارا عليك لسانك • وقد نصحتك يا فشك • وما أظنك تقبل •

وانما أردت أن تقول — فلم تطاوعك العبارة يا جهول — : الدليل
على مجيء المسيح المنتظر : أنه قد ثبت في كتب الأنبياء عليهم السلام :
أن الله قال لليهود : لا يزال ملككم قائما ، وخيركم دائما • ما دمت
مؤمنين ، حتى تكفروا • فاذا كفرتم أزلت ملككم ، وأبدلتكم منه ذلا ،
وصغارا ، وغضبا ، ونقمة ، وعند ذلك أرسل اليكم المسيح • ولا يشك
أحد في زوال ملك اليهود وانقطاعه ، وفي نزول الذلة والمسكنة عليهم •
فلا يشك في كفرهم ، ولا يشك في مجيء المسيح ، وأنهم كفروا به •
ولو هكذا قلت • لما لزمك شيء مما ألزمت • وهذا الدليل الذي استدلت
به على اليهود • اذا سيق على الطريقة التي ذكرناها ، وصح نقله عن
الأنبياء بطريق القطع هو حجة على اليهود ، لا مخرج لهم منها ولا محيص
عنها • على أنه بقي فيه مواضع للبحث اذا انفصلت تم الدليل •
ووضح السبيل •



(١) يشير الى عيسى عليه السلام بحسب المكتوب في الانجيل عندهم (٢)

الفصل الثالث

المسيح عيسى ابن مريم

من حكاية كلامه أيضا

قال : « وأنا أثبت لك أن المسيح قد جاء من كلام الأنبياء • قال
النبي هوشع بن بئيري عليه السلام هكذا بكلام عبراني : « كى يا ميم
ربيم يا شابوا بانا اسرائيل ان ملخ وان صار » تفسيره : « ان أياما
كثيرة يقيموا بنى اسرائيل دون ملك ، ودون مقدم » (١) فإذا سئل
اليهودى الجاحد : ان كان لهم ملك أو مقدم ؟ فلا يكون جوابه ، الا أن
يقول : ليس عندنا ملك ، ولا مقدم • فيقال لهم : اذ ليس عندكم ملك ،
ولا مقدم • فاسمع ما قال يعقوب ، الذى كان له اثنى عشر ولدا ،
الذى منهم يوسف الصديق رضى الله عنهم أجمعين الى يوم الدين • قال
الفاضل يعقوب بكلام عبراني : « لو يا صور شابات مى يهودا ومحو كيك
مبين رعلاف عاد • كى يا بو شيلو ولوا اقاهاث عميم » وهذا تفسيره :
« لا ينتقض الملك من يهودا ، وراسم من بين رجليه ، حتى يأتى المسيح »
وله تطوع الأمم » (٢)

فيقال لهم : اذ ليس لكم ملك ، ولا مقدم • فقد جاء المسيح •
كقول يعقوب النبى • اذ ليس لهم ملك •

وقال ارمياء النبى عليه السلام فى الطائفة الكافرة به ، بكلام
عبراني هكذا : « ام يا عمود موشا ، وشموا لقاناي ان نقسى الها عم »

(١) النص فى ترجمة ١٩٧٠ « لأن بنى اسرائيل سيقعدون أياما كثيرة
بلا ملك وبلا رئيس » (هوشع ٣ : ٤) والنص العبرى كامل •

(٢) النص العبرى كامل وتفسيره من ترجمة ١٩٧٠ بمصر : « لا يزول
قضيب من يهودا ، ومشترع من بين رجليه ، حتى يأتى شيلون ، وله يكون
خضوع شعوب » (تكوين ٤٩ : ١٠) ومعنى شيلون نبى الأمان أو السلام •

هذا سلاح معال فاناي ويا ساوها ياكى يملوا أناه ناسا وامرتا لاهيم
هى لسا باث ، لسا باث امل تشانى امل لا راعاب ، لا راعاب ، وخلاقى
جاماتى بام » أ . ه .

اسمع كلام الله على لسان ارمياء النبى . تفسيره : « ان وقف الى
موسى وشموال لا نرضى عن هذه الأمة ، ارميهم من قدامى ، يخرجوا .
فان قالوا : أين يخرجوا ؟ فتقل لهم : من الموت الى الموت ، ومن الغنى
الى الغنى ، ومن الجوع الى الجوع ، ويكمل غضبى فيهم » (١) أ . ه .
فهم فى غضب الله بكفرهم بالمسيح الذى قد جاء .

ثم قال الله تعالى على لسان يعقوب النبى الفاضل بلسان سريانى
هكذا : « ألا يا عصا عاث غلطان مد أفات يهودا ، وصفوا متانا بانوهى
عاض على ما عاث ذا ياتا ماشيحا داث لاه ملخوثا ولاه اشتماعون عاما
مايا » وهذا تفسيره كما قاله الله على لسان نبيه يعقوب : « لا ينتقض
قضيبي الملك من يهودا ، وراسم من أبنائه ، حتى أن يأتى ما شيحا —
الذى هو المسيح ، الذى له الملك — وله تطوع الأمم » .

وقال الله تعالى على لسان ارمياء النبى فى انقطاع ملكهم بكلام
عبرانى هكذا : « فأضاع أدوناي ياحور أف كل مكان ان اسرائيل »
وهذا تفسيره « قطع الله بشدة غضبه : جميع دولة اسرائيل » (٢) فافهم
فقد جاء المسيح ، وانقطع ملكهم .

وقد قال الله على لسان ارمياء النبى فى اثبات شريعة المسيح ،
وايمان الحواريين قائلا بلسان عبرانى : « هنا ياميم بايم نوم يهوه
واخارتنى ات بت اسرائيل . وايت بت يهودا بريت هارشا ، لواخبريت
اشير بريت ات ابو ثام بيوم هو تزيكى بيرم لهو عاييم هى ارس

(١) النص العبرى مختصر . والترجمة العربية الكاملة للنص هكذا :
« وان وقف موسى وصموئيل أمامى ، لا تكون نفسى نحو هذا الشعب .
أطرحهم من أمامى فيخرجوا . ويكون انما قالوا لك : الى أين نخرج ؟
انك تقول لهم : هكذا قال الرب : الذين لثموت فالى الموت ، والذين للسيف
فالى السيف ، والذين للجوع فالى الجوع ، والذين للسبى فالى السبى »
(إرمياء ١٥ : ١ - ٢) .

(٢) ورد هذا المعنى فى آيات كثيرة من سفر ارمياء ، خاصة فى الاصحاح
الثاسع عشر .

مصر يم امير همه هفرو ات بریت وانبی بعلتی بم نام يهوه» (١) تفسيره ان
« يقول الله : وأثبتت لبنيت اسرائيل ويهوذا ، عهدا جديدا ليس كالعهد
الذي قلت لأبائهم في اليوم الذي أخرجتهم من أرض مصر ، من بيت
العبودية » .

فبين الله بهذا الكلام ايمان الحواريين ، والتابعين لهم ، كما قال
الله في موضع آخر على لسان ارمياء النبي بلسان عبراني ، عن ايمان
الحواريين . قال : « شوبوا بانيم شوبابيم نوم ادوناي » (٢) كي انوخي
با علتى با خيم والا كحتى اتخيم أحاد معير وثنايم مشتبان وهاباتي
اتخيم سيون » .

تفسيره : « ارجعوا يا أولاد اللجاجة فاني سدت عليكم ، وأخذكم
واحدا من مدينة ، واثنين من عشيرة ، وأدخلكم إلى صهيون وكذلك
أخذ الحواريين ، واحدا من مدينة واثنان من عشيرة » (٣) ثم قال
لضيق الآية « وناتي لآخيم روعيم كلبى » تفسيره : « ونعطيكم رعاة
كقلبى » .

ثم قال : « وأراع أتحيم رعاه واهتكال » تفسيره : « ويرعونكم
بالمعرفة والفهم » (٤) وكذلك جعل من الحواريين أئمة ، ورعاة . يعلموا
الناس المعرفة والفهم . ثم قال لضيق الآية في ألا يعمل بالعهد البالى :
« واهيا ياكى تربوا افريتم بأريش بالبوميم هاهما نوم ادوناي » (٥) لو يمرؤا
غر دارون بريث ادوناي ولو يا عالا على لاب ولديز كا وابوا ولوا

(١) نقلنا النص كاملا . وترجمته العربية هكذا : « ها أيام تأتي يقول
الرب ، وأقطع مع بيت اسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا . ليس كالعهد
الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر ،
حين نبضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب » (ارمياء ٣١ : ٣١ - ٣٢) .

(٢) في التوراة العبرانية الحديثة « يهوه » بدل « ادوناي » ويهوه :
الله : وادوناي : الله أو السيد . والنص العبري كامل .

(٣) النص العربى من ترجمة ١٩٧٠ هكذا : « ارجعوا أيها البنون
العصاة يقول الرب ، لأنى سببت عليكم ، فأخذكم واحدا من المدينة ، واثنين
من العشيرة » (ارمياء ٣ : ١٤) .

(٤) نص الآية : « وأعطيكم رعاة حسب قلبى ، فيرعونكم بالمعرفة والفهم »
(ارمياء ٣ : ١٥) .

(٥) في الترجمة العبرية بدل « ادوناي » اسم « اهو » .

يففوا ذوا ولو ياغا ساعود « تفسيره : « ويكون اذا كثرتم ، وتنمو في الأرض في تلك الأيام يقول الله : لا تقولوا أبدا بتابوت عهد الله ، ولا يصعد على قلب ، ولا يذكر به ، ولا يعتقده ، ولا يعمل به أبدا » (١) .

فاعلم أنه أمن الحواريين والتابعين لهم من الأمم .

ثم قال سليمان الفاضل : « لم أتعلم علما وعرفت معرفة المقدسين » (٢) .

فافهم أيها الانسان ، ما هي معرفة المقدسين ، الذي لا يمكن لأحد أن يكون مقدسا . الا أن عرفها ، وآمن بها ؟

وفي حقيقة الايمان قال : « من صعد الى السماء وهبط ؟ من قبض الأرواح في كفيه ؟ من جمع الماء في ثوب » ؟ (٣) ثم قال بكلام عبراني : « مي هاكيم كل افس اريس ماشموا وماشم بنوا » .

فافهم . فسر . وكن عاقلا مدبرا ترشد .

قال سليمان : « مي هاكيم كل افس اريس ماشموا وماشم بنوا » تفسيره : « من أقام جميع أقطار الأرض ؟ ما اسمه ؟ واسم ابنه ؟ » ثم قال لضيق الآية بالعبراني : « كل أمراث ألواء صروفا ماغين هو لات سيم بو » تفسيره : « جميع كلام الله ترس ، منير هو لجميع الواصلين به » (٤) فافهم .

ثم قال الله على لسان ارمياء النبي بكلام عبراني : « هنا ياميم بنيم نوم ادوناي » (٥) واكرلتى ات بت اسرائيل . واثريت يهودا يريت هارشاء زيرع آدام ، وزيرع مهيما » تفسيره : « هذا يوم يأتي .

(١) ارمياء ٣ : ١٦ .

(٢) النص في ترجمة ١٩٧٠ : « لم أتعلم الحكمة ، ولم أعرف معرفة القدوس » (أمثال ٣٠ : ٣) .

(٣) في سفر الامثال ترجمة ١٩٧٠ : « من صعد الى السموات ونزل ؟ من جمع الريح في حفتيه ؟ من صر المياه في ثوب ؟ من ثبت جميع أطراف الأرض ؟ ما اسمه ؟ وما اسم ابنه ان عرفت ؟ » (أمثال ٣٠ : ٤) .

(٤) « كل كلمة من الله نقية . ترس هو للمحتمين به » (أمثال ٣٠ : ٥) .
(٥) بدل أدوناي ، يهوه ، والنص مختصر ، وليس فيه : زيرع آدام وزيرع مهيما . أي نسل آدمي وبهيمي .

يقول الله ، ونزرع في بيت اسرائيل ، وبيت يهوذا نسل آدمي ، ونسل بهيمي» (١) •

فكان النسل الآدمي : الحواريون المؤمنون بالمسيح عند اقبانه ، والتابعين لهم • وكان النسل البهيمي اليهود الجاحدين للمسيح • وكذلك الحواري يوحنا ، الذي اسمه (جوانش) قال : « من لم يؤمن ، ولم يتمادي في تعليم المسيح فلا لله له » (٢) • فافهم ترشد •

اعلم اني كتبت لك بالعبراني ، والسرياني من شهادات الأنبياء عن الله من الكتب التي بأيديهم • وأن اليهود لا يقدرّون على انكار حرف منها اذا احتج معهم بها بالعبراني والسرياني ، كما نطقت به الأنبياء ، رضى الله عنهم في اثبات اقبال المسيح ، وايمان الحواريين ، والتابعين لهم • وفي اطراح اليهود الملاعين الجاحدين للمسيح سيدنا • فافهم » أ هـ

الجواب عما ذكر : يا هذا المخدوع • ظننت السراب ماء ، والأرض سماء ، فاستسمنت ذا ورم ، ونفخت في غير خرم • اعلم يا هذا أنه لا يقبل منك في هذا المقام الاستدلال بالظنون والأوهام • اذ المطلوب فيه تحصيل العلم القطعي ، واليقين البرهاني ، فلا يحصل لك شيء من ذلك حتى تعلم صحة ما استدلت به هنالك ، ولا تعلم صحة شيء مما ادعيتة دليلا قاطعا ، مفيدا للعلم الا بعد معرفتك ، أن هذه الكتب التي استدلت بها : أهى من عند الله ، وأنها بلغتك عن الله على السنة الصادقين ؟ ولا يتوصل الى معرفة شيء من ذلك الا بعد معرفتك بالنبوات وحقيقتها ، ودلائل صحتها العقلية •

ولا تتوصل الى ذلك حتى تعلم حدوث العالم ، وأنه موجود بعد عدم ، وتعلم أن له محدثا ، وأن محدثه موجود حتى عالم قادر مريد موصوف بصفات الكمال حتى يصح منه ارسال الرسل وتأبيدهم بالأدلة • وكل ذلك انما يعرف بأدلة قطعية ، ولا يصح أن تعرف بأدلة سمعية ،

(١) النص العربي مختصر وتمامه هكذا : « ها أيام تأتي يقول الرب ، وأقطع مع بيت اسرائيل ، ومع بيت يهوذا ، عهدا جديدا ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم • بل هو ذا هو العهد الجديد الذي قطعته مع بيت اسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب • أجعل شريعتي في داخلهم ، وأكتبها على قلوبهم • • لأنى أصفح عن أثمهم ، ولا أذكر خطيتهم بعد » (ارميا ٣١ : ٣١ - ٣٤) •

(٢) رسالة يوحنا الثانية : ٩ •

فإن أسمع لا يثبت إلا بعد ثبوت هذه الأصول ، فإذا وصلت إلى هذا
المحل ، وسلمت من التعثر بأذيال الزلل •

وكم دونها من مهمه ، ومفازة • وكم أرض جذب دونها ولصوص

فحينئذ يجب عليك أن تنتظر فيما ألقى الصادقون اليك • فإن كنت
ممن تسمع منهم كلامهم ، وتشافه بنفسك خطابهم ، فقد سقطت عنك
معرفة طرق النقل ، وشروط التحمل والحمل ، ولزمتك معرفة اللغة
التي يتكلم بها الصادقون ، فتعرف مقاطع الكلمات وكيفية النطق من
اختلاف بسكون أو حركات وتعرف فرق ما بين الحقيقة والمجاز ،
والنص والظاهر ، والمجمل والمؤول ، والعام والخاص ، والمطلق والمقيد ،
والناسخ والمنسوخ • إلى أمور كثيرة تعرف في علم الأصول • وإن كنت
ممن لم يسمع من الصادقين ، فلا بد لك من أن تنتظر في الذي بلغك ذلك
الدليل على يديه ، أن كان يجوز عادة عليه : الغلط والسهو أو لا • فإن
كان ممن يجوز عليه الغلط والسهو عادة ، فلا يلتفت إلى خبره في هذا
المقام • وهذا النوع هو الذي يسمى عندنا أخبار الآحاد ، ولها محل
تقبل فيه بعد مراعاة شروط • ويعرف كل ذلك في موضعه •

وأما مثل هذا الذي تصدّيت له ، فلا يتوصل إليه بهذا الطريق ،
فإن المطلوب هنا حصول العلم • ولا يحصل العلم بقول من يتجاوز
الخطأ والسهو عليه في خبره • وإن كان مما لا يجوز عليه شيء مما
ذكرناه عادة ، فهو الذي يحصل العلم بقوله ، وهو العدد الكثير الذين
تحيل عادة عليهم الكذب • وهذا الخبر هو الذي يسمى المتواتر ،
والتواتر له شروط وأحكام تعرف في موضعه •

فإذا تقررت هذه المقدمة • فأنا أسألك سؤال منصف ، لا مصنف •
وأقسم عليك بدينك قسم متلطف ، لا متعجرف : هل توفرت لديك هذه
الشروط أم هل أكثرها عندك مطرح مسقوط ؟ فإن أنصفت واعترفت
علمت أنك على العلم بها ما حصلت • فينبغي لك أن تطلب حصول العلم
من بابيه ، وأن تجتهد في تحصيل أسبابه • وإن ادعيت علم ذلك ، علم
أنك مغالط معاند ، جائر عن الحق وحائد •

وكفى بكلامك في كتابك هذا على كذبك شاهد ثم على قرب تفتضح
إذا خرست عن جواب ما عنه سئلت • تعجل بالجواب ، ولا تتأن في
الكتاب • وإن أبييت إلا تماديا في غيك ، واستمرارا على جهلك وبغيك •

أريناك اختلال هذه الشروط عندكم عيانا ، وأقمنا على فساد كتبك حجة وبرهاننا •

وذلك أنا نقول : ان من أعظم كتبكم التى ترجعون اليها ، وتقولون فى أحكامكم عليها : التوراة والانجيل ، وكفى بهما شرفا وشهرة أنهما عندكم كلام الملك الجليل ، وأنتم تدعون أنكم تناقلتموهما جيلا بعد جيل • وأنا أبين ان شاء الله : أن نقلهما انما كان بطريق الآحاد ، وأن الغلط والسهو يجوز على ناقليهما ، وسأتى منهما ببطلان المراد •

أذكر ان شاء الله بعض ما وقع فيهما من التناقض والتحريف ، والقلب والتصحيف وأنبه على قبيح ما تتسبون به فيهما الى الله من القول السفساف السخيف ، وما تنتقصون به الأنبياء أولى الفضل والتشريف بحول الله تعالى وحسن عونه •

وأبدأ بالتوراة لكونها مقدمة فى الرتبة والزمان ، ومعترفا بها عند أولى الأديان • وبالله المستعان •



فصل

في بيان بعض ما طرأ في التوراة من الخل
وأنها لم تنتقل نقلاً متواتراً فتسلم لأجله
من الخطأ والزلل

فأول دليل : أنها لم تترك على ما كانت في الألواح التي كتبها الله تعالى لموسى ، ولا على ما انتسخها لهم موسى ، بل زيد فيها ، ولا بد ، ما ليس منها ، ولا كان في الألواح التي كتبها الله لموسى • ويدل على ذلك : أن في آخر السفر الخامس أن « موسى توفي في أرض موآب بازاء بيت فغور ولم يعرف انسان موضع قبره الى اليوم • وكان قد أتى على موسى اذ توفي مائة وعشرون سنة ، ولم يضعف بصره ، ولم يتشيخ وجهه • وبكى بنو اسرائيل على موسى ثلاثون يوماً في عريب موآب • فلما تمت أيام حزنهم على موسى ، امتلأ يشوع بن نون من روح الحكمة ، لأن موسى كان وضع يده على رأسه في حياته • وكان بنو اسرائيل يطيعونه ، ويعملون كما أمر الرب موسى » (١) أ • هـ

ولا يشك الواقف على هذا التاريخ ، وهذه الوفاة : أنها ليست مما أنزل الله على موسى ، ولا مما كتبها موسى عن نفسه • وانما هي من اثبات من أراد أن يثبتها بعد وفاة موسى بزمان • ويدلك على ذلك قوله : « ولم يعرف انسان موضع قبره الى اليوم » (٢) يريد به : اليوم الذي كتب فيه هذا • وهذا بين عند المنصف • ومع بيانه ، فليس أحد من اليهود والنصارى فيما أعلم يقول : ان التوراة زيد فيها شيء بعد موسى ، ولا يفرق بين هذا الكلام وغيره ، بل هي كلها عندهم كلام الله ، وهذا جهل عظيم ، وخطب جسيم • فهم بين أمرين : اما أن يقولوا : ان هذا الكلام هو مما كتبه الله لموسى ، وأخبر به موسى • أو يقولوا : انه ليس مما أخبر الله به موسى ، ولم يخبر به موسى • فان قالوا : الأول • كذبهم مساق الكلام ، فان المفهوم منه على القطع : أنه كتب بعد وفاة موسى بزمان • وان قالوا : بالقول الآخر • قيل لهم : فلا شيء خلطتم

(١) هذا النص في الأصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية •

(٢) تثنية ٣٤ : ٦

كلام الله يكلام غيره ، وأجريتوها في نسق واحد ، وزدتم على كلام الله ، ولم تشعروا بذلك ، بل نسبتم كل ذلك الى أن الله أنزله ؟

واذا جاز زيادة مثل هذا ، ولم يتحرز منه ، جاز أن يكون كل حكاية فيها لا يصح نسبتها الى الله زائدة ، ولا سيما الحكايات الركيكة التي تحكى فيها عن الأنبياء التي لا يليق ذكرها بسفلة الناس ، وغالب الظن ، ولا يعلم الغيب الا الله تعالى : أن السفر الأول الذي هو سفر البدء والأنساب مما زيد على كلام الله تعالى ، ولم يشعروا بزيادته •

ومما يدل أيضا على هذا المعنى : أن كثيرا مما يجيء فيها : « وكلم الرب موسى وقال له : اقبط حساب بنى جرشون » (١) و « وكلم الرب موسى ، وقال له : كلم بنى اسرائيل » (٢) ومثل هذا كثير •

وهذا يدل : أنه ليس مما قاله الرب جل ذكره لموسى ، ولا مما قاله موسى لهم ، أعنى لفظ « وكلم الرب موسى ، وقال له » (٣) وما أشبهه من لفظ الحكاية عنه • وانما هو شيء حكى عنه بعد انقراضه ، وأضيف الى كلام الله •

ثم لا يعرفون : من الحاكي ؟ واذا جاز مثل هذا ، ولا يشعرون به ، جاز أن يكون أكثرها مغيرا ومبدلا ، وليس من كلام الله ، ولا من كلام موسى ، ولا يشعرون به • ومن وقف عليها منتبعا لهذا المعنى ، قطع بأنها زيد فيها ، ما ليس منها •

وعند انكشاف الغبار ، تتبين : أفرس تحتك ، أم حمار ؟ ماء ولا كصدي ، ومرعى ولا كالسعدان •

ولقد حفظ الله القرآن العظيم • فقال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر » (٤) « وانا له لحافظون » (٥) ولذلك كره علماءنا رضى الله عنهم : كتب التفاسير ، وأسماء السور في المصحف ، وان كانت بخط آخر ، ولون آخر • وقد اتفقوا فيما أحسب على أنه : لا يجوز كتب فواتح السور ، يعنى : أسماءها ، بخط المصحف ، وبلون مداده ، لئلا يختلط به ما ليس منه فقال الحمد لله ، الذى هدانا لهذا الدين القويم ، والمنهج المستقيم •

(٢) عدد ١٥ : ١ - ٢

(٤) الحجر : ٩

(١) عدد ٤ : ٢١

(٣) عدد ١٨ : ٢٥

وأما بيان أنها ليست متواترة : فهو أن اليهود على بكرة أبيهم يعرفون ، ولا يفكرون أن التوراة انما كانت طور مدة ملك بنى اسرائيل عند الكوهان الأكبر الهارونى وحده ، وعنه تلقيت ، ولا ينكر ذلك منهم ، ولا منكم : الا مجاهر بالباطل .

وكذلك ما يحكى من قتل بخت نصر جميع بنى اسرائيل ، واهراقه كتب التوراة ، حيث وجدت ، واتلاف ما كان بأيديهم حتى لم يترك منهم الا عددا يسيرا ، لا يحصل بخبرهم العلم . وكان قد أجلاهم الى بابل ، وهدم البيت ، أو لعله كان الباقي منهم عددا كثيرا الا أنهم لم يكونوا كلهم يحفظونها ، بل كانوا عددا يسيرا ، لا يحصل العلم بقولهم . وكان هذا كله قبل المسيح بخمس مائة سنة تقريبا .

وكذلك واقعة طيطش بن شبشان^(١) ، التى كانت بعد المسيح الى أربعين سنة ، اذ فرقوا التفرقة التى هى اليوم عليها . وهذا أيضا من المعروف عند الجميع بحيث لا ينكره الا مكابر مجاهر . وهذه الأمور كلها مما تقدح فى النقل الذى يدعونه متواترا .

ثم نقول : هذه الأمور المذكورة ان وافقوا على وقوعها ، فقد اعترفوا بعدم التواتر فإن من شرط خبر التواتر : أن ينقله العدد الكثير الذى تحيل العادة عليهم التواطؤ على الكذب والغلط عن عدد مثله هكذا ، ولا ينقطع .

فان رجع الخبر الى عدد لا تحيل العادة عليهم الكذب ، لم يحصل بذلك الخبر : العلم . اذ لا يكون متواترا وان لم يوافقوا على وقوع هذه الوقائع هكذا ، لم يقدرُوا على جحد أصلها ، واذا اعترفوا بأصلها ، لم يقدرُوا أن ينكروا امكان وقوع ما يعترفون بأصله ، وتجوز وقوع ذلك كت تحقيق وقوع ذلك فى عدم حصول العلم بالخبر الذى يدعون أنه متواتر .

وأما بيان التحريف فيها : فهو أن اليهود تعترف بأن السبعين كوهانا ، اجتمعوا على تبديل ثلاثة عشر حرفا من التوراة . وذلك قبل المسيح^(٢) فى زمان القياصرة . ومن اجترأ على تبديل حرف من كتاب

(١) طيطوس بن سبسان ، وواقعه كانت سنة ٧٠ م .

(٢) انظر فى كل ما يتعلق بالتوراة كتابنا : التوراة أسفار موسى الخمسة . ومقدمتنا للتوراة السامرية .

الله وتحريفه ، فلا يوثق بالذى فى يده ، مما يدعى أنه كتاب الله ، لعدم الثقة به ، ولقلة مبالاته بالدين •

وأىضا : فلعله قد حرفه كله ، أو أكثره •

وكذلك يقرون ولا ينكرون : أن طائفة منهم يقال لهم : السامرية • حرفوا التوراة ، تحريفا بينا كثيرا • والسامرية يدعون عليهم مثل ذلك التحريف •

وكذلك النصارى أىضا يدعون على اليهود : أنهم حرفوا فى التوراة : التاريخ • ويزعمون أنهم نقصوا من تاريخ آدم صلى الله عليه وسلم : ألف سنة ، ونحو المائتين •

وهذه احتمالات توجب على العاقل : التوقف ، فلا يدعى حصول العلم بنقل التوراة مع انقداح هذه الممكنات ، الا مجاهر متعسف •

فان قيل : كيف يصح أن يقال هذا • وقد كان الأنبياء بعد موسى عليه السلام يحكمون بالتوراة ويرجعون اليها واحدا بعد واحد • الى زمن يحيى وعيسى •

ثم بعد ذلك تناقلها النصارى ، كما تناقلها اليهود ، خلفا عن سلف الى اليوم • وان جاز تطرق التحريف الى ما هذا سبيله ، فليلزم عليه : أن يحكم الأنبياء بالباطل •

ويلزم عليه أىضا : أن يقرروا على الباطل غيرهم • وهذا كله باطل على الأنبياء ، ويلزم عليه أىضا : أن لا يحصل العلم بخبر متواتر ، ولا يوثق بكتاب يدعى أنه جاء عن نبي ؟

فنقول — وبالله التوفيق — :

انا لم نعين لوقوع التحريف فيها زمانا (١) ، ولا عينا من حرف منها شيئا ، ولا من الحق بها شيئا ، فيحتمل أن يقع التحريف فيها قبلهم أو بعدهم • وانما أبدينا تلك الاحتمالات ليعلم أن الذى فى نفوسكم من الثقة بها : انما هو اعتقاد جزم • وليس بعلم •

ومما يدل على قبول تلك الاحتمالات وأنها قاذحة فى دعوى العلم

(١) عينا زمن التحريف فى بابل سنة ٥٨٦ ق • م والمحرف لها : عزرا ☞

بسلامتها : أنها لم تقر على ما تلقيت من موسى ، بل زيد فيها ما لم يتلق عن موسى • مثل الذى حكيناه من ذكر وفاته ، وحزن بنى اسرائيل ، وحكاية قولى « كلم الله موسى » وهذا يعلم منه على القطع : أن الله لم يقله لموسى ، ولا موسى قاله عن نفسه • يعلم ذلك من وقف عليه ، وتتبعه بضرورة مساق الكلام ، ولا بد •

فالذى زاد ذلك ، لعله الذى وقع الخلل من جهته •

وأما ما ذكرتم من حكم الأنبياء بها ، فليس فيه حجة لا مكان أن تنازعوا فى قولكم : كانوا يحكمون بها ، بل لعلهم كانوا يحكمون بما كان الله يعلمهم بما يوافق شريعة موسى ، ولا يخالفها •

ولو سلمنا أنهم كانوا يحكمون بها • فنقول : كل شئ حكم به الأنبياء من التوراة فليس بمحرف ، وأما ما لم يحكموا به منها ، فلهذه الذى حرف ، مثل الأخبار التى حكيناها ، ونحكيها ان شاء الله تعالى •

فان قيل : فيلزم منه : أن يقر الأنبياء على الخطأ ، ويتحدثوا بالكذب • فانهم كانوا يتحدثون بها • قلنا : ليس بكاذب من حكى شيئاً يعتقد صحته ، لا يتعلق به حكم الله تعالى • وان كان ذلك الخبر فى نفسه مخالفاً لما فى الوجود • فانه انما يحكى عن اعتقاده ، وهو حق • وانما الكاذب الذى يخبر عن الشئ بخلاف ما هو عليه من العلم بذلك • وهذا حد الكذب عندنا ، وحقيقته •

وهذا • انما يجوز فى حكاية الأخبار التى لا يتعلق بها حكم • وأما ما تعلق به حكم منها فلا يجوز ذلك • اذ الأنبياء معصومون فيما يبلغونه من الأحكام عن الله تعالى • وانما قلنا هذا ، حذرا من أن ننسب الى الله تعالى ما لا يليق بجلاله أن ينزله فى كتابه ، ولا أن ينجى به صفوة أحبائه من الفواحش والفجور التى حكوها فى التوراة وادعوا أنه فيها مسطور ، مع أنه ليس فى ذكرها فائدة ، بل هى بكل ضلالة عائدة •

وكذلك تنزه موسى والأنبياء بعده صلوات الله عليهم عن ذلك الكلام الغث الرقيق ، الذى لو حكى مثله عن بعض السفلة لأنف منه ، واستحى منه ، ولما كان ينبغى لعائل أن يلتفت ويصغى اليه ، ولكان يجب عليه أن يعرض عنه وينكره اذا سمعه • هذا اذا كان محكيا عن

السفلة فكيف اذا حكاها الله عن نفسه • أو عن خيرته من خلقه • الذين برأهم الله عن الكبائر والنقائص التي تناقض نبوتهم ، فهم أكرم المخلوق عليه ، وأحظاهم لديه •

وأیضا • فان الله تعالى حرم الفواحش ما ظهر منها ، وما بطن ، والغيبة والبهتان والاحن ثم يتعامل بها مع أكرم المخلوق عليه : في نفوسهم ، وذرائعهم ، وبناتهم ، وينسبها اليهم ، ويشيعها • أبد الآبدين عليهم • هذا مما لا يليق بجلال الله تعالى ، والقائل بوقوع هذا مستهزى • مفتر على الله •

وسننقل عن بعض ما حكوا في التوراة من هذه القبائح اثر هذا ان شاء الله تعالى •

ثم نقول : لو سلمنا أنها لم تحرف في زمان الأنبياء ، لا يمكن أن نقول : فلعله حرف بعدهم وذلك بعد وقعة (طيطش) حيث أفناهم ، والذين تنصروا منهم عدد يسير لا تقوم الحجة بقولهم •

وان قلنا : انهم كانوا عددا كثيرا فلم يكن كل واحد منهم ممن يحفظها ولا يضبطها •

ثم نقول للنصارى : ان أنكرتم أن يكون شيء من التوراة حرف • فلأى شيء تقولون : ان اليهود حرفوا في التوراة في نسب آدم • ونقصوا منه • وإذا جاز ذلك في نسب آدم ، جاز في غيره ، وهذا بين • وأما قولهم : يلزم أن لا نقبل خبر متواتر ، ولا يوثق بكتاب نبى ، فلا يلزم شيء من ذلك • فان الخبر اذا تطرقت اليه أمثال تلك الاحتمالات ، فلا يوثق بنقله ، ولا يعول عليه ، لا مكان تلك الآفات •

أو لعل أشرافكم تتخلب نحو كتابنا • فيقولون : فكتابكم لا يلتفت اليه ، ولا يعول عليه • فنقول : هيهات انما قلنا : كل كتاب تطرق اليه شيء من تلك الاحتمالات • وكتابنا منزّه عن أمثال تلك الآفات • فان الله تعالى تولى حفظه ، وأجزل من كل صيانة حظه ، فصانته • بنظمه الذى لا يقدر الجن والانس على آية منه ، فلا يختلط به كلام متكلم ، ولا يقبل وهم متوهم • اذ ليس من جنس كلام البشر ، وهو معدود الآى ، والصور ، ثم صانته بأن يسره للحفظ والاستظهار ، فيستوى في نقله • (١٣ - الاعلام)

الكبار والصغار ، لا يختص بحفظه أحد ، والوالد اذ نقص منه حرفا واحدا ، أو غير حركة منه ، رده وأصلحها عليه الولد .

ومع هذا فحروفه وكلماته وآياته وسوره في الدواوين معددة ، وأشكال كتبه ، حروفه فيها مقيدة . ومع هذا . فنقل الأمم التي لا تحصى عن الأمم التي لا تحصى ، حتى يصل ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم المصطفى مع قرب العهد والتشهير في صيانتته والجد ، واستعمال القانون النحوى ، وتثقيف اللسان العربى . فيهما كمل الله له الصون . وحصل له بهما على فهمه أكبر العون . فله الحمد على ما أولى ، والشكر له على نعمه التي لا تحصى ، فأين اللؤلؤ من الخزف ، والياقوت من الصدف .

وبعد هذا . . فالآن . حان أن نذكر بعض ما وقع في التوراة مما تطرق اليها التهم .

من ذلك . ما ذكروه فيها في المصحف الأول منها :

« ورأى الله أن قد كثر فساد الآدميين في الأرض ، فندم على خلقهم . وقال : سأذهب الآدمى الذى خلقت على الأرض والخشاش ، وطيور السماء ، لأنى نادى على خلقتها جدا » (١) .

وهذا في حق الله تعالى محال . اذ الندم انما يلحق من لا يعلم مصير المندوم عليه ، ومآله . واعتقاد هذا في حق الله كفر . اذ ينبىء عن أن الله تعالى جاهل ، وأنه متغير ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا . ولفظ : « الندم » (٢) هنا نص ، لا يقبل التأويل ، فهو كذب وباطل قطعاً .

ومن ذلك . ما ظهر في الوجود خلافه . وذلك أنهم حكوا فيها : أن بنى اسرائيل يسكنون تلك الأرض الى الانقراض (٣) ، ثم لم يلبثوا أن رأيناهم أخرجوا منها رأى العين .

فقد ظهر أن ذلك باطل وكذب .

ومن ذلك أيضا . أنه حكى فيها : أن الله تعالى كالانسان ، شخص

(١) التكوين ٦ : ٦ - ٧

(٢) في ترجمة ١٩٧٠ « فحزن الرب » بجل « فندم » » .

(٣) يشير الى وعد الله لابراهيم عن فلسطين « لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك الى الأبد » (تكوين ١٣ : ١٥) واليهود خرجوا من فلسطين .

ذو جوارح^(١) ، وهذا على الله بالضرورة محال • ولا للتأويل في هذا اللفظ مجال • ثم أنى هذا من قوله : « ليس كمثله شيء » ، وهو السميع البصير^(٢) •

ومن ذلك أيضا • أن الله تعالى حين أمر بنى إسرائيل الى التوجه الى الشام ، وعدهم أن يتوجه معهم وأمرهم أن يعملوا قبة على صفة كذا • ينزل فيها في سيره معهم •

ثم ان موسى قال له : يارب • ان هذه الأمة القاسية رقابها ، لا تمضى اليك الى الشام ، حتى تمضى معها كما وعدتها • فقال الله : نعم • اعملوا لى القبة • فعمل موسى القبة ، وسماها : قبة العهد ، ونزل الله من عرشه ، وسار معهم في داخل القبة ينزل بنزولهم ، ويرحل برحيلهم • هذا نص التوراة^(٣) •

ومما يذكرونه من بقية هذا ، وليس في التوراة : أنهم حين جمعوا المال لعمل هذه القبة أجروا الاتفاق على يد موسى عليه السلام • فلما كمل عملها ، ادعوا عليه : أنه قد نقصهم من المال ألف رطل ، وسبع مائة رطل وخمسة وسبعون رطلا • وقالوا لموسى تهكما به : أين نقص هذا المال وانما جرى الاتفاق على يدك ؟ فسمعوا صوتا من السماء يقول لهم : ان هذا العدد دخل في رؤوس الأعمدة ، وفي التغطيشية ، فحينئذ كفوا عنه^(٤) ، فهو لاء لم يعرفوا الله حق معرفته ، ولا قدروه حق قدره « فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون »^(٥) •

ومن ذلك أيضا • أنهم ذكروا فيها : أن الله قال لهم : أن يضربوا القرن في عسكرهم قليلا قليلا ، حتى يلقوا عدوهم ، فحينئذ يضربونه بأشد ما يقدرون عليه ليسمعهم الله فيؤيدهم على عدوهم^(٦) ، فكأنه سبحانه وتعالى لا يسمع الا الأصوات العالية • فأين هذا من وصف الله تعالى نفسه في كتابه على لسان نبيه ورسوله حيث قال : « وان تجهر

(١) أمثلة هذا في التوراة كثير وللإهود تأويل في تلك الأمثلة نقلناه عنهم في كتابنا : الله وصفاته في اليهودية والنصرانية والاسلام •

(٢) الشورى : ١١ (٣) خروج ٢٥ الى الآخر •

(٤) هذا الخبر ليس في التوراة • (٥) البقرة : ٧٩

(٦) الاصحاح العاشر من سفر العدد •

• بالقول • فانه يعلم السر وأخفى • الله لا اله الا هو ، له الأسماء
الحسنى «(١)» •

وفيه من هذا النوع كثير ، لو ذهبت أنقله لطال الكتاب ، ولخرجنا
من مقصود الباب •

وينبغى أن نذكر الآن ما جاء فيها مما ينزه عنه الأنبياء عليهم
السلام :

من ذلك •• ما حكوا في السفر الأول عن لوط أنه طلع من صاغار ،
فمسكن الجبل هو وابنتاه معه ، فجلس في مغار هو وابنتاه ، فقالت
الكبرى للصغرى : قد شاخ أبونا ، وليس على الأرض رجل يدخل علينا ،
فنسقى أبانا الخمر ، ونضطجع معه في مضطجعه ، ففعلتا وحملتا منه
بولدين : موآب ، وعمون (٢) •

هذا لوط من رسل الله الأكرمين ، أوقعه الله في فاحشة ، كما يوقع
الأرذلين ، ثم خلد ذكرها في الآخرين • وهل هذا الا عين الاهانة •
وإلى نسبة بين هذا وبين النبوة والكرامة ؟

وكذلك أيضا • حكوا فيها : أن اسحق لما شاخ ، وعمى بصره ،
دعا بعبسو ابنه الأكبر ليبارك عليه ، وليدعوا له بالنبوة ، فتحيل
يعقوب عليه • فقال له اسحق أبوه : من أنت ؟ فقال له : بكرك عيسو •
«فقال له : ادن مني حتى أجسك • فدنا منه ، وقد كان وضع على رأسه
شعرا بمكيدة أمه ، فقال له : الصوت صوت يعقوب ، ولكن اليدين يدا
عيسو ، فبارك عليه ، ودعا له بالنبوة ، وبشره بها ، وهو على غلط فيه ، ثم
بعد ذلك جاء عيسو وقال له : باركني أيضا يا أبى • فقال له : دخل
أخوك بمكر ، فقبل بركاتك • فقال عيسو ، بعد بكاء وحزن : أما تركت
هن البركات شيئا ؟ أبركة واحدة لك يا أبتى ؟ (٣) •

فما أعظم هذه الآية ، التي تشبه حديث خرافة •

ومن ذلك ما ذكروه فيها أيضا : أن يعقوب بينما هو يصلح خيمته

(١) طه : ٧ ، ٨ •

(٢) التكوين ١٩ : ٣٠ - ٣٨

(٣) التكوين الأصحاح السابع والعشرون •

ويبسطها ، مشى ابنه رأوبين وهو أكبر أولاده فضاجع سرية أبيه (١) :
 بلهة • ولما علم بذلك يعقوب • قال لابنه رأوبين : « فضل العز •
 فائرا كالماء • فلذلك لم أفضلك بالسهم الزائد حيث امتهنت فراشي » (٢)

وتفسير هذا : أن سنة الميراث كانت عندهم : أن يرث الولد الأكبر
 سهمين (٣) • وسائر الولد سهم واحد ، فعاتب يعقوب ابنه رأوبين
 على فعله بسريته بأن لم يفضل به بالميراث على أنه كان أكبر ولده •

وفي بعض التراجم : أن يعقوب قال : « يا رأوبين • أنت بكرى
 وقوتى ، ورأس حراتى ، وعونى ، طائقة الحمولة ، وطائقة العز والمنعة ،
 عديت مثل الماء ، فلا تمكث ، اذ صعدت الى مضطجع أبيك • حقا
 لقد نجست مضطجعى ، وتناولته » •

ومن ذلك • ما ذكره فيها أيضا : أن يهوذا بن يعقوب زنى بكنته
 ثامار امرأة ولديه ولقد كانا هلكا عنها واحدا بعد واحد فردها يهوذا
 الى بيت أبيها ووعدا بتزويج ولده الثالث المسمى بشيلا اذا كبر • ثم
 انها قعدت ليهوذا فى طريق غنمه ، وتسترت جهدها فظنها بغيا ،
 فعدل اليها ، ودعاها الى نفسه ، فسألته أجرا ، فوعدها بجدى من
 غنمه ، فطلبت منه رهنا • فأعطاه خاتمه ومنديله وعصاه وواقعها بزعمهم
 فحملت منه • ثم ان يهوذا أرسل بالجدى ليطلب رهنه ، فلم توجد
 المرأة فجاء بنفسه الى أهل القرية ، وقال لهم : أين قحباكم المتبلطة
 على الطريق ؟ فقالوا : ما كان منا على الطريق قحبا • ثم قيل له بعد
 حين : ان كنتك ثامار حبلى • فقال : تحرق بالنار (٤) • فأخرجت لتحرق
 بالنار • فقالت : انما أنا حامل منه ، وهذه رهنه بيدي ، حين زنى بى ،
 ليفكها بجدى من غنمه ، فعرف ذلك يهوذا ، وقال : هى أصدق منى •

وفي بقية هذا الخبر خرافة : وذلك أن ثامار • لما جاءها المخاض
 كان فى بطنها توأمان ، فتناولت القابلة خيط عهن ، فربطته على يده •
 وقالت : هذا يخرج بديا • فلما مد يده خرج أخوه • فقالت : لقد
 انحزمت فيك ثلثة عظيمة (٥) •

(١) تكوين ٣٥ : ٢١-٢٢ • (٢) تكوين ٤٩ : ٣-٤

(٣) تثنية ٢١ : ١٧ • (٤) لاويين ٢١ : ٩

(٥) قصة زنى يهوذا بثامار فى الاصحاح الثامن والثلاثين من سفر

وحكى فيها أيضا : أن دينة بنت يعقوب خرجت لبعض شأنها فنظر اليها شخيم بن حمورا انزناتى(١) ، فعشقتها واحتملها ، فواقعها ، وافترضها . ثم ان شخيم قال لأبيه حمورا : اخطب لى هذه الجارية لتكون لى امرأة . فبلغ ذلك يعقوب ، وأنهم قد نجسوا دينة ابنته فصمت يعقوب ، وأطرق حتى أتاه بنوه . فلما بلغهم ذلك اغتموا ، وساءهم ذلك واشتد عليهم ذلك جدا ، لأنهم ارتكبوا النجاسة فى اسرائيل ، ثم ان بنى يعقوب عاقدوا شخيم ، وحمورا أباه ، وقومه : أنهم اذا اختتنوا أنكحوه أختهم دينة . فانهم قالوا لشخيم : لا نقدر أن نزوج أختنا من رجل له غرلة . ولكن اذا اختتنتم زوجناكم أختنا وبناتنا ، ونتزوج بناتكم .

ففعل القوم ذلك . فلما اشتدت بهم أوجاعهم تناول شمعون ولاوى . كل واحد منهما حربا ، ودخلا على القرية بغتة ، فقتلا كل ذكر فيها(٢) .

ومثل هذا كثير مما يخرج استقصاؤه الى التطويل .

وكذلك حكوا فيها أيضا من وعيد الله لبنى اسرائيل بالفاحشة والقبیح ، ما لا يقبله ذو عقل صحيح .

مثل ما حكوا أن موسى قال لبنى اسرائيل فى الوصية التى وصاهم بها حيث قال لهم : « ان كفرت بربك ، وحدثت عن سبيله ، وعبدت الآلهة الأجنبية يضربك الرب بقرحه مصر ، وبالبواسير والجرب والحكة ، حتى لا تستطيع الشفاء . تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها »(٣) .

وهذا الكلام تضمن : أن الله تعالى توعده بنى اسرائيل ، من عبد غير الله منهم بثلاثة أنواع من الفواحش ، لا ينبغى لذوى المروءات أن يتلفظوا بها ، ولو أسقطوا مروءتهم فتلفظوا بها ، لما كان ينبغى لهم أن يتوعدوا بها ، ولا أن ينفذوا ذلك الوعيد لفحشه ، ثم انهم ينزّمهم على هذا أحد ثلاث أمور : أحدها : أن يكون هذا الكلام باطلا أو كذبا على الله تعالى عن ذلك — أو يكون بنى اسرائيل كل من أشرك منهم

(١) فى ترجمة ١٩٧٠ « شخيم بن حمور الحوى » .

(٢) هذه القصة فى الاصحاح الرابع والثلاثين من سفر التكوين .

(٣) النص فى الاصحاح الثامن والعشرين من التثنية .

وعبد غير الله أن يبتلى بهذه الأدواء الثلاثة ، وأن يكونوا بنى زنى • ولا يقدرّون على أن ينكروا : أنهم قد أشركوا بالله ، وأنهم عبدوا الأوثان بعد موسى • فيلزم من ذلك — أن لم يكن ذلك الكلام محرفاً — أن يكونوا كلهم بنى زنى ، وقرحانيين ، وموصوفين بالفاحشة الكبرى •

وحكوا في سفر (١) صموئيل الثانى : أن داوود عليه السلام اطلع من قصره ، فرأى امرأة من نساء المؤمنين تغتسل فى دارها فعشقها ، وبعث فيها ، فحبسها أياما حتى حبلى — تعالى الله أن يجرى ذلك على رسله — ثم ردها ، وكان زوجها يسمى أوريا ، غائبا فى العسكر ، ولما علمت المرأة بالحمل أرسلت به الى داوود فبعث داوود الى يوأب بن صوريا ، قائده على العسكر يأمره أن يبعث اليه بأوريا زوج المرأة فجاء فصنع له طعاما وخمرا حتى سكر ، وأمره بالانصراف الى أهله ليواقعها فينسب الحمل اليه ، ففهم الأمر أوريا وتخابث ، فلم يمش الى أهله • وقال : حاشى لله أن يكون الملك هنا دون أهله ، وأمشى أنا الى أهلى • فلما يئس داوود منه ، رده الى العسكر ، وكتب الى القائد أن يصدر به فى القتال مستقتلا له • فقتل أوريا ، وقتل معه من المؤمنين : سبعة آلاف ، وفزع القائد من داوود لقتل العدد العظيم من المؤمنين • وقال للرسول : اذا أنت أخبرت الملك داوود بقتل الناس ورأيت أنه قد غضب • قل له سريعا : ان أوريا قتل فيهم • ففعل الرسول ، وسكن داوود من بعد الغضب ، وسر بموت أوريا ، وهانت عليه من أجل موته دماء المؤمنين •

فاعتبر • هذه الفواحش المنكرة ، وهذه الصفات المذمومة المستقذرة • هل تليق بأولى الديانات ؟ فكيف بمعدن النبوات ؟ وهل يحمد ذكرها عند ذوى المروءات ؟ فكيف عند الحى الكريم اله المخلوقات ؟ تبأ لهم ، ولصدقهم • وخسرا براحنة وجذعا وعقرا • فوالله لقد افتروا على رسل الله ، وكذبوا على كتب الله « افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين » (٢) •

(١) عبارة المخطوطة : سفر ملاخيم • وفى ترجمة الكاثوليك اسمه سفر الملوك الثانى • وقصة زنى داوود التى ذكرها المؤلف فى الاصحاح الحادى عشر •

(٢) الانعام : ١٤٠

وكتبوا في هذا المصحف (١) : أن أمنون بن داوود عشق أخته تamar بنت داوود ، وتمارض فعاده أبوه ، فتمنى عليه طعاما تطعمه تamar أخته ، فبعث بها داوود اليه ، فلما قربت اليه الطعام وضع يده فيها ، وافترضها . فخرجت باكية فلقياها أخوها الآخر ، شقيقها أبشالوم ، فأخبرته ، فهون عليها . ثم بعد أيام وثب على أمنون فقتله من أجل ذلك .

وكتبوا في هذا المصحف (٢) : أن أبشالوم بن داوود . نافق على أبيه ، وأخرجه عن قصره ودخل على نسائه ، فوطئن كلهن على أعين بني إسرائيل استبلاغا في الانتقام من أبيه .

ومن أفصح ما كتبوا في هذا المصحف (٣) عن سليمان بن داوود : أنه ختم عمره بعبادة الأصنام والسحر ، وسييت نساؤه دينه . كذبوا . « قاتلهم الله ، أنى يؤفكون » (٤) اذ بالأباطل والفواحش يتقولون ويتخرصون . فلقد صدق الله العظيم ورسوله الكريم حيث قال سبحانه وتعالى في محكم كتابه الحكيم : « واتبعوا ما نتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا » (٥) فغضب الله عليهم وعلى من يصدقهم الى يوم الدين ولعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

فهذه الحكايات الوخيمة ، والأقوال غير المستقيمة : تضمنت الاخبار عن لوط بأنه زنى بابنتيه وأنهما حملتا منه من الزنى . وأن نبوة يعقوب انما حصلت له بأن خدع اسحق ومكر به . وانما كانت ليعسو . وأن داوود زنى بامرأة مؤمنة ، زوجة مؤمن . وأن داوود تحيل على زوجها حتى قتل ، وقتل لقتله جماعة من المؤمنين ، فسر بذلك . وأن رأوبين زنى بسرية أبيه يعقوب ، وكذلك يهوذا زنى بكنته تamar ، وولدت له من الزنى توأمين . وأن ابنة يعقوب زنى بها شخيم بن حمورا . وأن

(١) الاصحاح الثالث عشر من سفر صموئيل الثانى .

(٢) الاصحاح السادس عشر من سفر صموئيل الثانى .

(٣) سفر الملوك الأول الاصحاح الحادى عشر - واسمه سفر الملوك

الثالث في ترجمة الكاثوليك (الآباء اليسوعيين)

(٤) التوبة : ٣٠

(٥) البقرة : ١٠٢

اولاد يعقوب بعد أن آمنوه وعقدوا معه ، غدروا به • وقتلوه وأباه ،
وأهل القرية • وأن أمنون بن داوود زنى بأخته تamar بنت داوود •
وأن أخاها أبشالوم قتله غيلة وغدرا • وأن أبشالوم زنى بنساء داوود
أبيه ، وأن سليمان ارتد عن نبوته ، وعبد الأصنام •

فان ثبت هذا الذى ذكروه فى كتبهم — تعالى الله والأنبياء عن
قولهم — فهذا الشعب الذى ذكروا فيه هذه الفواحش ، ليس هو شعب
النبي اسحق • بل هو شعب : غدر ونفاق وزنى وكفر • وكيف يصح
أن تكون هذه الأفعال القبيحة أفعال أهل نبوة صحيحة ؟ بل كل ذلك
ناقض للنبوات ، لا سيما مع دعاء ابراهيم واسحق لذريتهما بالبر ،
والبركات • فان كان هذا شعبهما الذى دعوا له بالبر ، والبركة •
فدعاهما غير مسموع ، وقولهما مردود مدفوع •

ثم هذه الحكايات الوخيمة ، الفاحشة غير المستقيمة فى التوراة •
لها أمور آخر تعارضها • بل وأدلة العقل تناقضها •

من ذلك : ما حكى فيها من مدح لوط على لسان ابراهيم ، وشهادته
له بالبر • وذلك أن الله تعالى لما أعلم ابراهيم بأنه يريد أن يهلك
سدوم وعمورا • وهما مسكن قوم لوط • قال : « يا رب أتهلك الأبرار
مع الفجار » ؟ (١) يعنى بالأبرار : لوطا وبنتيه • فسماهم : أبرارا •
وشهد له بذلك بين يدي الله تعالى • وكيف يصح أن يكون ابتقا لوط
من الأبرار ، ويوقعان أنفسهما فى أن يزنى بهما أبوهما نبي الله ؟ ثم لم
يعصمه الله تعالى من مثل هذه الرذيلة • ثم ان الله شهد عنه هذه
الفضيحة التى يتحدث بها على مد الدهر ، مع أنه لم يسمع قط من
المشرعين من أجاز نكاح البنات • وهل هذا من ناقله وناسبه الى الله ،
الا جرأة وتواضح على الله •

وكذلك ما كتبوه فيها من الحكايات التى ذكرناها فى ذرية اسحق ،
يعارضه ما حكوا فيها عن الله أنه قال لابراهيم ، فى غير موضع ما منها :
« لأباركك بركة تامة ، ولأكثر نسلك ، ويتبارك بنسلك جميع الشعوب
لأنك أطعنتى » (٢) •

(١) تكوين الاصحاح الثامن عشر : ٢٣

(٢) تكوين ٢٢ : ١٧ - ١٨

وكذلك قال الله لاسحق بعد موت ابراهيم : « أنا معك أكون ، وأباركك • لأنى أعطيك ونسلك ، جميع هذه الممتلكات ، ويتبارك بنسلك جميع الشعوب » (١) •

وكذلك قال اسحق ليعقوب حيث مكر به يعقوب بزعمهم قاتلهم الله • قال : « به يؤتيك الله من ظل السماء ، وخصب الأرض ، تعبدك الأمم ، وتسجد لك الشعوب • كن رئيسا لاختك • تسجد لك بنو أمك ، مباركوك مباركون ، ولا عنوك ملعونون » (٢) •

تأمل بعقلك هذه المخازى البادية ، وما نسبوا في كتبهم الى أكرم الخلق من المناكر الفاشية •

فاذا أنت أمعنت النظر ، واشتدت منك العبر • علمت أن هذه الحكايات بواطل • وأن ملحقها في التوراة وناسبها الى الله متزندق جاهل • وانما ألحقها عدو للأديان • أراد أن يقول في صفوة الله : البهتان ، فحصل له مراده ، حيث أفسد على المتشرعين الايمان •

..... ثم نقول للنصارى بعد ذلك : العجب منكم ، ومن جهلكم حيث صدقتم بوقوع هذه الفواحش من الأنبياء ، واعترفتم مع ذلك بنبوتهم • ثم لم تجوزوا على الحواريين وقوع الغلط منهم فيما حكوا لكم ان صحت الحكايات عنهم من اتحاد العلم باللحمة ، فإن العقل يدل بضرورته على أن ظاهر ذلك فاسد محال • فهلا عليكم تأولتم ذلك ، أو قلتم : انه يجوز عليهم الغلط ، ولا يدل ذلك على نقضهم كما قلتم في الأنبياء الذين حكيت عنهم تلك الفواحش ، ولو فعلتم ذلك لكان الأولى عند العقلاء •

* * *

فصل في بيان أن الانجيل ليس بمتواتر

وبيان بعض ما وقع فيه من الخل

فنقول وبالله التوفيق :

ان هذا الكتاب الذى بيد النصارى اليوم الذى يسمونه بالانجيل •
ليس هو الانجيل الذى قال الله فيه على لسان رسوله صلى الله عليه
وسلم : « وأنزل التوراة والانجيل • من قبل هدى للناس » (١) •

وانما قلنا هذا فى الانجيل ، دون التوراة ، لأن التوراة قد ثبت
عندنا وعندهم أن الله تعالى كتبها فى الألواح لموسى عليه السلام • وتدعى
اليهود أن موسى عليه السلام نسخ لهم التوراة من تلك الألواح •
فحصل من هذا : أن التوراة بلغت بجملتها عن موسى عليه السلام •
ثم انه حدث فيها من التغيير بعده ما قدمنا ذكره •

وأما هذا الكتاب الذى يدعى النصارى أنه الانجيل : فقد توافق
هؤلاء النصارى على أنه انما تلقى عن اثنين من الحواريين وهما :
متاؤوش (٢) ويوحنا • وعن اثنين من تلاميذ الحواريين وهما : ماركس
ولوقا • وأن عيسى عليه السلام لم يشافهم بكتاب مكتوب عن الله كما
فعل موسى • ولكن لما رفع الله عيسى عليه السلام اليه • تفوق
الحواريون فى البلاد والأقاليم ، كما أمرهم عيسى فكان منهم من كتب
بعض سيرة عيسى ، وبعض معجزاته ، وبعض أحواله ، حسب ما تفكر •
وما يسر الله عليه فيه • فربما توارد الأربعة على شىء واحد فحدثوا به ،
وربما انفرد بعضهم بزيادة معنى • وكذلك كثيرا ما يوجد بينهم من
اختلاف مساق وتناقض بين قولين وزيادة ونقصان ، وسترى بعض
ذلك إن شاء الله تعالى • فعلى هذا لا يسمى الانجيل كتاب الله المنزل
حقيقة • فان حقيقة الكتاب المنزل بحكم العرف أنما هو : عبارة عن
جملة من كلام الله المبلغة على لسان رسول من رسله يحكيها ذلك الرسول
عن الله تعالى •

(١) آل عمران : ٣ ، ٤ •

(٢) متاؤوش هو : متى فى التراجم الحديثة • وماركس هو : مرقس •

وليس شيء من هذا موجودا في الانجيل فان سماه مسم كتابا منزلا ، ولم يرد هذا المعنى فلا بد من أن نسأله عن المعنى الذى يريده بذلك الاطلاق • فلا شك أنه يقول : انما سميته كتابا منزلا ، لأن عيسى جاء من عند الله ، وبلغنا شرع الله • وفى ذلك الكتاب وصف سيرته ، وحكايات وأخبار عن الله • فكيف لا يقال عليه : هو كتاب الله ، ومنزل من الله • فتقول له : نسميه هذا كتاب الله بالمجاز ، أو بالحقيقة ؟ فان قال : بالحقيقة • فكلامه باطل • فان حقيقة كتاب الله المنزل ، هو ما قدمناه • وان قال : بالمجاز • قنعنا بهذا • ثم ألزمناه عليه : أن يكون كل كتاب يحكى عن نبي من أنبياء الله • فان ألفه أى مؤلف كان كتاب الله ، ولا فرق •

واذ انتهينا الى هذا ، فقد حصل غرضنا • وهو : أن هذا الانجيل الذى بأيديهم ليس منزلا • ولا يقال عليه : كتاب الله المنزل ، كما يقال على التوراة والانجيل ، والقرآن • وذلك ما كنا نبغى •

فقد حصل من هذا الكلام : أنه ليس منزلا من الله حقيقة ، وأن نقله ليس متواترا فانه راجع الى الأربعة الذين ذكرناهم • والعادة تجوز عليهم الغلط ، والسهو ، والكذب • فان قالوا : هم معصومون فيما نقلوه عن عيسى عليه السلام • قلنا : ما دليل عصمتهم ؟ فان قالوا : دليل عصمتهم أنهم كانوا أنبياء ، ودليل نبوتهم : ما ظهر على أيديهم من خوارق العادات • وشهادة عيسى عليه السلام لهم حيث قال لهم : « كل ما سألتموه ، اذا حسن ايمانكم ستجابون » (١) وقال لهم : « ستوقفون على الملوك • ويسألونكم ، فلا تفكروا فيما تقولون • فانكم ستهدون ذلك الوقت ، لما تقولونه ، ولستم تتطقون أنتم • لكن روح القدس ينطق على ألسنتكم » (٢) وقد جاء عن عيسى عليه السلام أنه دعا الاثنى عشر حواريا ، وأعطاهم من القدرة والسلطان • ما يتقون به جميع الجن • ويبرءون به الأسقام (٣) • وكذلك قال لبطرس : « ما عقدته أنت فى الأرض ، فمعقود فى السماء ، وما حللته فى الأرض

(١) متى الاصحاح السابع عشر والحادى والعشرين •

(٢) الاصحاح العاشر من انجيل متى •

(٣) الاصحاح العاشر من انجيل متى •

فمحلول في السماء» (١) وأما خوارق العادات • فقد كانوا يحيون الموتى ، ويبرءون المرضى ، كما كان يفعل عيسى عليه السلام وذلك معروف من حالهم (٢) •

قلنا : ما ذكرتموه عن عيسى عليه السلام من الشهادة • فلا يصح لكم الاستدلال بشيء مما ذكرتموه • لوجوه :

أحدها : أنكم أسندتم ذلك الى الانجيل ، واستدلتم على صدقهم بما جاء عنهم فيه ، وما جاء عنهم فيه ، لا يثبت حتى تثبت عصمتهم ، فلا يثبت بما ذكرتموه ، لا الانجيل ، ولا عصمتهم •

الوجه الثاني : أنا لو سلمنا ذلك لكم • لما كان فيما ذكرتموه حجة ، لأنه ليس شيء منها ينص على أنهم معصومون فيما أخبروا به على الاطلاق ، وغاية ما ذكرتموه : أن يدل على أنهم يعانون ويؤيدون ، مما يبلغون عن عيسى في بعض الأوقات ، أو في بعض الأخبار والاحوال •

والوجه الثالث : أن ما ذكروه معارض بما نقلوه أيضا • وذلك أنهم نقلوا في الانجيل أنه قال للحواريين : « يا نسل التشكيك والكفر • الى متى أكون معكم ؟ والى متى أحتلمكم ؟ » (٣) وأما ما قال لبطرس فهو أيضا معارض بما حكيتم عنه أنه قال له : « تأخر يا شيطان • فانك جاهل بمرضات الله » (٤) •

وأما ما ادعوه من معجزاتهم فلم ينقل منها شيء على التواتر • وانما هي أخبار آحاد غير صحيحة • ولو سلمنا أنها صحت لما دلت على صدقهم في كل الأحوال • وعلى أنهم أنبياء • فان القوم لم يدعوا النبوة لأنفسهم ، وانما ادعوا التبليغ عن عيسى عليه السلام • فظهر من هذا البحث : أن الانجيل المدعى لم ينقل تواترا ، ولم يقم دليل على عصمة ناقله • فاذن يجوز الغلط والسهو على ناقله ، فلا يحصل العلم بشيء منه • بل ولا غلبة الظن • فلا يلتفت اليه • ولا يعول في الاحتجاج عليهم •

(١) الاصحاح السادس عشر من انجيل متى •

(٢) لوقا : الاصحاح التاسع •

(٣) الاصحاح التاسع من انجيل لوقا •

(٤) الاصحاح السادس عشر من انجيل متى •

وهذا كاف في رده ، وبيان قبول تحريفه ، وعدم الثقة بمضمونه .
ولكننا مع ذلك نعتمد منه الى مواضع يتبين فيها تهافت نقلته ووقوع
الغلط في نقله بحول الله تعالى .

فأول ذلك : أنهم ذكروا في أول ورقة من انجيل يوحنا حيث ذكر
المسيح ، فقال : « : ولد (١) المسيح الذي هو بادىء الأشياء وعلتها الأولى
علة جميع الأشياء ، وكل زمان . ورأس كل نظام ، وأولية جميع المراتب »
ثم قال بعد ذلك في معرض مدحـه : « المكوم في لحمه ، المعلق في
الخشبة » .

كيف يجترىء عاقل : أن يتحدث بمثل هذا العار ؟ أو كيف تصح
نسبة هذا التناقض البين الى أحد من الأخيار ؟

وذكروا فيه أيضا : أن عيسى عليه السلام قال : « أنا الباب .
فمن دخل على يسلم . ويجد مرعى أبدا » ثم عرض بمن قبله من الأنبياء
فجعلهم لصوصا وسراقا . فقال « آمين ، آمين . أقول لكم : انى باب
الضأن ، والقادمون عليكم كانوا لصوصا وسراقا ، ولا يقبل اللص
ألا ليسرق شيئا ويقتل . وأنا قدمت لتحيوا ، وتزدادوا خيرا » (٢) .

وفي الانجيل أيضا أنه قال : « ان كنت أشهد لنفسي فشهادتى غير
مقبولة ، ولكن عيرى يشهد » (٣) ثم في موضع آخر من الانجيل أنه
قال : « ان كنت أشهد لنفسي فشهادتى حق . لأنى أعلم من حيث جئت .
والى أين أذهب » (٤) .

فكيف تكون شهادته حقا وباطلا ، ومقبولة وغير مقبولة ؟ وكيف
يجمع بين هذين في كتاب ينسب الى الله ؟

وفي الانجيل أيضا : أنه حين استشعر بوثوب يهوذا عليه . قال :
« قد جزعت نفسي الآن . فماذا أقول يا أبتاه ؟ فسلمنى في هذا
الوقت » (٥) وأنه حين رفع في الخشبة صاح صياحا عظيما وقال :

(١) يشير الى بدء انجيل يوحنا : « في البدء كان الكلمة والكلمة كان
عند الله وكان الكلمة الله . . . » .

(٢) الاصحاح العاشر من يوحنا . (٣) يوحنا ٥ : ٣١

(٤) يوحنا ٨ : ١٤ (٥) متى ٢٦ : ٣٨

« آلى • آلى • لم عد بتاي » ؟ وترجمته : « الهى • الهى • لم .
أسلمتنى » (١) ؟

ثم فى أول ورقة منه : « انما أسلم نفسه لتظهر قدرته بسلطانه
على الموت ، وظفرته على جميع الآلام والمهن التى تستقبحها أو هام
الآدميين » (٢) •

فكيف يصيح ويجزع مما تظهر به قدرته وقهرته ؟ وهل سمع
قط أسخف من هذا القول ؟ أو أظهر تناقضا منه ؟

ثم فى موضع آخر منه : أنه قال قبل ذلك : « من أحب أن يقفوا
أثرى ، فليذهب نفسه » (٣) فحرض على اتلاف النفوس • فكيف يجزع
مما يحرض عليه قبل ؟ أم كيف يكون الها ويجزع نفسه ؟ أم كيف يكون
« ابن الله » ؟ ثم يدعو أن يخلصه فى ذلك الوقت فلم يستجب له ؟

ومن أظهر دليل على وقوع الغلط فيه : أن فى انجيل متاؤوش :
الحوارى حين ذكر نسب عيسى عليه السلام حيث نزل خطيب مريم
أبا لعيسى • فقال : « ابن يوسف بن يعقوب بن مثن بن أليعازر بن أليود
ابن أخيم » (٤) وعد الى ابراهيم الخليل تسعة وثلاثين أبا ، ثم فى
انجيل لوقا يقول : « يوسف بن هالى بن متثات بن لاوى بن ملكى •
بن ينا » (٥) وعد الى ابراهيم نيفا وخمسين أبا •

فيا ليت تسعرى • كيف يجوز مثل هذا على الله ؟ أو كيف ينقل هذا
فى كتاب معلوم عن الله ؟ وقد أراد بعض أساقفتهم أن يرقع هذا الخرق
المتسع بأن قال : أحد النسبين طبيعى ، نسب التوليد ، والآخر نسب
شرعى ، نسب الولاء والكفالة • والتناقض باق عليه بعد اختراع هذا
الهذيان •

(١) « ايلى • ايلى • لما شبعتنى أى الهى الهى لماذا تركتنى ؟ »
(متى ٢٧ : ٤٦) •

(٢) الآية بالمعنى فى الاصحاح الاول من انجيل يوحنا والاصحاح الثانى من
سفر أعمال الرسل •

(٣) الاصحاح العاشر من انجيل متى •

(٤) الاصحاح الاول من انجيل متى •

(٥) الاصحاح الثالث من انجيل لوقا •

ثم انظر هذه الشناعة التي ارتكبوها • حيث نسبوا عيسى عليه السلام الى رجل زعموا أنه خطب أمه مريم وأى نسبة تثبت بينهما ، بيان أراد أن يتزوج انسان أمه ؟ ثم انهم يبلغون نسب يوسف الى آدم • ثم يقولون : الى الله •

فملا عليهم يستغنون عن ذكر نسب من لا ينتسب في عيسى ، ويقولون في عيسى : ما يقولون في آدم ؟ لولا الجهل والتحكم •

وفي الانجيل عنه : أنه كان يوما قد نهاهم عن التجارة في بيت المقدس • وأن اليهود قالت له حينئذ : « أى علامة تظهر لنا ؟ قال : تهدمون هذا البيت وأبنيه لكم في ثلاثة أيام ، فقالت اليهود : بيت بنى في ستة وأربعين سنة تبنيه أنت في ثلاثة أيام » (١) ؟

ثم في موضع آخر منه : أنه لما ظفرت به اليهود — بظنكم — وحمل الى بلاط قيصر ، واستوعيت عليه بيعة • أن شاهدي زور ، جاءا اليه • وقالا : سمعنا هذا يقول : أنا قادر على بنيان البيت في ثلاثة (٢) •

وهذه شهادة موافقة لما قال عيسى لليهود • فهذا الشاهد قال عليه الحق لما يقتضيه كلامه • ومن شهد بما سمع • كيف يقال عليه : شاهد الزور ؟ أو كيف يصميه الله شاهد زور ؟ ومن أعجب الأشياء : أن اليهود لا تعرف شيئا من هذا • ولا سمعت أن أسلافها جرى بينهم وبين عيسى هذا المجلس ولا سوى ذلك مما تصفون من خرافات كتبكم •

وفي الانجيل أيضا للوقا : أن عيسى قال لرجلين من تلاميذه : « اذهبا الى الحصن الذى يقابلكما ، فاذا دخلتماه فستجدان فلوا مربوطا لم يركبه أحد • فحلاه واقبلا به الى » (٣) وفي الانجيل لمتاؤوش (٤) يصف هذا الخبر بعيثه ، ويذكر أنها كانت « حجارة » فحسبك بهذا خللا وتناقضا •

(١) الاصحاح الثانى من انجيل يوحنا •

(٢) الاصحاح السادس والعشرون من انجيل متى •

(٣) الاصحاح التاسع عشر من انجيل لوقا •

(٤) الاصحاح الحادى والعشرون من انجيل متى •

وفي الانجيل أيضا للوقا^(١) : يخبر عن المرأة التي صبت الطيب على رجلى المسيح ، وشق ذلك على التلاميذ ، وقالوا لها : هلا تصدقت به ؟ وفي الانجيل لمتاؤوش^(٢) : أنها انما صبت الطيب على رأس المسيح . فما أبعد اليقين عن خبر فيه مثل هذا الاختلاف المبين .

وفي الانجيل^(٣) أيضا : أن أم ابني زبدي جاءت الى عيسى ، ومعهما ابناها . فقال : ما تريدان ؟ فقالت : أريد أن تجلس ولدائى أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، اذا جلست فى ملكك . فقال : تجهلين السؤال . أيصبران على الكأس التى أشرب بها ؟ فقالا : نصبر . فقال : ستشربان بكأسى ، وليس الى تجليساكما عن يمينى ، ولا عن شمالى ، الا لمن وهب ذلك .

فقد أخبر هنا : أنه لا يقدر على تجليساها عن يمينه ، ولا عن شماله .

وفي أول ورقة^(٤) منه : أنه بادية الأشياء وعلتها ، وعلة كل زمان . فكيف يصح أن يكون بادية الأشياء كلها وعلتها ، ولا يقدر أن يجلسها عن يمينه ، ولا عن يساره . ثم يتبرأ عن ذلك بقوله : « الا لمن وهب ذلك لى » ولا مزيد فى التناقض والفساد على هذا .

وفي الانجيل أيضا أنه قال : « لا تحسبوا أنى قدمت لأصلح بين أهل الأرض . لم آت لصلاحهم ، لكن لألقى المحاربة بينهم . انما قدمت لأفرق بين المرء وابنه والمرأة وابنتها ، حتى يصيروا أعداء المرء أهل بيته »^(٥) .

وفيه أيضا عنه : « انما قدمت لتحياوا وتزدادوا خيرا ، وأصلح بين الناس »^(٦) وأنه قال : « من لطم خدك اليمنى ، فانصب اليسرى »^(٧) ولا مزيد فى التناقض والفساد على هذا .

(١) الاصحاح السابع من انجيل لوقا .

(٢) الاصحاح السادس والعشرون من انجيل متى .

(٣) الاصحاح الحادى والعشرون من انجيل متى .

(٤) يشير الى انجيل يوحنا الاصحاح الاول .

(٥) متى ١٠ : ٣٤ - ٣٦

(٦) متى ٥ : ٣٩

(٧) متى ٢٠ : ٢٨

وفي الانجيل أيضا أنه قال : « لم آت لأنقض شريعة من قبلى ،
انما جئت لأتمم » (١) وكلاما من معناه • ثم فيه بعد أحرف قليلة :
كلام آخر ينقض فيه شريعة من قبله وذلك أنه قال : « انما علمتم أنه
قيل للمقدماء : لا تقتلوا • ومن قتل فقد استوجب النفى من الجماعة »
ثم قال بعد ذلك : « أما علمتم أنه قيل للمقدماء : من فارق امرأته فليكتب
لها كتاب طلاق • وأنا أقول لكم : من فارق امرأته منكم • فقد جعل لها
سبيلا الى الزنى • ومن زوج مطلقة فهو فاسق » ثم قال : « أما بلغكم
أنه قيل للمقدماء : العين بالعين ، والسن بالسن • وأنا أقول لكم :
لا تكافئوا أحدا بسيئة ولكن من لطم خدك اليمنى ، فانصب له اليسرى •
ومن أراد مغالبتك وانتزاعك قميصك فزده أيضا رداءك » (٢) •

كيف يصح أن يقول : « لم آت لأنقض شريعة من قبلى » ثم
ينقضها حكما حكما ؟ ثم قوله « جئت ممتما » لا يصح أيضا • فان شريعة
موسى كانت تامة كاملة • والتام لا يتم ، والكامل لا يكمل • فهذا
تناقض وفساد •

وعيسى عليه السلام منزّه مبرا عن كل تناقض وفساد • وليس
هذا ولا شيء منه من قبله ، بل هو منزّه عن ذلك كله •

وفي الانجيل أيضا لتاؤوش : أن المسيح قال لبطرس : « طوبى
لك يا سمعون بن الحماة • وأنا أقول انك الحجر ، وعلى هذا الحجر
أبنتى بيتى • فكل ما حللته على الأرض يكون محلولا فى السماء ،
وما عقدته على الأرض يكون معقودا فى السماء » (٣) ثم بعد أحرف
يسيرة قال بعينه : « اذهب يا شيطان ، ولا تعارض ، فانك جاهل
بكونى » (٤) •

فكيف يكون شيطان جاهل بطبيعته صاحبة السماء ؟ وهذا غاية
التناقض •

وفي الانجيل أيضا لتاؤوش : أن عيسى قال : « لم تلد النساء

(٢) متى ٥ : الى ٤١

(٤) متى ١٦ : ٢٣

(١) متى ٥ : ١٧

(٣) متى ١٦ : ١٨ - ١٩

مثل يحيى «(١) ثم في انجيل يوحنا أن يحيى بعثت إليه اليهود من يكشف لهم أمره فسألوه : « من هو ؟ أهو المسيح ؟ قال : لا • قالوا : أتراك الياس «(٢) ؟ قال : لا • قالوا : أنت نبي ؟ «(١) قال : لا • قالوا : أخبرنا من أنت ؟ قال : أنا صوت مناد ، في المفاز » •

فنفي عن نفسه كونه « نبيا » ولا يجوز لنبي أن ينكر نبوته ، فإنه يكون كاذبا والنبي الصادق لا يكذب •

فليزعمهم أحد أمرين : إما أن يكون يحيى ليس بنبي ، وهو باطل ، أو يكون انجيلهم محرفا وهو حق •

ولو تتبع ما فيه من هذا القبيل لاحتاج ذلك الى التكاثر والتطويل • وبموضع واحد من هذه المواضع يحصل : أن كتابهم قابل للتحريف والتغيير • فكيف بالتزديد والتكاثر ؟

فقد حصل من هذا البحث الصحيح :

أن التوراة والانجيل لا تحصل الثقة بهما ، فلا يصح الاستدلال بهما لكونهما غير متواترين وقابلين للتغيير •

وقد دللنا على بعض ما وقع فيهما من ذلك • وإذا جاز مثل ذلك في هذين الكتابين مع كونهما أشهر ما عندهم ، وأعظم عمدتهم ومستند ديانتهم • فما ظنك بغير ذينك من سائر كتبهم التي يستدلون بها • مما ليس مشهورا مثلهما ، ولا منسوبنا الى الله نسبتها ؟

(١) متى ١١ : ١١

(٢) الياس في التراجم الحديثة : ايلياء •

(٣) المؤلف قرأ النص « أنت نبي » والصحيح كما في جميع التراجم « أنت النبي ؟ » لأنهم يسألون عن نبي معهود تحدث عنه موسى في الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية فنفي يحيى أنه النبي المستول عنه ، لا أنه ينفي نبوته كما فهم المؤلف • وهذا النبي المستول عنه هو محمد صلى الله عليه وسلم وهذا النص في الاصحاح الأول من انجيل يوحنا •

فعلى هذا • هما أولى بعدم التواتر ، وبقبول التحريف فيهما •
 فإذا ادعوا تواتر شيء من ذلك فليُنظر • هل كملت فيه شروط التواتر
 أم لا ؟ فإن كملت قبلنا وآمنا • وإن لم تكمل توقفنا وطالبناهم بالطريق
 الموصل إلى العلم •

فإذا ثبتت هذه المقدمة • قلنا بعدها للمستدل على اثبات نبوة
 عيسى بالأدلة المتقدمة : لا تظن أننا نرد نبوة عيسى ، أو أننا نشك فيها •
 حاشى الله • بل نحن أحق وأولى بعيسى ابن مريم منكم • فانكم قلتم
 فيه ما لا ينبغي له ، ونسبتموه إلى ما يتبرأ هو منه • بل أنتم لعمرى •
 والله أبعد منه ، وأبغض إليه ممن أنكر نبوته • وكفر به • فإن من
 أنكر نبوته ، وكفر به • لم يشرك بالله كما فعلتم أنتم حيث جعلتموه
 الها آخر ، ولم يعرض بعيسى عليه السلام للموقف المخجل الذى
 يسأله الله فيه عن غلوكم فيه وعبادتكم له • حيث يقول الله له :

« يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس : اتخذونى وأمى : الهين من
 دون الله » ؟ فيقول خجلاً ، فزعاً ، متبرأً من قبيح ما نسبتموه إليه :
 « سبحانه • ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، أن كنت قلته فقد
 علمته » (١) •

وأما نحن • فانما نقول فيه ، ما قاله الله على لسان رسوله •
 المصطفى : « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل »
 وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام » (٢) وما قاله الله أيضاً فيه على
 لسان أشعيا حيث بشر به ، وأخبر بقدومه : « هذا غلامى المصطفى •
 وحبيبى الذى ارتضت به نفسى » (٣) •

وما قاله هو عن نفسه حين تكلم فى مهده : « انى عبد الله آتانى
 الكتاب • وجعلنى نبياً • وجعلنى مباركاً أين ما كنت • وأوصانى بالصلاة
 والزكاة ما دمت حياً » (٤) •

فنحن نعرفه حق معرفته • ونؤمن بنبوته وشريعته ، ونحيل عليه
 الالهية ، اذ ليست من صفته « ما كان لبشر أن يؤتية الله الكتاب والحكمة »

(٢) المائدة : ٧٥

(١) المائدة : ١١٦

(٣) الاصحاح الثانى والأربعين من سفر أشعيا •

(٤) مريم : ٣٠ ، ٣١

والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين ، بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» (١) .

ثم انا نعرف ما ذكرناه من وصفه بأدلة كثيرة قاطعة ، وبراهين صادقة تخضع لها رقاب الجاحدين ، وتستضيء بنورها بصائر المبصرين .

واذا كان كذلك . فما استدلت به أنت على نبوة عيسى من كلام النبيين ان صح فهو زيادة في أنواع الأدلة ، لا في نفس اليقين . فلذلك لا نباحثك فيها ، ولا نبالي بك . أتجهلها أم تدريها ؟ على أنا لو ناقشناك في تلك الأدلة لأظهرنا لك فيها الفساد والعلة . ولكن ما لا يخالف غرضنا ولا يقتضيه . فما بالنا نطول أنفاسنا فيه .

* * *

الفصل السابع

هاجر أم اسماعيل الذبيح

من حكاية كلامه أيضا

قال : « وأنت أيها الانسان ، تجدوا في كتابكم ، في آل عمران :
« وأنزل التوراة والانجيل • من قبل هدى للناس » (١) » •

فأنت مقر بالتوراة والانجيل ، فاثبتوا دينكم من التوراة ، كما
اثبتنا نحن ديننا من كتب الأنبياء • واعلم أنه لا نقبل لكم من كتبكم
شيئا • فان قلت : من كتابك شيئا • قلت لك : كما قال رسولك :
(البيئة لمن ادعى ، واليمين على من أنكر) • فوجب عليك أن تثبت
دينك من التوراة والانجيل التي أنت مقر بهم ، وأنت مدعى : أن
كتابكم من الله فاثبتوه من التوراة بالعبراني ، ومن الانجيل بالعجمي •
كما أنتم مقرون •

وقولكم : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » (٢) •
فانى أطلبك من الكتب التي جاءت به الرسل ، كما قلت • فاثبت بما
ادعيت ، والا « يميني » لأنى أنكر لك ، ولا نقبل لك من النبوات والروايات
المرويات عن مسلم في كتابه الذي قال : « حدثنا سفيان عن الزهري ،
عن قتادة ، عن عائشة ، قالت : جاءت امرأة رفاعة الى الرسول • فقالت
له : كنت لرفاعة ، فطلقني ، فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير ، فتبسم
الرسول ضاحكا • وقال : (أتريدان أن ترجعي الى رفاعة ؟ لا • حتى
تذوقى عسيلته ، ويذوق عبد الرحمن بن الزبير عسيلتك) • وفي رواية
أخرى عن عائشة قالت : « طلق رجل امرأة ثلاثة فتزوجها رجل ، ثم
طلقها قبل أن يدخل بها ، وأراد زوجها الأول أن يتزوجها • فسئل
الرسول عن ذلك • قال : (لا • حتى يذوق الآخر من عسيلتها ما ذاق
الأول) •

فافهم • فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم • لأن المسيح يقول :
« لا ينبغي لرجل طلاق زوجته الا أن تزنى • وان زنت فلا يحل له
مراجعتها • ومن طلق امرأته فقد جعل لها سبيلا الى الزنى ، أعنى
من طلقها دون سبب • ومن زوج مطلقة فهو فاسق بها » (١) •

وأنتم تقولوا : لا يحل لزوجها مراجعتها الا أن تزنى • بدل أن
تتهوا عن الزنى تأمروا بالزنى • وهو عندكم فريضة التياس •

وأنا أريد قطع ذنب التيس ، وأن نجعله في ذقنه ، ليلوح استه
لمرة صرصر الشمال ، وحمارة قيظ هجير الجنوب •

وهذا جواب كلامك ، انتصافا منك ، كما يقول قرآنك • ومن انتصف
من بعد ظلمه فلا جناح عليه (٢) • فافهم •

ثم قلت في شعرك :

أراد النصارى ينصرون محالهم •••

فانصر أنت محالك • لأنك قلت بالسفه ، والطعن في ديننا •
وقلت الكذب على مسيحننا • كيف قلت ما لم تعلم ؟ وكيف تجرات أن
تتكلم ؟ واعلم أنك ان أرسلت بعد هذا بالشتم فانى أبعث الى كل بلد
كتابا بنص شريعتكم ، وبكل ما نعرف فيها من الأقاويل التى لا تقدر
على انكارها •

فافهم • لأنك قلت في المسيح : غث وأوطار ، وأنت سبيت الحاكم
عليك وعلى جميع الأمم يوم القيامة • لكن سوف تلقاه حاكما ليس يطلب
عليك بيعة • فان أرسلت بعد هذا بالشتم ، فانى أعرفك بشجرتك ما هى ؟
حتى تعلم من أنت ؟ واعلم أنى لم أريد في الأول شتم أحد • لكن
لما بعث الى أول كتاب بالسفه والسب • رددت له الجواب بأمة هاجر ،
ولم نقل فيها عشر ما قال الله فيها في التوراة • وعن ابنها فاسمع قول
الله عنها ، وعن ابنها :

(١) انجيل متى الاصحاح الخامس والاصحاح التاسع عشر •

(٢) يشير الى قوله تعالى : « وإن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم

من سبيل » (الشورى : ٤١) •

« رأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدت لابراهيم ، وهو يلعب • فقالت لابراهيم : ارمى هذه الأمة ، وابنها ، اذ ليس يرث هذه الأمة وابنها ، مع ابنى اسحق • فصعب على ابراهيم ما قالت له عن ابنه • فقال الله لابراهيم : لا يصعب عليك بكلام سارة عن الصبى ، وعن أمك • وجميع ما تقول لك سارة اسمع من قولها • فقال ابراهيم : هذا كلام الله الى قائلا : لا يرثك هذا •

ان الذى يخرج من صلبك هو يرثك •

ثم قال الله لابراهيم : باسمحق يتسمى نسلك « (١) » •

فافهم ترشد • واعلم • كيف قطع الله ورث اسماعيل وأمه فى قوله : « لا يرثك هذا » ثم قال عن اسحق : « الذى يخرج من صلبك » وكيف قال الله لابراهيم : « باسمحق يتسمى نسلك » ولم يقل : « باسماعيل يتسمى نسلك » •

فأخذ ابراهيم خبزا ، وجرة ماء ، وجعل على أكتاف الأمة ، وجعل اسماعيل على عنقها بالليل ، وأخرجها بولدها عن العمران • فتناست منه الأمة ، الذى قال فيها قرآنكم : « أشد كفرا ونفاقا » (٢) •

فافهم • والسلام على من اتبع الهدى ، وآمن بشريعة المسيح • حقيقة الايمان ، ورحمة الله وبركاته • • • • • كمل كلامه •

الجواب عما ذكر : اعلم يا هذا المخدوع ، المصروف عن المعارف ، الممنوع • الشاهد عليه جهله ، بأنه ليس بتابع ، ولا متبوع : انا نؤمن بالله وكتبه ، ولا نفرق بين أحد من رسله • فنؤمن بالتوراة والانجيل ، اللذين أنزلهما على رسولييه ، الملك الجليل • ولكن قبل أن يعتريهما التغيير والتبديل • وقد نبهنا على أن الكتاب الذى بأيديكم المسمى : بالانجيل عندكم ، لا يقال عليه : منزل بالحقيقة ، كما تقدم من تلك الطريقة • ثم انا نسلم جدلا صحة ما تدعونه من تلك النبوة ، ونبين صحة نبوة نبينا منها عن كتب •

(١) تكوين الأصحاح الحادى والعشرون • والقسيس ذكر النص الى اسحق ولم يذكر بقية النص عن اسماعيل وهو « وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك » (تك ٢١ : ١٣) •

(٢) الأشد كفرا ونفاقا هم الأعراب (التوبة ٩٧) •

فأما قولك « واعلم أنا لا نقبل من كتبكم شيئاً » فليس ذلك بأول عنادكم ، فكم لكم منها • وكم « شنشنة أعرفها في أخزم » •

لكنكم • لستم عند العقلاء أهلاً لقبول حق ، ولا لرد باطل • فليس ردكم بأولى من قبولكم • وهكذا فعل الرعاع الغثر ، الغشاء الغبر • يقلون بغير دليل ، ويردون بغير حجة ، ولا سبيل •

والا فما الدليل الذى أوجب عندكم • ألا تقبلوا نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم مع وضوح معجزاته ، وعدالة بيناته • على ما نبينه ان شاء الله تعالى ؟

فظهر من هذا أن ردكم لديننا ليس بدليل • وانما هو لأجل اتباع قول كل جهول دخيل • يحكم على عقله هواه ، ويطيح معه حيثما رماه •

ولأجل ذلك صار دينكم ضحكة العقلاء ، مشتملا على كل مقالة شنعاء • ومن كان هذا منهج سبيله ، فردده لغير معنى ، بمثابة قبوله •

ولقد كان ينبغي لك ، لو كنت على سنن النظار ، أهل البحث عن الحق والاعتبار أن تحكى ديننا ، وتستدل بزعمك على فسادك ، كما قد فعلنا نحن بدينكم • اذ بينا تناقضه ، وعدم سداكه • على أنه قد تبين الصبح لذى عينين • ووضحت الشمس لسليم الحاسنين •

ما ضر شمس الضحى في الجو مشرقة
ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

ثم قلت متواقفاً في قولك ، مستهزئاً برسول ربك « فان قلت من كتابك شيئاً قلت لك كما قال رسولك : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » أما قولك « رسولك » فنعم هو رسول الينا واليك ، فأما وكفرت ، وصدقنا وكذبت « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » (١) • فنحن نقول : « رضينا بالله رباً ، وبمحمد رسول الله : رسولا • وبالإسلام ديناً » وأما أنت • فان مت مصراً على تكذيبك فليدخلنك الله النار ، وليدخلنك في دار البوار ، فلا تنتفع بشفاعه ملك مقرب ، ولا بنبي مختار • وأما طلبك البينة على صدقه ، فكفاك شهادة

الأنبياء العارفين بحقه ، المخبر عنه بلزوم تصديقه وصدقه ، وسنبيته .
ذلك بأبلغ بيان • وأوضحه بأوضح برهان •

وعلى سبيل الاستعجال يكفيك بينة عدله ما وقع في صحف النبي .
دانيال حيث وصف الكذابين ، وقال : « لا تمتد دعوتهم ، ولا يتم .
قربانهم • وأقسم الرب بمساعدته أن لا يظهر الباطل • ولا تقوم لدع
كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة » (١) •

وهذا دين محمد رسولنا صلى الله عليه وسلم قائم منذ ستمائة .
سنة ونيف • فكيف ترى هذه البينة المحسنة ؟ أمعدة عندك أم مجرحة ؟

وكذلك في صحف النبي حقيق ، وهو الشاهد المعظم الموثوق •
قال : « جاء الله من التيمن ، وتقديس من جبال فاران ، وامتلات الأرض
من تحميد أحمد (٢) ، وتقديسه ، وملك الأرض بهيته » • وقال أيضا :
« تضىء له الأرض ، وستتزع في قسيك اغراقا ، وترتوى السهام .
بأمرك • يا محمد » (٣) •

فيذا النبي الصادق المصدق قد أفصح بنعته ، وصرح باسم بلده ،
وشهد بصدقه ومن كان الأنبياء شهوده ، فقد استحق مكذبه عذابه .
النار وخلوده • فلعنة الله والملائكة والناس أجمعين على من تبين له
الحق ، ثم صار عنه من المعرضين ، وسنعتقد في النبوات فصلا مفردا ،
ونأتى فيه بالعجائب حتى يتبين فيه توافق كل طاعن عائب •

وأما قولك « وأنت تدعى أن كتابكم من الله » فإن كنت تنكر ذلك .
فادع عصابتك البلغاء من نصارى نجران ، المتكلمين بلغة القرآن ،
ليعارض بسورة من مثله • فإن فعلوا ذلك دحضت حجته ، وانقطع
عظيم قوله • لكنهم لما سمعوا منه القرآن تحققوا على القطع : أنه
ليس يقدر عليه أحد من الانس والجان • وعلموا أنه كلام الملك الديان •
فآمنوا وصدقوا لما عرفوا وحققوا ، فحصلوا على فضل الملتين ، وآتاهم
الله أجرهم مرتين •

(١) ليس في سفر دانيال بل في الزبور بما معناه •

(٢) « وامتلات الأرض من تسبيحه » في ترجمة ١٩٧٠

(٣) بدل يا محمد : مسيحك في ترجمة ١٩٧٠ (انظر تقديمنا لهذا الكتاب)

« وأما قولك » فاثبتوه من التوراة بالعبرانى ، ومن الانجيل بالعجمى « هل تعلم أنا لولا كره منا أن نتكلم برضانة العجم لكان ذلك علينا أيسر شئ • يلتزم • ولكننا ان شاء الله تعالى نذكر كلام الأنبياء من كتبكم كما قد ترجمها المترجمون من أهل ملتكم مثل « يرونم » و « حفص ابن البر » وغيرهما من المترجمين ، الذين تثقون بقولهم ، وتعولون على نقلهم ، ولست أفعل مثل ما أنت فعلت ، ولا أصنع شيئاً مما صنعت حيث نقلت كلام الأنبياء بالعبرانى والعجمى ، ثم انك شرعت فى ترجمته ، وفى تفسيره من غير أن تتسبب التفسير الى أحد المترجمين العالمين بالمعانى ، وباللغات ، ومواقع الألفاظ • وأما أنت فلست بموثوق بنقلك ، ولا مصدق فى قولك لجهلك بالشروط التى يحتاج اليها المترجمون • واذا ادعيت أنك لست جاهلاً • فما حد الترجمة ؟ وحقيقتها ؟ وما شروطها ؟ وكم أقسامها ؟ وما المحل الذى تجوز فيه من الذى لا تجوز ؟ وبهذا السؤال يظهر جهلك وتبلدك وحصرك وتوددك •

ثم قلت « فائت بما ادعيت ، والا يمينى لأنى أنكر » ها أنا قد أقمت البيّنات العدول الذين ليس لقائل فى عدالتهم ما يقول • ولقد أعلم مع ذلك أنك تبادر باليمين ، وتباهت المسلمين • اذ قد تقولت بالكذب والزور ، على رب العالمين ، ثم ذكرت على جهة الاستهزاء والتنقيص والازدراء والتخريص ، حديث امرأة رفاعه لتقبح بذلك ديننا ، وتتسبب اليه شناعة ، وأنت مع ذلك لم تعرف معناه ، ولا فهمت فحواه •

ثم قلت بعد أن أخللت بمساقه ، ولم تقمه على ساقه : « فمثل هذه النبوات لا نقبلها منكم • لأن المسيح يقول : « لا ينبغي لرجل طلاق زوجته الا أن تزنى » فلتعلم أن هذا كلام جاهل بأحكام الأنبياء ، ظان أن أحكام الشرع صفات لأعيان الأشياء • ثم تستمد من انكار الناسخ والمفسوخ ، وكلام كل جاهل مردود مفسوخ •

فنقول لهذا المنكر الجاهل ، الذى ليس بمشرع ولا عاقل : منعك طلاق الرجل زوجته ورده اياها بعد طلاقها • لا يخلو اما أن يكون منعاً من جهة العقل أو من جهة الشرع • فاذا ادعيت أنه من جهة العقل كانت دعواك باطلة بالضرورة • فان صور هذه المسائل ووجودها معلوم بالضرورة ، فاذا بطل أن يكون امتناعها من جهة العقل فيجوز أن توجد واذا جاز أن توجد فكيف ينبغي لمن ينتسب الى العقل أن ينكر

خبوة من قامت الأدلة القاطعة على صدقه من حيث أنه حكم بشيء
يصح في العقل أن يوجد •

ثم من العجب العجيب الذى يستعظمه أولو الألباب : أنكم التزمتم
في شرعكم بما يشهد العقل الأول بفساده مثل قولكم في الأقانيم :
« انها آلهة ثلاثة • اله واحد » وقلتم في الاتحاد والحلول ما يعلم
فساده بضرورة العقول ، ثم لم ينفركم ذلك عن اتباع شرعكم • بل
يقول من يميز استحالة ذلك القول منكم : هذا مما ليس يدرك بالعقول ،
بل يتبع فيه الكتاب المنقول • ثم بعد التزام هذه المحالات والمدافعة
عنها بالترهات والخرافات تتكرون علينا فعل شيء تجوزه العقول ، ولم
تتصر اليه الا بعد ثبوت الشرع المنقول الذى دل على صحته البرهان
المعقول • فأنتم من الجهل والزلل ، كما جرى من كلام النبوة مجرى
المثل : « يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه ، ولا يبصر الجذع في
عينه » (١) وانما كان ذلك كله للمعنى الذى نبه الشاعر عليه هنالك :

عيون الرضا ، عن كل عيب كيلة

ولكن عين السخط تبدى المساويا

فلو وفقتم لطريق الانصاف ، لتركتم طريق التعصب والاعتساف •
ولو كنتم تطلبون الحق بدليله ، لأوشك أن يرشدكم الى سبيله ، ولكن
من حرم التوفيق استدبر الطريق ، ونكل عن التحقيق •

وان ادعيت أن ذلك ممنوع من جهة الشرع • فنقول لك : اما أن
يكون ممنوعا من جهة الشرائع كلها ، أو من بعضها • فان قلت : انه
ممنوع من جهة الشرائع كلها • كان ذلك باطلا • اذ الشرائع في ذلك
مختلفة • فان المعلوم من شرع التوراة في ذلك خلاف شرعكم • وكفى
بدليلا على أن التوراة تخالفكم في ذلك أول الكلام الذى حكيتة عن
المسيح أنه قال : « أما علمتم أنه قيل للمقدماء من طلق امرأته فليكتب
لها كتاب طلاق • وأنا أقول من طلق امرأته • فقد جعل لها سبيلا
الى الزنا » فهذا تصريح بين ما أنكرته علينا ، وتنقصت به شرعنا •
وكما جاز أن يخالف عيسى عليه السلام بعض أحكام التوراة ، ولا يدل
هذلك على كذبه ، ولا على فساد شرعه كذلك يجوز أن يخالف شرعنا

شرع عيسى وموسى فى بعض الأحكام ، ولا يدل ذلك على فسادهم • اذ كل واحد منهم انما يبلغ حكم الله ، وليس مخترعا حكما من قبله • ثم قد تختلف الأحكام والأوضاع بحسب ما يريد الله تعالى ، وبحسب ما يعلمه من اختلاف الأحوال ، والمصالح •

والأصل فى ذلك : أن الله تعالى لا حجر عليه فى أفعاله • ولا راد لشيء من أحكامه ، فيحل لعباده ما شاء ، ويحرم عليهم ما شاء ، « لا يستل عما يفعل ، وهم يستلون » (١) • وهذا بين بنفسه ، لا يجله • الا من كان عديم حسه (٢) •

ثم قلت « وأنتم تقولون لا يحل لزوجها مراجعتها الا أن تزنى بدل أن تنهوا عن الزنى تأمروا بالزنا » اسكت • ففى الله فاك • فما أكذبك وما أجفاك • تتقول علينا بما لا نقول • وتتصرف فى شرائع الأنبياء تصرف متواقع جهول ، كما فعل أشياعكم من قبل •

اسمع يا لكع ، على أنك لا تحسن أن تسمع • اعلم أن هذا الذى ظننته بجهلك زنا ليس بزنا • لأن الزنا حقيقته (ايلاج فرج فى فرج محرم شرعا ، مشتهى طبيعا) وهذه الحقيقة معدومة فى الذى توهمت أنه زنا • فان قلت : ان كانت هذه الحقيقة معدومة عندكم ، فليست معدومة عندنا • فان هذا الايلاج محرم عندنا ، فهو زنا • قلنا لك : ان كان قد ثبت تحريم ذلك عندكم فقد ثبت تحليله عندنا • فان الله تعالى يحل لعبيده ما يشاء ويحرم عليهم ما يشاء •

وهذا كما أحل الله لموسى من الطلاق ما حرمه على عيسى (٣) • ثم كيف يمكن لعاقل أن ينكر مثل ذلك وقد ثبت أنه أحلت فى بعض الشرائع فروج ، وحرمت فى شرع آخر • فقد ثبت : أن البطن الأول من أولاد آدم أحلت لهم نكاح الأخوات ، ثم حرمت على من بعدهم من الشرائع • وقد جاء فى التوراة أن يعقوب نكح أختين : « راحيل » و « ليئة » وجمع بينهما ، وحرمهما على غيره • والجمع بينهما فى

(١) الانبياء : ٢٣

(٢) لم يظن المؤلف الى أن كلام المسيح للارشاد وليس للالزام بدليل انه قال فى نهاية الحديث : « من استطاع أن يقبل فليقبل » (متى : ١٩٠) •
(٣) بحسب المكتوب والا فان دين عيسى هو دين موسى لأنه ما جاء للنسخ بل للاصلاح •

النكاح محرم عندكم وقد فعل الله ذلك في أحكام آخر على ما يعرف من أحوال الشرائع واختلافها في بعض الأحكام وإنما يتحقق هذا المعنى على اليقين من يعلم أن حقيقة الحكم الشرعى هى : خطاب الشرع المتعلق بأفعال المكلفين على جهة الاقتضاء أو التخيير • فعلى هذا لا معنى للحكم الا قول الشارع : افعلوا • أو : لا تفعلوا • أو : ان شئتم فافعلوا • وان شئتم فاتركوا • على ما يعرف في موضعه •

ثم هذا الذى عبته علينا — أيها الجهول — له معنى صحيح في العقول ، جار على منهاج المصالح المعقول • وذلك أن الله تعالى إنما شرع الطلاق ليتخلص الرجل من نكد المرأة وأسوها ، رفقا بنا ، ورحمة منه علينا • فقد تكون غلا قملا ، تضر بالرجل ضررا حقبا ، لا يمكن أن يطلع عليه أحد ، فلا تجبر على ازالته ، لكونه لا يتحقق من جهتها ، فجعل للرجل أنه متى شاء أن يتخلص منها ، ومن ضررها فعل •

وأىضا • فلكون النساء في الغالب ناقصات عقل • فلو علمت أن الرجل لم يجعل له سبيل الى مفارقتها ، لما كانت تحترمه ، وبادرت الى ضرره • فأراد الشارع أن يجعل للرجل سببا يحترم لأجله وهو الطلاق • فان المرأة اذا علمت أنها ان بالغت في ضرر زوجها • طلقها امتنعت من ضرره في الأكثر •

فان عورضنا وقيل لنا : فيلزم على ذلك : أن تطلق المرأة نفسها متى شئت ، فان الرجل قد يضر بها ضررا لا يطلع عليه أحد • فان راعيتهم وجود الضرر ، وتوقعه في حق الزوج فلم لم تراعه في حق الزوجة كذلك ؟ فنقول : إنما لم تراعه في حق المرأة ، لأنها لو جعلنا للمرأة أن تطلق نفسها متى شئت ، لما استقرت امرأة عند زوجها في غالب الأمر • لأنهن ناقصات عقل ، فلا يؤمن عليهن غلبة شهواتهن على عقولهن (١) •

وان فتح هذا الباب طراً منه من الضرر ما لا ينسد ، ولا يتدارك • فسد هذا الباب في حق النساء لهذه الحكمة ، وفتح في حق الرجال ليزول عن أعناقهم غل الضرر والنقمة • والله أعلم •

(١) قد جعل الله للنساء الخلع • وبعض الفقهاء يرى أن المرأة تطلق الرجل اذا اشترطت العصمة بيدها وقت العقد عليها •

وأما ما عابه أيضا : من أن المطلقة ثلاثا لا تحل إلا بعد زوج، فذاك أيضا له معنى معقول مناسب • وذلك أن الطلاق — وإن كان الله قد أباحه لنا — فهو من قبيل المكروه من غير سبب ، من حيث التقاطع والتدابير المنهى عنهما • ولأجل هذا قال نبينا عليه السلام : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) فأطلق عليه لفظ « البغض » مشعرا بالكراهة ، وأطلق لفظ « الحلال » مشعرا بجوازه • فحصل لنا من مفهومه : أنه يجوز على كراهة •

فإذا تقرر أنه مكروه من الوجه الذى ذكرناه ، فينبغى ألا يفعل • ثم إن فعل — ولا بد منه — فلا يكثر منه • ثم إن كثر منه فلا يزداد على المرتين • فإن تعداهما ، عوقب بأنه لا تحل له إلا بعد زوج فكانت الحكمة فى ذلك : أن الزوج إذا علم أنه إذا أكثر من هذا المكروه الذى هو الطلاق عوقب بتفويت زوجته عليه ، وتملكها غيره ، امتنع من تكثير المكروه الذى هو الطلاق ، ثم لا يظن الجاهل بنا : أننا نجبر الزوج الثانى على طلاقها ، حتى يرجع إليها الأول ، حاشى الله • وإنما الزوج الثانى يملك منها ما يملكه الأول ، فإن شاء طلقها ، وإن شاء أمسكها •

ثم إن طلقها اعتدت منه ، وجاز للأول أن يتزوجها تزويجا مستأنفا. إن شاء ، ولا يجوز عندنا أن يتزوجها الثانى ليحللها للزوج الأول • فإن فعل كان نكاحه فاسدا ، وهو الذى نسميه المحلل ، وهو الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم : (لعن الله المحلل ، والمحلل له) •

فإن سماه مسم « تيسا » فعلى جهة الذم لفعله •

فإذا تقرر هذا المعنى ، الذى لا يمنع العقل ، ولا تنافيه مكارم الأخلاق ، بل هو على منهاجها وعلى سنتها • فكيف ينبغى لعقل منصف غير متواقح ، ولا متعسف أن يتقول علينا : انا نقول : لا يحل لزوجها مراجعتها إلا أن تزنى ، ولو كنت يا هذا من أهل العقل الذين تبرأوا عن السفه والجهل ، لما كنت تشبه نكاحا على وفق شريعة صحيحة ، بحسب دلالة أدلتها القاطعة مع أن هذا النكاح ، وقع بولى ومهر وشهود واعلان : بنكاح الزنا الذى ليس فيه ولى ، ولا مهر ، ولا شهود ، ولا اعلان • وإنما يقع الزنا مخالفا للشرائع ، عريا عن الشهود والولى ، مستورا • فهذا تشبيه • يدل على عناد وتمويه •

ثم قلت « بدل أن تنهوا عن الزنا تأمروا به ، وهو عندكم فريضة .
التيس » هذا التشنيع باطل ، وقول غبي جاهل ، وتهويل ليس وراءه
حاصل . وقول الزور والأباطل ، قصد به قائله ، استئلال العوام .
وليكره لهم دين الاسلام « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله
مهم نوره ، ولو كره الكافرون » (١) ولقد صدق الله عبده ، وأنجز وعده ،
« ومن أوفى بعهده من الله » (٢) .

اعلم يا هذا المفتري الكذاب ، والمشنع المرتاب : أن العقلاء لا
يرضون بما فعلت ، ولا يأتون بمثل ما به أتيت . وذلك أنك جهلت
شرعنا ، وكذبت عليه ، وعميت عليك مقاصده فنسبت الزور والفحش
اليه . وانما كان ينبغي لك — لو كنت على سنن العقلاء ، أهل
السياسة الفضلاء — أن تبحث عن أدلة صحة هذه الشريعة ، وعن صدق
الذي جاء به . فان كانت أدلتها صحيحة وجب عليك أن تقبلها جملة
ولا ترد منها شيء ، وتكون واحدا ، ممن التزمها ، وان لم تظهر لك
صحة أدلتها فناظر أهلها في تلك الأدلة ، ولا نتعدها الى غيرها وباحثهم
فيها مشافهة . فان المخبر ليس كالمعائن ، فلو لم يقدرُوا على أن يحتجوا
لدينهم ولا أن يقيموا دليلا على صحة شرعهم وجب عليك رد تلك
الشريعة من أولها . وهذا دأب الموفقين ، لا الكذابين المشنعين .

ثم قلت « وأنا أريد قطع ذنب التيس ، وأن نجعله في ذقنه ليلوح
استه ، لمعة صرصر الشمال ، وحمارة قيظ هجير الجنوب » .

يا هذا التيس . وأي ذنب سائر للتيس ؟ أتظن أنك تتفصح
وتستعير ، وأنت لا في العير ، ولا في النفير ؟ وكيف تظن السلامة
من الحَقِّق والبؤس ، بمن يجهل كيفية أذنان التيس ؟ أم كيف يبالي
بتفصحه وجعاجعه ؟ وهل هو في ذلك الا بمنزلة من جهل عدد أصابعه ؟
ولولا أن شرعنا منع من السباب ، ولا يلحق ذلك بأولى المروءات والآداب ،
لأقذعتك سبا . ولأوجعتك عتبا . ومع هذا :

* نجا بك لومك منجى الذباب

حمته مقاديره أن ينالا

* لا أسبنكم • فلسستم بسبى

ان سبى من الرجال : الكريم

ثم قلت « وهذا جواب كلامك ، انتصافا منك ، كما يقول قرآنك •
ومن انتصف من بعد ظلمه ، فلا جناح عليه » •

يا هذا شأنك يحار فيه التحرير ، وجهك يتعجب منك الصغير ،
والكبير • كيف لا • وكلامك هذا يشهد عليك بجهلك بانجيلك ، وبمخالفتك
حكمه ، وشرع رسولك • كيف يحل لك في شرعك ، أن تنتصف ممن ظلمك ،
وتشتتم من شتمك • وانجيلك يقول لك : « لا تكافئوا أحدا بسيئة ، ولكن
من لطم خدك اليمنى ، فانصب له اليسرى • ومن أراد مغالبتك ،
وانتزاعك قميصك فزده أيضا رداءك » ؟ (١) فهذا انجيلك يشهد عليك
بأنك لست على شرعه ، بل رددت حكمه • وعملت على رفضه •

واذا كان شأنك هذا مع كتابك • فكيف يرتجى فلاحك ، من ليس
من أحبابك ؟ ثم العجب العجيب • تركت كتابك ، والعمل به ، ثم أخذت
تعمل بكتاب لا تصدق بأصله • فهذا يعلم من حالك أنك لست تريد
أن تتبع الحق ، ولا أن تبحث عنه • ولكنك اتبعت هواك فأضلك • وأطعت
الشیطان فأزلك • ثم من أدل دليل على جهلك ومغالطتك : أنك أوهمت
أنك تعرف القرآن ، وأنت تحتاج علينا به • ثم ذكرت ما ليس بقرآن
حيث قلت : « ومن انتصف من بعد ظلمه فلا جناح عليه » وهذا ليس
« بقرآن • وإن كان يشهد بمعناه القرآن •

وليس القرآن عندنا بمجرد معناه فقط • بل بلفظه المخصوص ،
ومعناه وأسلوبه الذى أعجز الأولين والآخرين ، فعلى هذا المعنى ان
تترجم بلسان آخر ، أو عبر عن معناه بغير لفظه وأسلوبه خرج عن
كونه قرآنا • فافهم ، وما أدراك تحسن •

ثم قلت « فانصر أنت محالك ، لأنك قلت بالسفه والطعن في
« ديننا ، وقلت الكذب على مسيحنا » •

انظر هذا الكلام الفصيح • الجهالة على قائله تلوح • فلقد عدم
هذا الكلام : الانتظام والارتباط فوجب له لأجل ذلك الالغاء والاسقاط •

وأما ما ذكرت من تسفيه دينك ، والطعن عليه • فذلك واجب على العقلاء •
اذ قد تبين بدليل العقل الذى لا يشك فيه : أنكم قد تمذهبتم بكل •
مقالة شنعاء • وقد بينا ذلك فيما تقدم •

ثم ان الطعن على دينكم ليس طعنا على دين المسيح • فانكم
لم تتدينوا بدينه ، ولا عرفتم حقيقة يقينه • بل تخرصتم عليه بالأباطيل •
وقبلتم عليه قول كل متوآقح جاهل • فما لكم وللانتساب للمسيح •
وهو مبرأ عن كل قبيح ، بل هو ساخط عليكم ، وبراء الى الله منكم •
وقد بينا ذلك فيما تقدم ، وسيأتى ان شاء الله تعالى بمزيد يبطل قولكم
فيه ويهدم •

وأما ما نسبت الينا من الكذب على المسيح ، والسب له • فذلك
والله شىء لا نفع له ، ولا يرضى بذلك متدين ولا عاقل • وكيف يجوز
هذا علينا ونحن نكفر من سبه ، أو سب أمه عليهما الصلاة والسلام •
وهذا عندنا أصل من أصول عقائدنا ؟ وذلك أن الله تعالى أخذ علينا
من الميثاق : أن نؤمن بجميع الأنبياء والرسل ، ولا نفرق بين أحد منهم •
وهو عندنا من أكرم الرسل • فكيف نسبه أو نكذب عليه ؟ وفى فعل ذلك
خروج عن دين الاسلام ، وتمسك بفعل الجاهل الطغام • بل أنتم
الذين كذبتهم عليه ، ونسبتهم ما تحيله العقول اليه • وهو يتبرأ من
ذلك • ويتصل مما افتريتهم عليه هنالك • ثم أضفتهم مع ذلك من العيب
والتقصيص على الله تعالى ما يعلم على الضرورة والقطع أنه محال •
فنجن واياك على المثل السائر : « رمتى بدائها ، وانسلت » •

ثم قلت « واعلم أنك ان أرسلت بعد هذا بالشتم • فانى أبعث
الى كل بلد كتابا بنص شريعتكم وبكل ما نعرف من الأقاويل التى
لا تقدر على انكارها » •

لولا أن السب منهى على الاطلاق ، وليس من مكارم الأخلاق ،
لأكثر من سبك ، ولأوغلت فى لومك وعتبك ، ولو كان ذلك لما كذبت •
ولا افتريت • وانما كنت أفعل ذلك لأظهر بذلك باطل تمويهك ، ومغالطة
تهويلك • ومن أين لك أن تعرف ديننا ؟ وأى طريق يوصلك اليه ؟
وبأى لسان تتمكن منه ؟ وبأى فهم تتوصل الى معناه ؟

ها أنت لا تعرف دينك ، الذى نشأت عليه • فكيف بك أن تعرف
ما لم تفهم منه حرفا ، ولا سمعته على وجهه • اللهم الا أن تقولت •

بما ليس لك به علم ، كما قد فعلت في فريضة « الثياس » فلا يعدم أحقق مخرق ما يقول •

وأما ان ذكر شريعتنا من يعرفها ، فالعقول السليمة تقبلها بنفسها . ما تسمعها ، لشدة ارتباطها وحسن نظامها ، وليست كشريرة من يعتقد الها آخر مع الله ، ويعتقد في الله ما يستحيل عليه وينسب الى الأنبياء ما يتبرأون منه ، ويحكمون بأهواء جهالهم في دين الله • وسنعتقد اثر هذا ان شاء الله بابا نبين فيه : جملا من أحكامهم ، وفيها يتبين أنكم لا تستندون فيها الى مستند • وأنكم اخترعتم فيها من الجهالات ما لم يقل به أحد •

ثم قلت « لأنك قلت في المسيح غث وأوطار ، وأنتك سبيت الحاكم عليك ، وعلى جميع الأمم يوم القيامة ، لكن سوف تلقاه حاكما ، ليس يطلب عليك بينة » •

وكم من عائب قولنا صحيحا .

وأفاته : من الفهم السقيم

لتعلم يا هذا • أنى وقفت على الكتاب ، الذى جاوبك بعض أصحابنا ، وتأملت هذا الموضع الذى لم تفهمه ، فعلمت أن الخطأ من قبل فهمك ، لا من قبل الكاتب • وذلك أن لفظ ما كتب به اليك في هذا الموضع : « شجرتنا نبوية ، فروعها قرشية ، ثمرتها هاشمية ، شجرتك غطاء ، وأوضار » اجتثت من فوق الأرض ، ما لها من قرار » (١) هذا نصه •

وكان ينبغى لك أن تفهمه لو كنت منصفًا • فان هذا الكلام انما جرى مجرى المثل • وانما أراد بشجرتنا نبوية : أن أصل اعتقادنا : أن محمدا نبى ورسول ، ليس باله ، وأصل اعتقادكم أنتم : أن عيسى اله ، وليس بنبى • وهذا قول باطل ، واعتقاد فاسد • ولذلك عبر عن أصل هذا الاعتقاد بالشجرة • ثم قال : انها غطاء وأوضار • فالمسبوب المذموم ، انما هو اعتقادكم في عيسى ، لا عيسى • حاشى وكلا • فهكذا ينبغى أن تفهم الكلام ، ولا تبادر لأجل الجهل باللام • فالمعلوم على تكل حال هو الجاهل • الذى ليس يفهم ، ولا عاقل • وحين وقفت على

بكلامك هذا • هممت أن لا أكاتبك ، لكونك قليل الانصاف كثير الجهل
والانحراف •

ولقد أعرف أنك اذا وقفت على كتابي هذا : لا تفهمه • ومع ذلك
فتبادر الى رده ، مكابرة ومجاهرة • وتتناوله بالرد والقبیح ، وبكل
قول ليس بصحيح • وقد حكمت بيني وبينك العقلاء المتدينين الفضلاء ،
الذين يعترفون بالحق حيث كان ، ولا يعرجون في قبوله على انسان •

وأما قولك « الحاكم عليك ، وعلى جميع الأمم » فقول ليس بصحيح ،
ولا أهم • وانما الحاكم على كل الأمم ، وكل المخلوقات الذي أوجدها بعد
أن لم تكن ، ثم يعيدها ، كأن لم تكن ثم يعيدها • كأنهما برحت
« قل فمن يملك من الله شيئاً • ان أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ،
ومن في الأرض جميعاً ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما » (١) • • •
الآية •

وأما قولك : « ستلقاه حاكماً ، ليس يطلب عليك بيعة » فقد نسبتموه
الى الجور • فانه اذا لم تقم بيعة على المحكوم عليه عندنا وعندكم ،
ونفذ الحاكم الحكم نسب الى الجور • فاذا قامت البيعة زال عنه توهم
الجور • وظهر معيار العدل • وعند سماع هذا يتحقق معنى المثل
المعروف « عدو عاقل ، خير من صديق جاهل » •

فان العدو العاقل يذعه عنك عقله ، والصديق الجاهل يريد نفعك
فيضرك • وأنت بجهلك أردت أن تعظم المسيح ، فنقصته ، وأن تمدحه
فدسمته ، فعل السفية الإحمق الجاهل •

وأنا أقول : ستلقونه بين يدي الله تعالى • فان اعترفتم بقولكم
فيه ، جوزيتم على ذلك بجزاء سترونه عياناً • وان أنكرتم قولكم فيه •
يقول الله لجوارحكم : انطقى • فتشهد عليكم بأقوالكم وأفعالكم •
فهكذا يظهر العدل ، ويعلم كل مكلف أنه محاسب بما عمل من خير
أو شر ومجزى عليه •

ومما يدل على أن الله تعالى انما يأخذ بالبينات يوم القيامة :
أنه قد ثبت على لسان من دلت المعجزة على صدقه : أن الله وكل بنا

كراما كاتبين ، يكتبون ما نفعل : فهم الشهود العدول الذين ليس لطاعن عليهم ما يقول • وستقدم • فتعلم •

ثم العجب من جرأتك أنك سببت خليل ربك حيث قلت « رشح الجلد المدبوغ في قصرية هاجر » (١) هذا لابراهيم ذم صريح ، صدر من جاهل وقبيح • هنا يرد عليك قولك : كيف قلت ما لا تعلم ؟ وكيف تجرمت في خليل الرحمن أن تتكلم ؟ وستلقاه • يناضل عنه الله •

ثم من ركيك الاستعارة : أن الذى ذممت به اسماعيل • يلزم منه ذم اسحق ، والذى ذممت به هاجر ، يلزم منه ذم سارة • فان الجلد الذى رشح في قصرية هاجر ، هو الذى رشح في قصرية سارة • وأصل النطفة التى كان منها اسماعيل ، هو بعينه الذى كانت منه نطفة اسحق • وهذا كله ذم لابراهيم ولعن • فقد حاق بك ، وبمن قال بقولك « لعنة الله » التى قال فيها لابراهيم في التوراة « وألعن لاعنيك » (٢) ثم أعجب من ذلك كله اعتذارك عن قبيح ما أتيت ، حيث قلت : « لما بعث الى أولا كتاب بالسفه والسب رددت له الجواب بأمه هاجر » •

فكأنك قلت : لما سببتنى أنت ، أسبب أنا هاجر ، التى اذا سبت ، تعدى سبها الى سيدها ابراهيم • ثم انك صرحت بسب ابراهيم ، فلزمك على ذلك : سب اسحق ، وأمه سارة فأنت في هذه الفعلة بمنزلة من سبه رجل في وجهه ، فأخذ المسبوب ينكل الساب بأن يسب أباه نفسه ، أعنى نفس المسبوب • وهذا ما لا يرضى به عاقل ، ولا متدين جاهل •

ثم قلت بعد ذلك عهدا لغدرك القبيح ما قلت هنالك « ولم تقله فيها عشر ما قال الله في التوراة ، وعن ابنها » وهذا القول منك يوهم أن الله تعالى ذمها وابنها في التوراة ، وهذا على الله ، وعلى كتابه : كذب صراح وكفر براح ، ثم ذكرت بعض قصه هاجر مع ابراهيم ، ولم تسقها بكمالها لئلا تفتضح وتظهر كذبك وخزيك •

(١) قوله هذا : لم يذكر في صدر الفصل •

(٢) التكوين ١٢ : ٣

وها أنا أذكر قصة هاجر مع سارة كما حكاه كتاب التوراة حتى
يبتين للواقف على هذا الكتاب : أن الله تعالى أثنى على هاجر وابنها
بومدحها وما ذمها ، بل أخبر بنبوتها أو صديققتها ونبوة ابنها اسماعيل
بحول الله •

قال في التوراة^(١) : « ان سارة امرأة ابراهيم لم تكن تلد له •
وكانت له أمة مصرية يقال اسمها هاجر فقالت سارة لابراهيم : ان الرب
قد حرمنى الولد ، فادخل على أمتى ، وابن بها ، لعلى أرزق بولد منها ،
فسمع ابراهيم قول سارة وأطاعها • فانطلقت سارة امرأة ابراهيم
بهاجر أمتها المصرية وذلك بعدما سكن ابراهيم أرض كنعان عشر سنين ،
فأدخلتها على ابراهيم زوجها فدخل ابراهيم على هاجر فحبلت ، فلما
رأت أنها قد حبلت ، استسفحت وزرت بسيدها ، وهانت فى عينها فقالت
سارة : يا ابراهيم : أنت صاحب ظلامتى • أنا وضعت أمتى فى حضنك ،
فلما حملت هنت عليها ، يحكم الرب بينى وبينك • فقال ابراهيم لسارة
امراته : هذه أمتك فى يدك فاصنعى فيها ما أحببت ، وحسن فى عينيك ،
وسرك ، ووافقك •

فأهانته سارة سيدتها ، فهربت منها ، فلقبها ملاك الرب على عين
ماء ، فى البرية ، فى طريق جرار ، فقال لها يا هاجر أمة سارة : من أين
أقبلت ؟ وأين تريدان ؟ فقالت : أنا هاربة من سارة سيدتى • فقال لها
ملاك الرب : انطلقى الى سيدتك ، وتعبدى لها • ثم قال لها ملاك الرب
عن قول الرب : أنا مكث زرعك ومنميه حتى لا يحصوا من كثرتهم •
ثم قال لك الرب : انك حبلى ، وستلدين ابنا ، وتدعين اسمه اسماعيل ،
لأن الرب قد عرف قلبك وخضوعك ويكون ابنك هذا وحشيا من الناس •
يده على كل • ويد كل به • وسيحل على جميع حدود اخوته • فدعت
اسم الرب الذى كلمها • فقالت : أنت الله ذو الوحي والرؤيا » أ • ه

هذا ذكر الله لهاجر وابنها فى السفر الأول فى التوراة فى الاصحاح
«السادس عشر»^(٢) منها وذكرها أيضا فى الاصحاح الحادى والعشرين^(٣) •

(١) أول الاصحاح السادس عشر من سفر التكوين •

(٢) المخطوطة : «التاسع» •

(٣) فى المخطوطة : «الثالث عشر» •

وقالت التوراة : « أبصرت بسارة ابن هاجر المصرية المولود لابراهيم يستهزئ » • فقالت لابراهيم : أخرج هذه الأمة وابنها • لأن هذا ابن الأمة لا يرث مع ابني اسحق ، فشق هذا الأمر على ابراهيم لكان ابنه • فقال الله لابراهيم : لا تشقن لحال الصبي وأمتك • أطع سارة • في جميع ما تقول لك • لأن نسلك انما يذكر باسمك • وابن الأمة أجعله أباً لشعب كثير • لأنه ذريتك • فغدا ابراهيم باكرا • فأخذ خبزا واداة • فأعطاهما هاجر وحملها الصبي والطعام • وأرسلها ، فانطلقت وتاهت • في بركة بئر شبع ، ونفذ الماء من الاداة ، فألقت الصبي تحت شجرة • من شجر الشيوخ ، وانطلقت فجلست قبالتها ، تباعدت عنه كرمية سهم • لأنها قالت : لا أعاين موت الصبي ، فجلست ازاءه ، ورفعت صوتها وبكت • فسمع الرب صوت الصبي • فدعا ملاك الرب من السماء هاجر ، وقال لها : مالك يا هاجر • لا تخافي • لأن الرب قد سمع صوت الصبي حيث هو • قومي ، فاحملي الصبي وشدي به يدك • لأنني أجعله رئيسا لشعب عظيم • فأجلى الله عن بصرها ، فرأت بئر ماء • فانطلقت فمالت الاداة ، وأسقت الغلام • فكان الله مع الغلام ، فشب الغلام ، وسكن بركة فاران • أ • هـ

فأخبرنا يا أيها الكاذب على كتاب الله ، المفتري على رسل الله : من أين استجزت سب الأنبياء والكذب على الله ، ذى الآلاء ؟

~~أف اجهلك قرأته ؟ أم عن الحواريين بلغته ؟ حاشا • وكلا • بل بتواضعك اختلقته • ثم من أعظم مباهنتك ، وأفحش جرأتك ، ومغالطتك أنك أوهمت بقولك ، ولم تقل فيها ، تعنى في هاجر عشر • ما قال الله فيها في التوراة ، وفي ابنها • تشعر بأن الله ذمها وابنها في التوراة ، في عدة مواضع •~~

وهذه التوراة قد تلوتها عليك ، وأنهيتها اليك • فاذا بالتوراة تخبر بأن هاجر نبيه (١) ، أو صديقة مباركة ، أوحى الله اليها ، وكلمها وبشرها بنبوة ولدها اسماعيل • بل قد مدح الله اسماعيل وأخبر عنه • بما لم يخبر به عن اسحق حيث قال فيه : « يده على كل • ويد كل به • وسيحل على جميع حدود اخوته » •

(١) لانبوة في النساء • والأصح : أنها صديقة •

وهذا الكلام يبشر • بل يفصح ويخبر بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم • فان اسماعيل لم يقل الله تعالى فيه « يده على كل يد ، ويد كل به ، وسيحل على جميع حدود اخوته » الا لأجل حفيده محمد صلى الله عليه وسلم • فان الله تعالى قد بعثه بدعوة جميع الخلق الى الله : بنى اسرائيل ، ومن دونهم ، ومن فوقهم • فكل من بلغته دعوته • وجب عليه الدخول في دينه •

ثم ان الله تعالى قد أظهره على الدين كله ، ولو كره الكافرون • وهذا كله وفاء بوعده الله تعالى ، لنبيه ابراهيم حيث قال في التوراة : « وقد استجبت لك في اسماعيل ، وباركته • وكثرت • وأنميته جدا جدا ، يولد له اثني عشر عظيما ، وأجعله رئيسا عظيما ، بشعب عظيم » •

فانظر • أيها العاقل • كيف قال الله في اسماعيل : « يده على كل • ويد كل به • وسيحل على جميع حدود اخوته » ولم يقل مثل هذا في اسحق • وانما قال فيه : « يكون رئيسا على شعوب كثيرة ، وملوك الشعوب من نسله » وبين الكلامين فرق ظاهر عند العاقل ، المفهم المنصف ، وكذلك قال في اسماعيل : « باركته ، وكثرت ، وأنميته ، جدا جدا ، ولم يقل مثل هذا القول في اسحق • وان كان قد قال فيه : « أباركه ، وأثبت عهدي له » وهذا الذي وعد الله به اسحق ، وعذبه اسماعيل ، وزاد زيادة عظيمة ، يعرفها من مساق كلام التوراة : من كان عارفا بمجاري كلام الله تعالى فيها • وكان مع ذلك عاقلا منصفًا •

وستنبه على سر ، تحت قوله « جدا جدا » في القسم الثاني من هذا الباب •

فأما هاجر ، فقد جاء في التوراة في حقها ، ما لم يجيء في حق سارة • وذلك أن ملاك الرب كلمها عن الله ، وأبلغها أمره : مرتين • أو أكثر ، فاذن هي نبيه ، أو صديقة • وفي أي موضع من التوراة جاء أن سارة نبيه ، وأن الله أرسل اليها ملكا ليبلغها أمره ونهيه ، كما فعل بهاجر ؟

ولا شك أن من آتاه الله النبوة هو أفضل ممن لم يؤته اياها • ولا يظن الجاهل : أن هذا الكلام غرض من منصب سارة رضي الله عنها ، بل هي صديقة مباركة • وكل له مقام معلوم • والحق أحق أن يتبع •

ثم الذى يفضى منه العجب : أنكم تعتقدون النبوة لمريم عليها السلام ، وليس لنبوتها فى التوراة ، ولا فى الانجيل ذكر ، يدل على نبوتها ، ولا فى كتب الأنبياء المتقدمين على زمان المسيح • ثم تنكرون نبوة هاجر وتذمونها ، مع أنه قد جاءت نبوتها ومدحها فى التوراة صريحا • وهذا كله مما يدل على جهلكم ، وقلة توفيقكم ، وأنكم تتحكمون فى الشرائع الالهية بأوهامكم •

وأما قولك : « واعلم كيف قطع الله ورث اسماعيل وأمه فى قوله : « لا يرثك هذا » اسكت يا جهول • فلست تعرف ما تقول • فما كان أجمل بك أن لو سترت عارك ، ولم تبد عوارك • كيف تتحكم بما لا تعرف ، ولا تفهم ؟ ها أنت قد حرقت لفظ التوراة وغيرته ، وليس كما ذكرت • » كذبتك من أم الحويرث قبلها •

وانما لفظ التوراة : أن سارة قالت لابراهيم « أخرج هذه الأمة وابنها ، لأن هذا ابن الأمة ، لا يرث مع ابنى اسحق ، فشق هذا الأمر على ابراهيم لكان ابنه » فأين هذا من النص الذى ذكرت ؟ فيظهر لى أنك له اختلقت •

وهذا الذى ذكره الله فى التوراة بزعمكم انما هو حكاية عن قول سارة ، وليس حكاية عن الله • ولو سلمنا أنه حكاية عن الله ، لما كان فيه دليل على ما زعمت ، وهو أن الله تعالى لم يجعل النبوة فى نسله اسماعيل ، وأن الله قطعها عنه • بل مفهومه وظاهره : أن الذى منعه الله لاسماعيل انما هو ميراث فى ابراهيم ، وهو حظه فى ماله ، وأعطاه اسحق • وهذا السر نجيب ، يعز من يتنبه لأمثاله ، ولو كنت له محلا ، وأهلا ، لذكرناه لك ، فلسنا ممن يعلق الدر فى أعناق الخنازير (١) • وكذلك فى كون اسماعيل مخلوقا من نطفة ابراهيم فى رحم هاجر مع كونها أمة • وقد كان الله تعالى قادرا على أن يخلقه فى رحم حرة •

وكذلك لآى معنى أخرجت هاجر على تلك الحال حتى استقرت هاجر مع اسماعيل بمكة ؟ وهذه كلها أسرار معلومة عند من نور الله بصيرته ، وحسن سريره ، وأصلح عقيدته ونيته • فان كنت تريد

(١) يقول عيسى عليه السلام : « لا تطرحوا درركم قدام الخنازير • لئلا تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم » (متى ٧ : ٦) •

أن تظفر بأمثال هذه الأسرار ، فعجل الى الله الفرار ، ولا تلهينك الدعة والقرار ، والا فأنت أسوأ حالا من الثور والحصار • ومع ذلك فأجل الله آت • وكل ما هو آت قريب • « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » (١) •

وأما قولك حاكيا عن الله : أنه قال لابراهيم « باسمي يتسمى نسلك » ولم يقل باسماعيل يتسمى ، فلم يقل في التوراة « يتسمى » وإنما قال « يذكر » (٢) ثم قطعت الكلام عنا ، وسكت عما بعده • ولو ذكرته لتبين أنك مبطل في كلامك • وذلك أنه ذكر بعد هذا الكلام « وابن الأمة فاني أجعله أبا لشعب كثير ، لأنه ذريتك » وقد تقدم ما قال الله فيه ، وأنه مفضل على اسحق • وان كانت أمه : أمة • وإنما يقال الله لابراهيم « لأن نسلك إنما يذكر باسمي » بقرب زمان الأنبياء المختسبين اليه ، ولكثرة عددهم • والله أعلم •

ثم لو سلمنا أنه جاء في التوراة « يتسمى » كما ذكرت • لكان معنى ذلك : أن الله يسمى ذرية اسحق باسم ابنه يعقوب ، الذي سماه الله اسرائيل • ثم غلب عرف الاستعمال على ذرية اسحق ، فقليل عليهم « بنو اسرائيل » وغاية ما في هذا : اعلام الله تعالى بأنهم يسمون باسمه ، أو باسم ولده • وهذا أمر قريب ، وخطب يسير • وإنما كان يكون لك في هذا متمسك لغرضك الفاسد • لو قال : النبوة في ولد اسحق ، وليست في ولد اسماعيل • ولم يقل هكذا • وإنما قال : ما قد أنسمعتك ، والذي به أخبرتك •

لقد أسمعت لو ناديت حيا

ولكن لا حياة لمن تنادي

وأما قولك : « فتتسلت منه الأمة الذي قال فيها قرآنكم » أشد تكفرا ونفاقا » (٣) •

يا هذا • قد أغيبيت في جهلك ، وسخفت في قولك ، حيث تركت ما قالت التوراة في نسله ، وعظيم حرمة وظوله ، وذكرت ما يدل على

(١) الشعراء : ٢٢٧

(٢) في ترجمة ١٩٧٠ « باسمي يدعى لك نسل » وابن الجارية أيضا

« سأجعله أمة لأنه نسلك » (تكوين ٢١ : ١٢ - ١٣) •

(٣) التوبة : ٩٧

جهلك ، وكثرة تواقحك ، وقلة فضلك • ولأى شيء لم تذكر في نسله •
ما قال الله فيه في كتاب التوراة حيث قال فيه وفي نسله : « باركته ،
وكثرته ، وأنميته ، جدا جدا ، يولد له اثني عشر عظيما ، وأجعله
رئيسا عظيما لشعب عظيم » فأنت يا جاهل قد صغرت ما عظم الله ،
وذممت ما مدح الله ، فحاق عليك لذلك غضب الله • فبادر لانقاذ نفسك
قبل حلول رمسك وندمك على ما فرط لك في أمسك • فها أنا قد نصحتك ،
ورسولنا يقول لك (قد أبلغتك) •

ثم الذين قال فيهم قرآنا : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا » (١) إنما
أراد بهم قوما معينين ، وطائفة مخصوصين من أعراب البادية ، أهل
جفاء وغلظة ، ردوا الحق بعد ظهوره ، وعاندوه حين وضوحه ، كما فعل
أشباعكم من قبل •

ثم لا تظن أن قول الله تعالى : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا »
أنه أراد « منكم » لأنكم أشد الناس كفرا وأعظم العقلاء عنادا • وقد
بيننا ذلك فيما تقدم وانما أراد الله لهذا المعنى — وهو أعلم — أن
أعراب البادية أشد كفرا ممن كفر من عرب الحاضرة ، فلا تدخلون
أنتم معهم تحت « أفعل » الا كما يقال « العسل أحلى من الخل » •
ثم ان جاز ذم شعب أو قبيلة ، لأن بعضهم كفر أو فسق • فأشد
الناس كفرا ونفاقا : بنو اسرائيل ، لكونهم عبدوا العجل والأصنام
على ما هو المعروف من أحوالهم • فالكافرون من أجدادكم على الحقيقة
أشد الكافرين كفرا ، وأسوأهم طريقة •

~~وأما قولك : « والسلام على من اتبع الهدى وآمن بشريعة المسيح »~~
حقيقة الايمان : نحن — والحمد لله — أهل الهداية والهدى ، المؤمنين
بشريعة المسيح المصطفى ، المحققون أنكم لستم على شيء منها ، بل
على الضلالة والردى • وقد بينا ذلك فيما تقدم بالبراهين القاطعة ،
وبعد هذا • نعقبها بالدلالات الصاعدة ، بحول الله وقوته • وقد
نجز ما أردنا تتبعه على هذا السائل الجاهل بدينه الغافل • ولو ذكرنا
كل ما فيه من الفساد لخرج الكلام عن الضبط •
وبعد الفراغ منه • نتكلم على ما وعدنا به من الكلام في النبوات •
ونذكر ما فيها من المباحثات بعون الله وتوفيقه •

* * *

في النبوت وإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

المقدمة الأولى

فرض هذه المقدمة : أن نبين فيها معنى النبوة والرسالة ، والمعجزة وشروطها ، ووجه دلالتها • فنقول : لفظ « النبي » ، و « النبوة » وما تصرف منه ، راجع الى « النبأ » وهو : « الخبر » • تقول « نبأت » و « أنبأت » بمعنى « أخبرت » و « خبرت » وهذا مع لفظ « نبي » بين •

وكذلك هو مع تسهيله على أصح الأقوال • فانه قد يكون أصل شيء من الألفاظ : الهمز • ثم يخفف الاسم منه ، كما قالوا : « خابية » وهو من « خبأت » هذا أصح ما قيل في اشتقاق هذا اللفظ • فإذا تقرر هذا ، فنبيء • على أصل الوضع وزنه « فعيل » وفعيل يأتي في الكلام بمعنيين : أحدهما : فعيل بمعنى فاعل ، كما قيل : رحيم ، بمعنى « راحم » ، وسميع بمعنى سامع • والثاني : فعيل بمعنى مفعول ، كما قيل : رحيم ، بمعنى مرجوم ، وخصيب بمعنى مخصوب فعلى هذا يصح في « نبي » أن يكون بمعنى « مخبر » وبمعنى « مخبر » (١) •

فعلى أصل الاشتقاق ، ووضع العرب : كل من أخبر بشيء ، أو أخبر بشيء فهو « نبي » •

وعلى المتعارف بين المتشرعين : انما يطلقون اسم النبي على من كان مخبرا عن الله • فاما أن يكلمه الله مشافهة ، واما بواسطة ملاك •

• هذا هو عرف المتشرعين في النبوة • وإلى هذا يرجع معناها • فالنبيء عند عقلاء أهل الشرائع : انما هو « حيوان ناطق مائت ، كامل ، في نوعه ، مخبر عن الله تعالى بحكم أو مشافهة ، اما بواسطة ملك • أو ما تنزل منزلته » •

(١) الأولى بكسر الباء ، والثانية بفتحها •

فقولنا « حيوان ناطق » أردنا به أن انسانا باق على أصل انسانيته ، لا يمتاز عن غيره من نوع الانسان بوصف حقيقي . وان امتاز بأوصاف عرضية عن غيره كالعلوم الخاصة بهم ، وصفات الكمال التي خصهم الله بها . فذلك لا يخرجهم عن كونه انسانا . ولأجل هذا المعنى كانت الرسل تقول لقومها « ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » (١) وكذلك قال الصادق المصدوق : « انما أنا بشر مثلكم ، يوحى الى » (٢) فجعل الفصل بينه وبين نوعه ، ما خص به من الوحي .

وقولنا « مائت » تنبيه على ماله ، لئلا يغلوا في بعضهم جاهلون ، كما فعلت النصارى فينسبونهم الى ما لا يليق بمن يموت .

وقولنا « كامل » أعنى بذلك : أن الأنبياء مجبولون على أتم صفات نوع الانسان . وذلك معلوم من أوصافهم . وان كانوا متفاوتين في ذلك .

وقولنا « مخبر عن الله » هذا القيد ، هو خاصته التي تفصله عن غيره من نوعه . فان لم يكن كذلك لم يقل عليه : انه نبي .

وقولنا « اما مشافهة ، واما بواسطة ملاك » تبرز ممن يبلغه خبر الله تعالى على السنة رسلة . فانه ليس بنبي ، ولا يقال عليه بحكم العرف : انه نبي . ولو جاز ذلك ، لجاز أن يقال « نبي » على كل متشرع ، سمع من رسوله خبرا عن الله . وهذا لم يقتضه أحد .

وقولنا « لو ما تنزل منزلته » نريد به : أن الأنبياء ، قد يتلقون الوحي على وجوه . منها : أن يكلمه الله مشافهة . ومنها : أن يرسل اليه ملكا ، يخبره عن الله . ومنها : أنه يلقي اليه الوحي في النوم . ومنها : أن الله تعالى يقذف في روعه ، ويلهمه الهاما ، حتى لا يشك أن الأمر كذلك ، ويقطع به .

فاذا تقرر أن حقيقة النبوة ما ذكرناه ، وأن فضله الخاص به : هو ما تحصل له من الاخبار عن الله فذلك الخبر : ان أمر النبي بتبليغه لغيره ، فذلك النبي ، هو الذي يقال عليه : رسول . والرسالة : هو الكلام المبلغ عن الله . فلأجل هذا يصح أن يقال : كل رسول نبي . وليس كل نبي رسولا .

اذ الرسالة نبوة وزيادة • وهذا بين بنفسه • فاذا تقرر ذلك •
فهذا البشرى ، الذى يدعى : أن الله أرسله إلينا ، لا بد أن يكون •
صادقا • وذلك لا نعرفه بغير دليل ، فلا بد من دليل •
والدليل المتحدى به : هو المعجزات • ولا بد من النظر فى حقيقتها ،
وفى شروطها ، وفى وجه دلالتها •

فأما المعجزة : فلفظ مأخوذ من الاعجاز • وذلك أنك تقول :
عجز فلان عن كذا • عجزا • اذا لم يقدر عليه ، ولم يقدّم به • وأعجزته •
اعجازا اذا جعلته يعجز ، وتقول : أعجزنى الشئ اذا فاتك ، ولم تقدر
عليه •

وكلها راجعة الى أن العاجز عن الشئ هو الذى لا يتمكن من
الشئ ، ولا يقدر عليه ، ثم فى تسمية هذه الأدلة التى تدل على صدق
الأنبياء : معجزات : تجوز • وذلك أن المعجز على التحقيق : انما هو
خالق العجز ، وهذه الأسباب التى يقع العجز عندها تسمى : معجزة •
بالتوسع • وذلك من تسمية الشئ باسم غيره اذا جاوزه ، أو كان
منه بسبب •

هذا شرح لفظ المعجزة •

فأما حقيقتها : فهو أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى مع عدم
المعارضة •

انما قلنا « أمر » ولم نقل « فعل » ليشتمل بذلك على الفعل
الخارق للعادة ، والمنع من الفعل المعتاد • فلو قال « نبى » : آيتى أنه
لا يقدر أحد أن يتكلم اليوم ، فكان ذلك • لكان ذلك دليلا على صدقه ،
ويكون ذلك معجزة له مع أنه ليس اثيانا بفعل عرقى • وانما هو منع من
فعل معتاد • وانما قلنا « مقرون بالتحدى » لئلا يتخذ الكاذب معجزة
من تقدمه ، حجة لنفسه ، ولتتميز عن الكرامة ، وما فى معناها • وانما
قلنا « مع عدم المعارضة » لتتميز عن السحر والشعوذة •

واذا حققت النظر فيما ذكرناه فى حد المعجزة علمت شروطها •
لكن ينبغى لك أن تعرف : أن المعجزة لا تكون دليلا الا فى حق من علم
وجود البارئ تعالى • وأنه قادر عالم مرید موصوف بصفات الكمال •
حتى يتأتى منه الارسال ، والتصديق والتكليف ، واذا لم يعرف الناظر

..هذه الأمور بأدلة عقلية لم يعرف المعجزة ، ولم يفده العلم بالتصديق للنبي .

وأما وجه دلالتها : فهو أن المشاهد للمعجزة المتحدى بها إذا علمها ، وعلم شروطها علم على الضرورة : أن الله تعالى قصد بذلك المعجز : تصديق المدعى ، ويتبين هذا بمثال . وذلك أنه : لو فرضنا (١) ملكا عظيما ، اجتمع له أهل مملكته في مجلسه وأهل المملكة مصغون لما يأمرهم به ، ذلك الملك .

فقام رجل من بين يديه ، وقال : انى رسول هذا الملك اليكم . وقد أمرنى أن أبلغكم أمره ونهيه . وأنا صادق فى قولى هذا . ثم يقول : يا أيها الملك : ان كنت صادقا فيما أقوله عنك فخالف عادتك . وقم عن سيرك قياما ، تخالف به المعتاد من فعلك ، فاذا فعل الملك ذلك عند تحدى المدعى . فان أهل المجلس يضطرون الى العلم بأن الملك قصد بذلك الفعل تصديقه ، ولا يعترىهم فى ذلك ريب ، ولا توقف ، فتزلت اذن تلك الأفعال بتلك الشروط منزلة قوله « صدقت أنا أرسلتك » وهذا بين بنفسه عند كل موفق منصف ، معلوم على القطع .

فاذا تقرر ذلك . فمهما ادعى شخص الرسالة ، واستدل عليها بمثل ما ذكرناه ، كان محقا فى دعواه ، صادقا فى قوله ، لا يجوز لعاقل أن يتخلف عن متابعتة ، سواء ادعى عموم رسالته ، أو خصوصها ، ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، قد ادعى عموم رسالته ، واستدل على صدقه بالمعجزات على الشروط التى ذكرناها . فهو صادق ، ولا يجوز لعاقل بلغه أمره ، أن يتخلف عن متابعتة ، وتصديقه .

وسنذكر ان شاء الله بعض ما أمكن ذكره من معجزاته ، فانه صلى الله عليه وسلم قد أيد بمعجزات كثيرة ، حتى اذا جمعت وتتبع علم منها : أن الله تعالى ، قد جمع له أكثر معجزات الأنبياء قبله وخصه بمعجزات لم يشاركه فيها غيره منهم ، وستقف ان شاء الله على أكثر ذلك .

فهذه المقدمة الأولى .



(١) هذا قد اقتبسناه المؤلف من كتاب « الحقيقة الخاطئة » للجوينى .
عبد الملك امام الحرمين .

المقدمة الثانية

وأما المقدمة الثانية :

فالمغرض منها : أن تتبين فيها : أن عيسى عليه السلام ظهرت المعجزات على يديه ، وتحدى بها الخلق ليؤمنوا أنه رسول الله • لا ليؤمنوا بأنه : اله • وأن النصراني غير عالمين بمعجزات عيسى عليه السلام • إذ لم تتوافر عندهم • فنقول — وبالله التوفيق — :

ان النصراني غايتهم أن يسندوا معجزات عيسى عليه السلام ، لما في أيديهم من الانجيل ، وهو لم يتواتر نقله ، ولا أمن التحريف ، والغلط فيه ، على ما تقرر قبل • وإذا كان هذا ، فكل ما في أيديهم من الأخبار عنه في الانجيل لا تفيد العلم القطعي • وغاية ذلك : أن تفيد غلبة ظن • والظن في الاعتقاد : بمنزلة الشك ، بل هو شك • فاذن هم من معجزات عيسى في شك ، وهم لا يشعرون بذلك الاك •

وما يدل على أنهم من كتابهم وشرعهم على غير علم : ما استفاض في كتب التواريخ (١) عندنا وعندهم • وذلك أن عيسى عليه السلام لما بعثه الله تعالى ، دعا بني اسرائيل للايمان ، فأجابته من شاء الله منهم ، فلما رفعه الله تعالى استحلّ الناس كلامه بعد ذلك حتى بلغ عدد بني اسرائيل : سبع مائة رجل ، فكانوا يجاهدون في بني اسرائيل ويدعون الى الايمان ، فقام « بولس اليهودي » وكان هو الملك في بني اسرائيل فحشد عليهم الأجناد ، وخرج عليهم ، وقاتلهم ، فهزمهم وأخرجهم من بلاد الشام ، حتى انتهى قلمهم ، الى الدروب • فأعجزوه • فقال « بولس » الملك لجنوده : ان كلام هؤلاء مستحلي • وقد قدموا على عدوكم ، وسيرجعونهم في ملتهم ، فيكثرون علينا ، فيخرجون الينا ، ويخرجوننا من بلاد الشام • ولكني أرى لكم رأيا • قالوا : وما هو ؟ قال : تعاهدوني على كل شيء ، كان خيرا ، أو شرا • ففعلوا • فترك ملكه ، ثم لبس لباسهم ، وخرج اليهم ليصلهم • حتى

(١) سيذكر المؤلف من سفر أعمال الرسل باختصار • وسيذكر عبارات أثبتت قية • بعض معانيها في رسائل بولس والبعض حكاية حال •

انتهى الى عسكرهم ، فأخذوه • وقالوا : الحمد لله الذى أخزأك ، وأمكن منك • فقال لهم : اجمعوا رؤوسكم ، فانه لم يبلغ منى حمقى أن آتيكم الا ومعى برهان • فأبلغوه رؤوسهم •

فقالوا : مالك • فقال : انى لقينى المسيح منصرفى عنكم ، فأخذ سمعى ، وبصرى ، وعقلى • فلم أسمع ، ولم أبصر ، ولم أعقل ، ثم كشف عنى • فأعطيت الله عهداً : أن أدخل فى أمركم • فأتيت لأقيم فيكم ، وأعلمكم التوراة وأحكامها ، فصدقوه • فأمرهم أن يبنوا له بيتاً ، ويفرشوه رمادا ، ليعبد الله فيه بزعمه ، ويعلمهم التوراة •

ففعلوا ، وعلمهم ما شاء الله ، ثم أغلق الباب دونه ، فأطافوا به • وقالوا : نخشى أن يكون رأى شيئاً يكرهه • ثم فتحه بعد يوم • فقالوا : رأيت شيئاً تكرهه ؟ قال : لا • ولكنى رأيت رأياً ، وأعرضه عليكم • فان كان صواباً فخذوه ، وان كان خطأ • فردونى عنه • قالوا : هات • قال : هل رأيتم سارحة تسرح الا من عند ربها ، وتخرج الا من حيث تؤمر به ؟ قالوا : لا • قال : فانى رأيت الصبح والميل والشمس والقمر والبروج ، انما تجىء من ها هنا • وما أوجب ذلك الا وهو أحق الوجوه أن يصل اليه • قالوا : صدقت • فردهم عن قبلتهم •

ثم أغلق الباب بعد ذلك بيومين ، ففزعوا أشر من الأول • وأطافوا به ، ففتح • فقالوا : رأيت شيئاً تكرهه ؟ قال : لا • ولكنى رأيت رأياً • قالوا : هات • قال : أستم تزعمون : أن الرجل اذا أهدى الى الرجل الهدية ، وأكرمه بالكرامة ، فردها • شق ذلك عليه ، وأن الله تعالى : سخر لكم ما فى الأرض ، وجعل ما فى السماء لكم كرامة • فالله أحق أن لا ترد عليه كرامته •

فما بال بعض الأشياء حلال ، وبعضها حرام • ما بين البقة الى الفيل : حلال • قالوا : صدقت •

ثم أغلق بعد ذلك ثلاثاً • ففزعوا أمثلك من الثانية ، فلما فتح لهم • قال لهم : انى رأيت رأياً • قالوا : هات • قال : لنخرج كل من فى البيت الا « يعقوب » و « نسطور » و « ملكون » و « المؤمن » •

ففعلوا • فقال : هل علمتم أحداً من الانس خلق من الطين خلقاً • فجعلته ، فصار نفساً ؟ قالوا : لا • قال : فهل علمتم أن أحداً من الانس

أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى ؟ قالوا : لا • قال : هل علمتم أن أحدا من الانس ينبيء الناس بما يأكلون ، وما يدخرون في بيوتهم ؟ قالوا : لا • قال : « فاني أزعم أن الله تعالى تجلى لنا ، ثم احتجب »^(١) فقال بعضهم : صدقت ، وقال بعضهم : لا • ولكنه ثلاثة : والد ، وولد • وروح القدس • وقال بعضهم : الله وولده • وقال بعضهم : هو الله تجسم^(٢) لنا •

فافترقوا على أربع فرق • فأما يعقوب : فأخذ بقول « بولش » : أن الله هو المسيح • وأنه كان ثم تجسم • وبه أخذت شيعته • وهم اليعقوبية^(٣) • وأما نسطور^(٤) فقال : المسيح ابن الله على جهة الرحمة ، وبه أخذت شيعته ، وهم النسطورية ، إلا أن شيعته لم تعتقد أنه سمى ابنا على جهة الرحمة ، بل على ما تقدم • وأما ملكون : فقال : أن الله ثلاثة • وبه أخذت شيعته • وهم : الملكية^(٥) • الذين قالوا : أن الله ثلاثة أقانيم • فقام المؤمن^(٦) : وقال لهم : عليكم لعنة الله • والله ما حاول هذا إلا افسادكم ، ونحن أصحاب المسيح قبله • وقد رأينا عيسى وسمعنا منه ، ونقلنا عنه • والله ما حاول هذا إلا ضلالتكم وفسادكم •

فقال بولش للذين اتبعوه : قوموا بنا نقاتل هذا المؤمن ونقتله هو وأصحابه ، والا أفسد عليكم دينكم • فخرج المؤمن الى قومه • وقال : أليس تعلمون أن المسيح عبد الله ورسوله ، وكذا قال لكم ؟ قالوا : بلى • قال : فان هذا الملعون ، قد أضل هؤلاء القوم • فركبوا في أثرهم •

فقاتلوه • فهزم المؤمن وأصحابه • وكان أقلهم تبعا • فخرج مع قومه الى الشام ، فأسرتهم اليهود فأخبروهم الخبر • وقالوا : انما

(١) في الأصحاح الثالث عشر من رسالة بولس الى تيموثاوس : « وبالإجماع عظيم هو سر التقوى : الله ظهر في الجسد » •
 (٢) رأى هذا البعض هو رأى البعض الذين قالوا : صدقت •
 (٣) هم في عصرنا هذا يسمون « الأرثوذكس » •
 (٤) نسطور قال : عيسى انسان واله •
 (٥) هم في عصرنا هذا يسمون « الكاثوليك » •
 (٦) يقصد بالمؤمن : الذين ثبتوا على الحق •

خرجنا اليكم لنأمن في بلادكم ، ومالنا في الدنيا من حاجة • انما نلزم الكهوف والصوامع ونسبح في الأرض • فخلوا عنهم •

ثم ان قوما من أولئك الذين كفروا ، فعلوا مثل ما فعل قوم المؤمن ، اتخذوا الصوامع ، وساحوا ، وأظهروا البدعة ، فهو قول الله عز وجل : « ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله • فما رعوها حق رعايتها » (١) يعنى التوحيد (٢) • اختلفوا فيه ، الا فرقة « المؤمن » وفيهم نزلت : « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (٣) بالجهة ، وظهور محمد صلى الله عليه وسلم •

وكان هرب المؤمنين منهم الى جزيرة العرب ، فأدرك النبى صلى الله عليه وسلم منهم : ثلاثون راهبا • فأمنوا به ، وصدقوه ، وتوفاهم الله على الاسلام •

كان هذا — والله أعلم — بعد المسيح بأربعين سنة ، أو نحوها • ثم لم يزل أمر « المؤمن » وأصحابه خفيا ، وغيرهم من الفرق مختلفون ، ويتهارجون ، ولم يستقر لهم قدم الى مدة « قسطنطين » قيصر • الملك ابن « هيلانة » وذلك بعد رفع المسيح بمائتين وثلاثة وثلاثين سنة (٤) •

وذلك أنه كثر عدوه ، وكاد ملكه يذهب باختلاف رعاياه عليه ، وضعفهم ، وكسلهم عن نصرته • فرام حملهم على شريعة ينظم بها سلوكهم ، ويؤلف بها متفرقهم ، فاستشار من لديه من أهل النظر فوق اختيارهم على أن يتعبد القوم بطلب دم ليكون ذلك أقوى لارتباطهم معه ، وأوكد لجدهم في نصرته ، فوجدوا اليهود يزعمون أن في بعض تواريخهم خبرا عن رجل منهم هم أن يتسخ حكم التوراة • وينفرد بالتأويل فيها • فعمدوا اليه وهو في نفر من أتبعه ، وظفروا بواحد

(١) الحديد : ٢٧ .

(٢) يعنى — والله أعلم — ابتداعهم الرهبانية ، وهى غير متصوص عليها في التوراة التى جاء المسيح مصدقا لها •

(٣) الصف : ١٤

(٤) هذا يعنى أن رفع المسيح كان في سنة ثمانين من الميلاد لأن قسطنطين اعترف بالنصرانية سنة ثلثمائة وثلاثة عشر من الميلاد وكان مجمع نيقية سنة خمس وعشرين وثلثمائة من الميلاد •

منهم ، وشهد لديهم رجل واحد : أنه ذلك المطلوب ، فصلبوه ، وما عندهم تحقيق ، لكونه ذلك المطلوب بعينه ، الا فقدهم اياه من حينئذ .

فعند ذلك عمد « قسطنطين » الى من ينسب الى دين المسيح ، فوجدهم ، قد اختلفت آراؤهم ومزجت أديانهم ، فاستخرج ما بقى من رسم الشريعة المنسوبة للمسيح وجمع عليها وزراءه ، فأثبت ما شاء منها ، وتحكم فيها باختياره ، حسب ما رآه موافقا له بالصلوبية لتعبد قومه بطلب دم ، والقول بترك الختان ، لأنه شأن قومه . ثم أكد ذلك وشده بمنامة اختلقها وادعى أنه أوحى اليه فيها .

وذلك أول شيء أظهره من هذا الأمر ، فجمع أنصاره ، ورعاياه من الروم . وذلك على رأس سبع سنين من مدة ملكه . وقال لهم : انه كان يرى في منامه آتيا أتاه . فقال له : بهذا « الرسم » (١) تغلب ، وعرض عليه هيئة « الصليب » فأعظمت ذلك العامة ، وانفعلت لما سمعت منه ، ثم بعث الى امرأة في ذلك الزمان يقال لها « الأنه » كاهنة ، وكانت ذات جأش وقوة ، فشهدت له أنها رأت مثل ما رأى . فقوى تصديق العامة لذلك .

وفي هذا كله ، لا يعلمون لذلك الرسم تأويلا . ولا كان « قسطنطين » كشف لهم شيئا من أمره . فخرج بهم الى عدوه ، ووعظ قومه ، وهول عليهم أمر الرسم . فحصل له كل ما أراد من جد القوم واجتهادهم معه . فلما عادوا الى أوطانهم بعد الظفر بعدوهم . سألوه عن تأويل ذلك « الرسم » وألحوا عليه فيه . فقال لهم : قد أوحى الى في نومي ، أنه كأن الله تبارك وتعالى هبط من السماء الى الأرض فصلبته اليهود . فها لهم ذلك كثيرا ، مع ما حصل عندهم من تضديقه ، وعظم عليهم الخطب فيه ، فانقادوا الى « قسطنطين » انقيادا حسنا ، وصح له منهم ما أراد ، وشرع لهم هذه الشرائع التي بأيديهم اليوم ، أو أكثرها (٢) .

(١) في المخطوطة : الرسم بالشين المعجمة بدل السين المهملة وفي كثير من الكتب الرسم بالسين .

(٢) قد ذكرنا في تحقيقنا لكتاب « منظومة الامام الأبوصيري في الرد على النصارى واليهود » : السبب الحقيقي لتحريف النصرانية وهو : أن أهل الروم كانوا يحتلون بلاد اليهود . وكان اليهود يزعمون لهم أن نبيا منهم =

وقد ظهر لجماعة من أهل العلم بأحوال الأمم وبنوازل الأزمان :
أن هذا الشخص الذى تعظمه النصارى ، وتصفه بالالهية ، لم يكن
له وجود فى العالم • ولكن « قسطنطين » ابتدع ذلك كله واتفق مع
نفر من اليهود من أحبارهم • على أن يبذل لهم من متاع الدنيا
ما شاءوا ، ويشهدون له عند قومه بأن ذلك الشخص كان عند اليهود
فصلبته • ففعلوا • وكتبوا من أخباره شيئاً • فتلفت ذلك النصارى
وقبلوه ودانوا به • ولعله أكثر الانجيل الذى بأيديهم اليوم •

ولتعلم • أن هذه الأخبار التى ذكرناها • لا يمكنهم انكار جملتها ،
وان أنكروا بعض تفاصيلها لكون هذه القصص معروفة على الجملة
عندهم • فانهم لا يقدرّون على جحد محاربة « بولس » اليهودى
واجلائؤهم من الشام • ودخول « بولس » فى دينهم • وكذلك ملك
« قسطنطين » مما لا ينكرون اشهاره لكتبهم • ثم لو قدرنا : أن هذه
الوقائع لم تعلم صحتها ، ولا كذبها ، فشرعهم قابل لأمثالها فان معظم
معتمدتهم فى أمور دياناتهم انما هو الانجيل ، ونقله غير متواتر لا سيما •
والأحداث عندهم فى أكثر الأحيان بمغامات (١) يدعونها ، يجعلونها
أصولاً يعولون عليها ، وبمحافل يجتمعون فيها ، فيتحكمون بأرائهم ،

سيظهر ، ومع ظهوره سيخضعون للروم ولن يمسخهم بأذى • ولما
ظهر عيسى عليه السلام وضح لليهود ولأهل الروم أن النبى الذى سيظهر
سيكون من العرب بنى اسماعيل • وأنه سيحارب أهل الروم وسيطردهم
من فلسطين ، فاغتاظ اليهود منه لأنه تحدث على غير مرادهم فى النبى المنتظر ،
واغتاظ الروم منه لأنه أخبرهم بقرب زوال مملكتهم • فلذلك تحالف اليهود
والروم على القضاء على المسيح عيسى وأتباعه • فاضطهدهم الروم اضطهاداً
شديداً • ونفت علماء اليهود سمومهم فى المسيح وأمه • واقتبسوا عقائد
الرومان وعاداتهم ، وضللوا بالعقائد والعادات فى شأن المسيح وأمه ، فجعلوا
مملكة الروم أحزاباً وشيعاً ، ولما اختل نظامهم ، وتعب النصارى من الاضطهاد ،
وظهر فى نفوس الناس ميل الى المسالمة ، ورضى النصارى بالمصالحة مع
الروم ، ورضى الروم بالمصالحة مع النصارى ، اتفق الطرفان على صوغ
العقائد النصرانية على مثال عقائد الروم ، وعلى أن لا يقول النصارى أن
النبى المنتظر سوف يأتى من العرب ويقضى على مملكة الروم ، ومن أجل
ذلك طبق النصارى كل نبوءات التوراة عن النبى المنتظر على المسيح عيسى
عليه السلام ، وجعلوه خاتم النبيين •

(١) اقرأ كتاب : السنكسار •

ولا يستندون لشيء من كتبهم ، ولا لشيء من كلام أنبيائهم • وان شئت
أن ترى هذا عيانا • فانظر كتب اجتماعاتهم ومحافلهم ، فانهم ينحشدون
لمواضع مخصوصة في أحيان مخصوصة ، ويخترعون فيها أحكاما ،
وأمورا ، لا مستند لهم ، ولا أصل الا التحريم على المآكل ، والتحكم في
العامة بفارغ الأقاويل • وسنبين ذلك اذا ذكرنا جملا من أحكامهم •
واذا كان هذا مبنى شريعتهم ، فكيف يوثق بشيء من ترهاتهم ؟

فاذا تقرر ذلك فلتعلم أن اتخاذهم المسيح : الها • انما سببه ،
ما سبق ذكره ، ولا يقدرّون على أن ينسبوا شيئا من ذلك الى عيسى
عليه السلام • بل قد نقلوا عنه في انجيلهم : ما يدل دلالة قاطعة من
حيث اللفظ على أنه انما ادعى النبوة ، وعليها استدل بمعجزاته • وفي
دعواه النبوة كذبتة اليهود •

ونحن الآن نسرد بعض ما وقع في انجيلهم من دعواه الرسالة
بحول الله سبحانه •

من ذلك : ما جاء في الانجيل عنه أنه قال حين خرج من السامرة :
ولحق بجلجال (١) : « انه لم يكرم أحدا من الأنبياء في وطنه » (٢) •

وفي انجيل لوقا : « أنه لم يقبل أحد من الأنبياء في وطنه ، فكيف
تقبلونني ؟ » (٣) وهذا نص لا يقبل التأويل في أنه انما ادعى النبوة
المطلومة •

وفي انجيل ماركس أن رجلا أقبل الى المسيح • وقال له : « أيها
المعلم الصالح : أي خير أعمل لأنال الحياة الدائمة ؟ فقال له المسيح :
لم قلت لى صالحا ؟ انما الصالح : الله وحده وقد عرفت الشروط •
وذلك : ألا تسرق ولا تزنى ، ولا تشهد بالزور ، ولا تخون • وأكرم
أباك وأمك » (٤) •

(١) في التراجم الحديثة : ولحق بالجليل •

(٢) الاصحاح الرابع من انجيل يوحنا - الآية ٤٤

(٣) انجيل لوقا ٤ : ٢٤

(٤) انجيل مرقس الاصحاح العاشر - الآية السابعة عشر وما بعدها •

وفي انجيل يوحنا أن اليهود لما أرادت القبض عليه ، وعلم بذلك رفع بصره الى السماء وقال : « قد دنا الوقت يا الهى ، فشرفنى لديك ، واجعل لى سبيلا الى أن أملك كل من ملكتى : الحياة الباقية • وانما الحياة الباقية : أن يؤمنوا بك الها واحدا • وبالمسيح الذى بعثت • فقد عظمتك على أهل الأرض ، واحتملت ما أمرتنى به ، فشرفنى لديك » (١) •

وفي انجيل متى أنه قال لتلاميذه : « لا تنسبوا أباكم على الأرض • فان أباكم الذى فى السماء وحده ، ولا تدعوا معلمين ، فان معلمكم : المسيح وحده » (٢) •

فقلوه « لا تنسبوا أباكم على الأرض » أى : لا تقولوا : انه على الأرض ، ولكنه فى السماء ، ثم أنزل نفسه حيث أنزله الله تعالى فقال : « ولا تدعوا معلمين • فان معلمكم المسيح وحده » (٣) • فها هو قد سمى نفسه : معلما فى الأرض • وشهد أن الههم فى السماء واحد ، ونهاهم أن ينسبوه لالهية •

وفي انجيل لوقا أنه حين أحيا البيت بباب مدينة « نايين » حين أشفق لأمه ، لشدة حزنها عليه • قالوا : « ان هذا النبى لعظيم ، وان الله قد تفقد أمته » (٤) ولم يقولوا : ان هذا اله عظيم •

وفي انجيل يوحنا أن عيسى قال لليهود : « لست أقدر أن أفعل من ذاتى شيئا • لكنى أحكم بما أسمع ، لأنى لست أنفذ ارادتى ، بله ارادة الذى بعثنى » (٥) •

وفي انجيله أيضا أنه « أعلن صوته فى البيت ، وقال لليهود : قد عرفتمونى موضعى ، فلم آت من ذاتى ، ولكن بعثنى الحق ، وأنتم تجهلون • فان قلت : انى أجهله كنت كاذبا مثلكم • وأنا أعلم أنى منه ، وهو بعثنى » (٦) •

(١) الاصطاح السابع عشر من انجيل يوحنا - الآية الأولى وما بعدها •

(٢) متى ٢٣ : ٩ - ١٠ ونص العبارة : « لا تدعوا لكم أبا على الأرض »

لأن أباكم واحد الذى فى السموات • • • الخ •

(٣) اقرأ تقديمنا لهذا الكتاب • (٤) انجيل لوقا الاصطاح السابع •

(٥) انجيل يوحنا • : ٣٠ (٦) الاصطاح الثامن من انجيل يوحنا •

فانظر • كيف أخبر عن نفسه ، أنه معلوم عند اليهود • وأخبر عن الله : أن اليهود لا تعرفه وقال : « انه لم يأت من ذاته ، ولكن الله بعثه » وهكذا كانت دعوة من قبله من الأنبياء عليهم السلام • وحاشاهم أن ينتسبوا الى ما ينفرد به ذو الجلال والاكرام •

وفي الانجيل أيضا أنه قال لليهود بعد خطاب طويل مذكور في الانجيل ، حين قالوا له : « انما أبونا ابراهيم • فقال : ان كنتم بنى ابراهيم فاقفوا أثره ، ولا تريدوا قتلنى •

على أنى رجل أديت اليكم الحق ، الذى سمعه من الله • غير أنكم تقفون أثر آبائكم • قالوا : لسنا أولاد زنا • انما نحن أبناء الله • فقال : لو كان الله آباكم لحفظتمونى ، لأنى رسول • منه خرجت مقبلاً ، ولم أقبل من ذاتى • وهو بعثنى لكنكم لا تقبلون وصيتى وتعجزون عن سماع كلامى • انما أنتم أبناء الشيطان ، وتريدون اتمام شهواته » (١) الى كلام كثير •

وفيه أيضا : أنه كان يمشى يوما فأحاطت به اليهود • وقالوا : « الى متى تخفى أمرك ؟ ان كنت المسيح المنتظر فأعلمنا بذلك » (٢) • ولم تقل له : ان كنت الها ، لأنه لم تعلم من دعواه ذلك • ولا اختلاف عند اليهود : أن الذى ينتظرونه انما هو انسان نبى ، ليس بانسان اله كما تزعمون •

وفي الانجيل أيضا عنه : أن اليهود أرادوا القبض عليه ، فبعثوا لذلك الأعوان • وأن الأعوان رجعوا الى قوادهم • فقالوا لهم : « لم لم تأخذوه ؟ قالوا : ما سمعنا آدمياً أنصف منه • فقالت اليهود : وأنتم أيضا مخدوعون • أترون : أنه آمن به أحد من القواد ، أو من رؤساء أهل الكتاب ؟ انما آمن به من الجماعة من يجهل الكتاب • فقال لهم نيقوديموس : أترون أن كتابكم يحكم على أحد قبل أن يسمع منه ؟ فقالوا له : اكشف الكتب ترى أنه لا يجىء نبى من جلال » (٣) •

(١) الاصحاح الثامن من انجيل يوحنا • (٢) يوحنا ١٠ : ٢٤

(٣) جلال في التراجم الحديثة : الجليل والنص في الاصحاح السابع من انجيل يوحنا •

فما قالت اليهود ذلك الا وقد أنزل لهم نفسه منزلة « نبي » فقط ، ولو علمت من دعواه الالهية لقاتلته يومئذ •

ومثل هذا كثير في انجيلهم ، لو ذهبت أذكره لطال أمره •

وقد تقدم من كلام أشعيا أن الله تعالى قال في المسيح : « هذا غلامي المصطفى ، وحبيبي الذي ارتضت به نفسي » (١) •

ومن كلام عاموس النبي أن الله قال على لسانه : « ثلاثة ذنوب أقيل لبني اسرائيل والرابعة لا أقيلها : بيعهم الرجل الصالح » (٢) •

ولم يقل بيعهم اياي • ولا قال : بيعهم الها متساويا معي • فهذا المبيع لا يخلو اما أن يكون هو المسيح كما تزعمون • فقولوا فيه ، كما قال الله : انه رجل صالح ، ولا تقولوا : انه اله معبود • واما أن يكون المبيع غيره ، فهو الذي شبه لليهود ، فابتاعوه وصلبوه • ويلزمكم انكار صلوبية المسيح ، وهو كفر عندكم • وقد كررنا هذا المعنى في هذا الكتاب مرارا لكون النصارى على اختلاف فرقهم يعتقدون له الالهية على اختلاف في كيفية ذلك • كما تقدم •

وحتى لقد ذهبت طائفة منهم الى مقالة لم يسمع قط في أكناف العالم وأطرافه من اجتراً على التقوى بها • ونحن نستغفر الله قبل حكايتها ، ونتبرأ الى الله من مذاهبهم الفاسدة ، ومن القائل بها ، وذلك أنى وقفت على رسالة بعض « الأقسسة » كان بطليطلة ، نسبه من « القوط » قال فيها : « هبط الله بذاته من السماء ، والقحم ببطن مريم » •

ثم قال : « وهو الاله التام • والانسان التام • ومن تمام رحمته على الناس : أنه رضى بهرق دمه عليهم في خشبة الصليب ، فمكن اليهود أعداءه من نفسه ، ليتم سخطه عليهم • فأخذوه وصلبوه وغار دمه في اصبعه ، لأنه لو وقع منه شيء في الأرض لبيست الا شيء وقع فيها ، فبيست في موضعه النوار •

(١) الاصحاح الثانى والاربعون من سفر أشعيا - الآية الاولى •

(٢) هذا النص ليس نبوءة عن عيسى عليه السلام •

لأنه لم يمكن في الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي : آدم ،
الذى ظلمه ، واستهان بقدره ، فلم يرد الله الانتقام منه ، لاعتلاء
منزلة « السيد » وسقوط منزلة « العبد » أراد أن ينتصف من الانسان
الذى هو اله مثله ، فانتصف من خطيئة آدم : بصلب عيسى المسيح
الذى هو اله ، مساومعه » .

فانظر توافق هذا القائل ، واستخفافه بحق الله تعالى وجهله ،
وتناقضه وحمقه . فوالله لو حكى مثل هذا القول السخيف عن مجنون
أو موسوس لما كان يعذر بقوله ، ولبودر بضربه ، وقتله ، حتى
لا يجترأ على مثله . ونحن نربأ بأكثر المجانين ، والموسوسين أن
يتقولوا بهذا المذهب الغث الهجين ، أو ينتحلوا ركافة هذا الدين
السقيم ، الا أن يكون مستغرقا في الوسوسة والجنون . فالحمق
أنواع ، والجنون فنون .

وعند الوقوف على هذه المذاهب القبيحة ، والأوهام . يتبين
فضل دين الاسلام ، ويتحقق معنى قول النبی عليه السلام : (اذا أراد
الله انفاذ قضائه ، وقدره : سلب ذوى العقول عقولهم ، حتى ينفذه
فيهم) .

وفي مثل هذا الضرب : المثل : « إذا جاء البين ، صم الأذن ،
وعمى العين » والحمد لله الذى أعادنا من هذه الرذائل ، وتفضل علينا
بدين الحنيفية الذى خص بكل الفضائل ، التى يقبلها بفطرته الأولى
كل عاقل ، ويستحسنها كل ذكى فاضل .

فقد تحصل من هاتين المقدمتين : معنى النبوة ، وبيان شروطها .
وأن عيسى عليه السلام نبى ورسول . اذ قد كملت فيه شروط الرسالة ،
وأنه ليس باله . وأن النصرانى ليسوا عالمين بشىء من أحوال المسيح ،
ولا من معجزاته على اليقين والتفصيل .

وغايتهم أن يعلموا أمورا جمالية لكثرة تكرار هذا المعنى عليهم .
ثم تلك الأخبار التى يتحدثون بها عن المسيح ، وتكرر عليهم ،
لو كلفوا أن يسندوا شيئا منها لغير الانجيل كما ينقل متواترا لما
استطاعوا شيئا من ذلك ، ولا وجدوا اليه سبيلا .
ومما يؤيد هذا المعنى ويوضحه : ان اليهود كانوا رهطه وكفلته ،

وعندهم نشأ ، وهم يخالفونكم في كثير مما تنسبون اليه ، ولا يوافقونكم على نقلها •

من ذلك : أن اليهود تزعم أنهم حين أخذوه حبسوه في السجن أربعين يوما • وقالوا : ما كان ينبغي لنا أن نحبسه أكثر من ثلاثة أيام • الا أنه كان يعضده أحد قواد « الروم » لأنه كان يداخله بصناعة الطب • وفي انجيلكم : أنه أخذ صبح يوم الجمعة ، وصلب في الساعة التاسعة من اليوم بعينه^(١) •

وكذلك تزعم اليهود كلهم : أنه لم يظهر له معجزة ، ولا بدت لهم منه آية ، غير أنه طار يوما ، وقد هموا بأخذه ، فطار على أثره أحد منهم فعلاه في طيرانه ، وتوله ، فسقط الى الأرض بزعمهم •

ومواضع كثيرة من انجيلكم تدل على ما قالتها اليهود • من أنه لم يأت بآية •

فمن ذلك^(٢) : « أن اليهود قالت له : ما آيتك التي تريتنا ، ونؤمن بك • وأنت تعلم أن آباءنا قد أكلوا المن والسلوى في المفاز ؟ فقال : ان كان أطعمكم موسى خبزا بالمفاز • فأنا أطعمكم خبزا سماويا » يريد نعيم الآخرة^(٣) • فلو عرفت اليهود له : معجزة ، لما قالت ذلك • ثم لم يجيبهم على قولهم بمعجزة ، ولا آية •

وفي انجيلكم : « أن اليهود جاءوا يسألونه آية ، ففدّهم • وقال : ان القبيلة الفاجرة الخبيثة تطلب آية ، ولا تعطى ذلك »^(٤) •

وفيه أيضا : أنهم كانوا يقولون له ، وهو على الخشبة بظنكم : « ان كنت المسيح فأنزل نفسك ، نؤمن بك »^(٥) يطلبون منه بذلك آية ، فلم يفعل •

(١) مرقس الأصحاح الخامس عشر • ويوم الاستعداد في الانجيل هو يوم الجمعة • وفيه يستعدون ليوم السبت الذي لا يعملون فيه عملا •

(٢) النص في الأصحاح السادس من انجيل يوحنا •

(٣) يريد الايمان بتعاليمه ليحيوا حياة طيبة •

(٤) متى ١٢ : ٣٨ - ٣٩

(٥) الأصحاح الثالث والعشرين من انجيل لوقا •

ومثل هذا كثير فيه .

ثم ان اليهود عندهم من الاختلاف في أمره ما يدل على عدم يقينهم بشيء من أخباره . فمنهم من يقول : انه كان رجلا منهم يعرفون أباه وأمه ، وينسبونه لزانية ، وحاشى الله . كذبوا . ويسمون أباه للزنية : « البندير^(١) الرومى » وأمه « مرم الماشطة » كذبوا — لعنهم الله — ويزعمون : أن زوجها يوسف لما رأى « البندير » عندها على فراشها ، وتشعر بذلك فهجرها ، وأنكر ابنها . ومنهم من يقول : انه لم يتولد من غير أب ، وينكره ، ويقول : انما أبوه يوسف بن يهوذا ، الذى كان زوجا لمريم .

ثم ان اليهود — لعنهم الله — أطبقت على اطلاق الذم عليه ، ثم اختلفوا في سبه ، فمنهم من قال ما تقدم . ومنهم من ذكر سبا آخر ، وهو أنهم زعموا : أنه كان يوما مع معلمه « يهوشوع » بن برخيا ، وسائر التلاميذ في سفر ، فنزلوا موضعا ، وجاءت امرأة من أهله . وجعلت تبالغ في كرامتهم . فقال « يهوشوع » : ما أحسن هذه المرأة ، يريد فعلها . فقال عيسى — بزعمهم لعنهم الله — لولا عمش في عينيها . فصاح « يهوشوع » وقال له : يا ممزار — ترجمته : يا زنيم — أتزنى بالنظر ؟ وغضب عليه غضبا شديدا . وعاد الى بيت المقدس^(٢) . وحرّم باسمه ، ولعنه ، في أربع مائة قرن . وقالوا : فحينئذ لحق بزعمهم ببعض قواد الروم ، وداخله بصناعة الطب ، فقوى لذلك بزعمهم على اليهود ، وهم يومئذ في ذمة قيصر « تباريوش » وجعل يخالف حكم التوراة ، ويستدرك عليها ، ويعرض عن بعضها . الى أن كان من أمره ما كان .

ومنهم من يقول : ان ذلك انما أطلق عليه لأنه كان يوما يلعب الصبيان في صغره بالكرة . فوقع له بين جماعة من مشايخ اليهود ، فضعف الصبيان عن استخراجها من بينهم . حياء من المشايخ ، فقوى عيسى ، وتخطى رقابهم ، وأخذها . فقالوا له : ما نظنك الا زنيما ؟ فأفضيت عليه هذه الشتيمة .

وكذلك يختلف في صنعة أبيه ، الذى تقولون أنتم فيه ، خطيب

(١) باتندارا الرومى في الكتب الحديثة .

(٢) بيت المقدس : أورشليم (القدس) الآن .

أمه • فمنهم من يقول : يوسف النجار ، وبعضهم يقول : انما هو الحداد • وكذلك تختلفون أنتم في اسم أبيه ، فبعضكم يقول : يوسف بن يعقوب • وبعضكم يقول : يوسف بن هالي • وكذلك اختلفتم أنتم في آبائه • وفي عدده • فمنكم من يقلل ، ومنكم من يكثر • على ما تقدم • فهذا الاختلاف الكثير والأضطراب البين الشهير • يدل على : أنكم واليهود ، في شك منه ، وأنه لم يثبت عندكم خبر متواتر عنه • وانما هي ظنون كاذبة ، وأوهام راتبة ، وسننين مداخل الشك والأوهام عليهم في قولهم بصلوبيته • ونمين أن اليهود والنصارى في قولهم بصلبه كاذبون ، وأنهم « في ريبهم يترددون » (١) بلولا أن من الله علينا بفضله علينا . وعليكم معاشر النصارى بأن بعث الى الجميع : سيد المرسلين لبقى الجميع من أمر عيسى حيارى •

فنزله الله المسيح وأمه ، على لسان نبيه ، مما قالت اليهود فيهما من الأقوال الوخيمة • ونسبوه لها من الهجاء والشتيمة • وكما شهد ببراءة المسيح وأمه ، مما نسبته اليهود اليهما • كذلك شهد ببراءتهما مما نسبتموهما أنتم اليه ، وتقولتموه عليهما •

وذلك أن منكم طائفة يقولون : ان مريم اله • وقد أطبقتم على أن المسيح اله • وابن الاله • ونبينا عليه السلام يقول مخبرا عن الله سبحانه وتعالى : « ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة » (٢) •

فاذا سنع القائل قوله فيهما علم بعقله : أن ذلك القول هو الحق • وان كان ممن طالع الزبور : علم أن دعاء داوود مستجاب ، ومقاله صدق • وذلك أن في الزبور : أن الله تعالى قال لداوود : « سيولد لك : ولد • أدعى له : أبا • ويدعى لى : ابنا » (٣) فقال :

(١) التوبة : ٤٥

(٢) المائدة : ٧٥

(٣) البشارة لداوود عليه السلام بسليمان ابنه عليه السلام وعبارته « اللهم ابعث جاعل السنة » يشير بها المؤلف الى محمد صلى الله عليه وسلم . ليعلم الناس أن عيسى بشرا وليس الها • والحقيقة أن في الزبور نبوءات كثيرة عن محمد صلى الله عليه وسلم ولكن ليس في النبوءات : أن المسيح سيظهر من نسل داوود ويتهمة النصارى بالالوهية • مع العلم بأن عيسى ليس من داوود بل هو من نسل هارون عليه السلام • انظر كتابنا : (اعجاز القرآن) وكتابنا : (أقانيم النصارى) •

« اللهم ابعث جاعل السنة ، كي يعلم الناس أنه بشر » •

فاعتبر قول داوود حين أفزعه ذلك وراعه • كيف دعا الى الله :
أن يبعث جاعل السنة ، الذي يعلم الناس : أن ذلك الولد المدعو :
انما هو بشر •

وكذلك قال المسيح على ما حكاه انجيلكم : « اللهم ابعث البارقليط ،
ليعلم الناس : أن ابن الانسان بشر » •

« والبارقليط » (١) بالرومية : هو « محمد » بالعربية •

فلما ضللتهم ، وتفوهتم بذلك ، وراغمتهم أدلة العقول ، وكلام
الأنبياء المنقول • بعث الله جاعل السنة ، وكاشف الغمة : محمدا صلى
الله عليه وسلم ، فأعلم الناس أنه بشر ، ليس بالاله • ولا ابن اله •
فقال مبلغا عن الله : « وقالت النصارى المسيح ابن الله • ذلك قولهم
بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون •
اتخذوا أحبارهم ورهبانهم : آربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم
وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما
يشركون » (٢) وقال تعالى : « وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا • ان
كل من في السموات والأرض الا أتى الرحمن عبدا » (٣) •

ونذكر الآن هنا : خبر « النجاشي » ليكون منبهة للعاقل ، ومردعة
للجاهل •

وذلك أن الله تعالى • لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم اتبعه
جماعة ممن نور الله قلبه ، وشرح للإسلام صدره • وذلك في أول الأمر •
فآمنوا به ، والتزموا شرعه وأحكامه • فكان كفار قريش والمخالفون
لهم في أديانهم يؤذونهم ويعذبونهم ، يرومون بذلك ردهم عن دينهم ،
كما قد فعل بأتباع الأنبياء قبلهم ، فلما اشتد عليهم الأمر • شكوا ذلك
لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يهاجروا الى أرض الحبشة ،
ووعدهم بأن يجعل الله من أمرهم فرجا • وأخبرهم أن بها ملكا عظيما ،
لا يظلم عنده أحد • ففعلوا • فقدموا على النجاشي واسمه « أصحمة »
وكان على صميم دين النصرانية •

(١) البيرقليط هي محمد ، والبارقليط تعني النائب عن عيسى .

(٢) التوبة : ٣٠ ، ٣١

(٣) مريم : ٩٢ ، ٩٣

فلما قدموا عليه استقر بهم المنزل ، ووجدوه خير منزلى • فأقاموا هناك دينهم ، واجتبط النجاشى بصحبته • وهم بجواره • فلما رأى كفار قريش ، أن قد وجدوا بأرض النجاشى أمنا ودعة ، وجهوا اثنين منهم وأصحابوهما هدايا جليلة الى النجاشى وأقسته • وطلبوا منه ، ومن أساقفته : أن يسلمهم لهما •

فلما قدما أرض النجاشى دفعا لأقسته هداياهم ، وطلبوا منهم أن يعينوهما على ردهم معهما ، واسلامهم لقومهما • ثم دفعا للنجاشى هديته • وقالوا له : أيها الملك • قد ضوا الى بلدك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينك ، وجاعوا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا أنت ، وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم ، وعشائهم ، لتردهم اليهم •

فهم أعل بهم غينا • وأعلم بما عابوا عليهم • فأسلمهم اليهم ، فغضب النجاشى • ثم قال : لا • والله لا أسلمهم اليهما أبدا • ولا يكاد قوم جاورونى : ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى ، لا أسلمهم حتى أدعوه • فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم •

ثم أرسل الى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءوا وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله • فقال لهم : ما هذا الدين الذى فارقتم به قومكم ، ولم تدخلوا في دينى ، ولا دين أحد من هذه الملل كافة ؟

فكلمه « جعفر بن أبى طالب » فقال : أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية • نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوى الضعيف ، فكنا على هذا حتى بعث الله إلينا رسولا نعرفه ، ونعرف نسبه وأمانته ، وصدقه وعفافه ، فدعانا الى الله ، لنوحده ، ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان •

وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات •

وأمرنا أن نعبد الله ، ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام •

وعدد عليه أمور الاسلام • فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به عن الله • فعدي علينا قومنا • وعذبونا وفتنونا عن ديننا • ليردونا الى عبادة الأوثان • وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث • فلما قهرونا وظلمونا • خرجنا الى بلادك ، واخترناك على من سواك • ورجبنا في جوارك ورجونا ألا نظلم عندك •

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم • فقال : اقرأه •

فقرأ عليه جعفر صدرا من « كهيعص » فبكى — والله — النجاشي ، حتى أخضل لحيته ، وبكت أساقفته ، حتى أخضلوا لحاهم ، حين سمعوا ما تلا عليهم • ثم قال النجاشي : ان هذا ، والذي جاء به موسى ، ليخرج من مشكاة واحدة • انطلقا • فلا والله لا أسلمهم اليكما ولا أكاد •

فلما خرجا من عنده ، وقد يتئسا من مرادهما • قال أحدهما • وهو « عمرو بن العاص » : لآتينه عنهم غدا بما يهلكهم لأجله • ثم غدا عليه من الغد • فقال : أيها الملك • • انهم يقولون في عيسى ابن مريم قولا عظيما • فأرسل اليهم ليسألهم • قالوا : ولم ينزل بنا مثلها ، فاجتمع القوم ، ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى اذا سألكم ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله ، وما جاء به نبينا ، كائنا في ذلك ما كان •

فلما دخلوا عليه • قال لهم : ما تقولون في عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبي طالب : نقول فيه : الذي جاءنا به نبينا : هو عبد الله ورسوله • وروحه وكلمته • ألقاها الى مريم العذراء البتول •

قال : فضرب النجاشي بيده الى الأرض ، فأخذ منها عودا • ثم قال : ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود •

فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال • فقال : وان نخرتم • والله • اذهبوا • فأنتم « شيوم » ترجمته « آمنون » (١) •

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام في خبر النجاشي هذا •

فهذا قول أهل العلم من قبلكم . العارفين بشريعتكم ، وما عدا
ذلك فشجرته غناء وأوضار « اجتثت من فوق الأرض ، ما لها من قرار » (١)

وسياتى ان شاء الله تعالى : قول هرقل . اثر هذا الباب ، ان
شاء الله تعالى .

كمل الجزء الثانى : والحمد لله وحده .

(انتهى الجزء الثانى من كتاب « الاعلام بما فى دين النصارى من الفساد
والاوهام واظهار محاسن دين الاسلام واثبات نبوة نبينا محمد عليه
الصلاة والسلام » ويليه الجزء الثالث باذن الله . وأوله : « أنواع القسم
الثانى فى اثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام ») .

الأخلاق

بِمَا فِي دِينِ النَّصَارَى مِنَ الْفُسَادِ وَالْأَوْهَامِ
وَأُظْهَرَ مُحَاسِنَ دِينِ الْإِسْلَامِ
وَأَثْبَتَ نُبُوَّةَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

تأليف

الإمام الفَرَطِيُّ

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور أحمد مجازي الشقفا

المجلد الثالث

دار التراث العربي

أنواع القسم الثاني

في إثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام

نقول : ان محمد بن عبد الله العربي القرشي الهاشمي الاسماعيلي رسول الله صلى الله عليه وسلم صادق في كل ما أخبر به عن الله تعالى ، ولا يجوز عليه شيء من الكذب •

ونسندل على ذلك : بأدلة صادقة ، وبراهين قاطعة ، أصولها أربعة :

الأول : أنواع أخبار الأنبياء قبله ، ووصفهم له في كتبهم •

الثاني : النظر في قوانين أحواله •

الثالث : الكتاب العزيز •

الرابع : ما ظهر على يديه من خوارق العادات •

فهذه أربعة أنواع •

* * *

النوع الأول

من الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

اخبار الأنبياء به قبله

وانما قدمنا هذا النوع ، وان كان غيره أولى بالتقديم ، لكون الأنبياء الخبيرين بعلاماته ، متقدمين عليه في الزمان ، ولكون هذه البشائر كانت معروفة قبل مجيئه ، ولكون السائل الذي كتبنا هذا الكتاب جوابه ، لم يطلب منا بجهله ، الا الاستدلال بما جاء في كتب الأنبياء • وليكون هذا الباب مؤنسا له ، وباعثا على النظر فيما بعده • ولتعلم أن الاستدلال بهذا النوع ، لا ينتفع به الا من صدق بتلك الكتب • وتواترت عنده •

ومن خلى عن شيء من ذلك ، لا ينتفع بشيء منها ، ولا يستدل بها عليه • وأما ما بعد هذا النوع ، فيستدل به على كل من أنكر نبوته من سائر الفرق • فأما هذا النوع فانما هو حجة على اليهود والنصارى • لادعائهم : أن تلك الكتب تواترت عندهم •

وهذا النوع عندنا على التحقيق : انما هو داخل في باب الالزامات لهم • ليظهر عنادهم وافحامهم • ثم لتعلم أنا انما نذكر أخبار الأنبياء المبشرة بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم من كتبهم التي بأيديهم ، وعلى ما ترجمها مترجموهم من غير زيادة ولا نقصان •

فمن ذلك : ما جاء في التوراة : أن الله قال لموسى بن عمران : « انى أقيم لبنى اسرائيل من اخوتهم نبي مثلك • أجعل كلامى على فيه • فمن عصاه انتقمته منه » (١) •

فان قلت : ان ذلك انما هو « يشوع بن نون » (٢) قلنا : لا •

(١) الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية • الآية الخامسة عشر وما بعدها •

(٢) اليهود الى اليوم يقولون : هذا النبي لم يات الى الآن واذا أتى سيكون منهم • والنصارى يقولون : هو عيسى • والحق : أنه محمد صلى الله عليه وسلم لأن لاسماعيل بركة •

فقد قال في آخر التوراة : « لا يخلف من بنى اسرائيل نبي مثل موسى »^(١) فلا محالة أن ذلك الذي بشرت به التوراة لا يكون من بنى اسرائيل • لكن من اخوة بنى اسرائيل • فلننظر • من هم اخوة بنى اسرائيل ؟ فلا محالة : أنهم العرب • أو الروم^(٢) •

فأما الروم فلم يكن منهم نبي سوى أيوب ، وكان قبل موسى بزمان ، فلا يجوز أن يكون هو الذي بشرت به التوراة ، فلم يبق إلا العرب • فهو اذن : محمد عليه السلام • وقد قال في التوراة حين ذكر اسماعيل جد العرب : « انه يضع فسطاطه ، في وسط بلاد اخوته »^(٣) فكفى عن بنى اسرائيل : باخوة اسماعيل ، كما كفى عن العرب باخوة بنى اسرائيل ، في قوله : « انى أقيم لبنى اسرائيل من اخوتهم نبي مثلك » ويدل على ذلك أيضا قوله : « أجعل كلامي على فيه » فان هذا تصريح بالقرآن • اذ هو كلام الله الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وتلقيناه من فلق فيه • ويدل أيضا على ذلك قوله : « من عصاه انتقمتم منه »^(٤) اذ قد فعل الله ذلك بصناديد قريش ، وعظماء ملوك الروم وغيرهم ، فهم بين أسير وقتيل ، ومعطى الجزية على وجه الصغار ، والذلة « ولعذاب الآخرة أشق »^(٥) •

ومن ذلك • ما جاء فيها أنه قال : « وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بنى اسرائيل قبل موته • فقال : « جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبال فاران • ومعه جماعة من الصالحين »^(٦) •

(١) تثنية ٣٤ : ١٠

(٢) يشير بالروم الى سكان الاردن وهم نسل عيسو بن اسحاق عليه السلام • (٣) تكوين ١٦ : ١٢

(٤) ترجمتها الحالية : « ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي . تباد من الشعب » (أعمال ٣ : ٢٣) وفي التوراة : « ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه » (تثنية ١٨ : ١٩)

(٦) تثنية ٣٣ : ١ - ٣

(٥) الرعد : ٣٤

فمجيئه من جبل سيناء : أن الله أنزل فيه التوراة ، وكلم عليه موسى • وإشراقه من جبل ساعير : أن دين المسيح إنما أشرق من جبال ساعير ، وهى جبال الروم من أدوم^(١) • واستعلانه من جبال فاران : أن الله تعالى بعث منها محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأوحى إليه فيها •

ولا اختلاف : أن فاران : « مكة » وقد قال فى التوراة : « ان الله أسكن هاجر وابنها اسماعيل فاران »^(٢) •

وفى بعض التراجم : « أقبل السيد من سيناء ، ومن شعير تراءى لنا ، وأقبل من جبال فاران ومعه آلاف من الصالحين ، ومعه كتاب غارى ، وهو ختم الأجناس • وجميع الصالحين فى قبضته ، ومن تدانى من قدميه يصب من علمه » •

ففكر على انصاف وتثبت • من الجائى المقبل من جبال فاران • مع الآلاف من الصالحين ؟ ومن جاء بالكتاب الذى ما منه سورة الاوفىها الوعيد على المخالف بالنار وعذابها وأنكالها وأغلالها ؟^(٣) •

ومن ذلك • ما جاء فيها أيضا • أن الله قال لابراهيم : « قد استجبته فى اسماعيل • وباركته • وكثرته • وأنميته ، جدا جدا ، يولد له اثنا عشر عظيما ، وأجعله لشعب عظيم » ولا يشك فى أن الشعب العظيم هو محمد عليه السلام وأمته • اذ لم يكن فى ولد اسماعيل أعظم منهم •

وقد تفتن بعض النبهاء ، ممن نشأ على لسان اليهود ، وقرأ بعض كتبهم • فقال : فى التوراة موضعان^(٤) يخرج منهما اسم محمد • بالعدد على ما تستعمله اليهود فيما بينهم •

ثم ذكر ما قدمته من قول الله لابراهيم : « قد استجبته فى اسماعيل » •

(١) أدوم هو عيسو وجبل ساعير أيضا يجاور القدس (يشوع ١٥)

(٢) تكوين ٢١ : ٢١

(٣) تشير النبوة الى عذاب المظلمين للذين لا يسلطون من اليهود •

(٤) الأول : بهاد ماد (جدا جدا) والثانى : لجوى جدول (شعب عظيم)

فأما قوله « جدا جدا » فهو بتلك اللغة « بمأد ماد » وعدد هذه الحروف : اثنان وتسعون • وذلك أن الباء عندهم : اثنان • والميم : أربعون • والألف : واحد • والداال : أربعة • والميم الثانية : أربعون • والألف : واحد • والداال : أربعة • وكذلك الميم من محمد : أربعون • والحاء : ثمانية • والميم : أربعون • والداال : أربعة •

وأما قوله « لشعب عظيم » فهو بتلك اللغة « لغوى غدول » فاللام عندهم : ثلاثون ، والغين : ثلاثة • وهى عندهم مقام : الجيم ، اذ ليس فى لغتهم : جيم ، ولا ضاد • والواو : ستة • والياء : عشرة • والغين أيضا : ثلاثة • والداال : أربعة • والواو : ستة • واللام : ثلاثون • فمجموع هذه أيضا : اثنان وتسعون •

وهذا من رشيح الفهم ، وملح البحث ، وغرائب العلام •

وفى التوراة أيضا : أن ملاك الرب قال لهاجر : « ستلدن ابنا » وتدعين اسمه اسماعيل ، يده على كل • ويد كل به • وسيحل على جميع حدود اخوته » (١) •

ولا محالة أن اسماعيل ، وولده لم تكن أيديهم الا تحت يد « اسحق » لأن النبوة والملك انما كانا فى ولد اسحق ، فلما بعث الله تعالى محمدا ، جعل يد بنى اسماعيل فوق أيدي الجميع ، ورد النبوة والملك فيهم • وأنما هم • وعظمهم ، وبارك عليهم جدا •

ومن ذلك ما جاء فى الزبور الذى بأيديكم أنه قال : « سبحوا الرب تسبيحا ، حديثا • سبحوا الذى هيكله الصالحون ، ليفرح اسرائيل بخالقه ، وبنو صهيون • من أجل أن الله اصطفى لهم أمة ، وأعطاهم النصر ، وسدد الصالحين منهم بالكرامة • يسبحون الله على مضاجعهم ويكبرونه بأصوات مرتفعة • بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، لينتقم الله بهم من الأمم • الذين لا يعبدونه ، يوثقون ملوكهم بالقيود وأشرافهم بالأغلال » (٢) •

(١) تكوين ١٦ : ١١ - ١٢

(٢) المزمور المئة والتاسع والأربعون • وهو مثل الأمة الاسلامية فى التوراة الذى تشير اليه سورة الفتح • ومثل الأمة الاسلامية فى الانجيل مذكور فى الاصحاح الرابع من مرقس •

أخبرونا • يا هؤلاء الجاحدون للحق ، المعرضون عن أخبار الصدق :
من هذه الأمة التي سيوفها : سيوف ذوات شفرتين ، ينتقم الله بهم
من الأمم الذين لا يعبدونه ؟ ومن المبعوث بالسيف من الأنبياء ؟ ومن
الذين يكبرون الله بأصوات مرتفعة في الأذان ؟ هذه أوصاف محمد
صلى الله عليه وسلم • وأوصاف أمته ، بلا ريب ، ولا رجم غيب •

وفي الزبور أيضا : ذكر صفة محمد صلى الله عليه وسلم فقال :
« ويجوز من البحر ، الى البحر ، ومن منقطع الأنهار • الى منقطع
الأنهار • وأنه يخر أهل الجزائر بين يديه على ركبهم • ويلبس
أعداؤه بالتراب • وتأتيه ملوك بالقرايين وتسجد له وتدين له الأمم
بالطاعة والانقياد • لأنه يخلص المضطهد البائس من الأقوى منه ،
وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرأف بالضعفاء والمساكين • وأنه
يعطى من ذهب بلاد سبأ ، ويصلى عليه في كل وقت • ويدوم أمره الى
آخر الدهر » (١) •

تأمل أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم فهي على ما ذكر • ما غادر
منها واحدا • ولم تجتمع هذه الصفات والعلامات لأحد قبله ، على
ما هو معروف من أحوال الأنبياء المتقدمين ، عند العلماء المنصفين
غير الجاهلين المتعصبين •

وفي الزبور أيضا : أن الله تعالى « أظهر من صهيون اكليل
محمودا » (٢) •

فالأكليل : ضرب مثل لرياسته ، ومحمود : هو محمد صلى الله
عليه وسلم • وقد بلغ دينه صهيون وغيره •

وفيه أيضا : « تقلد أيها الجبار سيفك ، فإن فاموسك ، وشريعتك
مقرونة بيمينك ، وسهامك مسنونة ، والأمم يخرون تحتك » (٣) •

تأمل • من الجبار الآتى بشرائع يظهرها بالسيف والسهام ؟ فانك
إذا تأملت ذلك لم تجد على هذه الصفات أحدا من عهد داود الا

(١) الزمور الثاني والسبعون •

(٢) بالمعنى في الزمور ١٣٢ : ١٨ والزمور ١٣٣

(٣) الزمور الخامس والأربعون •

النبي محمد عليه الصلاة والسلام • فهو المبشر به ، لا محالة •
وقد تقدم قول داوود : « اللهم ابعث جاعل السنة ، كي يعلم
الناس أنه بشر » (١) •

فليُنظر هنالك • فإنه نص على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم •
فإنه جاعل السنة ، وهو أخبر بأن المسيح : بشر • وليس بآله •

وفي الزبور (٢) ترجمة « وهب بن منبه » يقول الله تعالى لداوود
عليه السلام في المزمور الخامس : « اسمع ما أقول • وهر سليمان •
فلبقله للناس من بعدك : أن الأرض لى أورثها محمدا • وأمته • فهم
خلافكم لم تكن صلاتهم بالطنابيز ، ولا قدسونى بالأوتار » •

وهذا تصريح باسمه ، وتأيد شريعته ، وبصفات أمته • وزبور
« وهب بن منبه » هذا الذى نقلت منه ، أصح ما يوجد من كتاب
الزبور • فإنه أوثق وأعلم من كل ترجمة فى سالف الدهور • ولكن
النصارى مع ذلك يكذبون اذ هم جاهلون ومعاقدون •

ومن ذلك • ما جاء فى الانجيل الذى بأيديكم : أن المسيح قال :
« ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى • وسأرغب الى الآب • فى أن
يبعث اليكم البرقلىط • ليكون معكم الى الأبد • روح الحق الذى
لا تقبله الدنيا ، لأنها لا تراه • ولا تعرفه • وأنتم تعرفونه لأنه نازل
عليكم ، وعندكم لا بث ، ولست أدعكم أيتاما » (٣) •

وفيه أيضا عن يوحنا : أن المسيح قال : « سينفعكم ذهابى •
لأنى ان لم أذهب لم يأتكم البرقلىط وان ذهبت سأبعثه اليكم • واذا قدم
سيعرف الدنيا بالمأثم والعدل والحكم • فأما المأثم فتركهم الايمان
بى • وأما العدل فذهابى الى الآب ، ولا ترونى بعدها • وأما الذى
يحكم بى فيها • فإنه يحكم على صاحب الدنيا ، ويقهر •

(١) سبق الحديث •

(٢) بالمعنى ، وهو واضح فى المزمور السابع والثلاثين •

(٣) يوحنا ١٤ : ١٥ - ١٨

وقد بقيت لى أشياء كثيرة ، أعلمكم بها ، الا أنكم لا تحملونها
الآن . فاذا قدم الروح الصادق فهو يعرفكم بالصواب . وليس يعلمكم
من ذاته ، الا بما يسمع ، وسيعلمكم بما يكون . وسيعظمنى . لأنه
يصيب منى ويعلمكم » (١) .

وفيه أيضا . أن المسيح قال للحواريين : « الذى ييغضنى ييغض
أبى . فلو لم أطلع عندهم من العجائب ما لم يطلع غيرى لم يكن قبلهم
ذنب . ولكنهم الآن قد عابوا وكرهونى . ليتم ما كتب فى كتبهم ، حيث
قال انهم كرهونى بلا ذنب . فاذا أقبل البرقليط ، الذى أبعث اليكم من
عند الآب ، الروح الصادق المنبثق من الآب ، هو يؤدى الشهادة عنى ،
وأنتم تستشهدون لأنكم كنتم معى من أول الأمر . وانما أقول لكم
هذا ، لئلا يواقعكم التشكيك » (٢) .

فالبرقليط (٣) بالرومية : المنحمن بالسريانية ، وهو : محمد بالعربية .
فتأمل هذه البشائر التى لا ينكرها الا معاند مجاهر . فقد
أخبر به المسيح : بالعين والاسم والأفعال « فماذا بعد الحق الا
الضلال » (٤) ؟

وفيه أيضا . أنه قال لليهود : « وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا .
لم نساعدكم على قتل الأنبياء . . فأتوا كيل آبائكم ، يا ثعابين بنى
الأفاعى ، كيف لكم والنجاة من عذاب النار ؟ وسأبعث اليكم أنبياء
وعلماء وستقتلون منهم وتصلبون وتجلدونهم فى جماعتكم ، وتطلبونهم
من مدينة الى أخرى لتتكامل عليكم دماء المؤمنين المهرقة على الأرض
من دم هابيل الصالح . الى دم زكريا بن برخيا ، الذى قتلتموه بين
المذبح والهيكل آمين . آمين . أقول : انه سيأتى جميع ما وصفت
على هذه الأمة . يرشالم . يرشالم . التى تقتل الأنبياء ، وترجم من
بعث اليها . قد أردت أن أجمع بنيك ، جمع الدجاجة فراريها تحت
جناحيها . وكرهت أنت ذلك .

(١) يوحنا ١٦ : ٧ - ١٤

(٢) يوحنا ١٥ : ٢٣ - ٢٧ و ١٦ : ١

(٣) البرقليط - بكسر الباء - : اسم محمد - وبفتح الباء - : الخائب

عن المسيح ، ومعنى الرومية : اللغة اليونانية . (٤) يونس : ٣٢

سأقفر عليكم بيوتكم • وأنا أقول لكم : لا تروني الآن ، حتى يأتى
من تقولون له : مبارك الآتى على اسم الله » (١) •

تأمل بشارته بالنبي محمد عليه السلام ، وتوعده لهم بالانتقام
منهم على يديه •

فاذا تأملت هذا على جهة الانصاف ، لاح الحق لك • والا فمن
« كان في هذه أعمى ، فهو في الآخرة أعمى ، وأضل سبيلا » (٢) •

وقوله « سأبعث » في الموضعين : تحريف • بدليل قوله فيما تقدم :
« سأرغب الى الآب في أن يبعث اليكم البرقليط » فقد صرح هنا :
بأن الباعث له : هو الله • لا هو • وهو الحق ، اذ قد تبين : أن المسيح
لا يفعل شيئا من ذاته ، وانما يفعل ما يريد الله تعالى ، وقد تقدم
قوله « لست أنفذ ارادتي • وانما أنفذ ارادة الرب » •

وفيه أيضا • أن المسيح قال : « ان التوراة وكتب الأنبياء يتلو
بعضها بعضا بالنبوة والوحي حتى جاء يحيى • وأما الآن • فان شئتم
فاقبلوا • فان ايل مزعم أن يأتى • فمن كانت له أذنان سامعتان ،
فليسمع » (٣) •

ايل (٤) : هو الله تعالى • ومجيئه هو : مجيء رسوله بكتابه
وأمره ، كما قال في التوراة « جاء الله من سيناء » وما أشبه ذلك •

فان قلت : قوله « فان ايل مزعم أن يأتى » وقوله « حتى يأتى »

(١) آخر الاصحاح الثالث والعشرين من انجيل متى •

(٢) الاسراء : ٧٢ • (٣) متى ١١ : ١٤ - ١٥ •

(٤) ظن المؤلف - ولا شك أنه ينقل عن غيره - أن عبارة الانجيل
« ايل » ، وتفسيرها الله مثل جبرائيل أى رجل الله ، واسرائيل ، أى المجاهد
مع الله ولكن الصحيح : أن الكلمة : ايلياء ويشير بايلياء الى محمد صلى الله
عليه وسلم بحساب الجمل فان ملاخى في الاصحاح الأخير من سفره يقول على
لسان الله تعالى : « ها أنذا أرسل اليكم ايلياء النبي قبل مجيء يوم الرب »
وعيسى عليه السلام ينطق اسم محمد كما نطقه ملاخى • وايلياء بحساب
الجمل يساوى اسم أحمد فالألف بواحد والياء بعشرة واللام بثلاثين والياء
بعشرة والألف بواحد والهمزة بواحد فالجُمُوع ثلاث وخمسون والألف من
أحمد بواحد والحاء بثمانية والميم بأربعين والدال بأربعة •

من تقولون له : مبارك (١) الآتى « انما أراد من كان بعده من الأنبياء .
مثل : بارنابا ، وشمعون (٢) ، وليوقئوش • ومناين • هؤلاء أنبياء
« أنطاكية » (٣) ومن « بيت المقدس » أغفانوس • ومن « فلسطين »
جرجيس •

فالجواب : أنه لا يصح لكم أن تعترفوا بنبوة واحد من هؤلاء ،
بل ينبغى لكم أن تكفروا بهم لأنكم ترون : أنه لا نبي بعد المسيح ،
وتسندون ذلك الى كتبكم • فاما أن تكذبوا بقولكم لا نبي بعد المسيح
أو تتكفروا بنبوة من ذكرتم •
ثم لو سلمنا أنهم أنبياء • فليسوا المرادين بما ذكر ، لأنهم لم
يأتوا بكتب من الله • ولا بأوامر آخر •

وغايتهم : أن يحكموا بكتب الأنبياء قبلهم •
واتيان الله فيما ذكر : انما هو عبارة عن اتيان « نبي » من
أنبيائه بكلامه ، وكتابه ، كما قال « جاء الله من سيناء ، وأشرق من
ساعير ، واستعلن من جبال فاران » وهذا واضح للمنصف (٤) •

وقد زعم بعض المعاندين الجاهلين ممن ينتمى الى دينكم : أن
المبشر به في دينك الموضعين (٥) : انما المراد به رجوع بعض ما مضى
من الرسل ، وعودهم الى الأرض ، والى الناس (٦) • وهذا قول باطل
صدر عن معاند جاهل اذ لم يثبت شيء من ذلك على لسان نبي فاضل ،
الا ما صح (٧) على لسان نبينا من رجوع عيسى ابن مريم صلوات الله

(١) يشير بالمبارك الى محمد صلى الله عليه وسلم كما عبر داوود في
المزمور المئة والثامن عشر • (٢) شمعون : بطرس •
(٣) الإصحاح الثالث عشر من سفر أعمال الرسل •
(٤) لم يفتن المؤلف الى أن من عادة اليهود والنصارى تلقيب العلماء
بلقب الأنبياء وتلاميذ العلماء بلقب بنى الأنبياء وقد بينا هذا في كتابنا :
(أقانيم النصارى) وتحقيقتنا : لمنظومة الامام الأبوصيرى في الرد على
النصارى واليهود •

(٥) يشير الى : المبارك الآتى والى ايلياء •
(٦) يقولون في المبارك انه المسيح عيسى في مجيئه الثانى ويقولون
في ايلياء هو يوحنا المعمدان (يحيى عليه السلام) جاء الى الدنيا بروح وقوة
الياس عليه السلام •
(٧) لم تصح لأنها أخبار آحاد (انظر كتاب الفتاوى للشيخ شلتوت) •

عليهم وسلامه اذ أخرج « الدجال » وقتله له • وفي انجيلكم إشارة الى هذا • وهذا عندنا مبنى على أن الله تعالى رفع المسيح اليه ، ولم يقتل • **مات (١)** « بل رفعه الله اليه » (٢) على ما يأتي عند ذكر الصلوية • وانما يموت اذا قتل الدجال عند باب « لد » وبعد أن يهلك الله « ياجوج ومأجوج » على يديه •

وفي الانجيل أيضا • أنه ضرب مثلاً للدنيا (٣) فقال : « مثل الدنيا كمثل رجل اغترس كرماً ، وسبخ حوله ، وجعل فيه معصرة ، وشيد فيه قصراً ، ووكل به أعواناً ، وتغرب عنه • فلما دنا أوان قطافه ، بعث عبيده الى أعوانه ، الموكلين بالكرم » •

فضرب المسيح عليه السلام مثلاً للأنبياء ، ثم لنفسه ، ثم قال : « سيزاح عنكم ملك الله ، وتعطاه الأمة المطيعة » •

فتأمل • ثم ذكر في المثل : « صخرة » وقال : « من سقط على هذه الصخرة سينكسر • ومن سقطت عليه يتهشم » (٤) يريد بذلك محمداً صلى الله عليه وسلم • من ناواه وحاربه أظهره الله عليه • وكذلك ، قد أزاح الله ملككم • وأزاله عنكم ، وأعطاه أمة محمد ، حيث افتتحوا عليكم بلاد الشام ، وبلاد الغرب ، وردوكم في أكثر الأرض ، أهل ذلة ، وصغار ، وأخذوا منكم الجزية بعد القتل الذريع ، والابتزاز الشديد ، بعد أن كان ملككم راسخاً ، وجبله شامخاً • فهد الله بنبيه قواعده ، ولينفذ به الله مواعده ، وأعظم شاهد على أن الله أزاح ملككم عنكم كما قال المسيح : ان الله تعالى أعطانا بيت المقدس ، وأظهرنا عليه • وان كرهتم • والحج اليه عندكم من أعظم شرائعكم ، وشرائع اليهود ، ثم الواحد منكم لا يصل اليه ، حتى يلحقه من الذلة والصغار ، ما لا يخفى عليكم « والله متم نوره ، ولو كره الكافرون » (٥)

(١) لم يقتل عيسى وانما مات ورفع بروحه درجة لا رفعة جسد •

(٢) النساء : ١٥٨

(٣) هو مثل للناس على الأرض وارسل الله الرسل للهداية ويشير بالامة المطيعة الى امة الاسلام •

(٤) هذا المثل يسمى « مثل الكرامين الأعداء » وهو في الاصحاح الحادى

(٥) الصف : ٨

والعشرين من متى •

وفي صحف أشعيا النبي الذي بأيديكم • قال : « ستمتلىء
البادية والقصور التي سكنها قي دار ، يسبحون ، ومن رؤوس الجبال
ينادون • هم الذين يجعلون لله الكرامة ، ويبثون تسبيحه في البر
والبحر » (١) •

وفي صحف حزقيال النبي عن الله يقول : « انى مؤيد قي دار
بالملائكة » (٢) •

وقي دار : ولد اسماعيل ، بلا شك • فانظر أى بادية هذه البادية
التي انتقلت من قصور الى قي دار ؟ والذين ينادون بالأذان والتلبية
من رؤوس الجبال ، ويجعلون لله الكرامة بالصلاة والحج والصوم
والزكاة وغير ذلك ؟ وقد ثبت أن الملائكة قاتلت مع النبي صلى الله عليه
وسلم في مواطن على ما يأتى ان شاء الله تعالى •

وقال أشعيا النبي عن الله : « عبدى الذى سرت به نفسى ،
أنزل عليه وحى ، فيظهر فى الأمم عدلى ، يوصى الأمم بالوصايا •
لا يضحك ، ولا يسمع صوته فى الأسواق ، يفتح العيون العور ، ويسمع
الأذان الصم ، ويحيى القلوب الغلف ، وما أعطيه لا أعطيه غيره •
أحمد يحمد الله حمدا كثيرا • يأتى من أقصى الأرض ، تفرج
البرية • وسكانها يهللون الله على كل شرف ، ويكبرونه على كل رابية •
لا يضعف ، ولا يغلب ، ولا يميل الى الهوى • ولا يسمع فى الأسواق
صوته ، ولا يذل الصالحين ، الذين هم كالعصبة الضعيفة ، بل يقوى
الصديقين ، وهو ركن للمتواضعين ، وهو نور الله الذى لا يطفىء
ولا يخاصم ، حتى تثبت فى الأرض حجتى ، وينقطع العذر به ، والى
توراته ينقاد الحق » (٣) •

فاعتبر هذا التصريح باسم محمد وصفاته • وان هذه العلامات
المذكورات على لسان هذا النبي لا يصبح بحال أن توجد لغيره ، ولم يكن
الا له •

فان قلت : هو المسيح • قيل لك : تفهم لفظ الكلام ومساقه ،
وحينئذ تحكم بأنه « محمد » قطعا • وذلك أنه قال فيه « يوصى الأمم »

(٢) حزقيال ٢٧ : ٢١

(١) أشعيا ٤٢ : ١١ - ١٣

(٣) أشعيا : الاصحاح الثانى والأربعون - والترجمة مختلفة كثيرا •

(١٨ - الاعلام)

وهذا التصريح ببعثه للناس كافة • وعيسى إنما بعث للأجناس من بني إسرائيل خاصة بدليل قوله في الانجيل : « انى لم أبعث الى الأجناس • وانما بعثت الى الغنم الرابضة من نسل إسرائيل » (١) •

وكذلك قال للحواريين : « لا تسلكوا في سبيل الأجناس • ولكن اختصروا بالضرورة الى الغنم الرابضة من بني إسرائيل » (٢) •

ثم قال « أحمد يحمد الله » وهذا تصريح باسمه ، فان أسمائه كثيرة منها : محمد • وأحمد • ثم قال : « يهللون الله على كل شرف ، ويكبرونه على كل رابية » وهذا اخبار بأذانهم وتلبيتهم • وليس هذا لأحد غيره • ثم قال « لا يضعف ولا يغلب » وأنتم تزعمون أن المسيح غلب على نفسه ، وحمل على خشبة ، وسمرت يداها فيها ، وقتل عليها ، بعد صفع واهانة عظيمة • ولا درجة في الغلبة والضعف والذلة تزيد على هذا •

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد فتح الله عليه فتحة مبينا ، ونصره نصرا ، وأظهره على كل عدو معاند • حتى أعلى الله دينه ، وأفشى توحيده ، وعصمه من كل الشرور ، ووقاه كل مخوف ، وكل محذور • ومن أدل ما في كلامه : أن نبينا محمدا هو المراد والمبشر به قوله « لا يخاصم ، حتى تثبت في الأرض حجتى » فان هذا تصريح بالقرآن الذى جاء به • اذ قد عجز عن الاتيان بمثله ، أو بسورة مثله جميع البشر • وان كان فيهم اللد الفصحاء ، والمهرة الحكماء • فثبتت في الأرض حجة الله • وعلم أنه من عند الله • وسيأتى بيان هذا المعنى ان شاء الله عز وجل •

وفي صحف حبقوق النبي التى بأيديكم • قال : « جاء الله من القيمن • والقديس من جبل فاران وامتألت الأرض من تحميد أحمد ، وتقديسه ، وملا الأرض بهيبته » •

وقال أيضا : « تضىء لنوره الأرض ، وستنزع في قسيك اغراقا • وقرتوى السهام بأمرك يا محمد ارتواء » (٣) •

(١) متى ١٥ : ٢٤ وهذا في بدء دعوته وفي نهايتها قال : انطلقوا الى

الأمم (متى ٢٨ : ١٩) انظر أيضا سيرة ابن هشام • (٢) متى ١٠ : ٥ - ٦

(٣) هذا النص باختلاف في الترجمة يسير في الاصحاح الثالث من

سفر حبقوق •

فيا معشر العقلاء • انظروا عناد هؤلاء الجاحدين ، وانكار هؤلاء المباهتين ، وتواقع هؤلاء الجاهلين • كيف خالفوا هذه النصوص القاطعة ، والبشارات الصادقة ، محكمين في ذلك أهوائهم • وهم « يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » (١) •

وفي صحفه أشعياء النبي قال : « قيل لى : قم ناظرا • فانظر • فما ترى • تخبر به • قلت : أرى راكبين مقبلين ، أحدهما : على حمار • والآخر : على جمل • يقول أحدهما لصاحبه : سقطت بابل • وأصنامها النخرة » (٢) •

فصاحب الجمل هو : محمد صلى الله عليه وسلم • وصاحب الحمار ، باتفاق منا ومنكم ، هو : المسيح وليس محمد بركوب الجمل أشهر من عيسى بركوب الحمار • وانما سقطت عبادة الأصنام ببابل من دون الله وهدت أوثانها بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وأمثه ، لا بعيسى ولا بغيره • فما زالت ملوك بابل يعبدون الأوثان من كون ابراهيم الى زمان النبي صلى الله عليه وسلم وأمثه (٣) •

وفي صحفه أيضا : « لتفرح أرض البادية العطشى ، ولتبتهج البرارى والفلوات لأنها ستعطى بأحمد ، محاسن لبنان ، كمثل حسن الدساكير والرياض » (٤) •

هذا ينص على اسمه ووصفه وبلده بحيث لا ينكره إلا وقاخ مجاهر بالباطل الصراح •

وفي صحفه أشعياء النبي : « أتت أيام الافتقاد • أتت أيام

(١) الانعام : ٢٠

(٢) الاصحاح الحادى والعشرين من سفر أشعياء ...

(٣) توجد مشابهة بين كتاب الاعلام للقرطبي وكتاب مقامع همامات الصلبيان ومراتع روضات الايمان للخزرجي القرطبي المتوفى سنة ٥٨٢ هـ - هجرية في كثير من النصوص خاصة في هذا الموضع • وكذلك توجد المشابهة في منظومة الامام ابوصيرى في الرد على النصارى واليهود وكذلك في هداية الحيارى لابن قيم الجوزية •

(٤) الاصحاح الخامس والثلاثين من سفر أشعياء ...

الكمال»^(١) ثم قال : « لتعلموا يا بنى اسرائيل الجاهلين • أن الذى تسمونه ضالاً ، هو صاحب النبوة • تفترون ذلك على كثرة ذنوبكم ، وعظم فجوركم » •

وفي الصحف المنسوبة للثلاثى عشر نبيا^(٢) : « أن الله سيتجلى من القبله ، وتظهر كلمة القدس من جبال فاران ، ظهوراً أبدياً • ويحمد الله على ذلك فى السموات والأرض ، وكلمة أحمد تملأ الأرض » •

وفي صحف حزقيال النبى التى بأيديكم يقول عن الله بعد ما ذكر معاصى بنى اسرائيل • وشبههم بكرمة غذاها • وقال : « لم تلبث تلك الكرمة أن قلعت بالسخطة ، ورمى بها على الأرض ، وأحرقت السمائم حرها • فعند ذلك غرس غرس فى البدو ، وفى الأرض المهمله ، العطشى • وخرجت من أغصانها الفاضله نار أكلت تلك » حتى لم يوجد فيها غصن قوى ، ولا قضيب^(٣) •

اعتبر أيها العاقل • هذا المثل على جهة الانصاف يجانبك الخطأ والزلل • فان الكرمة مثل لدين المسيح^(٤) ورسالته • وذلك أن مقامه كان فى قومه زماناً يسيراً ورفع الله عن أتباع يسيرين • أحد عشر هلئى ما زعموا ، ثم أتباعهم على شرعهم المستقيم يسرون •

ثم بعد ذلك بنحو الأربعين سنة اعتراهم التبديل الكثير ، والتغيير العظيم ، حتى أحرقت ديار الكفر تلك الكرمة • فلما لم يبق منهم الا بقايا قليل عددهم ، وخفى موضعهم بعث الله نبيه فى أرض البدو التى هى أرض اسماعيل ومنشأه ، ووصفه لها بالعطشى تصريح بوصفها ، فأنها صحراء ، وكونها مهمله انما هو من النبوة • فانه لم يكن بها هبى من عهد اسماعيل الى عهد محمد صلى الله عليه وسلم • ثم انه شبه ما نصر به النبى عليه السلام من الحرب والربح بالفتار • التى تأنى على كل شئ • فكذلك دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أظهره الله بالحجة والسيف على الدين كله • ولو كره المشركون •

(١) الاصحاح الثانى والأربعين من أشعيا من الآية الخامسة •

(٢) الفصل من الاصحاح الثالث من سفر حزقيال بالمتى •

(٣) حزقيال الاصحاح التاسع عشر •

(٤) متى لبس اسرائيل على الأرض •

وقد قدمت أن في صحف دانيال النبي ، وقد نعت الكذابين وقال :
« لا تمتد دعوتهم ولا يتم قربانهم ، وأقسم الرب بمساعدته ألا يظهر
الباطل ، ولا يقوم لدع كاذب دعوة أكثر من ثلاثين سنة » (١) .

وهذا دين الاسلام الذي جاء به محمد عليه السلام له : ست مائة
سنة ، ونيف من الأعوام ، وهو باق الى آخر الأيام ، والحمد لله على
ما أولى من الفضل والانعام .

وقال دانيال النبي . وقد سأنه الملك نبوخذناصر (٢) عن رؤيا
رآها ، وطلب أن يخبر بها ، ثم بتفسيرها . فقال : « أيها الملك رأيت
صنما بارع الجمال ، أعلاه من ذهب ، ووسطه من فضة ، وأسفله من
نحاس . وساقاه من حديد ، ورجلاه من فخار . فبينما أنت تنظر اليه ،
وقد أعجبك اذ دقه الله بحجر من السماء ، فضرب رأس الصنم ،
فطحنه حتى اختلط ذهبه وفضته ونحاسه وحديده وفخاره .

ثم ان الحجر : ربا . وعظم . حتى ملأ الأرض كلها . قال له
نبوخذ ناصر : صدقت فأخبرني بتأويلها .

قال دانيال : أما الصنم . فأمم مختلفة في أول الزمان . وفي
وسطه ، وفي آخره . فالرأس من الذهب : أنت . والفضة : ابنك من
بعدك . والنحاس : الروم . والحديد : الفرس . والفخار : أمتان
ضعيفتان تملكهما امرأتان باليمن والشام . والحجر : هو دين نبى ،
وملك أبدى في آخر الزمان ، يغلب الأمم كلها ، ثم يعظم حتى يملأ
الأرض كلها ، كما ملأها ذلك الحجر » (٣) .

قلت . ولا يصح لك يا أيها المخدوع أن تدعى : أنه المسيح ،
فانه لم يغلب الأمم كلها بل غلب بزعمكم ، فانه استضعف فأهين ،
وصلب ، ولم يبعث الى الأمم كلها عامة ، بل الى قوم بأعيانهم خاصة .
وانما محمد الذي غلب كل الأمم العرب منها والعجم على اختلاف
أصنافها ، وشتى ضروبها وأوصافها ، فجعل الكل جنسا واحدا ،

(١) انظر الزمور المئة والتاسع .

(٢) في المخطوطة : بخت نصر .

(٣) 'الاصحاح الثانى من سفر دانيال' .

وألزمهم ديناً واحداً ، وصيرهم أمة واحدة وجعلهم على اختلاف لغاتهم يتكلمون بلغة واحدة ، أعنى إذا قرأوا القرآن • اذ لا يمكن أن ينتقل عن لسان العرب الى لسان غيرهم • فان ترجم بلسان آخر فليس ذلك هو القرآن • وانما هو تفسير القرآن •

يا أيها الجاهل ، الناكث عن الحق العادل • قد كنت ذكرت في كلامك : أن المسلم ان أقام شاهداً من كتب الأنبياء أن فيها محمداً منقظاً • فدينه حق ، ودين النصارى باطل • وقد أقمنا والحمد لله : الشواهد من كتب الأنبياء الأوائل على الذى طلبت ، على نحو ما رسمت • بل هذه الشواهد في دلالتها على نبوة محمد أوضح وأقص مما استدلت أنت بها على نبوة المسيح •

وقد وكلت العاقل المنصف للنظر في أى الدلالات أبين وأوضح • أدلالتنا ، أم دلالتكم ؟ وعند الوصول الى هذا القدر ، والوقوف على تلك الشواهد الغر • تتبين أن دين النصارى واليهود باطل وأنهم اما معاند واما جاهل •

ولقد جاء في كتاب أشعياء النبي من نعوته وأوصافه ، وذكر مكة بلده ، وحج الناس اليها ما لا يبقى معه ريب ولا اشكال •

فمن ذلك • قال جاكيا عن الله تعالى : « سأبعث قوماً فيأتون من المشرق أفواجا ، كالصبيد كثرة ، ومثل الطيـان الذى يدوس برجليه » (١) •

ومن ذلك أنه قال : « أبشرى واهتري يا أيتها العاقر التى لم تلد • وانطقى بالتسبيح ، وافرحى أن لم تحبلى • فان أهلك سيكونون أكثر من أهلى » (٢) •

هذه من الله مخاطبة لمكة ، على ما يقتضيه مساق كلامه • ثم شبهها بالعاقر من النساء ، التى لم تلد من حيث أن مكة لم يبعث منها نبي من بعد اسماعيل الا محمداً صلى الله عليه وسلم • ولا يجوز أن

(١) الاصحاح الحادى والأربعون من أشعياء •

(٢) الاصحاح الرابع والخمسون من سفر أشعياء •

يكون العاقر بيت المقدس • لأنها كانت مقر الأنبياء • وقوله « فان
أهلك سيكونون أكثر من أهلي » يعنى بأهله بيت المقدس •

وفي نفس النص : أنه قال حاكيا عن الله : « قد أقسمت بنفسى
كقسمى أيام الطوفان أن أغرق الأرض بالطوفان • كذلك أقسمت ألا
أسخط عليك ، ولا أرفضك • فان الجبال تزول ، والقلاع تنحط ، ورحمتى
عليك لا تزول » •

ثم قال فى النص نفسه : « يا مسكينة يا مضطهدة • ها أنذا بان
بانجس حجارتك ، ومزينك بالجواهر ، ومكلل بالؤلؤ سقفك • وبالزبرجد
أبوابك • وتبعدين من الظلم فلا تخافى • ومن الضعف فلا تخسفى •
وكل سلاح يعمل صانع لا يعمل فيك ، وكل لسان ذلق يقوم معك
بالخصومة تفلجين • ويسميك الله اسما جديدا » •

وكذلك كان اسمها الكعبة فسمها الله المسجد الحرام • وكذلك
قوله « بالخصومة تفلجين » انما هو اشارة الى كتاب الله الذى جاء به
محمد رسول الله الذى أفحم كل خصم وأسكت •

وفي صحف أشعيا أيضا : « فقومى واشرفى • فانه قد ورى زندك ،
ووقار الله عليك ••• انظرى بنيك حولك فانهم مجتمعون • يأتيك بنوك
وبناتك على الأيدى ، فحينئذ تنظرين وتزهرين ويخفق قلبك ويتسع ،
وكل غنم قيذار تجتمع اليك وسادات نبايوت يخدمونك ••• وتفتح
أبوابك الليل والنهار فلا تغلق ، ويتخذونك قبلة ••• وتدعين بعد ذلك
مدينة الرب » (١) •

فهاهو عليه السلام قد وصف مكة بأوصافها التى لا تحصى أن
توجد فى غيرها •

ومن أبين ذلك وأدله • قوله « وكل غنم قيذار تجتمع اليك ،
وسادات نبايوت يخدمونك » وقيدار ، ونبايوت ، ولدا اسماعيل •
وأغنامهم هى التى تساق الى مكة هديا • وهم أهل مكة ، وخدام البيت •
وليس بعد هذا بيان • وكذلك قوله « ويتخذونك قبلة » وهذا بشارة
بالنبي عليه الصلاة والسلام • فانها لم تتخذ قبلة الا على عهده صلى
الله عليه وسلم •

(١) الاصحاح الستون من سفر أشعيا •••

وقول أشعيا هذا في بعض التراجم هكذا : « ارفعى الى ما حولك
بصرك فستبتهجين ، وتفرحين من أجل أنه تميل اليك ثروة البحر ،
ويأتى اليك غنى الأمم ، حتى تعمرك ، قطار الابل المؤبلة تضيق أرضك
عن القطارات التى تجمع اليك . وتساق اليك كباش مدين ، ويسير
اليك أهل سبأ ، وتسير اليك أعلام قيدار ، ويخدمك رجال نبايوت » (١)
فاعتبر هذه الأوصاف البينة ، والأعلام المتصلة الظاهرة التى
لا توجد فى بلد الا فى مكة ، ولا يصح شئ منها أن يوجد فى بيت المقدس
ولا فى غيرها .

وقال أيضا عن الله (٢) : « أعطى البادية كرامات لبنان ، وبهاء جبل
الكرمل » فالبادية : مكة . ولبنان : الشام وبيت المقدس .

وقال على اثر ذلك : « وتتشق فى البادية مياه ، وسواق فى أرض
الفلاة . وتكون الفيافي والأماكن العطاش ينابيع . وتصير هناك محجة ،
وطريق الحرم . لا تمر به أنجاس الأمم ، والجاهل لا يضل هناك ،
ولا يكون به سباع ، ولا أسد . ويكون هناك ممر المخلصين » .

وقال أشعيا (٣) أيضا عن الله : « ها أنذا مؤسس بصهيون ، وهو
بيت الله حجرا مقره فى زاوية مكة . فمن كان مؤمنا فلا يتعجل » .

وهذا اخبار منه عن الحجر المقدس الأسود ، الذى فى الركن
اليمانى . وهو الحجر الذى أنزله الله من الجنة ، وكان أبيض فأسود
لأجل خطايا بنى آدم . و « صهيون » الجبل بلسانهم . فهذه دلائل
واضحة ، وشواهد راجحة ، لا يعدل عنها الا من حرم التوفيق ،
فاستدبر الطريق ، ولا يتدبرها ويتفهم معانيها الا من رافته التوفيق ،
وساعده الفهم والتحقيق .

فهذا ما رأينا . أن نشبته هنا من شواهد نبوته ، صلى الله عليه
وسلم من الكتب المتقدمة وفيها من الشواهد ما هو أكثر من هذا . ومن
وقف بفهم على ما فى تلك الكتب . قضى من عناد المخالفين العجب .

(١) الاصطاح المصححون من سفر أشعيا .

(٢) الاصطاح الخامس والثلاثون من سفر أشعيا .

(٣) المعنى فى الاصطاح الثامن من سفر أشعيا ولاحظ أن كاتب سفر

أشعيا وضع النصوص محتطة لأورشليم أو مكة .

النوع الثانى

الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله صلى الله عليه وسلم

فأول ذلك ما ظهر على أبيه عبد الله بن عبد المطلب .

وذلك أنه لما أراد الله خلقه ، وقرب وقته ، وحن خروج نطفته من صلب أبيه ، حمل بين عيني أبيه نور ، فكان يراه الرائي كغرة الفرس . وقد ثبت في كتب نبوته على السنة النقلة الثقات العدول الإثبات (١) ، الذين يدينون بتحريم الكذب ، ويعتقدون وجوب الصدق ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم : أن عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله صلى الله عليه وسلم . كانت له امرأتان ، أحدهما : آمنه ، أم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وامرأة أخرى . فعل يومًا في طين لبناء بيته ، فتعلقت به آثار من الطين . فمر بتلك المرأة فدعاها لنفسه ، فأبت لما كان عليه من الطين فخرج من عندها ، فاغتسل ، وغسل ما به من أثر الطين . فدعته تلك المرأة الى نفسها فأبى عليها ، ثم خرج عامدا الى آمنه ، فدخل عليها فأصابها ، فحملت بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر بامراته تلك . فقال لها : هل لك ؟ قالت : لا . أنك مررت بى ، وبين عينيك غرة مثل غرة الفرس ، فدعوتك رجاء أن يكون لى فأبيت ، ودخلت على آمنه ، فذهبت بها .

ثم لما حملت به آمنه أمه . أتيت فقيل لها : أنك قد حملت بسيد هذه الأمة . فاذا وقع على الأرض فقولى : أعيذه بالواحد ، من شر كل حاسد ، ثم سميه محمدا .

ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى من أرض الشام .

ولقد قالت أم عثمان الثقفية : حضرت ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأيت البيت حين وضع قد امتلأ نورا ، ورأيت

(١) انظر سيرة ابن هشام الجزء الأول ص ١٤٥ طبعة الكليات الأزهرية

بمصر سنة ١٩٧٤ م .

النجوم تدنو حتى ظننت أنها ستقع على • وولد صلى الله عليه وسلم مختونا •

وكانت أمه تحدث : أنها لم تجد حين حملت به ، ما تجد الحوامل من ثقل وألم ، ولا غير ذلك ، ولما وضعت أمه ، وقع على الأرض مقبوضة أصابع يده ، مشيراً بالسبابة كالمسبح بها •
وذكر ابن دريد : أنه ألقت عليه جفنة لئلا يراه أحد قبل جده •
فجاء جده ، والجفنة قد انفلقت عنه •

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبوه أن توفي ، وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به ، فكفله جده عبد المطلب ، وقيل لجده : لم سميت ابنك محمدا ، وليس هذا الاسم لأحد من آبائك وقومك ؟ فقال : انى لأرجو أن تحمده أهل الأرض كلهم •

وذلك أنه كان يرى في منامه ، كأن سلسلة من فضة ، خرجت من ظهره ، لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب ، ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور • وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يعتلقون بها • فقصها • فعبرت له بمولود يكون من صلبه ، يتبعه أهل المشرق والمغرب ، ويحمده أهل السماء ، وأهل الأرض • فلذلك : سماه محمدا •

قال حسان بن ثابت رضى الله عنه : والله انى لغلام يفعة • ابن سبع سنين ، أو ثمان سنين ، أعقل كل ما سمعته • اذ سمعت يهوديا على أطم يثرب ، يصرخ بأعلى صوته ، يقول : « يا معشر يهود » فلما اجتمعوا له ، قالوا له : « ويلك • مالك » قال : « طلع الليلة نجم أحمد » •

ثم التمس له المراضع ، فاسترضع له امرأة من بنى سعد بن بكر ، اسمها : حليلة بنت أبى ذؤيب • قالت حليلة : خرجت من بلدى مع زوجى • وابن لى فى نسوة من بنى سعد ، نلتمس الرضعاء • قالت : وفى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا • قالت : فخرجت على أتان لى • قمرء • معنا شارف لنا • والله ما تفيض بقطرة ، وما ننام ليلنا مع صبينا من بكائه من الجوع • وما فى ثدى ما يغنيه ، وما فى شارقنا ما يغديه • ولكننا نرجو الغيث والفرج ، فلقد حيست^(١) الركب حتى

(١) حيست : فى سيرة ابن هشام : أذمت • وفى نسخة : أذمت ، ويروى : أذمت •

شق ذلك عليهم ضعفا ، وعجفا • حتى قدمنا مكة ، نلتمس الرضعاء •
فما منا امرأة الا وقد عرض عليها محمد بن عبد الله فتأباه ، اذا قيل لها :
انه يتيم •

وذلك أنا كنا نرجو المعروف من أبي الصبى ، فكنا نقول : يتيم ،
فما عسى أن تصنع أمه وجده • فكنا نكرهه لذلك • فما بقيت امرأة
قدمت معى الا أخذت رضيعا • غيرى • فلما أجمعنا الانطلاق • قلت
لصاحبى : انى والله أكره ، أن أرجع من بين صواحبى ، ولم آخذ
رضيعا • والله لأذهبن الى ذلك اليتيم فلاخذه • فقال : افعلى •
عسى الله أن يجعل فيه بركة • قالت : فذهبت اليه ، فأخذه ، وما حملنى
على أخذه الا أنى لم أجد غيره •

قالت : فلما أخذه رجعت به الى رجلي ، فلما وضعت فى حجرى ،
أقبل على ثدياى ، بما شاء من لبن ، فشرب ، حتى روى ، وشرب معه
أخوه حتى روى • ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك •

وقام زوجى الى شاربنا تلك • فإذا أنها لحافل ، فحلب منها
ما شرب وشربت • حتى انتهينا : ريا ، وشبعا • فبتنا بخير ليلة •
قالت : يقول صاحبى ، حين أصبحنا : تعلمى — والله يا حليلة — لقد
أخذت نسمة مباركة • قلت : والله انى لأرجو ذلك • قالت : ثم خرجنا •
فركبت أتانى وحملته عليها معى • فوالله لقطعت بالركب ما يقدر على
شئ من حمهم ، حتى أن صواحبى ليقطن لى : يا ابنة أبى ذؤيب :
ويحك • أربعى علينا • أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟
فأقول لهن : بلى ، والله • فيقطن لى : والله ان لها لشأنا •

قالت : ثم قدمنا منازلنا من بلاد بنى سبجد ، وما أعلم أرضا من
أرض الله أجذب منها ، فكانت غنمى تروح على حين قدمنا به معنا :
شباعا لبنا • فنحلب ، ونشرب • وما يحلب انسان قطرة ، ولا يجدها فى
ضرع • حتى كان الحاضر من قومنا يقولون لرعاتهم : ويحكم • اسرحوا
حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعا ، ما تبض بقطرة
لبن ، وتروح غنمى شباعا لبنا • فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ،
حتى مضت سنتاه ، وفصلته • وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ،
فلم يبلغ سنتيه ، حتى كان غلاما جفرا •

قالت : فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا .
 لما كنا نرى من بركتته فكلمنا أمه ، وقلنا لها : لو تركت بنى عندى ،
 حتى يغلظ . فأنى أخشى عليه وباء مكة . قالت : فلم نزل بها ، حتى
 ردتنا لنا . قالت : فرجعنا به . فوالله انه بعد مقدمنا بشهر مع أخيه
 لفى بهم لنا خلف بيوتنا . اذ أتانا أخوه يشتد ، فقال لى ولأبيه :
 ذاك أخى القرشى ، قد أخذ رجلا ن ثياب بيض ، فأضجعا
 فثقا بطنه ، فهما يسوطانه — يعنى : يخلطانه — قالت : فخرجت أنا
 وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقعا وجهه . قالت : فالتزمته ، والتزمه
 أبوه . فقلنا له : مالك يا بنى . قال : جاءنى رجلان ثياب بيض
 فأضجعانى ، وثقا بطنى فالتمسنا شيئا ، لا أدرى ما هو . قالت :
 فرجعنا به الى خبائنا .

قالت : وقال لى أبوه : يا حليلة . لقد خشيت أن يكون هذا الغلام
 قد أصيب ، فألحقه بأهله . قيل أن يظهر ذلك به . قالت :

فاحتملناه . فقدمنا به على أمه . فقالت : ما أقدمك به يا ظئر وقد
 كنت حريصة عليه ، وعلى مكثه عندك ؟ قالت : فقلت : قد بلغ الله بابنى ،
 وقضيت الذى على ، وتخوفت الأحداث عليه . فأدبته اليك كما تحبين .
 قالت : ما هذا شأنك . فاصدقيني خبرك . قالت : فلم تدعنى حتى
 أخبرتها . قالت : أفتخوفت عليه الشيطان ؟ قالت : قلت : نعم .
 قالت : كلا ، والله ما للشيطان عليه من سبيل ، وان لبنى لشأنا . أفلا
 أخبرك خبره ؟ قالت : قلت : بلى . قالت : رأيت حين حملت به أنه
 خرج منى نور ، أضاء لى قصور « بصرى » من أرض الشام . ثم حملت
 به ، فوالله ما رأيت من حمل قط ، كان أخف ولا أيسر منه ، ووقع حين
 ولدته . وانه لو اضع يديه بالأرض ، رافع رأسه الى السماء ، دعيه
 عنك ، وانصرف راشدة (١) .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب ،
 وجدده عبد المطلب بن هاشم فى كلاة الله تعالى وحفظه ينبتة الله نباتا
 حسنا . لما يريد به من كرامته ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ست سنين توفيت أمه آمنة فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

مع جده عبد المطلب ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك : حتى يخرج اليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه ، اجلالا له . قال : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه . فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : دعوا ابني فوالله ان له لثأنا . ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين هلك عبد المطلب^(١) جده فكان مع عمه أبى طالب فكان يجنو عليه ويحفظه ، فبينما هو عنده يوما اذ قدم مكة رجل عائف من « أزد شنوءة » وكان ذلك الرجل اذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر اليهم ، ويعتاف لهم ويتفرس . وكان ماهرا في ذلك معروفا به ، مجربا عليه الاصابة في ذلك .

فأتاه أبو طالب به وهو غلام . قال : فنظر العائف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شغله عنه شيء . فلما فرغ قال : أين الغلام ؟ على به . فلما رأى أبو طالب حرصه عليه ، غيبه عنه . فجعل يقول : ويلكم . ردوا على الغلام الذى رأيت آنفا . فوالله ليكونن له شأن .

ثم ان أبا طالب خرج في ركب تاجرا الى الشام ، فلما تهيأ للرحيل ضبث^(٢) به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له أبو طالب . وقال : والله لأخرجن به معى . ولا يفارقنى ، ولا أفارقه أبدا . وكان يحبه حبا شديدا . فخرج به معه . فلما نزل الركب « بصرى » من أرض الشام ، وبها راهب يقال له : « بحيرا » في صومعة له ، وكان اليه علم النصرانية ، ولم ينزل في تلك الصومعة منذ قط راهب يصير اليه علم النصرانية ، لأجل كتاب فيها . فيما يزعمون يتوارثونه كابرا عن كابر . فلما نزلوا ذلك العام ببخيرا . وكان كثيرا ما يمرون به . قبل ذلك ، فلا يعرض لهم ، ولا يكلمهم حتى كان ذلك العام فلما نزلوا قريبا من صومعته . صنع لهم طعاما كثيرا .

(١) نسيرة ابن هشام الى ص ١٥٦ - ج ١

(٢) في السيرة : صب ، وفي غير رواية أبى بحر : ضبث به ، أى لزمه قال الشاعر :

كان فؤادى في يد ضبثت به محاذرة أن يقضب الحبل قاضبه

• وذلك عن شيء رآه في صومعته • وذلك أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من صومعته وهو في الركب حين أقبلوا ، وغمامه يقطله من بين القوم • ثم أقبلوا ، ففزلوا في ظل شجرة قريبا منه ، فنظر الى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل تحتها • فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته • وقد أمر بذلك الطعام ، فصنع • ثم أرسل اليهم فقال : انى قد صنعت لكم طعاما • فقال له رجل : والله يا بحيرا • ان لك اليوم لسانا • فما كنت تصنع هذا بنا • وقد كنا نمر بك كثيرا • فما شأنك اليوم ؟

فقال له « بحيرا » : صدقت • قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف • وقد أحببت أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاما فتأكلون منه كلكم ، فاجتمعوا اليه ، وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحدائثه سنه في رحال القوم تحت الشجرة • فلما نظر بحيرا في القوم ، لم ير الصفة التي يعرف ، ويجد عنده • قال : يا معشر قريش ، لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي • فقالوا له : يا بحيرا • ما تخلف عنكم أحد ، ينبغي له أن يأتيك الا غلام ، وهو أحدث القوم سنا • فتخلف في رحالهم • قال : لا تفعلوا • دعوه ، فليحضر هذا الطعام معكم •

فجاء وقد احتضنه رجل من القوم ، فلما رآه بحيرا • جعل يلحظه لحظا شديدا وينظر الى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى اذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام اليه بحيرا • وقال له : يا غلام أسألك بحق اللات والعزى الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه • وانما قال له بحيرا ذلك • لأنه كان يسمع قومه يحلفون بهما • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تسألنى باللات والعزى • فوالله ما أبغضت شيئا قط ، بغضهما •

فقال له بحيرا : فبالله الا ما أخبرتنى عما أسألك عنه • قال له : سل عما بدا لك • فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره • فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته • ثم نظر الى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده • وكان مثل أثر المحجم ثم أقبل على

عمه أبى طالب • فقال : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابنى • قال :
ما هو بابنك ، وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا •

قال : فانه ابن أخى • قال : ما فعل أبوه ؟ قال : مات ، وأمه حبلى
به • قال : صدقت • فارجع بابن أخيك الى بلده ، واحذر عليه يهود •
فوالله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا • فانه كائن لابن
أخيك هذا شأن عظيم • فأسرع به الى بلاده •

فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من
تجارته • فزعموا فيما يروى الناس أن « زريرا » و « تماما »
و « دريسا » — وهم نفر من أهل الكتاب — قد كانوا رأوا من رسول
الله صلى الله عليه وسلم مثل ما رأى بحيرا في ذلك السفر الذى كان
فيه مع عمه أبى طالب فأرادوه ، فردهم عنه بحيرا وذكرهم الله ،
وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته ، وأنهم ان أجمعوا لما أرادوا به
لم يخلصوا اليه ، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم وصدقوه بما
قال • فتركوه ، وانصرفوا •

فشب رسول الله صلى الله عليه وسلم والله تعالى يكلؤه ويحفظه
ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد به من كرامته ورسالته • حتى
بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا وأكرمهم حسبا ،
وأحسنهم جوارا ، وأعظمهم حلما ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ،
وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال ، تنزها وتكرما •
حتى ما اسمه في قومه الا الأمين • لما جمع الله فيه من الأمور
الصالحة (١) •

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ،
وعرفت أمانته ، وصدق حديثه ، وظهرت بركته ، عرضت عليه « خديجة
بنت خويلد » ما لا يخرج به مسافرا الى الشام وتعطيه أفضل ما كانت
تعطى غيره من التجار • مع غلام لها يقال له « ميسرة » فقبله رسول
الله صلى الله عليه وسلم منها ، وخرج في ذلك المال ، وخرج معه
ميسرة • حتى قدما الشام • فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم
في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان • فاطلع الراهب (٢)

(١) الى ص ١٦٧ من السيرة •

(٢) يقال ان اسم هذا الراهب : نسطور •

الى ميسرة • وقال : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟
قال له ميسرة : هذا رجل من قريش ، من أهل الحرم • فقال له الراهب :
ما نزل تحت هذه الشجرة قط ، الانبى •

ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التى خرج بها ،
واشتري ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلا الى مكة ، ومعه ميسرة •
فكان ميسرة اذا كانت الهاجرة ، واشتد الحر ، يرى ملكين يظلاله من
الشمس ، وهو يسير على بعيره •

فلما قدم مكة على خديجة بمالها ، باعت ما جاء به بأضعف ،
أو قريبا •

وحدثها ميسرة عن قول الراهب ، وعن ما كان يرى من اظلال
الملكين اياه ، وكانت خديجة رضى الله عنها امرأة حازمة شريفة لبيبة ،
مع ما أراد الله بها من كرامتها • فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها بعثت
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالت له : يا ابن عم • انى
قد رغبت فيك لقربتك ووسطك في قومك وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق
حديثك ، ثم عرضت عليه نفسها •

وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمهن شرفا ،
وأكثرهن مالا • كل قومها كان حريصا على ذلك منها لو يقدر عليه •
فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لأعمامه ، فخرج
معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على « خويلد بن أسد »
فخطبها اليه ، فتزوجها •

وقد كانت خديجة بنت خويلد ، قد ذكرت لورقة بن نوفل ، وكان
ابن عمها ، وكان نصرانيا ، قد تتبع الكتب ، وعلم من علم الناس ما ذكر
لها غلامها ميسرة من قول الراهب ، وما كان يرى منه • اذ كان الملكان
يظلاله • فقال ورقة : لئن كان هذا حقا يا خديجة فان محمدا لنبى
هذه الأمة • وقد عرفت أنه كان لهذه الأمة نبى ينتظر • هذا زمانه —
أو كما قال — ، فجعل ورقة يستبطن الأمر ، ويقول : حتى متى ؟ (١)
فلما تقارب زمان مبعثه كثرت أحاديث الكهان عن نبوته ، والأخبار
بذلك فبشر بقرب ظهوره جماعة من الكهان •

(١) الى ص ١٧٥ سيرة ابن هشام — ج ١

وأما اليهود فكانت تكون بينها وبين العرب شرور وحروب •
فربما أصابت العرب منهم • فكانت اليهود تقول : قد قرب زمان نبي •
سيبعث الآن ، نقتلكم معه قتل عاد وارم • ثم لم يلبثوا حتى ظهر •
وعرفوه « كما يعرفون أبناءهم » •

فلما بعث • • منهم من آمن به • ومنهم من كفر به حسدا وعنادا ، كما
فعلتم أنتم •

ولقد قدم المدينة نفر من اليهود يلتصون هجرته اليها ، وكونه •
فيها • من ذلك ما يحكى عن « ابن الهيثان » حبر من أحبار يهود •
وممن كان ينتهى اليه علمهم وكان فاضلا فى دينه ، مجاب الدعوة •
ممن علم ذلك منه بكثرة تجربة ذلك • فقال لليهود يوما : ما ترونه •
أخرجنى من الشام ، أرض الخمر والخمير الى أرض البؤس والجوع ؟
قالوا له : أنت أعلم • قال : فانى قدمت هذه البلدة أتوكف خروج
نبي قد أظلم زمانه • وهذه البلدة مهاجرة • فكنت أرجو أن يبعث •
فأتبعه ، وقد أظلم زمانه ، فلا تسبقن اليه يا معشر يهود ، فانه يبعث •
بسفك الدماء ، وسبى الذرارى والنساء ، ممن خالفه ، فلا يمنعكم ذلك •
منه •

فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحاصر بنى قريظة •
قال نفر من اليهود : يا بنى قريظة • • والله • انه للنبي الذى كان عهد •
اليكم فيه ابن الهيثان • قالوا : ليس به • قالوا : بلى ، والله انه لهو •
بصفته ، فنزلوا وأسلموا ، ومثل هذا كثير •

ومن أوضح ذلك وأبينه • قصة سلمان الفارسى ، وذلك أنه كان •
بتنصر ، وقرأ كتبكم ، وبحث عن جماعة من أهل دينكم ، أعنى الذين •
كانوا متمسكين بدين المسيح ، فلم يزل يبحث عنهم واحدا بعد واحد •
ويخدمهم حتى يحضرهم الوفاة • فكان الواحد منهم اذا حضرته الوفاة •
وصاه بأن يلحق بمن هو على مثل دينه ، وحاله ، ويعينه له ، ويدله عليه •
الى أن وصل الى عمورية الى أرض الروم الى راهب نصرانى كان •
هنالك •

قال سلمان : فأقمت عند خير رجل ، على هدى أصحابه وأمرهم —
يعنى الدين — كانوا دلوا عليه ، الى أن حضرته الوفاة •

فقلت له : يا فلان •• انى كنت مع فلان ، فأوصانى الى فلان •
ثم أوصانى فلان الى فلان ، ثم أوصانى فلان اليك • فالى من توصى
بى أنت ؟ وبم تأمرنى ؟

قال : أى بنى ، والله ما أعلمه ، أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا
عليه من الناس آمرك به أن تأتية • ولكنه قد أظلم زمان نبى وهو
مبعوث بدين ابراهيم يخرج بأرض العرب ، مهاجرة الى أرض بين
حرتين ، بينهما نخل ، به علامات ، لا تخفى • يأكل الهدية ، ولا يأكل
الصدقة ، وبين كتفيه خاتم النبوة ، فان استطعت أن تلحق بتلك البلاد
فافعل •

قال : ثم مات • وغيب • ولحق سلمان بالمدينة بالأرض التى عينت
له ، فأقام هناك حتى قدم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم
مهاجرا • فبحث عن تلك العلامات ، التى رسمت له فوجدها كما رسمت
له • فأمن به واتبعه وصدقته ، وكان معه وعلى دينه الى أن توفاه الله
تعالى رضى الله عنه (١) •

ولو ذهبت الى استقصاء مثل هذا ، لطال الكتاب •

فلما بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه
الله تعالى رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا ونذيرا •

فكان أول ما ابتدئ به من الوحي : الرؤيا الصالحة فى النوم ،
وكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح • ثم حجب الله اليه الخلوة ،
فكان ينقطع الى الكهوف والجبال ويأوى اليها •

فكان يخلو بغار حراء • وكان فى ذلك لا يمر بحجر ولا شجرة الا
يقال : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت رسول الله صلى الله عليه
وسلم حوله عن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يرى الا الشجر والحجارة
تتكلمه •

فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع ما شاء
الله أن يمكث ، ثم جاء جبريل صلى الله عليه وسلم بها جاءه من كرامة
الله ، وهو بحراء فى رمضان • ومن ذلك الوقت ظهرت آياته ، وعمت

• بركاته ، وثققلت رسالته ومعجزاته ، واذا ذاك جمع الله له كل خصال الكمال ، وخصه بصفات الشرف والجلال • فلقد جمع الله له الكمال الظاهر والباطن بما جعل فيه من الفضائل والمحسن •

وينبغي الآن أن يعرف الجاحد والجاهل بعض ما خص به من صفات الكمال والفضائل •

اعلم • أن الكمال البشري ضربان : ظاهر ، وباطن • وكل واحد من هذين الضربين ضربان : ضرب يكون الانسان مجبولا عليه ، ولا اكتساب له فيه ، وضرب يكون مكتسبا للانسان يحصل له بسعيه ، وتكسبه • فقد انحصرت صفات الكمال في أربعة أقسام : كمال ظاهر ضروري ، وكمال ظاهر مكتسب ، وكمال باطن ضروري ، وكمال باطن مكتسب •

وقد جمع الله هذه الأربعة الأصناف للنبي محمد صلى الله عليه وسلم • ونحن نذكرها جملة ثم نشرع بعد في التفصيل ان شاء الله تعالى •

اعلم أنا • انما نذكر من صفات كماله وجلاله • المشهور بشرط الاختصار ، خوفا من التطويل والاكثر ، ولو ذهبنا الى الاستقصاء لعجزنا عن ذلك •

فمن ذلك • كمال خلقته ، وجمال صورته ، وقصاحة لسانه ، وشرف نسبه ، وعزة قومه ، وكرم أرضه ، وقوة عقله ، وصحة فهمه • ومثني علمه ، وجميل صبره ، وعظيم حلمه ، وحسن تواضعه وعدله ، وجزيل زهده وفضله ، وعميم جوده وكرمه ، ووثيق عهوده ودممه ، ورائق سمته وأدبه ، وطهارة ذاته ونسبه ، وعظيم شجاعته ونجدته ، وكثير حياته ومروءته (١) •

وجملة أمره صلى الله عليه وسلم : أنه أكمل الناس خلافا ، وأفضلهم حالا • وأعلمهم بحدود الله • وأخوفهم من الله •

فأما كمال خلقته (٢) ، وجمال صورته ، فشئ معلوم ، لم يذهب

(١) السيرة النبوية لابن هشام ص ١٦٧ - ج ١

(٢) انظر في الأوصاف الجسمية للنبي صلى الله عليه وسلم كتاب (الوفا بأحوال المصطفى) لابن الجوزي ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، طبعة دار الكتب الحديثة بمصر • الجزء الثاني • فلقد ذكر أحاديث نبوية كثيرة في صفاته الخلقية •

أحد من أعدائه الى خلاف ذلك ، ولا استطاع أن ينسب اليه نقصا ،
 بولا شيئا ، في شيء من ذلك • لقد اعترف الكل : أنه كان أزهر اللون ،
 أدعج العينين ، أشكل ، أهدب الأشفار ، أفلج ، أزج ، أقنى ، قدور
 الوجه ، واسع الجبين ، كث اللحية ، تملأ صدره ، موصول بما بين اللبة
 والسرة بشعر ، واسع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام والغضدين ،
 والذراعين والأسافل ، رحب الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، أنور
 المتجرد ، دقيق المسرية ، مربوع القد • ليس بالطويل البائن ، ولا بالقصير
 المتردد • ومع ذلك فلم يكن يماشيه أحد ينسب الى الطول الا طاله ،
 رجل الشعر • اذا افتر ضاحكا عن جمان ، افتر عن مثل سنا البرق ،
 وعن مثل حب الغمام • اذا تكلم روى كالنور يخرج من ثغايه ، أحسن
 الناس عنقا ، ليس بمطهم ، ولا بمكلثم ، متماسك اللحم •

قال ناعته : ما رأيت أحدا في حلة حمراء — رجلا — أحسن منه
 صلى الله عليه وسلم • كأن الشمس تجري في وجهه • واذا ضحك
 يتلأل في الجد • وأجمل الناس من بعيد ، وأحسنهم من قريب • من
 رآه بديهة هابة ، ومن خالطه معرفة أحبه •

يقول ناعته : لم أر قبله ، ولا بعده مثله • طيب الرائحة والعرف ،
 ولقد كان صلى الله عليه وسلم يعرف برائحته ، وان لم ير • ولقد
 كان يتطيب برائحته ، ويوضع في الطيب ، فينم أكثر منه (١) •
 ولقد كان يضع يده على رأس الطفل رحمة له • فكانت تتم عليه
 رائحة طيبه صلى الله عليه وسلم ، ولقد اشتهر وصح أنه صلى الله
 عليه وسلم بعد موته ، طال مكثه في البيت قبل أن يدفن يومين ، وليلة في
 المشهور ، وكان موته في شهر (أيلول) ومع ذلك فلم يتغير له ريح ،

(١) « كان على بن أبي طالب عليه السلام اذا نعت رسول الله صلى
 الله عليه وسلم قال : « لم يكن بالطويل الممط ، ولا القصير المتردد ، وكان ربة
 من القوم ، ولم يكن بالجعد القطط ، ولا السبط • كان جعدا رجلا • ولم يكن
 بالمطهم ولا المكلثم ، وكان أبيض مشربا أدعج العينين ، أهدب الأشفار ،
 جليل المشاش والكتد ، دقيق المسرية ، أجرد ، شثن الكفين والقدمين •
 اذا مشى تطلع ، كأنما يمشى في صلب ، واذا التفت التفت معا ، بين كتفيه خاتم
 النبوة ، وهو خاتم النبيين ، أجود الناس كفا ، وأجرا الناس صدرا ،
 وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ،
 من رآه بديهة هابة ، ومن خالطه أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده
 مثله صلى الله عليه وسلم » (سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٣٥) •

ولا يظهر عليه شيء مما يظهر على الموتى حتى كانت الصحابة رضى الله عنهم • تقول له : طبت حيا وميتا •

ولقد روى أن أم سلمة قالت : وضعت يدي على صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ميت • فمرت على جمع ، لا آكل ولا أتوضأ الا وجدت ريح المسك من يدي •

فان قيل : نسلم أنه كما وصفت • لكن أى فضيلة لحسن الصورة الظاهرة ؟ وأى مزية لها على غيرها ؟ اذ رب قبيح المنظر ، حسن الفعل والمخير ، ورب حسن الظاهر ، والمنظر • قبيح الفعل والمخير •

فنقول : هذا الذى ذكرت ينذر ، ويقل • بل لا يبعد أن يقول قائل : لا يوجد كامل الصورة الظاهرة الا وهو كامل الصورة الباطنة • اذ كلاهما انما سببه بحسب ما أجرى الله العادة مزاج معتدل فهما ثمرة ثمر واحد ، ولأجل هذا — والله أعلم — لم نسمع قط عن نبي من أنبياء الله تعالى • أن الله تعالى خلقه ناقص الخلقة ، أو مشوها ، اللهم الا قد طرأت على بعضهم آفات لأسباب شاءها الله تعالى • مثل أيوب وغيره • وليس الكلام فى الطارئ • وانما الكلام فى أصل الخلقة • ثم ان الحكماء والعلماء قد استدلوا بحسن الخلق على حسن الخلق • حتى أن الحكماء قالوا : اقصدوا بحوائجكم سماج الوجوه • فانه أنجح لها • أو فانه أحرى أن تقضى •

وأىضا : فان الجمال والحسن محبوب بالطبع ، ومرغوب فيه • والقبح منفور عنه ، ومقصود الله تعالى : أن يحب الأنبياء ، وأن لا ينفر منهم • والحسن موجب لذلك • وأىضا : فان صفة نبينا هذه هى صفة جده ابراهيم خليل الرحمن • حتى كأنه هو على ما ثبت من صفة ابراهيم فى كتب الأنبياء عليهم السلام •

وأما فصاحة لسانه • فلقد أطل من الفصاحة على كل نهاية ، وبلغ من البلاغة كل غاية ، فلقد أوتين صلى الله عليه وسلم سلامة الطبع ، وبراعة المنزع ، وعذوبة اللفظ ، وحسن الايراد ، وجزالة القول ، وصحة المعانى • مع ايجاز اللفظ ، وقلة التكلف •

أوتى صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم ، وبدائع الحكم • فلقد كان يخاطب كل حى من أحياء العرب بلغتهم • ولم يكن يقتصر على لغة واحدة ، مع أنه انما نشأ على لغة بنى سعد وقريش ، وكان يغرف لغات

غيرهم • حتى كانوا يتعجبون منه ويقولون : ما رأينا بالذى هو أفصح منه • وهذا معلوم عند الفصحاء العرب العرباء •

ويقف على معرفة ذلك بالذوق والمشاهدة من كان عارفا بلسان العرب ولغتهم ووقف على شيء من كلامه معهم • ومجاوبتهم •

وأما نسبه • فمعلوم لا يجهل ، ومشهود لا ينكر ، جده الأعلى إبراهيم • والأقرب عبد المطلب • كابرًا عن كابر • وشريفاً عن شريف • فهم بين أنبيائه فضلاء ، وبين شرفاء حكماء • وهذا كله مسلم لا يمنع ، ومقبول لا يدفع ، فهو صلى الله عليه وسلم من خير قرون بنى آدم قرناً • فقرنا • وذلك أن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم • واصطفى من ولد إبراهيم اسماعيل • كما قد شهدت التوراة وغيرها بذلك • واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة • واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاه صلى الله عليه وسلم من بنى هاشم • فهو خيار ، من خيار ، وكذلك الرسل صلى الله عليهم وسلم تبعث في أشرف أنساب قومها صلى الله عليهم • ذلك ليكون أميل لقلوب الخلق إليهم • والله أعلم •

وأما عزة قومه • فقد كانوا في جاهليتهم لم ينلهم سباء ، ولا ظفرت بهم أعداء ولا دخلوا في أغلب أزمانهم تحت قهر غيرهم • بل كانوا قد حازوا الشرف الباهر ، والمفاخر والمآثر • هم أوفر الناس عقولا • وأقلهم فضولا ، وأفصح الناس مقالا ، وأكرمهم فعلا • الشجعان الكرماء ، والحكماء الأدباء •

أما سفساف الأخلاق ودنيها • فهم مبرأون عنها ، وأما حسناتها وعليها فهم أحرص الناس عليها ، والموصوفون بها ، وكفى دليلاً على ذلك ما علم من حسن جوابهم ، وكريم عمودهم ، وعميم بذلهم وجودهم • وكل هذا من أوصافهم معروف • والغالب منهم بذلك موصوف ، وحق لقائلهم أن يقول :

لنا الشرف الذى يطرأ الثريا

مع الفجر الذى بهر العبادا

وأما أرضه • فناهيك من أرض أسس بقيتها إبراهيم الخليل ، وأمره بأن يدعو الناس إليها الملك الجليل ، وتولى عمارتها ، والمقام بها : النبى اسماعيل ، وتوارثها الأشراف جيلاً بعد جيل ، وكفى بلدته شرفاً ما فعل الله بملك الحبشة الذى جاء لهدمها ، فلما قرب منها ، وعزم

على هدمها ، ووجه فيله عليها أرسل الله عليهم طيرا أشباه الخطاطيف ،
جمع كل واحد منها ثلاثة أحجار : حجر في منقاره ، وحجران في رجليه •
فرمت الطير ذلك الجيش بتلك الجهات ، فكل من أصابه من تلك الحجارة
شيء هلك مكانه • وأصاب ملكهم منها حجر فهلك بعد أن تناثر لحمه ،
وتساقط أنملة أنملة •

فتفرقوا في كل وجه ، وأهلكهم الله كل هلاك ، وبدد شملهم أي
تبيد ، وكل هذا معروف لا ينكر ، ومشهور لا يجهل • فهذه الأرض
على محلها وجديها ، وشظف عيش أهلها : خير البلاد عند ربها ،
دل على ذلك كلام الأنبياء والرسل • وما جاء من ذلك في متقدمي الكتب •
ولا يظن الجاهل : أن خير بلاد الدنيا عند الله أكثرها خصبا ،
وأعظمها فاكهة وأبا • فإن هذا ظن من ليس له نطق ولا فهم ، وهمته
ما يجعل في بطنه كالبهم • بل خير البلاد عند الله ما كويبت فيه المشقات
التي توصل الى ما عند الله من الدرجات ، وكانت مع ذلك مما قدس ،
وانتشرت منه الديانات •

وكل ذلك في حق أرضه معلوم من جهة النبوات ، وسيأتي ما ذكر
الله تعالى في مكة بلده عليه السلام على لسان أشعياء عليه السلام •

وأما قوة عقله وعلمه • فلقد أوتى منهما ما لم يؤته أحد ، وأعطى
منها ما لم يعطه والد ولا ولد • وكفى دليلا على ذلك : ما ظهر عليه
من حسن السياسة ، واحكام أمور الرياسة ، والأخذ في العلوم العقلية
من غير اكتساب شيء مما يحتاج اليه من المقدمات ، حتى اتخذ أرباب
كل علم ، كلامه في ذلك العلم أصلا • يرجع اليه ويعول في صناعته
عليه • فتارة يكون كلامه في بعض العلوم منشئا ممهدا ، وأخرى متمما
ومؤيدا • وأن أردت أن تعلم ذلك علم اليقين ، فتأمل تأمل اليقطين ،
ما تضمنه من ذلك : الكتاب والسنة • فبهما كثرت الخيرات ، وعظمت
المنة ، فانك تجدهما قد جمع له منهما ، علوم الأولين والآخرين ، على
اختلاف علوم العالمين من الرياضات على اختلاف أوصافها ، والالهيات
مع تعذرهما على أكثر الأفهام واعتياصها ، والسياسات على تشقت
أوصافها •

أما الأمور المصلحية التي يعبر عنها بالقوانين الشرعية ، فيقضى
العقلاء منها العجب ، فانه أطل منها على أعلى المراتب والرتب • وذلك

أن أعمال شريعته صلى الله عليه وسلم انقسمت الى أمور تعبدية مثل .
الصوم والصلاة والحج . وغير ذلك مما لا يدرك معانيها وحكمها الا من .
أمدّه الله بتوفيق خاص ، فنور بالمعارف باطنه ، وزين بالأعمال ظاهره .
والى أمور مصلحية يدرك معانيها الجفلى والجمهور . من أهل الديانة .
الحنيفية .

ثم انه اعتبر أصول مصالح العالم فأوجبها ، واعتبر أصول مفسد
العالم وحرّمها ، وأصول المصالح انما هي خمسة : المحافظة على صيانة
الدماء في أهليها ، والأموال على ملاكها ، والأنساب على أهليها ، والعقول
على المتصفين بها ، والأديان التي بها عيش النفوس وزكاتها .

فأصول الشريعة ، وان تعددت صورها فهي راجعة الى هذه .
الخمس . فاما بمرتبة واحدة ، أو بمراتب على ما يعرف في موضعه .

وأما الدماء فحققتها بأن شرع : أن من قتل يقتل ، ومن جرح
يجرح ، ومن فقا عين انسان ، فقئت عينه . وهكذا .

فاذا علم القاتل . أن يفعل به مثل ما يفعل انكف عن القتل فحصلت .
حياة النفوس ، وصيانة الدماء ، ولأجل ذلك قال الله تعالى : « **ولكم**
في القصاص حياة ، يا أولى الألباب » (١) .

ثم سوى في القصاص بين الكبير والصغير والشريف والمشروف ،
اشعارا بأن مزايا الدنيا وفضائلها لا مبالاة بها عند الله . وأن الشرف :
انما هو بالدين والتقوى . ولأجل هذا قال الله تعالى : « **ان أكرمكم**
عند الله أتقاكم » (٢) . وقال عليه السلام : (الناس كأسنان المشط) ،
يريد بذلك : أن الأحكام متساوية بينهم . وانهم فيما شرع سواء .

وأما الأموال . فصانها على ملاكها بأن شرع قطع يد السارق .
للنصاب ، وقتل المحارب ، وغرم مثل المتلف ، أو المغصوب ان كان .
مما له مثل . فاذا علم السارق والمحارب أنهما يعاقبان بما يناسب .
جنايتهما ، ارتدعا وانكفا ، فأنحفظت الأموال .

وأما العقول • فحرم استعمال ما يؤدي الى تلفها ، وذهابها ، كالخمر • وذلك أن مناط التكليف : العقل • وهو الذي به يعرف الله تعالى ، وهو الذي ينتظم مصالح الدنيا والدين • فإذا أذهب الإنسان بالخمر ، وما في معناه • فقد تعرض لاسقاط التكليف والكفر بالله تعالى ، بل لكل المفسد • ولأجل هذا قال عليه السلام : (الخمر جباع الاثم ، وأم الخبائث والكبائر) ولأجل هذا • قال الله تعالى : **« إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون »** (١) •

ثم أكد الكف عن الخمر بأن شرع على شربه حدا • هو ضرب بالسوط ليكون ذلك أبلغ في الردع والزجر •

وأما حفظ الأنساب وصيانة اختلاط المياه في الأرحام • فشرع النكاح ، وحرّم السفاح ، لينتسب كل ولد لوالده ، ويتميز الولي عن مضاده ، ولينضاف كل الى شيعته ، ويتحقق نسبته بقبيلته • ولأجل هذا ، قال الله تعالى : **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »** (٢) •

ولم لم يكن ذلك لارتفع التعارف ، ولم يسمع ، ولا تسع خرق لا يرقع •

وأما المحافظة على الأديان وصيانتها • فهو المقصود الأعظم ، والمستند الأعظم ، فحرم الكفر والفسوق والعصيان ، وأوجب الطاعات والإيمان • وأوجب قتل الكافر ، وتوعده بالعذاب الدائم والهوان ، ولا يخفى على من معه أدنى مسكة ، اذا تأمل بأدنى فكرة : أن الإيمان

(١) المائدة : ٩٠ ، ٩١ وتحريم الخمر بآية في الأعراف وهي : **« قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم ••• »** (النخ الأعراف : ٣٣) فالاثم محرم سواء كان صغيرا أو كبيرا في مكة لأن سورة الأعراف مكية • فلما نزل في المدينة : **« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير »** (النخ : البقرة : ٢١٩) كان التحريم قاطعا ، لأنه اذا كان القليل محرما كان الكثير من باب أولى •

(٢) الحجرات : ١٣

بالله رأس المصالح والخيرات • والكفر رأس المقابح والهلكات • ولأجل وجوب الايمان ، وتحريم الكفران ، أرسل الله الرسل • وأنزل الكتب • ولأجل ذلك قال الله تعالى : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق ، وما أريد أن يطعمون • ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (١) •

فهذه الأصول الخمسة • بها يتم نظام العالم • وبأضدادها يخرب العالم • وبنظام العالم يتم نظام الأديان • وبنظام الأديان يحصل النجاة من عذاب النيران • والفوز بنعيم الجنان ، مع رضى الرحمن • فهذا بيان أنموذج من أصول السياسات الشرعية •

وأما الرياضات • فيكفيك منها مثال واحد من الطيبات • وذلك أنه عليه السلام قال : (المعدة بيت الداء ، والحمية أصل الدواء • وأصل كل داء البرد) ولقد سمع بعض أطباء الهند هذا الكلام فقال : « لم يترك نبيكم من الطب لأحد شيئاً » أو كلاماً هذا معناه •

وتتبع ما استفيد من جهته من العلوم بحر • لا ساحل له • وليس هذا موضع استيفائه ، ومقصود هذا الكلام : أن النبى الرفيع عند الله ، العظيم القدر لديه ، كان أمياً منسوباً الى ولادة الأم • ومعنى هذه النسبة : أنه بقى على ما كان عليه ، أى لم يتعلم علماً من أحد ، ولا اكتسبه ، ولا خط كتاباً بيمينه ، وهذا معروف من حاله عند الموافق والمخالف • وربما كان اذا أراد أن يحسب شيئاً عدده بأصابعه ، فكان يقول : (انا أمة أمية ، لا نكتب ، ولا نحسب ، الشهر هكذا ، وهكذا) يشير بيديه ثلاثاً (والشهر هكذا ، وهكذا) — ويخمس باحدى أصابعه — يعنى فى الثالثة • ومع ذلك فقد أوتى جوامع الكلم ، وبدائع الحكم ، وعلوم الأولين • فأخبر عن القرون الماضية ، والأمم السالفة بأخبار ، هى حق عند أرباب العلوم ، ولا ينازعه أحد منهم فيها • بل اذا سمعوها ، أذعنوا للتصديق بها ، ولم يكذبوه فى شىء منها ، وبذلك أخبر عن الأمم الآتية ، والوقائع المنتظرة ، أخباراً ، لا يتوصل اليها باكتساب • وانما ذلك باعلام العليم الوهاب ، فجاءت على نحو ما أخبر ، وما به بشر وأنذر •

وسياتى من ذلك مواضع يتبين فيها ذلك ان شاء الله تعالى •

وهذا دليل من أدلة نبوته ، لا يخفى على متأمل ، وبالله التوفيق .
يل نقول : انه ليس في القوة البشرية ، والجيلة الانسانية ، الوصول من
العلوم والمعقولات الى مثل ما وصل هو اليه . اذ قد علم أمورا ،
لا يستقل العقل بدركها ، وأخبر بها . وعند هذا يعلم : أن ذلك
بتوفيق الهى ، ونور ربانى . ولأجل هذا ، قال الله له : « وعلمك ما لم
تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » (١) .

وأما صبره وحلمه : فيكفيك من ذلك أنه كسرت رباعيته يوم
« أحد » وشج في وجهه ، فشق ذلك على أصحابه . فقالوا له : لو دعوت
الله عليهم . فقال : (انى لم أبعث لعانا . وانما بعثت رحمة) ثم قال :
(اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون) .

فانظر . ما في هذا القول من جماع الفضل ، ودرجات الاحسان ،
وحسن الخلق ، وكرم النفس ، وغاية الصبر والحلم . اذ لم يقصر
على السكوت عنهم ، حتى عفى ، ثم أشفق عليهم ورحمهم ، ودعا ،
وشفع لهم ، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة ، بقوله : « لقومى » ثم
اعتذر عنهم لجهلهم ، فقال : « فانهم لا يعلمون » وكذلك جاء أعرابى
جلف جاف ، وكان على النبى صلى الله عليه وسلم « برد » غليظ
الحاشية ، فجذبه الأعرابى بردائه جبذا شديدا ، حتى أثر حاشية
البرد في صفحة عنقه ، ثم قال : يا محمد ، احملنى على بعير من مال
الله ، الذى بيدك ، فانك لا تحملنى من مالك ، ولا من مال أبىك ، فسكت
النبى صلى الله عليه وسلم . وقال : (المال . مال الله . وأنا عبده)
ثم قال له : (لم فعلت بى ما فعلت) ؟ قال : كأنك لا تكافىء بالسيئة ،
السيئة ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أمر أن يحمل له
على بعير : شعير ، وعلى آخر : تمر .

وكذلك قال له آخر : اعدل يا محمد . فان هذه قسمة ما أريد بها
وجه الله . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : (ويلك ان لم أعدل أنا .
فمن يعدل ؟ أيا مننى الله على خزائنه ، ولا تأمنونى ؟) وكذلك سحره (٢)

(١) النساء : ١١٣

(٢) هذا خبر لم يصح ، لأن القرآن لا يثبت للسحر حقيقة . لقد ذكر
اشاعة هاروت وماروت التى افترها شياطين (علماء) اليهود في مدينة بابل
ونفاها وبنين أن الله لم ينزل شيئا على هاروت وماروت وهما لم يعلما من =

« لبيد بن الأعصم اليهودي » فأعلمه الله بسحره ، وحيث هو ، فاستخرجه الله ، فبرىء . فقيل له : ألا تقتله ؟ فقال : (أما أنا فقد شفاني الله ، وأكره أن أثير على الناس شرا) .

وكذلك قدمت إليه « يهودية » ذراع شاة مسمومة ، فأكل منه النبي عليه السلام فعافاه الله في ذلك الوقت من ضرر ذلك السم . فاستحضر المرأة . وقال لها : (ما الذي حملك على ذلك) ؟ قالت : أردت أن كنت كاذبا ، أرحت منك ، وإن كنت صادقا لا يضرك . فعفى عنها .

وقد قال بعض أصحابه : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم منتصرا من مظلمة ظلمها قط . ما لم تكن حرمة من محارم الله تعالى . وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله . وما ضرب خادما ، ولا امرأة .

وجيء إليه برجل . فقيل : هذا أراد أن يقتلك . فقال له صلى الله عليه وسلم : (لن ترع . لن ترع . ولو أردت ذلك لم تسلط علي) .

وجاءه « زيد بن سعية » يتقاضاه ديناً له عليه . فحبذ ثوبه عن منكبيه ، وأخذ بمجامع ثيابه ، وأغلظ له ، فانتهره عمر . وشدد له في القول . والنبي صلى الله عليه وسلم يتبسم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج . تأمرني بحسن القضاء . وتأمره بحسن التقاضي) ثم قال : (لقد بقي من أجله ثلاث) وأمر عمر يقضيه ما له . ويزيده عشرين صاعاً . فكان سبب إسلامه .

والأحاديث في هذا الباب أكثر من أن يأتي على حصرها ، هذا الكتاب .

وعلى الجملة : فقد تواتر صبره على أذى قريش ، وسبه . وإخراجه من بلده ، ونيل الأذى ، حتى بلغوا منه مبلغاً لا يصبر عليه إلا من هو مثله . فلما أظفروه الله بهم قال لهم : (ما تقولون اني فاعل بكم) ؟ قالوا : خيراً أخ كريم ، وابن كريم . فقال : (أقول كما قال أخي .

يوسف : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم
الراحمين » (١) اذهبوا • فأنتم الطلقاء •

ولقد ثبت عنه أنه لما كذبه قومه ، جاءه جبريل عليهما السلام
فقال : ان الله قد سمع قول قومك لك • وما ردوا عليك • وقد أمر ملك
الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداه ملك الجبال ، وسلم عليه •
وقال : مرني بما شئت • ان شئت أطبق عليهم الأخشبين فقال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : (أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد
الله ، وحده ، لا يشرك به شيئا) •

ولقد هبط ثمانون رجلا من التنعيم صلاة الصبح ليقتلوا رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا • فأعتقهم •

ومثل هذا كثير •

وعند هذا يتبين أنه صلى الله عليه وسلم : أحلم الناس عند مقدرته ،
وأصبرهم على مكرهته ، وأنه امتثل أمر الله ، حيث قال له : « خذ العفو ،
وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » (٢) وحيث قال له تعالى :
« فاعف عنهم واصفح ، ان الله يحب المحسنين » (٣) •

وأما تواضعه صلى الله عليه وسلم على علو منصبه ، ورفعة رتبته ،
فكان أشد الناس تواضعا ، وأبعدهم عن كبر ، وحسبك : أن الله خيره
بين أن يكون نبيا ملكا ، أو نبيا عبدا • فاختار أن يكون نبيا عبدا •
فقال له اسرافيل عليه السلام ، عند ذلك : فان الله قد أعطاك بما تواضعت
له : أنك سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من تنشق الأرض عنه ،
وأول شافع •

وقال أبو أمامة : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه
وسلم مثوكا على عصا ، فقمنا له • فقال : (لا تقوموا ، كما تقوم
الاعاجم يعظم بعضها بعضا) وقال : (انما أنا عبد • آكل ، كما يأكل
العبد ، وأجلس كما يجلس العبد) وكان يركب الحمار ، ويردف خلفه ،
ويعود المساكين ، ويجالس الفقراء ، ويجيب دعوة العبيد ، ويجلس
بين أصحابه ، مختلطا بهم حيث ما انتهى به المجلس جلس •

وقال عليه السلام : (لا تطروني كما أطرت النصارى : ابن مريم
انما أنا عبد • فقولوا : عبد الله ورسوله) •

وجاءته امرأة ، فقالت : ان لى اليك حاجة • قال لها : (اجلسى
يا أم فلان • فى أى طرق المدينة شئت • اجلس اليك ، حتى أقضى
حاجتك) فجلس اليها ، حتى فرغت من حاجتها ، وكان يوم بنى قريظة ،
على حمار ، ومخطوم بحبل من ليف ، عليه أكاف •

وكان يدعى الى خبز الشعير ، والاهالة السنخة ، فيجيب •

وقد حج • وكان عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم • هذا كله •
وقد أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها ، وألقت اليه أفلاذ كبدها ، فلم
يلتفت اليها ، ولا عبأ بها • وكان صلى الله عليه وسلم فى بيته ، فى مهنة
أهله ، يفلئ ثوبه ، ويحلب ثباته ، ويرقع ثوبه ، ويخصف نعله ، ويخدم
نفسه ، ويعلف ناقصه ، ويقم البيت ، ويعقل البعير ، ويأكل مع الخادم
ويمجن معها ، ويحمل بضاعته من السوق ، وكانت الأمة من أماء أهل
المدينة تأخذ بيده ، فتتطلق به حيث شاعت من المدينة ، حتى يقضى
حاجتها •

ودخل عليه رجل فأصابته من هيئته رعدة ، فقال له : (هون
عليك • فانى لست بملك • انما أنا ابن امرأة من قريش ، كانت تأكل
القديد) •

وقال أبو هريرة : دخلت السوق ، مع النبی صلى الله عليه وسلم ،
فاشترى سراويل • وقال للوازن : (زن ، وارجح) وذكر قصته • فقال :
فوثب الى يد النبی صلى الله عليه وسلم يقبلها • فجذب يده ، وقال :
(هذا تفعله الأعاجم بملوكها • ولست بملك انما أنا رجل منكم) ثم
أخذ السراويل • فذهبت لأخمله • فقال : (صاحب الشيء ، أحق
بشيئه أن يحمله) •

وأما عدله ، وصدقه ، صلى الله عليه وسلم ، وأمانته ، وصدق
لهجته • فكان صلى الله عليه وسلم آمن الناس ، وأعدل الناس ، وأغف
الناس ، وأصدقهم لهجة منذ كان •

اعترف بذلك محادوه ، وعداته • وكان يسمى قبل النبوة :
« الأمين » وذلك لما جعل الله فيه من الأخلاق الصالحة •

ومما يدل على ذلك : أن قريشا لما بنيت الكعبة ، اختلفت فيمن يضع الحجر الأسود موضعه ؟ فحكموا بينهم أول داخل عليهم . فإذا بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم داخلا . فقالوا : هذا محمد . هذا الأمين ، قد رضىنا به . وذلك قبل أن يبعث .

ولقد اجتمع الأحنس بن شريق مع أبى جهل يوم بدر ، وكلاهما مخالف له ، وعدو له ، قد أجمع على قتله ، وقتاله . فقال الأحنس لأبى جهل : يا أبا الحكم ، ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا ، فأخبرنى عن محمد . أصادق أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمدا لصادق ، وما كذب محمد قط .

ولقد سأل هرقل أبا سفيان وهو على شركه ومخالفته . فقال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . قال هرقل : قد أعلم أنه لم يكن يدع الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وقال النضر بن الحارث لقريش وهو عدوه ومخالفه : قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثا ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاء به . قلتم : أنه كذاب ، وأنه ساحر .

لا . والله . ما هو بساحر ، ولا بكذاب .

فهذا كان حاله . فاعترف أعداؤه بمناقبه ، ولا يقدرُونَ على انكار شيء من فضائله .

من أدل دليل على عدله ، وعظيم تواضعه وفضله . أنه كان قد انتهى به الأمر إلى أن تهاجه الملوك ، وتفرق منه الجبابرة . ومع ذلك فإنه كان يوفى لكل ذى حق حقه ، ويعرف لذى الفضل فضله . حتى كان يقول : (انى أريد أن ألقى الله ، وليس لأحد منكم يطالبنى بمظلمة فى أهل ولا مال) ولأجل ذلك : أقاد « عكاشة بن محصن » من نفسه ، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم ضربه بقضيب فى ظهره ، غير قاصد لضربه ، فقال له عكاشة : انك قد أوجعتنى ، فأقدنى — معناه : مكنى منك حتى أضربك ، مثلما ضربتنى — ، فكشف له عن ظهره ، وناوله القضيب . وقال : (اضرب) . فأكب عكاشة على ظهره يقبله . وقال : إنما أردت أن يمس جلدى جلديك .

والأخبار في هذا أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب .
وأما زهده صلى الله عليه وسلم . فلقد كان أزهد الناس ، وأورعهم ،
 وحسبك شاهدا على ذلك ما علم من حاله صلى الله عليه وسلم .
 وذلك أنه عرض عن الدنيا وزهرتها . ولم يلتفت الى شيء منها مع
 إقبالها عليه . وسياقتها اليه . وذلك أن الدنيا سيقت اليه بحذاقيرها ،
 وترادفت عليه فتوحها . وهو مع ذلك لا يعرج عليها ، ولا يلتفت
 اليها ، الى أن مات ودبره مرهونة عند يهودى فى نفقة عياله . وهو
 يدعو ويقول : (اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا) ويقول : (اللهم
 أحيينى مسكينا ، وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى جملة المساكين) ولقد
 صحت الأخبار عنه : أنه ما شبع ثلاثا تباعا ، حتى مضى لسبيله ،
 ولقد روى أنه ما شبع من خبز الشعير يومين متواليين ، وما ترك
 رسول الله صلى الله عليه وسلم دينارا ، ولا درهما ، ولا شاة ولا بعيرا .
 وما ترك الا بغلته وسلاحه ، وأرضا جعلها صدقة ، وكان يقول :
 (ما أحب أن لى مثل أحد ذهبا . يمضى ثالثة ، وعندى منه دينارا
 الا شيئا أرصده لدين) ولقد قال صلى الله عليه وسلم : (عرض على
 ربى أن يجعل لى بطحاء مكة ذهبا . قلت : لا . يا رب . بك أجوع
 يوما ، وأشبع يوما . فاذا جعت تضرعت اليك ودعوتك . واذا شبع
 شكرتك وحمدتك) ولقد حكى عنه جماعة من أصحابه أنه كان يبيت
 هو وعياله الليالى المتتابة ، طاويا ، لا يجدون عشاء . وقال « أنس »
 خادمه : ما أكل رسول الله صلى الله عليه وسلم على « خوان » ولا فى
 « سكرجة » ولا خبز له مرقق ، ولا رأى شاة عبيطا قط .

ودخل عليه عمر بن الخطاب فوجده مضطجعا على رمل حصير ،
 قد أثر فى جنبه . قال عمر : فنظرت فى بيته ، فلم أر فيه شيئا . فبكيت
 لما رأيت برسول الله صلى الله عليه وسلم من الحاجة والفاقة . فقال :
 (ما شأنك يا ابن الخطاب) ؟ فقلت : يا رسول الله ذكرت « كسرى »
 و « قيصر » وما أعطاهما الله تعالى . فقال : (أفى شك أنت
 يا ابن الخطاب . أما ترضى أن تكون لهما الدنيا . ولنا الآخرة) ؟
 وقالت عائشة : (لم يمتلى جوف نبي الله شبعاً قط . ولم يبيت شكوى الى
 أحد . وكانت الفاقة أحب اليه من الغناء . وان كان ليظل جائعا يلتوى
 طول ليله من الجوع ، فلا يمنعه صيام يومه . ولو شاء سأل ربه كنوز
 جميع الأرض وثمارها ، ورغداً عيشها .

ولقد كنت أيكى له رحمة مما أرى به ، وأمسح بيدي على بطنه مما به من الجوع • وأقول نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما يوقوتك) ؟ فيقول : (يا عائشة : مالى وللدنيا • اخوانى من أولى العزم من الرسل صيروا على ما هو أشد من هذا فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم فأكرمهم ما بهم ، وأجزل ثوابهم • فأجدنى أستحيى أن ترفهت فى معيشتى أن يقصرنى غدا دونهم ، وما شئ هو أحب الى من اللقوق باخوانى وأخلاقى) قالت : (فما أقام بعد ذلك ، الا شهرا ، حتى توفى صلوات الله عليه) •

ولقد شكى اليه بعض أصحابه الجوع ، وكشف له عن بطنه عن حجر • فكشف له رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه عن حجرين ، صلى الله عليه وسلم تسليما • وهذا معلوم قطعا من أحواله ، لا يقدر على جرده أحد من أعدائه ، ولا أوليائه •

وأما كثرة جوده وكرمه • فشئ معروف من شيمه • فلقد تواتر : أنه كان أكرم الناس ، وأجودهم ، حتى أنه ما سئل قط شيئا • فمنعه • فإذا كان ذلك الشئ المسئول مما لا يمنع شرعا •

قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان النبى صلى الله عليه وسلم : أجود الناس بالخير ، وأجود ما يكون فى رمضان • وكان أجود بالخير من الريح المرسلة •

ولقد سأله رجل ، فأعطاه غنما بين جبلين ، فرجع ذلك الرجل الى قومه • فقال : أسلموا • فان محمدا يعطى عطاء من لا يخشى فاقة • وأعطى أناسا كثيرين : مائة ، مائة من الابل • وأعطى « صفوان » مائة ، ثم مائة ، وأعطى « العباس » من الذهب ، ما لم يطق حمله ، وسبق له صلى الله عليه وسلم ، تسعون ألفا ، فوضعت على حصير ، ثم قام اليها يقسمها ، فصار سائلا ، حتى فرغ منه •

وكان صلى الله عليه وسلم لا يرد سائلا جاءه • وربما كان السائل لا يجد عنده شيئا • فيأخذ له بالدين ، ويعطيه السائل ، حتى يقضيه النبى صلى الله عليه وسلم • ولقد جاءه رجل فسأله • فقال : (ما عندي شئ ، ولكن ابتع على بدين • فإذا جاءنا شئ قضيناها) فقال له عمر : ما كلفك الله ما لا تقدر عليه • فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٠ - الأعلام)

ما قاله عمر ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله • أنفق ، ولا تخف من ذي العرش اقلالا • فتبسم وعرف بشر ذلك القول في وجهه • وقال : (بهذا أمرت) •

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ، وإن لم يحتج اليها ، ويثيب عليها بأضعافها • روى أن « معاذ بن عفراء » أهدى للنبي صلى الله عليه وسلم طبقا فيه رطب ، وقثاء ، فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم ملء كفه ذهباً وحلياً • وكان صلى الله عليه وسلم ، لا يدخر شيئاً لغده ، لنفسه • وقد ثبت عنه أنه كان يقول : (ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً ، يمضى على ثلاثة ، وعندى منه ديناراً ، الا شيئاً أرصده لدين) • وما سيق له قط شيء يقسم ، ذهباً كان أو غيره الا أمر بقسمه ، ولم يبيت عنده •

وهكذا • كان المعروف من خلقه قبل مبعثه ، وكان هذا معروفاً عند قومه الذين نشأ فيهم • حتى لقد قال له « ورقة بن نوفل » وكان امرأً تنصر ، وقرأ الكتب العبرانية ، وكان قد تظن ، واستشعر بنبوته عليه السلام ، لما رأى من العلامات التى علمها من الكتب المتقدمة • فقال له : انك لتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق •

وهذا كله من أخلاقه معروف حاصل ، لا يتمارى فيه منصف عاقل •

وأما وفاؤه بالعهد • فلا يتمارى فيه الا خسيس وغد • فقد كان صلى الله عليه وسلم أحفظ الناس بعهد ، وأوفاهم بميثاق ووعد • وأحسنهم جواراً ، وأصدقهم قولاً وأخباراً • روى عن « عبد الله ابن أبى الحمساء » أنه قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع • قبل أن يبعث ، وبقيت له بقية • فوعده أن آتية بها فى مكانه ، فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو فى مكانه • فقال : (يا فتى • لقد شققت على • أنا هاهنا • منذ ثلاث أنتظرك) وذلك للميعاد الذى كان بينهما ، وكان المعلوم من سيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان يعقد العهود والمواثيق بينه وبين عداته وغيرهم • فيفى بها ، ويؤذنها بانقضائها عند تمامها ، ولم يغدر قط فى شيء منها • ولقد كان هذا معروفاً عند أعدائه ، كما هو معروفاً عند أوليائه •

ولقد روى أن هرقل • ملك النصارى لما سأل كفار قريش عن صفات النبي صلى الله عليه وسلم قال : فهل يغدر ؟ قالوا له : لا • فقال لهم : كذلك الرسل لا تغدر • وكيف يغدر صلى الله عليه وسلم ، وهو قال : (ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة يعرف به • يقال : هذه غدرة فلان) ؟ ولقد جاءه « المغيرة بن شعبة » مسلما • وجاء معه بمال تقوم من الجاهلية كان قد صحبهم ، ثم قتلهم ، وأخذ أموالهم • فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (أما الاسلام فأقبل • وأما المال فلست منه في شيء) وقال صلى الله عليه وسلم ، وقد عرض له بعض أصحابه ، يغدر المشركين : (دعني لهم ، ونستعين الله عليهم) •

وفي خبر « الجلندي » ملك عمان ، لما بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الاسلام • فقال الجلندي : والله لقد دلني على أن هذا نبي : أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ، ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له • وأنه يغلب فلا يبطر ، ويغلب فلا يضجر^(١) ، ويفي بالعهد ، وينجز الموعد • أشهد أنه نبي •

يا هذا • تأمل بعقلك • أين هذا مما يحكى اليهود والنصارى عن موسى عليه السلام في كتبهم من أن موسى عليه السلام ، لما أراد الخروج من مصر ، استعار حلي بنى إسرائيل ، ثم فر به ليلا • وعند الانتهاء إلى هذا المقام • يعلم العاقل ما في كتب القوم من الأباطيل والأوهام وموسى عليه السلام مبرا عن النقائص والآثام • ومن وفائه بالعهد ، وقيامه في حفظه بالحد : أنه قدم عليه وفد النجاشي فقام صلى الله عليه وسلم يخدمهم بنفسه • فقال له أصحابه : نحن نكفيك • فقال : (انهم كانوا لأصحابنا مكرمين • وإنى أحب أن أكافئهم) وقال صلى الله عليه وسلم : (حسن العهد من الإيمان) • وحقيقة الوفاء بالعهد : تتميم ما ربط من العقد ، ومراعاة ما تقدم من الود ، ومكافأة من له يد • وقد كانت هذه الخصال اجتمعت فيه • لا ينازع في ذلك أحد • وإن كان يناوئه •

وأما حسن سمته ، وتؤدته ، وكثير حياته ، ومروءته • فشيء لا يجحد ولا يجهل ، ولا يلحقه في شيء من ذلك أحد • وإن بذل غاية جده • ولم يكسل • فهو بالحقيقة كما قال الشاعر الأول :

(١) « يغلب » الأولى بفتح الياء ، والثانية بضمها •

سبعى بعدهم قوم لكى يدركونهم

فلم يفعلوا ، ولم يليموا ، ولم يألوا

كان صلى الله عليه وسلم كثير الصمت والوقار ، طويل الاطراق والاعتبار ، تكسو هية وقاره جلسائه • حتى اذا جلسوا بين يديه كأن على رؤوسهم الطير اعظاما له ، وهية منه •

مجلسه أوفر المجالس ، لا يسمع فيه ضحت الأصوات ، ولا اختلاط اللغات ، ليس فيه فراء ولا جدال ، ولا للهجر ، والفحش فيه مجال • لا توبن في مجلسه الحرم ، ولا يغض فيه من الأقدار والقيم • بل كان مجلس علم •

وأصحابه يعظمون في مجلسهم معه حرمان الله • ويتعلمون منه أحكام الله • فتارة يعلمهم بأمور الآخرة كأنهم ينظرون إليها • وأخرى يعلمهم أحكام شريعته ، كى يعملوا بها •

قال ابن أبى هالة : كان سكوته على أربع : على الحكم والحذر والتقوى والتفكر • يعلم الجاهل المسترشد ويدنيه • ويطرد المعاند المتكبر ويقصيه ، يتواضع للفقراء ، ويتواضع لديه الأمراء •

كان صلى الله عليه وسلم أشد حياء من الغدراء في خدرها ، الرفيعة الشريفة في قومها ، كان اذا سمع ما يستحيى منه ، ظهر نور الخفر على وجهه • ولذلك مر صلى الله عليه وسلم على رجل وهو يعتب أخاه على الحياء • فقال صلى الله عليه وسلم : (دعه • فان الحياء من الايمان) . وقال : (الحياء خير كله ، ولا يأتى الا بخير) وقال : (استحيوا من الله حق الحياء) وكان صلى الله عليه وسلم ضحكه تبسما • ولم ير قط في ضحكه مقهقها ، ولا مترنما •

كان كلامه فصلا • يفهمه كل من سمعه ، وربما تكلم بالكلمة ثلاثا حتى تفهم عنه ، وكان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه • وكان اذا مر بقوم يسلم عليهم ثلاثا • وكان صلى الله عليه وسلم يحافظ على مروءته ، وعلى استقامة حالته ، وتحسين هيئته ، يمشى هونا ، كأنما ينخط من صيب • اذا مشى مشى مجتمعا ، واذا جلس جلس محتبيا ، وقرب اليه طعام ومتكئا • فقال : (لا أتكىء • انما آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد) •

كان صلى الله عليه وسلم يحب الطيب ، والرائحة الحسنة ،
وينستعملهما ، ويحضر عليهما • ويقول : (ان الله تعالى جميل يحب
الجمال) ويأمر بالسواك ، وغسل البراجم والدواجب • واستعمال
خصال الفطرة ، ويأخذ بذلك ويعمل به •

وكان صلى الله عليه وسلم لكثرة محافظته على جلال مروءته •
إذا عطس غطا وجهه ، وخفض بها صوته •

وما عسى أن يقول القاص فيمن جمعت فيه كل الفضائل والمآثر •
بل غاية الفصيح الأثر أن ينتهى الى ما قاله الشاعر :

ماذا أقول ؟ وقولى فيك ذو حصر

وقد كفيتنى التفصيل والجمال

ان قلت : ما زلت مرفوعا ، فأنت كذا

أو قلت زانك دى ، فهو قد فعلا

وأما شجاعته • ونجدته • فكان منها صلى الله عليه وسلم بالمكان
الذى لا يجهل • وحظه منها الحظ الأوفى الأفضل • قد كان مارس
الضراب ، ووقف مواقف الصعاب ، لا يبالي بكثرة العدد ، ولم يفر
قط أمام أحد • وما من شجاع الا وقد أحصيت له فرة ، وان كان له
بعدها كرة • الا هو صلى الله عليه وسلم ، فلم يدبر قط منهزما •
ولا فارق مكرها ملتزما •

وكان « على بن أبى طالب » يقول : كنا اذا اشتد البأس ، وحميت
الحرب • اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم • فما يكون أحد أقرب
الى العدو منه • ولقد رأيتنا يوم بدر نلوذ برسول الله صلى الله عليه
وسلم وهو أقربنا الى العدو • ولقد كانت الصحابة تقول : ان الشجاع
منا للذى يقوم بجانبه يستتر به •

وقيل لـ « أنس » أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ؟ فقال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر •

ثم قال : لقد رأيته على بغلته البيضاء ، و « أبو سفيان » آخذاً
بلجامها • والنبي صلى الله عليه وسلم يقول :

(أنا النبي لا كذب • أنا ابن عبد المطلب)

قيل : فما رأى يومئذ أحد كان أجراً منه ، ولا أشد • وقد روى
عنه : أنه نزل عن بغلته متوجها نحو العدو • وقال « العباس »

ابن عبد المطلب » : لما التقى المسلمون والكفار ، يوم « حنين » : ولى المسلمون مدبرين ، فطلق النبي صلى الله عليه وسلم يركض بغلته نحو الكفار .

قال العباس ، وأنا آخذ بلجامها ، أكفها ارادة ألا تسرع .
وأبو سفيان آخذ بركابه ، ثم نادى بالمسلمين . وذكر الحديث .

وقال أنس : كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس . ولقد فرغ أهل المدينة ليلة ، فانطلق أناس قبل الصوت ، فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا قد سبقهم الى الصوت . وقد استبرأ الخبر على فرس عري ، لأبي طلحة . وفي عنقه السيف ، وهو يقول : (لن تراعوا . لن تراعوا) وأنا وجدناه ثيجرا — يعنى القوس لكثرة جرية .

وقال « ابن حصين » ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم كتيبة الا كان أول ضارب . ولما رآه « أبى بن خلف » يوم أحد ، وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجوت ان نجا .

وقد كان قال للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر : عندي فرس أعلفها كل يوم فرقا من ذرة ، أقتلك عليها . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (بل أنا أقتلك ان شاء الله) فلما رآه أبى يوم أحد ، شد « أبى » فرسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعترضه رجال من المسلمين . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (دعوه . خلوا طريقه) وتناول النبي صلى الله عليه وسلم الحربة من « الحارث ابن الصمة » فانتفض بها انتفاضة ، فتطايرنا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير ، اذا انتفض ، ثم استقبله النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم طعنه بها طعنة ، تدأدا منها على فرسه ، وقيل : بل كسر ضلعا من أضلاعه ، فرجع الى قريش يقول : قتلنى محمد . وهم يقولون : لا بأس بك . فقال : لو كان ما بى بجميع الناس لقتلهم . أليس قد قال لى : (أنا أقتلك ان شاء الله) . والله لو بصق على لقتلنى . فمات بـ « شرف » في قفولهم الى « مكة » .

ومما يدل على عظيم شجاعته : أنه يوم « أحد » فر عنه الناس ، فاستقبل العدو في نفر قليل من أصحابه ، فكسر « عتبة بن أبى وقاص » رباعيته اليمنى ، وجرح شفته السفلى ، وشججه في جبهته « عبد الله

ابن شهاب الزهري « وضرب « عمرو بن قمئة » وجنته • فأدخل
حلقتي من حلق المغفر في وجنته ، وهو في ذلك كله ، لا يزول عن موضعه •
ولا يولى ظهره • ولم يزل كذلك حتى أنزل الله عليه نصره ، حين رأى
صبره •

وفي ذلك الموضع ، وفي تلك الحال ، نهض نفر من أصحابه لقتال
العدو فوافقوهم وقاوموهم ، مع كثرة عدوهم ، فانفدت مقاتل واحد
منهم • فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم خد ذلك الرجل على
قدمه ، حتى مات • وهذا يدل على غاية شجاعته ، وكثرة الجلد ،
وقلة المبالاة بالعدو • ولقد كانت غزوة « أحد » هذه التي جرى فيها
ما ذكر • من أول الشواهد على نبوته صلى الله عليه وسلم • وذلك
أنه لما التقى هو والمشركون • قال النبي صلى الله عليه وسلم لبعض
أصحابه ، وكانوا رماة : (انضحوا عنا الخيل بالنبل ، لا يأتونا من
خلفنا ، واثبتوا مكانكم ، كانت لنا • أو علينا) •

وقد كان أمر عليهم « عبد الله بن جبير » ثم إن رسول الله صلى
الله عليه وسلم التقى هو والمشركون ، فهزموا المشركين ، وولوا أدبارهم ،
حتى سقط لواءهم صريحا • فلما رأى أصحاب « عبد الله » الهزيمة •
قالوا : الهزيمة • الهزيمة • تعالوا بنا نصيب مما تصيبه الناس •
فقال لهم عبد الله : ألم يقل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(لا تبرحوا من مواضعكم) فقالوا له : قد هزم الله العدو • فلم يلتفتوا
كلامه • فزالوا عن مواضعهم • فلما زالوا عن مواضعهم عاقبهم الله •
بأن رجع العدو عليهم ، فقتل منهم من قتل ، اختلفهم أمر رسول الله
صلى الله عليه وسلم ومحض الله في تلك الغزوة : المؤمنين • ومحن
الكافرين والمنافقين •

وفي تلك الغزوة فقتل عيين « قتادة بن النعمان » حتى وقعت على
وجنته فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أحسن عينيه •
وسياتي ذكر هذا ، وما شاكله بعد هذا ، إن شاء الله تعالى •

وأما خوفه من الله تعالى واجتهاده في عبادته • فقد بلغ من ذلك
إلى حد لم يبلغه أحد من الخليقة • وذلك أن الله تعالى كلفه من وظائف
العبادات ما لم يكلف أحدا على الحقيقة ، وهو مع ذلك لا يقصر في شيء
منها • بل كان يبذل غاية اجتهاده ، ووسعه في أدائها • فمن العبادات التي
كلفها الله له : تحمل أعباء الوحي ، ومشقة ثقله • فلقد كان ينزل عليه

الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا .
ولأجل هذا . قال الله تعالى : « انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » (١)
وقال له : « فاذا قرأناه ، فاتبع قرآنه » (٢) .

وهذه مشقة لا يعرفها علي التحقيق ، الا الرسل . ولأجل عظم
هذا الأمر جاءه جبريل عليه السلام ، وهو يتعبد بغار حراء . وذلك
قبل أن يوحى اليه . فقال له : « اقرأ » فقال : (ما أنا بقارئ) فأخذه ،
فغطه ، حتى بلغ منه الجهد . ثم أرسله . فقال : « اقرأ » فقال :
(ما أنا بقارئ) ففعل به مثل ذلك مرتين . فقال له في الثالثة :
« اقرأ باسم ربك الذي خلق » (٣) الآيات . فقرأها . ثم رجع الى
خديجة يرجف فؤاده ، فقال : (زملوني) فدثروه . فأنزل الله عليه ،
وهو على تلك الحال : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . » (٤)
الآيات .

ثم بعد قبول الوحي أمر بتبليغه وتبيينه للناس ، والصبر على
ما يصيبه من أذى قومه . فكان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه ودينه
على قبائل العرب ، وعلى وفودها اذا قدموا مكة لمواسم الحج ، فيعيب
آلهتهم ، ويسفه أحلامهم ، ويظهر خلافهم ، ويوبخهم على جهالاتهم ،
فيردون عليه قوله ، ويكذبونه ، ويسبونونه ، ويؤذونه ، بأقصى إمكانهم
من أنواع الأذى ، فيصبر على ذلك ويحتسب ما يلقاه ، على الله .
فلسان الحال ينشد ، والأنفاس خوفا من التقصير في أمر الله
تتصعد :

لا أبالي ، اذا رضيت الهى
أى أمر من الأمور دهانى
فلم يزل راضيا ، صابرا على أنواع البلاء ، حتى كان لسان حاله
يقول :

* عذب التعذيب عندي وحلا *

فأقام على ذلك بمكة ثنتى عشرة سنة ، يدعو الناس من غير قتل ،

(٢) القيامة : ١٨ .

(٤) المدثر : ١ - ٣ .

(١) المزمل : ٥ .

(٣) العلق : ١ .

ولا قتال • وذلك كله ليظهر الاسلام ، وتنتشر دعوته ، لئلا يكون لأحد حجة على الله ورسوله •

وبعد ذلك أمر بالهجرة من مكة الى المدينة ، ففارق أهله وعشيرته ، وجماله وماله وولده وبلده ، ولم يعظم عليه مفارقة شيء من ذلك في ذات الله • فترك كل ذلك الى الله فوق أجره على الله •

فلما حل بالمدينة • افترض الله عليه القتال • فقاتل في ذات الله جميع من كفر بالله غير مقصر في ذلك ، ولا مفرط • بل جادا مجتهدا حتى أظهر الله دينه • وان رغمت أنوف الجاحدين • وفي كل ذلك الزمان ، كان يقوم بوظائف الشريعة وعباداتها ، عبادة عبادة ، فصلى حتى تورمت قدماء وانتفخت ، وصام • حتى كان القائل يقول : لا يفطر لكثرة ما كان يرى من صومه ، ووصاله • وكان يذكر الله ويعظمه ويمجده ويشكره على كل أحواله من غير تقصير ، ولا فتور ، ولا تشغله عبادة عن عبادة ، ولا عمل زمان عن عمل زمان آخر •

كان عمله دائما • وبذلك كان يقول صلى الله عليه وسلم : (خير العمل أدومه) فكان يراعى أنفاسه مع الله ، ولا يضيع شيئا مما كلفه خوفا من الله ، فكان ربما يتفكر في عظيم أمر الله وعزة سلطانه ، فيستعظم ما يعرف من هول المطلق ، فكان يقول : (والله انى لأعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية) وكان يقول : (يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولخرجتم الى الصعدات ، تجأرون الى الله ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش • لوددت أنى شجرة تعضد) ولذلك كان يقول : (انى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون • أطت السماء ، وحقق لها أن تنط • ما فيها موضع أربع أصابع ، الا وملك واضع جبهته ، ساجدا لله) •

وهذا كله • يدل على كثرة معرفته بالله تعالى ، وشدة خوفه منه ، ورهبته له ، وكذلك كان يبكى ، ويسمع لخوفه صوت ، كصوت الرجل من البكاء • وكذلك صح النقل عنه : بأنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة • وكان يقول : (يا أيها الذين آمنوا توبوا ، فانى أتوب الى الله في اليوم واللييلة مائة مرة) •

وروى عن على بن أبى طالب أنه قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ستة ؟ فقال : (المعرفة رأس مالى ، والعمل رأس

دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله مجدى ، والزهد
حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والصبر
هادى خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة •

وفى حديث آخر : (وثمرة فؤادى فى ذكره ، وغمى لأجل أمتى ،
وشوقى الى ذى الجلال) •

ووصف خوفه يطول ، ومعرفة ذلك من حاله ، لا ينكره عليم ،
ولا جهول • اذا كان من أهل الانصاف والعقول •

وعلى الجملة : فمناقبه الشريفة لا تحصى ، وما خص به من
الأخلاق الكريمة عديد المحصى ، كيف لا ؟ وقد قال الله تعالى له :
« **وانك لعلى خلق عظيم** » (١) وما عظمه العظيم فهو عظيم • وكيف
لا يكون ذلك • وقد بعثه الله تعالى متمما لمكارم أخلاق الأولين • وقد
خصه بصفات جميع النبيين • فلو جاز أو تصور أن يعبد أحد من
البشر ، لكمال أخلاقه ، وكرم أوصافه ، وطيب أعرافه ، لكان هو • اذ
قد أعطى من ذلك ما لم يعطه أحد من البشر ، ولا دخل لهم تحت كسب
ولا قدر •



خاتمة جامعة في صفاته وشواهد صدقه وعلاماته

وذلك أن « أبا سفيان » وكفار قريش قدموا الشام تجارا • فأرسل اليهم « هرقل » وكان ملك النصارى وعظيمهم ، واليه ينتهى علمهم • فجاءوه ، ودخلوا عليه في مجلسه ، وحوله عظماء الروم • فقال لترجمانه : قل لهم : أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا • أقرب نسبا منه • فقال : ادنوه منى ، وقربوا أصحابه ، واجعلوهم عند ظهره • ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه انى سائل هذا ، عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي • فان كذب ، فكذبوه •

قال أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يؤثروا عني لكذبت عليه ، قال أبو سفيان : فكان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب • قال : فهل قال هذا القول أحد منكم قط قبله • قلت : لا • قال : فهل كان في آبائه من ملك ؟ قلت : لا • قال : فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ قلت : بل ضعفاؤهم • قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزدون • قال : فهل يرتد أحد سخطة لدينه ، بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا • قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا • قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا • ونحن في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها ؟ — يعنى صلحا — •

قال : ولم تدكنى كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة •

قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم • قال : فكيف كان قتالكم اياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال • ينال منا ، وننال منه • قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : (اعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا • واتركوا ما يقول آبائكم) ويأمرنا بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والصلة •

فقال هرقل لترجمانه : قل له : سألتك عن نسبه • فذكرت أنه فيكم ذو نسب • وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول قبله ؟ فذكرت : أن لا • فقلت : لو كان أحد

قال هذا القول قبله ، لقلت : رجل يقتدى يقول قيل قبله • وسألتك : هل كان من آبائه من ملك • فذكرت : أن لا • فلو كان من آبائه من ملك • لقلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال • فذكرت : أن لا • فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ، ويكذب على الله • وسألتك : أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم • فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل •

وسألتك : أيرتد أحد سخطه لدينه ، بعد أن يدخل فيه • فذكرت : لا • وكذلك الإيمان ، حين تخالط بشاشته القلوب • وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت : أنهم يزيدون • وكذلك أمر الإيمان حتى يتم • وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت : أن لا • وكذلك الرسل لا تغدر • وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم : أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف •

فان كان ما تقول حقاً • فسيملك موضع قدمي هاتين • وقد كنت أعلم أنه خارج ، ولم أكن أظن أنه منكم • فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لأحببت لقاءه • ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه •

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان قد بعث به مع « دحية » الى عظيم « بصرى » فدفعه الى هرقل ، فقرأه ، فاذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم • من محمد عبد الله ورسوله الى هرقل عظيم الروم • سلام على من اتبع الهدى « أما بعد » فانى أدعوك بدعاية الاسلام • أسلم • تسلم • يؤتك الله أجرك مرتين • فان توليت فانما عليك اثم الأريسيين^(١) — يعنى المقتدين به — و « يا أهل الكتاب : تعالوا الى كلمة سواء بيننا ، وبينكم : ألا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا : اشهدوا بانا مسلمون »^(٢) •

(١) يقال ان الأريسيين هم أتباع آريوس الذى كان ينادى بتوحيد الله عز وجل فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م وهو الأصح — والله أعلم —
(٢) آل عمران : ٦٤

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، أكثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، وأخرجنا • فقلت لأصحابي ، حين أخرجنا : لقد أمر أمر ابن أبي كبشة • انه ليخافه ملك بنى الأصفر • فما زلت موقفا أنه سيظهر ، حتى أدخل الله على الاسلام •
وكان ابن الناطور ، صاحب « ايلياء »^(١) يحدث أن هرقل ، حين قدم ايلياء أصبح يوما خبيث النفس • فقال له بعض بطارقه : قد استكرنا هيئتك •

قال ابن الناطور : وكان هرقل حزاء ، ينظر في النجوم • فقال لهم حين سألوه : انى رأيت الليلة حين نظرت في النجوم ملك الختان ، قد ظهر • فمن يختتن من هذه الأمة ؟ قالوا : ليس يختتن من هذه الأمة الا اليهود • فلا يهمنك شأنهم • واكتب الى مدائن ملك • فليقتلوا من فيهم من اليهود • فبينما هم على ذلك أتى هرقل برجل • أرسل به ملك غسان ، يخبر عن خبر زنبول الله صلى الله عليه وسلم • فلما استخبره هرقل • قال : اذهبوا فانظروا • أمختتن هو أم لا ؟ فنظروا اليه • فحدثوه أنه مختتن • وسأله عن العرب • أيختتنون ؟ فقال : هم يختتنون • فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر •

ثم كتب هرقل الى صاحب له برومية ، وكان نظيره في العلم • ووسار هرقل الى « حمص » فلم يرم حمص ، حتى أتاه كتاب من صاحبه • يوافق رأى هرقل على خروج النبي صلى الله عليه وسلم • وأنه نبي • فأذن هرقل عظماء الروم في « دسكرة » له بحمص • ثم أمر بأبوابها • فغلقت • ثم اطلع • فقال : يا معشر الروم • هل لكم في الفلاح والرشد • بوان يثبت ملككم • فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها قد غلقت • فلما رأى هرقل نفرتهم • وآيس من ايمانهم • قال : ردوهم على • وقال : انى قلت مقالتي آنفا • أختر بها شدتكم على دينكم • فقد رأيت • فسجدوا له ، ورضوا عنه •

فكان هذا آخر شأن « هرقل » •

فتأمل أيها « القس » ان كنت من أهل العقل والحدس • كيف كان العلماء منكم يعرفونه بعلاماته ، ويستدلون على صحة نبوته بحسن

(١) هي الآن : مدينة القدس ، ويسمونها اليهود - لعنهم الله - : « اورشليم » •

أوصافه وهيئاته • وهكذا فعل جماعة من عقلاء أهل الكتاب ، وغير واحد من ذوى الألباب • مثل : عبد الله بن سلام • والفارسي سلمان ، ونصاري « الحبشة » وأساقفة « نجران » •

ولا تشك ان كنت منصفاً • أنهم كانوا أعلم بالكتب منك ، وأعرف برسول الله وعلاماتهم من عثرتك • ولعلمهم بكتب الله ، وما جاء فيها من علامات محمد رسول الله ، لما جاءهم ما عرفوا ، وحققوا : آمنوا وصدقوا • فقالوا : « ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » (١) •

ولجهلكم بكتب الله ، وبعلامات رسول الله لما جاءكم الحق : كفرتم به • « فلعنة الله على الكافرين » (٢) •

ومن أعظم آياته ، وأوضح دلالاته : ما جرى له مع قومه • وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما جاهر قومه بتبليغ ما أمره الله من الرسالة ، وصدع بأمره ، فسفه أحلامهم ، وعاب آلهتهم • وبين لهم فساد ما هم عليه • شق ذلك عليهم ، وأجمعوا على خلافه ، وعداوته • إلا من عصم الله منهم بالاسلام • كانوا اذ ذاك قليلاً مستخفين فأرادت قريش قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقتل من معه • والوثوب عليهم • فحذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب ، ومنعه عنهم لشرفه في قومه ، وعزته فلم يقدرُوا أن يصلوا اليه بشيء مما أرادوه • فلما رأوا أنهم لا يقدرُونَ أن يصلوا الى ضربه ، لمنع عمه له منهم • اجتمعوا ، وقالوا لأبى طالب : ان ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آياعنا • فاما أن تكفه عنا ، واما أن تخلى بيننا وبينه • فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه • فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً • وردهم رداً جميلاً •

ثم قال له : يا ابن أخى ان قومك قد جاءونى • فقالوا لى : كذا • وكذا — للذى قالوا له — فابق يا ابن أخى على ، وعلى نفسك • ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق • فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك القول منه ، ظن أنه سيسلمه اليهم ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، والقيام معه ، فقال له : (يا عم • والله لو وضعوا الشمس في

في يميني ، والقمر في يساري • على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) ، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لهبكي • ثم قام • فلما ولي ناداه أبو طالب عمه • وقال له : أقبل يا ابن أخي ، واذهب فقل ما أحببت • فوالله ما أسلمك لشيء أبدا •

فلما رأت قريش أن أبا طالب لا يسلمه عزمته على حرب أبي طالب وقتاله • فتهيأ أبو طالب لقتالهم ، وجمع قومه وعشيرته لذلك • ثم انهم تصالحوا فيما بينهم • وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حاله ذلك من عيب دينهم وتسفيه عقولهم وضم آلهتهم لا يرده عن ذلك راد ، ولا يصده عما يريد صاد •

فاجتمع أشراف قريش يوما • فقالوا : ما رأينا مثل صبرنا • على ما تلقى من أمر هذا الرجل • انه قد سفه أحلامنا ، وشتم آبائنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا • لقد صرنا منه على أمر عظيم • فبينما هم يقولون ذلك اذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم • فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت • فلما مر بهم غمزوه ، ببعض القول ، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم • وقال لهم : (أتسمعون يا معشر قريش ؟ أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح) قال : فأخذت القوم كلمته وهيئته • حتى ما منهم رجل الا ناكس رأسه • كأن على رأسه طائرا واقفا • حتى ان أشدهم عليه وطأة ليلين له بالقول • ويقول له أحسن ما يجده من الكلام ، حتى انه ليقول : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا • فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم • حتى اذا كان الغد • اجتمعوا • فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه • حتى اذا أسمعكم ما تكرهون تركتموه • فبينما هم في ذلك اذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم •

فوثبوا اليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به ، يقولون : أنت الذي تعيب آلهتنا ، وديننا ، فيقول : (نعم ، أنا الذي أقول ذلك) فأخذوا بمجمع رداءه ، وجبذوه جبذا شديدا • وهو في ذلك يقول لهم : (أنا الذي أعيب ما أنتم عليه) لم يفزعه ما رأى منهم ، ولا حاله ذلك • بل صبر على ما ناله ، حتى نصره الله عليهم ، وأظهر دينه على دينهم •

فتأمل أيها المعقل • ان كنت منصفًا : فرق ما بين نبينا مجمد عليه السلام ، وبين ما تحكيه النصارى عن المسيح في انجيلهم • وذلك أنها تحكى فيه : أن المسيح لما استشعر بوثوب اليهود عليه • قال : « قد جزعت نفسى الآن • فماذا أقول يا أبتاه ؟ فسلمنى من هذا الوقت » (١) وأنه حين رفع في الخشبة صاح صياحا عظيما • وقال : « الى • الى • لم غريبتانى ؟ وترجمته : الهى • الهى • لم أسلمتنى ؟ » (٢) وهذا غاية الجزع والخور ينزه عنه عيسى • بل هو من أكاذيبهم عليه •

وكذلك ذكرت في انجيلها : أن عيسى لما أخذته اليهود ، وحملته الى قائد القسيسين قال له : « أستحلفك بالله الحى أن تصدقنا : ان كنت المسيح ابن الله ؟ فقال له المسيح : أنت قلت « (٣) وهذا كلام يدل على أنه كتم نفسه ، وسترها ضعفا وجبنا • ثم ان كفار قريش لما أكربهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وغازظهم شأنه • تشاوروا في أمره • فقال لهم « عتبة بن ربيعة » : يا معشر قريش : ألا أقوم لحمد فأكلمه ، وأعرض عليه أمورا ، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، وكيف عنا ؟ وذلك لما لم يقدرُوا أن يصلوا اليه بمكروه • فقالوا له : بلى • فقام اليه عتبة • فقال له : يا ابن أخى • انك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة ، والمكانة في النسب • وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم •

فاسمع منى ، أعرض عليك أمورا لعلك تقبل منا بعضها • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قل • • أسمع) فقال : يا ابن أخى • أن كنت انما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا • وان كنت تريد شرفا ، سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك • وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا • وان كان

(١) (متى ٢٦ : ٣٨) •

(٢) الترجمة الحديثة : « ايلى ايلى لما شبقتنى • أى الهى الهى • لماذا تركتنى » (متى ٢٧ : ٤٦) وفي مرقس « الوى الوى • • • » الخ •

(٣) متى ٢٧ : ١١ مرقس ١٥ : ٢ - ٤ لوقا ٢٢ : ٦٧ - ٧٠ و ٢٣ : ٣

هذا الذى يأتىك رثيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه • فلما فرغ قال له النبى صلى الله عليه وسلم : (أقدر فرغت ؟) قال : نعم • قال : (فاسمع منى) قال : أفعل • فقرا : « بسم الله الرحمن الرحيم • حم • تنزيل من الرحمن الرحيم • كتاب فصلت آياته ، قرآنا عربيا لقوم يعلمون • بشيرا ونذيرا ، فاعرض أكثرهم ، فهم لا يسمعون » (١) ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ السورة ، حتى اذا بلغ « انسجدة » (٢) فسجد • ثم قال : (قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت • فأنت وذاك) •

فقام « عتبة » الى أصحابه • فقال بعضهم لبعض : أحلف بالله ، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس اليهم • قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط • والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، ولا بالسحر • يا معشر قريش : أطيعونى ، واجعلوها بى • خلوا بين هذا الرجل ، وبين ما هو فيه ، واعتزلوا • فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ عظيم • فان تصبه العرب ، فقد كفيتموه بغيركم • وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم • وكنتم أسعد الناس به •

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه • فقال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم •

فانظر • ان كنت عاقلا • كيف بذلوا له أموالهم ، فلم يلتفتها ، وعرضوا عليه ملك الدنيا ، فلم يعرج عليها ، بل صدع بأمر الله • وبلغ ما أمره به الله •

وكذلك اجتمع كفار قريش أشرافهم وساداتهم فعرضوا عليه مثل الذى عرض عليه « عتبة » وقالوا له مثل قوله • فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما بى مما تقولون شيئا • وما جئتكم أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا التملك عليكم • ولكن الله بعثنى اليكم رسولا ، وأنزل على كتابا • وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا •

(١) فصلت : ١ - ٤

(٢) أى الى نهاية الآية ٣٨ من سورة فصلت •

فبلغتكم رسالات الله ، ونصحت لكم • فان تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وان تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم) •

والأخبار في هذا النوع كثيرة • ومن أوضح آياته ، وأشهر علاماتة :

ما أكرمه الله به بعد وفاته • وذلك أنه قد اشتهر أنه صلى الله عليه وسلم لما توفاه الله تعالى اختلف غاسلوه في تجريده القميص • فلما اختلفوا في ذلك ألقى الله عليهم النوم ، حتى ما منهم رجل ، الا ذقنه في صدره ، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت • لا يدرون من هو ؟ ولا يرون أحدا : أن اغسلوا النبي ، وعليه ثيابه •

وكذلك روى أن « عليا » و « الفضل » حين انتهاء في الغسل الى أسفله ، سمعوا مناديا يقول : لا تكشفوا عورة نبيكم صلى الله عليه وسلم •

وكذلك روى في طرق صحاح أن أهل بيته سمعوا وهو مسجى بينهم قائلا يقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته • أهل البيت • ان في الله عوضا عن كل تالف ، وخلفا من كل هالك ، وعزاء من كل مصيبة • فاصبروا واحتسبوا • ان الله مع الصابرين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل • قال : فكانوا يرون أنه « الخضر » •

وقد آن أن نمسك العنان • اذ قد حصل البيان ، على أن قرائن أحوال نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلاماته ، مما لا يحصيها لسان ، ولا يحيط بأجلها انسان •

وقد نجز القول في النوع الثانى من أدلة نبوته • والحمد لله • ونشرع الآن في النوع الثالث •



النوع الثالث

الاستدلال على نبوته صلى الله عليه وسلم بالكتاب العزيز

الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

تنزيل من حكيم حميد

ولقد كان ينبغي أن نقدم الاستدلال بهذا النوع ، لكونه أعظم المعجزات وأوضحها وأشهرها • لكن قدمنا النوع الأول تسكيناً للنصارى واليهود ، وتأسيساً •

وقدمنا النوع الثانى بناء وتأسيساً •

فنقول أيضا : محمد بن عبد الله رسول صادق فيما يقوله عن الله • والدليل على ذلك : أنه قد جاء بالمعجزات • وكل من جاء بها فهو صادق • فمحمد اذن رسول من الله صادق • فان قيل : لم قلتم : انه قد جاء بالمعجزات ؟ قلنا : قد نقل اليينا نقلا متواترا ، بحيث لا يشك فيه : أنه جاء بالقرآن ، وبمعجزات كثيرة • فاذن هو صادق • ونبدأ الآن بالكلام على القرآن ، وبعد الفراغ منه نشرع فى الكلام على غيره من المعجزات ، ان شاء الله تعالى •

فان أنكر منكر أن يكون جاء بالقرآن • فقد تبين عناده ، وسقط استرشاده ، ويقال له : قد حصل العلم بذلك لكل الأمم ، واستوى فى ذلك العرب والعجم ، وسبيلك ان كنت منصفاً : أن تعاشر المتشرعين ، وتسألهم عن أخبار الماضين ، حتى يحصل لك العلم اليقين • ولن ينزع فى ذلك عاقل منصف • بل اما معتوه ، أو متعسف •

فان قيل : سلمنا انه جاء بالقرآن • فلم قلتم انه معجزة ؟ قلنا : لأنه قد تجدى به كافة الفصحاء البلغاء • ومدة مقامه بينهم ، فلم يقدروا على معارضة شئ منه • • فاذن هو معجزة • بيان ذلك :

أنه صلى الله عليه وسلم بعثه الله الى قوم كان معظم علمهم : الكلام الفصيح البليغ المليح • فلقد خصوا من البلاغة والحكم ، بما

لَمْ يَخْصُ بِهِ غَيْرَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ ، وَأَوْقَتُوا مِنْ دَرَايَةِ اللِّسَانِ مَا لَمْ يَوْثِهِ
إِنْسَانٌ ، وَمِنْ فَصْلِ الْخُطَابِ مَا يَتَعَجَّبُ مِنْهُ أَوْلَاوُ الْأَلْبَابِ • جَعَلَ
اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ طَبْعًا ، وَخَلَقَهُ فِيهِمْ غَرِيزَةً وَوَضَعَهَا • فَيَأْتُونَ مِنْهُ عَلَى
الْبَدِيهَةِ بِالْعَجَبِ وَيَدُلُّونَ بِهِ إِلَى كُلِّ سَبَبٍ فَيُخْطَبُونَ بِدَلِّهَا فِي الْمَقَامَاتِ ،
وَشَدِيدِ الْخُطْبِ ، وَيَرْتَجِزُونَ بِهِ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ • فَرُبَّمَا مَدَحُوا
شَيْئًا وَضَمُّوا فَرْفَعًا • وَرُبَّمَا ذَمُّوا شَرِيفًا فَوَضَعُوا • فَيُصَيِّرُونَ بِمَدَحِهِمْ
النَّاقِصَ : كَامِلًا • وَالنَّبِيَّ : خَامِلًا • وَذَلِكَ لِفَصَاحَتِهِمُ الرَّائِقَةَ ،
وَبِلَاغَتِهِمُ الْفَائِقَةَ • فَكَانُوا يَأْتُونَ مِنْ ذَلِكَ بِالسَّحْرِ الْحَلَالِ ، وَيُورِدُونَهُ
أَعْذَبَ مِنَ الْمَاءِ الزَّلَالِ •

فَيُخَدِّعُونَ بِذَلِكَ الْأَلْبَابَ ، وَيَذِلُّونَ الصَّعَابَ ، وَيَذْهَبُونَ الْآحْنَ ،
وَيُهَيِّجُونَ الْفِتْنَ وَيَجْرَعُونَ الْجَبَانَ ، وَيَيْسُطُونَ يَدَ الْجَعْدِ الْبَنَانِ • فَهُمْ
بِيعْرِفُونَ أَصْنَافَ الْكَلَامِ • مَا كَانَ مِنْهُ نَثْرًا ، وَمَا كَانَ ذَا نِظَامٍ • قَدْ
عَمَرُوا بِذَلِكَ أَرْزَامَهُمْ • وَجَعَلُوا ذَلِكَ مَهْمَتَهُمْ وَشَأْنَهُمْ ، حَتَّى بَلَغُوا
مِنْهُ أَعْلَى الرُّتَبِ ، وَأَطْلَوْا مِنْهُ عَلَى كُلِّ غَايَةٍ وَسَبَبٍ ، لَا يَنَازِعُهُمْ فِي
ذَلِكَ مَنَازِعَ ، وَلَا يَدَافِعُهُمْ عَنْ ذَلِكَ مَدَافِعَ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُمْ
رَسُولٌ كَرِيمٌ بِقُرْآنٍ حَكِيمٍ ، فَعَرَضَهُ عَلَيْهِمْ وَأَسْمَعَهُمْ آيَاهُ ، وَاسْتَذَلَّ
عَلَى صَدَقِهِ بِذَلِكَ •

وَقَالَ لَهُمْ : إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ صِدْقِي • فَائْتُوا بِقُرْآنٍ مِثْلِهِ ،
وَعِنْدَ سَمَاعِهِمْ لَهُ ، رَاعَهُمْ مَا سَمِعُوا ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ دُونَ مَعَارِضَتِهِ قَدْ
انْقَطَعُوا • فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ • ثُمَّ أَنَّهُ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ
سُورٍ مِثْلِهِ فَعَجَزُوا ، وَلَمْ يَقْدِرُوا • ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ،
فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا • وَعِنْدَ ذَلِكَ أَخْبَرَهُمْ • وَقَالَ لَهُمْ : « لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ
وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ ، لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ
بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » (١) يَعْنِي عَوْنًا • فَعِنْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ عَجْزُهُمْ وَتَبَلُّدُهُمْ ،
وَإِنْ كَانُوا هُمْ اللِّسَنُ الْفَصَحَاءُ ، اللَّدُّ الْبُلْغَاءُ •

وَعِنْدَ ظَهْوَرِ عَجْزِهِمْ تَبَيَّنَتْ حُجَّتُهُ ، وَوَضَحَتْ مُحِجَّتُهُ ، وَهَكَذَا حَالُ
غَيْرِ وَاحِدٍ مِنَ الرُّسُلِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ
إِلَى قَوْمٍ كَانَ مَعْظَمُ عِلْمِهِمْ وَعَمَلُهُمُ السَّحْرَ • فَأَيَّدَهُ بِقَلْبِ الْعَصَى حَيَّةٍ

تسعى : فرام السحرة معارضته ومقاومته فلم يقدرُوا من ذلك على شيء •
وعند عجزهم تبين صدقه وأنه رسول من عند الله • وكذلك عيسى عليه
السلام بعثه الله في زمان كان معظم علم أهله الطب ، فأيده بأحياء الموتى
وابراء الأكمه والأبرص • وعند عجزهم عن الاتيان بشيء من ذلك
تبين صدقه • وأنه رسول من عند الله فعلم بهذا البرهان ، الذي لا
يتطرق اليه خلل • أن محمدا رسول الله « قد خلت من قبله الرسل » (١).

فان قيل : « لا نسلم أنه لم يعارض ، بل لعله عارض ، ولم
ينقل : أو نقل فأخفى » •

والجواب من وجهين :

أحدهما : أنا نقول لليهود والنصارى : هذا السؤال ينقلب
عليكم في معجزات موسى وعيسى • اذ يمكن أن يقال : ان ساحرا من
السحرة عارض موسى عليه السلام ، وأنه أتى بعصا • فقلبها ثعبانا
أعظم من ثعبان موسى ، والتقم ثعبان موسى •

ويمكن أن يقال للنصارى : ان عيسى عليه السلام عارض في احياء
الموتى ، وابراء الأكمه والأبرص ، ولم ينقل اليينا • أو نقل فأخفى •

وكذلك نقول لغير اليهود والنصارى من الأمم في معجزات أنبيائهم •
فبالذى ينفصلون عن معجزات أنبيائهم • به بعينه نفصل عن معجزات
نبينا عليه السلام •

وجملة ما قيل في جواب هذا : لو عارض لنقل • اذ العادات
تقتضى ذلك • فان هذا الأمر مهم عظيم ، تكثر العناية به ، فيكثر نقله ،
لا سيما في شريعتنا • فانهم قيل لهم : اذ لم تصدقوا ، ولم تعارضوا •
فأذنوا بحرب فلما لم يؤمنوا ، ولم يعارضوا قاتلهم ، فقتلهم ، وسبى
ذراريهم • وانتقم منهم غاية الانتقام • فلو قدزوا على المعارضة
لعارضوا ، ولو عارضوا لنقل نقلا متواترا • فان هذا الأمر من أهم
المهمات عند العقلاء •

الوجه الثانى من الجواب : وهو الانفصال الحق ، والكلام الضدق

نحن نقول : من وقف على القرآن وسمعه ، وفهم معانيه ، وكان عارفاً

بأن

بأصناف كلامهم علم عجز الخلائق عن الاتيان بمثله ضرورة كما يعلم عجز الاطباء عن احياء الموتى وابرء الأكمه والأبرص بنفس العلم بهذه الأمور ، والوقوف عليها • وكذلك من شاهد قلب العصى شعبانا مبينا يتلقف ما جاءوا به من السحر والتخييلات ، حصل له العلم القطعى بأن قلب العصى شعبانا يعجز عنه الخلائق أجمعون اذ ذاك خارج عن مقدورهم •

فان قيل : « احياء الموتى ، وقلب العصى ، وما ينزل منزلتها جلى ، لا يشك فيه من شاهده ، عام • بالاضافة الى كل العقلاء ، لا يبقى معه ريب لأحدهم • بل يحصل لهم العلم القطعى بذلك • وليس كذلك ما ادعاه نبيكم من اعجاز القرآن اذ لا يحصل العلم باعجازه لكل أحد • بل انما يحصل العلم بذلك عندكم ، وعلى زعمكم للفصحاء من العرب • وأما من ليس فصيحاً أو أعجمياً ، لا يفقه لسان العرب ، فلا يحصل له العلم باعجازه • فان الأعجمى لو كلف أن يتكلم بكلمة واحدة من لسان العرب لم يقدر على ذلك • فعدم قدرته على ذلك لا يدل على صدق المتحدى به • وكذلك من ليس فصيحاً من العرب لو كلف أن يأتي بكلام فصيح لم يقدر عليه • فلا يكون ذلك معجزاً في حقه » •

الجواب : أن نقول : سنيين ان شاء الله وجوه اعجازه ، وأنها متعددة ، وان منها ما يدركه الجفلا ، ويشترك في معرفة اعجازه أهل الحضارة والفلا

فيكون هذا النوع كقلب العصى ، واحياء الموتى • ولو سلمنا جدلاً أنه معجز من حيث بلاغته ، وأسلوبه المخالف لأساليب كلامهم فقط • لقلنا : ان العلم باعجازه واحياء الموتى ، وقلب العصى لا يحصل لكل العقلاء على حد سواء • ولا في زمان واحد ، بل يحصل ذلك لمن علم وجه اعجاز ذلك الشيء المعجز ، حين يعرف أنه مما ليس يدركه بجبلة بشرية ، ولا يتوصل الى ذلك بالاطلاع على خاصية •

وقد لا يبعد أن تقوم شبهة عند جاهل بصناعة الطب والسحر تمنعه من تحصيل العلم بالاعجاز • فيقول : لعل موسى اطلع من السحر على شيء لم يعلمه السحرة ، ولا اطلعت عليه • وكذلك عيسى • لعله وقع على خاصية بعض الأحجار ، أو بعض الموجودات • فكان يفعل بها ما يظهر على يديه • وهذه الشبهة انما ممكن أن تظهر للجاهل بالطب

والسحر ، وأما العالم بالطب وبالسحر • فلا تكون هذه شبهة في حقه ،
لعلمه الذى حصل له بالذوق والممارسة • بأن الذى جاء به هذا مما
ليس يدرك بحيلة صناعية ، ولا بالوقوف على خاصية ، بل هو صنع
خالق البرية • وأنه أراد به التصديق لهذا المدعى والشهادة واليقينية •
فحصل من هذا : أن العلم باعجاز احياء الموتى ، وقلب العصى ، انما
يحصل أولا للسحرة ، والأطباء • ولا يحصل لكثير من الجهال بالطب
والسحر الأغبياء ، فكذلك اعجاز القرآن ، ولا فرق •

حصل العلم به لمن يعلم لسان العرب بالذوق ، بضرورة الفرق
الذى بينه ، وبين لسان العرب • فعلم أنه ليس داخلا تحت مقدور
العرب • واذا عجز عنه العرب الفصحاء واللذ البلغاء ، فغيرهم أعجز •
كما أنا نقول : اذا عجز الأطباء عن احياء الموتى ، وبراء الأكمه
والأبرص ، فغير الأطباء أولى • واذا عجز السحرة عن قلب العصى
ثعبانا فغير السحرة أعجز ، وأعجز •

وقولهم : « انما يعجز عنه العرب ، لا العجم » معارض بأن
يقال لهم : انما يعجز عن احياء الموتى الأطباء ، لا غيرهم • وانما
يعجز عن قلب العصى السحرة ، لا غيرهم • فبالذى ينفصلون به ،
ينفصل ، بل نزيد عليهم فى الانفصال ، بوجوه ترفع الاشكال • فانا
سنبدى وجوها فى اعجاز القرآن يدركها كل انسان عجميا كان أو عربيا •
مجوسيا كان أو كتابيا • وسنبينها ان شاء الله اثر هذا •

فقد حصل من هذا الكلام كله : العلم بأن محمدا صلى الله عليه
وسلم جاء بالقرآن ، وتحدى به ، وهو معجزة ، وكل من جاء بالمعجزة
وتحدى بها فهو صادق ، فالنتيجة معلومة وهى : أن محمدا صلى الله
عليه وسلم صادق •

فان قيل : « فبينوا لنا وجوه اعجاز القرآن • وهل هو من جنس
ما يقدر عليه البشر فصرفوا عنه • أو ليس من جنس ما يقدر على الله ؟ »

فالجواب : أن نقول : ذهب بعض علمائنا الى أن وجه اعجازه
انما هو من جهة أن صرفوا عن الاتيان به ، وأنه من جنس مقدور
البشر • لكن لم يقدروا عليه • وهذا ان كان • فهو بليغ فى الاعجاز •
وذلك أن المعجزات ضربان : ضرب خارج عن مقدور البشر ، كانهلاق

البحر ، وانشقاق القمر ، ونبع الماء من بين الأصابع • وضرب يكون
من جنس مقدور البشر الا أنهم يمنعون من فعله ، ولا يقدرّون عليه •
فلو أن نبيا ادعى أنه رسول الله ، واستدل على صدقه بأن قال :
لقومه : آيتي • ألا تقدروا اليوم على القيام • فكان ذلك • فهذا دليل
صدقه ، وهو معجزة جليلة ، أبلغ في الاعجاز من الاتيان بما ليس بمقدور ،
ولا يبعد أن يكون اعجاز القرآن من هذا القبيل • فان البشر قد صرفوا
عن الاتيان بمثله • بل عن الاتيان بأية طويلة من آياته • ومن تنازع
في ذلك فعليه بأن يأتي بقرآن مثله ، أو بسورة من مثله ، وهذا من
خصائص تبينا صلى الله عليه وسلم •

وذلك أن معجزته موجودة بعده ، وحاضرة مشاهدة في كل وقت ،
لم تنقطع بانقطاع وجوده ، ولا ماتت بموته • بل هي موجودة مستمرة
الى قيام الساعة • فكل من أبدى نكيرا في نبوته ، أو قدحا في رسالته •
قلنا له : ان كنت صادقا في تكذيبك له • فعارض قرآنه ومنزله • فان
لم تفعل تبين العقلاء منه أنه متوآقح مبطل •

ثم نقول : والذي ذهب اليه أكثر علمائنا : أن القرآن خارج عن
مقدور البشر ، وليس من جنس مقدورهم • وأن القرآن وان كان
كلاما ، فليس بينه ، وبين كلام العرب من المناسبة والالتقاء ، الا ما كان
بين الخية التي انقلبّت عصى موسى عنها ، وبين حيات السحرة ، التي
كانت تخيل للناظر اليها : أنها حيات تسعى •

ووجوه اعجازه كثيرة • لكننا نبدي منها أربعة ، ونقتصر عليها :
ليبانها ، وظهورها :

* * *

الوجه الاول

فنقول : ان لسان العرب مباين للسان غيرهم ، ومنهم من يجهل به بامور يعلمها العارفون بالالسنه واللغات ، ولا يشكون فيها .

ومن غلط في ذلك وأنكره . فعليه أن يتعلم لسان العرب ، والسنه غيرهم ، حتى يحصل له الفرق بينه ، وبينها ذوقا ومشاهده ضرورية . وتلك الأمور التي باين بها غيره من اللسنه : خفة اللفظ على اللسان وعذوبته ، وسهولة المخرج والتعبير عن المعنى الدائر في الضمير بأبلغ عبارة ، وأوضح تفسير . وكما تميز لسان العرب عن لسان غيرهم . كذلك غير لسان العرب . فذلك تميز لسان محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بأساليب آخر . ومناهج لم تكن العرب قبله تستعملها على نحو ما استعملها هو . حتى أن من لم يعرف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعه ، وكان عربيا يفرق بينه ، وبين كلام غيره من الفصحاء . فانه يبرز على بلاغة البلغاء ، وينف في حكمته على جميع الحكماء .

وكذلك كانت العرب تقول له : ما رأينا بالذي هو أفصح منك . وهذه المناهج المعروفة في كلامه انما يعرفها على التحقيق من باشر كلامه ، وتتبعه وتفهمه ، وكان عارفا بلسان العرب ، وكما تميز كلامه عن كلام العرب وزاد عليهم . فذلك تميز كلام الله عن كلامه بأساليب آخر . حتى أنه كان اذا تكلم بكلامه أدرك الفرق بينه وبين كلام الله حين يثله ، ويتكلم به . حتى كان العاقل الفصيح اذا سمعه قال : ليس هذا من كلام البشر ، ولا مما تقدرين عليه . وسنذكر ما نقلنا عن فصحاءهم لما سمعوا القرآن .

فمن الوجوه الذي به مايز القرآن كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلام العرب : فصاحته الرائقة . وبلاغته الموفقة ، وجزالته الفائقة ، حتى تسمع الكلمة الواحدة منه تجمع معاني كثيرة ، مع عذوبة أيزادها ، وجزالة مساقها ، وصحة معانيها . مثل قوله : « خذ العفو ، وأمر بالعرف ، وأعرض عن الجاهلين » (١) .

ولما نزلت هذه الآية قال « أبو جهل » وكان من أشد الأعداء •
على محمد خير الأنبياء : ان رب محمد لفصيح • وهذه الآية بما تضمنت
من الأحكام ، وتفسير الحلال والحرام ، والاعراض عن أهل الجهل
والاجترام ، والأمر بالتزام أخلاق الكرام • تدل دلالة قاطعة على أنها
كلام العزيز العلام • مع ما هي عليه من اللفظ الجزل الرصين ، الذى
يروع قلوب العارفين • ويثلج قلوب القارئین والسامعين •

وكذلك قوله تعالى : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان ، وإيتاء ذى
القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى • يعظكم لعلكم
تذكرون » (١) •

ولما سمع « المغيرة » هذه الآية • وكان من أعدائه ، الذين
يريدون اطفاء نوره ، واذهاب بهائه • قال : والله ان له لحلاوة ، وان
عليه لطلاوة ، وان أسفله لمغدق ، وان أعلاه لمثمر مورق ، وما يقول
هذا بشر • وهذه الآية قد تضمنت بحكم عمومها ، وصحة مفهومها
معانى كتب المتقدمين ، وشرائع الماضين ، وتذكرة الحاضرين ، وتخويف
المقصرين ، وترغيب المجتهدين ، مع ما هي عليه من قلة الكلمات ،
ومع عذوبة المساق والجزالات •

وكذلك قوله تعالى : « ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه ،
فأولئك هم الفائزون » (٢) حكى أن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى
الله عنه ، بينما هو يوما نائم فى المسجد • اذ وقف على رأسه رجل
يتشهد بشهادة الحق • فاستخبره • فقال : انى كنت من بطارقة الروم •
وكنت ممن يحسن كلام العرب وغيرهم • فسمعت أسيرا من المسلمين
يقرأ آية من القرآن فتأملتھا ، فاذا هي قد جمع فيها ما أنزل الله
على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة • ثم قرأ عليه :
« ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه » — الآية المتقدمة — وكذلك
قوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى : أن أرضعيه ، فاذا خفت
عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ، ولا تحزنى ، انا رادوه اليك ، وجاعلوه
من المرسلين » (٣) •

حكى أن « الأصمعي » سمع جارية من العرب (١) • فتعجب من فصاحتها • فقالت : وهل بعد قول الله تعالى فصاحة ، حيث قال : « وأوحينا إلى أم موسى : أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، أنا رادوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين » • فإنه جمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين ، وبشارتين ؟

وكذلك قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » (٢) حكى أن أعرابيا لما سمعها سجد • فقيل له : لم سجدت ؟ فقال : سجدت لفصاحته ، ولا يظن الجاهل : أنا نستدل على فصاحته بكلام هؤلاء الأعراب • كلا • لو كان ذلك لكانت الحجة أضعف من السراب • بل نعلم : أنه معجز بفصاحته علم ضرورة تحصل لنا عند سماعه وقراءته • والبلغاء إذا وقفوا عليه وسمعوه ، لذلك العلم مضطرون ، بحيث لا يرتابون ولا يشكون •

كيف ؟ والعربي الفصيح إذا سمع قوله تعالى : « ولكم في القصص حياة يا أولى الأبصار لعلمكم تتقون » (٣) وقوله تعالى : « ولو ترى إذ فرعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب » (٤) وقوله تعالى : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » (٥) وقوله تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين » (٦) وقوله تعالى : « فكلأ أخذنا بذنبيه ، فمضهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٧) ومثل هذا كثير ، قضى من هذه البلاغة والجزالة ومثانة هذه المعاني : العجب • وعلم أن مثل هذا لا يقدر عليه أحد من العجم ، ولا من العرب •

(١) يقال : إنه سمع الجارية تنشد :

أستغفر الله لذنبي كله قتلنا انسانا بغير حله
مثل غزال ناعم في دله وانتصف الليل ولم أصله

(٣) البقرة : ١٧٩

(٢) الحجر : ٩٤

(٥) فصلت : ٣٤

(٤) سبأ : ٥١

(٧) العنكبوت : ٤٠

(٦) هود : ٤٤

وما عسى أن يقال في كلام ذي الجلال • اذ هو أصدق الكتب ،
ومصدق خير الرسل ، ولو كانت البحار مدادا ، وجميع الجن والانس
كتابا • ما بلغوا معشاره ، ولا قدروا مقداره •

قال الله تعالى العظيم ، في كتابه الكريم : « قل لو كان البحر مدادا
لكلمات ربي ، لنفد البحر ، قبل أن تنفذ كلمات ربي ، ولو جئنا بمثله
مددا » (١) •

فهذا هو الوجه الأول •

* * *

الوجه الثانى

من وجوه اعجاز القرآن : نظمه العجيب وأسلوبه الغريب ، الذى خالف به جميع أسلوب كلام العرب • حتى كأنه ليس بينه ، وبينه نسب ، ولا سبب • فلا هو كمنظوم كلامها ، فيكون شعرا موزونا ، ولا كمنثوره ، فيكون نثرا عريا عن الفواصل ، محروما • بل تشبه رؤوس آيه ، وفواصله ، قوافى النظم • ولا تدانيها ، وتخالف آيه ، متفرقات النثر ، وتناوينا • فصار لذلك أسلوبا خارجا عن كلامهم • ومنهاجا خارقا لعادة خطابهم • وذلك أن كلام بلغاء العرب لا يخلو :

أما أن يكون موزونا منظوما • أو غير موزون ولا منظوم • فالأول : هو الشعر • وهو أصناف وأنواع بحسب اختلاف أعاريضه • والثانى : هو النثر • والقرآن العزيز خارج عن الصنفين ، مفارق للنوعين • فارق الشعر بأنه ليس موزونا وزنه ، فتكسره لفظة زائدة ، ولا مرتبطة ربطه حتى تفسده مخالفة قافية واحدة ، فى الوقوف عليه • وأوضح شاهد ، وأقطع لشبهة كل معاند •

وها أنا أتلوا عليكم معشر النصارى بعض آياته ليتحقق المنصفه صدق شهاداته •

قال الله العظيم ، فى محكم كتابه الكريم : « وانكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا • فاتخذت من دونهم حجابا فارسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت : انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا • قال : انما أنا رسول ربك ، لأهب^(١) لك غلاما زكيا • قالت : انى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغيا • قال : كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمرا مقضيا • فحملته فانتبذت به مكانا قصيا • فاجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا •

(١) فى الأصل (ليهب) وقراءة حفص (لأهب) •

فناداهما من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا • وهزى
إليك بجذع النخلة ، تساقط عليك رطباً جنياً • فكلى واشربى وقري
عيناً ، فاما ترين من البشر أحداً فقولى : انى نذرت للرحمن صوماً
فلن أكلم اليوم انسيا • فأتت به قومها تحمله ، قالوا : يا مريم لقد
جننت شيئاً فرياً • يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء ، وما كانت أمك
بغياً • فأشارت اليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبياً • قال :
انى عبد الله أتانى الكتاب وجعنى نبياً • وجعنى مباركاً أين ما كنت
وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً • وبراً بوالدتى ، ولم يجعنى
جباراً شقياً • والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ، ويوم أبعث
حياً» (١) •

ثم بعد ذلك أخذ فى أسلوب مخالف هذا • فقال تعالى :

« ذلك عيسى ابن مريم ، قول الحق الذى فيه يمترون • ما كان لله
أن يتخذ من ولد ، سبحانه » ، اذا قضى أمراً فانما يقول له : كن فيكون •
وان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم» (٢) •

هكذا • الى أن فرغ من هذا النمط ، ثم شرع فى نمط آخر ،
على ما يعرفه من وقف عليه ، وتدبره • وانما تلونا هذه الآيات على
الخصوص فى هذا المقام لما تضمنه من الأخبار عن عيسى ومريم
عليهما السلام حتى يعلم النصارى بطلان ما يقولوه عليهما من الكذب
والأوهام •

فانظر • ان كنت عاقلاً منصفاً • كيفية هذا النظم الشريف ،
البديع المنيف ، كيف عادل بين رؤوس الآى ، بحروف تشبه القوافى ،
وليس بها ، والتزمها ثم عدل عنها ، الى غيرها • مع أن السورة واحدة
بخلاف ما يفعل الناصر ، فانه لا يلتزم قوافى ، ولا فواصل •

والقرآن العزيز ذو آيات لها فواصل ومقاطع ، ورؤوس تشبه
القوافى ، فقد عرفت أنه خالف نظم كلام العرب ، ونثرها • فهو منهاج
آخر ، وأسلوب لم تكن العرب تعرفه • ولما سمعته العرب ووعته ،
لم يتحدث قط واحد منهم : بأنه يقدر على معارضة آية منه ، بل حارت

فيه عقولهم ، وتدلّيت دونه أحلامهم • ولذلك قال « الوليد بن المغيرة » :
 للأقريش : يا معشر قريش • انه قد حضر موسم الحج ، وان وفود
 العرب ستقدم عليكم • وقد سمعوا بأمر صاحبكم • ولا بد أن يسألوكم
 عنه • فماذا تقولون لهم ؟ فأجمعوا فيه رأيا واحدا ، لئلا تكذبكم العرب ،
 اذا اختلفتم فيه • قالوا : نقول : انه كاهن • فقال لهم : والله ما هو
 بكاهن • لقد رأينا الكهان ، فما هو بزمزمة الكاهن • ولا سجعه •
 قالوا : فنقول : انه مجنون • قال : والله ما هو بمجنون • لقد رأينا
 المجنون ، وعرفناه • والله ما هو بخنقه ولا تخالجه ، ولا وسوسته •
 قالوا : فنقول : انه شاعر ، قال : ما هو بشاعر • لقد عرفنا الشعر
 كله ، رجزه ، وهزجه ، ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر • قالوا :
 فنقول : انه ساحر • قال : ما هو بساحر • لقد رأينا السحرة وسحرهم •
 فما هو بنفته ، ولا عقده • وما أنتم قائلون شيئا من هذا الا كذبتكم
 العرب • وعرفت أنه باطل • قالوا : فما تقول أنت ؟ قال : والله ان
 لقوله لحلاوة وان أصله لعذق ، وان فرعه لثمر ، وان أقرب القول
 فيه أن تقولوا : انه ساحر ، جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء
 وابنه ، وبين المرء وأخيه • يعنى : أن هذا تقبله العرب فانها لا تعرف
 السحر • فعولوا على أن يقولوا : انه سحر • ففعلوا • وفى « الوليد »
 أنزل الله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيدا • وجعلت له مالا ممدودا •
 وبنين شهودا • ومهدت له تمهيدا » (١) •

فانظر كيف عرفوا أنه ليس من جنس كلامهم ، ولا من جنس
 كلام الكهنة ، ولا السحرة ، ولم يمنعهم من الايمان به ، الا ما سبق
 لهم من الشقاوة والعناد والحسد والجفوة •

وكذلك قال لهم « عتبة بن ربيعة » لما سمع « حم • تنزيل من
 الرحمن الرحيم » (٢) قال : والله ما سمعت مثله قط • والله ما هو بالشعر ،
 ولا بالسحر ، ولا بالكهانة • فقد تقدم بكماله ، فلينظر هناك •

وكذلك قال « أنيس » أخو « أبى ذر الغفارى » وكان شاعرا مفلقا ،
 يناقض الشعراء ويعارضهم • فلما سمع القرآن • قال لأخيه « أبى ذر »
 لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت على أقراء

الشعر ، فلم يلتئم • وما يلتئم على لسان أحد يدعى أنه شعر •
والله أنه لصادق ، وانهم لكاذبون •

والأخبار الصّاح في هذا المعنى أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب •

فقد اتضح من هذا الوجه ، ومن الذى قبله : أن القرآن العزيز
معجز بمجموع فصاحته ونظمه • وقد تبين أنهما وجهان متغايران •

ثم هل كل واحد من هذين الوجهين معجز بانفراده • أو انما يكون
معجزا باجتماعهما ؟ هذا فيه نظر •

ولعلمائنا فيه قولان • ليس هذا موضع استيعابهما ، ولا حاجة
بنا ، في هذا الكتاب الى بيانهما • اذ قد عرف وتحقق : أنه بفصاحته
ونظمه معجز • ومن تشكك في ذلك أو أبدى فيه أمرا ، بعد الوقوف
على القرآن ، فهو منكر لما هو ضرورى • والذى يبطل عناده ، ويظهر
صميم جهله أن يقال له : ائت بسورة من مثله •

والله ولى التوفيق ، وهو بتتوير قلوب أوليائه حقيق •

* * *

الوجه الثالث

من وجوه اعجاز القرآن ما تضمنه من الاخبار بالمفيات قبل أن يحيط أحد من البشر بعلمها ، وبوقوع كائنات قبل وجودها • وذلك أمر لا يتوصل الى العلم به ، الا من جهة الصادقين الذين يخبرون عن الله تعالى •

ونحن نذكر منها مواضع على شرط التقريب والاختصار ، تغنى عن التطويل والاكثر •

فمن ذلك قوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام ، ان شاء الله آمنين ، محلقين رؤوسكم ، ومقصرين ، لا تخافون » (١) •

فهذه الآية من أوضح معجزاته صلى الله عليه وسلم • وذلك أن الله تعالى وعده بأن يدخله المسجد الحرام هو وقومه في حالة أمن ، ويفتح عليهم مكة على أحسن حال • فما زالوا ينتظرون ذلك حتى بلغ بوقته ، وصدق وعده ، فدخلوا كما وعدهم ، وفتحوه على ما أخبرهم •

ومن ذلك قوله تعالى : « ألم • غلبت الروم • في أدنى الأرض • وهم من بعد غلبهم سيفلبون • في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ، ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون • بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم • وعد الله ، لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢) •

وهذه الآية أيضا من أعظم معجزاته • وذلك أن هذه الآية لما نزلت كانت « فارس » غالبى « الروم » وكان المسلمون يحبون ظهور الروم على فارس ، لكون الروم أهل كتاب ، وكانت قريش يحبون ظهور فارس على الروم ، لأنهم وإياهم ليسوا أهل كتاب ، ولا إيمان • فلما أنزل الله تعالى هذه الآية خرج « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه يصيح في الناس ، وفي نواحي مكة بهذه الآية • ويقراها على مشركي

قريش • فقال ناس من قريش : زعم صاحبكم أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين • أفلا نراهنك على ذلك ؟ فقال : بلى — وذلك قبل تحريم الرهان — فارتهن « أبو بكر » والمشركون ، وتواضعوا الرهان • وقالوا لأبى بكر : كم نجعل البضع — البضع ثلاث سنين الى تسع سنين — قسم بيننا وبينك وسطا ننتهي اليه ؟ قال : قسموا بينهم : ست سنين • فمضت الست سنين قبل أن يظهروا • فأخذ المشركون رهن أبى بكر • فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس • فعاب المسلمون على أبى بكر تسميه : ست سنين • لأن الله تعالى قال : « في بضع سنين » •

قال : وأسلم عند ذلك ناس كثير (١) •

ومن ذلك قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم • وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا • يعبدوننى ، لا يشركون بى شيئاً » (٢) •

وقد فعل الله ذلك بمحمد وأمته • ملكهم الأرض ، واستخلفهم فيها ، وأذل لهم ملوكها • تحت سيف القهر • بعد أن كانوا أهل عز وكبر ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ومنحهم رقابهم « وعد الله • ان الله لا يخلف الميعاد » (٣) •

ومن ذلك قوله تعالى : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم • والله مضم نوره ، ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ، ودين الحق ليظهره على الدين كله • ولو كره المشركون » (٤) •

فان قيل : « كيف يصح لكم قوله : « ليظهره على الدين كله » ومعلوم أن ملك النصارى لم ينقطع في حياته ، ولا بعد موته • وهذا ملكهم قائم • فلم يظهر دينكم على دينهم • فلا معنى لقوله : « ليظهره على الدين كله » ؟

(١) وفي الآية اعجاز آخر وهو فرح المؤمنين فيما بعد بنصر الله ، وقد انتصروا على فارس والروم •

(٢) الرعد : ٣١

(٣) النور : ٥٥

(٤) الصف ٨ ، ٩ ، والمعنى لايام النبى صلى الله عليه وسلم والمستقبل

من الايام الى يوم القيامة •

الجواب : أن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة • والى جميع أهل الملل عامة • نصرانيهم ، ويهوديهم ، وغير ذلك • فبلغهم ما أمره الله به فكلهم • فنصبوه العداوة ، وأبدوا له صفحة الخلاف وهموا بإبطال دعوته ، واطفاء كلمته • وبذلوا في ذلك غاية جدهم ، واستفروا أقصى جهدهم • فنصبوا لحربه ، وعزموا على قتله ، ونهبه • ومرسله يقول له : « بلغ ما أنزل اليك من ربك • وان لم تفعل فما بلغت رسالته • والله يعصمك من الناس » (١) •

فأول من حاربه : كفار قريش ، فأظفروا الله بهم ، وأظهروا عليهم ، ثم حاربته : يهود ، فأمكنه الله منهم ، وملكه أرضهم وديارهم • فقتل وسبوا ، وأسر • فعلا عليهم وظهر • ثم حاربته النصارى فغزاهم بتبوك ، ودخل عليهم بلادهم ، وافتتح في طريقه حصونا لهم ، ولغيرهم ، وأظهره الله عليهم ، وضرب على كثير من ملوكهم الجزية •

ثم ان أصحابه بعده ، لم يزالوا على مثل حاله • يقاتلون كل من كفر بالله ، ولا يخافون لومة لائم في الله • فلقد صيروا ملوك الروم وغيرهم : أذلة أهل صغار ، وجزية ، وذلة ، ثم لم يزل دين الاسلام ، مع مرور الأيام ينتشر بكل مكان ، ويظهر • وغيره من الأديان يقل ويصغر •

وحسبك شاهدا على ذلك فتح هذه « الجزيرة الأندلسية » (٢) •

(١) المائدة : ٦٧

(٢) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة « الأندلس » على شبه جزيرة « ايبيريا » المكونة من أسبانيا والبرتغال (ياقوت في معجم البلدان تحت كلمة الأندلس • والروض المعطار ص ١) • وتطلق في الرواية العربية أيضا أسبانيا المسلمة ، التي كانت عقب الفتح تشمل كل أسبانيا ما عدا « جليقة » ، وولايات جبال « البرنية » • ولكن « الأندلس » تطلق في العصور المتأخرة ، وفي الجغرافيا الحديثة على ولايات الأندلس الواقعة في جنوب أسبانيا ، بين نهر الوادي الكبير والبحر وبين ولاية مرسية « واشبيلية » ، وما زالت « الأندلس » "Andalucia" تحتل في تقسيم أسبانيا الإداري الحاضر نفس هذه المنطقة • والرواية العربية تعلل هذه التسمية بصور مختلفة ، فتقول مثلا أنها سميت أندلس باسم أول من سكنها من قديم الزمان ، وهم قوم من الأعاجم يقال لهم أندلوس (نفح الطيب ج ١ ص ٦٧) • ويقول ابن الأثير : ان النصارى يسمون الأندلس « اشبانية » باسم « اشبانس » أحد ملوكها ، وهذا هو اسمها عند « بطليموس » (ج ٤ ص ١٢١) • ولكن ابن خلدون يقدم لنا تعليلًا أدق فيقول انها سميت =

على يدي جماعة من العرب قليل عددهم ، وعددهم (١) ، كثير دينهم ومددهم .
على أعداد من النصارى لا تحصى ، وجنود لا تستقصى . ولكن صدق
الله عبده ، وأنجز وعده ، وهزم الأحزاب وحده . فأمكنهم الله منكم ،
وأظهرهم عليكم ، فأجدادكم عندهم بين أسير وقتيل . وتحت صفار
الجزية ذليل ، وأصدق شاهد على ظهور دين الاسلام على دينكم ،
وجميع الأديان غلبتهم على بيت حجكم ، وموضع قرابينكم المعظم .
والمسجد المكرم . بيت المقدس حيث أراد الله أن يطهره من رذائلكم ،
وينزله عن جهالاتكم ، وخبائثكم . فافتتحه المسلمون . وظهر دين
الله على الدين كله ، ولو كره الكافرون .

ومن ذلك قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق ، وفي
أنفسهم » (٢) .

وقوله : « في الآفاق » يريد بذلك فتح الأمصار ، وقوله :
« وفي أنفسهم » يعنى به فتح مكة . وقوله : « سنريهم » يرجع الى
كفار قريش . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ان الله زوى

= « الأندلس » باسم « قندلس » ولعلها « فندلس » ومن الواضح أنه يقصد
« الفندال » أى « الوندال » (ج ٢ ص ٢٣٥ فى تاريخ القوط) . ويقدم لنا
البكرى خلاصة دقيقة لهذه المسميات الجغرافية التاريخية فيقول فى وصف
لجزيرة الأندلس : ان اسمها القديم « اباريه » « Iberia » من وادى « ابرة » .
ثم سميت بعد ذلك « باطقة » « Baetica » من وادى بيطسى وهو نهر قرطبة .
ثم سميت « اشبانية » من اسم رجل ملكها فى القديم كات اسمه « اشبان » .
وقيل سميت باسم « الاشبان » الذين سكنوها فى أول الزمان على جرية
النهر وما وآله . وقال قوم : ان اسمها فى الحقيقة « اشبارية » « Hisperia »
من « اشبرس » وهو الكوكب المعروف بالأحمر . وسميت بعد ذلك بالأندلس
من أسماء « الأندليس » من الذين سكنوها « والأندلس » هم « الوندال »
« Vandals » وهذا هو التعليل الذى يأخذ به « دانفيل » « Danville »
اذ يقول : ان الاشتقاق مأخوذ من كلمة « فاندالوسيا » « Vandalusia »
أى بلاد « الوندال » ، (نقله « جيبون » عن كتاب ممالك أوروبا فى هامش
الفصل الحادى والخمسين) وهذا ما يقرره الفيزيى أيضا فى معجم مخطوطات
الاسكوريال :

(Biblu. Arabico - Hispana Escorialensis II) (n. 237. Casiri).

من عنان : دولة الاسلام فى الأندلس . هامش ص ٥ .

(١) « عددهم » : الأولى بفتح العين . والثانية يضمها .

(٢) فصلت : ٥٣

لى الأرض • فرأيت مشارقها ومغاربها • وان ملك أمتى ، سيبلغ ما
زوى منها) — ومعنى « زوى » : جمع —

ومن ذلك قوله تعالى : « سيهزم الجمع ، ويولون الدبر » (١) •
يريد بذلك والله أعلم : جمع كفار قريش • وكذلك فعل بهم •
وذلك أنهم خرجوا الى حربه صلى الله عليه وسلم في غير موطن ،
فهزمهم الله ، وولوا الأدبار ، وكانت عاقبتهم الخسار والبوار •
وكذلك قال تعالى في آيات أخر : « قل للذين كفروا ستغلبون
وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد » (٢) •

وفي آية أخرى : « ان يضروكم الا اذى ، وان يقتلوكم ، يولوكم
الأدبار ، ثم لا ينصرون » (٣) •

فهذه الآية اقتضت بشارتين :

أحدهما : أنهم لن يصلوا الى أصحاب النبی بضر أكثر من السب •
والثانية : أنهم يغلبون ، ويولون الأدبار • وكذلك كان على نحو
ما أنزله ذو العزة والسلطان •

والآيات في القرآن لهذا النوع كثيرة • ومن ذلك قوله تعالى :
« انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٤) — يعنى بالذكر : القرآن
العزیز —

أخبرنا الله تعالى في هذه الآية : أنه أنزله ، وأنه تولى حفظه •
وهذا كتاب الله محفوظ بحفظه ، لا يقدر أحد على تغيير كلمة واحدة من
لفظه على كثرة من سعى في تغييره ، فأطفا نوره ، لا سيما « القرامطة »
فانهم كانوا قد أجمعوا كيدهم ، واستنفدوا في تغييره وتحريفه جهدهم ،
ولم يزل كذلك دأبهم ، ودأب غيرهم ، من أعداء الدين ، وعتاة الملحدين ،
ويأبى الله الا أن تعالى كلمته ، وتظهر شريعته •

وقد قدمنا أسباب حفظ القرآن • فلا معنى لاعادتها مع الأحيان •

(٢) آل عمران : ١٢

(٤) الحجر : ٩

(١) القمر : ٤٥

(٣) آل عمران : ١١١

ومن ذلك قوله تعالى : « انا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله الها آخر » (١) •

وكان هؤلاء المستهزئون ، نفرا من الكفار معروفون بأعيانهم وأسمائهم ، ينفرون الناس عنه ، ويؤذونه ، ويهزأون به ، فأنزل الله على نبيه هذه الآية يبيّنه باهلاكمهم وهم أحياء • فكان سبب اهلاكمهم من أعجب آيات النبي صلى الله عليه وسلم • وذلك أنه كان منهم : « الأسود بن عبد المطلب » رمى في وجهه النبي صلى الله عليه وسلم بورقة خضراء ، فعصى • ومنهم « الأسود بن عبد يغوث » أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، فاستسقى بطنه • فمات حبنا • ومنهم « الوليد بن المغيرة » أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى أثر جرح كان بأسفل كعبه ، كان أصابه قبل ذلك بسنتين • وكان قد برأ فتجدد حتى قتله الله به • ومنهم « العاص بن وائل » أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى اخمص رجله ، فخرج على حمار له يريد الطائف ، فرماه حماره على الأرض ، فدخلت في اخمص رجله شوكة • فقتلته • ومنهم « الحارث بن الطلالة » أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى رأسه ، فاستحال دمه : قيحا • فقتله •

فانظر • بعقلك هذه الأمور العجيبة ، وهذه الأحوال الغريبة التي لا تلحق بالأفكار ، ويحار فيها أولى الأبصار ، بل تشهد عندها العقول : أن المقصود بها تصديق الرسول • فوالله لو لم يكن له من المعجزات الا هذه الآية • لكان فيها أعظم كفاية ولحصل من تصديقه على أبعد غاية •

وفي كتاب الله تعالى ، من هذا القبيل ما يحتاج استقصائه الى تكثير ، وتطويل وحسبك ما تضمنه من كشف أسرار المنافقين ، وفضيحة اليهود الضالين • فلقد يقضى الناظر فيها من ذلك العجب العجيب • ويتحقق أنه من عند الله من غير شك ، ولا ارتياب •

* * *

الوجه الرابع

في وجوه اعجاز القرآن : ما تضمنه من الاخبار عن الأمم السالفة ، والقرون السالفة ، والشرائع الدائرة ، والقصص الغابرة التي لا يعلم منها بعضها الا الآحاد من علماء ذلك الشأن • الذين قد انقبضت لهم في تعلم تلك العلوم : أزمان • فيورده النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن على وجهه ، ويأتى به على نصه ، فيعترف العالم بصحته ، وتصديق قصته ، مع العلم بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينل ذلك بتعليم ، ولا اكتسب ذلك بواسطة معلم ولا حكيم • بل حصل له ذلك باعلام العزيز العليم •

والا • فهو أمدى ، لا يقرأ ولا يكتب ولا يتفقه ولا يحسب • ومع ذلك فقد حصلت له علوم الأولين والآخرين ، وصار كتابه وكلامه منبع علوم العالمين • فلقد كان أهل الكتاب يجتمعون اليه ، ويلحون بالأسئلة عليه • فينزل عليه بأجوبتهم القرآن • فما ينكر شيئاً من ذلك منهم انسان ، بل يعترف بذلك • ولا ينكر شيئاً مما يسمع هنالك • هذا • مع شدة عداوتهم له ، وحرصهم على تكذيبه • وهو مع ذلك يحتج عليهم بما في كتبهم ويقرعهم بما انطوت عليه مصاحفهم ، ويبين لهم كثيراً مما كانوا يخفون من شرائع كتبهم ، ووصايا رسولهم • وهم مع ذلك يروهون تعنيته • ويقصدون بأسئلتهم تبكيته • مثل سؤالهم عن الروح (١) ، وعن ذى القرنين (٢) ، وعن أصحاب الكهف (٣) ، وعن عيسى ابن مريم (٤) ، وعن حكم الرجم (٥) ، وعن ما حرم اسرائيل على نفسه (٦) ، وعما حرم عليهم من الأنعام ، ومن طيبات أحلت لهم ، فحرمت عليهم ببغيتهم (٧) • وغير ذلك من أمورهم التي نزل القرآن جواباً عنها ، فلم ينكروا شيئاً منها ، حين ذكرها لهم على وجهها •

(١) يقصد الروح القدس وقد وضعنا القصد في كتابنا (أقانيم النصارى) •

(٢) ذى القرنين : هو الاسكندر الأكبر المقدوني وقد استولى على مصر وبلاد الشام سنة ٣٣٣ ق م •

(٣) أصحاب الكهف : من النصارى وكانوا في قرية « أفسوس » في عهد القيصر الرومانى ديسيوس (انظر كتابنا اعجاز القرآن) •

(٤) التاريخ الميلادى : مشكوك فيه •

(٥) التثنية ٢٤ الاصحاح الثانى والعشرون •

(٦) التكوين الاصحاح الثانى والثلاثون •

(٧) سفر اللاويين (الاحبار) •

ونحن نذكر بعض ذلك على ما يقتضيه الاختصار ، ونقتصر على ما صرح من الآثار ، وتناقله الجمع الكثير من رواة الأخبار •

فمن ذلك • ما استفاض ذكره ، واشتهر نقله : أن قريشا لما أجمعهم شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم • وأكربهم أمره • بعثوا « النضر بن الحارث » وكان من شياطين قريش • و « عقبه بن أبي معيط » إلى أخبار يهود ، بالمدينة يسألهم عن أمره • فجاءا المدينة ، من مكة • وقالوا لأخبار يهود : انا جئناكم نسألكم عن شأن هذا الرجل • فانكم أهل الكتاب ، وعندكم من العلم ما ليس عندنا ، ووصفا لهم أمره ، وأخبراهم ببعض قوله • فقالت لهما أخبار يهود : سلوه عن ثلاثة • نأمركم بهن ، فإن أخبر بهن فهو نبي مرسل • وإن لم يفعل فالرجل متقول • فروا فيه رأيكم •

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان أمرهم فانه قد كان لهم حديث عجيب • وسلوه عن رجل طواف في الأرض • قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان نبؤه • وسلوه عن الروح ما هو ؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فانه نبي • وإن لم يفعل فهو متقول • فأقبل النضر ، وعقبه • حتى قدما مكة على قريش ، فأعلماهم بما قالت لهم أخبار يهود ، فجاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عما أخبرت أخبار يهود ، فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم سورة أصحاب الكهف • وأخبره فيها بقصتهم ، واختلاف الناس في عددهم ، ومدة لبثهم في كهفهم ، حتى أتى على آخر قصتهم ، وأخبرهم أيضا عن قصة ذي القرنين إلى آخرها ، وعن قصة الخضر عليه السلام مع موسى عليه السلام • وكيف سأل موسى السبيل إلى لقائه ، وذكر فيها جوابهم عن الروح •

وذلك كله مع اللفظ الوجيز الفصيح ، والكلام الجزل الصحيح ، الذي لا يملأ سامع ، ولا يطمع في معارضته طامع •

ومن ذلك قصة أهل نجران ، وكانوا نصارى سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عيسى عليه السلام فأنزل الله تعالى في القرآن : « ذلك نتأوه عليك من الآيات ، والذكر الحكيم • إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ، ثم قال له : كن فيكون » (١) •

ومن ذلك أن نفرا^(١) من أحبار يهود جاءوا رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالوا : يا محمد • أخبرنا عن أربع نسائك عنهن • فإن فعلت اتبعناك ، وصدقناك ، وآمنا بك • فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عليكم بذلك عهد الله وميثاقه • لئن أخبرتكم لتصدقنني) ؟ قالوا : نعم • قال : (فاسألوا عما بدا لكم) قالوا : أخبرنا كيف يشبه ابولـد أمه • وإنما النطفة من الرجل ؟ فقال لهم : (أنشدكم الله ، وبأيامه عند بنى اسرائيل • هل تعلمون نطفة الرجل بيضاء غليظة ، ونطفة المرأة صفراء رقيقة • فأيتهما غلبت • كان لها الشبه) قالوا : اللهم نعم^(٢) • قالوا : فأخبرنا عن نومك كيف هو ؟ قال : (أنشدكم بالله ، وبأيامه هل تعلمون : أن نوم الذى تزعمون أنى لست به ، تنام عينه ، وقلبه يقظان)^(٣) قالوا : اللهم نعم • قال : (وكذلك نومي • تنام عيني ، وقلبي يقظان) قالوا : فأخبرنا عما حرم اسرائيل على نفسه ؟ قال : (أنشدكم بالله ، وبأيامه عند بنى اسرائيل • هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الابل • وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها ، فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه • شكرا لله ، فحرم على نفسه لحوم الابل وألبانها)^(٤) ؟ قالوا : اللهم نعم • قالوا : أخبرنا عن الروح • قال : (أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى اسرائيل • هل تعلمونه جبريل ، وهو الذى يأتيني ؟) قالوا : اللهم نعم • ولكنه يا محمد لنا عدو • هو ملك انما يأتى بالشدة ، وسفك الدماء ، ولولا ذلك لاتبعناك •

فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم : « قل من كان عدوا لجبريل • فإنه نزله على قلبك بأذن الله ، مصدقا لما بين يديه ، وهدى وبشرى للمؤمنين »^(٥) •

(١) ورد هذا الخبر فى سيرة ابن هشام • وقد علقنا عليه (انظر تحقيقنا لسيرة ابن هشام طبعة دار التراث العربى بمصر سنة ١٩٧٩ م) •

(٢) العلم الحثيث كذب هذا وهو للحق •

(٣) ليس هذا من أوصافه فى التوراة •

(٤) حرم عرق النساء (التكوين ٣٢) •

(٥) البقرة : ٩٧

ومن ذلك أن يهوديين بالمدينة زنيا ، فأمرت أخبار يهود بهما ، فحمما فمروا بهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لهما : (ما هذا ؟ . . أهكذا تجدون في كتابكم ؟) قالوا : نعم . فكذبهم . وقال : « فائتوا بالتوراة . فائتلوها . ان كنتم صادقين » (١) فجاءوا بالتوراة ، فتلوها ، فاذا فيها آية الرجم (٢) ، فوضع الذي كان يقرؤها يده عليها . وقرأ ما بعدها ، وما قبلها . فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك فرفعها فاذا بآية الرجم ، فاعترفوا بذلك فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما . ثم قال لليهود : (ما حملكم على هذا ؟) فقالوا : كنا اذا زنى الشريف منا عندنا ، لم نقم عليه الحد . واذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد ، فعظم علينا هذا . فرأينا أن نجتمع على حد يشمل الضعيف والشريف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الحمد لله الذي جعلني أول من أحيا أمر الله) — نقلته بالمعنى —

فأنزل الله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون » ، و « الظالمون » ، و « الفاسقون » (٣) الآيات .

وفي هذا المعنى ، وما قاربه نزل قوله تعالى : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب » (٤) .

والأخبار في هذا كثيرة . ليس هذا موضع استيفائها . وفيما ذكرناه كفاية ، لمن كان ذا عقل ودراية . وهذان وجهان لا يتصور أن ينكر عاقل أنهما غير داخلين تحت مقدور البشر ، بل هما خارقان للعادة . اقتربنا بتحدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وعجز الخلائق عن معارضتهما فهو ثبني صادق فيما أخبرني به عن الله ، مصدق من جهة الله . . . وما أخبر به عن الله : أن الله تعالى بعثه الى الناس كافة ، يهوديهم ، ونصرانيهم ، ومجوسيهم ، فهو رسول اليهم ، والى كافة وعامة ، ومن كذبه فقد استحق العذاب الأبدى . والعقاب السرمدى « أفمن حق عليه كلمة العذاب . أفأنت تتخذ من في النار » (٥) ؟

(٢) سفر التثنية : ٢٢

(١) آل عمران : ٩٣

(٤) المائدة : ١٥

(٣) المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧

(٥) الزمر : ١٩

ولا يظن ظان : أن اعجاز القرآن انما هو من هذه الوجوه الأربعة فقط • بل وجوه اعجازه أكثر من أن يحصيها عدد ، أو يحيط بها أحد • ولو شئنا لذكرنا منها وجوها كثيرة ، لكن شرط الاختصار ، منع من الاكثار ، ومن لم ينفعه الكلام المفيد القليل ، فهو معرض كسل عن الكثير •

وعلى الجملة : فانا نقول لمن كذب محمدا صلى الله عليه وسلم ، أو شك في رسالته : ما قال الله تعالى في كتابه محتجا على من أصر على تكذيبه : « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، فاتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله • ان كنتم صادقين • فان لم تقطوا ، ولن تقطوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » (١) •

* * *

النوع الرابع

في الاستدلال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم

بجملة من الآيات الخارقة للعادات

نذكر في هذا النوع — ان شاء الله — جملة كثيرة من آياته الواضحة ، وبراهينه المصدقة الراجحة ، فنقول — وبالله التوفيق — :

ان نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أوتي من المعجزات ، وجمع له من الآيات ما لم يجمع لأحد من الأنبياء قبله ، ولم يعط أحد مثله . فكان لذلك أوضحهم دلالة ، وأعمهم رسالة . ولذلك لم يعط الله نبيا من الأنبياء معجزة الا أعطى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم مثلها ، أو أوضح منها ، أو ما يقاربها . وسقري ذلك عيانا — ان شاء الله تعالى — ولكننا ان ذهبنا نذكر ما نقل اليينا من آياته وأوضح معجزاته . طال الكتاب وفي القليل الواضح كفاية ، لذوى الألباب . فلنقتصر من ذلك على ما تناقله علماء الأمصار والعدول من نقلة الأخبار ، مما صح نقله ، واشتهر ذكره وجمله (١) .

ونحن نذكر ذلك في فصول :

الفصل الأول : في انشقاق القمر :

آية له صلى الله عليه وسلم فنقول : نقل خلفنا عن سلفنا ، النقل الذي لا يشك فيه : أن كفار قريش سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم : آية ، وهو بمنى ، فأراهم : انشقاق القمر ، فصار فرقتين ، حتى رأوا جبلى « حراء » بينهما . وقال ابن مسعود : صار فرقتين ، فرقة فوق الجبل ، وفرقة تحته . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اشهدوا) ، فأمن وصدق من أراد الله نجاته . وقال كفار قريش : هذا سحر مستمر . فقال أبو جهل : هذا سحر ، فابعثوا الى أهل الآفاق ، حتى ناظر . رأوا ذلك ، أم لا ؟ فأخبر أهل مكة : أنهم رأوه منشقا .

(١) القرآن يكفى في اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين » أو لم يكنهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم .» .

(العنكبوت : ٥١ ، ٥٢)

فأنزل الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ، ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم ، وكل أمر مستقر » (١) . وهذا الحديث قد نقله الجرم الغفير ، والعدد الكثير • منهم من الصحابة : عبد الله بن مسعود • بوأنس • وابن عباس • وابن عمر • وحذيفة • وعلى • وجبير بن مطعم • وغيرهم • رضى الله عنهم •

وقد نقل الينا في القرآن نقلا متواترا ، محصلا للعلم ، يخبر عن ذلك المعنى من الانشقاق كما تلوناه آتفا ، فصحت الآية ، وعلمت المعجزة • والحمد لله •

فان قال غبي جاهل ، أو معاند مجادل : كيف يصح هذا ؟ ولو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، اذ هو شيء ظاهر لجميعهم ، ولو ظهر اليهم انتقل عنهم ، ولكان مشهورا منقولا على التواتر •

فالجواب • أن نقول : هذا الاستبعاد الوهمي يندفع بأيسر أمر • وذلك أن هذه الآية كانت آية ليلية ، والناس على عادتهم المستمرة : الغالب عليهم النوم • ومن كان منهم منتبها • كان منهم من قد انصرف عن ذلك ببعض أشغالهم ، وكان منهم أيضا من رآه على ما حكيناه عن أهل آفاق مكة • وأيضا • فلعله انما كان ذلك في أول طلوع القمر ، ولا شك أن الناس تختلف رؤيتهم للقمر وغيره من الكواكب بحسب اختلاف ارتفاع البلاد والأقاليم وانخفاضها • فليس كل من في معوض الأرض يراه في وقت واحد • بل يختلف ذلك في حقهم • فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على آخرين • وقد يطلع على قوم لا يشاهده الآخرون • وقد يحول بين قوم وبينه سحاب ، أو جبال •

ولهذا تجد الكسوفات في بعض البلاد دون بعض ، ويكون في بعضها جزئية ، وفي بعضها كلية • وفي بعضها لا يعرفها الا المشتغلون بعلم ذلك ، ولا يحس بها غيرهم • لا سيما • وهذه آية كانت بالليل ، والعادة من الناس ما تقدم من الهدوء والسكون • وإيجاف الأبواب وقطع التصرف ، ولا يكاد يعرف شيئا من آيات السماء الا من رصد وأهتبل •

وكثيرا ما يحدث الثقبات بعجائب يشاهدونها من أنوار وشهب
ونجوم طوالع عظام تظهر في أحيان من السماء ، ولا علم عند أحد
غيرهم منها •

وانشقاق القمر من هذا القبيل • اذ لم يكن دائما • وانما كان
يسيرا في زمن قريب ، ثم لا يبعد أن يكون الله تعالى صرف الناس في
تلك الساعة عن النظر اليه ، لتختص هذه الآية بمشاهدة أهل مكة ،
ومن جاورها من أهل آفاقها • فيكون صرف الناس عن ذلك من قبيل
خوارق العادات • وذلك أوضح في المعجزات • فقد صح ما رمناه ،
وانفصلنا عما ألزمناه • والحمد لله •

وعند الوقوف على هذه المعجزة الطاهرة ، والآية الباهرة ، تعلم
أنها أعظم من انشقاق البحر ، الذي خص الله تعالى به موسى عليه
السلام ، وان كان عظيما • اذ انشقاق البحر ، لم يكن قطعا في معظم
البحر • من احدى ضفتيه الى الأخرى • وانما كان قطع طريق من
بحر القلزم الى مفارشود • والقمر انقسم فرقتين ، وصار شطوين •

الفصل الثاني : في حبس الشمس آية له صلى الله عليه وسلم :

روى أئمتنا ، وأهل العدالة منا : أن النبي صلى الله عليه وسلم
كان يوحى اليه ، ورأسه في حجر « على » فلم يصل العصر ، حتى
غربت الشمس • فلما ارتفع الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم •
قال له : (يا على • أصليت العصر ؟) قال : لا • فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم : (اللهم انه كان في طاعتك ، وطاعة رسolk • فاردد) قال
الراوي : فرأيتها غربت • ووقفت على الجبال والأرض • وظلك بانصباء
في خيبر •

ذكر هذا الحديث « الطحاوي » من طريقين • قال « عياض » :
وهذان الطريقان • ثابتان ، رواتهما ثقة • حكاها « البكري » •

ومن هذا القبيل ما ذكره « يونس بن بكير » في زيادة المنازي ،
روايته عن ابن اسحق : لما أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وأخبر قومه بالرفقة والعلامة التي في العير ، التي رأى في «سراه •
قالوا له : متى تجيء ؟ فقال لهم : « يوم الأربعاء » فلما كان يوم
الأربعاء الموعود به ، أشرفت قريش ينظرون ، وقد ولي النهار ، ولم

تجىء • فدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه ، فزيد له في النهار ساعة ، وحسبت عليه الشمس •

وهذه الآية أعظم من آية « يشوع بن نون » فانكم تقولون ان « يشوع » استوقف الشمس • فوقفت : وفي بعض كتبكم : انما استوقف ضيائها • ونبيينا عليه السلام استرجعها فرجعت ، واستزاد ساعة في النهار فزيدت « ذلك تقدير العزيز العليم » (١) •

فان اعترض معترض على معجزة نبينا بشيء • فان كان كتابيا عارضناه بمعجزة « يشوع » (٢) فبالذى ينفصل عن معجزة « يشوع » بمثله ننفصل عما اعترض به • وان كان طبيعيا غير متشرع • انتقل الكلام معه ، الى مواضع آخر ، ليس هذا موضع ذكرها •

الفصل الثالث : نبع الماء وتكثيره ، معجزة له صلى الله عليه وسلم :

وهذا الفصل نوعان • نوع نبع له الماء ، من بين أصابعه ، ونوع آخر نبع له الماء ، من غير أصابعه •

فلنبدأ بالأول : فنقول : روى الجهم الغفير ، والعدد الكثير : أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في بعض أسفاره ، وحانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوضوء ، فلم يجدوه • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هل مع أحد منكم ماء ؟) فأتى بماء في اناء ، فوضع يده في ذلك الاناء ، وسمى الله • قالت الصحابة : فرأينا الماء يخرج من بين أصابعه ، فتوضأ الناس حتى توضأوا كلهم • قيل لأنس : كم تراهم ؟ قال : نجوا من سبعين • وقد اتفق له مثل هذا مرة أخرى • وكانرا نحوا من ثلاثة مائة •

وكذلك عطش الناس يوم « الحديبية » ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين يديه ركوة ، فتوضأ منها ، وأقبل الناس نحوه • وقالوا : ليس عندنا ماء • إلا ما في ركوتك • فوضع النبي صلى الله

(١) يس : ٣٨ .

(٢) يشوع بن نون فتى موسى . عليهما السلام . كان يحارب وطلب الدائمة الشمس ووقف القمر « فدامت الشمس ووقف القمر حتى انتقم الشعب من أعدائه » (يشوع ١٠ : ١٣) •

عليه وسلم يده في الركوة • فجعل الماء يفر من بين أصابعه كأمثال
العيون • وكانوا خمس عشرة مائة • قالوا : ولو كنا مائة ألف لكفانا •

فهذه ثلاثة مواطن • وقد روى عنه نحو هذا من طرق كثيرة ،
لا يتطرق لها الكذب ، ولم يرد لها أحد من أهل العقل والأدب ، لكونها
وقعت في جموع كثيرة ، وتناقلها جماعات عديدة ، يدينون تحريم
الكذب ، ويرونه أقبح شبهة ، وأشنع سبب ، بل يبادرون إلى ذم
الكاذب ، وإظهار فضيحته ، ولا يقرون شيئاً من الكذب بحال عند
معرفة • فهذا هو النوع الأول •

وأما النوع الثاني : فهو ما تواردت به الروايات عن الأئمة الثقات •
من ذلك ما اتفق له في غزوة تبوك • وذلك أنهم وردوا عينا بتبوك ، وهي
تبض بشيء من ماء ، مثل الشراك • فغرفوا من العين بأيديهم ، حتى
اجتمع منه شيء قليل ، ثم غسل النبي صلى الله عليه وسلم فيه وجهه ،
ويديه ، وأعادها فيها • فجرت بماء كثير • فاستقى الناس • هذا حديث
« معاذ » •

وقال « ابن اسحاق » فانخرق من الماء ماله حس كحس
الصواعق • ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يوشك يا معاذ •
أن يطالب بك حياة ، أن ترى ما هاهنا ، قد ملئ جنانا) وكذلك صنع
ذلك الموضع جنانا بعده صلى الله عليه وسلم • وهذا من باب الأخبار
عن الغيب •

ومن ذلك ما اتفق له بالحديبية أيضا • وذلك أنهم أتوا الحديبية ،
وهم أربع عشرة مائة • وبئرها لا تروى خمسين شاة •

قال « البراء » و « سلمة بن الأكوع » فنزحناها فلم نترك فيها
شيئاً • ففقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بئرها ، فبصق ودعا
وأخرج سهما من كتانته ، فوضعه في البئر ، فجاشت العين بماء كثير •
فأروا أنفسهم وركابهم ، وهم ألف وأربع مائة •

ومن ذلك ما روى « قتادة » صاحب رسول الله صلى الله عليه
وسلم : أن الناس شكوا إليه العطش في بعض أسفاره • فدعا بالمبيضة ،
فجعلها في ضيقه • ثم التقيم فيها ، فإله أعلم • نفث فيها ، أم لا ؟
فشرب الناس حتى رؤوا ، وجعلوا كل إناء معهم • وكانوا اثنين وسبعين
رجلا •

ومن ذلك الحديث المشهور عن « عمران بن حصين » وذلك أنهم كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره ، فأصابهم عطش شديد ، فوجه رجلين من أصحابه وأعلمهم أنهم يجدون امرأة بمكان كذا ، لمكان معين ، عينه لهم • معها بعير ، عليه مزادتا ماء • فوجداهما بالموضع الذي عين لهم على الصفة التي ذكر لهم • فجاءا بها ، إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخذ من ماء المزادتين • وقال فيهما : ما شاء الله أن يقول ، ثم أعاد الماء في المزادتين ، ثم فتحهما ، وأمر الناس ، فملاوا أسقيتهم ، حتى لم يدعوا شيئاً إلا ملأوه • قال « عمران » و « نحيل » لى : انهما لم يزدادا الا امتلاء ، ثم أمر فجمع للمرأة من الأزواد ، حتى ملأ ثوبها ، ثم قال لها : (اذهبي • فانا ما نقصناك من ماءك شيئاً • ولكن الله سقانا) •

ومن ذلك حديث عمر في جيش العسرة • وذكر ما أصابهم من العطش ، حتى أن الرجل لينحر بعيره ، فيعصر فرثه فيشربه ، فرغب أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء • فرفع يديه فلم يرجعهما ، حتى قالت السماء • فانسكبت ، فملاوا ما معهم من آنية ، ولم يجاوز ذلك المطر العسكر •

ومن ذلك حديث « عمرو بن شعيب » : أن « أبا طالب » قال للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو ردفه بذى المجاز : عطشت ، وليس هندي ماء ، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم فضرب بقدمه الأرض ، فخرج الماء • فقال له : « اشرب » •

والحديث في هذا النوع كثير • وفيما ذكرناه كفاية • وإذا تأمل العاقل المنصف هذا الباب • علم : أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم أوتي مثل معجزة موسى ، التي هي نبع الماء من الحجر ، كما ذكرنا في هذا النوع الثاني ، وزاد عليه نبع الماء من بين أصابعه كما ذكرناه في النوع الأول كان انفجار الماء من اللحم • أعجب من انفجاره من الحجارة • فان رام اليهودي أو النصراني تشكيكا في شيء من معجزات نبينا محمد عليه السلام ، أو الحادا ، أو ادعى : أن هذا من قبيل السحر ، عارضناه بمثل مقالته في معجزة موسى • فبالذي ينفصل به • بعينه نفصل •

بل نقول : ان طرق المطرق الجاهل شيئاً من هذه الأوهام والتهم ، الى هذه المعجزات لمعجزة موسى في انشقاق الحجر ، أقبل للتهم في حق الجاهل على ما روت اليهود .

وذلك أنهم رووا : أن الحجر الذي كان تنفجر منه الأنهار . انما كان حجراً واحداً عمله موسى ، حيث صار ، وهذا محل تهمة للجاهل . وأما العالم فلا يبالى بهذه الأوهام ، ولا يطرق الى العلم : التهم . ومعجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم : انما كان يقول : (ائتوني بانهاء — أى اناء كان — وبماء — أى ماء كان) كما قدمنا . ولسنا ننكر اعجاز ما أتى به موسى ، بل نحن أولى وأحق بموسى منكم ، وأعرف بقدره ، وبمحله عند ربه . وانما هذا لهم على جهة الالزام ، حتى يزعموا بصحة معجزات نبينا محمد عليه السلام .

* * *

الفصل الرابع : تكثير الطعام معجزة له ، صلى الله عليه وسلم :

من ذلك ما تضافرت به الروايات ، واشتهر عند أهل الديانات ، بوقله العدول الثقات من حديث « أبى طلحة » أن النبي صلى الله عليه وسلم : أطعم ثمانين ، أو سبعين ، من أقراص شعير جاء بها « أنس » تحت ابطة . وذلك أنه صلى الله عليه وسلم أمر بها ، ففتت . وقال فيها ما شاء الله أن يقول .

وكذلك أطعم يوم الخندق : ألف رجل من صاع من شعير وعناق .

قال « جابر بن عبد الله » : فاقسم بالله . لأكلوا ، حتى تركوه ، وانحرفوا . وان برمتنا لتغط ، كما هي . وان عجينا ليخبز . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق في العجين ، والبرمة ، ودعا بالبركة . وكذلك صنع « أبو أيوب الأنصاري » لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأبى بكر من الطعام . زهاء ما يكفيهما . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (ادع ثلاثين من أشراف الأنصار) فدعاهم . فأكلوا ، حتى تركوه . ثم قال : (ادع ستين) فأكلوا حتى شبعوا . ثم قال : (ادع سبعين) فأكلوا حتى تركوه . وما خرج منهم أحد ، حتى أسلم .

قال أبو أيوب : فأكل من طعامي : مائة وثمانون رجلاً .

وكذلك حديث « سمرة بن جندب » : أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بقصعة فيها لحم فتعاقبوا من غدوة ، حتى الليل • يقوم قوم ، ويقعد آخرون •

ومن ذلك حديث « عبد الرحمن بن أبي بكر » قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثين ومائة • وذكر في الحديث : أنه عجن صاع من طعام ، وصنعت شاة ، فشوى سواد بطنها ، قال : وايم الله • ما من الثلاثين والمائة • الا وقد حز له حزة من سواد بطنها ، ثم جعل منها قصعتين • فأكلنا أجمعين • وفضل في القصعتين ، وحملته على البعير •

ومن ذلك الخبر المشهور في غزاة تبوك • وذلك أنهم أصابتهم مجاعة شديدة ، حتى هموا بنحر حمائلهم ، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم ما بقي من أزواد القوم ، فكان الرجل يجيء بكف ذرة ، وبكف تمر ، وبسط نطعا • حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير • فدعى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة • قال : (خذوا في أوعيتكم) فأخذوا ، حتى ما تركوا في العسكر ، وعاء الا ملأوه • فيقال عند ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أشهد أن لا اله الا الله وأنى رسول الله ، لا يلقي الله بهما عبد غير شاك فيهما ، فيحجب عن الجنة) •

ومن ذلك خبره في تزويج « زينب » وذلك أنه أمر خادمه « أنسا » أن يدعو له الناس فدعاهم ، فاجتمعوا ، حتى امتلأ البيت والحجرة • وقدم اليهم تورا من حجارة فيه حيس ، أهدته له « أم سليم » فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتخلق عشرة عشرة ، وليأكل كل انسان مما يليه • قال : فأكلوا ، حتى شبعوا ، ثم خرجوا • ودخلت طائفة أخرى حتى أكلوا كلهم • وكنت — قال أنس — لم أدع انسانا الا دعوته • قال أنس : ثم قال لى : (ارفع التور) فرفعته • فما أدري حين وضعت ، كان أكثر ، أم حين رفعت ؟

ومثل هذا نقوله في قدح لبن أهدى له •

ومن هذا حديث مزود « أبي هريرة » وذلك أن الناس أصابتهم مجاعة شديدة في بعض أسفاره • فيقال للنبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة : (هل من شيء) فقال : قلت : نعم شيء من تمر في المزود • قال : فأتى به ، فأدخل يده ، فأخرج قبضة فبسطها ، ودعا بالبركة •

ثم قال : (ادع عشرة) فدعوتهم ، فأكلوا ، حتى شبعوا • ثم لم يزل كذلك حتى أطعم الجيش كله • وقال لى : (خذ ما جئت به) فأخذت ، فأكلت منه ، وأطعمت حياته ، وحياة أبى بكر ، وعمر • الى أن قتل عثمان ، فانتهب منى ، فذهب ، وقد قيل : ان ذلك التمر انما كان بضع عشرة تمرة •

والأخبار في هذا الباب كثيرة ، يطول الكتاب بنقلها • على أنه لا يجهل شيء منها ، بل هي عندنا معروفة منقولة مشهورة موصوفة •

وهذا النوع من المعجزات هو من قبيل ما نقلت النصارى عن عيسى عليه السلام في الانجيل • وذلك أنهم زعموا أنه أطعم من خمس خبز ، وحويتين : خمسة آلاف رجل سوى النساء ، وهذا أيضا من قبيل ما ثبت أن موسى عليه السلام أطعم بنى اسرائيل بالماز : « المن والسلوى » •

فان اعترضت اليهود أو النصارى على هذا النوع من معجزات نبينا عليه السلام ، عارضناهم بذلك في معجزات أنبيائهم ، وبالذى ينفصلون عن ذلك ، به بعينه ننفل من معجزات نبينا •

وعند الوقوف على هذه الفصول • تعلم أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أعطاه الله عز وجل من المعجزات مثل ما كان أعطى الأنبياء قبله ، وزاده على ذلك • وسفزيد هذا وضوحا ، حتى يتبين كون المعاند الجاحد جاهلا وتقيحا •



الفصل الخامس : في كلام الشجر ، وكثير من الجمادات ، وشهادتها له بالنبوة :

وهذا الفصل تكثر حكاياته ، وتتسع رواياته ، لكثرة عدد ما روى في ذلك ، وصحة ما اتفق هنالك • وهذا الفصل نوعان :

النوع الاول : قد وردت الأخبار ، ونقل عن الأئمة ، العدول الأخيار : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في بعض غزواته ، فدنى منه أعرابى • فقال له : (يا أعرابى أين تريد ؟) فقال : أهلى • فقال له : (هل لك في خير منهم ؟) قال : ما هو ؟ قال : (تشهد أن لا اله الا الله وحده ، لا شريك له • وأن محمدا عبده ورسوله) فقال :

ومن يتشهد لك على صحة ما تقول ؟ قال : (هذه الشجرة) — لشجرة بشاطيء الوادى — (فادعها فانها تجيبك) قال : فدعوتها • فأقبلت اتخذ الأرض ، حتى وقفت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثا • فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت الى مكانها •

وقد روى هذا الحديث عن « بريدة » وزاد قال : فمالت الشجرة عن يمينها ، وشمالها ، وبين يديها ، وخلفها • فتقطعت عروقها ، ثم جاءت تجر عروقها مغبرة ، حتى وقفت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقالت : السلام عليك يا رسول الله • فقال الأعرابي : مرها ، فلترجع الى هيئتها ، فأمرها فرجعت ، فدللت عروقها ، حيث كانت واستوت • فأمن الأعرابي ، وقال : ائذن لى ، اسجد لك • فقال له عليه السلام : (لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لبعْلِها) قال : فائذن لى أن أقبل يدك ورجليك • فأذن له •

وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه ظهرت على يديه مثل هذه المعجزة ، مرات ، وطرقها صحاح • بل منها ما هو متواتر على ما حكاه أهل النقل • فقد روى أنه طافت به شجرة ، ثم رجعت الى منبتها • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (انها استأذنت أن تسلم) •

وكذلك سأل ربه ، أن يجعل له آية • فقال : انطلق الى موضع كذا ، فان به شجرة • فادع منها غصنا • فانه يأتيك ، ففعل • فجاء يخط الأرض ، حتى انتصب بين يديه ، فحبسه ما شاء الله أن يحبسه ، ثم قال له : (ارجع كما كنت) فرجع •

وكذلك روى عنه من طرق صحاح : أنه خرج يوما ليقضى حاجته ، فلم يجد بما يستتر واذا بشجرتين بشاطيء الوادى ، فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم • فأخذ بغصن من أغصانها • وقال لها : (انقادى على باذن الله) فانقادت معه • كالبعير المذل • ثم فعل بالآخرى مثل ذلك • وقال : (التئما على) فالتئما • فلما قضى حاجته • يقال « جابر » : فالتفت فاذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقبل • والشجرتان قد افترقتا • فقامت كل واحدة منهما على سابقها •

وكذلك روى « أسامة بن زيد » مثل هذا في النخيل • وقال فيه :
قال لى : انطلق الى هذه النخلات • وقل لهن : ان رسول الله صلى الله
عليه وسلم يأمركن • أن تأتين لحاجة رسول الله صلى الله عليه وسلم •
وقل للحجارة مثل ذلك •

فقلت ذلك لهن • فوالذى بعثه بالحق • لقد رأيت النخلات
يتقاربن ، ويجتمعن • والحجارة يتعاقدن • ويتراكن ، حتى صرن ركاما •
خلفه • فلما قضى حاجته • قال لى : (قل لهن : يفترقن) فوالذى نفسى
بيده • لقد رأيت النخلات والحجارة يفترقن ، حتى عدن الى مواضعهن •
وقد حكى الأئمة منهم « أبو بكر بن فورك » رضى الله عنهم :
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في غزوة الطائف ليلا ، وهو
يسير ، فأخذته سنة ، فاعترضته صدره ، فانقرجت له نصفين ، حتى
جاز بينهما • وبقيت على ساقين الى وقتنا هذا • وهى هناك معروفة
معظمة •

النوع الثانى :

نقل خلفنا عن سلفنا نقلا فاشيا مشهورا ، بحيث لا يشك فيه :
أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم الطعام ، وهم يسمعون تسبيحه • وقال « أنس » أخذ رسول
الله صلى الله عليه وسلم كفا من حصى • فسبحت في يده ، حتى سمعنا
تسبيحها ، ثم صبهن رسول الله صلى الله عليه وسلم في يد « أبى بكر »
فَسَبَّحَتْ كَذَلِكَ • ثم صبها في أيدينا فلم تسبح •

ورواه « أبو ذر » قال : انما سبحت في كف « عثمان » وقد
تواردت الروايات عن الثقات • عن « على » أنه قال : كنا بمكة مع
رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج الى بعض نواحيها • فما استقبله
شجرة ولا جبل الا قال : السلام عليك يا رسول الله •

وقد روى « العباس » أن النبى صلى الله عليه وسلم غطاه
وبنيه بملحفة • ودعا لهم بالستر من النار كستره اياهم بملحفته •
فأمنت أسكفة الباب ، وحوائط البيت : آمين • آمين •

وقد صحت الأخبار ، بل تواترت • أن النبى صلى الله عليه وسلم
لما اتخذ منبره ، وصعد وترك الجذع الذى كان يخطب عليه • هن

الجذع حنين الابل الفاقدة اولادها ، حتى تصدع وانشق • فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليه فسكن • وفي بعض طرقه قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ان هذا بكاء لما فقد من الذكر) وفي بعض طرق هذا الحديث : أنه لم يزل يسمع له حنين في أوقات ، تحزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فزعت المنبر على ما في حديث أبي •

فأخذه أبي عنده الى أن أكلته الأرض • وعاد رغباتا •

وقد روى هذا الحديث « بريدة » وزاد فيه • فقال النبي صلى الله عليه وسلم للجذع : (ان شئت أردك الى الحائط الذي كنت فيه • ففتبت لك عروقتك ، ويكمل خلقك • ويجدد خوصك وثمرك وان شئت أغرسك في الجنة يأكل منك ، ومن ثمرك أولياء الله) ثم أصغى له النبي صلى الله عليه وسلم يستمع له ما يقول • فقال : بلى تغرسني في الجنة ، فبأكل مني أولياء الله • وأكون في مكان لا أبلى فيه يسمعه من يليه • فقال له : (قد فعلت) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اختار «دار البقاء على دار الفناء») •

فكان الحسن اذا حدث بهذا الحديث بكى • وقال : يا عباد الله • الخشبة تحن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقا اليه ، فأنتم أحق بذلك ، وأن تشفقوا الى لقاءه •

وكذلك تواتر أيضا : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان على جبل أحد ، مع جماعة من أصحابه فتحرك بهم الجبل • فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اسكن حراء) فما عليك الا نبي ، أو صديق ، أو شهيد •

والأخبار أيضا في هذا النوع كثيرة • وفيما ذكرناه كفاية ، بل في الواحد من هذه الأخبار أبلغ غاية •

الفصل السادس : في كلام ضروب من الحيوان وتسخيرهم آية
صلى الله عليه وسلم :

وهذا الفصل أيضا نوعان •

النوع الأول :

من ذلك ما روى واشتهر عن « عمر » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في محفل من أصحابه ، إذ جاءه أعرابي • قد صاد « ضبا » فقال : ما هذا ؟ فقالوا له : هذا نبي الله صلى الله عليه وسلم • فقال : والللات والعزى ، لا آمنت بك ، حتى يؤمن بك هذا الضب ، وطرحه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (يا ضب) فأجابه بلسان عربي مبين يسمعه القوم جميعا : لبيك وسعديك • يا زين من أوفى القيامة • قال : (من تعبد ؟) قال : الذي في السماء عرشه ، وفي الأرض سلطانه ، وفي البحر سبيله ، وفي الجنة رحمته ، وفي النار عقابه • قال : (فمن أنا ؟) قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك ، وخاب من كذبك • فأسلم الأعرابي •

ومن ذلك • القصة المشهورة في كلام « الذئب » من حديث أبي سعيد الخدري قال : بينما راع يرعى غنمه عرض الذئب لشاة منها • فأخذها الراعي منه • فألقى الذئب • وقال للراعي : ألا تتقى الله ، حلت بيني وبين رزقي ؟ قال الراعي : العجب من ذئب يتكلم بكلام الانس • فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الحرتين ، يحدث الناس بأنباء ما قد سبق • فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (قم فحدثهم) ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : (صدق) •

وقد روى هذا الحديث عن غير واحد من الصحابة منهم أبو هريرة • وزاد في هذا الحديث : فقال له الذئب : أنت أعجب • وقفت على غنمك • وتركت نبيا لم يبعث الله قط نبيا أعظم منه قدرا عنده • قد فتحت له أبواب الجنة وأشرف أهلها على أصحابه ينتظرون إقبالهم • وما بينك وبينه إلا هذا الشعب ، فتصير في جنود الله • فقال الراعي : لو كان لي من يرعى الغنم لمشييت إليه • فقال الذئب : أنا أرهاها ، حتى ترجع • فأسلم الراعي إليه غنمه ، ومضى وذكر قصته وإسلامه ووجوده النبي • يقاتل • فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : (عد إلى غنمك تجدها • بوفرها) فوجدتها كذلك • وذبح للذئب منها شاة • وكان هذا الراعي اسمه « أهبان بن أوس » •

وقد ذكر مثل هذه القصة عن « سلمة بن الأكوع » وأنها كانت بسبب أسلامه •

ومن ذلك ما يحكى أن « أبا سفيان بن حرب » بينا هو في ملا من قريش بمكة • اذ بظبي يطرده ذئب • فدخل المظبي الحرم ، فرجع الذئب • فعجبوا من ذلك • فقال الذئب : أعجب من ذلك : محمد ابن عبد الله • بالمدينة ، يدعوكم الى الجنة ، وتدعونه الى النار • فقال أبو سفيان بن حرب : واللالت والعزى • لئن ذكرتكم هذا بمكة ليتركنها خلونا •

ومن ذلك ما روى عن « أم سلمة » : كان النبي صلى الله عليه وسلم في صحراء فنادته ظبية : يا رسول الله • قال : (ما حاجتك ؟) قالت : صادني هذا الأعرابي • ولى خشفان في ذلك الجبل • فأطلقنى • حتى أذهب فأرضعهما وأرجع • قال : (وتفعلين ؟) قالت : نعم • فأطلقها • فذهبت ورجعت فأوثقها • وكان ذلك الأعرابي نائما •

وقال يا رسول الله : ألك حاجة ؟ قال : (تطلق هذه الظبية) فأطلقها • فخرجت تعدو في الصحراء وتقول : أشهد أن لا اله الا الله • وأنتك رسول الله •

ومن ذلك ما روى من كلام « الحمار » الذى أصابه بخير • وقال : اسمى « يزيد بن شهاب » فسماه النبي صلى الله عليه وسلم « يعفور » وكان يوجهه الى دور أصحابه ، فيضرب عليهم الباب برأسه ، ويستدعيهم • وأنه لما مات النبي صلى الله عليه وسلم تردى في بئر جزعا وحزنا • فمات •

ومن ذلك حديث « الناقة » التى شهدت بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم لصاحبها أنه ما سرقها ، وأنها ملكه •

النوع الثانى :

ما روى عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : أنها قالت : كان عندنا « داجن » فإذا كان عندنا النبي صلى الله عليه وسلم • قر وثبت مكانه ، فلم يجيء ، ولم يذهب • وإذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم • جاء ، وذهب •

ومن ذلك ما روى جابر بن عبد الله قال : جاء رجل فآمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو على بعض حصون خيبر ، وكان في غنم يرعاها لهم — يعنى لأهل خيبر — فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف بالغنم ؟ فقال : (احصب وجوها — يعنى اضربها بالرمل — فان الله سيؤدى أمانتك ، ويردها الى أهلها) ففعل . فسارت كل شاة منها حتى أتت أهلها .

ومن ذلك . حديث « أنس » أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل حائط رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر وعمر ، ورجل من الأنصار ، وفي الحائط غنم . فسجدت له . فقال أبو بكر : نحن أحق بالسجود لك منها . وذكر الحديث .

ومن حديث « أبى هريرة » : دخل النبي صلى الله عليه وسلم حائطاً . فجاء بعير ، فسجد بين يديه .

ومن حديث « جابر » قال : وكان ذلك الحائط لا يدخله أحد إلا شد عليه ذلك « الجمل » فلما دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم دعاه ، فوضع مشفره في الأرض وبرك بين يديه ، فخطمه . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما بين السماء والأرض شيء . لا يعلم أنى رسول الله ، إلا عاصى الجن والانس) .

ومن حديث « عبد الله بن أبى أوفى » : أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أهل ذلك الجمل عن شأنه . فقالوا له : انهم أرادوا نحره . ومن ذلك ما روى « ابن وهب » : أن « حمام مكة » أظلت النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتحها . فدعا لها بالبركة .

ومن حديث « أنس » و « زيد بن أرقم » و « المغيرة بن شعبة » أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الغار . أمر الله شجرة فنبتت تجاه النبي صلى الله عليه وسلم ، فسترته . وأمر حمامتين ، فوقفتا في فم الغار . وأن العنكبوت نسجت على بابه . فلما أتى الطالبون له ، رأوا ذلك . فقالوا : لو كان فيه أحد لم تكن الحمامات ولا العنكبوت . فانصرفوا والنبي صلى الله عليه وسلم يسمع كلامهم .

والأخبار في هذا كثيرة شهيرة . وفيما ذكرناه كفاية ، لمن كان ذا عقل وديانة .

الفصل السابع : في احياء الموتى ، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة :

من ذلك • الخبر المشهور المعلوم المذكور عن غير واحد من الصحابة والأئمة : أن يهودية بخير أهدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « شاة » مشوية • فسمتها • فأكل منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل القوم معه • فقال : (ارفعوا • فان هذه الشاة أخبرتني أنها مسمومة) ثم قال لليهودية : (ما حملك على ما صنعت ؟) قالت : ان كنت نبيا صادقا ، لم يضرك الذى صنعت • وان كنت ملكا أرحت منك • فقال : (ما كان الله ليسطك على ذلك) فقالوا : نقتلها ؟ • قال : (لا) • فلم يزل أثر تلك الأكلة في لهوات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال في وجعه ، الذى مات منه : (ما زالت أكلة خيبر تعاودنى • فالآن قطعت أبهرى) •

قال « ابن اسحق » : ان كان المسلمون ليرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات شهيدا ، مع ما أكرمه الله به من النبوة •

وروى هذا الحديث من طريق « البزار » عن « أبى سعيد الخدرى » وزاد فيه : فبسط رسول الله صلى الله عليه وسلم يده • وقال : (كلوا بسم الله) فأكلنا • وذكرنا اسم الله ، فلم تضر أحد منا ، الا ما ذكر من موت « بشر بن البراء » •

وفي هذا الحديث أنواع من دلالات نبوته صلى الله عليه وسلم : نطق الميت ، وذلك أن الشاة كلمته بعد أن شويت • وأنهم أكلوا السم ، ولم يضرهم ، وفي موت البراء • دليل على أن الذى أكلوه سم قاتل • وبذلك اعترفت اليهودية • وقالت : أردت قتلك • فأراد الله أن يميته أحدهم ، ليعلم أن الذى أكلوه : سم • وأن يحيى جميعهم آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم • ومن آياته في هذه القصة : تأخر موته بالسم ، دون علة لزمته منه نحو عشرين سنة • وهذه كلها أمور خارقة للعادات • فهي من أوضح الدلالات •

ومن ذلك ما روى عن « فهد بن عطية » أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بصبي قد شب ، لم يتكلم قط • فقال له : (من أنا ؟) فقال : أنت رسول الله •

ومن ذلك حديث « معقيب » قال : رأيت من النبي صلى الله عليه وسلم عجباً ، جىء بصبي يوم ولد • فقال له : (من أنا ؟) فقال : أنت رسول الله • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (صدقت • بارك الله فيك) ثم أن الغلام لم يتكلم بعدها ، حتى شب • فكان يدعى « مبارك اليمامة » وكانت هذه القصة بمكة في حجة الوداع •

ومن حديث « الحسن » قال : أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فذكر أنه طرح « بنية » له ، في وادى كذا • فانطلق معه الى ذلك الوادى وناداهما باسمها : (يا فلانة ، احبى باذن الله) فخرجت ، وهى تقول : لبيك وسعديك • فقال لهما : (ان أبويك قد أسلما • فان أحببت أن أردك عليهما) فقالت : لا حاجة لى فيهما • وجدت الله خيراً منهما •

ومن ذلك حديث « أنس » أن شاباً من الأنصار ، توفى • وله أم • عجوز • قال فسجيناها ، وعزيناها • فقالت : مات ابنى ؟ • قلنا : نعم • قالت : اللهم ان كنت تعلم أنى هاجرت اليك ، والى نبيك ، رجاء أن تعيننى على كل شدة • فلا تحملنى على هذه المصيبة • فما برح أن كشف الثوب عن وجهه فطعم وطعمنا •

ومن حديث « عبد الله بن عبيد الله » قال : كنت فيمن دفن « ثابت بن قيس بن شماس » وكان قتل باليمامة ، فسمعناه حين أدخلناه فى القبر يقول : محمد رسول الله • أبو بكر الصديق • عمر • الشهيد • عثمان البر الرحيم • فنظرنا • فاذا هو ميت •

ومن حديث « النعمان بن بشير » أن « زيد بن خارجه » خر ميتاً فى زقاق من أزقة المدينة فرفع وسجى • اذ سمعوه بين العشائين ، والنساء • يصرخن حوله • يقول : أنصتوا • أنصتوا • فحسر عن وجهه • فقال : محمد رسول الله النبي الأمى ، وخاتم النبيين ، كان ذلك فى الكتاب الأول • ثم قال : صدق • صدق •

وذكر أبا بكر ، وعمر ، وعثمان • ثم قال : السلام عليك يا رسول الله ، ورحمة الله وبركاته • ثم عاد ميتاً ، كما كان •

الفصل الثامن : في ابراء النبي صلى الله عليه وسلم المرمى ، ونوى العاهات :

من ذلك • ما اشتهر ، واستفاض من قصة : عين « قتادة »
يوم « أحد » وذلك أنه أصيب في إحدى عينيه ، حتى وقعت على
وجنتيه • فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أحسن عينيه •
ومن ذلك حديث « عثمان بن حنيف » أن أعمى قال : يا رسول
الله • ادع الله أن يكشف لى عن بصرى • فقال له : (انطلق • فتوضأ •
ثم قل : اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد ، نبي الرحمة ،
يا محمد • انى أتوجه بك الى ربى أن يكشف عن بصرى • اللهم شفعه
في) قال : فرجع الرجل ، وقد كشف الله عن بصره •

ومن ذلك حديث « حبيب بن فديك » أن أباه ابيضت عيناه •
فكان لا يبصر بهما شيئاً • فنفت رسول الله صلى الله عليه وسلم في
عينيه فأبصر • قال : فرأيتَه يدخل الخيط في الابرة ، وهو ابن ثمانين •
وروى أن « ملاعب الأسنة » أصابه استسقاء ، فبعث الى رسول
الله صلى الله عليه وسلم فأخذ بيده حثوة من تراب • فتفل عليها •
ثم أعطاها رسوله ، فأخذها رسوله متعجباً ، يرى أنه قد هزأ به ، فأتاه بها •
وهو على شقاء ، فشربها ، فشفاه الله تعالى •

ومن ذلك حديث « كلثوم بن الحصين » وذلك أنه أصيب يوم أحد
في نحره ، فبحق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبرأ • وتفل
على شجرة « عبد الله بن أنيس » فلم تهمد •

ومن ذلك حديث « على » يوم « خيبر » وذلك أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال وهو على خيبر : (لأعطين الراية غداً ، رجلاً
يحب الله ورسوله • ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه) ، فبات
أصحابه تلك الليلة كلهم يرجو أن يعطاها ، فلما أصبح دعا علياً • فاذا
به رمد ، فتفل في عينيه ، فبرئ • لحينه ، وفتح الله على يديه الحصن •
وفي تلك الغزاة ، نفت على خربة بمساق « سلمة بن الأكوع »
فبرأت •

وكذلك فعل بمساق « على بن الحكم » يوم الخندق • وكانت قد

انكسرت ، فبرأ مكانه ، ولم ينزل عن فرسه ، وأصاب عليا وجع •
فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم اشفه ، أو عافه) ثم ضربه
برجله • فما اشتكى ذلك الوجع بعد •

وقطع « أبو جهل » لعنه الله يوم « بدر » يد « معوذ بن عفراء »
فجاء يحمل يده ، فبصق عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألصقها
فلمصقت •

وكذلك أصيب في ذلك اليوم « حبيب بن يساف » فنفت عليها من
ريقه فصيح • وأنته امرأة من « خثعم » معها صبي به بلاء لا يعقل
ولا يتكلم • فأتى بماء فمضمض فاه ، وغسل يديه صلى الله عليه وسلم
عليه ، ثم أعطاها ذلك الماء ، وأمرها أن تسقيه اياه • ففعلت • فبرئ
الغلام ، وعقل عقلا ، يفضل كثير من الناس •

وحديث « ابن عباس » : جاءت امرأة بابن لها به جنون ، فمسح
صدره فتع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ، وبرأ •

وانكفأت القدر ، وهى تغلى على ذراع « محمد بن خاطب »
وهو طفل صغير ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ، ودعا
له ، وتقل ، فبرأ لحينه •

وكانت في كف « شرحبيل الجحفي » سلعة ، تمنعه القبض على
السيف ، وعنان الدابة ، فشكاها للنبي صلى الله عليه وسلم ، فما زال
يمسحها بكفه حتى رفع كفه • وما لها أثر •

والأخبار في هذا كثيرة • وإذا تأملت هذا الفصل ، والذي قبله •
علمت : أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم قد أوتى من المعجزات مثل
ما أوتى عيسى عليه السلام من احياء الموتى ، وإبراء العمى ، والمجانين ،
وذوى الأسقام والآفات • كما تحكى النصارى في انجيلها • وزاد عليه
بأمور كما ذكر • وستأتى ان شاء الله تعالى •

فيلزم النصارى اذ كذبوا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع
ما أقمنا عليه من الآيات ، وأثبتنا من واضح المعجزات أن يكذبوا بنبوة
عيسى عليه السلام • فان معجزاته كمعجزاته • وان كذبونا فيما نقلنا
عارضناهم فيما نقلوه ، ولم يقدروا أن يثبتوا نبوة عيسى عليه السلام
علينا ، ولا على غيرنا وكذلك يفعل الله بكل كاذب كفار •

الفصل التاسع : في اجابة دعائه صلى الله عليه وسلم :

اعلم يا هذا : أنه لو لم يثبت لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الآيات الا ما ثبت في هذا الفصل لكان فيه أعظم دليل على صدق رسالته ، وصحة نبوته . فانا نعلم بما روى في هذا الباب من الآيات على القطع والاصرار : أن دعاؤه عند الله مسموع ، وأن مقامه عند الله مقام كريم مرفوع .

وذلك أنه صلى الله عليه وسلم كان كلما دعا الله في شيء أجابه فيه ، وظهرت بركة دعوته ، على المدعو له ، وعلى أهله وبنيه . حتى كان « حذيفة » يقول : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعا لأحد أدركته الدعوة وولد ولده .

ونحن نذكر من ذلك طرفا على شرط الاختصار :

من ذلك حديث « أنس » الصحيح ، المشهور . قال : قالت أمي يا رسول الله ، خادمك « أنس » ادع الله له . فقال : (اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيه) قال أنس حين حدث بهذا الحديث : فوالله أن مالى كثير ، وان ولدى ، وولد ولدى ، ليتعادون على نحو المائة اليوم . وفي رواية أخرى عنه : أنه قال : وما أعلم أحدا أصاب من رخاء العيش ما أصبت . ولقد دفنت بيدي هاتين مائة من ولدى ، لا أقول سقطا ، ولا ولد ولد .

ومن دعائه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة . قال عبد الرحمن : فلو رفعت حجرا لرجوت أن أصيب تحته ذهباً ، وفتح الله عليه ، ومات ، فحفر الذهب من تركته بالفئوس ، حتى محلت الأيدي ، وأخذت كل زوجة من زوجاته : ثمانون ألفاً . وكن أربعاً . وقيك : بك صولحت احداهن . لأنه طلقها في مرضه على نيف وثمانين ألفاً . وأوصى بخمسين ألفاً . وهذا كله بعد صدقاته ، الفاشية في حياته ، وعوارفه العظيمة .

أعتق يوما ثلاثين عبداً . ووردت له مزة عيز له فيها سبع مائة بعير ، تحمل من كل شيء فتصدق بها ، وبما عليها ، وبأقتابها وأحلاسها . ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم لمعاوية بالتمكين في البلاد . فنال الخلافة .

ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص بأن يجيب الله دعوته • فما دعا على أحد ، أو لأحد إلا استجيب له •

ومن ذلك دعاؤه صلى الله عليه وسلم حيث قال : (اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين ، بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل بن هشام) • فأجاب الله دعوته في عمر بن الخطاب •

ولذلك قال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب • وأصاب الناس عطش شديد ، في سفر من أسفاره ، فدعا الله فجاءت سحابة ، فسقتهم حاجتهم • وقد تقدم مثل ذلك •

ومن ذلك حديث الاستسقاء • وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يوم الجمعة يخطب • إذ دخل عليه رجل • فقال : يا رسول الله قد هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، وهلكت المواشي • فادع الله أن يغثنا • فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم أغثنا • اللهم أغثنا • اللهم أغثنا) قال : فأنشأت سحابة مثل القرس • ثم انتشرت قال راويه : فلا والله ما رأينا الشمس سبتا • يعنى جمعة •

ثم دخل أعرابي في الجمعة المقبلة • فقال يا رسول الله : هلكت المواشي ، وانقطعت السبل • فادع الله يمسكها عنا • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم على الآكام والضراب ، ومنابت الشجر) قال : فأنجابت السحابة عن المدينة ، أنجيب الثوب ، فخرجنا نمشي • ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم قال للنابغة الجعدي : (لا يفضض الله فاك) فما سقطت له سن حتى مات •

وفي رواية : كان أحسن الناس ثغرا • إذا سقطت له سن نبئت له أخرى • وعاش عشرين ومائة •

وقال لابن عباس : (اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل) • فكان بحر الفقه ، وترجمان القرآن • ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه • فما اشترى شيئا إلا ربح فيه • ودعا للمقداد بن الأسود بالبركة • فكان عنده غراير من المال •

ودعا لعروة بن أبي الجعد • فقال : لقد كنت أقدم بالكياسة — سوق لهم — فما أرجع حتى أربح أربعين ألفا •

وقال البخارى : فكان لو اشترى القراب ربح فيه • وندت له
ناقة ، فدعا ربه أن يردها عليه فجاء بها اعصار ريح حتى ردها عليه •
ودعا لأم أبى هريرة فأسلمت ، ودعا لعلى أن يكفى ألم الحر والبرد ،
فكان يلبس فى الشتاء ثياب الصيف • وفى الصيف ثياب الشتاء •
ولا يصيبه حر ، ولا برد • وسأله الطفيل بن عمرو آية لقومه •
فقال : (اللهم نور له) فسطع له نور بين عينيه • فقال : يا رب
أخاف أن يقولوا : انها مثلة • فتحول الى طرف سوطه • فكان يضىء
فى الليلة المظلمة • فسمى ذا النور •

ودعا على « مضر » بالقحط • فأقحطوا سبعا ، حتى أكلوا الجلود
والعظام ، حتى استعطفت « قريش » فدعا لهم فسقوا •
ودعا على « كسرى » حين مزق كتابه بأن يمزق ملكه ، فلم تبق
له باقية •

وقال لرجل رآه يأكل بشماله : (كل يمينك) فقال : لا أستطيع •
فقال له : (لا استطعت) • فلم يرفعها الى فيه بعد •
وقال لعتبة بن أبى لهب : (اللهم سلط عليه كلبا من كلابك)
فأكله الأسد •

وحديثه المشهور مع ملا قريش • وذلك أنه صلى الله عليه وسلم
بينما هو ساجد ، بازاء الكعبة اذ ألقت قريش على ظهره فرثا ، ودما ،
وسلا جزور نحرت • فقال : (اللهم عليك بهم) ثم سماهم واحدا واحدا •
فكان من سمي : قتل يوم بدر •

ودعا على « الحكم بن أبى العاصى » وكان يختلج بوجهه •
ويغمز عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : (كذلك) فلم يزل يختلج الى أن مات •

ودعا على « غلم بن جثامة » فلفظته الأرض • فوورى • فلفظته
الأرض • ثم وورى فلفظته الأرض • مرارا • فآلقوه بين ضدين — يريد
جانبى الوادى — ورضوا عليه بالحجارة •

وباعه رجل فرسا • فجحده • فقال : (اللهم ان كان كاذبا •
(٢٤ — الاعلام)

فلا تبارك له فيه) فأصبحت شاصية — يريد رافعة برجلها — يقول : ماتت .

والأخبار في هذا الباب أكثر من أن يحاط بها .

الفصل العاشر : في ذكر جمل من بركاته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم :

من ذلك ما اشتهر وصح . أنه وقع فزع بالمدينة ، فركب « فرسا » .
لأبى طلحة ، بطيئا . فلما رجع قال لأبى طلحة : (وجدنا فرسك بحرا) — يريد كثير الجري كالبحر — قال : فكان ذلك الفرس لا يجارى .
ونخس « جمل » جابر ، وكان قد أعيا . ففشط ، حتى كان ما يملك زمامه .

وصنع مثل ذلك بفرس لجميل الأشجعي ، خفقا بمخفقة معه .
وترك عليها فلم تملك رأسها نشاطا . وباع من بطنها باثني عشر ألفا .
وكانت شعرات من شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم في « قلنسوة » خالد بن الوليد فلم يشهد بها قتالا ، الا رزق النصر .
وكانت جبة رسول الله صلى الله عليه وسلم تغسل للمرضى بعد موته . فيستشفى بها .

وأخذ « جهجاه » قضيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكسره .
فأخذته في يده أكلة ، فقطعها . ومات قبل الحول .

وسكب من فضل وضوئه في بئر قباء . فما جف ماؤها بعد .
وبزق في بئر كانت في دار « أنس » فلم يكن بالمدينة أعذب منها .
ومر على ماء ، فسأل عنه ، فقيل اسمه « بيسان » وماؤه طلع .
فقال : (بل هو نعمان ، وماؤه طيب) فطاب .

وأوتي بدلو من ماء زمزم فميج فيه ، فصارت أطيب من المسك .
وأعطى الحسن والحسين لسانه فمصاه . وكانا يبيكان عطشا .
فرويا وسكتا .

وكانت لأم مالك « عكة » تهدي فيها للنبي صلى الله عليه وسلم .
سمنا . فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعصرها ، ثم دفعها .

اليها • فاذا هي مملوءة سمنا • فيأتيها بنوها ، يسألونها الادم • وليس
عندهم شيء • فتعتمد اليها ، فتجد فيها سمنا • فكانت تقسم ادمها •
حتى عصرتها •

وكان يتفل في أفواه المراضع فيجزئهم ريقه الى الليل •
ومن ذلك بركة يده ، فيما لمس ، أو غرس •

غرس لسلمان ثلاث مائة ودية • وكان كاتب مواليه على ثلاث مائة
نخلة ، وعلى أربعين أوقية ، فغرسها رسول الله صلى الله عليه
وسلم بيده • الا واحدة • فأطعمت من عامها • الا تلك الواحدة •
فقلعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغرسها • فأطعمت من عامها •
وأعطاه مثل بيضة الدجاجة من ذهب بعد أن أدارها على لسانه •
فوزن منها أربعين أوقية لمواليه •

وفي حديث « حنث بن عقيل » قال : سقاني رسول الله صلى
الله عليه وسلم شربة من سويق شرب أولها ، وشربت آخرها • فما
زلت أجد شبعها اذا جعت ، وريها اذا عطشت ، وبردها اذا ظمئت •

وأعطى قتادة بن النعمان ، وصلى معه العشاء الأخيرة في ليلة
مظلمة مظيرة : « عرجونا » فقال : (انطلق فانه سيضيء لك من بين
يديك عشرا ، ومن خلفك عشرا • فاذا دخلت بيتك ، فسترى سوادا ،
فاضربه ، حتى يخرج • فانه الشيطان) فانطلق فأضاء له العرجون ،
حتى دخل بيته • ووجد السواد ، فاضربه حتى خرج •

ومنها دفعه لعكاشة « جذل حطب » وقال له : (اضرب به) حين
أنكسر سيفه يوم بدر • فعاد في يده سيفا صارما ، طويل القامة •
أبيض شديد المتن • فقاتل به • ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف •
الى أن استشهد في قتال أهل الردة • وكان هذا السيف يسمى « العون »

وكذلك دفع لعبد الله بن جحش يوم أخذ • وقد ذهب سيفه « عسيب
نخل » فعاد في يده سيفاً •

ومن ذلك بركته في درور الشياخ الحوائل : اللبن الكثير • كقصة
شاة « أم معبد » وهي قصة مشهورة • وكذلك غنم « حليلة » مرضعتها •

وقد تقدم ذكره . وكذلك قصة شاة « عبد الله بن مسعود » وكان لم ينز عليها فحل قط . وكذلك شاة « المقداد » ومن ذلك تزويده أصحابه سقاء ماء بعد أن أوكاه ، ودعا فيه . فلما حلاه . اذا به لبن طيب ، وزبدته في فمه ، ومسح على رأس « عمير بن سعد » وبارك . فمات ، وهو ابن ثمانين ، فما شاب .

وقد روى مثل هذه القصص .

ومن ذلك أن « عتبة بن فرقد » كان يوجد له طيب يغلب طيب نسائه . لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مسح بيده بطنه ويده . وسلمت عن وجهه صلى الله عليه وسلم « عايذ بن عمرو » الدم . يوم أحد . فدعا له . فكانت له غرة كفرة الفرس .

ومسح صلى الله عليه وسلم على رأس « قيس بن زيد الجذامي » ودعا له فهلك ابن مائة سنة ، ورأسه أبيض . وموضع كف النبي صلى الله عليه وسلم أسود . فكان يدعى الأغر ، ومسح وجه رجل آخر . فما زال على وجهه نور ، ومسح وجه « قتادة بن ملحان » فكان لوجهه بريق ، حتى كان ينظر في وجهه ، كما ينظر في المرأة .

وموضع صلى الله عليه وسلم يده على رأس « حنظلة بن خديم » وبارك عليه ، فكان حنظلة يؤتى بالرجل قد ورم وجهه ، والشاة قد ورم ضرعها . فيوضع على موضع كف النبي صلى الله عليه وسلم . فيذهب الورم .

ونضح في وجه « زينب بنت أم سلمة » نضحة من ماء ، فما كان يعرف في وجه امرأة من الجمال ما كان بها . ومسح على رأس صبي به عاهة — يعني قرعا — فبرأ واستوى شعره . وكذلك مسح على غير واحد من الصبيان ، المرضى والمجانين ، فبرؤا . ولأجل هذا قال « طاووس » : لم يؤت النبي صلى الله عليه وسلم بأحد به جنون . فصك في صدره ، إلا ذهب ذلك الجنون ، وأتاه رجل آدر . فأمره أن ينضحها بماء من عس ، مع فيه ، ففعل . فبرأ . ومن ذلك خبره المشهور عن « تراب » يوم حنين . وذلك أنه لما اشتد القتال بينه وبين الكفار ذلك اليوم ، أخذ غرفة من تراب ، ورمى بها وجوه الكفار . وقال : (شأهت الوجوه) فما بقي منهم أحد ، إلا أصاب من عينيه .

من ذلك التراب ، فهزمهم الله ، ورجعوا على أعقابهم يمسحون عن أعينهم •

ومن ذلك الخبر المشهور عن أبي هريرة : أنه كان كثير النسيان ، فأمره ببسط ثوبه ، فغرف بيده ، ثم أمره بضمه • ففعل ، فما نسى شيئاً بعد •

والأخبار في هذا كثيرة جداً تفوق الحصر •



الفصل الحادى عشر : فى ما أخبر به مما أطلع الله من الغيب صلى الله عليه وسلم :

هذا الموضوع بحر ، لا يدرك قعره ، ولا ينزف غهره ، وهو من جملة آياته المعلومة على القطع ، الواصلة إلينا من طريق التواتر ، لثرة الحكايات ، وانتشار الروايات ، مع اتفاقها • على أنه مطلع على كثير من الغيب • فهذا تواتر معنوى • يحصل به العلم القطعى • وهكذا أكثر الفصول المتقدمة • والأخبار المتلقاة عنه صلى الله عليه وسلم فى هذا الموضوع قسمان : قسم وقع ، ووجد ، كما أخبر به • وقسم آخر لم يقع ، لكونه لم يبلغ وقته ، وسيقع ولا بد • ولذلك هو منتظر الوقوع • ونحن انما نذكر فى هذا الفصل ما وقع ووجد حسب ما أخبر به • اذا به تقع الحجة وعنده يظهر الاعجاز •

من ذلك حديث « حذيفة » قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ، فما ترك شيئاً فى مقامه ذلك يكون الى قيام الساعة الا حدثه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء • وانه ليكون منه الشئ فأعرفه • فأذكره كما يذكر الرجل وجه الرجل اذا غاب عنه ، ثم اذا رآه عرفه • ثم قال : لا أدري • أنسى أصحابى أم تناسوه ؟ والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من قائد فتنة الى أن تنتقضى الدنيا ، يبلغ من معه ثلاث مائة فصاعداً الا وقد سماه لنا باسمه واسم أبيه وقبيلته •

وقال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما من طائر يحرك جناحيه فى السماء ، الا ذكر لنا منه علماً •

وقد خرج أهل الصحيح في كتبهم ، واشتهر عن الأئمة ما أعلم به أصحابه مما وعدهم به من الظهور على أعدائه ، وفتح مكة ، وبيت المقدس واليمن والشام والعراق . وظهور الأمن حتى تظعن المرأة من الحيرة الى مكة . لا تخاف الا الله . وان المدينة لا تغزى .

وكذلك أعلم بفتح خيبر على يد « علي بن أبي طالب » في غد يومه ، وبما فتح الله على أمته من الدنيا ، ويؤتون من زهرتها ، وقسمتهم كنوز كسرى وقيصر . وما يحدث بينهم من الفتن والاختلاف والأهواء ، وسلوك سبيل من قتلهم ، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة . وانها ستكون لهم أنماط ، ويغدو أحدهم في حلة ، ويروح في أخرى ، وتوضع على يديه صحيفة ، وترفع أخرى . ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة . وانهم اذا مشوا المطيطا . وجد منهم بنات فارس والروم . رد الله بأسهم بينهم . وسلط شرارهم على خيارهم .

واخباره على قتال الترك والخزر والروم وذهاب كسرى وفارس حتى لا كسرى بعده ، وذهاب قيصر حتى لا قيصر بعده ، واخباره عن الروم ، لا تزال ذات أقران ، حتى تقوم الساعة ، واخباره بملك بنى أمية وولاية معاوية ووصاه ، واتخاذ بنى أمية ملك الله دولا . واخباره عن خروج ولد العباس بالرايات السود ، وملكهم أضعاف ما ملكوا . وخروج المهدي (١) واخباره بما ينال أهل بيته من القتل والشدائد . واخباره عن قتل « علي » وقوله : (ان أشقاها الذي يخضب هذه من هذه) يريد لحيته من رأسه . واخباره بقتل « عثمان » وهو يقرأ المصحف . وأنه سيقطر دمه على قوله تعالى « فسيكفيكم الله ، وهو السميع العليم » (٢) وقوله صلى الله عليه وسلم : (عسى الله أن يلبسك قميصا فان أرادوك على خلعه ، فلا تخلعه) يريد بذلك ما ولاه من الخلافة ، وما أرادوا من خلعه .

ومن ذلك خبر « حاطب بن أبي بلتعة » وذلك أنه كتب كتابا لأهل مكة ، يخبرهم فيه بغزو رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم ، وإخفاء ذلك الكتاب ، ولم يطلع عليه أحدا ودفعه الى امرأة فجعلته في عقاصها .

(١) أخبار المهدي غير صحيحة ، وكثير من الأخبار التي ذكرها المؤلف : آحاد .

(٢) البقرة : ١٣٧.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : (انطلقوا الى موضع كذا •
فان به ظعينة عندها كتاب من حاطب الى مشركى قريش) فانطلقوا
ففتشوا ، فلم يجدوا عندها شيئاً • فقالوا لها : لتخرجن الكتاب •
أو لنجردنك • فأخرجته من عقاصها •

واخبره لبعض زوجاته أنها ستبجحها كلاب من الحوب • وأنها
تقتل حولها قتلى كثير • فكان ذلك كله ، كما ذكر صلى الله عليه وسلم •
وقوله لعمار : (تقتلك الفئة الباغية) فقتله أصحاب معاوية • وقوله :
(يكون فى ثقيف : كذاب ، ومبير) فرأوهما : الحجاج والمختار •
واخبره بأن مسيلمة يعقره الله ، فكان ذلك •

ومن ذلك أن ناقتة ضلت ، فلم يدر أين هى ؟ فقالت قريش :
يزعم محمدا أنه يعرف خبر السماء ، وهو لا يعرف ناقتة ؟ فنزل الوحي
على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (أما أنا فلا أعلم • إلا ما
أعلمنى الله به • وان الله قد أخبرنى : أنها بموضع كذا) فانطلقوا •
فوجدت حيث ذكر • قد حبستها هناك شجرة •

وقوله لفاطمة الزهراء رضى الله عنها — ابنته — : (انك أول أهل
بيتى لحوقا بى) فكانت أول من مات من أهل بيته •

وأخبر بأهل الردة والخوارج ، وعرف بعلاماتهم • فوجد ذلك
كما أخبر •

والأخبار فى ذلك أكثر من أن تحصى ، يضطر الواقف عليها الى
العلم بنبوته صلى الله عليه وسلم •

الفصل الثانى عشر : فى عصمة الله له ممن أراد كيده :

وذلك من أبلغ آياته • صحت الروايات وثبتت الطرق : أن رسول
الله صلى الله عليه وسلم كان يحرس ممن يريد ضره لكثرة أعدائه •
ولطلبهم غرته • حتى نزل : «والله يعصمك من الناس» (١) فأخرج رسول
الله صلى الله عليه وسلم رأسه من القبة • وقال لحارسيه : (يا أيها
الناس انصرفوا فقد عصمنى ربى) فلم يقدر أحد أن يصيب منه
مقتلاً ، مع حرصهم على ذلك •

ومن ذلك ما صح أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل منزلاً في بعض تغزواته • فقال تحت شجرة • فأتاه أعرابي فاخترط سيفه • فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : (الله) • فرعدت يد الأعرابي ، وسقط سيفه من يده ، وضرب برأسه الشجرة ، حتى سال دماغه • وقد اتفق مثل هذه القصة لعذرة بن الحارث • فأسلم ورجع إلى قومه وقال : جئكم من عند خير الناس •

وقد روى أن هذه القصة كانت يوم بدر • وكذلك وقع مثل هذه القصة بذى أمر لدغشور بن الحرث • وكان ذا نجدة وجراءة • فأسلم • فلما رجع إلى قومه • قالوا : أين ما كنت تقول • وقد أمكنك • فقال : اني نظرت إلى رجل أبيض طويل ، دفع في صدري ، فوقعت لظهري ، وسقط السيف من يدي • فعرفت أنه ملك • وفيه أنزل الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم • إذ هم قوم أن يبسطوا اليكم أيديهم ، فكف أيديهم عنكم » (١) الآية •

وكانت امرأة أبي لهب — وهي حمالة الحطب — تضع الشوك في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنما يطأ كثيباً أهيل — يريد سهلاً — ولما أنزل الله عز وجل فيها ، وفي زوجها : « تبت يدا أبي لهب وتب » (٢) إلى آخر السورة • أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو جالس في المسجد ، ومعه أبو بكر ، وفي يدها « فهر » من حجارة • فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبا بكر • وأخذ الله ببصرها عن نبيه عليه السلام • فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغني أنه يهجونى • والله لو وجدته ، لضربت بهذا الفهر فاه •

ومن ذلك ما حدث به « الحكم بن أبى العاصي » قال : تواعدنا على أن نقتل محمداً حتى جئناه • فلما رأيناه سمعنا صوتاً خلفنا • ما ظننا أنه بقي بتهامة أحدا • فوقعنا مغشياً علينا ، حتى قضى صلاته ، ورجع إلى أهله • ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه •

ومن ذلك القصة المشهورة التي تؤخذ بالكفاية التامة • وذلك أن قريشاً اجتمعت على قتله ، وبيتوا ليدخلوا عليه بيته ، فعلم بهم •

فقال لعلی : تحول علی فراشی . ففعل . ثم خرج علیهم ، ودر التراب علی رؤوسهم ، فلم یروه . حتی دخلوا البیت ، فوجدوا علیا علی فراشه ، فقالوا له : أين صاحبك ؟ فقال لهم : قد خرج علیکم . وقد جعل التراب علی رؤوسکم . فمد کل واحد منهم یدہ علی رأسه ، فوجد التراب علی رأسه .

وقد قيل : ان فی هذه القصة نزل قوله تعالى : « واذ یمکر بک الذین کفروا لیثبتوک ، أو یقتلوک ، أو یخرجوک . ویمکرون . ویمکر الله . والله خیر الماکرین » (١)

ومن ذلك ما اتفق لأبى جهل . وذلك أنه أخذ « ابل » رجل من العرب ، وتعدى علیه فیها ، فشكى ذلك لرسول الله صلى الله علیه وسلم ، فمشى رسول الله صلى الله علیه وسلم ، لنزل أبى جهل ، وصاح به . فخرج منتقعا لونه . فقال له رسول الله صلى الله علیه وسلم : (رد علی هذا ابله) فقال : نعم . ثم دخل مرة أخرى خائفا ، فصاح به ، فخرج فزعا ، متغيرا ذلیلا . ففعل ذلك ثلاثا . ثم خرج فزعا ممتقعا لونه ، فانصرف الأعرابی . وألان القول للنبی علیه السلام ، فلامته قریش علی (ذلك) فقال لهم : انه عرض لى دونه « فحل » من الابل ، ما رأیت مثل هامته ، ولا أنیباه لفحل قط . وانه هم بنى لیاکلنى . فبلغ ذلك النبی صلى الله علیه وسلم . فقال : (ذلك جبریل . ولو دنا منه لأخذه) .

وكذلك أخذ « أبو جهل » صخرة لیطرحها علی النبی صلى الله علیه وسلم ، وهو ساجد وقریش ینظرون . فلزقت بیده ، ویبست یداه ، الى عنقه ، فرجع القهقرى ، ورآه ثم سأل أن یدعو له ، ففعل . فانطلقت یداه . وكذلك تواعد مرة أخرى ، مع قریش لئن رأى محمدا یصلی ، لیطأن رقبتہ ، فلما دخل النبی صلى الله علیه وسلم فی الصلاة أعلموه . فأقبل نحوه ، فلما قرب منه ولى هاربا ناکضا علی عقبیه . متقیبا بیدیه ، فسئل عن ذلك . فقال : لبا دنوت منه ، أشرفت علی خندق مملوء نارا کدت أهوى فیہ ، وأبصرت هولا عظیما ، وخفق أجنحة قد ملأت الأرض . فقال علیه السلام : (تلك الملائكة ، لو دنى لأختطفته عضوا عضوا) فأنزل الله تعالى علی النبی صلى الله علیه وسلم : « كلا ان الإنسان لیطغى ، ان رآه استغنى » (٢) الى آخر السورة .

ومن ذلك حديث « شيبة » أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين . فقال : اليوم أدرك ثأرى من محمد ، وكان « حمزة » قد قتل أباه وعمه . فأتاه من خلفه . قال : فلما دنوت منه ، ارتفع الى شواظ من نار ، أسرع من البرق ، فوليت هاربا وأحس بى النبي صلى الله عليه وسلم فدعاني . فوضع يده على صدرى ، وهو أبغض الخلق الى . فما رفعها الا وهو أحب الخلق الى .

ومن ذلك حديث « فضالة بن عبيد » قال : أردت قتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالبيت ، فلما دنوت منه . قال : (أفضالة ؟) قلت : نعم . قال : (ما كنت تحدث به نفسك ؟) قلت : لا شيء . فضحك ، واستغفر لى . ووضع يده على صدرى ، فسكن قلبى . فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئا أحب الى منه .

ومن ذلك خبر « عامر بن الطفيل » و « أربد بن قيس » وذلك أنهما وهدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليقتلاه . فقال عامر لأربد : أنا أشغل عنك وجه محمد . فاضرب أنت . فلم يفعل « أربد » من ذلك شيئا . فلما كلمه « عامر » فى ذلك . قال له : والله ما هممت أن أضربه الا وجدتك بينى وبينه . أفأضربك ؟

ومن ذلك الخبر المشهور خبر « سراقه » وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة مهاجرا للمدينة . لم يطموا بخروجه ، فبعثت قريش فى طلبه فى كل وجه حتى جعلت لمن يأتى به جعلا : مائة ناقة .

قال سراقه : فبينما أنا جالس فى نادى قومى . اذ أقبل رجل . فقال : والله لقد رأيت ركبة ثلاثة مروا على أنفا . انى لأراه محمدا وأصحابه . قال : فأومأت له — يعنى أن اسكت — ثم قلت : انهم بنو فلان يبتغون ضالة لهم . قال : لعله . قلت : فمكثت قليلا . ثم قممت ، فدخلت بيتى . ثم أمرت بفرسى ، فقيد لى . الى بطن الوادى وأمرت بسلاخى ، فأخرج لى من دبر حيرتى . وكنت أرجو أن أردده على قريش . وأخذ المائة ناقة . قال : فركبت فى اثره . فلما بدا لى القوم فرأيتهم ، عشر بى فرسى ، وذهبت يداه فى الأرض ، وسقطت عنه . قال : ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخان كالاعصار . قال :

فعرفت حين رأيت ذلك : أنه قد امتنع منى • وأنه ظاهر • قال : فنأديت القوم : أنا سراقه • انظرونى حتى أكلمكم •

فقال له أبو بكر : وما تبتغى منا ؟ قال : قلت كتابا يكون آية بينى وبينكم • فكتب له أبو بكر بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم • فأمسكه عنده ، حتى كان يوم الطائف •

والأخبار فى هذا كثيرة ، والحكايات صحاح شهيرة ، لا يمكن جحدها ، ولا ينكر حصول العلم عندها ، بل كلها تدل على صحة نبوته ، وتصديق شريعته ، وأنه كما قال الله عز وجل : « وما محمد الا رسول ، قد خلت من قبله الرسل » (١) •

ومعجزاته صلى الله عليه وسلم أكثر من أن يحيط بها هذا الكتاب ، أو تدخل تحت عد وحساب وعند الوقوف على ما تضمنته الفصول المتقدمة ، والأبواب السابقة ، يحصل العلم الضرورى بصدقه فى رسالته ، وبوجوب اتباع شريعته • ومنكر ذلك معاند متوابع جاحد • « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » (٢) وقد نجز غرضنا من هذا الباب •

فان قال قائل من النصارى والمخالفين لنا : ما ذكرتموه من معجزات نبيكم • انما يثبت عندكم من أخبار الآحاد • وهى وان كانت صحاحا فلا يحصل بها العلم ، كما كنتم قديمتم ، حيث تكلمتم مع النصارى ، حين استدلووا على اثبات نبوة مسيحهم •

فانكم قلتم : لا نقبل فى مثل هذا الموضع خبر ، من تجوز العادة عليه الكذب والغلط • وانما نقبل فيها : خبر من لا تجوز عليهم العادة ، الكذب والغلط ، وهو الخبر المتواتر • ثم انكم قبلتم هنا أخبار من تجوز العادة عليهم الغلط والكذب ، وهى أخبار الآحاد • فقد خالفتم ما أصلبتم ، وقبلتم عين ما أنكرتم •

قلنا فى الجواب عن ذلك : اعلم أيها المعترض • أنا لم نقبل فى هذا الباب الا الأخبار المتواترة التى يحصل العلم بها • لكن ينبغى أن

تعلم أن المتواتر ضربان • ضرب يتواتر لفظه ومعناه • وذلك مثل قوله تعالى : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » (١) فان هذا اللفظ نعلم قطعاً وبقيناً : أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم قاله ، كما تلوناه من غير زيادة ولا نقصان • إذ قد نقله عنه الجرم الغفير ، عن الجرم الغفير ، فلا يتطرق اليه وجه من وجوه الشك ، فلا يقدر أحد أن يتشكك في لفظه ، ولا في معناه ، وكثير من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم المتقدمة الذكر من هذا القبيل • فهذا هو الضرب الأول •

وأما الضرب الآخر • وهو متواتر معناه دون لفظه ، فيحصل العلم أيضاً بذلك المعنى • وذلك مثل أن تتوارد روايات كثيرة من أخبار الآحاد الصحاح على معنى واحد ، بالفاظ متغايرة ، وحكايات مختلفة • مثال ذلك : أنا نجد من أنفسنا علماً قطعياً بشجاعة « على بن أبى طالب » رضى الله عنه • فإذا نظرنا في الخبر الذى حصل لنا العلم بشجاعته ، لم نجد خبراً واحداً متواتراً • وإنما وجدناه جملة أخبار آحاد تواردت على معنى واحد ، وهو الشجاعة • فتسمع عنه يوماً أنه فعل يوم خيبر كذا ، وفعل يوم حنين كذا ، ويوم صفين كذا ، ويوم الجمل كذا ، فلا تزال أخبار الآحاد تكثر حتى يضطر السامع الى العلم بمخبرها ، ولا يقدر على تشكيك نفسه في شيء منها • وهذا مسلك في تحصيل العلم • إذا تفقده العاقل المنصف من نفسه وجده مفيداً للعلم ، ومحصلاً له ضرورة • ومن أنكر حصول العلم منه ، كان منكراً لما هو ضرورى •

فإذا ثبت هذا • قلنا بعده : ان ما نقلناه من معجزات نبينا عليه السلام ، منها ما تواتر لفظه ومعناه كأنشقاق القمر وغيره • ومنها ما تواتر معناه ، وهو أكثر ما احتوت عليه الفصول المتقدمة • وذلك أن كل فصل منها اشتمل على معنى واحد وكثرت الأخبار عن ذلك المعنى ، حتى اضطر الواقف عليها الى العلم بمعناها ، وذلك مثل نبع الماء من بين أصابعه ، وتكثير الماء القليل ، والطعام القليل ، الى غير ذلك من الفصول فكل فصل منها قد تواتر معناه • وإن لم تتواتر آحاد ألفاظه •

ثم هذه الفصول بجمالها يحصل منها العلم القطعى ، واليقين
الضرورى : بأن محمدا صلى الله عليه وسلم كانت العادات تتخرق على
يديه ، معجزة له . اذ قد تواردت جميع أخبار هذه الفصول على هذا
المعنى .

فحصل من هذا : أنا لم نستدل على اثبات نبوة نبينا محمد ، بأخبار
الآحاد . وانما استدللنا على ذلك بالأخبار المتواترة ، المحصلة للعلم .
والحمد لله .

والنصارى فيما أوردوا لم يستدلوا هكذا ، ولا عندهم علم من
هذا ، وكفى أنهم فى ضلالتهم يعمهون . وفى شكهم يترددون .
عصمنا الله من الخطأ والزلل ، فى القول والعمل . بكرمه وجوده .



الفصل الثالث عشر : فى ما ظهر على أصحابه ، والتابعين لهم من الكرامات الخارقة للعادات :

اعلم . أن غرضنا فى اثبات هذا الفصل شيئان :

أحدهما : أن نبين : أن ما ظهر على أصحابه ، وعلى أهل دينه من
الكرامات ، هو آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أعظم الآيات .
بذلك أن الله تعالى اذا أكرم واحدا منهم بأن خرق له عادة . فلن
ذلك يدل : على أنه على الحق ، وأن دينه حق . اذ لو كان مبطلا فى
دينه ، متبعا لمبطل فى دعواه ، كاذب فى قوله على الله . لما أكرمه
الله . ولا أكرم من اتبع دينه .

فعلى هذا نقول : ان كل كرامة لولى . انما هى آية للنبي الذى
يتبعه ذلك الولى ، فهذا أحد الغرضين وهو أهمهما .

والغرض الثانى : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وان كانوا قد أكرمهم الله بكرامات خارقة للعادات فلا يعتقد فيهم أنهم
أنبياء . كما فعلت النصارى بالحواريين . بل يعتقد فيهم : أنهم أولياء
الله ، وأصحاب رسول الله ، تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
شرعه ، وبلغوا عنه قوله ، وفعله . فبذلوا فى اظهار دين الله أنفسهم
وأموالهم ، حتى أظهر الله على كل الأديان دينهم ، وإيمانهم .

كما قال الله تعالى فيهم : « محمد رسول الله • والذين معه ، أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا • سيماهم في وجوههم من أثر السجود » (١) •

ونحن الآن نذكر بعض ما أكرمه الله تعالى به •

من ذلك : ما علمنا من أحوالهم على القطع • وذلك أنهم بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرضوا لقتال كل من خالفهم من أهل الأرض يهوديهم ونصرانيهم ، مجوسيههم ووثنيهم ، عربيهم وعجميهم ، على قلة عددهم ، ونزارة عددهم • فقارعوا الأبطال ، وسبوا الذراري والأموال ، وأسروا العتاة ، وقتلوا الرجال • وعلى هذا انقرض عصرهم • ومع ذلك فلم يروا قط عنهم : أنهم ولوا مدبرين ، ولا رجعوا منهزمين ، بل كانوا يرجعون غالبين ، وبعدهم ظافرين ، وعليهم ظاهرين • هذا مع كثرة من كان يجتمع عليهم من عدوهم ، ومن وقف على فتوحات الشام ، علم أن دين الحق ، هو دين الاسلام • فلقد اجتمع عليهم من عدوهم بالشام ثلاث مائة ألف • ونحوها ، بل قد قال « الواقدي » : « ثمان مائة ألف من النصاري المستعربة وغيرهم • وهم زهاء ثلاثين ألف ، خيلهم ورجلهم » فقارعوهم مقارعة الكرام ، وصبروا صبر من صدق ما وعده به نبيه محمد عليه الصلاة والسلام • فأظفرهم الله عليهم ، ومنحهم رقابهم ، وأورثهم أموالهم وديارهم •

وهكذا فعل الله معهم ، غير ما مرة ، ولا يشك في أن هذا كرامة من الله لهم ، وأمر خارق للعادة في حقهم ، فان العادة : أن من أكثر من مقارعة الشجعان ، فلا بد له من أن يصاب ، ولو في وقت من الزمان ، وما اتفق لهم — وان كان كرامة لهم — فهو آية لرسول الله صلى الله عليه وسلم • وأنه قد كان بشيرهم بذلك ، وأخبرهم بكل ما طرأ لهم هنالك •

فيقد ثبت أنه عليه السلام قال : (تغزو قيام من الناس • فيقال لهم : هل فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم • فيفتح لهم • ثم تغزو قيام من الناس • فيقال لهم : هل فيكم من رأى ، من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقولون : نعم •

بفيفتح لهم • ثم تغزو قيام فيقال لهم : هل فيكم من رأى ، من رأى من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقال : نعم • فيفتح لهم) • وهذا منه صلى الله عليه وسلم : اخبار بنصر أصحابه ، ونصر تابعيهم ، وتابعي تابعيهم ، ثلاثة قرون • وهذه الأعصار ، هكذا انقضت ، لم يزل نصر الله لهم ، وعونه معهم ، تصديقا لنبيه ، واکراما لأصحابه ، رضى الله عنهم ، وجازاهم عنا بأفضل ما جازى أحدا عن أحد •

ومن ذلك ما ظهر على أحد منهم مما قدمنا ذكره ، حيث ذكرنا : أن طائفة منهم أكلت السم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يضرها • وقد ذكرنا حديث المرأة المهاجرة التي مات ابنها • فقالت : اللهم ان كنت تعلم أنى هاجرت اليك ، وإلى نبيك ، فلا تحطنى هذه المصيبة ، فحيى ، وأكل معهم • وكذلك ذكرنا مقالة « ثابت بن قيس بن شماس » بعد موته • وكلام « زيد بن خارجة » بعد موته فيما تقدم ، فلا معنى لاعادته • فلتنظر فيما تقدم •

ومن ذلك خبر « ابن عمر » رضى الله عنه • أنه كان في بعض أسفاره ، فلقى جماعة وقفوا على الطريق خوفا من السبع ، فطرد السبع عن طريقهم • ثم قال : انما يسلط الله على ابن آدم ما يخافه ، ولو أنه لم يخف غير الله لم يسلط عليه شيء •

ومن ذلك حديث « العلاء بن الحضرمي » بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة ، فحالك بينهم وبين الموضع الذى يريدونه « قلعة » من البحر ، فدعا الله باسمه الأعظم ، ومشوا على الماء •

ومن ذلك أن « عباد بن بشير » أو « أسيد بن خضير » خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأضاء لهما رأس عصا أحدهما • كالسراج • وقد قدمنا مثل هذا •

ومن ذلك أن « سلمان » و « أبا الدرداء » كانت بينهما قصعة • فسبحت ، حتى سمعا تسبيحها ، وقد تظاهرت الأخبار : بأن جماعة منهم رأوا الملائكة ، وكانت تسلم عليهم مثل « عمران بن حصين » و « أسيد ابن خضير » والأخبار في هذا كثيرة •

وأما التابعون • فقد ظهرت لهم من الكرامات والخيرات ما لا يمكن استيفاء ذكره في هذا الكتاب •

فقد كان كثير منهم يمشي على الماء ، ويطير في الهواء ، وينظر إلى الحصى فيصير جواهر ، وينظر الآخر إلى الأرض بين يديه ، فيصير ذهباً ، وتطوى له الأرض ، ويتوضأ ، فيسيل الماء من بين يديه قضباً ذهب • ويدعو الله تعالى فيبرئ المرضى والمجانين ، والمزمناء ، إلى ما لا يحصى كثرة •

وقد دون من هذا كثير ، يقضى منه العجب في كتب كرامات الأولياء • ولو لم يكن من هذا ، إلا قبر « معروف الكرخي » الكائن ببغداد ، لكان فيه كفاية ، وأعظم آية • وذلك أن قبره يستشفى به ، ويدعى الله عنده ، فيشفى المريض ، وتقضى الحاجة ، حتى أن أهل بغداد ، يقولون : قبر معروف الكرخي ، ترياق مجرب •

وبعد هذا

أقول للنصارى : وليست هذه الأمور العجيبة ، والأفعال الغريبة من قبيل الحيل والنيرجات ، التي تعظمون بها أديانكم ، وتموهون بها على عوامكم ، وتضيفونها إلى هديانكم •

فلقد حكى لنا : أنكم تمخرقون على ضعفاء العقول منكم بخرافات وترهات ، مثلكما وصف عن بعض مشاهدكم المعظمة عندكم • وذلك أنكم تزعمون أن يد الله المسيح تظهر بها في يوم واحد من السنة من وراء ستار • وهذا مشهور عندكم •

ولقد حكى لنا من يوثق بحديثه : أن رجلاً من اليهود كان قد حظى عند أحد رؤسائكم بالأندلس • بوصلة كانت بينهما • فرام الرئيس أن يخرج اليهودي عن دينه ، ويدخله في دين النصرانية • وقال له : ألا ترى هذه الأعجوبة : ظهور يد الله المسيح لنا في يوم معلوم من السنة ؟ فقال له اليهودي : يا مولاي • أنا قد رضيت من هذا الأمر بشهادتك ، وصدقتك عليه • فابحث عنه • فان كان ما يزعم هؤلاء القسيسون حقاً • دخلت في دينك ، فخالط الرئيس الشك • فلما دنا ذلك اليوم ، مشى ذلك

الرئيس الى ذلك المشهد • وقرب مالا ، يهديه هناك ، فبرز اليه الأساقفة • وقربوه لتقبيل اليد • فلما ظهر له من وراء الستر ، وضع يده فيه • فصاحوا به ، وأغلظوا له القول • يقولون له : اتق الله • الآن تخسف بك الأرض • الآن تقع عليك السماء • الآن ترسل عليك الصواعق • فقال لهم : دعوا عنكم هذا كله • فان هذه اليد ، لا أخل يدي عنها حتى أعلم حقاً ما تصفون عنها ، أم ياطلا •

فلما رأوا الحجة فروا عنه ، ولم يبق معه الا اثنان • أسرا اليه • وقالوا له : ما تبغى في ذلك ؟ أصبوت عن دين آبائك ؟ أتريد أن تحل ربطاً ، ربط منذ ألف سنة أو نحوها ؟ قال : لا • ولكنى أحب الوقوف على سر هذه اليد • فقالوا : هي يد الأسقف ، واقف خلف هذا الستر • فقال : أحب أن أراه • فقالوا : أنت وذاك • فكشفا له عن « قس » مجدود الخدين ، واقف خلف هذا الستر ، فلما عاينه الرئيس أرسل يده ، وخرج الى عسكره • فقال له اليهودى : يا مولاي ما تأمرنى به ؟ أدخل فى دينك ، وأخرج عن دينى ؟ فقال له : رأيك • خرجت منه ، أو فلا خرجت •

وكذلك وصف لنا عن صليب فى بعض مشاهدكم المعظمة عندكم يمشى اليه الناس ليتعجبوا منه ، وهو واقف بين السماء والأرض ، وان بعض رؤسائكم سأل عن ذلك كاتباً له يهودياً ، فتفطن اليهودى الى أن ذلك الصليب : حديد ، تمسكه أحجار المغناطيس • فبحث عنه فوجد كذلك •

وكذلك • وصف عن « الثريا » التى فى كنيسة الغراب ، وحيلتها : حيلة الصليب • وكذلك كنتم تذكرون أن هذه الكنيسة ينزل فيها نور ، يوقد ذبال الثريا المذكورة ، فى ذلك اليوم المشهود • فذكر ذلك لأحد ملوك بنى أمية بالأندلس ، فتعجب من ذلك • وسأل عن ذلك ، فأخبره رجل من أهل افريقية بحيلتها ، وذكر أنهم مدوا مع الحائط : قصبة حديد ، ضيق جوفها ، وأبرزوا لها أنبوباً كسم الخياط • موضعه موزون مع طرف الثريا •

ثم انهم ذلك اليوم يرسلون نار النفط ، فى القصبة متراكما ، حتى يخرج فى غاية القوة ، الى ذبال الثريا ، الذى هو فى زنة واحدة معه •

ووصف ذلك الافريقى مع ذلك جيلا فاحتال ذلك الأمير على الكنيسة
في أحد غزواته ، وقد دنا يومها ذلك • فدعى الافريقى ، وكان معه ،
فسأله كشف ذلك • فعمد الافريقى فاستخرج منه قناة من الصفر ، على
نحو ما كان ذكر • وعمد الى سماء الثريا ، فاستخرج منه حجرا من
المغناطيس ، فسقطت • فأمر الأمير عند ذلك بمعاقبة القبيس •

وكذلك كنتم تزعمون : أن مريم نزلت من السماء ، على « دون
اذ فنتش » المطران • بجامع « طليطلة » وكست رأسه بقجيلة ، وجسمه
بثياب مزيئة • وذلك في ليلة النصف من شهر « أغشت » فتعظمون تلك
الليلة تعظيما شنيعا •

وذلك كله انما يصح عليكم ، لجهلكم بالأمر كلها ، حقها ، وباطلها •
حتى أنكم تصدقون بالباطل والترهات • وتكذبون بالحق كله ،
وباليقينيات • فردكم لغير معنى • وقبولكم لغير معنى • فلذلك لم
تعدوا من العقلاء ، ولم تضربوا بسهم النبلاء •

ولقد أورد بعض حذاقنا ، المجترئين على الكلام : على النصارى
في كذبهم نزول مريم على « دون اذ فنتش » الزامات • نبهت النصارى ،
ولا مجيىص لهم عنها •

فقال لهم : أخبرونا عن نزول مريم الذى تزعمون • هل كان باذن
بسيدها ، أو بغير اذنه ؟ فان قلتم : كان باذنه • فكيف يجوز عليه أن
يمتهن أم ولده — بزعمكم — في حق عبده ؟ وهلا كان يرسل عبدا من
عبيده ويصون أم ولده ؟

هذا يدل على عدم الغيرة • ولو فعل ذلك الواحد منا ، لعرض
نفسه وزوجته للتهمة • ولتضاف اليه النقائص ، وينسب الى همته الخسة •

وان قلتم : كان ذلك بغير اذن منه • فكيف ينبغي أن تخوته ؟ مع
أن الله قد اصطفاه على نساء العالم ، واتخذها أم ولد — بزعمكم —
فتنزل بغير اذنه الى رجل من جنسها بكسوة ، وثياب مزيئة في كنيسة
خالية • وهذا محل خيانة •

تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا ، وسبحانه عما ينسب اليه
الجاهلون بكرة وأصيلا • وأستغفر الله الذى لا اله الا هو الحى القيوم ،
وأسأله التوبة من حكاية هذه القبائح ، ومن رواية هذه الفضائح •

فالحمد لله ، الذى أعاد الاسلام من هذه الرذائل ، وخصه بكل
الفضائل التى يستحسنها كل عاقل ، ويتدين بها كل فاضل • ويتميز
عندها الحق من الباطل •



(انتهى الجزء الثالث من كتاب ((الاعلام بما فى دين النصارى من
الفساد والأوهام ، واظهار محاسن دين الاسلام ، واثبات نبوة نبينا محمد
عليه الصلاة والسلام)) ويثبته الجزء الرابع باذن الله • وأوله : الباب الرابع :
فى بيان أن النصارى متحذرون فى أديانهم ، وأنهم لا مستند لهم فى أحكامهم ،
الا محض أغراضهم وأهوائهم) •

الأخلاق

بِمَا فِي دِينِ النَّصَارَى مِنَ الْفَسَادِ وَالْأَوْهَامِ
وَإِظْهَارِ مُحَاسِنِ دِينِ الْإِسْلَامِ
وِإِثْبَاتِ نُبُوَّةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

تأليف

الإمام الفَرَطِيُّ

تقديم وتحقيق وتعليق

الدكتور أحمد مجازي الشقفا

المجلد الرابع

دار التراث العربي

الباب الرابع

في بيان أن النصارى متحكمون في أديانهم

وأنهم لا مستند لهم في أحكامهم إلا محض أغراضهم وأهوائهم

هذا الباب يشتمل على صدر • وفنين •

الصدر : وفيه فصلان •

والفن الثاني : فيه فصلان •

الفصل الأول

ليست النصارى على شئ

اعلم أيها العاقل — وفقك الله — أن النصارى أضعف الناس عقولا ، وأقلهم فطنة وتحصيلا • فهم لذلك يعتقدون في الله المحالات ، وينكرون الضروريات ، ويستندون في أحكامهم الى الخرافات • فتارة يستندون قضاياهم الى منامة رأوها أو خرافة سمعوها ، وما وعوها ، وأخرى تحكم فيهم « متقسس » جاهل ، بمحض الجهل والهوى والأباطل • من غير أن يستدل على جواز شئ مما يريد أن يفعل من الأفاعيل ، لا بتوراة ولا بإنجيل بل قد يعرض عن نصوص الكتابين ، ويتأولهما تأويل منسلخ عن الملين ، وربما تنزل بهم عظام النوازل فيجتمعون لها في المحافل ، فيتحكمون بأهوائهم ، ويقولون فيها بآرائهم ، فيحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله « افتراء على الله • قد ضلوا ، وما كانوا مهتدين » (١) •

ونحن نبين ذلك ونستدل عليه — ان شاء الله تعالى — على طريقة الانصاف من غير اعتساف • فأما كونهم يعتقدون في الله المحالات ، وينكرون الضروريات • فقد بيناه فيما تقدم • فمن أراد أن يعرف ذلك فليعد نظرا هنالك •

وأما كونهم يستندون في أحكامهم الى الترهات والمنامات ، فيدل عليه : ما حكيناه فيما تقدم من خبر « بولش » فانه احتال عليهم ، حتى صرفهم عن دين المسيح • وقولهم من المذاهب والآراء كل قبيح • فصرفهم عن قبلتهم ، وأحل لهم ما حرم عليهم ، وفرق جماعتهم ، وشئت كلمتهم • فتم له كل مكر ، على كل غبي غمر • وقد قدمت حديثه في باب النبوات على الوفاء • وكذلك خبر « قسطنطين »

ابن هيلانة « فانه لما رأى ملكه يختل ، ونظامه لا يستقيم ، ولا يتحصل باختلاف رعيته عليه ، وقلة انقيادهم اليه • جمع وزرأؤه ، وشاورهم فاجتمع رأيهم أن يتعبد القوم بطلب دم ، وأن يشرع لهم شريعة ينسبها للمسيح • فكتب لهم ما بأيديهم من الانجيل أو أكثره ، وتعبدتهم بالصلوبية ، وشرع لهم ترك الختان • وغير ذلك من الأحكام التي وافقته ، وجاءت على اختياره ، وأكد ذلك بمنامة رآها ، ذكر فيها أمر الصليب • فتم له مراده فيهم • وخبره معروف عندهم ، وعند غيرهم • وقد قدمت بعضه في باب النبوات أيضا •

وأما كونهم يحكمون بأرائهم وأهوائهم • فيدل على ذلك : ما أودعوه كتب محافظهم ، وما عليه الآن معظم عملهم ، ومن طالع تلك الكتب ، قضى من جهلهم وجرأتهم على الله كل عجب • فان قالوا : انما نحكم بالمصالح ، وهى عندنا أصل راجح • قلنا لهم : ان كانت المصالح عندكم أصلا تعولون عليه ، وتسندون أحكامكم اليه ، فمن الذى أصلها لكم ؟ فان كنتم أصلتموها لأنفسكم فقد تحكمتكم فى الأصل والفرع ، ثم يلزمكم من هذا القول : الاستغناء عن الشرائع • وأن ما شرع الله من الأحكام فى التوراة عبث ، لا معنى له ، ولا فائدة • اذا فى النظر فى المصالح غنى عنها •

وان كان الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح • فلا بد من الاستدلال على ذلك من كلامهم • واذا لم تستدلوا على ذلك ، فدعواكم باطلة ، وحجتكم داحضة •

ثم نقول لهم : هب أن الأنبياء شرعوا لكم أصل المصالح ، فهل شرعوا العمل بالمصالح ، كيف ما كانت المصلحة مطلقا ؟ أو عينوا لكم نوعا من المصالح ؟ فان كانوا قد عينوا ، فينبغى لكم : ألا تتعدوا ما عين لكم الأنبياء • فما بالكم تسترسلون استرسال من يحكم بهواه ، ولا يخاف الله • ولا يخشاه • وان كانوا أطلقوا لكم القول بالمصالح • وقالوا لكم : مهما ظهرت لكم مصلحة كائنة ما كانت ، فاعملوا بمقتضاها • فكان يلزم على هذا أسقاط كثير من أحكام التوراة بالمصالح والرأى • كما فعل « بولش » حيث قال لهم : « هل رأيتم سارحة تسرح من عند ربها » ولا تخرج الا من حيث تؤمر به ؟ قال : فانى رأيت الصبح والليل والشمس والقمر والبروج انما تجىء من هاهنا — يعنى الشرق — وما أوجب ذلك

! لا وهو أحق الوجوه أن يصلى إليه • قالوا له : صدقت •

فردهم عن استقبال بيت المقدس ، الى استقبال جهة الشرق ،
لهذا الهذيان • ثم قال لهم بعد زمان : « رأيت رأيا • قالوا : هات •
قال لهم : أستم تزعمون أن الرجل اذا أهدى الى الرجل هدية ، وأكرمه
بالكرامة فردها شق ذلك عليه • وأن الله سخر لكم ما فى الأرض ، وجعل
ما فى السماء لكم كرامة • فالله أحق ألا ترد عليه كرامته • فما بال
بعض الأشياء حرام ، وبعضها حلال • ما بين « البقرة » الى « الفيل »
حلال • قالوا : صدقت •

وهذا محض الجراءة على الله ، والافتراء على شرائع الله ، ولم
يصر قط أحد من المتشرعين الى مثله ، ويلزم عليه : أن يكون كل من
أراد أن يشرع شرعا : شرعه ، فيكون العقلاء كلهم شارعين ، ويستغنى
عن رسل رب العالمين • وهذا غاية الكفر والضلال ، وهو لازم على
مذهب أولئك الجاهل • فقد ظهر من هذا الفصل : أنهم لا يستندون
الى شيء ، وأنهم ليسوا على شيء « ألا انهم هم الكاذبون » (١) •

* * *

الفصل لثانى

خروج النصارى على تعالىم التوراة والانجيل

أريد أن أبين فى هذا الفصل : أنهم يخالفون كتبهم ، ولا يعملون بمقتضاها • بل يتركون العمل بها ابتداء ، ويقولون : تأولناها •

وذلك أن الله تعالى حرم فى التوراة : أكل الميتة ، والدم ، والخنزير ، والنطيحة ، والموقوذة ، والمنخنقة ، والقردة ، والشحوم التى لا تختلط باللحم ، والأرانب ، والأسد ، والدب ، واللب ، والفرس ، والبغل ، والحمار ، وكل دابة ليست مشقوقة الحافر • ومن الطير : البازى ، والعقاب ، وكل طير يبغى بالمخالب ، ومن حيوان المأكلى : حوت ليس له « سفانق » •

— هذا وجدناه فى كتبهم التى نقلنا منها « سفانق » وهو تصحيفه منهم • وانما هو « سفاسق » وهى الطرائق عند العرب • ومنه قيل : « سفاسق السيف » وهى طرائقه ، وفرنده • ذكره أبو عبيد فى الغريب المصنف —

ومنع حرث الثور مع الحمار ، وحمل الخيل على الحمير ، والحمير على الخيل ، وطبخ الجدى فى لبن أمه ، وأخذ الطير فى أعشاشها بفراخها • وأكل الجزارة الملتصقة رثتها ، وأكل الخبز المختمر فى الفصوص • ولا تقرب قربان الا بخبز فطير ، ومنع شحوم البقر ، وشحم الشاة • ومنع قربان الحمام واليمام •

فهذه المذكورات كلها محرمة بنصوص التوراة التى لا تقبل التأويل • اذ قد عملت أنبياء بنى اسرائيل على مقتضاها ، ولم يغيروا شيئاً منها • وكذلك عيسى عليه السلام لم يغيرها عن مقتضياتها ، ولا نسخها • بل أقرها بالعمل ، وأمر بمقتضاها •

وان ادعوا نسخ شيء منها ، طالبناهم بدليل النسخ ، ولا يجدون .
سبيلا الى ذلك • ومع ذلك فتركوا العمل بما أمر الله به ، وارتكبوا
ما نهى الله عنه •

ولقد وقفت على بعض كتبهم في الفقه ، فذكر هذه المحرمات مؤلفة .
ثم تأولها بزعمه • وأنا الآن أذكر ما ذكر في ذلك الكتاب ، ليقضى العاقل .
من تواقحهم وجهلهم : العجب العجيب • ويعلم أنهم مفترون ، ويكذبون .
على رب الأرباب •

قال ذلك الجاهل بعد ذكر المحرمات : « فهذه أمثلة ضربت في .
التوراة ، التي هي أم الانجيل ، وأول الكتب كلها ، ففسر المسيح سيدنا .
في الانجيل • حيث قال : « لم آت لنقض الكتاب ، بل لتمامه » فتمام .
الكتاب التأويل •

فأما الميتة في التوراة • فانما نعى بذلك : ألا تميئوا الأحياء ، .
ولا تغموا الحق في الشهادة ، ولا ترفعوا الطعام ، وتمنعوه السائل .
والجائع • فأما الميتة والمنخنقة ، فما في أكلها غبطة ، لذى عقل • فمن .
شاء أكل ، ومن شاء ترك • وأما الدم فيعنى به ألا يقتل أحد بريئا ، .
ويهريق دمه ، وعنى بالخنزير : الزنا ، والكفر بالله • اذ المعروف من .
الخنزير : الالتطاخ في المطائق ، فنهانا عن فعله • وأما أكله • فما فيه .
منفعة ولا مضرة ، فمن شاء أكله ، ومن شاء تركه ، وعنى بالنطيحة .
ألا يتناطح ملك جبار ، وفقير مسكين • وعنى بالموقوذة ألا تزدرى بمن هو .
تحت ظلم غيرك • وعنى بالمنخنقة ألا تخنق أحدا ، اذا كان لك قبله حق .
فتضايقه ، وعنى بالقردة ألا تحاكي أحدا ، فتفعل كفعلها ، وعنى بالدب .
واللب ألا تأكل مع غيرك بالهجم والغارة • وعنى بالأرانب ألا تفعلوا .
فعل الأرانب ، فتكونوا كقوم لوط • فان الأرانب الذكور يأتى بعضها .
بعضا لكثرة شهوتها •

وعنى بالبازي ، والشدائق ، والعقاب ، وكل طير يبنى بمخبله : .
ألا يقتل أحدا ، ولا يهريق دم أحد ، ولا يغلب أحدا على متاعه ، ولا تحسد .
جارا فتفعل كفعلها ، وعنى بالدابة التي ليست مشقوقة الحافر : الكفرة .
الذين يعبدون الأوثان ، ويسبحون لها أيام حياتهم ، ولا يقسمون أيامهم .
مشاطرة •

وعنى بالحيوت الذى ليس له سفانق : الانسان المذنب الذى يتلون
فى دينه ، وعبادته ، وعنى بحرث الثور مع الحمار : الانسان الكافر .
وعنى بخفل الخيل على الحمير ، والحمير على الخيل ، ألا يتزوج الكافر
مؤمنة ولا المؤمن كافرة .

وعنى بالجدى فى لبن أمه : ألا تأخذ مال اليتيم ظلما ، وعنى
بالمثقة الرثة : الانسان الحبود ، الحقود ، الذى يوسوس الشر
فى صدره ، طول حياته ، وعنى بالخبز المختمر : ألا ينفخنا الشيطان ،
ويهيئ فينا الكبرياء . وعنى بالفطير : أن تكون أنفسنا ضامرة بلا انتفاخ .
وعنى بالحمام واليمام : المؤمنين الذين جعلوا أنفسهم لله
قربانا « ا.هـ » .

قال : « فهذا هو المراد بتحريم هذه الأشياء . وأما تلك المذكورات
بأعيانها ، فمن شاء أكلها ، ومن شاء تركها » ا.هـ .

هذا مذهب النصارى أجمعين ، ولا يأباه أحد منهم الا الأقلين .
فينبغى لنا أن نوبخ هؤلاء الجاهلين ، ونعرض عليهم من الالزامات
المفحمة ما كانوا عنه معرضين . ونقول لهم : ما الذى حملكم على أن
حرفتم كتاب الله . وغيرتم شرع الله ، فأحللتم ما حرم عليكم من غير
دليل ، وصرتم الى تأويل ، لم تضمكم اليه ضرورة عقل ولا معارضة
قول رسول ؟ قيا للعجب ما أثقب أذهانكم ، وأصح أفهامكم اذ قد
فهمتم من كتاب رب العالمين ، ما لم يفهمه أحد من النبيين ، بل قد
زاد فهمكم على فهم موسى بن عمران ، وعيسى عليهما السلام . اذ كانا
قد عملا على تحريم ما فهمتم أنتم تحليله من الأحكام .

وعلى ذلك عملت بنو اسرائيل مدة مديدة من الأعوام الى زمان
« بولش » المفسد لدين المسيح ، الذى جاءكم بمكر خالص ، وكفر
ضريح . فتلقيتهم منه هديانه ، ولم تعرفوا شأنه ، فحرفتم كتاب الله
وانحرفتم عن الدين القويم ، دين المسيح ، حين حرف الدين . الذى
لم تزوا منه أثرا ، ولا سمعتم له خبرا .

ثم نقول : يا معشر المحرفين لكتاب الله . أخبرونا . هل كان
موسى بن عمران ، وعيسى ابن مريم . ومن بينهما من أنبياء بنى اسرائيل ،
علموا من هذه الأحكام ما علمتم أنتم أم لا ؟ فان كانوا قد علموا فما بالهم

نصوا على خلاف ذلك ، وحكموا بتحريم تلك الأشياء ، فلم يرو قط عن واحد منهم : أنه أكل خنزيرا ، ولا ميتة ، ولا دما ، ولا شيئا مما ذكرنا تحريمه ، وأنتم تقولون هذا ، وتساعدون عليه • فكيف يمتنعون من أكل ما يحل لهم ، ثم يصرحون بتحريمه ؟ فعلى هذا يلزمكم أنهم كذبوا على الله ولبسوا في أحكام الله • إذا كانوا علموا تحليل تلك الأشياء ، ثم صرحوا بتحريمها ، والنهى عنها • وان لم يعلموا شيئا مما علمتموه أنتم • فمن أين علمتموه أنتم ؟ أشافهتكم بذلك الملائكة ، أم أرسل اليكم بذلك رسل آخر ؟ أم خلق لكم بذلك علم ضرورى ؟ وكل ذلك لا تقدرُونَ على ادعائه ، فلم يبق إلا أنكم جاهلون بشرع الله ، محرفون كتاب الله ، متواقحون على الله ، كاذبون عليه ، ومتهانون برسله ، وستقفون بين يديه ، ويسألكم عما افتريتُم عليه فتحيط بكم الأنيران ، وتجركم على وجوهكم إليها ملائكة غلاظ شداد لا يطيقهم انسان » **« ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة »** . **« ليس في جهنم مثوى للمتكبرين »** (١) •

فتنادون اذ ذاك : يا أسقفنا « بولس » انظرنا • فما منا الا متخرق عاطش • فيقال لكم : هو في أسفل سافلين ، فتصيروا اليه أجمعين • فاذا اجتمعتم معه ، لعن بعضكم بعضا ، وجحد بعضكم بعضا • **« وماواكم النار ، وما لكم من ناصرين »** (٢) •

ثم نقول لهم : ان جاز أن نتأول ألفاظ الشارع ، وكلماته من غير ضرورة داعية الى ذلك ، وندفع النصوص بالتحكم ، بطلت الكتب كلها والألسنة ، ولم يقدر واحد أن يفهم منها شيئا • اذ كل لفظ يتكلم به متكلم يمكن صرفه عن بابه ، وعن موضوعه الأصلي ونصابه •

واذا أمكن ذلك لم تقدرُوا على أن تثبتوا نبوة عيسى على اليهود ، بما قدمتم • فان من نص ما عندكم من كلام الأنبياء على نبوته قول يعقوب : **« لا ينقطع قضيب الملك من نسل يهوذا ، حتى يأتى المسيح »** (٣) • فيسوغ لليهودى أن يقول : انما عنى بالملك : دينهم ، الذى ورثوه عن كتابهم وأنبيائهم • ولم يعن الملك الذى هو الامارة والولاية • وقد

(٢) العنكبوت : ٢٥

(١) الزمر : ٦٠

(٣) سفر التكوين : ٤٩ : ١٠ — وترجم حاليا كلمة المسيح

بـ « شيلون » •

يسمى الدين : الملك • وقد جاء في التوراة حيث قال الله تعالى لابراهيم :
« الملوك من صلبك يخرجون » (١) وانما أراد بذلك الأنبياء ، وأهل
الدين • ولم يرد بذلك الأمراء فقط •

وعلى هذا التأويل تحتاجكم اليهود ، ويقولون لكم : هذا ديننا :
يباق ، لم ينقطع • فانا نقيم التوراة وأحكامها ، فلم يأت بعد المسيح •
وهذا التأويل في هذا الموضع أسوغ مما تأولتم به أنتم أحكام التوراة •
فان أنكرتم هذا التأويل ، أنكروا تأويلكم ، وخطؤوكم ، وشهدوا
عليكم أنكم غيرتم كتاب الله ، وحرفتموه •

هذا ما جنى عليكم تأويلكم ، اذ قد شككتكم في مسيحكم • ففى
مثلكم يضرب المثل :

« يداك أوكتا ، وفوك نفخ » •

ولو شئنا لأبدينا لكم من التأويلات ، وأريناكم من المناقضات
أكثر من هذا لفعلنا • ولكن منعنا عن ذلك ما قدمنا • ولا يصح أن
يقول قائل منهم : ان تحريم هذه المحرمات كلها التى تثبت في التوراة :
نسخ • بقول عيسى في الانجيل : « ليس ينجس المرء ، ما يدخل فاه •
وانما ينجسه ما يخرج من فيه » (٢) لأننا نقول : قول عيسى هذا اذا
سلم مفهومه ، نفى التجسس ، لا نفى التحريم • اذ هما حكمان متغايران
مختلفان فان الحكم بتحريم هذه المذكورات انما يرجع الى منع أكلها •
ثم يجوز أن نتناول بالأخذ والاعطاء وأنواع من التصرفات ، كما نقول
في الحمار الأهلى والبغل • فانه يحرم علينا أكله ، ويحل لنا تصريفه
في أنواع من المنافع غير الأكل • والحكم بالتجسس : انما يرجع لمنع
التناول مطلقا • أعنى يمتنع فيه الأكل والتصرف •

هذا اذا كان ذلك النجس محكوما بنجاسته مطلقا • فان حكم
بنجاسته في حال دون حال • كان ذلك • وصح أن يقال عليه أيضا :
نجس • مثال ذلك : أن محكم الشرائع بأن العذرة يحرم علينا أن
نصلى بها ، فلا يجوز أن نصلى بها ولا نحملها في تلك الحال • ويجوز
لنا أن نتناولها ونحملها في غير حال الصلاة • فقد بان الفرق ما بين

(١) سفر التكوين : ١٧ : ٦

(٢) انجيل مرقس - الاصحاح السابع - الآية الخامسة عشر •

الحكم بالتجيس ، والحكم بالتحريم • ثم لو سلمنا أنهما اسمان
للتحريم ، لما كان لتأويلكم السخيف ، معنى لطيف • فلائى معنى
تأولتم ، وقلتم ما لا يصلح حمل اللفظ عليه ، ولم لم تقولوا : انه
منسوخ • فهذا خطأ آخر وجهل لا يبيء به الا من كان مثلكم • فانه
جمع بين التأويل والنسخ • وهما متناقضان •

فان معنى التأويل : أن اللفظ المؤول معمول به على وجه ، ومعنى
النسخ : أن المنسوخ مرفوع الحكم على كل وجه ، غير معمول به
أصلاً •

فقد ظهر من الفصلين السابقين : أن هؤلاء القوم متحكمون
بأهوائهم في دين الله ، تاركون للعمل بكتاب الله ، وسنن رسل الله
« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١) « فويل لهم مما كتبت أيديهم »
« وويل لهم مما يكسبون » (٢) •

وقد نجز غرضنا من الصدر ، فلنشرع في الفن الأول الموعد •



(١) الكهف : ١٠٤ .

(٢) البقرة : ٧٩ .

شعائر الدين النصراني وطقوسه

غرضنا من هذا الفن : أن نجتمع مسائل من قواعد أديانهم ، ونبين فسادها ، وأنهم ليسوا على شيء فيها ، بل تركوا فيها نصوص التوراة والانجيل ، وعملوا بخلافها من غير حجة ، ولا دليل • ولقد كان لنا فيما قدمنا كفاية ، أوصلتنا من فضيحتهم وخزيهم الى أقصى غاية ، لكننا أردنا أن نبين خطأهم وضلالهم في أكثر قواعد دينهم ، حتى يتضح للناظر : أنهم في جميع أحوالهم وأعمالهم مبطلون ، وأنهم من كل وجه مضلون •

فنقول : اعلم أنه لو تصفح جميع ما انتحلوه من أديانهم لوجد مبنيًا على ما مثل ما تقدم من هذيانهم •

لكننا نقصر من ذلك على مسائل نباحثهم فيها • ونبين ضلالهم وتلاعيبهم في دينهم • فاذا فرغنا من هذا الغرض • ذكرنا في الفن الثاني : جملة من أحكام شريعتنا ، ونقتصر من ذلك على ما عابوه علينا منها •

وانما فعلنا ذلك ، لأن هذا السائل الذي حركنا الى تأليف هذا الكتاب : هددنا بأن قال في كتابه : « انى أبعث الى كل بلد كتابا بنص شريعتكم ، وبكل ما نعرف فيها من الأقاويل ، التى لا تقدر على انكارها » (١) فلو بصر الله هذا الجاهل المغالط بعيوبه ، لكان سترها وكتمانها أعظم مطلوبه • لكن جهل فقال ، وحيث وجب أن يسجد بال •

فنقول : يا هذا • ألنا يقعق بالشئنان ؟ آلاخذ بالحنيفية يدان ؟ كلا • والله • فليس مع الشمس سراج ، ولا شجر المرخ من المساج • وها نحن نبتدىء بالمسائل تترى ان شاء الله تعالى •

(١) انظر الفصل الرابع من الباب الثالث - القسم الاول من كتابه « الاعلام » هذا •

مسألة في المعمودية

أطبقت النصارى على اختلاف فرقهم على القول بالمعمودية •
وصفتها عندهم :

أن الذى يريد أن يدخل فى دينهم ، أو التائب منهم ، تتقدم
« الأقسمة » منه ، فيمنعونه من اللحم والخمر أياما ، ثم يعلمونه اعتقادهم
وإيمانهم • فإذا تعلم ذلك اجتمع له القسيسون ، فتكلم بعقيدة إيمانهم ،
أمامهم ، ثم يغطسونه فى ماء ، يغمره • وقد اختلفوا • هل يغطسونه
مرة واحدة أو مرتين أو ثلاثا ؟ فإذا هو خرج من ذلك الماء ، دعى
له الأسقف بالبركة ، ووضع يده على رأسه •

هكذا كانت صفة معموديتهم قديما فى « الأندلس » • وأما اليوم
فلعلمهم قد غيروا بعض أحكامها • وربما اختلفوا فى بعض تلك الأحوال •
وهى عندهم عبادة مؤكدة ، وقاعدة ممهدة • ومن لم يقبلها عندهم
فهو كافر ، وليس له من ذنوبه غفر •

وقد كتب الأسقف « ليون » الى أساقفة « صقلية » رسالة
ذكر لهم فيها أمر المعمودية ، وفضيلتها • فقال : « المعمودية : هى
اماتة الذنوب وقتلها • وتأويل الغطسات الثلاث : مكث المسيح فى
قبره ثلاثة أيام ، والخروج عن الماء هو الخروج عن القبر » •
ومنهم من تأول فى هذه الغطسات الثلاث : أنه التثليث الذى
يعتقدون •

وهذا التعميد لم يجر له فى التوراة ذكر ، ولم يشرعه الله قط
لموسى • لكن كتب النصارى فى الانجيل : أن يحيى عمده عيسى بوادى
الأردن ، فخرج منه روح القدس كالحمامة على الماء • وزعمت
النصارى أيضا : أن عيسى قال للحواريين : « إذا مررتم بالأجناس ،
فعمدوهم على اسم الآب والابن والروح القدس » وزعموا أن
« بيطر » عمده ثلاثة آلاف رجل فى يوم « نيقشتان » •

وهذه المسألة عندهم ظاهرة المستند ، قوية المعتمد • فانهم قد
اشتدوا نقلها الى الأنبياء والحواريين كما تقدم • ولكننا مع ذلك

نطالبهم فيها مطالبات تؤخذ بأنهم يرجعون الى القرهات • فنقول : سلمنا لكم جدلا ما ذكرتم من استناد المعمودية الى ما ذكرتم • لكن لم قلتم كما فعلها يحيى والحواريون نفعلها نحن ؟ ولعل الله تعالى خص يحيى والحواريين بعمل المعمودية ، ولم يشرعها لغيرهم • فان ادعوا أن الله شرعها لهم كما شرعها للحواريين طالبناهم بالنص من كتبهم الذى به يجب على من دون الحواريين التعميد ، ولا يجدون شيئا من ذلك أبدا •

ثم نقول : لعل الحواريين ، ويحيى • انما عمدوا الناس لأن ماءهم كان مقدسا ، ودعاهم متقبلا • لكون يحيى نبيا ، والحواريون كذلك عندكم • وأما أنتم فلمستم أنبياء • وليس ماؤكم مقدسا فلمستم مثلهم ، فكان ينبغى لكم ألا تعمدوا أحدا • لكنكم وضعتم لأنفسكم شرعا بالتوهم ، وزدتم فيه أمورا بالتحكم • ثم نقول : سلمنا جدلا : أن المعمودية شرع لكم • فمن أين زدتم فيها العدد ، ووضع اليد على الرأس ، والنفخ في الوجه كما فعله بعض من مضى منكم ، ولم تكفروا من لا يستعملها ؟ ولم ينزل بشيء من ذلك سلطان ، ولا حكم بذلك انجيل ولا فرقان • لولا محض التلاعب بالأديان ، والتحكم في دين الله والخذلان •

ثم نقول : هذا الماء الذى تعمدون فيه • أهو مقدس • أو غير مقدس ؟ فان كان مقدسا فمن قدسه ؟ فان قلتم : ان الله قدسه • فمن أين علمتم ذلك ؟ ثم ان قلتم ذلك عورضتم بنقيضه • وقيل لكم : بل نجسه الله • وان قلتم : نحن قدسناه • قلنا : فمن أنتم حتى تقدسوا شيئا ؟ وهل يصلح أن يقدر من ليس بمقدس ، أو يطهر من ليس بمطهر ؟ بل أنتم مذنبون ، تتزايد ذنوبكم في كل وقت وحين • فكيف تقدسون غيركم ، وأنتم لا تقدسون أنفسكم ؟ « فليت العجل يهضم نفسه » •

فحصل من هذا : أن ماءكم الذى تعمدون فيه غير مقدس • وإذا كان كذلك فلاى شرط تشترطون في المعمودية أن تكون بالماء ؟ وهل عمدتم في البول فانه ليس بنجاسة عندكم ، ولا فرق بينه وبين الماء اذ كل واحد منهما ليس بمقدس ؟

ثم نقول : زعم النصارى أجمعهم ، وكتبوا في كتبهم : أن يحيى عمده عيسى المسيح بوادى الأردن •

فنقول لهم : هل كان عيسى عليه السلام قبل أن يعمده يحيى مقدسا أم لم يكن ؟ فان قلتم : انه كان مقدسا فلا فائدة لفعل يحيى ، ولأى شيء لم ينزل عليه روح القدس قبل التعميد ؟ وأنتم تقولون : انه لما عمده نزل عليه الروح القدس مثل حمامة بيضاء . وان كان غير مقدس فكيف يكون من ليس بمقدس لها ، أو ابن إله ؟ وأنتم تزعمون بجهلكم على اختلاف أقوالكم ، انه اتحد بناسوته اللاهوت ، وهو في بطن أمه . وكيف يتحد اللاهوت بمن ليس بمقدس ؟ وهل هذا كله منكم الا هذيان ، وضرب من الخذلان . تمجبه القلوب والآذان .



مسألة في غفران الأساقفة والقسيسين ذنوب المذنبين

واختراعهم الكفارة للماصين

اعلم أن هؤلاء القوم ، وضعوا لأنفسهم قوانين ، توافقوا عليها ، وارتبطوا لها ، من غير أن يشهد بصحة تلك القوانين : شاهد من تورا ، ولا من انجيل . فمن خالفها عندهم ، سموه خارجيا ، تارة ، وكافرا ، أخرى . والخروج عن تلك القوانين هو الذنب عندهم . ثم تلك الذنوب منقسمة الى ما لا يغفرونه ، وإلى ما يغفرونه . فاذا غفروا ذنب واحد منهم ، أدخلوه الكنيسة ، وقبلوا قربانه ، وإذا لم يغفروا له ، أبعدوه عن كنائسهم وطردهوه ، وهولوا عليه ، ولم يقبلوا برهانه . ولا بد للذنب المغفور من كفارة . وتلك الكفارة ، بحسب ما يظهر لأقستهم ، ويرونه موافقا لغرضهم . فتارة يوجبون عليه خدمة الكنيسة ، وتارة لا يدخلها بل يقف عندها متذللا . وربما يبقى على ذلك أعواما عديدة . وتارة يوجبون عليه مالا . اما ملكهم ، واما لهم وكنائسهم .

ولا بد من بيان ذلك بالأمثلة على ما وجدنا في كتبهم . ولنذكر من كل مسألة مثالا لئلا يطول الكتاب . وانما أنقل الفاظهم من كتبهم لئلا يتقول متقول علينا بالباطل ، أو يظن بنا الجهل بمذهبهم ، أو ينسبوننا الى الكذب في شيء ، مما حكينا عنهم .

مثال القسم الأول : العابثون بالصبيان :

« العابثون بالصبيان لا يغفرون لهم بوجه ، ولا يعطونهم قربانا

أبدا • ولا عند وفاتهم • على هذا أجمع أساقفة « طليطلة » في ولاية
« ايفة الملك » وقالوا : دعتنا هذه الفاحشة المفتنة أن يحكم بأجمعنا :
أن كل من أتى هذه الفاحشة أن يفعل به عقاب • فإن كان راكب هذه
الفاحشة « أسقفا » فليعزل ، ويبعد ابعدا شديدا دائما • وإن كان
من غيرهم فلينكل به تكالا شديدا ، ويضرب الفاعل والمفعول : مائة
سوط ، وينفيان النفي الدائم ، ولا يعطيهم أحد من « الأقسى » توبة •
ومن أعطاها لهم ، وتقبل قربانهم عزل وأبعد ، ولم يعط هو أيضا :
توبة ، وأغرموه خمسة أرطال ذهباً للملك » ا. ه •

هذا قانونهم الأول القديم ، ولا أدري ما أحدثوه الآن • إذ الاحداث
عنهم في كل زمان •

ومثال الثاني : نكاح القربات :

وذلك أن نكاحهن حرام بنص التوراة • زعموا : « فإن نكح
رجل قرييته الى سبع بطون • فإن أصر على ذلك ، فلا يغفر له •
ولا يعطى قربانا ، وإن مات • وإن أقلع عنها حرم القربان خمسة
عشر سنة » وكلفوا أعدادا من الصلوات ، ومن العبادات ، وربما
زادوا عليه خمسا ، فكملاوا له عشرين سنة • وربما بلغه بعضهم خمسا
وعشرين • وذلك بحسب سنه عندهم • فإذا كان بعد ذلك قبلوا توبته •
وأعطوه القربان • وأما المرأة فقد أبوا أن يعطوها القربان الا عند
وفاتها •

وأما الذى يأتى البهيمة :

فإن كان له زوجة لم يعط القربان الا بعد ثلاثين سنة ، وإن لم
تكن له زوجة فبعد خمس وعشرين سنة •

ومثال ما يغرمون فيه الأموال :

من تزوج من غير بركة « القسيس » فإنه يغرم للملك مائة
دينار ، ويضرب الزوجان مائة سوط ، مائة سوط •

وقد حكموا على قاتل عبده : بحرمان القربان سنتين ، وعلى قاتل
العمد غير عبد ، بحرمان القربان ، وبخضوعه عند الكنيسة الى آخر
وفاته •

وأما قاتل الخطأ • فتانونهم الأول : يقضى بأن يحرم القربان سبع سنين ، والقانون الثانى : يقضى بأن يحرم خمس سنين •

وعلى الجملة : فمذياناتهم ، وتحكماتهم أكثر من أن تحصى • ومن اطلع على كتب فقهم ، رأى فيها غرائب وعجائب • ومقصودنا التهليل • وقد حصل والحمد لله • فنقول :

من وقف على هذه المواضع وأمثالها لم يشك فى أن القوم يصنعون أحكاما ، ويخترعونها ، ويلتزمونها • ولسنا ننكر : أن الشرائع لو جاءت بمثل هذه الكفارات والتحكمات لقبلائها والتمناها •

وانما ننكر عليهم : أن يجعلوا أنفسهم شارعين ، وينزلوا أنفسهم منزلة رب العالمين • فانه انما ينبغى الحكم والتحكم له • اذ له أن يفعل ما يريد ، ويحكم ما يشاء فى العبيد • وأما الأنبياء فلا يحكمون من عند أنفسهم • وانما يبلغون أحكام الله • ثم أعجب من ذلك جرأتهم على الله ، واستهزاؤهم بكتاب الله • فان هذه الذنوب التى قدمت ذكرها ، قد شرع الله أحكامها فى التوراة نصوصا ، وبين حدودها ، فجعل فى أكثر تلك المواضع : القتل ، ولم يحكم فيها بشيء مما اخترعوه ، وليس فى انجيلهم أيضا من هذه الأحكام شيء • وعند هذا تبين : أنهم خالفوا كتب الله ، وتركوا سنة رسل الله ، وتحكموا فى ذلك بأهوائهم ، وتركوا سنن أنبيائهم فحققت عليهم لعنة الله أبد الأبدى ، وغضبه الى يوم الدين •

فان قالوا : تلك الأحكام التى فى التوراة منسوخة بكتابنا ، وعلى لسان مسيحنا • قلنا لهم : « هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (١) بل نقول : ان عيسى عليه السلام جاء متمما لأحكام التوراة ، ولم يجرى مغيرا لأحكامها ، ولا ناقضا لها • وكذلك نقلتم فى انجيلكم ان عيسى قال : « انما جئت متمما ، ولم آت لأنقض شريعة من قبلى » (٢) •

وهذا خلاف ما تدعونه من النسخ ، بل يقتضى هذا بحكم ظاهره : أنه لا ينسخ شريعة من قبله ، وانما يوضحها ، ويحيى ما أميت منها • ثم لا يبعد أن يكون قد نسخ بعض أحكام التوراة ، وغاية ما يوجد

له من النسخ قوله : « وقيل^(١) : من فارق امرأته فليكتب لها كتاب طلاق • وأنا أقول : من فارق امرأته منكم ، فقد جعل لها سبيلا الى الزنا • ومن تزوج مطلقة فهو فاسق » •

ثم قال : « بلغكم أنه قيل : العين بالعين ، والسن بالسن • وأنا أقول لكم : لا تكافئوا أحدا بسيئة • ولكن من لطم خدك الأيمن ، فأعطه الآخر • ومن أراد نزع قميصك فزده ردائك »^(٢) •

فمثل هذا يمكن أن يقال فيه : انه نسخ^(٣) • وإذا بحث عن كتابكم كما يجب لم يوجد فيه نص من هذا على النسخ • فمن ادعى منكم أن شيئا مما ذكر في التوراة تحريمه منسوخ ، فليأت بناسخ يشبه هذا القول • فان لم تأتوا بشيء من ذلك ، دل على أنكم متحكمون هناك •

(مطالبة) وهى أنا نقول لهم : لآى معنى حرمتكم من نكح قريبته خمسا وعشرين سنة من القربان وحرمتهم من نكح بهيمة ثلاثين سنة ؟ ولو عكستم ذلك كان أشبه ، فان نكاح الآدمية القريبة أشنع من حيث انها محرمة ، من نكاح بهيمة لا احترام لها • وكذلك نعكس عليهم كل ما ذكروه ، حتى يتبين فساد قولهم •

ونقول لهم أيضا : لآى معنى لم تجعلوا مكان الثلاثين : ثمانية وعشرين ، أو اثنين وثلاثين ؟ ولآى معنى خصصتم هذا العدد دون غيره ؟ وعند هذا يتبين بطلان تحكمهم ، وفساد رأيهم • وكذلك نقول : لآى معنى شرعتم فى العايب : مائة سوط • ولم تشرعوه فيمن نكح قريبته ؟ مع أن التوراة قد أمرت بقتل كل واحد منهما • فكان ينبغي أن تسووا فى الحكم بينهما • فاما أن تضربوا كل واحد منهما مائة سوط ، أو لا تضربوهما • فظهر من هذا أنكم تركتم حكم التوراة ، ثم لم تعدلوا فيما تحكمتم به ، ثم من أعظم تواقحكم ، أنكم سهلتم

(١) وقيل : أى للقديس • وكلمة « فاسق » فى النص بدلها « زان »

والنص فى انجيل متى : ٥ : ٣١ - ٣٢

(٢) انجيل متى : ٥ : ٣٨ - ٤٠

(٣) ليس هذا من قبيل النسخ • وإنما المسيح يقصد النصيح والارشاد •

دليل أنه أكد أكثر من مرة على عدم نسخه شريعة موسى • ومن قوله : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون • فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه » (متى : ٢٣ : ٢ - ٣) •

الفواحش على أنفسكم ، وصعبتموها على غيركم فحكمتم على « الأسقف » الذي يعبث بصبي بأن يبعد فقط ، وعلى غيرهم بأن يبعدوا ، وينكلوا ، ويجلدوا ، اذا فعلوا تلك الفاحشة ، ولو عكستم ذلك لكان أشبه • فان التغليظ على « الأقسى » مناسب لحالهم • فان المعاصي تقبح في حقهم ، أكثر مما تقبح في حق غيرهم • فان من كلام النبوة : « ان من أشد الناس عذابا : عالم ، لم ينفعه الله بعلمه » ومن كلام الحكماء : « حسنات الأبرار ، سيئات المقربين » ثم هذا المعنى معلوم من عادة الملوك ، فانهم يعاقبون وزراءهم والوقافين على رؤوسهم ، ويؤاخذونهم ، على أمور لا يحسن منهم أن يؤاخذوا بها سائس الدواب • بل لكل مقام مقال • ولكل عمل رجال • وكيف لا تقبح المعاصي في حق « الأقسى » و « الأساقفة » وهم قد نزلوا أنفسهم منزلة الأنبياء ؟ حيث شرعوا الشرائع ، وتحكموا بوضعها ، بل تنزلوا منزلة المكلف الغافر ، الذي له الخلق والأمر •

فانهم قد قالوا للعوام : ان غفراننا لكم غفران الله • وحرماننا لكم : حرمان الله • فاذا أعطينا نحن القربان ، فقد قبله الله • واذا لم نعطه لم يقبله الله • واذا غفرنا نحن الذنب ، فقد غفره الله • فان غرهم الشيطان — وقد فعل — بأن تقولوا : ان لنا لأجل القسيسية منزلة وحظوة ، فاتركوا العمل بشريعتكم لأجل مالكم عند الله من الفضل ، ولا تحرموا على أنفسكم شيئا من الفواحش • وقد سمعنا هذا النوع عن بعض « أقسة أرغون » فعليهم لعنة الله ، ولعنة اللاعنين • ثم نقول لهم : يا معشر الأساقفة الجاهلين ، والقسيسين المتحكمين : من أنتم حتى تكونوا شارعين ؟ أنتم عقاب رب العالمين ؟ أحصلتم على رضاه أجمعين ؟ بل ينبغي أن تتحققوا : أنكم في العذاب خالدون ، حيث كفرتم برسالة سيد المرسلين مع ما دلت عليها من الشواهد والبراهين • فلقد صدق الله ، وهو أصدق القائلين ، حيث قال مخبرا عن الأحيار والقسيسين : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما ، واليه المصير » (١) •

* * *

مسألة في الصلوية وقولهم فيها

لا خلاف عند النصارى : أن انكار صلب المسيح : كفر • ومن شك فيه فهو كافر • وأنا الآن أذكر كلامهم في « الصلوية » وفي معناها عندهم :

قالوا : « الكلمة هو الله • وهو مخلوق من طريق الجسم ، وخالق من طريق النفس ، وهو خلق جسمه ، وهو خلق أمه • وأمّه كانت من قبله ، بالناسوت • وهو كان من قبلها ، باللاهوت • وهو الاله التام ، وهو الانسان التام ، ومن تمام رحمته على الناس : أنه رضى بهرق دمه عنهم ، في خشبة الصليب • فمكن اليهود أعداءه من نفسه ، ليتم سخطه عليهم • فأخذوه وصلبوه ، وغار دمه في اضبعه • لأنه لو وقع شيء من دمه على الأرض لبيست ، الا ثبىء وقع فيها فنبت في موضعه النوار •

لأنه لما لم يمكن في الحكمة الأزلية أن ينتقم الله من عبده العاصي آدم ، الذي ظلمه ، واستهان بحقه ، فلم يرد الله الانتقام منه ، لاعتلاء بمنزلة السيد ، وسقوط منزلة العبد • أراد أن ينتصف من الانسان الذى هو اله مثله • فانتصف من خطيئة آدم بصلب عيسى المسيح ، الذى هو اله ، متساو معه ، فصلب ابن الله ، الذى هو الله ، في الساعة التاسعة من يوم الجمعة » ا. ه •

هذا نص كلامهم من غير زيادة ولا نقصان •

وقال « بليون • الجاثليق » في رسالته لليون الملك كبول : « أسرتنا ، لا يمكن أن تحل ، الا بأن يطلع انسان من جنسنا ، وطبيعتنا ، من لا تنسبطه معصية الذنب ، على ضد آدم • ومن بدمه الطاهر ، تمحو أزلات الريق المهلك ، الذى كان حقه الله ، وقضى به منذ البدء ، فتم ذلك الشغل عند انقضاء الزمان المحدود • وذلك ليتم الوعد الموعود » ا. ه •

مفهوم هذا الكلام : أن ذنب آدم كان في رقاب بنييه ، الى أن قتل عيسى ، وانتقم منه ، لأجل آدم ، وحينئذ عفى عن آدم وبنييه • لهذه الحكمة كانت صلوية المسيح عندهم •• يا معشر العقلاء انظروا بعين الاعتبار جهل هؤلاء الأغمار ، وجراأتهم على العزيز

الجبار • وقولهم بالشتيمة في الأنبياء الأخيار ، فلقد ارتكبوا من المحالات ، وقالوا من الأكاذيب والترهات ما لم يقله أحد من المخلوقات • ثم لم يكتفوا بهذه العظائم ، حتى أضافوا لله ، ولأنبيائه أعظم النقائص والشوائب • فله سر في أبعاد بعض العباد « ومن يضل الله فما له من هاد » (١) •

فهؤلاء كما قال الله العظيم في كتابه الكريم : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » (٢) •

واعلم أنا لو تتبعنا تناقض هذا الكلام ، وأوردنا الالزامات عليه لكتبنا في هذه المسألة وحدها سبجرا • على أن العقلاء يعلمون فساد هذا المذهب بالضرورة عند مجرد الوقوف عليه • ولذلك لم يصر إلى نحو هذا المذهب السخيف ، والقول القبيح أحد من الأمم ، لا من العرب ولا من العجم ، لا في الحديث ولا في القدم • وإنما صار إليه هؤلاء النصارى الجهال ، لكونهم ليسوا من العقال ، بل حظهم من العقل حظ المجانين والأطفال ، فكلامهم أشبه شيء بكلام الموسوسين ، والمختلطين المبرسمين •

ولقد كان يقتضى ما يعلم من حالهم ، الكف عن مناظرتهم وجدالهم • لكن سكوت النبيه ، ربما كان داعية لتطاول السفية • وقد تقدم هذا الاعتذار عن هذا في أول الكتاب • ولكن مع هذا لابد للمجانين من العزائم ، وتعليق الأجراس والنمائم • فلنورد عليهم من الالزامات ، ما يبطل تلك الترهات ، ويبين تلك الأكذوبات ، فنقول :

قد ذكرنا فيما تقدم : أن أمر الصلوية • إنما شرعها لهم « قسطنطين بن هيلانة » الملك • وهو الذى سننها ، وكتبها لهم في الانجيل ، ليوغر صدور عامته ورعيته على اليهود ، وأنه احتال عليهم بالرؤية التى اخترعها ، فتم له مراده منهم • ولم يكن عنده من أمر عيسى الا خبر جملى •

ثم اختلق لهم في شأنه أمورا تفصيلية هى محال في نفسها ، لكنها مهولة على العامة الرعاع • كقولهم في الالتحام ، وفي لاهوت المسيح بن

« لم يدركه ألم الصليب والاهانة • وانما أدرك ذلك لحمته » وكاطلاق لفظ الطبيعتين على لاهوته وناسوته • الى ما عندهم من الهذيانات المتى هي محال بالضرورات •

وقد قدمنا في ذلك ، ما يغنى عن اعادته •

واعلم أن النصارى يدعون : أن اليهود قتل المسيح عيسى يقينا • وأن اليهود يدعون : أنهم قتلوا رجلا ادعى نسخ التوراة ، بعد أن ادعى النبوة ، ولم يقم عليها شاهدا •

ونحن ندعى : أن عيسى ابن مريم عليه السلام لم يقتله اليهود ، ولا غيرهم • بل رفعه الله اليه ، من غير قتل ، ولا موت • ونحن نبين : أن الفريقين في شك منه ، وغير عالمين بشيء مما يدعونه في صلبه • فنقول :

ان مستند النصارى في قولهم بالصلب : انما هو الانجيل • وقد بينا فيما تقدم : أنه قابل للتحريف والتبديل • وقد أرينا فيه التناقض والتحريف عيانا • وأوضحنا على ذلك برهانا • مع ما قدمنا من أن نقله ليس نقلا متواترا يفيد العلم • بل انما نقله من باب أخبار الآحاد ، التى لا يحصل بها العلم • وهذا يكفى ، مع أنهم ليسوا عالمين بشيء مما يتضمنه • ولو سلمنا أنه متواتر ، يحصل بنقله العلم • لقلنا : ان الأخبار التى فيه ، التى تتضمن الصلب لا تنص نصية قاطعة للشك : على أن المصلوب هو المسيح بعينه • بل هي محتملة • لأن المصلوب غيره ، ولم تتفطن النصارى بخباوتهم ، لوجوه الاحتمال • ونحن نسرد نصوصهم في أنجيلهم ، ونبين ذلك ، ووجه الاحتمالات فيها ، ان شاء الله مستعينين به ، ومتوكلين عليه •

قال « متاؤوش » في انجيله :

« وقف على المسيح يهوذا ، أحد الاثنى عشر • ومعه جماعة برماج وعصى • وكان معهم قواد القسيسين ، وأكابر بنى اسرائيل • وكان يهوذا قد قال لأولئك الأعوان : من قبضته ، من الجماعة ، فهو

المراد ، فاحبسوه • وفى ذلك الوقت ، دنا يهوذا الى : ياشوا (١) •
وقال : السلام عليك يا معلم • فقال له ياشوا : يا صديق لم
أقبلت هنا • فعند ذلك تعلقت الجماعة به وحبسته (٢) •

زاد « ماركس » :

« أنه لما قبضوا عليه ، تخلى عنه التلاميذ ، وهربوا • فاتبه
شاب عريانا ، وهو ملتقى رداءه • فقبضوا عليه ، فأسلم لهم الرداء ،
ونجا عريانا » (٣) •

زاد « لوقا » :

« أن بلاط (٤) • لما أخبر أنه « جلجالي » وعلم أنه من طاعة
هيرودس بعثه اليه » (٥) •

زاد فى انجيل « يوحنا » :

أن ياشوا • تقدم لجماعة وقال لهم : « من تريدون ؟ فقالوا له :
ياشوا الناذرى • فقال لهم ياشوا : أنا هو • وكان يهوذا المدل عليه
معهم ، واقفا • فلما قال لهم : أنا هو • قهقروا الى خلف ، فتساقطوا
فى الأرض • ثم دنا منهم • وقال لهم : من تريدون ؟ فقالوا له :
ياشوا الناذرى • فقال لهم ياشوا : قد قلت لكم : انى أنا هو •
فان كنتم انما تريدوننى أنا • فأطلقوا سبيل هؤلاء » (٦) •

وذكر « متى » :

« أن يهوذا الدال عليه ، لما أبصر ما فعل به : ندم ، ورد الثلاثين
درهما على قواد القسيسين • وقال : أخطأت اذ سلمت دما صالحا •
فقالوا له : ما علينا • أنت ترى • فألقى الدراهم فى البيت • وتوجه
الى موضع خفق فيه نفسه » (٧) •

(١) ياشوا : بجلها فى التراجم الحديثة : يسوع ، ويسوع قديما •
يهوشوا •

(٢) متى : ٢٦ : ٤٧ — ٥٠ (٣) مرقس : ١٤ : ٤٦ •

(٤) بلاط فى التراجم الحديثة : بيلاطس

(٥) لوقا : ٢٣ : ٧ (٦) يوحنا : ١٨ : ٤ — ٨ •

(٧) متى : ٢٧ : ٤ — ٥ •

هذه نصوص أناجيلهم ، ومستند اعتقاداتهم ، ليس شيء منها يدل دلالة قاطعة على أن المصلوب هو المسيح بعينه • بل إذا اعتبر العاقل تلك الحكايات المذكورات ، ولفق متلفقها ، وحقق النظر فيها • تفتن لموضع الاشكال ، وتنبه لثار الشك فيها والاحتمال •

ونحن نبين ذلك بغون الله فنقول : ما سودناه من أناجيلهم فيه احتمالات :

منها : أن يهوذا كذب لليهود في قوله : « هو ذا » فان اليهود كانت لا تعرفه ، ولم تأخذه الا بشهادته : أنه هو • ألا ترى أن يهوذا عرفهم اياه بالعلامة •

وكذلك يدل على ذلك سؤالهم عنه • وكذلك سؤال « بلاط » عن بلده حين أخبر أنه من « جلجال » يدل على أنه كان لا يعرفه •

فهذا كله يدل على أنهم كانوا لا يعرفونه • وانما جولوا في تعيينه لهم على يهوذا • فاذا ثبت ذلك فيحتمل أن يكون « يهوذا » انما أشار الى غيره • لأنه كان ندم على بيعه ، كما تقدم نصه في كتبكم •

ويدل على أنه تاب من ذلك ، وندم عليه ، وحسنت توبته • قول عيسى له فيما زعمتم ، حين سلم عليه : « يا صديق لم أقبلت ؟ » ولو كان مصرا على الدل عليه ، وعلى ما كان هم به • لما كان يحل لعيسى أن يقول له : « يا صديق » فانه كان يكون كافرا • ولا يمكن أن يقول للكافر « يا صديق » فانه كذب • لأن الكافر عدو • فيلزم هنا أحد ثلاثة أمور :

أما أن يكون يهوذا تاب في ذلك الوقت وندم على ما فرط منه • فعفى عنه • وتوبته لا تصح في تلك الحال ، أعني حال الدلالة عليه ، الا بأن يعدل عنه ، ولا يدل عليه • وكذلك فعل • والله أعلم •

أو يكون عيسى كاذبا فيما قال له ، حيث أخبر أنه صديق • وعيسى عليه السلام منزّه عن الكذب •

أو يكون كتابكم باطلا ، ومحرفا •

فاختاروا من هذه الثلاث واحدة • وأي شيء التزمتم منها ، فهي مبطلّة لقولكم ، وفاسدة •

ويدل على حسن توبته وصدقها : أنه رمى بالدراهم ، واعترف بالخطية ، وقتل نفسه • وهذا يدل على غاية الصدق في الندم •

ومقصود هذا الكلام : أن يهوذا : ندم ، ولا بد ، على ما فرط منه • فيحتمل أن يكون دل على غيره من أصحابه • وأن ذلك الغير ، رضى بأن يقتل مكان المسيح ، فتعرض بنفسه لليهود ، فأخذوه ، ورفع عيسى مكانه الى السماء ، كما رفع « أخنوخ » النبي — وهو « ادريس » عليه السلام — وهذا كما تقولون أنتم : انه لما صلب وحيى اجتمع بأصحابه بجلجال ، ثم رفع الى السماء (١) •

فقد توافقنا على الرفع • وأنتم تقولون انه بعد الصلب والصفع والاهانة ، ونحن نجله ونكرمه عن ذلك • ونقول : انه رفع من غير صلب واهانة • بل صانه الله من أن يظفر به عدوا • وأكرمه حتى أحله مكانا عليا • ولو كنتم عقلاء لجحدتم أمر الصلوبة ، ولم تعترفوا بها ، ولقبلتم قولنا فيها • ولو فعلتم ذلك لكان أليق بكم ، وأستر لجهلكم • فانكم تريدون أن تجمعوا بين نقيضين حيث حكمتكم عليه بأمرين محالين : الهية ، وصلوبة • •

ومنها : أنه يحتمل أن يكون المسيح في الجماعة الذين أطلق الأعوان سبيلهم • وكان المتكلم معهم غيره • ممن يريد أن يبيع نفسه من الله • ويقتل المسيح به •

فقال ذلك المتكلم : أنا المسيح • فحبسوه ، وخلوا سبيل غيره • فانفلت المسيح في جملتهم • ويقوى هذا الاحتمال : أن يهوذا كان واقفا ناحية • ولم ينبه عليه ، لكونه كان نادما ، لما قد تبين • وبعد ذلك رفع •

ومنها : أن أولئك الأعوان أخذوا عليه رشوة ، فأطلقوه • وعلى هذا يدل حديث رداء الشاب • حيث قال « ماركش » : « ان الشاب أسلم اليهم : الرداء » ، لما تقبضوا عليه (٢) وإذا جاز أن يأخذ « يهوذا الاشكريوث » (٣) وهو حواريه على قتلة ثلاثين درهما • جاز أن يأخذ الأعوان على اطلاقه : رداء •

(٢) انجيل مرقس : ١٤ : ٥١ - ٥٢

(١) آخر انجيل لوقا •

(٣) ترجمتها : « يهوذا الاسخريوطي » •

ومنها : أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى رفع المسيح الى السماء ، وصور لهم شيطانا أو غيره بصورة تشبه صورته ، فاعتقدوا أنه هو فصلبوه • وإلى هذا يشير سكوته ، حيث سألوه فسكت ، ولم يجابوهم وفي الوقت الذى تكلم لهم نزلت تلك الصورة نفسها منزلته • وهذا كله ممكن ، لا يدفعه عقل ، فان الله على كل شيء قدير • ولا يدفعه أيضا نقل •

فان كل ما نقلتموه ليس نصا قاطعا • ولا نقلنا نقلا متواترا ، فحصل من هذا : أنكم غير عالمين بصلبه ولا موقنين بقتله •

وأما اليهود فليسوا أيضا عالمين بشيء من ذلك اذ لا يصدقون كتابكم • وليس عندهم نقل متواتر بذلك ، على التفصيل ، وغايتهم : أن يعتقدوا على الجملة : أن رجلا كان فيما مضى غير بعض أحكام التوراة ، فشهد عليه بذلك • فقتل • وكتابكم يدل على أنهم انما قتلوا رجلا شهد لهم فيه « يهوذا الاشكريوث » أنه : المسيح ، الذى ادعى أنه « ابن الله » فحصل من هذا : أن اليهود فى شك منه ، وأنكم أنتم على غير علم به • وهكذا قال كتاب الله ، الناطق على لسان رسوله الصادق : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه ، لفى شك منه ، ما لهم به من علم ، إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا • بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما » (١) •

وحين بينا أنهم فى شك من الصلوية ، ينبغى أن نتبع بالنقض كلامهم المتقدم • فنقول :

أما قولهم : « من رحمته على الناس أنه رضى بهرق دمه عنهم فى خشبة الصلب » فتواقع لا يفوه به من له من الحياء أقل نصيب • يا عجبا • كيف يجترئ أن ينطق بهذه القبائح عاقل ؟ أم كيف يرضى لنفسه بمثل هذه المخازى فاضل ؟ وهلا كان يرحم عباده بأن يغفر لأبيهم (٢) • ولا يحتاج الى هذا كله ؟ أو ليس كان يكون غفران الذنب أهون عليه ابتداء ، وأليق بالحكمة والرحمة والرأفة من أن يعاقب من لم يجن ؟ ثم ذلك المعاقب الذى لم يجن الذنب أبته ، بل هو عندهم

(١) النساء : ١٥٧ ، ١٥٨

(٢) يقصد بأبيهم : آدم عليه السلام •

نفسه ، باعتبار ما حل فيه منه • فلم يرض من عقوبة الذنب الذي جناه آدم ، حتى عاقب نفسه • أو ابنه • فأنتم في هذا القول الوقاح ، والافك الصراح ، بمنزلة رجل أخطأ عليه عبده ، فبقى بعد مدة غاضباً عليه ، وعلى غيره من عبيده • ناوياً على معاقبتهم ، حتى ولد لنفسه ولد فعمد إليه فقتله ، بذنب العبد ، الذي كان أذنّب ، ثم لم يقنع بذلك حتى ضرب نفسه ، ولامها وأهانها ، على ما صنع عبده ، مع انه قد كان متمكناً من أن يغفر لعبده ، ولا يفعل هذا بولده ، ولا بنفسه • فأى تشف يحصل له مما فعل ؟ بل يحصل له كل ألم ونقص ، وخلل • مثل السفينة الأحرق الجاهل ، بل يزيده ذلك في كربته ، ويدعو الى دوام حزنه وحسرتة •

ويلزمكم على ذلك : أن يكون الله تعالى لم يتب على آدم عليه السلام • الا بعد أن صلب المسيح • وبذلك تكذيب كتب الأنبياء فانها تقتضى : أن آدم بكى على خطيته ، ودعا الله تعالى حتى تاب عليه ، واجتباه • ويلزمكم أيضاً عليه : أن يكون نوح وإبراهيم وموسى ، وما بينهم من النبيين عصاة بذنب آدم ، حتى صلب عيسى • وحينئذ غفر لهم •

وقد صرح بعض « أقستكم » لعنه الله : « أن آدم وجميع ولده الى زمان عيسى كانوا كلهم ثاويين في الجحيم بخطيئة أبيهم ، حتى فداهم عيسى بهرق دمه في الخشبة • فلما صلب نزل جهنم ، وأخرج منها جميعهم الا يهوذا الأشكريوث • »

فانظر • هل يستجري مجنون موسوس على أن يقول : أن نوحاً وإبراهيم الخليل وموسى الكليم • ومن بينهم من النبيين مثل يعقوب واسحق وغيرهما من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، كلهم في نار الجحيم ، والعذاب الأليم ، وفي السخط العظيم • حتى صلب الاله نفسه وابنه •

فانظر • هل سب الأنبياء بأقبح من هذه الشتائم ؟ أو هل تجرأ أحد قط أن يقول على الله ، وعلى رسله مثل هذه العظائم • فسبحان الحليم الذي يمهلكم ، والكريم الذي يرزقكم • ولكن انما يعجل من يخاف الفوت ، أو يجزع من الموت • « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » (١) •

ثم يلزمكم عليه أيضا • نسبة الله ، الى الجور ، والى أنه يأخذ بالذنب غير فاعله ، ويعاقب على الزور غير قائله • وهذا يهون عليكم • اذ ليس للاله قدر عندكم • اذ قد صرحتم : بأن آدم ظلمه ، وأنه لا يمكن أن ينتقم من ظلمه ، واستهان بقدره •

فياليت شعري • لاي شيء لم يمكنه أن ينتقم من عبده العاجز عن ذلك • أم لأنه لا يقدر على عقاب أحد ممن هنالك ؟ أم بحكمة أنه يعاقب غير الجاني ؟ أم لحكمة قتل ولده في جناية عبده ؟

قاتلكم الله • ما أسخف عقولكم ، وما أرك فروعكم وأصولكم • ثم أعجب من ذلك : انهم يقولون : « الكلمة هي : الله • والله : هو المسيح » ثم يقولون : « انه لم يمكنه أن ينتقم من عبده العاصي الذي ظلمه ، وانما انتقم من اله مثله » •

فانظر • الى هذا التناقض الشنيع • كيف يعتقدونه تارة : أنه هو • فيلزم عليه أنه هو المنتقم ، والمنتقم منه ، والمعاقب ، والمعاقب (١) • وتارة يعتقدون : أن الالهانة والصلب ، لم يحل بلاهوته ، بل حل بناسوته •

وناسوته ليس باله • فيلزم على هذا القول الآخر : أنه لم ينتقم من اله مثله • وكيف ما كان • فالتناقض لهم لازم والمحال •

وهكذا يفعل الله بالجهال أهل الضلال • ثم انظر سخف جرأتهم على الكذب • وقولهم بالمحال من غير سبب • حيث قال : « فأخذوه وصلبوه • فغار دمه في اصبعه » وهذا لم يرد منه شيء في كتبهم • بل هو من كذبهم واختراعهم •

ولو كان هذا حقا لكان أولى بالنقل من نقلهم : جعل الصليب على عنقه • وأنه رفع اليه : اناء خل ، ليشر به • وكتب على خشبته بالرومية والعبرانية والعجمية : « هذا ملك اليهود » (٢) فهذا ، ولا بد كذب وتواضع • فان كابروا في ذلك على عادتهم • قلنا لهم : فأتوا بالانجيل فأتلوه ان كنتم صادقين •

ثم انظر كيف تناقض ذلك المتكلم على الفور في قوله : « لأنه

(١) المعاقب : الاولى بكسر القاف ، والثانية بفتحها •

(٢) انجيل مرقس : ١٥ : ٢٦ •

لو وقع شيء من دمه على الأرض ليبست « ثم انه اثر ذلك قال :
 « الا شيء وقع فيها نبت منه النواز » فكيف يصح في عقل مجنون •
 فأحرى في عقل عاقل أن يتكلم بمثل هذا الهذيان أو يستحل أن يتحرك
 له بذلك لسان ؟ فانه يكذب فاسم متناقض • فلعمري لو أن شيطانا يقتول
 على السنقوم ، وهو يريد الاضحاك بهم • ما بلغ منهم بأكثر مما بلغوا
 من أنفسهم بهذا القول السفساف ، الذي اتفق العقلاء على فساده
 واستحالة من غير خلاف •
 ولقد أحسن بعض عقلاء الشعراء في افحام هؤلاء الأغبياء •
 فقال :

عجبي للمسيح بين النصارى
 والى أى والد نسبوه
 أسلموه الى اليهود ، وقالوا :
 انهم بعد قتله • صلبوه
 فاذا كان ما تقولون حقا
 وصحيحا • فأين كان أبوه ؟
 حين حل ابنه ، رهين الأعداء
 أتراهم قد رضوه ؟ أم أغضبوه ؟
 فلئن كان راضيا بأذاهم
 فاحمدوهم • لأنهم عذبوه
 واذا كان سخطا فاتركوه
 واعبدوهم • لأنهم غلبوه
 فقد جعلتم أنفسكم ضحكة العقلاء ، حيث ارتكبتم كل قبيحة
 شنعاء • وما بالناس طول الكلام مع من تبين عارهم ومخالصهم للظلم
 والعام • فقدروا هؤلاء القوم عند العقلاء ، أحقر من قلامة ، في قمامة •
 وأخس من بقعة ، في حقة • ولولا أن هذيانهم ومخالصهم طبق الوجود •
 لما كان ينبغي أن يتكلم معهم من العقلاء فوجود • فإن الكلام معهم
 فخل بالعقول ، محوج لحكاية القبائح والفضول •
 وقد قدمت في صدر الكتاب ما يمهّد العذر ، ويزيل العتاب • وأنا
 استغفر الله العظيم ، الذى لا اله الا هو الحى القيوم • وأسأله التوبة
 من حكاية قبائحهم ، وأسأله جزيل الأجر ، فى ابداء فضائلكم •

مسألة في تركهم الختان

لا خلاف بينهم أن عيسى عليه السلام كان مختونا . وأن الختان من أحكام التوراة . وثابت فيها . وإن أنكر ذلك متواقع جاهل . ذكرناه له نص التوراة .

قال في التوراة : « إذا حبلت امرأة ، وولدت ذكرا ، تكون نجسة سبعة أيام ، كما تكون أيام حيضتها وفي اليوم الثامن يختن الصبي . ونكون نجسة ، تجلس مكانها ثلاثة وثلاثين يوما » (١) وهذا نص لا اشكال فيه . ثم إن النصارى بتحكمهم واستهانتهم بالشرائع : تركوا العمل بذلك من غير أصل يعتمدون عليه ، ولا نسخ . يثبت عندهم له . ومن ادعى منهم شيئا من ذلك طالبناه بنص من الانجيل ، وليس لذلك من سبيل غير التحكم بالقول والقيـل .

وقد وجدت في كتبهم الفقهية : أنهم قالوا في تأويل حكم الختان ، هولا أتوا فيه على التوراة بالباطل والبهتان . قالوا : « إنما عني بالختان : نقاوة القلوب ، وصفاء النية ، وذهاب الغلوفة . كالذى يقول الكتاب عن اليهود : « إن رقابهم قاسية ، وقلوبهم غلف » ولذلك علمنا أن الله استقدر غلوفة القلب ، وليس غلوفة اللحم . فما على الانسان أن يختن لحمه ، إذ لا منفعة له في ذلك . فمن شاء اختتن ، ومن شاء ترك . والأحسن أن تترك الأجساد قامة ، غير ناقصة كما بها خلقنا الله عز وجل » أ . هـ

هذا نص كلامهم ، في كتبهم . فانظر أيها العاقل ان كنت متصفا ، بما الذى ارتكبه من العظائم ، ونسبوه الى الله ورسله من الشوائب . فاولها : أنهم كذبوا على الله ، حيث قالوا : « إنما أراد الله بهذا الحكم إزالة غلوفية القلوب » ولو كان ذلك حقا ، لبينه موسى للناس ، ولما جاءهم بالختان ، ولما فعله ، ولما فعل بيحيى ، وعيسى ، وسائر الأنبياء ، الذين حكموا بالتوراة ، ولم يزالوا يختتنون ، ويأمرون بالختان الى زمان المسيح . ثم إن المسيح لم ينه عنه ، ولا أمر بتركه ، فهذا على الله ورسله ، كذب صراح ، وقول وقاح .

وثانيها : انهم سفهوا احكام الله ، ورسل الله ، حيث قالوا :
« لا منفعة في ذلك » ، مع أن الله قد حكم به وشرعه وبلغ ذلك أنبياءه
ورسله ، وعلموه الناس . فكيف يجوز على الله ، وعلى أنبيائه أن
يتعبدوا الناس بحكم ، لا فائدة له ، لا في الدنيا ولا في الآخرة .
لهذا غاية الافتراء على الله ، وعلى رسله . ثم يلزمهم على ذلك أن
يكونوا عابثين في أفعالهم وأن وجود الشرائع وعدمها بمثابة واحدة ،
وكذلك ارسال الرسل ، وانزال الكتب ، ولا كفر أعظم من هذا .

ثم انا نبدي فوائد الختان ، حتى يظهر كذبهم وجهلهم وتواقصهم
لكل انسان . ونقول : في الختان فوائد كثيرة . منها :

أولا : أنها عبادة في بدن الانسان ، اذا فعلها أثيب ، وان تركها
عوقب — على القول بوجوبه — ، ولا فائدة أعظم من هذا .

وثانيا : أنه لا يتأتى مع وجود الغلفة ، معالجة في النظافة ، ومع
روالها يتأتى ذلك .

وثالثا : أنه ألد في الجماع ، وأسرع لمجيء شهوة الوقاع . ومع
وجودها يكون أبعد للشهوة . وقد تكون الغرلة ، اذا طالت مكسلة عن
الانزال .

ورابعا : أن خروج الماء الدافق من غير غلفة ، وانزعاجه أشد .
فان الغلفة اذا طالت ربما نقصت من انزعاجه وفترته . واذا كان
كذلك ، وخرج الماء فاترا ، قد لا يقع في المحل الذي ينعقد فيه النطفة
فلا ينعقد الولد ويكون هذا كالعزل . ومقصود الشرع في الغالب : تكثير
النسل .

فهذه أربع فوائد محققة ، لا يتصور انكارها . وقد لا يبعد أن يقصد
الشرع جميعها أو بعضها . فاذن قد تبين : أن النصاري كذبوا على الله ،
وجعلوا شرع الله .

وثالثها : أنهم تركوا حكم الله بالتوهم . بل بالهوى والتحكم .
وتأولوا من غير حاجة للتأويل ، ورفعوا النص والتنزيل ، فهم أهل
التحريف والتبديل . ثم العجب من كذبهم ، وظهور تناقضهم حيث حكوا
عن عيسى أنه قال : « لم آت لأنقض شريعة من قبلي » . وانما أتيت

لأتعميا» (١) فان كان هذا القول حقا عندهم • فلأى نبي • نقضوا شريعة
من قبله حرفا حرفا • وان كان كذبا فكيفك بذلك فسادا وخلفا •
ورابعها : انهم لما نقضوا حكم الله • فضلوا بحكمهم وأهواؤهم
على شرع رسول الله • حيث قال : « رالأحسن أن تترك الأجسام تامة
بغير ناقصة » وهذه هيالفة في تسفيب موسى والنبيين • وفي تسفيب
المسيح • فانهم قد تركوا الأحسن • وفعلوا الأسوأ • والأفسد •
فاعتبر أهوالهم • فما أعجبها • وجبالاتهم فما أغربها • مذمومون •
وهم يتوهمون أنهم يمدحون • ومخالفون ويظنون أنهم متبعون • ثم
مع ظهور عوراتهم لكل عاقل • يتعرضون للشريعة الصحيحة بكل جهل
وباطل ويموهون بخرافات وترهات لا يلتفت اليها عاقل • يظنون أن
دين الاسلام كدينهم • المستند الى الترهات والأوهام • التي لا يقبلها
سليم الفطرة من الموام •

وسنبين أصول دين الاسلام • ومستنداتهم في أحكامهم • بحول
الله في « الفن الثاني » من هذا الباب ان شاء الله تعالى •



مسألة في صيامهم

قال « حفص بن البر » منهم • في بعض كتبه • وقد سألته سائلا
عن صيامهم • فقَالَ : « أول من صام الأربعين يوما : » موسى
أين عمران • وبعد ذلك صامها « الياس النبي » الذي رفعه الله
في عصر بني اسرائيل • ثم بعد ذلك صامها المسيح • وأما العلماء •
فأكملوا ثلاثة وأربعين يوما • وإنما هي عشر أيام السنة • كما قال
« بولس » الحواري في بعض رسائله : « كما تؤذون العشرات من
أموالكم • فأدوا العشرات من أبدانكم » • فهذا هو الصيام المفروض •
اعلم يا هذا • أن هذا القس الذي هو « حفص » هو من أكيسهم
وأفصحهم • على أنه ليس في القوم رجل رشيد ولا ذو عقل سديد •
وأنما كان كذلك لأنه قد ضربت عليه « الجزية » ولزمه الصغار والذلة •
اذ كان قد نشأ في ذمة المسلمين • وتعلم من علومهم ما فاق به النصراني
أجمعين •

ومع ذلك فاذا أخذ يتكلم في علوم النصارى وأحكامهم ، تلجلج لسانه ، وقصر بيانه ، لأنه ينزل على آرائهم الفاسدة ، وتحكماتهم الباردة .

❖ وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ ❖

نبين لك يا هذا : أن كلامه في هذا الفصل فاسد . واحتجاجة بارد . وذلك أنه ادعى : أن صوم الثلاثة والأربعين واجب . وحين أخذ يستدل على وجوبها ، استدل على وجوب الأربعين . ثم أخبر أن علماءهم زادوا من عند أنفسهم ثلاثة أيام .

فنقول لهم : وهذه الثلاثة الأيام التي ادعيتهم وجوبها . هل علم موسى وعيسى ومن بينهما من الأنبياء أنها من فرض الصيام . أو لم يعلموا ؟ فإن كانوا قد علموا . فلأى معنى لم يبلغوا ، ولم يبينوا ؟ ويلزم معصية الأنبياء من وجهين : من حيث أنهم لم يصوموا ما هو فرض الله . ومن حيث لم يبلغوا الشرع . وذلك محال عليهم ، وإن كانوا لم يعلموا وجوب هذه الأيام الثلاثة . فمن أين علم الجاهل أمثالك وجوبها . والأحكام إنما تستد إلى أقوال الأنبياء وكتبهم ؟

فإن قالوا : أوجبها « بولس » الحوارى . قلنا : ذلك هو الذى أفسد عليكم أديانكم ، وأعمى بصائركم وأذهانكم . ذلك هو الذى غير دين المسيح ، الصحيح ، الذى لم تسمعوا له بخبر ، ولا وقفتم منه على أثر — على ما تقدم — .

هو الذى صرفكم عن القبلة ، وحلك لكم كل محرم كان في الملة . ولذلك كثرت أحكامه عندكم ، وتداولتموها بينكم .

وبذلك على ذلك : أنك إذا سمعت له قولاً في حكم . فتكاد لا تجده إلا مغيراً للأحكام المتقدمة ، مخالفاً لها . فتارة يزيد ، وأخرى ينقص ، وأخرى يرفع . يعرف هذا من وقف على كتبهم ، وعلى ما ينقلون عنه . ثم لو سلمنا أنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، لما كان ينبغي لكم أن تأخذوا بقوله ، وتتركوا فعل موسى ، وعيسى ، والياس ، وقولهم .

وهل فعل ذلك إلا جهل ، لا ينبغي أن يصار إليه ، ولا يلتزمه أحد حكماً عليه ؟ فإن المبلغين عن الله ، المبينين شرع الله ، إنما هم موسى ، وعيسى ، ومن تنزل منزلتهم . وباتفاق منكم أن « بولس »

ليس منزلا ، منزلة موسى ، ولا منزلة عيسى ، وغايته اذا سلم مما ذكر عنه في كتب التواريخ : أن يكون حواريا ، لم تكثر صحبته لعيسى • بل صحبه أياما قلائل بدعواه • وليست صحبته له كصحبة « متاؤوش » ولا « يوحنا » ولا أحد من الأحد عشر حواريا •

ثم لو سلمنا أنه صحبه صحبتهم ، فلعله ارتد بعد رفع عيسى كما فعله « الأسكريوث » بزعمكم •

ثم لو سلمنا أنه لم يرتد • فمن أين يلزم اتباع حكمه ؟ ولا سيما اذا غير الأحكام المتقدمة وحكم بخلافها • وليس بنبي ولا رسول • فان قلتم : انه نبي • فقد قدمنا ما يكذب قولكم ، ويرد عليكم زعمكم • فقد تبين من هذا أن « حفص بن البر » على جلاله قدره عندهم : قبل ما كان ينبغي له أن يرد ، ورد ما كان ينبغي له أن يقبل • فانه رد فعل موسى وعيسى والياس • وقبل قول عامة الناس • فهو ، وهم من الأخسرين أعمالا « الذين ضل سبيلهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » (١) •

ولو تتبعنا أحكام صيامهم لأظهرنا فيها كثيرا من هذيانهم • فلنأخذ من كل باب مسألة واحدة بحول الله ، وحسن عونه •



مسألة في أعيادهم المصانة

قال « حفص » :

« أما بعد •• فان الذي أردت علمه من الأعياد السبعة التي أمر القانون بصيانتها ، فهي معروفة • فأول يوم منها : اذ بشر جبريل الملك مريم بايلاد المسيح • واليوم الثاني : اذ ولد المسيح • والثالث : اذ ختن الى ثمانية أيام • والرابع : اذ ظهر للهجين (٢) • وأهدوا اليه ذهباً ، ولوباناً ، ومرا • وهو يوم النجم • والخامس : يوم الفصح • اذ قام عن القبر • والسادس : اذ تخطفته السحابة ، ورقى الى السماء بمحضر الحواريين • والسابع : اذ نزل روح القدس على الحواريين • وتكلموا بجميع الألسن •

(١) الكهف : ١٠٤ . (٢) « الهجين » في التراجم الحديثة : المجوس •

وأما غيرها من الأيام التي استشهد فيها الشهداء ، ويصونها الناس ، ويتصدقون فيها على المساكين والضعفاء فواجب على كل ذي عقل أن يصونها • أما في مدينة ، وأما في قرية » ا • ه •

فنقول له ، ولهم : هذه الأيام المصانة عندكم • هل صيانتها واجب عندكم بالشرع ، أو ليس واجبا بالشرع ؟ فان قالوا : ليس بواجب بالشرع • قسنا لهم : فلأى معنى تعملونها ، وتلتزمون صيانتها ؟ حتى أن من كان في قرية أو في موطن لا ينبغي له أن يرتحل عنه حتى يتمها • فقد التزمتم ما ليس بلازم ، وأوجبتم ما ليس بواجب • فان قالوا : هي واجبة بالشرع • قلنا لهم : بأي شرع وجبت ؟ بشرع موسى ، أو شرع عيسى ؟ فان قالوا : بشرع موسى كذبوا • وقلنا لهم : « فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين » (١) ولا شك في أنهم لا يجدون شيئا منها في التوراة ولا في الانجيل • وغايتهم : أن يقولوا ما قال عالمهم « حفص » : « هذه أيام شريعة ، لأنها اتفق فيها أمور شريفة من أحوال المسيح » •

فنقول لهم : هب أنه اتفق ما تقولون • فمن أخبركم من الأنبياء أنه إذا اتفق أمر من تلك الأمور ، فافعلوا كذا ، واصنعوا ذلك اليوم عيداً ؟ وفي أى كتاب من كتبكم وجدتموه ؟ ولا شك في أنهم لا يجدون شيئا مما ادعوه فلم يبق لهم الا محض التحكم ، ثم يلزمهم على مساق هذا : أن يبحثوا عن أيام عيسى وعن عددها ، ويتخذوا تلك الأيام أعيادا • فان أيامه كلها ومحاضره كانت شريفة • اذ كانت أيامه لا تخلو عن كرامة يكرمه الله بها ، وعن بركة من بركاته ، وعن معجزة من معجزاته • فلأى معنى خصصتم تلك الأيام ، لولا محض الهوى والتحكم الباطل ؟ ثم نقول لهم : هل كان عيسى يعلم فضيلة تلك الأيام ، أو لا يعلم ؟ فان كان يعلمها فلأى معنى لم يفعل فيها ما تفعلون ؟ أو لأى معنى لم يبين شرعه فيها ، لو كان له فيها شرع ؟ وان لم يعلم فضيلتها فكيف لم يعلم هو ما علمتم أنتم ؟ ثم كيف يجهل شيئا علمتموه أنتم ، وهو عندكم قد اتحد به علم الله •

فحصل من هذا : أنها ليست فاضلة ، ولا لله فيها حكم • اذ لو كانت فاضلة ، لله فيها حكم ، لعلمها ، ولو علمها لبينها • فلما

لم يعلم ، ولم يبين علم أنه ليس لله فيها شيء مما اخترعتموه . لكنكم تحكمتم باختراع ما جهلتم ، وشرعتم ما لم يشرع لكم نبيكم . فان قالوا : هذه أيام اتخذناها لفعل الخير ، نتصدق فيها على مساكيننا ، ونطعم فيها جوعانا ، وهذه أفعال خير ، وبهذه جاءت الشرائع كلها .

قلنا لهم : لا ننكر أن الشرائع جاءت بإعانة المساكين . لكن لم تخصصتم لها أياما بالتحكم ثم أوجبتم صيانة تلك الأيام ؟ أو لأي شيء لم تقولوا : انه ينبغي اطعام المساكين أبدا ، وسد خلالتهم ، متى ظهرت ؟ ولم تحتاجوا الى وضع أحكام بالتوهم . ولو كنتم موفقين لمسلككم مسلك اتباع المسيح . تفعلون ما فعل ، وتتركون ما ترك . ولو فعلتم ذلك لكان موافقا لتعظيمه .

ولو فرضنا عبيدين أمرهما سيدهما بالاعتداء به ، وباتباع سخطه ، فأخذ الواحد منهما يقفو أثر سيده في أفعاله ، فلا يزيد فيها ولا ينقص منها . بل هو مواظب عليها غير خارج عنها ، ولا زائد فيها ، وهو مع ذلك معتقد لتعظيمه محب له . وأخذ الآخر يزيد تارة في حكم ، وينقص تارة من حكم ، وهو مع ذلك معظم لسيده ، فلو فرضنا : أن السيد قال للأول : ما صنعت فيما أمرتك ؟ فقال له : لم أزد على ما رأيته تفعل ولا نقصت . لأنى خفتك . وأيضا فانى أحبك وأعظمك . فأحبيبتك ، وأحبيت فعلك الذى رأيته تفعله ، فلا شك أن العقلاء يستحسنون هذا الفعل ، ويرون أن هذا العبد فى أعلى درجات العقل والطاعة لسيده والمحبة له والتعظيم . وان مثل هذا ينبغي للسيد أن يعثقه ، ويثيبه .

وأما الثانى : فاذا قال له سيده : ما فعلت فيما أمرتك ؟ فيقول : فعلت ما رأيته تفعله ، وما أمرتنى به الا أنى زدت أفعالا لم تأمرنى بها ، ونقصت أيضا . فانى تركت أفعالا رأيته تفعلها . فيقول له : لأي شيء زدت ما لم أمرك به ، ونقصت مما رأيته فعلت ؟ فلا يصح له ، أن يقول : لأنى عظمتك وأحبيبتك . فان هذا لا يناسب تعظيمه ، ولا محبته ، بل يناسب بغضه وإهانته ، فلا شك أن العقلاء يحكمون ؟ أن مثل هذا العبد لم يطمع سيده فى جميع ما أمره به ، وأنه كاذب فى تعظيمه ومحبته ، وأنه مستوجب لنكال سيده .

وهذا المثال الأخير • هو مثالكم مع المسيح ، فانكم تدعون تعظيمه وتخالفونه في أفعاله • وتزيدون عليه في أحكامه ، فأنتم مستحقون لتوبيخه ، وعقاب مرسله ، وستجمعهم مع من شرع لكم هذه الأحكام ، فارحامية ، تسمى الهاوية •



مسألة في قربانهم

قال حفص : « اعلم أن الذى أردت معرفته من خبر القربان وشرحه •

أن الأنبياء ، وبنى اسرائيل كانوا يقربون القربان على ما تحكيه التوراة : العجول ، والجزر ، والخرفان • فأما « ملكى صادق » فإنه أول من قرب القربان من الخبز والخمر • وكان قسيس الله فى البدء • واليه أدى ابراهيم العشرت المفروضة (١) • وقد حذى داود النبي فى الزبور خبر « ملكى صادق » اذ بشر بالمسيح سيدنا ، وانزله منزلته ، وأحله محله ، وجعله « قسا » الى الأبد • فقال : « الرب أقسم يميننا ، وليس يندم أنت أبدا قسيس لى فى خطة القسيسين على رتبة ملكى صادق » (٢) فأما الخواريون وأتباعهم فانهم فرضوا هذا القربان الذى يقده الأساقفة والقساوس على المذبح من الخمر والخبز ، على ما تقدم من فعل « ملكى صادق » وكما قال المسيح فى الانجيل : « من أكل لحمى ، وشرب دمي • كان فى ، وكنت فيه • وأما الخبز النازل من السماء • فمن أكلنى يحيا بى » (٣) •

انظر • ما أعجب حال هؤلاء فى تركهم شرعية التوراة ، فى القربان • وعدواهم عنها ، الى ما هو ضرب من الهذيان •

وذلك أن الله تعالى افترض القربان فى التوراة بالعجول والجزر والخرفان • كما ذكر • وعمات بذلك بنو اسرائيل من غير تغيير ولا تبديل الى مدة هؤلاء المغيرين لأحكام التوراة ، فغيروا وبدلوا ، وعدلوا الى الخبز والخمر من غير أن ينسخ لهم عيسى شيئا من ذلك ، ولا بدله بشيره • لكنهم يكرهون العمل بأحكام التوراة ، فيعدلون عنها الى العمل بأهوائهم •

(١) سفر التكوين : ١٤ : ١٨ • ٢٠ • (٢) الزمور : ١١ : ٤ •

(٣) انجيل يوحنا : ٦ : ٥٦ •

مع أنهم متعبدون بأحكامها • اذ الأحكام في الانجيل قليلة جدا •
ولم يتركوا لأرائهم حتى يتحكموا بأهوائهم ، ثم أنهم يتحكمون
بآرائهم • فان اتفق لهم شيء يتمسكون به ، كان ذلك مؤكدا لأغراضهم ،
وان لم يتفق لهم ذلك استغفوا عنه ، وحكموا بأغراضهم • ويبين هذا :
أنهم استثقلوا العجول والجزر والخرفان لارتفاع أثمانها ، وأنه لا يوجد
فيها ما يوجد في الخمر من اللذة والطرب ، الداعين الى شربها •

ولذلك عدلوا للخمر مع خفة مؤنتها ، وقلة ثمنها • فانهم أشد
الناس بخلا • فان قيل لهم : بأي شيء عدلتم عن قربان التوراة ؟
قالوا : لأن « ملكي صادق » أول من قرب الخمر ، والخبز • ولأن
المسيح قال : « من أكل لحمي وشرب دمي ، كان في ، وأنا فيه » ولأن
الحواريين فرضوا هذا القربان •

هذا غاية ما يحتاجون به • ولا بد من تتبع ذلك • وبيان تحكمهم
وباطلهم • فنقول :

أما قولكم بفعل : « ملكي صادق » فباطل من أوجه :

أحدها : أنه لم يكن نبيا ، فان ادعيتم أنه نبي ، فلا بد من الدليل
على ذلك • فعليكم اثباته ، ولو سلم ذلك : لتبقى عليكم أن تثبتوا
أن شرعه : شرع لكم • ولو سلم أن شرعه شرع لكم ، لكان ينبغي أن
تعلموا أن التوراة قد نسخت ذلك الشرع • اذ قد استقر : أن موسى عمل
بخلافه • وكذلك الأنبياء بعده • ولو كان ذلك الحكم باقيا صحيحا
لما كان ينبغي لموسى أن يعدل عنه • ولما جاءكم بغيره • فترككم
التوراة التي أنتم مخاطبون بأحكامها وشرعها الى عالم تخاطبوا به •
ولا شرع لكم : استهانة بشرع التوراة وأحكامها ، بل استخفاف بالذي
أنزلها ، وبالذي أنزلت عليه فقد بطل استدلالكم بفعل « ملكي صادق »
من أوجه •

وأما استدلالكم بقول عيسى ، فهذان • لا يلتفت اليه ، لأنه
انما أراد : (من عمل بعلمي ، أو تعلم من علمي ، أحببته وأحبني)
وما ذكره مثل محسوس قصد به التنبيه على معنى معقول • ودليل
ذلك من قوله • قوله : « أنا الخبز النازل من السماء » انما أراد :
أنه بمنزلة الخبز الذي يغتذى به ، لأنه قد جاء بغذاء الأزواج ،

ويخبزها • • وهذه استعارة بحسنة مستعملة • وكثيرا ما يقال في الكلام :
« العلم ، والمعاني الشريفة : خبز الأرواح ، كما أن الطعام المعروف :
خبز الأشباح » •

ولكلامه عليه السلام عامل آخر ، وتأويلات جارية غير ما ذكرتم ،
يجوزها العقل ، ولا يبعدها استعمال اللفظ • لا يخرج شيء منها إلى
الهديان الذي صرتم إليه ، الذي أفضى بكم لجهلكم ، إلى ترك حكم ،
وترك العمل بمقتضاه • ولولا التطويل لذكرنا منها وجوها • وبهذا
اللفظ وما يشبهه ضلتم ، حيث قلتم بالاتحاد ، ولم تفهموا منه المراد •
فكابرتم العقول ، وحرفتم المنقول ، وحملتكم من الشناعة والقبساحة
مالا يرضى به عليم ولا جهول • وقد ذكرنا إبطال ذلك فيما تقدم •

وأما استدلالهم بفعل الحواريين فذلك من فن الكذب عليهم
أجمعين ، ولو سلمنا أنه صحيح وصدق • لما كان في فعلهم حجة •
بل أن كتاب الله تعالى يخالف فعلهم ، بل الحجة كتاب الله ، ولا يرتفع
شيء من ذلك إلا إذا بين عيسى عليه السلام : أنه منسوخ ، ويبلغكم ،
ذلك عنه بنص قاطع على شروط النسخ ، على ما هو معروف عند أهله •
بل قد أوردوا في أنجيلهم : أن عيسى قال للمبروص الذي شفاه :
« امض واعرض نفسك على القسيسين ، واهد قربانك الذي أمر به
موسى في عهده » (١) •

وهذا نص على أن القربان عند عيسى إنما هو الذي حكم به
موسى ، وهو العجول والجزر والخرفان ، لا كما شرعتم أنتم من الهديان •
فقد حصل من هذا أنكم خالفتم عيسى ، وقلتم عليه البهتان •
وأما استدلالهم بفعل القسيسين فأولئك المغيرون للدين والمحرفون
لكتاب رب العالمين •

كدينك من أم الحويرث قبلها وجارتها • أم الرباب بماسل
فقد ظهر من هذا أنهم تركوا قربان التوراة لغير شيء ، وأنهم
على غير شيء • فعليهم لعنة كل ميت وحى •

مسألة في تقديسهم دورهم وبيوتهم بالملح

قال حفص : « أما الملح الذى نقس به الدور والبيوت • وأردت فهم ذلك • فانا وجدنا في سير « الياس » النبى ، الذى رفعه الله : أن تلميذه « اليسع » مكث بمدينة « أريحا » زمانا • فقال له أهلها : « ان عندنا عينا جارية تتفجر منها مياه كثيرة مرة ، لا نفع فيها » فأمر أن يؤتى اليه ببناء جديد • فأدخل فيه الملح ، وقس به ماء العين (١) • فمن هذا السبب صرنا نقس الدور والبيوت بالملح المقدس بعدما يتلو عليه القساوس آيات من النبوة » اهـ •

فنقول لهم : يا هؤلاء المتسلاعون بأديانهم ، المستمرون على هديانهم • كيف جعلتم مثل هذا دليلا على ثبوت حكم عليكم ؟ وليس فيه دليل من وجوه كثيرة • لكننا نقتصر من ذلك على نقطة كافية وهى : أن « اليسع » لم يفعل ذلك على جهة بيان أنه : حكم • وانما فعل ذلك على جهة : اظهار الكرامة والمعجزة • فان ذلك الماء عذب وطاب ، فظهرت كرامته ومعجزاته ، كما ظهرت على « عيسى » حين مس « الجروص » وبرأ • وكذلك من الأعميين فأبصرا • الى غير ذلك • وقد حكيتكم في بعض أناجيلكم : أن أعمى سأل من « عيسى » أن يرد عليه بصره ، فأخذ قطعة من طين فجعلها في عينه • فأبصر • وهذا بمثابة ما فعل « اليسع » فكان ينبغى لكم : أن تقدسوا دوركم بالتراب والطين ، كما فعل « عيسى » وهو أولى بكم ، اذ هو مفضل عندكم على « اليسع » وغيره بزعمكم •

ومع ذلك فتركتم الاقتداء به ، واقتديتم بمن هو دونه • وذلك عكس ما كان ينبغى لكم • وهذا نتيجة جهلكم ، ومن سوء فعلكم •



مسألة في تصليبهم على وجوههم في صلاتهم

قال حفص : « انما نصلب على وجوهنا • لانا وجدنا في كتب علمائنا السالفين • أنه لما أراد ملك « قسطنطينية » أن يهزم بعض أعدائه ، تراءى له في السماء صورة صليب من لهب ، وملك من الملائكة

(١) انظر الاصحاح الثانى من سفر الملوك الثانى من الآية التاسعة عشر :

مخاطبه ويقول له : ان كنت تريد غلبة أعدائك ، فاجعل هذه الصورة علامة تكون قدامك . فانك غالب ظافر بها على جميع أعدائك . فآمن وفعل ، كما قال له الملك ، وهو الذى بحث وكشف عن صليب المسيح ، حتى وجده مدفونا ، وعمل من المسامير التى كانت فيه لجاما لفرسه ، وزين جبينه بصليب من ذهب . فلم يزل من حينئذ أهل ملة المسيح يستعملون هذه العلامة ، لأنها علامة السبق والظفر « ا. م. »

هذا الذى ذكره حفص هنا ، يصدق ما حكيناه عن قسطنطين فيما تقدم . فان كذبنا أحد منهم فيما ذكرناه عنه ، فليكذب أسقفه حفصا . على أن ما ذكرناه مشهور عند أهل التاريخ الذين اعتنوا بنقل أخبار الأزمان الماضية والقرون السالفة .

وبعد هذا نقول لمن استدل على أن « الصليب » مشروع لهم : من أين عرفت صدق « قسطنطين » فيما حكاه وقاله ؟ ولعله كذب . وأراد بذلك إصلاح رعيته وحالته وإيغاز صدور العامة على من خالفه وذلك داخل في باب السياسات التى يسلكها من لم يتقيد بالشرعيات ، وكثيرا ما يشاهد من الملوك مثلها .

ثم لو سلمنا أنه صدق في رؤياه . فمن أين علم أن الذى كلمه ملك ؟ فلهذه شيطان قصد أضلالكم . وكذلك كان . حتى تعتقدوا الصلوية ، التى هى أعظم كل بلية ، ومحمل على العصية ، ثم لو سلمنا أنه ملك . فلا معنى جعلتم ذلك التصليب في صلاتكم ، وزدتم على ما علمكم عيسى ؟

ولقد كان ينبغى لكم أن تفعلوا في الصلاة مثل فعله ، ولا تزيدوا على ذلك . ثم يلزمكم على ذلك : أن يقال لكم : لا يخلو ذلك التصليب أن يكون حكما من أحكام الصلاة . أو لا يكون . فان كان حكما ، ولم تتقلوه عن عيسى ، ولا أنه علمه لكم . فقد نسبتكم عيسى إلى أنه كتم حكم الله ، ولم يبلغه . وهذا محال على عيسى . وعلى كل رسول أرسله الله إلى أمة . وان قلتم أنه ليس بحكم . فلم تفعلون في الصلاة ما ليس بحكم شرعى ؟ وان قلتم : شرعه لنا أثمتا ، وأساقفتنا . قلنا لكم : ومن جمل لاثمتكم أن يتحكموا في شرع الله ، ويفتروا على الله ، وهم مذنبون عاصون ، لا يملكون لأنفسهم شيئا ولا نفعا . ولا عطاء ولا منعا ؟

ثم نقول لهم : هذه الصلاة التي يصلب فيها على الوجه أفضل أم الصلاة التي لا يصلب فيها ؟ فان قالوا : الصلاة التي يصلب فيها • فيلزمكم على هذا أن تكون صلاتهم أفضل من صلاة المسيح • وكفى هذا شناعة وحماقة • وان كانت الصلاة التي لا يصلب فيها هي الأفضل ، فينبغي ألا تفعلوا مالا فضيلة فيه • وهذا كله يبين أن هؤلاء القوم لا يعولون على الأنبياء في أحكامهم ، ولا يرجعون الى قوانينهم ، بل يعولون على أغراضهم وشهواتهم •

فلقد تمكن الشيطان منهم فأضلهم ، حتى استدرجهم عن الشرائع ، وأزلهم •

فهذه المسائل التي ذكرناها ، هي من معظم قواعدهم ، وأصولهم • وإذا كان عملهم في هذه القواعد مثل ما رأيت ، فناهيك بفروعهم • ولنقتصر على ما ذكرنا • اذ فيه تنبيه على ما لم نذكر • ثم ان أحوجونا الى مزيد ، تتبعنا كبار كتبهم بأن ننقضها حرفا حرفا ، ونبين فسادها لفظا لفظا •

بقيت علينا مسألة واحدة ، وهي : بيان اعتقاداتهم في الدار الآخرة وعذابها ونعيمها • وبها اختتام هذا الفن ان شاء الله تعالى •



مسألة في قولهم في النعيم والعذاب الآخراوين

- قال صاحب كتاب « المسائل » :

« لسنا ننتظر في المكافأة الالهية شيئا من الأرضيات الفانيات ، كالذى ينتظره شيعة « ملسيان » ولا تزويج العرائس كالذى يشتهي « جرنش » و « مركش » ولا ما ينتسب الى المأكول والمشروب ، كالذى يسوغه « بابيه » وجماعة • ولا ننتظر أن يكون ملك المسيح في الأرض : ألف سنة ، بعد القيامة ليمتلك الصالحون معه ، متنعمين كتعليم « قابوش » الذى خيل بقيامتين • الأولى : للصالحين ، والثانية : للكافرين • فقال : ان ما بين هاتين القيامتين تمسك الأحباس الجاهلة بالله في زوايا الأرض في أجسامهم ، ثم يحملهم الشيطان بعد تملك الصالحين في الأرض ألف سنة ، على محاربة الصالحين الممتلكين فيدفعهم الله عنهم بأمطار النيران • محاربا عنهم ، فيموتون ، هكذا •

مع سائرهم ، الذين ماتوا في الكفر ثم يحيون في لحم غير متغير ،
للعذاب الدائمة » ا.هـ .

قد بين هذا المتكلم ، الحاكي خبط النصارى ، واختلاف فرقها ،
في هذه المسألة : بما أغنى عن البحث عن كثير من فرقهم . على أن
فرقهم لا تنحصر ، واختلافهم لا ينضبط . فان اختلافهم كاختلاف
المجانين . اذا اجتمعوا ، فكل واحد منهم يتكلم بما لا يعقل ، وما لا حجة
له عليه ولا معول .

لكن مذهب جماهيرهم ، ومعظمهم ، ومن ينتسب الى التدين منهم :
أن الخلق لا بد أن يجتمعوا في القيامة ، وأن عيسى محاسبهم ، فينعم
ويعذب . لكن ليس عذابا بنيران وسلاسل وأغلال . وغير ذلك
مما نعتقده نحن ، وليس نعيما أيضا بمأكول ومشروب والتذاذ بنكاح .
ويشبهه — والله أعلم — مذهبهم في هذه المسألة مذهب الفلاسفة ،
حيث ينكرون العذاب المحسوس ، والنعيم ويصرفون ذلك الى الالتذاذ
الروحانى ، لكنهم لا يصرحون^(١) به ، كما تصرح به الفلاسفة .
اذ لا يقدرّون على تبين أغراضهم لقصورهم . ونحن نتكلم هنا مع
من ينكر ذلك من المتشرعين ، فانهم قد اجتمعوا على اعادتنا كما كنا
أول مرة . اذ قد اجتمعت على ذلك الشرائع كلها . من غير اختلاف
بينها فيه .

فنقول لمنكر ذلك : لا يخلو أن ما تنكره ، اما من جهة العقل ، أو من
جهة الشرع . فان قال : من جهة العقل ، قلنا له : كذبت وأخطأت .
فان العقل لا يدل على استحالة ذلك . بل يدل على جوازه . اذ ليس
في ذلك الا أن الذى خلقنا أول مرة ، ومكننا أن ننتعم نعيما محسوسا ،
ونتألم ألما محسوسا بقادر على أن يعيدنا بعد أن يفنينا كما بدأنا .
فان الاعادة انما هي خلق ثان . ومن قدر على الخلق الأول ،
قدر على الخلق الثانى . وهذا معلوم بنفسه ، فهو اذن فعل ممكن
في نفسه ، ليس من قبيل الممتنع . والله تعالى قادر على كل ممكن ،
فيجب وصفه بالقدرة على ذلك . فان قالوا : ان كان في الجنة أكل

(١) عقيدة البعث الروحانى : يصرح بها النصارى في كتبهم (انظر
الاصحاح الخامس عشر من رسالة بولس الاولى الى اهل كورنثوس) .
(٢٨ - الاعلام)

وشراب ونكاح ولباس ؛ فيلزم عليه أن يكون في الجنة غائط ويوك
وولادة وتمزيق الثياب وتخريقها •

وكل ذلك محال أن يكون في الجنة • قلنا : هذا جهل ، ولا يلزم
شيء مما ذكرتم فيها • بل نقول : هناك أكل وشرب ، وليس هنالك
غائط ولا بول • وهذا غير منكر ، إذ لا يلزم في كل طعام أن يكون
له فضلة ، ولو سلمنا أن تكون له فضلة لما لزم أن يكون فضلة
مستقدرة ، بل قد تكون فضلات كثيرة طيبا يتدليب به ، وشرابا يشرب •
مثل المسك • فانه دم حيوان ، أو رجيعة ، أو العسل فانه فضل حيوان
معروف وليس شيء من ذلك مستقدرا ، بل هو مستطاب مستلذ •
ولا يبعد أن تكون فضلات الجنة هكذا ، بل هو هكذا •

وقد جاءنا على لسان الصادق : أن أهل الجنة لا يبولون ،
ولا يتغوطون ، انما هو عرق يجري من أجسادهم مثل المسك •

وأما الحمل فلا يلزم شيء منه ، إذ قد نجد من النساء : العواقر ،
ومن اللواتي لا يلدن • فكذا نساء أهل الجنة لا يلدن ، ولا يحضن •

وأما اللباس فلا يتمزق ولا يفنى • وفي لباس بنى اسرائيل
« في المفاز » دليل على بطلان ما يخيل هذا السائل ، فالذي يبقى
الثياب الى مدة قادر على أن يبقياها أبد الأبدين •

وهذه أمور لا ينكرها الا كل غبي جاهل ليس له معقول حاصل •
فاذا دل العقل على جوازه ، فينبغي أن يستدل على وقوع ذلك ،
ووجوده بكلام الصادقين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، فنقول لمنكر
ذلك شرعا :

لا يصح لك أن تستدل على انكارك بشيء من كلام الأنبياء •
إذ لا تجده ، بل سنريك نصوص كلامهم على اثباته •

منها : أن من المعلوم أن آدم عليه السلام كان يأكل في الجنة
ويشرب وينكح • فإن قالوا : الجنة التي كان فيها آدم قبل هبوطه
الى الأرض انما كانت في الأرض ، وهي جنة عدن التي قال فيها في
التوراة : « وغرس الله فردوسا بعدن من قبل ، وأسكنه آدم » (١) •

وانما كانت تلك مستنانا من بساطتين الدنيا • قلنا : ليس في التوراة
فص قاطع يدل على أن الجنة التي يرجع الناس اليها يوم الجزاء
ليست هي التي أسكن الله فيها آدم • بل التوراة محتملة لذلك •
وأما كتابنا فيدل على أنها هي •

ثم لو سلمنا أنها ليست هي ، لحصل لنا من ذلك دليل بجواز
الأكل والشرب والنكاح في الجنة • فانه كما جاز أن آدم أكل وشرب
فيها • كذلك يجوز أن يأكل ويشرب وينكح في الجنة التي يرجعون
اليها • وهذا بين بنفسه عند المتصف •

وحنا : أن في الانجيل : أن المسيح قال لتلاميذه ليلة أكل معهم
الفصح ، وقد سقاهم كأسا من الخمر ، وقال لهم : « اني لا أشربها
معكم أبدا ، حتى تشربوها معي في الملكوت عن يمين الله » (١) وهذا
شخص لا يحتمل التأويل الا مع ضعف • وفيه أيضا في قصة « العازر »
الذي كان مطروحا على باب الغنى ، والكلاب تلحس جراح قروحه •
وأن ذلك الغنى نظر اليه في الجنة متكئا على حجر ابراهيم الخليل •
فناداه الغنى ، وهو في النار : « يا أبى ابراهيم ابعت العازر الى يثى •
من ماء • أبل به لسانى » (٢) وهذا نص آخر أبين من الأول •

وفيه أيضا أنه قال لليهود : « يا ثعابين بنى الأفاعى • كيف لكم
والنجاة من عذاب النار » (٣) •

وفيه أيضا أن الجماعة قالت للمسيح بكفر ناهوم : « متى جئت
الى هنا يا معلم ؟ فقال لهم : آمين آمين • أقول لكم : تطلبوننى ، ليس
لأنكم رأيتم عجائب بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم • فارغبوا في
طعام لا يفنى في الجنة الدائمة » (٤) •

وفيه أيضا : أنه قال لتلاميذه في وصية وصاهم بها : « لتطعمن
ولتشربن في مائدتى في ملك الله » (٥) •

(١) انجيل متى : ٢٦ : ٢٩

(٢) الاصحاح السادس عشر من انجيل لوقا •

(٣) متى ولوقا ٣ : ٧ ، والاستشهاد في غير موضعه لأنه يقصد بالعذاب :
هلاك اليهود في زمن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم •

(٤) انجيل يوحنا : الاصحاح السادس ، والإستشهاد في غير موضعه لأنه

يشير الى زمن نبي الاسلام بالجنة الدائمة (الحياة الأبدية)

(٥) انجيل لوقا : ٢٢ : ٣٠ •

وفيه أيضا أنه قال لليهود : « ان كان موسى أطعمكم خبزا في
المفاز ، فأنا أطعمكم خبزا سماويا » (١) يريد الجنة .

وقال أشعيا : « يا معشر العطاش توجهوا الى الماء الورد . ومن
لا فضة له ، فليذهب وليأكل ويشرب ويأخذ من الخبز واللبن بغير فضة
ولا ثمن » (٢) .

وهذا كثير في كتب الأنبياء بلا شك ، ولا امتراء . فان قالوا :
فلأى معنى لم يصرح موسى في التوراة بذلك ، وبأخبار القيامة ؟ قلنا :
الله ورسوله أعلم . وعلى سبيل التنبيه تحتل وجوها :

أحدها : لعنوا بنى اسرائيل وتمردهم ، ولكلال أفهامهم .

ثانيها : ليعد زمان ذلك .

ثالثها : ليعجل لهم جزاء أعمالهم . فانما كانوا يهددون ويخوفون
بالعقوبات العاجلة ويوعدون باللذات العاجلة من الملك وتكثير الرزق .
وخصب البلاد الى غير ذلك .

رابعها : لأنه قد كان سبق في علم الله تعالى أنه يرسل رسولا
في آخر الزمان ، ليس بعده نبي ولا رسول يبين أمور الآخرة بيانا
شافيا ، وهو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذلك لقرب
القيامة من زمانه ، وليحصل لنبيينا صلى الله عليه وسلم من فضيلة العلم
والاعلام ما لم يحصل لأحد غيره ، ولتختص أمته بعلم ليس لأحد
غيرها وهذا الوجه هو أقرب الوجوه . والله أعلم (٣) .

ويدل على ذلك قوله في التوراة حين بشر بنبيينا عليه السلام ،
وذكر كثيرا من علاماته « ومعه كتاب ناري » (٤) وقد تقدم ذكر ذلك
والدليل عليه أيضا : أنك لا تجد عند أمة من الأمم من أخبار القيامة ،
أمور الآخرة ما عندهم (٥) .

(١) يوحنا : ٦ والاستشهاد في غير موضعه لأنه يشير الى أيام نبي
الاسلام صلى الله عليه وسلم . (٢) سفر أشعيا : ٥٥ : ١

(٣) في كتاب تنقيح الأبحاث لابن كمونه : السبب .

(٤) تثنية ٣٣ : ٢

(٥) المؤلف لم يذكر الأئمة القاطمة من توراة موسى عليه السلام على
اثبات البعث . وقد ذكرناها في تقديمنا لكتاب « بقطة أولى الاعتبار فيما ورد » .

فالحمد لله الذي جعل لنا كل الفضائل ، وخصنا بمحمد صلى الله عليه وسلم خير نبي وفاضل .

فقد ظهر من هذا النظر : أن ما انتحلوه من انكار النعيم ، والعذاب المحسوسين ، باطل بشهادة العقول ، وبنصوص كلام الأنبياء المنقول .
وقد فرغنا من الفن الأول ، والحمد لله كثيرا .



== في ذكر النار وأصحاب النار == للشيخ صديق حسن خان . وفي تقديمنا لكتاب « نفيح الروح والمتسوية » للإمام أبي حامد الغزالي - نشر مكتبة عاطف بجوار إدارة الأزهر ومكتبة المدينة المنورة بسور الأzbekية - ومن الآيات التي في توراة موسى عليه السلام - وهي محل خلاف بين التوراة السامرية والتوراة العبرانية . فهي في السامرية صريحة في اثبات البعث ، وفي العبرانية تحتمل الجزاء في الدنيا أو في الآخرة - هذه الآيات :

النص عن يوم القيامة في التوراة العبرانية :

النص : يقول الله تعالى : - كما كتبوا - « انهم امة عديمة الرأي ، ولا بصيرة فيهم ، لو عقابوا لفطنوا بهذه ، وتأملوا آخرتهم . كيف يطرد واحد ألفا ، ويهزم اثنان ربوة ؟ لولا أن صخرهم باعهم ، والرب سلمهم ، لانه ليس كصخرنا صخرهم .

ولو كان أعداؤنا القضاء . لأن من جفنة سدوم جفنتهم ، ومن كروم عمورة . عنبهم عنب سم ، ولهم عناقيد مرارة ، خمرهم حمة الثعابين ، وسم الاصلال القاتل .

ليس ذلك بكنوزا عندي . يختوما عليه في خزائني ؟ لي المنقحة والجزاء . في وقت نزل آذانهم . ان يوم هلاكهم قريب ، والمهيات لهم مسرعة ، لأن الرب يدين شعبه ، وعلى عبيده يشفق . حين يرى أن اليد قد مضت ولم يبق محجوز ولا مطلق . يقول : أين آلهتهم الصخرة التي التجاوا اليها ؟ التي كانت تاكل لحم ذبائحهم وتشرب خمر سبكانبهم . لتقم وتساعدكم وتكن عليكم حماية .

أنظروا الآن . أنا ، أنا هو ، وليس اله معي . أنا أميت وأحيي ، سحقت . واني أشفي ، وليس من يدي مخلص . اني أرفع الى السماء يدي ، وأقول : يحي أنا الى الأبد . اذا سننت سيفي البارق ، وامسكت بالقضاء يدي أرد . نقمة على أصدادي وأجازي مبعضي . أسكر سهامى بدم ، وياكل سيفي . لحما . بدم القتلى والسبايا ، ومن رؤوس قواد العدو .

تهللوا أيها الأمم شعبه ، لأنه ينتقم بدم عبيده ، ويرد نقمة على أصداده ، ويصفح عن أرضه . عن شعبه » (الاصحاح الثاني والثلاثين من سفر التثنية . من الآية الثامنة والعشرين الى الآية الثالثة والأربعين) .

محاسن دين الاسلام

تمهيد :

الفرض من هذا الفن : أن تبين فيه عقيدة الاسلام ، وجمالها من أصول أحكامه ، ومواضع من فروع دينه ، أنكرتها النصارى عليه • وإنما فعلنا ذلك لفرضين :

أحدهما : أن السائل الذي حركنا لهذا الكتاب ، هددنا • وزعم أنه ان سب وشتم ، كتب كتابا بنص شريعتنا ووجهه للبلاد حتى يقف الناس عليها • فأردت أن أتولى ذكر شريعتنا لئلا يتعاطى ذكرها ونقلها : جهول • لا يحسن ما ينقل ، ولا ما يقول •

كى يقف العقلاء عليها ، وينظروا فيها • على أن شرعنا ليس بالخفى • بل قد طبق الأرض شرقا وغربا ، وقرع من العقلاء سمعا وقلبا ، فلم يسمع بمن مجه وطرحه غير معاند ، كبته شرعنا وفضحه • فإنه جار على المنهاج المعقول ، المستحسن ، عند أرباب العقول •

وسأبين ذلك ان شاء الله تعالى ، على أنى لم أتعرض لهذا السائل ولا لأحد من ملتهم بالنسب ، أكثر من تبين جهلهم ، وركاكة هذيانهم وقولهم • وربما أغاظوا في بعض الأقوال لما ارتكبوا فيها من القبيح والمحال ، فأطلقت عليهم اللعنة ، حسب ما تقتضيه البغضاء والاحقة ، وتعويلا على ما في التوراة من لعنتهم ، وركاكة شرعتهم •

فان في التوراة : « ملعون • ملعون من يعلق بالصليب » (١) يريد

(١) تثنوية ٢١ : ٢٢ - ٢٣ والامام الأبوصيري مؤلف « بردة المديح » للماركة « فنام قصيدة في الرد على النصارى واليهود قال فيها عن « ملعون من يعلق بالصليب » ما نصه :

وعزوا الى يعقوب من اولاده
والى المسيح وأمه وكفى بها
وان تعلق بالصليب بزعمهم
صحيحة حملت به ويتسولا
لنا يغود عليهم فيقولوا
ذكرا من الفعل القبيح مهولا

بذلك من اعتقد الصليب وادعاه وعظمه • وهذا نفس يلعنتهم : وموجب
لبغضتهم • وهذا ما نعلمه مع ديننا ، وواضح سبيلنا •

والغرض الثانى : أنه لا يبعد أن يقف على هذا الكتاب نصرانى أو
يهودى لم يسمع قط من ديننا تفصيلا ولا تصريحاً • بل انما سمع له :
سبا ، وتقبيحا • فأردت أن أسرده على الجملة ، ليتبين حسنه لمن كان
ذكى العقل ، صحيح الفطرة • فلعل ذلك يكون سبب هداه ، وجلاء عماه
« وما توفيقى الا بالله » (١) •

وفى هذا الفن فصلان : وانقسم هذا الفن الى فصلين ، لأن
شريعة الاسلام مشتملة على اعتقاد بالقلوب ، وعمل بالجوارح •
فالفصلين نذكر فى أحدهما : قواعد الاعتقاد • وفى الثانى : ندافع عن
الاعتقاد وعن التشريع • فنقول :

الفصل الأول

اعتقاد المسلمين

أما اعتقاد المسلمين فهو : أن كل موجود سوى الله تعالى فهو محدث بمخلوق مخترع على معنى أنه لم يكن موجودا ، ثم صار موجودا ، وأن له محدثا موجودا قديما ، لا يشبه شيئا من الموجودات الحادثة ، بل يتعالى عن شبهها من كل وجه ، فليس بجسم ولا يحل في الأجسام ، ولا جوهر ، ولا يحل في الجواهر ، ولا عرض ولا تحله الأعراض . وأنه اله واحد لا شريك له في فعله ، ولا نظير له في ذاته ، وطوله ، إلا ينبغي له الصاحبة ، ولا الولد . ولم يكن له من خلقه كفؤا أحد . وأنه عالم ، قادر ، مرید ، حي ، موصوف بصفات الكمال من السمع والبصر والكلام وغير ذلك . مما يكون كاملا في حقه . وأنه منزّه عن صفات النقص والقصور ، وأنه يفعل في ملكه ما يريد ، ويحكم في خلقه بما يشاء ، لا يفتقر الى شيء ، واليه يفتقر كل شيء ، وبيده ملك كل جماد وحى . لا يجب عليه لمخلوق حق ، وتجب حقوقه على الخلق ، لا يتوجه عليه : متى ؟ ولا : أين ؟ ولا : لم ؟ ولا كيف ؟ فلا يقال : متى وجد ؟ ولا أين وجد ؟ ولا كيف هو ؟ ولا لم فعل ؟ « لا يستل عما يفعل ، وهم يستلون » (١) .

وان أرسال الرسل من أفعاله الجائزة ، وأنه قد أرسّل الرسل وأنزل الكتب ، وكلف الخلق ، وشرع لهم شرائع على السنة رسله ، وأن رسله صادقون في قولهم ، ومؤيدون بالمعجزات من عند ربهم ، وأنهم عبيد الله ورسله ، وأنهم بشر مثلنا ، إلا أن الله تعالى فضلهم بأن جعلهم واسطة بينه وبين خلقه ، وأطلعهم على ما شاء من غيبه ، وأنهم بلغوا عن الله ما أمروا بتبليغه ، وأنهم كلهم صادقون مصدقون ، لا نفرق بين أحد منهم . وأن محمدا بن عبد الله بن عبد المطلب العربي

القرشى الهاشمى رسول من الله الى الناس كافة بشيرا ونذيرا • وأن الله تعالى أيدته بالمعجزات الدالة على صدقه كما فعل بالرسول من قبله • وأن شرعه واجابته لازمان لكل من بلغت دعوته حيث كان من أقطار الأرض وجهاتها ، وعلى أى دين كان من أديانها •

لا يقبل ممن كفر به يوم القيامة ما هو عليه من دين ، بل يكون مخلدا في العذاب أبد الآبدين ، كما أن المؤمن به ، وبكل ما جاء به مخلد في الجنة أبد الآبدين •

وأن شرعه ناسخ لكل الشرائع المتقدمة على الجملة • وهادم ما قبله من الأحكام السابقة ، وأن كل ما جاء به عن الله حق : من العذاب ، والحشر ، والنشر بعد الموت ، والصراط ، والميزان ، والحوض ، والمحاسبة ، وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم لأهل الموقف ، ولأهل الكباثر من أمته خاصة •

والجنة ونعيمها ، والنار وعذابها ، وأنهما محسوسان ، ليسا معنويين ، وأن خلود أهل الجنة سرمد ، وعذاب أهل النار الكافرين سرمد ، لا انقطاع لواحد منهما الى غير ذلك • مما هو مفصل في الشريعة ، مما يعرفه أهله ، ولا يسعهم جهله •

وهذه قواعد اعتقاد أهل الاسلام ، مجردة عن أدلتها ، ومقتضية من شواهدها • اذ ما منها قاعدة ، الا ويعضدها برهان عقلى ، لا يشك فيه عاقل ، ودليل سمعى لا ينكره فاضل • ومن أراد تعرف ذلك طلبه من مواضعه • وأما مستندات أحكامهم فهي كتاب الله ، وسنة رسول الله ، لا يعدلون لمحة عنها ، ولا يخرجون لحظة منها ، الا أن وجوه استدلالاتهم لا يحيط بها متطفل عليها لكثرتها ، ولنقاوة درجاتها •

فان كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله لا يستدل بهما ، من لا يعرف منظوم اللفظ ومفهومه وفحواه ومعقوله • ويعرف من المنظوم : النص ، والظاهر ، والمؤول والمحمل ، والعموم ، والخصوص ، والاستثناء ، والمطلق ، والمقيد ، ويعرف من المفهوم أحكامه وأقسامه ، وكذلك من الفجوى والمعقول على ما هو معروف في علم الأصول ، الذى هو علم خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هو من كرامات أهل الاسلام •

اذ ليس في ملة من الملل المتقدمة ، من التحقيق ما عندهم ، ولا اجتمع لأحد قبلهم من العلوم مثل الذي اجتمع لهم .

ذلك بأنهم آخر الأمم ، وكتابهم آخر الكتب وأفضلها ، ورسولهم آخر الرسل ، وأفضلهم ، ولسانهم أحكم الألسنة ، وأفضلها على ما يعرفه من تصفح شريعتهم . وعرف لغتهم ، ونظر اليها بعين الانصاف ، وترك طريق التعصب والاعتساف . فالحمد لله على ما أولاه ، « وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق » (١) .

ومما يبين للماقل حسن شريعة الاسلام ، وجمال طريقتها . أنها مبنية على مراعاة مصالح الدنيا والآخرة ، واتمام مكارم الأخلاق الخسنة .

أما بيان مصالح الآخرة . فهو أن هذا الشرع يبين وجوها ، ولم يغفل شيئاً منها ، بل فسرها وأوضحها غاية الوضوح لئلا يجهل شيء منها . فوعدهم بنعيمها وتوعد بعذابها ، بخلاف الشرائع المتقدمة ، فإنها إنما كانت تتوعد على المخالفة بعقاب دنيوى ، كما فعل بنو اسرائيل غير مرة ، وتوعد بثواب دنيوى ، ولم يبين لهم شيء مما بين لنا على ما يقتضيه نسق التوراة ، اذ ليس فيها ذكر جنة ولا نار ، الا تنبيهات قليلة (٢) ، وكذلك الانجيل ليس فيه شيء من ذلك الا ما ذكرناه .

ومع ذلك فانه تعبدنا بعبادات محضة ذوات فعال وأركان ، كالصلاة والحج وغير ذلك . وكل ركن من أركانها . فالمقصود به تعظيم الله تعالى ، وخضوع له بالظاهر والباطن ، حتى تؤدي كل جارية من الجوارح حظها من تعظيم الله تعالى ، مع ما يضاف الى ذلك من المعاني الشريفة والأدعية الرفيعة الفصيحة التي يعرف معانيها أهلها ، حسب ما فسروه في كتبهم ، وليس كما تقولون أنتم في صلاتكم : « يا أبانا الذي في السماء » (٣) .

(١) الاعراف : ٤٣ . (٢) متى ٦ : ٩ - ١٣ ، ولوقا ١٢ : ٢ - ٤ .
(٣) الآيات التي تدل على الجنة والنار في التوراة منها : التثنية ٣٢ : ٣٤ - ٣٥ ، المزمير ٤٨ : ١٥ - ١٦ ، أشعيا ٦٥ : ١٣ - ١٥ ، دانيال ١٢ : ١٣ ، أيوب ١٩ : ٢٥ - ٢٧ ، وقول أيوب نص في بعث الجسد مع الروح في تراجم الكاثوليك .

فان ظاهر هذا مستبشع في العرف ، محال في العقل ، أما استبشاعه في العرف فانه يتقبح بالعبد أن يخاطب سيده بلفظ الأبوة .

هذا . مع أن معنى الأبوة جائز في حقوقنا . فكيف لا يقبح إطلاقه في حق من لا تجوز الأبوة في حقه ؟ فإطلاق مثل هذا اللفظ في حق الله تعالى ينبغي ألا يجوز ولا يطلق وأما إحالته في العقل ، فان ظاهر قولكم : « في السماء » يفهم منه : أن السماء محيط به ، وان جاز ذلك ، جاز أن يكون جسما . وأنتم تأبون ذلك ، وهو محال في حقه تبارك وتعالى .

وكذلك قولكم في بقية هذا الدعاء :

« وعجل لنا خبزنا الدائم ، واغفر لنا ، كما يغفر بعضنا لبعض » فانه لفظ مستثقل مستقبح . ومعناه : مستغث ، مسترك . ولولا خوف التلطويل ، لأبدينا ما يحتمل ذلك من قبيح التأويل .

فإن قلتم : هكذا علمنا عيسى في الانجيل . فقال لنا : « إذا صليتم فقولوا » قلنا : لا نسلم أن هذا مما علمه عيسى ، ولا مما جاء به ، بل هو اختراع من لا يحسن ما يقول ، وليس له إلى المعارف وصول .

وقد تتقدم : أن كتابكم قابل للتحريف والتصحيف . فهذا الذي ذكرنا ، ينبيه على المصالح الأخروية ، وأما المصالح الدنيوية . فقد بينا أن مقصود شرعنا : حفظ الأديان والنفوس والأموال والأنساب والأعراض والعقول . ولأجل ذلك شرع القتل ، والديات ، والعقوبات ، وجرم السرقة ، والخيانة ، وجميع وجوه أكل المال بالباطل ، وجرم الزنا ، وفعل اللواط . وغير ذلك من الفواحش .

وكذلك حرم الغيبة والنميمة ، والقذف ، والبهتان . والزور ، وجميع أصناف الكذب والعش والخذاع والمكر ، إلى غير ذلك من أنواع المفاسد .

ولأجل ذلك أيضا : حرم الخمر ، فانها تذهب العقل الذي هو مناط التكليف ، وبه يعرف الباري تبارك وتعالى . والسكر آفة تناقضه وتضاده ، فهذه الأمور كلها محفوظة بالحدود ، والزواجر ، المشاكلة للعقوبات ، الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم أما بالكتاب ، وأما بالسنة ، وليس شيء منها موضوعا بالتشهي والتحكم ، كما فعلتم أنتم .

وقد بينا ذلك ، بمستنده للشارع ، ولا نعدل عنه طرفة عين ، بل نقف عند ما أمر ، وننتهى عما نهانا ، ويعرف ذلك على التفصيل أهله ، ومن وقف عليه من العقلاء المنصفين •

وأما مكارم الأخلاق التى تضمنها شرعنا ، فلا تخفى على متأمل • وذلك أن شرعنا : أمرنا بها ظاهرا وباطنا ، ونهانا عن رذائلها وبفسادها • فمن المكارم الظاهرة : النظافة ، والطهارة ، والقتزء عن الأقدار والأوساخ • فمن النظافة تطهير الثياب والأبدان • فانها ينبغى أن تنتزه عن الأقدار • مثل البول ، والغائط ، والمنى ، والمذى ، والدم ، والقيح ، وما شاكل ذلك •

ومن النظافة أيضا التطيب ، وتحسين الهيئة • فالطيب لا يخفى على عاقل استعماله ، وكذلك تحسين الهيئة ، ومن تحسين الهيئة قص الشارب ، وإعفاء اللحية • فقص الشارب لتتأتى النظافة فى الأكل ، إذ لا تتأتى مع طوله ، إذ يدخل الشعر فى الفم ، وينقص الأكل ، ويقذره •

هذا مع ما يلحق الشارب من قذارة المخاط ، إذا كان الشارب كبيرا • ومع ذلك فلا يحلق عندنا كله ، ويمحق رسمه • فان ذلك مثلة وتشويه • وكذلك اللحية إذا حلقت فينبغى أن توفر توفيراً لا يخل بمروءة الانسان ولا يخرج عن عادة الناس ، وخير الأمور أوساطها • وأما حلق اللحية فتشويه ومثلة ، لا ينبغى لعاقل أن يفعلها بنفسه •

والعجب من جهل النصارى بالشرائع ، وبما يستحسنه ذووا المروءات ، فانهم يحلقون لحاهم ، ويشوهون أنفسهم ، ويوفرون غلوفتهم ، التى ينبغى أن تزال لما فى أزالتها من الفوائد على ما ذكرنا • ومن النظافة المأمور بها : تقليم الأظفار ، ونقف الأبط ، وحلق العانة ، وغسل البراجم والمغابن بالماء • وهذا كله من شرعنا مبالغة فى النظافة ، ومحافظة على مكارم الأخلاق ، وعلى عادة ذوى العقول والمروءات •

وأما التتزه عن الأقدار فانه حرم علينا الخبائث من الميتة والدم ولحم الخنزير والأنجاس كلها على ما تقتضيه عادة العقلاء والمروءات • وأمرنا بأكل الطيبات واستعمال المستحسنات ، ونهانا عن السرف والتبذير •

ولأجل هذا نهانا عن استعمال أواني الذهب والفضة ، وعن لباس
الحرير للذكور • وذلك لما فيه من التبذير والسرف •

وأیضا • فان فيه ترفها ، يناسب ترفه أهل الجنة ، ويشبهه ، ولا
ينبغي أن يفعل ذلك • ولأجل ذلك قال نبينا عليه السلام : (من شرب
في آنية الذهب والفضة ، لم يشرب بها في الآخرة ، ومن لبس الحرير في
الدنيا لم يلبسه في الآخرة) (١) •

وهذا كله لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء • ولأجل ذلك
قال الحكماء : « الدنيا قنطرة فاعبروها ، ولا تتعمروها » فهذه نبذة
من النظافة الطاهرة • وأحكامها كثيرة ، تعرف في مواضعها •

وأما النظافة الباطنية • فترجع الى التخلص عن مذموم الأخلاق ،
والتحلى بمحامدها ومستحسنها ، وهي كثيرة فلنذكر الأخلاق المذمومة ،
التي يتنظف منها • وبعدها نذكر الأخلاق الحمودة التي ينبغي الاتصاف
بها •

أما الأخلاق المذمومة فكثيرة لكن أمهاتها ما نذكره • وهي : الغضب ،
والحسد ، والبخل ، ومهانة النفس ، ودنائتها ، والرعونة ، وحب الجاه ،
وحب الدنيا الذي منه كل خطيئة ، والكبر ، والعجب ، والرياء ،
الى غير ذلك من الأخلاق المذمومة التي من اتصف بها ، كان منجس
« الباطن بمثابة من كان متجسس الظاهر ، فعليه تنظيفه •

الا أن نظافة النجاسة الظاهرة بالماء ، ونظافة النجاسة الباطنة
بالاتصاف بالأخلاق الحمودة التي هي : التوبة من المعاصي ، وحسن
الصحبة مع الخلق ، والنصيحة لهم ، والعدل في الأمور كلها ، والتواضع ،
وكرم النفس ، وبغض الدنيا ، والزهد فيها ، والاخلاص ، والخوف ،
والصبر ، والشكر ، والصدق ، والتوكل ، ومحبة الله تعالى ، ومحبة
رسوله •

الى غير ذلك من الأوصاف الحمودة ، التي من اتصف بها ، فقد
« اتقى من أوصاف البشرية وتطهر الطهارة المعنوية •

(١) هذا من أحاديث الترهيب •

فهذا أنموذج ، وقانون يعرف العاقل النصف به حسن شريعتنا ،
وجمال طريقتنا ، وأنها جارية على نهج العقول ، ومستحسنة عند من
له محصول . ومن أراد أن يتبين محاسن شريعتنا على التفصيل ، فلا
يصل الى ذلك الا يبحث كثير ، وتطويل .

فان وقف ، فأمن النظر ، واستدت منه الفكر ، قضى من عجائبها
كل عجب ، وعلم على القطع والبتات أنها حق من الله ، من غير شك ولا
ريب . وأن الذي جاء بها لا يجوز عليه الغلط ، ولا الكذب .

فما نحن معشر المسلمين . قد أروشنا شريعتنا للاستعراض ،
وناديننا عليها في سوق الاعتراض ، لئلا يعترض أحد ، أو يعارض .
فيدمنه ناقد لقوله ، وحافظ ، ولم نكل حكايتها الى غبي غافل ، عن
مقاصد شرعنا جاهل .

وقد آن أن نذكر ما اعترض به النصارى على ديننا ، وننفض عنه
إن شاء الله تعالى . وعند ذلك يتبين صميم جهلهم ، وسوء صنيعهم
وفعلهم .



الفصل الثاني

دفاع عن الإسلام

اعلم أن النصارى يعيبون دين الاسلام ، ويقبحونه عند جهالهم وعامتهم بأمور من فروع الاسلام ، لا ينبغي لمنصف أن يعييبها ، ولا يعيب شرعا هي فيه .

وقد كنا بينا فيما تقدم : أنه لا ينبغي أن ننبد الشرائع أو نجعلها بما تجوزه العقول ، بل يتلقى ذلك المجوز عقلا ، الذي جاءت به الشرائع بالقبول ، إذا علم صدق ذلك الشرع ، بل ينبغي للعاقل : أن ينظر في دليل صدق ذلك الشرع . فإن وجد دليلا صحيحا قبل منه كل ما يقول ، فإنه صادق . والصادق لا يقول ما تكذبه العقول . نعم قد يقول ما يقصر العقل عن ادراكه ، وليس ذلك طعنا على قول الصادق . وإنما العجز في حق العقل . فليس كل ما تأتي به الشرائع يعرف العقل جوازه قبل وقوعه ، بل قد يكون منه ما يجهله .

وهذا بين عند الفهم المنصف . وقد كنا قررنا ذلك بأبلغ من هذا فيما تقدم .

فإذا تقرر ذلك . قلنا للنصارى : كان يجب عليكم أن تتظروا في الأدلة التي بها استدلل هذا النبي على صدقه ، فإذا صحت ، لزمكم قبول قوله ، وإن لم تصح لديكم رددتم كلية شرعه ، ولا تعترضوا ببعض ما جاء به ، مما يجوزه العقل ، على ما تقرر .

ونحن قد أثبتنا الأدلة القاطعة على صدقه ، وأنواعها . فيجب عليكم أن تقبلوا شرعه . إذ قال : أنا رسول الله إلى الناس كلهم ، وإلى اليهود والنصارى . وقد ظهر صدقه في قوله . وإن لم تفعلوا ، فقد وجبت عليكم اللعنة ، وهاقت بكم الطامة « وسيطم الكفار أن عقبي . » (الدار) (١) .

ونحن نذكر ان شاء الله تعالى ما اعترضوا به على ديننا • ونحكي
اعترضهم كما ذكروه في كتبهم ، ونسبوه الى أساقفتهم •
قال صاحب « كتاب الحروف » بعد أن ذكر وصية عيسى التي
قال فيها : « احذروا أنبياء الكذب ، الذين يأتونكم بلباس الحملان —
يعنى سمة الأبرار ، وزى العباد — وباطنهم ذئاب خاطفة » (١) قال
بعد ذلك معرضا بنبيينا ، ومستقصا لديننا ، « وقد رأينا نفاذ قوله هذا
فهم ادعى النبوة ، فأظهر سمة الحملان ، ثم عمل عمل الذئاب ، فأمر
بخلاف هذه الوصايا من العداوة للناس عامة ، والتحريض على قتل من
خالفه ، والأمر بالقصاص ، والانتقام •

ثم أمر بالاكثار من النساء ، ورخص في طلاقهن ، وأحل تزويج
المطلقات المفاجرات ، ثم ردهن الى الأزواج الأولين ، بعد طلاق ثان •
وأحل ذلك لهن من الرجل الثانى الى الأول • ثم ما وصف الله به من
الجور والقساوة والظلم • اذ زعم أنه يهدى بعضا ، ويضل بعضا •
وقال « القوطى » — الذى قدمنا ذكره — : « لا فائدة في
شريعتم ، لانا نجد الأحكام الشرعية ، حكمين : الأول : التوراوى ،
الذى هو « من لطمك فالطمه » •

الآخر : الانجيلى الذى هو « من لطم خدك اليمنى ، فانصب له
اليسرى » •

وأنت ترى فضل هذا ، على الأول (٢) • ثم لا تجد لهذين الحكمين
ثالثا ، الا كان داخلا فيهما « أ • هـ

: هذا منتهى ما يعترض به من يفتى الى النظر من « أقستهم »
وان كان بعيدا عن التحقيق •

وأما عامتهم ، ومن لا مبالاة بهم : فقد تقولوا العظائم ، وجأهروا

(١) انجيل متى : ٧ : ١٥ .

(٢) حكم التوراة ما جاء المسيح ابن مريم لنسخه ، وقوله من لطم خدك
اليمنى فانصب له اليسرى • يشير به الى الرحمة داخل المجتمع الذى يحين
بمبادئه ، والعفو والتسامح • ولقد كان لابد من القصاص والوقوف أمام
القاضي فلا بد من تنفيذ حكم التوراة • وقد أثر عن المسيح في انجيل لوقا :
أنه قال لتلاميذه : « من ليس له فليبيع ثوبه ويشتري سيفا » (لوقا ٢٢ : ٣٦) •

بالتواضع والشتائم • ونحن نجيب هذين القسين على ما قالاه ، جواباً :
يرفع الاشتباه ، ونرجو به التقرب من الاله • فنقول للأول :

أما استدلالك على رد نبوة نبينا بقول عيسى ، فتجهيل للعامة ،
وثلبيس عليهم ، فانك أدخلته في جملة أنبياء الكذب • وقد شهد الأنبياء
بصدقته — كما قدمنا — بل قد شهد كتابك بصدقته ونبوته • فانه قد
جاء فيه من قول عيسى ما لا يمكنك انكاره ، حيث ذكر « البرقليط »
وأخبر أنه يأتي ، ووصفه بما ينبغي له — وقد قدمنا ذلك مستوفى — •
فهذا منك • يا هذا • جهل بكتبك ، وتكذيب لأنبيائك ورسلك •
وانما الذى حذر منه عيسى وغيره من الأنبياء انما هم أنبياء الكذب
كما قال ، ولم تزل الأنبياء يحذرون من الأنبياء الكاذبين •

ولقد أكثر من مثل هذا التحذير : نبينا عليه السلام ، حتى قال :
« يكون في آخر الزمان ثلاثون كذاباً ، كلهم يزعم أنه نبي • وأنا خاتم
النبيين ، فلا رسول بعدى ، ولا نبي » وقد وجد بعضهم • ولا بد من
أن يوجد الباقي ، كما قال الصادق •

وأما قولك : « ان سمة نبينا سمة الحملان ، وعمله عمل الذئب »
فكذب ضراح ، وافك وقاح • ونحن قد بينا سمة وعمله ومناهجه •
وقد عرف حاله القريب والبعيد ، بل سمة سميت الأنبياء ، وعمله
عملهم ، ولا فرق بينه وبينهم إلا أنه أفضلهم وأكملهم • وانما قلنا
ذلك لأن في صحف أشعياء أنه قال : « أنت أيام الافتقادات ، أيام
الكمال » ثم قال : « لتعلموا يا بنى اسرائيل الجاهلين ، أن الذى تسمونه
ضالاً ، هو صاحب النبوة ، تفترون بذلك على كثرة ذنوبكم ، وعظم
فجوركم » •

وانما قلنا : انما عني نبينا ، ولم يرد غيره • لأنه قال :
« يا بنى اسرائيل » وهذا خطاب لجميعهم ، ولم تكذب جميع بنى اسرائيل
بنبوة نبي ، إلا بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم الى غير ذلك مما تقدم •
وأما عيسى وغيره ، فكان منهم من آمن به وصدقته على ما هو معروف •

وأما قولك : « أمر بخلاف هذه الوصايا من العداوة للناس »
فكذب وتشنيع لا يرضى به سلفة الناس • بل قد أمر بالآلفة والاجتماع ،
والتحاب في الله ، والمؤاخاة في ذاته ، والتعاون على البر والتقوى ،
ونهي عن التباغض والتدابر والتخاذل على ما بيناه من شرعه •

وكل ذلك من حاله وحالهم معروف بحيث لا يجهل ، ومشهور بحيث لا ينكر . نعم رحمته للمؤمنين ، وغلظته على الكافرين .

وكذلك وصفه الله في كتبه ، وعلى لسان رسله . قال الله العظيم في محكم وحيه الكريم : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » (١) وكذلك كانت أحوال أصحابه قال الله تعالى : « محمد رسول الله ، والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم » (٢) وليس كما تقولونه أنتم عن أصحاب عيسى أنه لما تقبضت اليهود عليه فروا عنه وأنكروه ، وحلفوا على أنهم لم يعرفوه . فأسلموه وتركوه .

وقد بينا فيما تقدم : ما ذكرت الأنبياء من أوصافه . وعلى أنه لم يغلظ على الكافرين ، حتى تمردوا على الله وكذبوا رسالات الله . وذلك أنه أقام بين أظهرهم عشر سنين ، أو نيفا عليها ، يدعوهم إلى الله على سبيل الوعظ والانذار ، والتعليم والتبليغ ، وإظهار الآيات والعجائب ملينا لهم القول ، ومظهرا لهم الاتفاق ، وباذلا لهم النصيحة ، صابرا بنفسه على ما يلقي من أذاهم ، ومن سبهم . وهم مع ذلك يبالغون في ضرره بكل ما يمكن ، وكلما ألح عليهم بالانذار ، زادوا في الاضرار ، حتى هموا بقتله وطرده عن بلده وأهله .

وبعد ذلك أمره الله بالانتصار ممن ظلمه ، وإخراج من أخرجه . ولذلك أنزل الله تعالى عليه : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » (٣) .

وأما قوله : « والتحريض على قتال من خالفه » فهذا لا ينبغي أن يعاب به دين . فإن الكافر بالحق لا حرمة له ، وجنابته أكبر من كل جنابة ، فعقوبته ينبغي أن تكون أكبر من كل عقوبة ، لا سيما بعد أن تقدم للكافرين بالأعداء ، وبولغ لهم في الانذار ، ولأجل أن الكافر لا حرمة له عند الله : يعاقبه في الدار الآخرة عقوبة لا انقطاع لها . باتفاق الشرائع .

وان جاز أن يعاب شرعنا لأنه جاء بقتال الكافرين ، جاز أن يعاب شرع موسى (٤) . فإنه جاء بقتال الجبارين ، على ما لا يخفى على

(٢) الفتح : ٢٩٠

(٤) الأصحاب العشرون من سفر التثنية [٥]

(١) التوبة : ١٢٨

(٣) الحج : ٣٩

أحد من المتشرعين • فقد لزم هذا المنكر لشرعنا من حيث أنه شرع فيه القتال أن ينكر ما يدين به ويعتقده من شرع موسى بن عمران ، وينبغي له أن يسفه فعل « يشوع بن نون » حيث أذاق الجبارين أشد القتل وأعظم الهون ، ثم أعجب من ذلك جهلهم بما في كتبهم ، أو مجاهرتهم بانكارها (١) •

وذلك أنهم يجدون في كتبهم أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم ، ويجدون فيها أنه يبعث بالقتل والسيوف ، ثم ينكرون ذلك ، ويباهتون فيه • وقد ذكرنا من ذلك ما فيه كفاية • ومن ذلك ما قد جاء في كتاب « أشعياء » أنه أخبر عن هزيمة العرب ، وقتل أشرافهم • فقال لما ذكرنا النبي صلى الله عليه وسلم : « يدوسون الأمم ، كدوس البيادر ، وينزل البلاء بمشركي العرب ، وينهزمون » ثم قال : « وينهزمون بين يدي سيوف مسلولة ، وقسي موتورة ، من شدة الملحمة » (٢) •

وكذلك قال « حبقوق » : « تضيء لنوره الأرض ، وستنزع في قسيك اغراقا ، وترتوي السهام بأمرك يا محمد ارتواء » (٣) وهذه نصوص على اسمه وصفته — كما تقدم — •

وقد أشار انجيلكم الى هذا فانكم تزعمون أن عيسى قال لتلاميذه : « اني كنت أرسلتكم ، وليس معكم مزود ، ولا خف ، فهل ضرركم ذلك ، أو نقصكم شيئا ؟ قالوا : لا • قال : أما الآن • فمن لم يكن له كيس فليأخذ كيسا ، ومزود فليشتر مزودا ، ومن لم يكن له سيف ، فليبع من ثيابه ، وليشتر سيفا » (٤) •

فأمرهم باشتراء السيوف ، للقتال • بعد أن كان نهاهم عن القتال (٥) • لعلمه أن محمدا يبعث بعده بالسيف وهذا كثير ، بحيث لا يحتمل التأويل •

(١) في انجيل لوقا يقول المسيح : « حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا احذية • هل اعوزكم شيء ؟ قالوا : لا • فقال لهم : لكن الآن من له كيس فليأخذه ومزود كذلك • ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا » (لوقا : ٢٢ : ٣٥ - ٣٦) •

(٢) الاصحاح الحادى والعشرون من سفر أشعياء •

(٣) الاصحاح الثالث من سفر حبقوق • وبطل « محمد » : « مسيحك » •

(٤) انجيل لوقا : ٢٢ : ٣٥ - ٣٦ •

(٥) المسيح لم ينف عن القتال لأنه ما جاء لنسخ شريعة موسى •

وخير من ذلك كله : أنهم قد ذكروا في انجيلهم ، أن عيسى
قال لهم : « لا تحسبوا أنى قدمت لأصلح بين أهل الأرض ، لم آت
لأصلحهم ، لكن لألقى المحاربة بينهم • انما قدمت لأفرق بين المرء
وابنه ، والمرأة وابنتها ، وأعداء المرء أهل بيته » (١) •

وهذا نص • بأن عيسى انما جاء بالمحاربة والقاء العداوة بين
الناس • وهذا عين ما أنكروه علينا • ثم قد زاد ، وأعلى • ذلك :
ألهم حكوا أنه قال : « لم آت لأصلح أهل الأرض ، لم آت لأصلحهم »
وظاهر هذا : انما جاء بفساد أهل الأرض •

وهذا لا يصح أن يقوله عيسى عليه السلام ، ولا غيره من الأنبياء ،
وهو من كذبهم وتحريفهم • وقد قدمنا ذلك فيما سبق • ومن العجب
أنهم يقولون : ان ملة المسيح ، وشريعته لم تأت بقتال ويتمدحون بأنها
لم تظهر بقتال ، وانما ظهرت بما ظهر على أيدي الحواريين من العجائب •
وهم مع ذلك يعترفون بمحاربة « قسطنطين » وبمقاتلته من خالفه •
وأنه الذى تلقيت عنه الشريعة الصليبية • فانه أرى في النوم صورة
الصليب • وقيل له : بهذا تنصر • ففعله ، واعتقده ، وقاتل • فنصر •

وأعجب من ذلك تلبسهم بالقتال ، والاكتثار منه أهد الدهر الى
اليوم ، وهم مع ذلك يدعون : أن القتال غير مشروع لهم ، ويذمون
الشريعة التى جاءت به ، فهم قد ناقضت أفعالهم أقوالهم ، وشهدت
على كذبهم أحوالهم • ثم نقول لقسطنطين ، ولجماعة النصارى
المقاتلين :

« قتالكم من خالفكم • لا يخلو اما أن يكون مشروعا لكم ، أو غير
مشروع لكم • فان كان مشروعا لكم • فلاى معنى تخالفونا في ذلك ،
وتذموا شرعنا لأجابه ، وان لم يكن مشروعا لكم فلاى معنى تركتم
شرعكم ، وفعلتم خلافه ؟ »

وكيف حل لكم ذلك ؟ فأنتم بين أمرين قبيحين عليكم : اما أن
تعترفوا بأن قتال الأعداء جائز حسن ، فلا تذموا شرعنا لأجله ،
واما أن تعترفوا بأنه ذير جائز وقبيح فيلزمكم التناقض والسفاهة
والخروج عن شريعة المسيح • فأنتم على المثل السائر : « أعور بأى
عينيه شاء » •

فان قالوا : انما نقتصر بالقتال لأنفسنا ، ونمتنع ممن يريد به ظلمنا • قلنا : ومن شرع لكم ، أن تتتصفوا ممن ظلمكم ، أو تتتصروا لأنفسكم ؟ بل قد حكيتم في انجيلكم أنه قال لكم : « احفظوا أعداءكم واكرهوا من أساء اليكم • فان لم تحفظوا الا اخوانكم ، فما أجرؤكم على ذلك » •

وهذا نص على أنه ينبغي لكم أن تستسلموا عن قاتلكم ، ولا تتتصروا ممن ظلمكم • فان لم تفعلوا ذلك فقد تركتم شرعكم ، وابستهنتم بسنة نبيكم • ثم يلزمكم على ذلك : أن تعترفوا بأن شرعكم ناقص اذ قد بين لكم نبيكم ، بعض المصالح ، وترك بعضها ، وهو القتال ، الذي استدركتموه بنظركم من حيث كان ضروريا ومحتاجا اليه ، وتعترفوا بكمال الشرع الذي جاء بالقتال ، الذي هو شرعنا •

وعند هذا يتبين فساد قولهم : ان الحكم حكمان ، لا ثالث لهما ، ويفسد عيبيهم علينا القصاص • وذلك أنهم يزعمون : أن حكم التوراة : يقتضى القصاص ، وحكم الانجيل : يقتضى العفو • ثم زعم ذلك الجاهل أن لا حكم ثالث • ولم يشر بثالث متوسط ، هو أكملهما وأتمهما ، وهو الحكم الفرقاني ، حيث قال الله العظيم : « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (١) وقال : « وان صبر وشر ان ذلك لمن عزم الأمور » (٢) وقال تعالى : « وان انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (٣) •

ثم العجب من هؤلاء الجهال • كيف يذمون شريعتنا ، ويكذبونها من حيث انها تضمنت القصاص ، ويؤمنون بشريعة موسى ، وقد صرحت بالقصاص ؟ فيلزمهم على قولهم : أن يكذبوا بشريعة موسى ويذمونها من ذلك الوجه •

ثم أعجب من ذلك كله : مدحهم شريعتهم من حيث كانت مبنية على العفو والصفح ، ثم مع ذلك أبوا أن يجوزوا عفو الله تعالى عن « آدم » ، حين أكل من الشجرة ، حتى قالوا : ان جميع بني آدم

(٢) الشورى : ٤٣

(١) النحل : ١٢٦

(٣) الشورى : ٤١

كانوا مرتهنين بمعصية أبيهم حتى فداهم « المسيح » بنفسه • يله
لم يتصور عندهم عفو الله ، حتى انتقم من « اله » مثله • تعالى الله
وتقدس عما يقول الظالمون علوا كبيرا •

فعلى هذا نقول لهم : لا يخلو العفو من أن يكون هو الأولى
مطلقا ، أو الانتقام هو الأفضل ، أو الحالة الثالثة • فان كان العفو
هو الأولى ، فلم لم يعف الله تعالى عن « آدم » من غير أن يعاقبه وبنيه
على ما زعمتم ؟ وان كان الانتقام هو الأولى ، فلم لم ينتقم من
« آدم » وبنيه مطلقا ؟

فلم يبق على هذا الا أن الأولى : هو الحالة الثالثة ، وهو
الانتقام في حال من مستحقه ، والعفو في حال أخرى عن مستحق
العقاب تفضلا وتكرما ، حسب ما يريد الباري تعالى •

وعلى هذا المنهاج السديد ، والأمر الرشيد جاءت شريعتنا
فهي كاملة متممة ، والحمد لله • ثم اذا كان العفو هو الأولى والأفضل •
وبه جاءت شريعتكم ، فلا معنى لتتركوا شريعتكم الأولى ؟

فقد اعترفم بالسنتكم ، وتناقضتم بأفعالكم • وكم لكم منها وكم •
وأما اعتراضه على شرعنا بتحليل نكاح الكثير من النساء ، فذلك
مالا ينبغي أن ينكره أحد من العقلاء • فانه من مجوزات العقول •
وقد ورد بذلك الشرع الصادق المنقول • ثم قد ورد عن جماعة من
الرسك ، وقد جاءت بذلك الكتب • ألم يجيء في التوراة أن « ابراهيم »
كانت له « سارة » و « هاجر » وكذلك ورد فيها : أن يعقوب جمع
بين أختين « ليئة » و « راحيل » وقد ثبت أيضا : أن سليمان كانت
له مائة امرأة ، أو تسعة وتسعون • بل قد روى في الاسرائيليات
أنه كان له ثلاث مائة امرأة حرة ، وسبع مائة سريّة (١) •

فان كذبتكم شرعنا لأجل أنه اشتمل على جواز نكاح نساء كثيرة
فلتكذبوا بنبوة « ابراهيم » و « يعقوب » و « سليمان » • ولا فرق
بين نبينا وبين هؤلاء الأنبياء في : أن كل واحد منهم رسول الله يبلغ

حكم الله • فما لكم تنكرون ما بمثله تعترفون ، وتكذبون عين ما تصدقون •
فعل المعتوه ، الذي لا يعرف ما به يفوه •

ثم لا ينكر عاقل حكمة الله تعالى في شرعية كثرة النساء • اذ
مقصوده بذلك : انما هو تكثير النسل ، وعمارة الدنيا بالذري ،
ليكثر الصالحون ، لما أراد الله بهم من الكرامة ، وليكثر الطالحون ،
لما أراد الله بهم من الشقاوة والتعذيب ، ولتتفد على خلقه أحكامه ،
وتجرى عليهم أقذاره « لا يستل عما يفعل ، وهم يستلون » (١) •

وأما اعتراضه بالطلاق ، ورد المطلقات • فقد تقدم ذكره على
أوضح المقالات ، وأشفيينا في الجواب على أحسن الغايات ، فلينظره من
أراد في باب النبوات •

وأما اعتراضهم على اعتقادنا : أن الله يهدي من يشاء ، ويضل
من يشاء • فقد قدمنا فيه قولا كافيا • ولكننا مع ذلك نؤيده أيضا •
فنقول :

قد قام الدليل القاطع ، والبرهان الصادع : على أن الله تعالى
منفرد بخلق الموجودات ، ومريد لكل الحادثات ، لا يخرج عن قدرته
ممكن ، ولا يشذ عن ارادته حادث • والهدى والضلال من الحوادث ،
فاذن هما مستندان اليه ، وموجودان بارادته ، وتحقيق هذا البرهان :
يعرف في موضعه •

ثم نقول : لا يشك عاقل أن الهدى والضلال ، وما في معناهما
أمر محدث ، وأفعال موجودة ، بعد أن لم تكن ، وكل فعل محدث ،
فلا بد له من فاعل محدث بالضرورة ، ففاعل الهدى والضلال ، وخالقهما
اما أن يكون الله سبحانه ، أو غيره • محال أن يكون غير الله لاستحالة
وجود خالقين • ويلزم منه : امتناع الخلق — كما قدمنا حين ذكرنا
دلالة التمانع — فلم يبق الا أن يكون الفاعل هو الله تعالى • اذ لا خالق
الا هو ، ولا مبدع سواه •

ثم نقول للنصارى : صلب المسيح وقتله • اما أن يكون ضلالا •
واما أن يكون هدى • ومحال أن يكون هدى ، فانكم تكفرون من فعل ذلك ،

وتضلّلونهم • ولأجل ذلك الفعل حاق الغضب ، وحاقت اللعنة على اليهود ، بزعمكم • فلم يبق الا أن يكون ضلالا •

وإذا كان كذلك فقد لزمكم أن الله فعل الضلال • فانكم قد صرحتم بأن الله انما فعل ذلك لأجل خطية « آدم » ، ولم يرد الله أن ينتقم من « آدم » ، ولا من أحد من ولده • وانما أراد أن ينتقم من « اله » مثله • فقد صرحتم ونصصتم : أن الله تعالى أراد الضلال وفعله على أقبح ما يبلغ ، وأشنع ما به يتحدث • ثم انا لا ندرى مما يكون التعجب أكثر ؟ ان كان من ذهاب عقولكم ، أو من جهلكم بكتبكم •

فأما نقص عقولكم فانكم تقولون أقوالا تتناقضون فيها ، ولا تشعرون ، وتلتزمون ضروبا من المحالات ، وتتكرون أمورا جائزات — كما قدمنا آنفا ، ولم نزل نبين ذلك من أول كلمة من هذا الكتاب الى آخره — •

وأما جهلكم بكتبكم • فقد جاء في كتابكم نصا ، هذا المعنى الذي أنكرتموه علينا • وذلك أن عيسى قال حين دنا أجله : « يا أبتاه • • انك قادر على جميع الأشياء فزح عني هذه الكأس • ولكن لست أسألك أن تفعل مشيئتي ، بل مشيئتك » (١) وهذا نص على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يفعل ما يريد ، وأنه أراد صلب « المسيح » بزعمكم • وكان ضلالا لليهود بلا شك •

فما لكم تخطبون • وعن كتبكم تعرضون • بل أنتم عن عقولكم مضروفون ، وفي ورطة الجهل مرتبكون • وفي بحبوحة الضلال عمهون • فلقد صدق الذي قال : اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضلال • والكلام على الهدى والضلال ، والطبع والختم ، يستدعي تطويلا ، وشرحا وتفصيلا • ومن طلبه وجده إذا ساعده التحقيق ، ورافقه التوفيق •

وقد حصل غرضنا من مكالمة هؤلاء ، وافحامهم • والحمد لله •
وأما قوله ، ودعواه : انا وضمنا البارى تعالى بالجور والقساوة والظلم ، فعلى المثل السائر : « رفعتى بدائها ، وانسلت » •

أما نحن • فننزه الله تعالى عن كل ما ذكر ، ولا نقول بقول يؤدي إلى ذلك • وكيف يصح في حقه تعالى الظلم ، والجور • وهو إنما يتصرف في ملكه • وملكه (١) • وخلقه • ولا يجب عليه لأحد من خلقه حق • بل هو متفضل بكل ما يفعل ، وإنما يتصور الظلم والجور ، في حق من تصرف في ملك غيره ، أو عدل عن فعل ما وجب عليه • وهذا كله في حق الله تعالى محال •

وإنما يلزم وصفه بالظلم والجور والقساوة لمن قال : ان « آدم » عصاه ، ثم جعل ذنبه على جميع ولده ، ثم لم يقنع بشيء من دمائهم • بل ولا من دمائهم كلهم ، حتى انتقم من « اله » مثله ، وأجرى دمه على خشية الصليب • فهذا ظلم من حيث حمل الذنب من لم يفعله ، وجور من حيث قتل الها ، لأجل لقمة من شجرة ، أكلها غيره • وقساوة من حيث قتل ولده وحبيبه في عبده العاصي عندكم • ولم يعف •

نعوذ بالله من هذه القبائح • ومن التزام هذه الفضائح ، وتتبع جهالات الجاهل • بحل معقول العقال •

على أن كلام هؤلاء القوم ، لا يستحق أن يسمع ، إذ ليس لهم في العقول مطمع ، ولكثرة فساد كلامهم ، يحار التحرير الناظر في هديانهم ، فيظل متعجبا ، وينشد متهما :

تفرقت الأطباء على خراش فلا يدري خراش ما يصيد

وأنا أكرر الاستغفار من حكايات كلامهم ، وأسأله النفع باظهار فساد كلامهم • ومع ذلك فقد أصبنا منهم غرضا • وصادفنا منهم مقتلا • ولئن زادوا ، زدنا • وان عادوا ، عدنا •

ان عادت العقرب عدنا لها وكانت النمل لها حاضرة



وينبغي أن نختم الكتاب بدعاء مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلعل الواقف على كتابي هذا ، يؤمن عند خاتمته ، وعسى الله أن يشركننا في صالح دعوته •

(١) « ملكه » : الأولى بكسر الميم ، والثانية بضمها •

نأقول : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ، ما تحول بيننا ، وبين معاصيك • ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك • ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا • ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا • واجعله الوارث منا • واجعل ثأرنا على من ظلمنا • وانصرنا على من عادانا • ولا تجعل مصيبتنا في ديننا • ولا تجعل الدنيا أكبر همنا • ولا مبلغ علمنا • ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » آمين • آمين •

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة على محمد سيد المرسلين ، وسلام عليه ، وعليهم في العالمين ، وعلى صحبه أجمعين ، وعلى التابعين لهم بإحسان الى يوم الدين •



نجز الكتاب المبارك بحمد الله وعونه ، وحسن توفيقه على يد العبد الفقير ، الى الله تعالى : على بن محمد بن عانبه • الفيومي نسبا • والشافعي مذهباً • حامداً لله ، ومصلحاً ، ومسلماً ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، في سابع عشرين شهر ربيع أول سنة تسع وسبعين وثمانى مائة •



قال في أصل النسخة : وكان الفراغ منه ضحوة سادس شهر شعبان سنة ست وعشرين وسبع مائة بدمشق المحروسة ، والحمد لله رب العالمين •



تم الجزء الرابع من كتاب « الاعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام • واطهار محاسن دين الاسلام • واثبات نبوة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام » وبتمامه تم الكتاب كله • يعون الله • وكان الفراغ من تحقيقه والتعليق عليه والتقديم له في يوم السبت العشرين من شهر شوال سنة ثمان وتسعين وثلثمائة والف من الهجرة الموافق الثالث والعشرين من شهر سبتمبر سنة ألف وتسعمائة وثمان وسبعين من الميلاد • في مدينة القاهرة •

ملحق

في تقديمنا لهذا الكتاب تحدثنا في مبحثين اثنين هما ١ - الأقانيم
٢. - والمسيا المنتظر - بفتح الميم وكسر السين وتشديد الياء مفتوحة -
ومع كتابتهما كتبت مبحثا ثالثا عن « مبادئ النصرانية » ورأيت أن
أضعه في نهاية الكتاب كملحق لأن فهمه يتعسر على القارئ أو السامع
إذا لم يقرأ قبله المبحثين وكتاب « الاعلام » هذا ، أو كتبها فيها ما يساعد
على الفهم • « وعلى الله قصد السبيل » (١) •

د • أحمد حجازي السقا

مبادئ النصرانية

أى سفر من أسفار الكتب المقدسة عند النصارى يمكن أن تظهر لنا منه بوضوح مبادئ النصرانية ؟

ليس غير سفر أعمال الرسل ، المسمى باللغة اليونانية : « الأبركسيس » فان هذا السفر الموضوع بعد الأناجيل الأربعة لا يحكى فقط عن نمو الجماعة النصرانية الأولى ، بل يحكى للناس جميعا : كيف اتفق بطرس وبولس ويعقوب ومن نحا نحوهم فيما ذهبوا اليه على تغيير دعوة المسيح عيسى ابن مريم — عليه السلام — الأصلية . وقبل أن نبين ما اتفقوا عليه نقول أولا : لماذا اتفقوا على ما ذهبوا اليه ؟ هل « حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق » (١) كما فى القرآن الكريم .

انهم يعلمون علم اليقين من أ — توراة موسى عليه السلام (الأسفار الخمسة) ب — ومن أسفار الأنبياء الذين ظهروا من بعد موسى عليه السلام ، يعلمون أن نبيا سيظهر للعالم (٢) . قال عنه بطرس : « فان موسى قال للرباء : ان نبيا مثلى سيقم لكم الرب الهكم من اخوتكم . له تسمعون فى كل ما يكلمكم به . ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبى تباد من الشعب » (أ ع ٣ : ٣٢ — ٣٣) وهذا النبى يعلمون : أنه ليس عيسى عليه السلام ، لأنه من بنى اسرائيل . ولو كان النبى الآتى من بنى اسرائيل لقال : « من أنفسكم » ، ولأنه ليس مماثلا لموسى فى ١ — الحروب ٢ — والمعجزات ٣ — والانتصارات على الأعداء (تث ٣٤ : ١٠ — ١٢) : فان الذى لم يسمع لكلامه : لم يئده الرب من الشعب على يديه ، كما أبادهم على يد نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم .

(١) البقرة : ١٠٩ .

(٢) انظر الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنية ، وسفر التثنية من الأسفار الخمسة ١٠

وهذا النبي يعلمون أنه سيكون ناسخا لشريعة موسى عليه السلام .
 فان من أوصافه : « له تسمعون في كل ما يكلمكم به » لقد اتفقوا على
 استبدال نبي بنبي • نبي تحدثت عنه نبوءات التوراة وهو : « محمد »
 صلى الله عليه وسلم بنبي لم يود له ذكر في أى سفر وهو « عيسى »
 عليه السلام • وفي سبيل ذلك لا بد من أن يتفادوا أمرين اثنين لا
 ثالث لهما : الأول : النبوءات التى تحدثت عن محمد صلى الله عليه
 وسلم • والثانى : الشريعة التى سيبلغها النبي المنتظر للناس عن
 أمر الله عز وجل ، مناسبة للزمان الذى سيظهر فيه • فماذا قالوا لتفادى
 هذين الأمرين ؟

قالوا : ان النبوءات يجب أن تطبق على عيسى عليه السلام •
 وقالوا : نعمل شريعة جديدة فيها من تعاليم موسى وفيها من تعاليم
 الرومانيين ، وننسبها الى عيسى عليه السلام • وكيف ينسبون لها اليه
 وقد رفع الى السماء وهو لا يعلم عنها شيئا ؟ هذا اشكال اعترضهم •
 ولكنهم تفادوه أيضا بزعمهم : أن عيسى عليه السلام نزل من السماء
 بعد سنين من رفعه اليها وقابل « بولس » وهو منطلق الى مدينة
 « دمشق » في « رؤيا » وقال له : يا بولس انطلق باذنى وأمرى بدعوتى
 الى ١ — أمم ٢ — وملوك ٣ — وبنى اسرائيل • ونسوا أن يبينوا
 ما هى الدعوة الجديدة التى لقنها عيسى لبولس ، ما بينوا قط لأن
 الظاهر من رسائل بولس أنه يدعو بدعوة من تلقاء نفسه ، ويشعر
 للناس ما استحسنه من تلقاء نفسه ، وينصح تلاميذه بما يصلح المعدة
 والبطن • وخلاصة دعوته في هذه العبارة : « الدعوة التى دعى فيها
 كل واحد ، فليلبث فيها » (١ كور ٧ : ٢٠) أى اذا دعى اليهودى الى
 النصرانية وقبل الدعوة فليعمل بحسب شريعته التى درج عليها وهى
 شريعة موسى • واذا دعى اليونانى الى النصرانية وقبل الدعوة فليعمل
 بحسب قوانين بلاده التى تحكم المواطنين وبحسب العادات والتقاليد
 التى درج عليها • • • وهكذا • يكون اسم النصرانية كمظلة على رؤوس
 الكل • والناس أحرار في أعمالهم تحت المظلة • ثم قال على سبيل
 « الاذن » : « أقول لغير المتزوجين وللأرامل : انه حسن لهم اذا لبثوا
 كما أنا • ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا ، لأن التزوج أصلح
 من التحرق • ولما المتزوجون فأوصيهم لا أنا ، بل الرب : أن لا تفارق
 المرأة زوجها ، وان فارقت فليلبث غير متزوجة أو لتصلح رجلها • »

ولا يترك الرجل امرأته • وأما الباسقون فاقول لهم أنا • لا الرب :
ان كان أخ له امرأة غير مؤمنة وهي ترتضى أن تسكن معه ، فلا
يتركها ••• الخ » (كورنثوس الأولى : ٧) •

ومن تصائحه لتيموثاوس في رسالته الأولى اليه : « لا تكن في
ما بعد شراب ماء ، بل استعمل خمرًا قليلًا من أجل معدتك وأسقامك
الكثيرة » (تيمو ٥ : ٢٣) •



ولياحظ ما نبديه الآن وهو :

أن دعوة موسى عليه السلام في أصلها كانت لبني اسرائيل ،
ومعاصريهم من الأمم • فان موسى طلب من فرعون الايمان بالله رب
العالمين ، وعدم العلو عليه • وموسى حث بني اسرائيل بعد الخروج
من مصر على فتح البلاد لنشر الايمان والعمل بالشرعية وبين لهم أن
الجنة تحت ظلال السيوف • كما بين نبي الاسلام وعيسى عليهما السلام
للأتباع الصادقين • ففي القرآن الكريم يقول الله عز وجل : « ان الله
اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل
الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن »
(التوبة : ١١١)

وأن دعوة موسى — عليه السلام — حرقها « عزرا » في مدينة
« بابل » من بعد سنة ٥٨٦ ق • م ومن التحريف الذي أقره فيها :
أن تكون دعوة موسى — عليه السلام — لبني اسرائيل من دون الناس •
ولما ظهر عيسى عليه السلام وبخ علماء بني اسرائيل على تقصيرهم
في دعوة الأمم في قوله : « ويل لكم أيها الناموسيون • لأنكم أخذتم
مفتاح المعرفة • ما دخلتم أنتم • والداخلون منعتموهم » (لو ١١ : ٥٢)
ثم قال لتلاميذه :

١ — انطلقوا أولا بالضرورة الى بني اسرائيل بالدعوة •

٢ — ثم ثانيا بعد أن يعلم ويفهم جميع بني اسرائيل انطلقوا
الى الأمم •

قال متى عن الأمر الأول والثاني : « هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم
يسوع وأوصاهم قائلًا : الى طريق أمم لا تمضوا والى مدينة

للسامريين لا تدخلوا • بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة • وفيما انتم ذاهبون اكرزوا قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات » (متى ١٠ : ٥ - ٧) •

وقال متى عن الأمر الأول والثانى : ان امرأة من نساء الكتعانيين « اهل فلسطين » طلبت من المسيح أن يشفى ابنتها من الجنون « فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها • لأنها تصيح وراءنا • فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة • فأنت وسجدت له — أى أعطته التحية — قائلة : يا سيد : أعنى • فأجاب وقال : ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين وي طرح للكلاب • فقالت : نعم يا سيد • والكلاب أيضا تاكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها • حينئذ أجاب يسوع ، وقال لها : يا امرأة • عظيم ايمانك • ليكن لك كما تريد ، فشفيت ابنتها من تلك الساعة » (متى ١٥ : ٢١ - ٢٨) باستثناء تشبيه الأمم بالكلاب فى هذا النص ومستبعد أن يحدث هذا التشبيه من المسيح صاحب الخلق الرفيع — فانه نص فى دعوة الأمم بعد ما يفهم الدعوة بنو اسرائيل الذين يشبهون الخراف الضالة فى غلاة من الأرض بسبب التواء علماء بنى اسرائيل فى تعليمهم •

وقال متى عن الأمر الثانى : ان المسيح بعدما رفع الى السماء ، نزل ثانية الى الأرض وكلمهم قائلا : « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم » (متى ٢٨ : ١٩) •

وانطلاق التلاميذ الى الأمم — حسب كلام المسيح نفسه — على النحو التالى :

١ — أن تؤمن الأمم بالاله الواحد ، المتصف بكل كمال والمنزه عن كل نقص ، الذى لا يرى ولا يقدر أحد أن يراه وليس كمثله شئ • كما نص كتاب موسى عليه السلام •

٢ — أن تعمل الأمم بشريعة موسى عليه السلام •

٣ — أن يعلموا أن نبيا من العرب سيظهر لينسخ شريعة موسى • هو محمد صلى الله عليه وسلم •

٤ — وعلى الأمم اذا ظهر هذا النبى العربى أن يتركوا العمل بشريعة موسى وأن يعملوا بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم •

ولكن بطرس وبولس ويعقوب وأتباعهم غيروا كلام المسيح نفسه •
فجعلوا النصرانية ديناً عالمياً لا على كلام المسيح السابق ذكره بل
على أن عيسى هو كان النبي المنتظر ، وما عرفوا أنه هو إلا بعد قتله
وصلبيه كما يزعمون ، وعلى أن الانجيل شريعة يجب التعبد على أحكامها •
وعلى أن عيسى خاتم النبيين ولا نبي من بعده الى يوم القيامة •

وغير خاف مما قدمنا على ذي بصيرة أنهم اتفقوا لكرهيتهم للعرب
أبناء اسماعيل عليه السلام أن يخضعوا لأحكامهم ، وأن لا يكون لهم
فضل في دولتهم ، والا لماذا تفادوا مجيء النبي الآتي منهم من قبل
مجيئه ، وطبقوا النبوءات على واحد من بنى اسرائيل ؟ لقد فكر اليهود
في عالمية الدعوة ثانياً في شكل النصرانية ليكسبوا أنصاراً جدداً يقاومون
بهم العرب اذا ظهر النبي منهم وانضم حوله الأتباع من كل جنس •
ولأنهم يخزون اذا رجعوا الى الأصل ، تظاهر منهم من تظاهر بالاخلاص
للمسيح وعملوا العالمية في شخصه لأنه منهم وأتباعه بالضرورة سيكونون
اليهود « بعضهم أولياء بعض » (المائدة : ٥١) لأن الاناجيل مبنية
على كتاب التوراة وأسفار الأنبياء •

ولنبيين الأمرين هنا فنقول :

أولاً — النبوءات :

يحكى هذا السفر أن بطرس تلميذ عيسى عليه السلام الذي لم
نصحبه بعدم دخول اورشليم خوفاً عليه من اليهود « التفت وقال
لبطرس : اذهب عني يا شيطان • أنت معثرة لى • لأنك لا تهتم بما لله •
لكن بما للناس » (متى : ١٦ : ٢٣) بطرس هذا هو أول من خطب في
النصارى وكان عدتهم يومئذ « نحو مئة وعشرين » مبيناً أن نبوءات
التوراة وأسفار الأنبياء يجب أن تطبق على عيسى عليه السلام حتى
لا ينتظر الناس نبياً من بعده سواء كان آتياً من اليهود — كما يدعى
اليهود — أو كان آتياً من بنى اسماعيل كما يقول العرب وعيسى
ابن مريم نفسه (أعمال : ١ : ٢٠) •

وفي الخطبة الثانية لبطرس وهي في الاصحاح الثاني من هذا
السفر يواجه اليهود بأن داوود عليه السلام قال في سفر الزبور عن
النبي المنتظر : « ان الله مريض أعداءه تحت قدميه » ونحن نعلم أن

عيسى لم يضع أعداءه تحت قدميه فكيف نطبق هذه النبوءة عليه ؟ قال بطرس : لنقل ان عيسى لم يمت • لنقل انه وان رفع ما يزال حيا • وليسوف يرجع ليحارب أعداءه وينتصر عليهم ويضعهم تحت قدميه • والدليل على أنه حي : أنه لما قتل ووضع في القبر ردت اليه الروح وانتصر على الموت وصعد الى السموات العلى ومن كان شأنه هكذا فلا يستبعد منه الرجوع ثانية الى الدنيا ليدين الأحياء والأموات • وما يزال النصارى الى اليوم يعتقدون في نزول المسيح لينتصر على أعدائه ، ويزعمون أنه في غيبة والملك له سيرجع كما كان ملك داود وسليمان عليهما السلام في الزمان القديم • لقد عقد مقارنة بين داود وعيسى في أمرين اثنين هما ١ — الملك ٢ — والموت فقال : كان داود ملكا ومات • وقبل موته تنبأ عن عيسى الذى سيكون ملكا قبل موته أى موت عيسى • وحيث ان عيسى مات من قبل أن يكون ملكا • اذن هو في « غيبة » وسيرجع حسب تنبوء داود نفسه • ولقد كذب بطرس والحاكى عن بطرس بشهادة المسيح نفسه • ذلك لأن بطرس استدل بقول داود عن النبى المنتظر : « قال الرب لربى : اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك » زاعما أن داود يشير الى عيسى عليه السلام ، مع أن عيسى عليه السلام — كما سبق أن بينا — قال : إن الذى يشير اليه داود ليس من اليهود عموما لأنه عبر عنه بسيدته والابن لا يكون سيدا لأبيه وفي هذه الخطبة جهر بطرس بأن عيسى عليه السلام « ربا ومسيحا » من قبل أن يجهر بولس • ومن كلام بطرس في هذه الخطبة : « أيها الرجال الاخوة يسوع أن يقال لكم جهارا عن رئيس الآباء داود : انه مات ودفن وقبره عندنا حتى هذا اليوم • فاذا كان نبيا وعلم أن الله حلف له بقسم : أنه من ثمرة صلبه يقيم المسيح حسب الجسد ليجلس على كرسيه ، سبق قرأى وتكلم عن قيامة المسيح : أنه لم تترك نفسه في الهاوية ولا رأى جسده خبيثا • فيسوع هذا أقامه الله ونحن جميعا شهود لذلك • واذا ارتفع يقيم الله وأخذ موعد الروح القدس من الآب ، سكب هذا الذى تبصرونه وتسمعون • لأن داود لم يصعد الى السموات • وهو نفسه يقول : قال الرب لربى : اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك • فليعلم يقينا جميع بيت اسرائيل : أن الله جعل يسوع هذا الذى صليتموه أنتم ربا ومسيحا »

وفي المخطبة الثالثة لبطرس وهي في الاصحاح الثالث من سفر الأعمال ، يطبق كلام موسى في الأسفار الخمسة عن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم على عيسى عليه السلام . يقول لليهود : « لقد قام عيسى من الأموات وغاب عن الدنيا ، وسيرجع ليملك عليكم وعلى العالم ويؤسس مملكة لن تتقرض أبدا . ولماذا لا يرجع وموسى وعد بنبي على مثاله ليس هو غير يسوع المسيح » ؟ ولقد كذب بطرس والحاكي عن بطرس فان موسى لمسا وعد بنبي على مثاله قال أيضا : « لن يكون مثلي في بنى اسرائيل » فكيف يكون المماثل لموسى يسوع المسيح وهو من بنى اسرائيل ؟ ومن كلام بطرس في هذه الخطبة : « والآن أيها الاخوة أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما رؤساؤكم أيضا . وأما الله فما سبق وأنبا به بأفواه جميع أنبيائه : أن يتألم المسيح قد تممه هكذا . فتوبوا وارجعوا لتمحي خطاياكم لكي تأتي أوقات الفرج من وجه الرب ، ويرسل الله — أى الله — يسوع المسيح ، المبشر به لكم قبل ، الذي ينبغي أن السماء تقبله الى أزمنة رد كل شيء التي تكلم عنها الله بفم جميع أنبيائه القديسين منذ الدهر . فان موسى قال للآباء : ان نبيا مثلي سيقم لكم الرب الهكم من اخوتكم . له تسمعون في كل ما يكلمكم به . ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب وجميع الأنبياء أيضا : من صموئيل فما بعده ، جميع الذين تكلموا سبقوا وأنباوا بهذه الأيام . أنتم أبناء الأنبياء والمعهد الذي عاهد به الله آباءنا قائلًا لابراهيم : وينسلك تتبارك جميع قبائل الأرض » الخ .



لقد تعسف بطرس في تأويل النبوءات تعسفا ممقوتا خرج به عن الواقع الحقيقي . فمن ذا الذي يصدق أن عيسى يعد قتله دخلا النار ثم خرج من النار حيا ليجلس في السماء . ومؤرخو القرن الأول للميلاد كتبوا أن عيسى لم يقتل ولم يصلب ؟ لقد تعسف بطرس ليطبق النبوءات على عيسى ، غير مبال بالحقائق التاريخية الثابتة . وغير مبال بالأوصاف التي تدل على النبي المنتظر من نص النبوءات . وغير مبال بمساق العبارات لمربط النبوءة بما قبلها وبما بعدها من التعابير . وأيضا غير مبال بالمحكم والمتشابه في نصوص التوراة والانجيل . ولكي يبرر النصراني خطؤه العمد وغلطه وتناقضه : ادعوا أنه كان من العوام الأميين غير الفاروسيين وأنه ما قال بما قال الا بالهام من البروح القدس .

ففى سفر الأعمال : « فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا ووجدوا أنهما انسانان عديما العلم ، وعاميان تعجبوا • فعرفوهما أنهما كانا مع يسوع » (أع ٤ : ١٣) •

وفى الخطبة الرابعة لبطرس وهى فى الاصحاح الرابع من سفر الأعمال يعمد الى تطبيق نبوءة قالها داوود عليه السلام عن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم ، يعمد الى تطبيقها على عيسى عليه السلام متجاهلا أن عيسى نفسه — كما روى متى — لم يطبقها على نفسه بل طبقها على نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم •

يحكى الكاتب أن بطرس شفى رجلا أعرج ، ولما استدعاه رؤساء اليهود ليسألوه : بأية قوة وبأى اسم صنعت هذا ؟ « قال لهم : يا رؤساء الشعب وشيوخ اسرائيل : ان كنا نفحص اليوم عن احسان الى انسان سقيم ، بماذا شفى هذا ؟ فليكن معلوما عند جميعكم وجميع شعب اسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصرى الذى صلبتموه أنتم ، الذى أقامه الله من الأموات • بذاك وقف هذا أمامكم صحيحا • هذا هو الحجر الذى احتقرتموه أيها البناؤون الذى صار رأس الزاوية » (١) الخ

انظر • لقد قال لهم ان عيسى ابن مريم « هو الحجر » فما قصة هذا الحجر ؟



تبدأ قصته من النبي داوود عليه السلام فقد نطق نبوءة عن النبي المنتظر المماثل لموسى عليه السلام فى المزمور المئة والثامن عشر بين فيها أن النبي المنتظر سيتألم من اعراض الناس عن دعوته ولكن الله لن يسلمه الى أيدي أعدائه ليقتلوه • وأن هذا النبي سيرفضه اليهود لأنه من غير جنسهم ، انه من نسل المصرية هاجر جارية ابراهيم عليه السلام ، ونسلها لا قيمة له فى نظر اليهود كالحجر الذى يرفض البناؤون وضعه فى البناء • وأن هذا النبي سيكون مباركا من قبل الله • ومن عبارات داوود : ١ — الاحتماء بالرب خير من التوكل على انسان • الاحتماء بالرب خير من التوكل على الرؤساء • كل الأمم أحاطوا بى • باسم الرب أبيدهم • أحاطوا بى واكتفونى • باسم الرب أبيدهم •

(١) انظر أيضا الرسالة الأولى لبطرس : الاصحاح الثانى •

أَخَاطُوا بَنِي مَثَلِ الْفُتُلِ • أَنْطَفَأُوا كَنَارَ الشُّوْكِ • بِاسْمِ الرَّبِّ أَبِيدْهُمْ »
 (٢) — « أَفْتَحُوا لِي أَبْوَابَ الْبَرِّ : أَدْخُلْ فِيهَا وَأَحْمَدِ الرَّبَّ • هَذَا الْبَابُ
 لِلرَّبِّ • الصَّدِيقُونَ يَدْخُلُونَ فِيهِ • أَحْمَدُكَ لِأَنَّكَ اسْتَجَبْتَ لِي ، وَصَرْتَ لِي
 بِخَلَاصٍ • الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَاءُونَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ • مَنْ
 قَبْلَ الرَّبِّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا » ٣ — « مَبَارَكَ الْآتِي بِاسْمِ
 الرَّبِّ » •

وفي إنجيل متى ومرقس ولوقا نجد عيسى ابن مريم عليه السلام
 يقول لعلماء بني إسرائيل : ان هذا النبي الذي يتحدث عنه داوود سيأتي
 من بعدى • وسيستلم الملك منكم والشريعة • ولما اغتاطوا منه لذلك
 وأوَادُوا قَتْلَهُ خَافُوا مِنْ ثَوْرَةِ الْعَامَةِ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُحِبُّونَ الْمَسِيحَ •
 قَالَ الْمَسِيحُ : أَنْكُمْ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ كَعَمَالٍ فِي حَقْلِ اثْتَمَنْتُمْ صَاحِبَكُمْ
 عَلَيْهِ ، وَلَمَّا أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لِيَحَاسِبَكُمْ قَتَلْتُمُ الْمُرْسَلِينَ وَأَهَنْتُمُوهُمْ • وَمَا
 أَجْزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا أَنْ تَسْحَبَ مِنْهُ الثَّقَةُ إِلَى غَيْرِهِ لِيَقُومَ ذَلِكَ الْغَيْرُ
 بِالْعَمَلِ وَأَدَاءِ الْحَقِّ • وَلَمَّا قَالَ مَا مَعْنَاهُ هَذَا قَالَ لَهُ الْعُلَمَاءُ وَقَدْ فَهَمُوا
 مَعْنَى كَلَامِهِ : « حَاشَا » أَيْ لَنْ يَحْصُلَ لَنَا ذَلِكَ • « فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَقَالَ :
 لَئِنْ مَا هُوَ هَذَا الْمَكْتُوبُ : الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَاءُونَ هُوَ قَدْ صَارَ
 رَأْسَ الزَّاوِيَةِ • كُلُّ مَنْ يَسْقُطُ عَلَى ذَلِكَ الْحَجَرِ يَتَرَضَّضُ ، وَمَنْ سَقَطَ هُوَ
 عَلَيْهِ يَسْحَقُهُ • فَطَلَبَ رُؤُسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ أَنْ يَلْقُوا الْأَيْدِيَ عَلَيْهِ فِي
 تِلْكَ السَّاعَةِ ، وَلَكِنْهُمْ خَافُوا الشَّعْبَ • لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ قَالَ الْمَثَلُ عَلَيْهِمْ »
 (لوقا ٢٠ ، متى ٢١ ، مرقس ١٢) •

لقد أشار بالمكتوب إلى الزبور المئة والثامن عشر وطبقه حرفياً على
 نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم وبين أنه لن يقتل كما قال داوود ،
 وأنه إذا قصد قوما بالحرب أهلكتهم • وإذا هم قصدوه أهلكتهم • كالحجر
 القوي من ينطحه لا يؤثر في الحجر بل يؤثر في نفسه هو • وإذا وقع
 الحجر على شيء أثر فيه ، أما الحجر نفسه فلا يتأثر • ولم يكن بهذه
 الصفة عيسى عليه السلام •

وفي إنجيل متى ولوقا أيضاً نجد المسيح يقول : سيأتي من بعدى
 الذى قال عنه داوود : « مَبَارَكَ الْآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ » قَالَ الْمَسِيحُ لِعُلَمَاءِ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ : « هُوَ ذَا بَيْتِكُمْ — أَيْ هَيْكَلُ سَلِيمَانَ فِي الْقُدْسِ — يَتَرَكُ
 تَكُمْ خَرَاباً • وَالْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ : أَنْكُمْ لَا تَرَوْنَنِي حَتَّى يَأْتِيَ وَقْتُ تَقُولُونَ:
 هَيْه : مَبَارَكَ الْآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ » (لوقا ١٣ ، متى ٢٣) •

لقد تجاهل بطرس هذا كله • وزعم أن المقصود من كلام داوود عليه السلام هو عيسى عليه السلام • مخالفاً بذلك كلام عيسى نفسه • وما تدل عليه النبوة من الأوصاف •

ورجع بطرس الى النصارى الذين كانوا قد بلغوا يومئذ « نحو خمسة آلاف » ليتلو معهم نبوءة أخرى من نبوءات داوود على نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم مفسرين لها تفسيراً لا تفره اللغة • هي نبوءة « ابن الله » التى هى اصل اقنوم « الابن » عند النصارى • يقول داوود عليه السلام فى المزمور الثانى : « لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب فى الباطل ، قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب ومسيحه • • • الخ » انه يبين فزع الأمم ، لا أمة واحدة • من النبي الآتى المماثل لموسى ، وأن الأمم ، لا أمة واحدة ، سيفكرون معاً فى مقاومة دعوته ، وأن ملوك الأرض ، لا ملك أرض واحدة ، سيقومون متآمرين عليه لهلاكه • وانهم بمناوآته يقاومون الله الذى سيرسله ومن أجل ذلك « الرب يستهزئ بهم » كما يقول داوود عليه السلام •

هذا هو معنى كلام داوود بحسب اللغة ، ولكن كاتب سفر الأعمال يروى التفسير هكذا : « أيها السيد — يخاطبون الله — أنت هو الاله الصانع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ، القائل بفم داوود فتاك : لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب بالباطل ، قامت ملوك الأرض واجتمع الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه • لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذى مسحته : هيرودس ، وببلاطس البنطى ، مع أمم وثعوب اسرائيل » (أع ٤ : ٢٤ — ٢٦) • يريد أن يقول : ان هيرودس وببلاطس والواليان على اليهود هما ملوك جميع الأرض • وهما رؤساء دول العالم فهل هذا صحيح ؟ ويريد أن يقول : ان شعب اسرائيل كله هو أمم العالم وثعوب العالم • فهل هذا صحيح ؟ أى تفسير أشد التواء من هذا التفسير ؟ ومع قوله هذا لم يسلم له انتصار النبي المنتظر • لأن نبوءة داوود توضح أنه لن يقتل بيد أعدائه وقد صرحوا بقتل عيسى عليه السلام الذين جعلوه هدفاً للنبوءات • وليست له •

وفي الخطية التي ألقاها بطرس في مدينة « قيصرية » أمام « كرنيليوس » وهي في الاصحاح العاشر من سفر الأعمال زعم أن النبي يحيى عليه السلام كان يبشر بمجىء عيسى عليه السلام ولم يكن يبشر بمجىء محمد صلى الله عليه وسلم . قال يحيى عليه السلام : « يأتى بعدى من هو أقوى منى : الذى لست أهلا أن أنحنى وأحل سبور حذائه . أنا عمدتكم بالماء ، وأما هو فسيعمدكم بالروح القدس » (مرقس ١ : ٧) ولم يكن عيسى من بعده بل كان معه . ودعا معه بنفس الدعوة التي دعا بها يوحنا المعمدان « النبي يحيى » دعوا معا بصوت واحد : « اقترب ملكوت السموات » (متى ٣ : ٢ و ٤ : ١٧) زعم بطرس أمام « كرنيليوس » أن يسوع المسيح هو الذى قال عنه يوحنا : « يأتى بعدى من هو أقوى منى ... الخ » مع أن المسيح لم يكن أقوى من يوحنا ، كانا من الدعاة الفقراء ، ولم يكونا من الملوك الأغنياء . كانا من الأنبياء ، ولم يكونا من الأنبياء الملوك كداوود وسليمان عليهما السلام .

« ففتح بطرس فاه . وقال : بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه ، بل في كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده ، الكلمة التي أرسلها الى بنى اسرائيل يبشر بالسلام بيسوع المسيح . هذا هو رب الكل . أنتم تعلمون الأمر الذى صار في كل اليهودية مبتدئا من الجليل بعد المعمودية التي كرز بها يوحنا ، يسوع الذى من الناصرة كيف مسح الله بالروح القدس والقوة . الذى جال يصنع خيرا ويشفى جميع المتسلط عليهم ابليس ، لأن الله كان معه . ونحن شهود بكك ما فعل في كورة اليهودية وفي اورشليم ، الذى أيضا قتلوه معلقين لياه على خشبة . هذا أقامه الله في اليوم الثالث وأعطى أن يصير ظاهرا ، ليس لجميع الشعب ، بل لشهود سبق الله فانتخبهم . لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات ، وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله : ديانا للأحياء والأموات . له يشهد جميع الأنبياء : أن كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا » (أ ع ١٠ : ٣٤ — ٤٣) .



وقد اقتفى بولس أثر بطرس في تطبيق النبوءات قسرا على المسيح ابن مريم عليه السلام . إذ أنه انطلق الى بلاد العرب من

دمشق ثم رجع اليها ثم بعد ثلاث سنين صعد الى « اورشليم » ليتعرف ببطرس ، ومكث عنده خمسة عشر يوما ورأى يعقوب صديق بطرس وحوارى المسيح ورأى أيضا يوحنا وبرنابا (غلاطية ١ ، ٢) ورجع ليردد نفس الافكار التى صرح بها بطرس ، لا يرددها فى اورشليم وحدها ، بل فى كل مكان تطؤه قدماه . ففى مدينة « انطاكية بيسيدية » دخل مجمعا من مجامع اليهود — كما فى الاصحاح الثالث عشر من سفر الأعمال — وشرح نبوءة يوحنا المعمدان كما شرحها بطرس ، وشرح أيضا نبوءة المزمور الثانى كما شرح بطرس . قال بولس : « أيها الرجال الاسرائيليون ، والذين يتقنون الله : اسمعوا . الله شعب اسرائيل هذا : اختار آباءنا ورفع الشعب فى الغربية فى أرض مصر . وبذراع مرتفعة أخرجهم منها . ونحو مدة أربعين سنة احتمل عوائدهم فى البرية ، ثم أهلك سبع أُمم فى أرض كنعان وقسم لهم أرضهم بالقرعة . وبعد ذلك فى نحو أربعمئة سنة وخمسين سنة أعطاهم قضاة حتى صموئيل النبى . ومن ثم طلبوا ملكا فأعطاهم الله شاول ابن قيس ، رجلا من سبط بنيامين أربعين سنة ، ثم عزله وأقام لهم داوود ملكا ، الذى شهد له أيضا اذ قال : وجدت داوود بن يسى ، رجلا حسب قلبى الذى سيصنع كل مشيئتى . من نسل هذا حسب الوعد أقام الله لاسرائيل مخلصا : يسوع . اذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب اسرائيل ولما صار يوحنا يكمل سعيه جعل يقول : من تظنون أنى أنا ؟ لست أنا اياه . لكن هو ذا يأتى بعدى الذى لست مستحقا أن أحل حذاء قدميه (١) .

أيها الرجال الاخوة بنى جنس ابراهيم ، والذين بينكم يتقنون الله : اليكم أرسلت كلمة هذا الخلاص ، لأن الساكنين فى اورشليم ورؤساءهم لم يعرفوا هذا .

وأقوال الأنبياء التى تقرأ كل سبت تتموها ، اذ حكموا عليه ، ومع أنهم لم يجدوا علة واحدة للموت طلبوا من بيلاطس أن يقتل ، ولما تتموا كل ما كتب عنه ، أنزلوه عن الخشبة ووضعوه فى قبره . ولكن الله أقامه من الأموات ، وظهر أياما كثيرة للذين صعدوا معه من الجليل الى اورشليم ، الذين هم شهوده عند الشعب .

(١) انظر أيضا أول الاصحاح التاسع عشر من سفر الأعمال .

ونحن نبشركم بالموعد الذى صار لآبائنا : ان الله قد أكمله هذا
اللفظ ، نحن أولادهم • اذ أقام يسوع كما هو مكتوب أيضا فى المزمور
الثانى : أنت ابنى ، أنا اليوم ولدتك • الخ » •

وفى مدينة « دمشق » أيضا جهر بولس بأن يسوع المسيح هو
ابن الله ، الذى تتبأ عنه داوود عليه السلام فى المزمور الثانى ، وأن
يسوع المسيح هو المسيا • تماما كما قال بطرس • زعم بولس أنه
رأى المسيح فى « رؤيا » وأن المسيح زجره ووبخه على اضطهاده
لأتباعه ، وصرح له بأن ينطلق الى الأمم بالانجيل وأنه كما فى الاصحاح
التاسع من سفر الأعمال « جعل يكرز فى الجامع بالمسيح أن هذا
هو ابن الله ، فبهت جميع الذين كانوا يسمعون ، وقالوا : أليس هذا
هو الذى أهلك فى اورشليم الذين يدعون بهذا الاسم ، وقد جاء الى
هنا ليسوقهم موثقين الى رؤساء الكهنة ، وأما شاول فكان يزداد قوة ،
ويحير اليهود الساكنين فى دمشق محققا : أن هذا هو المسيح » •



« كان تلميذ من تلاميذ المسيح اسمه « فيلبس » من القرية التى
منها « بطرس » وهى « بيت صيدا » قال لصديق له : « وجدنا الذى كتب
عنه موسى فى الناموس ، والأنبياء : يسوع ابن يوسف ، الذى من
الناصره » فرد عليه بقوله : « أمن الناصرة يمكن أن يكون شىء صالح ؟
ثم قال للمسيح : « يا معلم أنت ابن الله ، أنت ملك اسرائيل » (يوحنا
١ : ٤٤ — ٤٩) ففيلبس فى محاولة جر رجل صديقه الى الايمان بدعوة
المسيح زعم أن المسيح هو الذى تحدثت عنه الأسفار الخمسة وأسفار
الأنبياء الذين ظهروا من بعد موسى • مع أن الأسفار الخمسة وأسفار
الأنبياء لا تشير بكلمة واحدة الى يسوع المسيح لأنه من بنى اسرائيل ،
ومستبعد من أنبياء بنى اسرائيل نسخ شريعة موسى ، فلماذا ينبه الله
على مجيء نبي من بنى اسرائيل ؟ ان التنبيه لازم على من يحق له
نسخ شريعة موسى ، لأنها كلام الله فى الأصل ولا يترك كلام الله الذى
نشأت عليه أجيال الى من سيقول ان معنى كلام الله المناسب لزماننا
هذا بسهولة ، لأن التصريح بنسخ شريعة ليس بالأمر الهين ، خاصة وأن
الشريعة المنسوخة لليهود وأن الناسخ ليس منهم ، بل من جنس آخر
هم العرب أبناء النبي اسماعيل عليه السلام • وصديقه يؤمن على

أساس أن المسيح هو ابن الله الذى أشار اليه داوود بظهر الغيب وبين في أوصافه انه سيكون رئيسا مطاعا ، أى ملكا • والمسيح لم يكن رئيسا ولا ملكا فقد قال : « أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » ولم يقع كاتب الانجيل في هذا الخطأ وحده ، وانما وقع في خطأ آخر وهو قوله : « وجدنا الذى كتب عنه موسى في الناموس والأنبياء » فان موسى تارك للناموس • وليس هو بتارك لأسفار الأنبياء • وكيف يترك كتبنا نسبت لأصحابها من بعد موتهم ، وأصحابها ظهوروا من بعده بسنين ؟

يحكى لوقا كاتب سفر أعمال الرسل — كما يزعمون في بعض الروايات — أن فيلبس هذا كان من أهل الخطوة كالياس النبى عليه السلام ، وقد وجد وزيرا من أهل الحبشة فدعاه الى النصرانية فقبل الدعوة ، ولما رأى ماء قال لفيلبس « ماذا يمنع أن أعتمد ؟ » أى أستحم بالماء لأدخل في الدين على طهارة « فقال فيلبس : ان كنت تؤمن من كل قلبك يجوز • فأجاب وقال : أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله » فعمده فيلبس لقوله هذا (أعمال : ٨) وعلى ذلك كان فيلبس شريكا لبطرس وبولس في تطبيق نبوءة الابن على عيسى المسيح عليه السلام •



واشترك في تطبيق نبوءة المسيا على عيسى عليه السلام معهم يهودى من يهود « الاسكندرية » اسمه : « أبلاوس » فقد جاء عنه في الأصحاح الثامن عشر من سفر الأعمال : « انه كان باثتداد يفهم اليهود جهرًا ، مبينا بالكتب : أن يسوع هو المسيح » •



أما عن نبوءة « ابن الانسان » صاحب « ملكوت السموات » ويسمى أيضا « ملكوت الله » فأشهر من طبقها على عيسى عليه السلام رغم أنه : « استفانوس » و « بولس » •

وأصل نبوءة « ابن الانسان » من التوراة من سفر النبى المعظم دانيال • كان دانيال في مدينة « بابل » في عهد الملك « نبوخذناصر » ورأى الملك هذا أحلاما أطارته عنه للنوم ، ولما طلب من الحكماء تعبير الحلم لم يستطيعوا التعبير ، لأن الله عز وجل ما ألهم التعبير لغير النبى دانيال ، الذى سبح الله ومجده بقوله : « ليكن اسم الله

مباركا من الأزل وإلى الأبد لأن له الحكمة والجبروت ، وهو يغير الأوقات والأزمنة ، يعزل ملوكا وينصب ملوكا • يعطي الحكماء حكمة ويعلم العارفين فهما • هو يكشف العمائق والأسرار • يعلم ما هو في الظلمة وعنده يسكن النور » (دانيال ٢ : ٢٠ — ٢٣) وقال دانيال للملك (١) : رأيت في حلم « تمثالا » ١ — رأسه من ذهب جيد ٢ — صدره وقراعه من فضة ٣ — بطنه وفخذه من نحاس ٤ — ساقاه من حديد ٥ — قدماه بعضهما من حديد والبعض من خرف •

(ب) ورأيت « حجرا » هوى بقوة شديدة على « التمثال » ف ضرب قدميه ، فوقع على الأرض مهشما • وصار « الحجر » : « جبلا كبيرا » بعد ما حطم التمثال وهشمه • هذا هو الحلم أيها الملك • واليك تعبيره :

١ — رأس التمثال : مملكة بابل ٢ — صدر التمثال وقراعه : مملكة أخرى — هي : مملكة فارس — ٣ — بطن التمثال وفخذه : مملكة ثالثة — هي : مملكة اليونان — ٤ — ساقا التمثال : مملكة رابعة — هي : مملكة الرومان — ومملكة الرومان تكون منقسمة على ذاتها — إلى شرقية وغربية وفي أيام ملوك الرومان بعد الانقسام : « يقيم الله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملوكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد » (دانيال ٢ : ٤٤) • وهذا الحلم الذي رآه الملك نبوخذ ناصر رآه أيضا بعد ذلك دانيال نفسه بأيام • لكن بصورة غير الصورة التي رآها الملك • أما التعبير فغير مختلف عن تعبير رؤيا الملك • رأى دانيال في حلم الليل :

(أ) أربع رياح السماء هجمت على البحر الكبير — الأبيض المتوسط — (ب) وصعد من البحر أربعة حيوانات عظيمة •

١ — أسد ٢ — دب ٣ — نمر ٤ — حيوان هائل وقوى وشديد جدا • ثم رأى عقب الحيوان الرابع الهائل والقوى والشديد جدا : « ابن انسان » أعطاه الله عز وجل ملكا عظيما • قال عنه دانيال ما نصه : « كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن انسان أتى وجاء إلى القديم الأيام فقربوه قدامه ، فأعطى سلطانا ومجدا وهلكسوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة • سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض » •

ثم نطق دانيال بتعبير الحلم فقال ما نصه :
« هؤلاء الحيوانات العظيمة التي هي أربعة هي : أربعة ملوك
يقومون على الأرض • أما قديسو العلى فيأخذون المملكة ويمتلكون
المملكة الى الأبد وإلى أبد الأبدين » (دانيال ٧ : ١٧ — ١٨) •

هذه أصل نبوءة « ابن الانسان » صاحب « ملكوت السموات »
ولقد فسر هذه النبوءة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فقال : ان
« ابن الانسان » هو نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم • وأن الله
عز وجل سيعطيه ملكا عظيما • ونسب الملك الى السموات لأنها جهة
العلو في نظر الناس • وأن الناس سيتعبدون بشريعته — أى يخضعون
لله عز وجل على وفق ما فيها من بينات •

لقد حكى كتاب الأناجيل — والرواية هنا لمتى — ما نصه :
« وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلا : توبوا
لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (مت ٣ : ١ — ٢) « من ذلك الزمان
ابتدأ يسوع يكرز ويقول : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات »
(مت ٤ : ١٧) أى أن المعمدان ويسوع دعوا معا بصوت واحد الى
اقترب ملكوت السموات الذى تتبأ عنه النبي المعظم دانيال فى الاصحاح
الثانى والسابع من سفره •

وضرب المسيح ابن مريم الأمثال الكثيرة لكيفية انتشار هذا
الملكوت • ومن أمثله هذا المثل : « يشبه ملكوت السموات حبة خردل
أخذها انسان وزرعها فى حقله وهى أصغر جميع البزور • ولكن متى
نمت فهى أكبر البقول • وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتى
وتتأوى فى أغصانها » (مت ١٣ : ٣١ — ٣٢) أى أن المسلمين فى بدء
الاسلام يكونون قلة ثم يكثرون رويدا رويدا حتى يملأوا الأرض •
وهذا هو مثل المسلمين المذكور فى القرآن الكريم فى سورة الفتح يقول
تعالى : « ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطئه ، فأزره ، فاستغلظ ،
فاستوى على سوقه » (١) ولم يرد فى انجيل متى فقط ، بل ورد فى مرقس
ولوقا أيضا • قال المسيح فى رواية مرقس : « بماذا تشبه ملكوت
الله ؟ أو بأى مثل نمثله ؟ مثل حبة خردل متى زرعت فى الأرض فهى
أصغر جميع البزور التى على الأرض • ولكن متى زرعت تطلع وتصير

أكبر جميع البقول وتصنع أغصانا كبيرة حتى تستطيع طيور السماء أن تتأوى تحت ظلها » (مر ٤ : ٣٠ — ٣٣) وقال المسيح في رواية لوقا : « ماذا يشبه ملكوت الله ؟ وبماذا أشبهه ؟ يشبه حبة خردل أخذها انسان وألقاها في بستانه • فنمت وصارت شجرة كبيرة وتأوى طيور السماء في أغصانها » (لو ١٣ : ١٨ — ١٩) •

* * *

هذا هو أصل نبوءة « ابن الانسان » صاحب « ملكوت السموات » وهذا هو تفسير المسيح عيسى عليه السلام للنبوءة • فما تفسير النصارى لها من بعد المسيح ؟

في الاصحاح السابع من سفر الأعمال ، وقف « استفانوس » خطيبا بحيث يسمعه « بولس » وصرح بأن ابن الانسان هو يسوع المسيح ، وليس هو نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم كما صرح عيسى عليه السلام • وفي الاصحاح التاسع عشر من هذا السفر وفي مواضع كثيرة يردد بولس عبارات « استفانوس » الذي لم يشاهد المسيح بعيني رأسه مثل بولس • قال استفانوس : « ها أنا أنظر السموات مفتوحة ، وابن الانسان قائما عن يمين الله » لما حكى عنه الكاتب : « وأما هو فمُشخص الى السماء ، وهو ممتلئ من الروح القدس ، فرأى مجد الله ويسوع قائما عن يمين الله » (أع ٧ : ٥٥ — ٥٦) وقال الكاتب عن بولس في مدينة « أفسوس » : « ثم دخل المجمع ، وكان يجاهر مدة ثلاثة أشهر محاجا ومقنعا في ما يختص بملكوت الله » (أع ١٩ : ٨) •

* * *

يوم الرب :

ولما قال بطرس وتبعه يولس بأن عيسى لم يمت ، وأنه رفع جيا الى السماء ، وأنه سيرجع الى الدنيا ليحارب أعداءه وينتصر • ويؤسس في الدنيا ملكا كملك داوود وسليمان في الزمان القديم • علم أن الزمن اذا طال ولم ينزل عيسى سيهبأ الناس : متى يوم الرب ؟ أي متى اليوم الذي سيظهر فيه عيسى ليقيم الملك الديوي • لأنهم طبقوا بالزور نبوءات التوراة عليه • فقال في الاصحاح الثالث من رسالته الثانية : « سيأتي في آخر الأيام قوم مستهزئين ، سالكين بحسب

شهوات أنفسهم ، وقائلين : أين هو موعد مجيئه ؟ لأنه من حين رقد الآباء كل شيء باق هكذا من بدء الخليقة » ورد بقوله : « لا يخف عليكم هذا الشيء الواحد أيها الأحياء : أن يوما واحدا عند الرب كألف سنة ، وألف سنة كيوم واحد ، لا يتباطأ الرب عن وعده ، كما يحسب قوم التباطؤ ، لكنه يتأنى علينا » .

والنصارى اليوم ، طوائفهم العظمى ، على أن يوم الرب قريب ، ولكن لن ينزل عيسى بالجسد والروح ، بل بالروح دون الجسد .

* * *

ثانياً — تغيير التوراة :

لاحظ أولاً ما يلى :

يروى القرطبي الامام الفقيه المفسر في تفسير قوله تعالى عن عيسى — عليه السلام — : « **ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم** » (آل عمران : ٥٠) قول عن امام من الأئمة هو : أن عيسى — عليه السلام — ما أحل لهم الا ما حرمة علماء بنى اسرائيل على الناس لا ما حرمة الله بنص في التوراة . وهذا القول مع صوابه لم يجزم بضوابه المفسر . ولماذا لم يكن ؟ لأن العلماء نظروا الى آيات أربعة في دعوة المسيح . الآية الأولى قول الله عن عيسى عليه السلام انه « **مصدق لما بين يدي من التوراة** » ومبشرا برسول ياتى من بعدى اسمه أحمد » (الصف : ٦) أى ، أن دعوته ، فى أمرين اثنين : الأول : أنه مصدق للتوراة غير ناسخ . والثانى : أنه لم يعط لأتباعه شريعة منفصلة عن شريعة موسى عليه السلام ، لم يعطهم الا خبرا بنجى نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم والخبر لا يفسخ التشريع . والآية الثانية : قول الله عن عيسى عليه السلام أنه قال لقومه : « **ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه** » (الزخرف : ٦٣) أى أنه كان على شريعة موسى التى يختلفون فى تفسير بعض آياتها فيفسر لهم التفسير الصحيح . والآية الثالثة : « **وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه** » (المائدة : ٤٧) . وقد فهم منها البعض أن الحكم بالانجيل يعنى أنه شريعة منفصلة عن التوراة . وافهم منها البعض — وقد أشار اليهم الزمخشري المفسر ، طبيب الله ثراه — أن الحكم بالانجيل هو نفسه الحكم بالتوراة . لماذا ؟ لأنه مكتوب فى الانجيل — رغم تحريفه — أن عيسى عليه السلام قال لأتباعه :

« أتظنون أنى جئت لأبطل الشريعة والأنبياء • الحق أقول لكم :
 لعمر الله : انى لم آت لأبطلها ولكن لأحفظها » فعلى قوله هذا : اذا
 أراد النصارى أهل الانجيل أن يقيموا حكم الله فعليهم بهدى امامهم •
 وهدى امامهم معروف من قوله : « لم آت لأبطلها » اذن فليتحاكموا
 فيما بينهم على قوانينها • والآية الرابعة : قول الله تعالى عن عيسى
 عليه السلام : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأهل لكم بعض
 الذى حرم عليكم » (آل عمران : ٥٠) وهذه الآية هى موضع الاشكال
 فى الظاهر حيث فهم البعض : أن التصديق لا صلة له البتة بانجيله
 الذى أحل فيه وأن التصديق لا يتعارض مع شريعة جديدة تكون معه •

وفهمهم هذا يكون صحيحا اذا كان الله تعالى قد صرح فى أمر
 عيسى عليه السلام بأنه مع التصديق مهيم على التوراة ، وفى الحالة
 هذه يجب القول بأن عيسى عليه السلام قد أعطى — بناء عن وحى الله —
 شريعة مستقلة عن شريعة موسى عليه السلام • لأن معنى الهيمنة :
 السيطرة بقوة على الكتاب • أى يصدق على صحيحه ويصرح بباطله •
 ويغير من تشريعاته ما هو غير صالح للناس فى زمانه • فهل الهيمنة
 على التوراة من اختصاص عيسى عليه السلام ؟ لا • ليست من اختصاصه •
 بل من اختصاص محمد نبي الاسلام — صلى الله عليه وسلم — فانه هو
 وحده المصدق والمهيم • وحيث ذلك ثابت فان تحليل عيسى عليه السلام
 يجب أن ينظر فيه الى أى أمر غير تغيير نصوص التوراة التى تحرم
 ما يريد هو أن يحله • والا لزم التناقض فى مفهوم دعوته بين التصديق
 فقط وحل ما حرم على بنى اسرائيل • وهذا هو الذى حدا بى الى
 فحص هذا الموضوع بدقة متناهية • وقد انتهيت فيه الى أنه أحل بعض
 ما حرمه على الناس علماء بنى اسرائيل من تلقاء أنفسهم •

وما يزال البعض من الناس فى عصرنا هذا يعد النصرانية ديناً
 سماوياً تالياً للديانة اليهودية وسابقا على الاسلام ، ويزعمون أن
 الأديان : ثلاثة أديان : اليهودية والنصرانية والاسلام • وأنا أعلم
 أن زعمهم قائم — لا على حسب واقع الناس اليوم — بل على أنهم
 عالمون بأن عيسى عليه السلام قد أضاف جديدا على شريعة موسى عليه
 السلام • ولقد علموا ذلك من الترجمة المتداولة للانجيل وفيها يقول
 متى عن عيسى عليه السلام : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس
 أو الأنبياء • ما جئت لأنقض بل لأكمل » (متى ٥ : ١٧) يفهمون من

يقوله « لأكمل » أنه أضاف جديدا • ولم يكلفوا أنفسهم أن يبحثوا عن هذا الجديد المضاف الذى أكمل به عيسى عليه السلام كتاب موسى عليه السلام • أى جديد أضافه عيسى عليه السلام ؟ وان أصول الانجيل باللغة اليونانية فيها « بل لأصحح » وفي الترجمة التى نقلت عن برنابا « لم آت لأبطلها بل لأحفظها » وفي الخطاب الاخير يقول للجموع وللتلاميذ : « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه » (متى ٢٣ : ٢ - ٣) لقد أوصى فقط بحفظ شريعة موسى والعمل بها ولم يصرح بجديد عليها مضاف اليها • وأى جديد يصرح به ، وقد أحال الأتباع الى علماء بنى اسرائيل ومنهم من يؤمن به ومن لا يؤمن به ؟ فأى دليل على هذا الزعم وهذا كلام صاحب الشأن كما هو مكتوب وواضح للعالم والمتعلم ؟ •

ليست الأديان ثلاثة ، بل اثنين فقط لا ثالث لهما : اليهودية أولا ، والاسلام آخرا • وقد نسخ الدين الاخير الدين الاول الذى حرف من قبل ظهوره وغير وبدل بشهادة أهله • فانه فى الاصحاح الثالث والعشرين من سفر ارميا على لسان الله تعالى : « لأن الأنبياء والكهنة تنجسوا جميعا ، بل فى بيتى وجدت شرهم يقول الرب ... وقد رأيت فى أنبياء السامرة حماقة • تتبأوا بالبعل وأضلوا شعبي اسرائيل • وفى أنبياء اورشليم رأيت ما يقشعر منه • يفسقون ويسلكون بالكذب ويشددون أيادى فاعلى الشر ... من عند أنبياء اورشليم خرج نفاق فى كل الأرض ... أما وحى الرب فلا تذكره بعد لأن كلمة كل انسان تكون وحيه اذ قد حرفتم كلام الاله الحى رب الجنود الهنا » الخ • وأى تصريح أوضح من هذا التصريح ؟

* * *

لنتحدث بعد تلك الملاحظات فى محاولة بطرس وبولس ويعقوبه لتفسير التوراة فنقول :

يحكى هذا السفر أن بطرس الذى وصفه المسيح عليه السلام بأنه « شيطان » هو أول من دعا الى تفسير التوراة فى « الشريعة » وقد غيرها هو ومن معه من أجك الرومان أولا ، الذين أرادوا أن يدخلوهم فى النصرانية بسهولة •

لقد كان من عادة العلماء من بنى اسرائيل بعد سبى بابل أن لا يدخلوا بيت خاطيء ، وأن لا يمشوا معه ، وأن لا يتعرفوا على رجاله

لميس من جنس بنى اسرائيل ، وأن لا يعاشروه ، وأن لا يدخلوا بيته ، وأن لا يأكلوا طعامه • وليست هذه العادة لأن الله نص عليها في التوراة • بل لأنهم ابتدعوها من سبى بابل • ولذلك وبخهم المسيح وبكتهم • فقد روى « متى » أنه دخل مع تلاميذه بيت خاطيء ليدعوه الى التوبة فلما نظروا العلماء « قالوا لتلاميذه : لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ؟ فلما سمع يسوع قال لهم : لا يحتاج الأصحاء الى طبيب ، بل المرضى • فاذهبوا وتعلموا ما هو (١) : « انى أريد رحمة لا ذبيحة » ؟ لأنى لم آت لأدعو أبرارا • بل خطاة الى التوبة » (متى ٩ : ٩ — ١٣) وقد اقتفى بطرس أثر المسيح مع الفارق • فقد دخل المسيح وأكل حسبما تنص شريعة موسى في الأطعمة ودخل بطرس بيت « أُمى » غير يهودى ، وأكل ما هو محرم في شريعة موسى من الأطعمة ، ولما سأله عن تحليله لما هو محرم لم يجب بأن المسيح أحل ما كان محرما ، وانما أجاب بأنه : « رأى السماء مفتوحة ، وأنا نازل عليه مثل ملاة عظيمة مربوطة بأربعة أطراف ومدلاة على الأرض ، وكان فيها كل دواب الأرض والوحوش والزحافات وطيور السماء ، وصار اليه صوت : قم يا بطرس اذبح وكل • فقال بطرس : كلا يا رب لأنى لم أكل قط شيئا دنسا أو نجسا ، فصار اليه أيضا صوت ثانية : ما طهره الله لا تدنسه أنت • وكان هذا على ثلاث مرات ، ثم ارتفع الاناء أيضا الى السماء » (أ ع ١٠ : ١١ — ١٦) وقد واجه المجتمعين برأيه في معايشة الأمميين • قال لهم : أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودى أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتى اليه • وأما أنا فقد أرانى الله أن لا أقول عن انسان ما انه دنس أو نجس » (أ ع ١٠ : ٢٨) وعلل رأيه بقوله : « بالحق أنا أجد أن الله لا يقبل الوجوه ، بل فى كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده » (أ ع ١٠ : ٣٤ — ٣٥) •

ولما رجع بطرس من عند الأمى الى « اورشليم » وقد علم لليهود أنه دخل بيت أمى وأكل عنده : خاصموه • فقص عليهم قصة « الاناء » الذى يشبه « الملاة » فعندئذ سكتوا عن الخصام • قال

(١) أى المكتوب فى التوراة : أن الله يريد الرحمة بالناس ، ولا يريد القرايين والذبايح فى حد ذاتها • والنص فى سفر « هوشع » : هكذا : انى لأريد رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله أكثر من محرقات » (هو ٦ : ٦) •

كاتب السفر في الاصحاح الحادى عشر : « ولما صعد بطرس الى اورشليم خاصمه الذين من اهل المظتان قائلين : انك دخلت الى رجال ذوى غلفة وأكلت معهم ، فابتدأ بطرس يشرح لهم بالتتابع قائلا : أنا كنت في مدينة يافا أصلى فرأيت في غيبة رؤيا : اناء نازلا مثل ملاءة عظيمة مدلاة بأربعة أطراف من السماء ... الخ » ثم يقول الكاتب : « فلما سمعوا ذلك سكتوا وكانوا يمجدون الله قائلين : اذن أعطى الله الأمم أيضا : التوبة ، للحياة » .

أى أن بطرس بتلك الرؤيا ، رؤيا الاناء المشابه للملاءة يريد أن يقول : ان كل ما كان محرما في التوراة أصبح حلالا من الآن . ان من الأطعمة المحرمة في التوراة : الجمل ، والأرنب ، والوبر ، والخنزير ، والنسر ، والأنوق ، والعقاب ، والحدأة ، والباشق ، والشاهين على أجناسه ، والغراب على أجناسه ، والنعام ، والظليف ، والساف ، والباز على أجناسه ، والبوم ، والكركى ، والبجع ، والقوق ، والرخم ، والغواص ، والقلق ، والبيغاء على أجناسه ، والهدهد ، والخفاش . وكل دبيب الطير ، والميته . وتعبر التوراة عن عدم حله بلفظ : « انه نجس لكم » — « نجس لكم » — « نجسة لكم » في الاصحاح الرابع عشر من سفر التثنية ، وفي الاصحاح الحادى عشر من سفر الملاويين تعبر التوراة عن عدم حله بلفظ : « نجس لكم » — « انها نجسة لكم » — « لا تدنسوا أنفسكم بدبيب يدب ، ولا تتنجسوا به ، ولا تكونوا به نجسين » ويريد بطرس أن يقول : ان ما كان دنسا ، وما كان نجسا في التوراة ، أصبح طاهرا ومباحا أكله من يومنا هذا . هذا رأى بطرس . وهو نفسه رأى بولس . فان بولس يقول : الانسان الذى يحرم طعاما ما على نفسه ، فله هو وحده هذا الطعام حرام . ولكن ليس للناس جميعا . ان الايمان بيسوع المسيح كاف في دخول الجنة بدون أعمال ، لأنه صلب ليكفر عن خطايا المؤمنين به . يقول لأهل غلاطية : « انه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما » (غلا ٢ : ١٦) ويقول لأهل كولوسى : « لا يحكم عليكم أحد في أكل أو شرب أو من جهة عيد أو هلال أو سبت » (كو ٢ : ١٦) ويقول لأهل رومية : « انى عالم ومتيقن في الرب يسوع : أن ليس شئ نجسا بذاته الا من يحسب شيئا نجسا فله هو نجس » (رو ١٤ : ١٤) ويقول بولس لأتباعه : تلونوا ونافقوا وداهنوا في الدعوة كما أنا أفعل . فان رأيتم انسانا يريد الدخول في النصرانية وهو يريد

أن يحرم على نفسه طعاما ما فلا تجبروه على أكله • يقول في رسالته الأولى الى أهل كورنثوس : « كل الأشياء تحل لى ، لكن ليس كل الأشياء توافق ••• كل ما يباع فى اللحمية : كلوه ، غير فاحصين عن شىء من أجل الضمير • ولكن ان قال لكم أحد : هذا مذبوح لوثن فلا تأكلوا ••• كونوا بلا عثرة لليهود ، ولليونانيين ، ولكنيسة الله ، كما أنا أيضا أَرْضَى الجميع فى كل شىء ، غير طالب ما يوافق نفسى ، بل الكثيرين لكى يخلصوا » (١ كو ١٠ : ٢٣) الخ •



ولقد ظل بطرس وبولس على رأيهما هذا الى أن فارقا الحياة الدنيا • ورأيهما هذا هو الذى سارت عليه النصرانية الى يومنا هذا • أما رأى يعقوب وهو تحريم : الدم والمخنوق من الأطعمة • فهو رأى لا يعتقد به ، لأنه من من الناس يستسيغ فى حالة الاختيار — لا فى حالة الاضطرار — أن يأكل جثة ميتة ، خنقها بحبل من الناس خائق ؟ ومن من الناس يستسيغ فى حالة الاختيار أن يأكل الدم ، لا فى حالة الاضطرار ؟ ورأى يعقوب أيضا فى تحريم المذبوح للأوثان هو نفسه رأى النصارى ذلكهم لأنهم لا يعبدون أوثانا ، بل يعبدون آلهة غير مرئية ، الا المسيح الذى يزعمون أنهم رأوه لها فى صورة انسان •

وخلاصة المكتوب عن رأى يعقوب فى الاصحاح الخامس عشر من سفر أعمال الرسل هكذا :

١ — ذهب بولس وبرنابا لدعوة الأمم الى النصرانية فأمن « جمهور كثير من اليهود واليونانيين » وهنسا قاوم نفر من اليهود دعوة « اليونانيين » لا على أنها دعوة ، بل لأنهم دخلوا فى النصرانية على ماداتهم وتقاليدهم • قال المقاومون : ليدخلوا ويعملوا بالتوراة ، لأن المسيح ما جاء للنسخ بل للإصلاح • وقال الداعيان : « أن يثبتوا فى الايمان » • وفى ذلك الوقت : دخل نفر من علماء بنى اسرائيل من الفريسيين بلاد اليونانيين « وجعلوا يعلمون الاخوة — اليونانيين — : أنه ان لم تختتنوا حسب عادة موسى ، لا يمكنكم أن تخلصوا » فمن أجل ذلك رأى بولس وبرنابا وأناس آخرون معهما أن يذهبوا الى « اورشليم » للتشاور فى هذا الموضوع مع حوارى عيسى الأولين • ولما التقوا بهم فى « اورشليم » أخبروهم بما حدث وقالوا لهم :

إن اليونانيين لما قبلوا النصرانية على عاداتهم « قام الناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين ، وقالوا : انه ينبغي أن يختتوا ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى » فعندئذ وقف بطرس خطيبا وقال ممّا قال : « لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ ، لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله » ؟ أى يريد اسقاط التكاليف الشرعية عن « الأمم » ووقف يعقوب بعده خطيبا فكان مما قال :

« أرى أن لا يثقل على الراجعين الى الله من الأمم • بل يرسل اليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنا والمخنوق والدم لأن موسى منذ أجيال قديمة له في كل مدينة من يكرز به ، اذ يقرأ في المجامع كل سبت » •

واستحسن المجتمعون رأى يعقوب • فكتبوا رسالة الى الذين آمنوا من غير اليهود في مدن : انطاكية وسورية وكنيكية ، وأرسلوها مع أربعة أشخاص هم : بولس ، وبرنابا ، ويهوذا الملقب : برسابا ، وسيلا • وهذا نص الرسالة :

« الرسل والمشايع والاخوة يهدون سلاما الى الاخوة الذين من الأمم في أنطاكية وسورية وكنيكية •

اذ

قد سمعنا : أن أناسا خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال ، مقلبين أنفسكم ، وقائلين : أن تختتوا وتحفظوا الناموس • الذين نحن لم نأمرهم •

رأينا • وقد بصرنا بنفس واحدة : أن نختار رجلين ، ونرسلهما اليكم مع حبيينا : برنابا وبولس • رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل اسم ربنا يسوع المسيح • فقد أرسلنا : يهوذا ، وسيلا ، وهما يخبرانكم بنفس الأمور : شفاهما • ولأنه قد رأى الروح القدس ، ونحن : أن لا نضع عليكم ثقلا أكثر ، غير هذه الأشياء الواجبة : أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام ، وعن الدم ، وعن المخنوق ، والزنا • التي ان حفظتم أنفسكم عنها ، فنحن نفعما تفعلون • • •

كونوا معافين • آمين •

• انتهى نص الرسالة • ولما وصلت الى أصحابها وقرأوها :

« فرحوا » كما يقول الكاتب • وبها ضاع دين عيسى الذى هو نفسه
دين موسى •



وأصحاب هذه المؤامرة لم يستطيعوا أن يجهروا بها فى « أورشليم »
وجهروا فى « أورشليم » باحترام التوراة ووجوب العمل بها •

ويعقوب نفسه الذى اقترح تلك الرسالة ، خاف على « بولس »
لما رجع الى « أورشليم » بعدما أوصل الرسالة الى أصحابها ، وقال له
مع المشايخ : « أنت ترى أيها الأخ : كم يوجد ربوة من اليهود الذين
آمنوا ، وهم جميعا غيرون للناموس • وقد أخبروا عنك : أنك تعلم
جميع اليهود الذين بين الأمم : الارتداد عن موسى ، قائلا : أن
لا يختنوا أولادهم ، ولا يسلكوا حسب العوائد • فاذن ماذا يكون ؟ »

ولما خاف عليه من اليهود • اقترح عليه الاقتراح الآتى :
« افعل هذا الذى نقول لك : عندنا أربعة رجال عليهم نذر • خذ
هؤلاء ، وتطهر معهم ، وأنفق عليهم ، ليخلقوا رؤوسهم ، فيعلم الجميع :
أن ليس شئ مما أخبروا عنك ، بل تسلك أنت أيضا حافظا للناموس »
ولقد نفذ بولس هذا الاقتراح « أخذ بولس الرجال فى الغد ، وتطهر
معهم ، ودخل الهيكل مخبرا بكمال أيام التطهير ، الى أن يقرب عن كل
واحد منهم القربان » •

فماذا كان من اليهود الذين رأوه فى الهيكل ؟ لما رآه اليهود الذين
من آسيا فى الهيكل أهاجوا عليه جميع الساكنين فى أورشليم
« صارخين يا أيها الرجال الاسرائيليون : أعينوا • • هذا الرجل الذى يعلم
الجميع فى كل مكان ضدا للشعب ، والناموس ، وهذا الموضع ، حتى
أدخل يونانيين أيضا الى الهيكل ، ودنس هذا الموضع المقدس » وللوقت
« هاجت المدينة كلها ، وتراكض الشعب وأمسكوا بولس ، وجروه خارج
الهيكل ، وللوقت أغلقت الأبواب ، وبينما هم يطلبون أن يقتلوه • فلما
خبر الى أمير الكتبية : أن أورشليم كلها قد اضطربت • فلوقت أخذ
عسكرا وقواد مئات وركض اليهم • فلما رأوا الأمير والعسكر كفوا
عن ضرب بولس » أ • • • ونشر بعد ذلك فى الحديث عن عالية الملكة
النصرانية فنقول :

عالية الملة النصرانية

قلنا من قبل : ان شريعة موسى عليه السلام كانت من قبل أن تتسخ بالقرآن الكريم لبنى اسرائيل وللأمم أيضا • وأنه من قبل ظهور النصرانية كان للشريعة الموسوية دعاة اليها ، ومدعوون عاملون بالدعوة في كل مكان • كما قال يعقوب حواري المسيح : « لأن موسى منذ أجيال قديمة ، له في كل مدينة ، من يكرز — أى يبشر — به • اذ يقرأ في المجامع كل سبت » (أع ١٥ : ٢١) •

وقد رأى النصارى الأولون أن ينطلقوا بالدعوة الى بنى اسرائيل والأمم كما أوصى المسيح لكن الى بنى اسرائيل أولا • وقد اختلف اليهود فيما بينهم بعد رفع المسيح الى السماء في مد دعوتهم الى الأمم ، وقد كانوا أوقفوا مد الدعوة من بعد سبى بابل الا نفرًا منهم غاروا على دين الله ولم يستجيبوا لقوانين الحرمان والقطيعة التي سنّها عزرا وطبقها نحميا على واحد من أبناء « يوياداع » ابن « أليا شيب » الكاهن العظيم (نح ١٣ : ٢٨) فرأى بعضهم مد الدعوة ورأى بعضهم قصرها على بنى اسرائيل • والذين رأوا مد الدعوة الى الأمم ، كانوا مخلصين في دعوتهم وأمناء • لأنهم دعوا الى شريعة موسى التي ما نسخها المسيح ولا نقضها •

فان بولس لما فتح للأمم باب الايمان الى النصرانية على حسب تقاليدهم « انصدر قوم من اليهودية ، وجعلوا يعلمون الاخوة : أنه ان لم تختتنوا حسب عادة ناموس موسى ، لا يمكنكم أن تخلصوا » (أع ١٥ : ١) ولم يدعوا الى « الختان » فحسب • بل الى كل أحكام التوراة ، كما يقول كاتب سفر الأعمال أيضا : « ولكن هم أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين • وقالوا : انه ينبغي أن يختنوا ، ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى » (أع ١٥ : ٥) •

واليهود الذين رأوا قصر التوراة على بنى اسرائيل ، نظروا بعين العداء وعين البغض الى اخوانهم الذين ساروا الى الأمم بالتوراة • جنصها دون تفسير ، أو بالنص والتفسير معا ، والى النصارى الذين لم

يسيروا الى الأمم بالتوراة كنص يحتاج الى تفسير ، بل بتفسير المسيح نفسه للنبوءات التى فيها عن نبي الاسلام صلى الله عليه وسلم . ولما نظروا اليهم بعين العداء وعين البغض صبوا عليهم من العذاب الأليم ما قدروا عليه ، وأوحوا الى الرومان أن يصبوا عليهم من العذاب الأليم ما يقدرون عليه . قائلين للرومان : ان أكثرهم يقولون لرعاياكم : سيظهر نبي ملك تمتد مملكته الى أقصى الأرض ، وسيزيل الدولة الرومانية من فلسطين . وقولهم هذا للرعايا يجرؤهم على القياصرة والولاة والرؤساء فلا يعطون كل ذى حق حقه من التوقير والطاعة والاحترام . واذا تجرأت الرعية على الملوك : قل العمل وساء النظام ، وظهرت الفوضى ، واضطربت المملكة . وهذا كله يجعل بفناء الدولة الرومانية ، ويمحوها من الوجود . فامتدت يد الرومان الى اليهود الأمناء والنصارى الأتقياء بالتعذيب والقتل والنفى والتشريد مما لم يسمع بمثله من قبل ولا من بعد حتى زمانى هذا .

وأصبح فى العالم وقتئذ ثلاث فئات : اليهود والنصارى والرومان . اليهود الذين يريدون لأنفسهم كيانا مستقلا الى الأبد . ولا يتم لهم ذلك الا بانكار النبي الذى سيظهر من العرب أبناء اسماعيل عليه السلام . والنصارى الذين يريدون أن يقدموا خدمة لله باعترافهم بذلك النبي العظيم . والرومان الذين يريدون من رعاياهم : الطاعة التامة للقيصرة والولاء للدولة ، ولا يتم لهم ذلك الا بتكميم أفواه النصارى واليهود الأمناء وقطع أيديهم عن الكتابة حتى لا يقولوا : ان النبي العربى قادم ، ليزيل الدولة .



ومن أجل مصالح الكل اجتمعوا للمصالحة ، فان النصارى من مصالحتهم أن يخف الاضطهاد عنهم . واتفقوا على ما يلى :

- ١ — طلب اليهود من النصارى أن لا يجهروا بنبي الاسلام صلى الله عليه وسلم ، وأن يقولوا : ان نبوءات التوراة وأسفار الأنبياء تدل على عيسى ابن مريم . وعيسى على جهة الخصوص هو المسيح المنتظر .
- ٢ — طلب الرومان من النصارى أن لا يجهروا بنى الاسلام صلى الله عليه وسلم . وأن يصوغوا عقائد النصرانية على مثال عقائد الرومان . فى تعدد الآلهة . وأن يسلك الناس فى الحياة بحسب عادات أسرهم وتقاليد آبائهم وأجدادهم . واذا سأل الناس عن يوم الرب ، يوم

ظهور المسيا الذى قُلتُم عنه من قبل قولوا : قرب انتهاء الدنيا وقيام القيامة .

٣ — طلب النصارى فى مقابل ذلك أن يخف الاضطهاد أولا ، ثم تعترف الدولة الرومانية رسميا ثانيا بمذهبهم .

وقد تم ذلك . وهل كان يتم ذلك فى عهد النصارى الأوائل ؟ ما كان يتم ذلك لقرب عهدهم من النبوة ، ولمشاهدة معجزات المسيح بأعينهم ولسماع دعوته بآذانهم ، أما فى هذا الجيل الثالث . فان أبناء أبناء الأوائل ليسوا فى القوة كما كان الآباء والأجداد وقد وصلت اليهم مبادئ المسيح سماعا ، من مغرضين ومعتدلين ، والمبادئ اذا وصلت الى النفوس متأرجحة بين الشك واليقين ، لا تحمس القلب على الدفاع عنها ، بل تدفعه الى عدم المبالاة بها حتى يفرغ لها . فمن أجل ذلك قبل أبناء الأبناء « قرار المصالحة » قائلين فى أنفسهم : ان ما وعد الله به لا بد كائن ، ولنرحم نحن أنفسنا مما ابتلينا به . لكن الذين خافوا الله واليوم الآخر صرحوا بأن قرار المصالحة باطل ، وفضلوا سكتى الأديرة والكهوف عن التكلم بالباطل ، ومنهم آريوس وأتباعه الذين أشرنا اليهم من قبل ، ومنهم الرهبان الذين أسسوا الأديرة خوفا من الظلم .



ولكى يفهم القارئون معنى أكثر وأكثر عن « قرار المصالحة » هذا . عليهم أن يقرأوا الاصحاح السابع عشر من سفر أعمال الرسل عالمين أنه لم ينتشر بصورته هذه الا فى القرن الرابع . فمنه يمكنهم أن يفهموا . ولا نحيل القارئين الى غير هذا السفر من الكتب المناوئة للنصرانية التى فصلت القول فى « قرار المصالحة » تفصيلا جيدا لأنه من السهل على نصرانى أن يدفع تفاصيلهم بقوله : هذا كلام من أعدائنا لا تحتجون به علينا . ولا شك أن المكتوب فيه : فيه لبس للحق بالباطل . ولكن من الممكن استخلاص الحق من الباطل . بمضاهاة النصوص بعضها ببعض . انه من الذى يقدر أن يقول عن النص الآتى انه خال من الباطل : « وحدث بعد هذه الأمور : أن الله امتحن ابراهيم ، فقال له : يا ابراهيم . فقال : ها أنذا . فقال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه : اسحق ، واذهب الى أرض المريا ، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك » (تك ٢٢ : ١ — ٢) ؟ ان الباطل فى كلمة « اسحق » فانه

ليس الابن الوحيد لابراهيم ، ان الابن الوحيد لابراهيم هو اسماعيل عليه السلام ، وان الباطل في كلمة « أرض المريا » فان مريا لم تعين لبنى اسرائيل مكانا مقدسا الا في زمن داود عليه السلام . لما وضع أساس الهيكل وأكمّله ابنه سليمان وعرف بهيكل سليمان .

ومن الذى لا يقدر على استخلاص الحق في « قرار المصالحة » مما سطره لوقا في ذلك الاصحاح من سفر الأعمال ؟

كان لليهود العبرانيين في مدينة « تسالونيكي » اليونانية : « مجمع » أى موضع لعبادة الله كالمسجد عندنا نحن المسلمين « فدخل بولس اليهم حسب عادته ، وكان يحاجهم ثلاثة سبوت من الكتب ، موضعا ومبيناً أنه كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات . وأن هذا هو المسيح : يسوع ، الذى أنا أنادى لكم به » فماذا جرى ؟ اقتنع قوم وأبى آخرون ، والذين أبوا وامتنعوا أخذوا رجالا وقفلوا أبواب المدينة ، وتجمعوا حول البيت الذى دخله بولس لما خرج من المجمع . ثم ذهبوا الى « حكام المدينة » صارخين : ان هؤلاء الذين فتنوا المسكونة حضروا الى ههنا ، « وهؤلاء كلهم يعملون ضد أحكام قيصر » ويقول الكاتب : « فأزعجوا الجمع ، وحكام المدينة اذ سمعوا هذا » .

وبحيلة طريفة هرب بولس الى مدينة « بيرية » ثم الى مدينة « أثينا » واذا وجدهم يعبدون « تمثالا » لاله مجهول . وقف في وسطهم وقال : « أيها الرجال الأثينيون . أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيرا . لأننى بينما كنت أجتاز وأنظر الى معبوداتكم وجدت أيضا مذبحا مكتوبا عليه : « لاله مجهول » فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادى لكم به » وقال النصراني : انه أراد بالاله المجهول الذى نادى لهم به : الله عز وجل الذى هو قد تجسد وتأنس في شخص عيسى ابن مريم كما يزعمون في قوله : « الله ظهر في الجسد » وقد مر البيان .



وانتهز بطرس وبولس ومن نحا نحوهما فرصة الجهل في تلك الأزمنة بسبب تقصير علماء بنى اسرائيل في الدعوة فاعتمدوا على الخرافات في اقناع الناس بما يريدون . وللخرافات كما هو معروف أثر عظيم في العامة ، ويقل هذا الأثر تدريجيا اذا ظهر العلماء بالحق . ونكتفى من خرافاتهم بهذا النص المكتوب في الاصحاح الثامن من سفر الأعمال :

« ثم ان ملاك الرب كلم فيلبس قائلاً : قم واذهب نحو الجنوب على الطريق المنحدرة من اورشليم الى غزة التى هى برية ، فقام وذهب .
 وإذا رجل حبشى خصى ، وزير لكنداكة ، ملكة الحبشة ، كان على جميع خزائنها . فهذا كان قد جاء الى اورشليم ليسجد (١) .
 وكان راجعا وجالسا على مركبته ، وهو يقرأ النبى اشعيا . فقال الروح لفيلبس : تقدم ورافق هذه المركبة . فبادر اليه فيلبس وسمعه يقرأ النبى اشعيا . فقال : ألعك تفهم ما أنت تقرأ ؟ فقال : كيف يمكننى ان لم يرشدنى أحد . وطلب الى فيلبس أن يصعد ويجلس معه . وأما فصل الكتاب الذى كان يقرأه فكان هذا . مثل ثاة سيق الى الذبح ، ومثل خروف صامت أمام الذى يجزه ، هكذا لم يفتح فاه . فى تواضعه انتزع قضاؤه ، وجيله من يخبر به ، لأن حياته تنتزع من الأرض .
 فأجاب الخصى فيلبس وقال : أطلب اليك . عن من يقول النبى هذا ؟ عن نفسه أم عن واحد آخر ؟ ففتح فيلبس فاه ، وابتدأ من هذا الكتاب غبثه بيسوع .

(١) فى الاصحاح الثانى والعشرين من سفر التكوين : « وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن ابراهيم . فقال له : يا ابراهيم : فقال : هاأنا . فقال : خذ ابنك وحيدك الذى تحبه اسحق ، واذهب الى أرض المريا ، وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذى أقول لك . فبكر ابراهيم صباحا ، وشد على حماره ، وأخذ اثنين من غلماناه معه واسحق ابنه وشقق خطبا لمحرقة وقام وذهب الى الموضع الذى قال له الله . وفى اليوم الثالث رفع عينيه وأبصر الموضع من بعيد . فقال ابراهيم لغلاميه : اجلسا أنتما ههنا مع الحمار . وأما أنا والغلام فنذهب الى هناك ونسجد ، ثم نرجع إليكما » . فى أى مكان سيذهب ابراهيم ليسجد ؟ ان معنى السجود : هو التوجه الى الله بالعبادة فى مكان معين ومعروف . فما هو هذا المكان ؟ هل هو جبل جرزيم فى نابلس كما يزعم اليهود السامريون ؟ أم هو جبل صهيون فى اورشليم كما يزعم اليهود العبرانيون ؟ ان الوزير الخصى قد جاء الى اورشليم ليسجد . فأين ذهب ابراهيم ليسجد ؟ ان ذهاب ابراهيم الى مكان للسجود يدل على أنه معروف للغلامين من قبل ، ومعروف للناس أيضا . ولا يمكن أن يكون هذا المكان غير « مكة المكرمة » لأن ابراهيم لم يضع مكانا للسجود فى نابلس أو اورشليم . وإنما صار مكان فى نابلس وصار مكان فى اورشليم من بعد داود عليه السلام أى بعد ألف سنة تقريبا من ولادة ابراهيم عليه السلام . ولأن المكان معروف من قبل ذهاب ابراهيم اليه . وفى النص تحريف فى وضع اسحق بجانب الابن الوحيد وفى وضع مريا بدل مكة المكرمة ، فان مريا لم تكن قبلة فى ذاك الزمان . كما قلنا من قبل .

وفيما هما سائران في الطريق أقبلتا على ماء • فقال الخصى : هو ذا ماء • ماذا يمنع أن أعتمد ؟ فقال فيلبس : ان كنت تؤمن من كل قلبك يجوز • فأجاب وقال : أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله (١) • فأمر أن تقف المركبة فنزلا كلاهما الى الماء — فيلبس والخصى — فعمده ، ولما صعدا من الماء خطف روح الرب فيلبس ، فلم يبصره الخصى أيضا • وذهب في طريقه فرحا • وأما فيلبس فوجد في أشدود • وأصبحت النصرانية دينا عالميا بعد « قرار المصالحة » هذا الذي تم في عهد القيصر « قسطنطين » دينا عالميا بجبروت الرومان وقوتهم ، لا بالاقناع والبيان •



وقد قلنا من قبل :

انهم تفادوا النبوءات ، ولأن النبوءات تدل على شريعة جديدة غير شريعة موسى ستكون مع النبي المنتظر ، قالوا بشريعة للمسيح ليكون هو المشار اليه بالنبوءات في زعمهم • ونقول أيضا : انهم يعلمون أن النبي المنتظر ستكون دعوته عالمية لجميع أمم الأرض • فهل تفادوا هذه الصفة فيه ؟ لقد جعلوا النصرانية دينا عالميا بالمبادئ التي قرروها ، وما أنزل الله بها من سلطان ربما ليتفادوا هذه الصفة فيه • ولو أنها عالمية على الأصل الذي دعا اليه المسيح ، وهو العمل بالتوراة حتى يأتي النبي المنتظر فيدخلون في دينه ما صح لإنسان أن يعترض عليها بأدنى اعتراض لأنها بهذا المعنى فارضة نفسها على العالم من قبل مجيء المسيح • لكن قصدهم من العالمية هو تفادي الصفة من جهة ، وليكسبوا أنصارا يناوئون بهم أتباع النبي المنتظر اذا ظهر في حينه من جهة أخرى ، وكسب الأنصار عندهم أهم من تفادي الصفة ، فانهم لا يعجزون اذا لزم الأمر عن تحريف الكلم عن مواضعه •



لقد فهموا صفة العالمية من النبوءات هكذا :

١ — بينت التوراة أن لاسماعيل عليه السلام بركة كما لاسحاق

(١) انظر كيف استعانا بالخرافات في تطبيق نبوءات التوراة وأسفار الانبياء على المسيح عليه السلام •

عليه السلام بركة • واليهود يعلمون أن بركة اسحاق تعنى ملكا ونبوة ،
واسماعيل مثله ، وأن النبوة فى اسحاق لم تكن لنسله فقط ، لأن موسى
عليه السلام الذى اصطفاه الله على الناس عموما برسالاته وبكلامه
كانت دعوته لنسل اسحاق وللمصريين وغيرهم •

٢ — لما حضر يعقوب الموت قال لبنيه عن النبى المنتظر : « وله
يكون خضوع شعوب » •

٣ — لما وصف موسى النبى المنتظر بأوصاف تسعة فى الاصحاح
الثامن عشر من سفر التثنية قال عنه فى ترجمة اليهود : « ويكون أن
الانسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطلبه » ومن هذه
الترجمة يفهم أن « الانسان » يكون من جنس اليهود فقط لأن أول
النبوءة « أقيم لهم نبيا » ومن ترجمة بطرس فى الاصحاح الثالث من
سفر الأعمال : « ويكون أن كل نفس ... الخ » يفهم أن « كل نفس »
من اليهود أو من غير اليهود ، وهذا هو قصد بطرس •

٤ — لما قسم موسى فى الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر
التثنية بركة الله فى نسل ابراهيم عليه السلام • وتحدث عن بركة من
« فاران » موضع سكنى أبناء اسماعيل عليه السلام قال عقب الحديث
عنها : « انه أحب الشعب » فى الترجمة العبرانية • وفى الترجمة
السامرية قال : « محب الشعوب » أى أن دعوة النبى الذى سيكون
من أبناء اسماعيل سكان فاران ستكون عالمية لجميع الشعوب • هذا
من الأسفار الخمسة • ونبوءاتها هى العمدة فى الاستدلال •

لنذكر الآن من الأدلة التى اعتمد عليها بطرس وبولس فى عالمية
الدعوة • ملاحظتين أنهما ناديا :

١ — بعالمية الملة النصرانية •

٢ — وبتشريعات مخالفة لتشريعات التوراة وعقائد مخالفة أيضا •
وهما بهذين الأمرين مخالفان للمسيح ابن مريم عليه السلام الذى قال
بالعالمية على وفق التوراة ، وفسر نبوءات التوراة للأتباع قبل أن
يأمرهم بالانطلاق الى الأمم •

اعتمد بطرس وبولس فى النداء بعالمية الدعوة على أن الله رب
العالمين ، وليس ربا لليهود وحدهم كما زعم اليهود من بعد سبى بابل •

• هو أن الناس جميعا يهودا أو غير يهود أبناء لآدم و آدم من تراب •
 إذن الناس جميعا اخوة ، من التراب في البدء خلقوا ، وإلى التراب
 في النهاية راجعون • إذن على أى أساس يميز الله جنسا على جنس
 وهم متساوون في المبدء والنهاية ؟ وإذا كان مبدء التمييز غير موجود
 لعدم ما يقتضيه فلماذا يصر اليهود على قصر الشريعة عليهم ، وترك
 الأمم في طغيانهم يعمهون ؟ ان الله تعالى لم يفضل اليهود على سائر
 الأجناس الا لأنه ائتمنهم على شريعة موسى التى كانت للناس هدى
 ونورا في ذاك الزمان ، فلما خانوا الأمانة بالتحريف أولا ثم بقصرها
 عليهم ثانيا نبذهم وأهملهم • وماذا يكون الحال الآن لو جارينا اليهود
 في كفرهم وعنادهم ؟ ليس الا قلة الأصدقاء وقت ظهور النبي المنتظر •
 فيدوسنا برجليه • إذن لابد أن نحث اليهود على عالمية الدعوة •

قال بطرس في بيت « كرنيليوس » : « بالحق أنا أجد أن الله
 لا يقبل الوجوه ، بل في كل أمة الذى يتقيه ويصنع البر مقبول عنده »
 (أع ١٠ : ٣٤ — ٣٥) •

ولما خاصمه اليهود في دعوة الأمم قال لهم : « ان كان الله
 قد أعطاهم الموهبة ، كما لنا أيضا بالسوية ، مؤمنين بالرب يسوع
 المسيح ، فمن أنا ؟ أقادر أن أمنع الله » ؟ (أع ١١ : ١٧) •

وبعد وعظ من بولس للأمم ، طلبوا منه ثانية أن يعظهم فانتهره
 اليهود أن لا يعظهم ، فقال لهم : « كان يجب أن تكلموا أنتم أولا بكلمة
 الله ، ولكن اذ دفعتموها عنكم ، وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة
 الأبدية ، هوذا نتوجه الى الأمم » (أع ١٣ : ٤٦) •

وفي موضع آخر يقول كاتب سفر الأعمال ان اليهود اذ كانوا
 يقاومون دعوته ، ويجدفون عليه ، « نفخ ثيابه ، وقال لهم : دمكم
 على رؤوسكم • أنا برىء • من الآن أذهب الى الأمم » (أع ١٨ : ٦) •



وكان استدلال بطرس بنبوءات التوراة ونبوءة يوحنا المعمدان
 اللاقى فسرهما قسرا على المسيح ابن مريم عليه السلام • فمثلا اذا
 تحدثت نبوءة عن أن النور الذى سينزل على النبي المنتظر سيسمى المسكونة
 كلها • أى دعوته عالمية ، يقول بطرس : ان ذلك النور هو نور الانجيل •

والعالمية للإنجيل على زعمه وليست للقرآن الكريم كما تدل النبوءات
بالحق .

أما استدلال بولس فهو بالنبوءات كما فعل بطرس في تفسيرها .
وهو أيضا بآيات في أسفار التوراة وأسفار الأنبياء .



فعن بطرس يحكى الكاتب في الاصحاح الثانى من سفر الأعمال :
أن كثيرا من الناس في اورشليم في عيد العنصرة الذى بعد عيد الحصاد
بخمسين يوما من جميع الأمم من مصر وليبيا وروما وبلاد العرب وغيرهم
لما حلت عليهم الروح — كما زعموا — تكلم كل انسان بلغة غير
لغته ، فتحير الجميع وارتابوا قائلين بعضهم لبعض : ما عسى أن
يكون هذا ؟ وكان آخرون يستهزئون قائلين : انهم قد امتلأوا سلافة .
وعندئذ وقف بطرس خطيبا وقال : هذا الحال قد أشارت اليه التوراة
في سفر النبى يوثيل ، وهو حال منطبق على أتباع المسيح الآن فآمنوا
بدعوته . مع أن عبارات يوثيل لا تؤدي الى غرضه « وقف بطرس مع
الأحد عشر ، ورفع صوته وقال لهم : أيها الرجال اليهود والساكنون
في اورشليم أجمعون :

ليكن هذا معلوما عندكم ، وأصغوا الى كلامى . لأن هؤلاء ليسوا
سكارى ، كما أنتم تظنون . لأنها الساعة الثالثة من النهار ، بل هذا
ما قيل بيوثيل النبى . يقول الله : ويكون فى الأيام الأخيرة أنى أسكب
من روحى على كل بشر ، فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى
ويحلم شيوخكم أحلاما ، وعلى عبيدى أيضا وامائى أسكب من روحى
فى تلك الأيام فيتنبأون ، وأعطى عجائب فى السماء من فوق وآيات
على الأرض من أسفل دما ونارا وبخار دخان . تتحول الشمس الى
ظلمة ، والقمر الى دم قبل أن يجرى يوم الرب ، العظيم الشهير ،
ويكون كل من يدعو باسم الرب يخلص » (أع ٢ : ١٤ — ٢١) .

ان هذا كله يا بطرس قبل مجىء يوم الرب . ولم يحدث
— باعتراك — من هذا شيء قبل ظهور المسيح عليه السلام . فان
قلت : قبل مجيئه قرب القيامة من الأموات . يجب عليك أن تثبت دليل
المجىء فى ذلك الوقت قبل ما تقول شيئا .

وعن بطرس أيضا يقول الكاتب : ان يوهنا المعمدان لما تنبأ عن

نبي من بعده ، أقوى منه — وبالتأكيد لا يشير الى عيسى ، كما بيتنا —
قال بطرس انه يشير الى عيسى عليه السلام يقول بطرس : « الكلمة
التي أرسلها الى بنى اسرائيل يبشر بالسلام بيسوع المسيح • هذا
هو رب الكل • أنتم تعلمون الأمر الذي صار في كل اليهودية مبتدئا
من الجليل ، بعد المعمودية التي كرز بها يوحنا ... » الخ
(أع ١٠ : ٣٦-٣٨) •

* * *

هذا عن بطرس ، أما عن بولس • فقد وضح في خطبته في مدينة
أنطاكية بيسيدية « ما وضحه بطرس •
» قام بولس ، وأشار بيده وقال :

أيها الرجال الاسرائيليون ، والذين يتقون الله اسمعوا : اله شعب
اسرائيل هذا اختار آبائنا ، ورفع الشعب في الغربية في أرض مصر •
وبذراع مرتفعة أخرجهم منها • ونحو مدة أربعين سنة احتل عوائدهم
في البرية ، ثم أهلك سبع أُمم في أرض كنعان ، وقسم لهم أرضهم
بالقرعة ، وبعد ذلك في نحو أربعمئة وخمسين سنة أعطاهم قضاة حتى
صموئيل النبي • ومن ثم طلبوا ملكا فأعطاهم الله شاول بن قيس ،
رجلا من سبط بنيامين أربعين سنة ، ثم عزله وأقام لهم داوود ملكا
الذي شهد له أيضا • اذ قال : وجدت داوود بن يسي ، رجلا حسب
قلبي ، الذي سيصنع كل مشيئتي • من نسل هذا حسب الوعد أقام
الله لاسرائيل : مخلصا ، يسوع • اذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه
بمعمودية التوبة لجميع شعب اسرائيل ، ولما صار يوحنا يكمل سعيه
جعل يقول : من تظنون أني أنا ؟ لست أنا اياه • لكن هو ذا يأتي
بعدي الذي لست مستحقا أن أحل حذاء قدميه ... » الخ
(أع ١٣ : ١٦-٢٥) •

لقد وجه بولس خطابه هذا ليس الى اليهود المعبر عنهم بالرجال
الاسرائيليين ، بل وجه خطابه أيضا الى الأمم المعبر عنهم في الخطاب
بالذين يتقون الله • ثم استدل على أن آخر الأنبياء من نسل داوود :
ينبوءة في التوراة هي : « وجدت داوود ... » الخ وأن المسيح ابن مريم
جاء من نسل داوود تنهيا للنبوءات ، وأنه هو الذي كان يبشر بمجيئه
يوحنا المعمدان • ولقد أخطأ بولس خطأ بيئيا في قوله : ان آخر الأنبياء

من داوود ، فان يحيى وعيسى وهما خاتما النبيين في بنى اسرائيل لم يكونا من نسل داوود ، بل كانا من نسل هارون النبي أخى موسى — عليهم السلام — وهذا واضح من الاصحاح الأول في انجيل لوقا . فان زكريا وامراته اليصابات أم يحيى من نسل هارون ، ويقول لوقا : ان مريم قريبة لاليصابات ، أى من السبط الذى هو منه ، لأن شريعة بنى اسرائيل تنص على تمييز الأسباط بزواج كل امرأة بواحد من عشيرة سبط أبيها (عدد ٣٦ : ٨) واذا ثبت أن مريم قريبة لاليصابات يثبت أن مريم من هارون كما أن اليصابات من هارون .



أما عن استدلال بولس بآيات من التوراة على عالمية الدعوة فهذا ليس في سفر الأعمال ، بل في الاصحاح التاسع من رسالته الى أهل رومية ، والاصحاح العاشر . لقد صرح بقوله : « لا فرق بين اليهودى واليونانى ، لأن ربا واحدا للجميع ، غنيا لجميع الذين يدعون به » (رو ١٠ : ١٢) وأقام الأدلة هكذا :

قال بولس : « فماذا نقول ؟ أعل عند الله ظلما ؟ حاشا . لأنه يقول لموسى : « انى أرحم من أرحم ، وأترأف على من أترأف » فاذن ليس لمن يشاء ولا لمن يسعى ، بل لله الذى يرحم . لأنه يقول الكتاب لفرعون : « انى لهذا بعينه أقمتك لكى أظهر فيك قوتى ، ولكى ينادى باسمى فى كل الأرض » فاذن هو يرحم من يشاء ، ويقيس من يشاء . فستقول لى : لماذا يلوم بعد ؟ لأن من يقاوم مشيئته ؟ بل من أنت أيها الانسان الذى تجاوب الله ؟ أعل الجبل تقول لجابلها : لماذا صنعتنى هكذا ؟ أم ليس للخزاف سلطان على الطين أن يصنع من كتلة واحدة اناء للكرامة وآخر للهوان ؟ فماذا ان كان الله ، وهو يريد أن يظهر غضبه ويبين قوته احتمل بأناة كثيرة آنية غضب مهياة للهلاك ؟ ولكى يبين غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد ، التى أيضا دعانا نحن اياها ليس من اليهود فقط ، بل من الأمم أيضا ، كما يقول فى هوشع أيضا : « سأدعو الذى ليس شعبى شعبى ، والتى ليست محبوبة محبوبة ، ويكون فى الموضع الذى قيل لهم فيه : لستم شعبى أنه هناك يدعون أبناء الله الحى » وأشعياء يصرخ من جهة اسرائيل : « وان كان عدد بنى اسرائيل كرمل البحر فالبقية ستخلص ، لأنه متمم

أمر ، وقاض بالبر • لأن الرب يصنع أمرا مقضيا به على الأرض »
وكما سبق أشعيا فقال : « لولا أن رب الجنود أبقى لنا نسلا لصرناه
مثل سدوم ، وشابهنا عمورة » •

فماذا نقول : ان الأمم الذين لم يسبعوا في أثر البر ، أدركوا البر •
البر الذى بالايمان ؟ ولكن اسرائيل وهو يسعى في أثر ناموس البر •
لم يدرك ناموس البر • لماذا ؟ لأنه فعل ذلك ليس بالايمان ، بل كأنه
بأعمال الناموس • • المخ » •

استدل بولس من توراة موسى التى بيد اليهود والنصارى الآن
على أن الديانة الموسوية كانت ديانة عالمية لجميع الأمم بدليلين •
الأول : قول الله لموسى عليه السلام : « أترأف على من أترأف وأرحم
من أرحم » فان « من » للعموم • وهذا النص فى الاصحاح الثالث
والثلاثين من سفر الخروج الآية التاسعة عشر • والثانى : قول الله
لفرعون على لسان موسى عليه السلام : « لأجل هذا أقمتك لكى أريك
قوتى ولكى يخبر باسمى فى كل الأرض » فان « لكى يخبر باسمى
فى كل الأرض » يدل على شيوخ هذا الخبر فى العالم ليخشوا الله
العالم كله وهو الله عز وجل فيعملوا بشريعته • وهذا النص فى الاصحاح
التاسع من سفر الخروج الآية السادسة عشر • واستدل بولس أيضا
بأسفار الأنبياء • بآيات فى سفر هوشع وبآيات فى سفر أشعيا •
والآيات التى استدل بها من هوشع استدل بها بالمعنى لا بنص الألفاظ •
وهى : « ادع اسمه » لوعمى » لأنكم لستم شعبي ، وأنا لا أكون لكم •
لكى يكون عدد بنى اسرائيل كرمل البحر ، الذى لا يكال ولا يعد •
ويكون عوضا عن أن يقال لهم : لستم شعبي • يقال لهم : أبناء الله
الحى » (هو ١ : ٨ - ١٠) وآيات سفر أشعيا على العالمية هى •
« لأنه وان كان شعبك يا اسرائيل كرمل البحر ترجع بقية منه •
قد قضى بفناء فائض بالعدل • لأن السيد رب الجنود يصنع فناء •
وقضاء فى كل الأرض » (أش ١٠ : ٢٢ - ٢٣) وهى : « لولا أن
رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة ، لصرنا مثل سدوم ، وشابهنا
عمورة » (أش ١ : ٩) يقصد بالبقية الصغيرة نسل من غير بنى اسرائيل
على فهم بولس — وليس هذا مراد أشعيا — وواضح من الأدلة التى
ذكرها بولس قوة الاستدلال بآيات من أسفار موسى عليه السلام •
لا بأسفار الأنبياء •

والسؤال الأخير في بحثنا هذا : لماذا يعد علماء مقارنة الأديان « بولس » المؤسس الحقيقي للنصرانية لا عيسى ابن مريم عليه السلام ؟ مع أن بولس لم يزد على ما أثبتته بطرس ويعقوب ؟ هل لكثرة جهاده أكثر من رفقاته ؟ هل لكثرة رسائله التي بلغت أربعة عشرة رسالة ولبطرس رسالتان وليعقوب واحدة ؟ هل لأنه اختص بدعوة الأمم وغيره دعا بنى إسرائيل لا الأمم ؟ هل لأنه فلسف المبادئ بأسلوب يقنع العوام والسذج والبسطاء من الناس ؟ هل لأنه اجتذب أنصارا أكثر من غيره لقوله : « الدعوة التي دعى فيها كل واحد ، فليلبث فيها » . كما في الاصحاح السابع من رسالته الأولى الى أهل كورنثوس ؟ ليس لكثرة الجهاد وكثرة الرسائل ولا لاختصاصه بالأمم • فانهم فعلوا كما فعل — كما بينا من قبل — وانما لأنه فلسف المبادئ واجتذب أنصارا أكثر من غيره • ولا أشك في أنه مات على يهوديته ، التي حرق من أجلها دعوة المسيح عليه السلام • ولعل ما أذكره الآن يصلح دليلا على الحكم عليه :

في اليوم (١) الثالث عشر من يناير سنة ألف وأربعمائة وتسع وثمانين من الميلاد كتب شخص يهودى اسمه « شامور » حاخام (حكيم) يهود مدينة « ارل » بفرنسا • الى المجمع اليهودى العالمى في « اسطنبول » يستشيرهم حول بعض الحالات الحرجة قائلا :

ان الفرنسيين في مدن : « اكس » و « ارل » و « مرسيليا » يتهددون معابدنا • فماذا نعمل ؟

فرد « المجمع اليهودى العالمى » بما نصه :

« أيها الاخوة الأعزاء بموسى •

تلقينا كتابكم ، الذى تطلعوننا فيه ، على ما تقاسونه من الهموم والبلايا ، فكان وقع الخبر علينا شديد الوطأة • اليكم رأى الحاخامين والروانيين :

(١) ورد هذا الخبر في مجلة « الدروس اليهودية » سنة ١٨٨٠ م ، وهي مجلة يمولها اليهودى الثرى « جيمس روتشيلد » - نقلا عن ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ من كتاب « الصهيونية بين تاريخين » - دار العودة - بيروت سنة ١٩٧٢ م (٣٢ - الاعلام)

تقولون : ان ملك فرنسا يجبركم على اعتناق الديانة المسيحية فاعتنقوها ، لأنه ليس بوسعكم أن تقاوموا • لكن يجب عليكم أن تبقوا شريعة موسى ، راسخة في قلوبكم • وتقولون : انهم يأمرؤنكم بالتجرد من ممتلكاتكم ، فاجعلوا أولادكم تجارا ليتمكنوا رويدا رويدا من تجريد المسيحيين من أملاكهم • وتقولون : انهم يعتدون على حياتكم ، فاجعلوا أولادكم أطباء وصيادلة ليعدموا المسيحيين حياتهم • وتقولون : انهم يهدمون معابدكم ، فاجعلوا أولادكم كهنة واكليريكيين ، ليهدموا كنائسهم • وتقولون : انهم يسومونكم تعديات أخرى كثيرة • فاجعلوا أولادكم وكلاء دعاوى وكتاب عدل ليتدخلوا دوما في القضايا الحكومية ، ويخضعوا المسيحيين لنيركم ، فتستولون على زمام السلطة العالية • وبذلك يتسنى لكم الانتقام • سيروا بموجب أمرنا هذا • فنتعلموا بالاختبار أنكم من مذلتكم وضعتكم تتوصلون الى ذروة القوة والمظمة •

٢١ كاسلو (ت ٢) ١٤٨٩

أمير اليهود « أ • هـ



وضح لنا أن مبادئ النصرانية : مبدأين اثنين ، ثم وضحت لنا عالمية دعوتهم • وكل ما كتبناه الزاما لهم أثبتناه من كتب النصارى أنفسهم • وقد حاولت تبسيط الأساليب عن المعانى ليفهم المتعلم كما يفهم العالم • وانى على يقين من أن الآتين من بعدى سيكونون أقوى منى على الإيضاح والبيان • فقد وضعت لهم ما يتكلمون فيه • والله ولى التوفيق •

د • أحمد حجازى السقا

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم - بقلم الدكتور الشيخ أحمد حجازي السقا	٣٨ - ٥
البحث الأول - أصل الأتانيم وتطورها - مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ميلادية . مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ ميلادية . مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ ميلادية . مجمع أفسس الثاني سنة ٤٤٩ ميلادية . مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ميلادية .	١١
البحث الثاني - المسيح المنتظر	٢٩

* * *

الجزء الأول

مقدمة المؤلف	٤٣
صدر الكتاب : فصل في حكاية كلام السائل في خطبة كتابه	٥٤ - ٤٧

الباب الأول : في بيان مذاهبهم في الأتانيم

وابطال قولهم فيها

(٥٥ - ٨٨)

الفصل الأول - الأتانيم أسماء أفعال	٥٧
الفصل الثاني - أتانيم : القدرة والعلم والحياة	٦٣
الفصل الثالث - تعليل التثليث	٧١
الفصل الرابع - دليل التثليث	٧٧
الفصل الخامس - في بيان اختلافهم في الأتانيم	٧٩

الباب الثاني : في بيان مذاهبهم في الاتحاد

والحلول وابطال قولهم فيهما

(١٥٧ — ٨٩)

٩١	• • • • •	الفصل الأول - اتحاد الكلمة
٩٧	• • • • •	الفصل الثاني - معنى الاتحاد
١٠٥	• • • • •	الفصل الثالث - الواسطة بين الله وبين موسى
١١٥	• • • • •	الفصل الرابع - تجسد الواسطة
١٢٧	• • • • •	الفصل الخامس - في حكاية كلام المتقدمين
		الفصل السادس - في حكاية مذهب « أغشتين » اذ هو زعيم
١٤٣	• • • • •	القسيسين

الجزء الثاني

الباب الثالث : في النبوات وذكر كلامهم

(٢٥٨ — ١٦١)

١٦٣	• • • • •	القسم الأول : في كلام السائل وذكر الجواب عليه
١٦٣	• • • • •	الفصل الأول : احتجاج أصحاب الملل
١٧٧	• • • • •	الفصل الثاني : المسيح المنتظر
١٨١	• • • • •	الفصل الثالث : المسيح عيسى ابن مريم
١٨٨	• • • • •	فصل في بيان بعض ما طرأ في التوراة من الخلل وأنها لم تنقل نقلاً متواتراً فتسلم لأجله من الخطأ والزلل
٢٠٣	• • • • •	فصل في بيان أن الانجيل ليس بمتواتر وبيان بعض ما وقع فيه من الخلل
٢١٥	• • • • •	الفصل الرابع : هاجر أم اسماعيل الذبيح

الموضوع	الصفحة
القسم الثانى : فى النبوات واثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم	
المقدمة الاولى	٢٢٧
المقدمة الثانية	٢٤١

* * *

الجزء الثالث

أنواع القسم الثانى فى اثبات نبوة نبينا محمد

عليه الصلاة والسلام

(٣٦١ — ٣٨٧)

— النوع الأول : من الأدلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم :	
اخبار الأنبياء به قبله	٢٦٣
— النوع الثانى : الاستدلال على نبوته بقرائن أحواله صلى الله عليه وسلم	٢٨١
خاتمة جامعة فى صفاته وشواهد صدقه وعلاماته	٣١٥
— النوع الثالث : الاستدلال على نبوته صلى الله عليه وسلم بالكتاب العزيز الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه	
تنزيل من حكيم حميد	٣٢٣
الوجه الأول : من وجوه اعجاز القرآن : مباينة لسان العرب للسان غيرهم	٣٢٩
الوجه الثانى : نظمه العجيب وأسلوبه الغريب	٣٣٣
الوجه الثالث : ما تضمنه من الاخبار بالمعجزات	٣٣٧
الوجه الرابع : ما تضمنه من الأخبار عن الأمم السابقة	٣٤٣
— النوع الرابع فى الاستدلال على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم	
بجملة من الآيات الخارقة للعادة	٣٤٨
الفصل الاول : فى انشقاق القمر	٣٤٨
الفصل الثانى : فى حبس الشمس آية له صلى الله عليه وسلم	٣٥٠

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : نبع الماء وتكثيره	٣٥١
الفصل الرابع : تكثير الطعام	٣٥٤
الفصل الخامس : في كلام الشجر ، وكثير من الجمادات وشهادتها له بالنبوة	٣٥٦
الفصل السادس : في كلام ضروب من الحيوان وتسخيرهم	٣٥٩
الفصل السابع : في احياء الموتى ، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة	٣٦٣
الفصل الثامن : في ابراء المرضى وذوى العاهات	٣٦٥
الفصل التاسع : في اجابة دعائه صلى الله عليه وسلم	٣٦٧
الفصل العاشر : في ذكر جمل من بركاته ومعجزاته	٣٧٠
الفصل الحادى عشر : في ما أخبر به مما أطلعه الله من الغيب	٣٧٣
الفصل الثانى عشر : في عصمة الله له ممن أراد كيدته	٣٧٥
الفصل الثالث عشر : في ما ظهر على أصحابه والتابعين لهم من الكرامات الخارقة للعادات	٣٨١



الجزء الرابع

الباب الرابع : في بيان أن النصارى متحكمون في أديانهم

(٣٨٩ — ٤٥٨)

الفصل الاول : ليست النصارى على شىء	٣٩٣
الفصل الثانى : خروج النصارى على تعاليم التوراة والانجيل	٣٩٦
الفن الاول : شعائر الدين النصرانى وطقوسه	٤٠٢
— مسألة في المعمودية	٤٠٣
— مسألة في غفران الاساقفة والقسيسين ذنوب المذنبين واختراعهم الكفارة للعاصين	٤٠٥

الموضوع	الصفحة
— مسألة في الصلوية وقولهم فيها	٤١٠
— مسألة في تركهم الختان	٤٢٠
— مسألة في صيامهم	٤٢٢
— مسألة في اعيادهم الحسنة	٤٢٤
— مسألة في قربانهم	٤٢٧
— مسألة في تقديسهم دورهم وبيوتهم بالمح	٤٣٠
— مسألة في تصليبهم على وجوههم في صلاتهم	٤٣٠
— مسألة في قولهم في النعيم والعذاب الأخرين	٤٣٢
الفن الثاني : محاسن دين الاسلام	٤٣٨
— الغرض من هذا الفن	٤٣٨
الفصل الأول : اعتقاد المسلمين	٤٤٠
الفصل الثاني : دفاع عن الاسلام	٤٤٧

ملحق :

المبحث الثالث

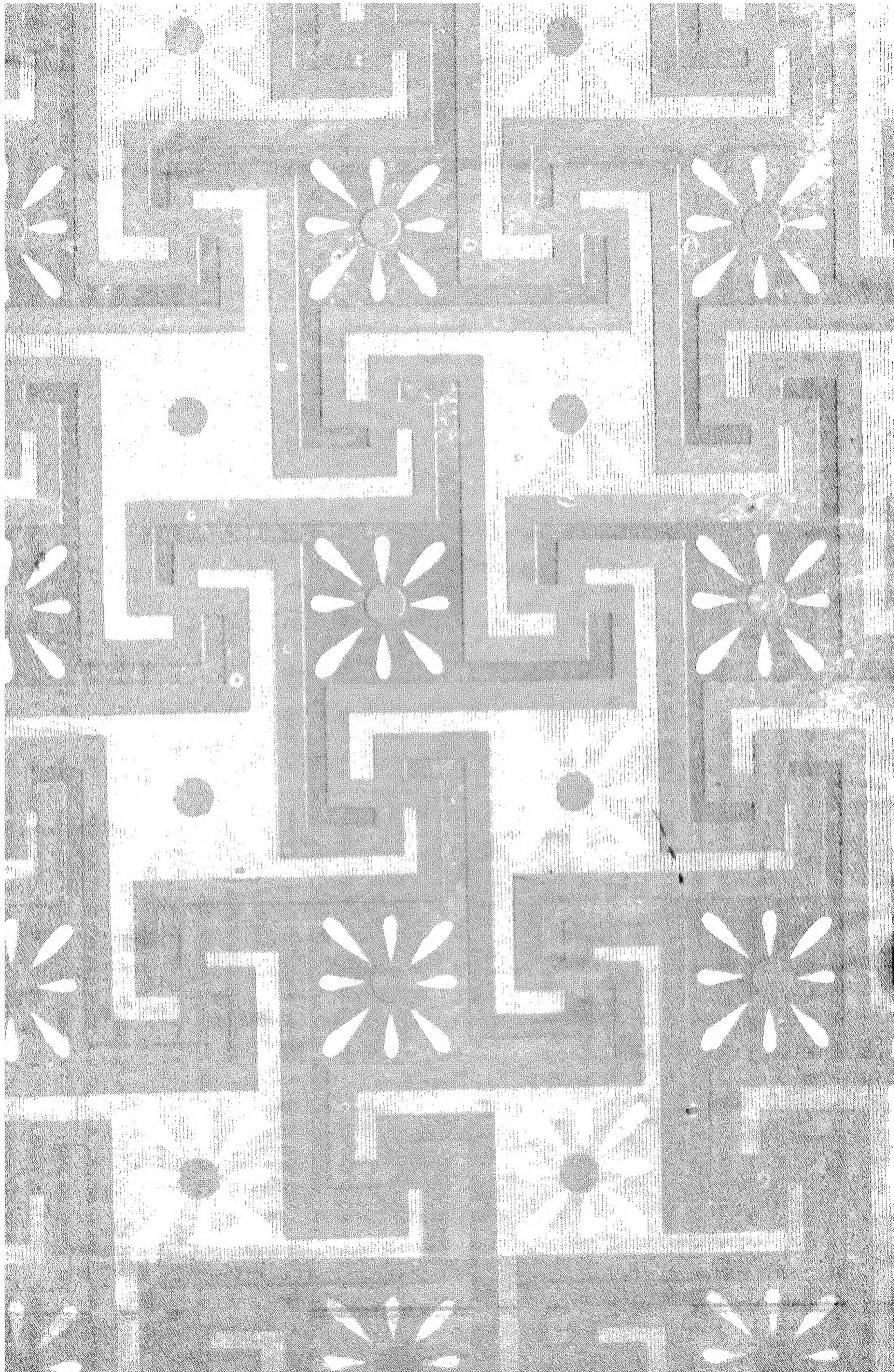
(٤٦٠ — ٤٩٨)

مبادئ النصرانية	٤٦٠
عظمة الملة النصرانية	٤٨٥
محتويات الكتاب	٤٩٩

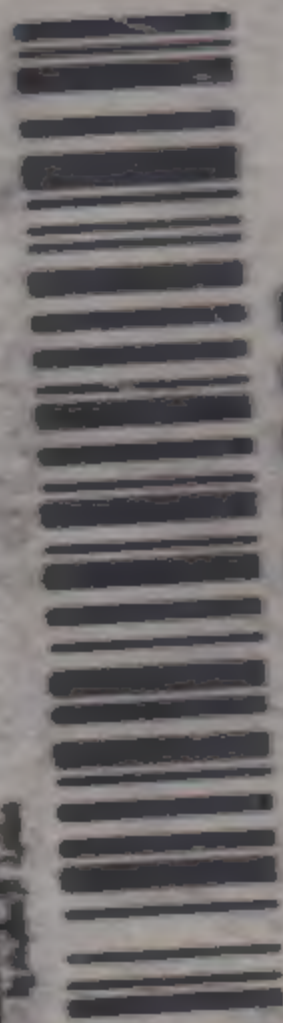
رقم الايداع : ٣١٦٨ / ١٩٨٠
الترقيم الدولى : ١٢٠٢ - ٧٢٦٨ - ٩٧٧

مطابع دار التراث العربى
ت ٩٣٦١٤٥ - القاهرة





Biblioteca Alexandrina



0356882